(٢/٣٩) صفحات من تاريخ مصر

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف

بالخطط المقريزية

الجزء الثانى

تأليف

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

تحقيق

د. محمد زينهم - مديحة الشرقاوى

مكتبة مدبولى

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

المعروف

بالخطط المقريزية

الكتاب : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
الكاتب : تقى الدين أحمد بن على المقريزى
تحقيق : د. محمد زينهم - مديحة الشرقاوى
راجعه وضبط هوامشه : أحمد أحمد زيادة
الناشر : مكتبة مدبولى ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
الطبعة الأولى لمكتبة مدبولى
رقم الإيداع : ١٠٣٦٥ لسنة ١٩٩٧
ISBN: 977-208-228-4
الجمع التصويرى : مكتب زهران للتجهيزات الفنية
تليفون : ٣٤١٧٣٣٧ - ٤٣٢٠١٧٧
فاكس : ٣٤١٧٣٣٧
تم الطبع بمطابع دار الأمين - القاهرة
تليفون : ٥٩٣٢٧٠٦ - ٣٤٧٣٦٩١

ذكر ما قيل فى مدينة فسطاط مصر

قال ابن رضوان[١] : والمدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء : الفسطاط والقاهرة والجزيرة والجيزة ، وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة ، والجبل المقطم فى شرقها وبينها وبينه مقابر المدينة ، وقد قالت الأطباء : إن أردأ المواضع ما كان الجبل فى شرقيه يعوق ريح الصبا عنه ، وأعظم أجزائها هو الفسطاط ، ويلى الفسطاط من الغرب النيل وعلى شط النيل الغربى أشجار طوال وقصار ، وأعظم أجزاء الفسطاط موضع فى غور ، فإنه يعلوه من المشرق المقطم ومن الجنوب الشرف ، ومن الشمال الموضع العالى من عمل فوق - أعنى الموقف والعسكر[٢] وجامع بن طولون . ومتى نظرت إلى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال رأيت وضعها فى غور وقد بين أبقراط أن المواضع المتسفلة أسخن من المواضع المرتفعة وأردأ هواء لاحتقان البخار فيها ، ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية ، وقد قال روفس : إذا دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء فاهرب منها لأنها وبيئة - أراد أن البخار لا ينحل منها كما كان ينبغى لضيق الأزقة وارتفاع البناء ، ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت فى دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذى يخالط الناس فى شوارعهم وأزقتهم فتعفن وتخالط عفونتها الهواء ، ومن شأنهم أيضا أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها وخرارات كنفهم تصب فيه وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء . وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط ، وهى أيضا كثيرة الغبار لسخانة أرضها حتى أنك ترى الهواء فى أيام الصيف كدرا يأخذ بالنفس ويتسخ الثوب النظيف فى

---

(١) هو على بـن رضوان بن على بن جعفر أبو الحسن طبيب رياضي من العلماء من أهل مصر ، مات سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م انظر : النجوم الزاهرة ٥ /٩٦ ، طبقات الأطباء ٢ /٩٩-١٠٥ .

(٢) يطلق عليها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان ٦ /١٧٦ عسكر مصر ، وهى خطه بها سميت بذلك لأن عسكر صالح بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى وأبى عون عبد الملك بن يزيد مولى هناءة نزلا هناك فى سنة ١٣٣ هـ فسمى المكان بالعسكر .

اليوم الواحد، وإذا مر الإنسان فى حاجة لم يرجع إلا وقد اجتمع فى وجهه ولحيته غبار كثيرا ويعلوها فى العشيات خاصة فى أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر لاسيما إذا كان الهواء سليما من الرياح وإذا كانت هذه الأشياء كما وصفنا فمن البين أنه يصير الروح الحيوانى الذى فيها حاله كهذه الحال، فيتولد إذا فى البدن من هذه الأعراض فضول كثيرة واستعدادات نحو العفن، إلا أن إلف أهل الفسطاط لهذه الحال وأنسهم بها يعوق عنهم أكثر شرها، وإن كانوا على كل حال أسرع أهل مصر وقوعا فى الأمراض وما يلى النيل من الفسطاط يجب أن يكون أرطب مما يلى الصحراء وأهل الشرق أصلح حالا لتخرق الرياح لدورهم وكذلك عمل فوق والحمراء إلا أن أهل الشرف الذى يشربونه أجود. لأنه يستقى قبل أن تخالطه عفونة الفسطاط، فأما القرافة فأجود هذه المواضع لأن المقطم يعوق بخار الفسطاط من المرور بها. وإذا هبت ريح الشمال مرت بأجزاء كثيرة من بخار الفسطاط والقاهرة على الشرف فغيرت حاله، وظاهر أن المواضع المكشوفة بهذه المدينة هى أصح هواء وكذلك حال المواضع المرتفعة، وأردأ موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل والسواحل. وإذا كان فى الشتاء وأول الربيع حمل من بحر الملح سمك كثير فيصل إلى هذه المدينة وقد عفن وصارت له رائحة منكرة جدا فيباع فى القاهرة ويأكله أهلها وأهل الفسطاط، فيجتمع فى أبدانهم منه فضول كثيرة عفنة، فلولا اعتدال أمزجتهم وصحة أبدانهم فى هذا الزمان لكان ذلك يولد فى أبدانهم أمراضا كثيرة قاتلة إلا أن قوة الاستمرار تعوق عن ذلك، وربما انقطع النيل فى آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط فيعفن بكثرة ما يلقى فيه إلى أن يبلغ عفنه إلى أن تصير له رائحة منكرة محسوسة، وظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحال غير مزاج الناس تغيرا محسوسا. قال فمن البين أن أهل هذه المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض- ما خلا أهل الفيوم فإنها أيضا قريبة. وأردأ ما فى المدينة الموضع الغائر من الفسطاط ولذلك غلب على أهلها الجبن وقلة الكرم، وأنه ليس أحد منهم يغيث ولا يضيف الغريب إلا فى النادر وصاروا من السعاية والاغتياب على أمر عظيم ولقد بلغ بهم الجبن إلى أن خمسة أعوان تسوق منهم مائة رجل وأكثر ويسوق

الأعوان المذكورين رجل واحد من أهل البلدان الأخر ، وممن قد تدرب فى الحرب فقد استبان إذا العلة والسبب فى أن صار أهل المدينة الكبرى بأرض مصر أسرع وقوعا فى الأمراض من جميع أهل هذه الأرض وأضعف أنفسا ولعل لهذا السبب اختار القدماء اتخاذ المدينة فى غير هذا الموضع فمنهم من جعلها بمنف وهى مصر القديمة ، ومنهم من جعلها بالاسكندرية ومنهم من جعلها بغير هذه المواضع ويدل على ذلك آثارهم ، وقال بن سعيد عن كتاب الكمائم : وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وعليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب إليه . ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ونسبت المدينة إليه فقيل فسطاط عمرو وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سريرا للسلطنة وتضاعفت عمارتها فأقبل الناس من كل جانب إليها وقصروا أمانيهم عليها إلى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنوا إلى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع ، وبها كان مسجد بن طولون الذى هو الآن إلى جانب القاهرة ، وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ولها متنزهات وهى فى الاقليم الثالث ولا ينزل فيها مطر إلا فى النادر وترابها تثيره الأرجل وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها . ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط فى الاغتباط بها بعد الإفراط ، وبينهما نحو ميلين وأنشد فيها الشريف العقيلى :

أحن إلى الفسطاط شوقا وإننى
لأدعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها
وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها
ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب آخر فالفسطاط هى قصبة مصر والجبل المقطم شرقها، وهو متصل بجبل الزمرد، وقال عن كتاب ابن حوقل والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهى كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات على ممر الأيام خضرة. وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب إليها كالبصرة والكوفة إلا أنها أقل من ذلك وهى سبخة الأرض غير نقية التربة وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمسا وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم بالطوب وأسفل دورهم غير مسكون وبها مسجدان للجمعة بنى أحدهما عمرو بن العاص في وسط الفسطاط والآخر على الموقف بناه أحمد بن طولون، وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا فى ميل يسكنها جنده تعرف بالقطائع كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان وقادة وقد خربتا فى وقتنا هذا وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة. . قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوقت إلى معاينة الفسطاط فسار معى أحد أصحاب العزمة فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير إلى الفسطاط حملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد فركب منها حمارا وأشار إلى أن أركب حمارا آخر فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب فأعلمنى أنه غير معيب على أعيان مصر وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والسادة الظاهرة يركبونها فركبت وعندما استويت راكبا أشار المكارى على الحمار فطار بى وأثار من الغبار الأسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعاينت ما كرهته ولقلة معرفتى بزكوب الحمار وشدة عدوه على قانون. . أعهده وقلة رفق المكارى وقفت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاع فقلت :

لقيت بمصر أشـــد البوار

ركوب الحمـار وكحل الغبار

وخلفى مكار يفوق الرياح

لايعرف الرفق بهمى استطار

أناديه مهـلا فلا يرعـوى

إلى أن سجدت سجود العثار

وقد مد فوقى رواق الثرى

وألحـد فيـه ضـياء النهار

فـدفـعت إلى المكارى أجـرته وقلت له إحسـانك إلى أن تتـركنى أمـشى على رجلى، ومشيت إلى أن بلغتها، وقدرت الطريق بين القاهرة والفسطاط وحققت بعد ذلك نحو الميلين، ولما اقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الطريف فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال إلى أن سرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها بحوائج السوق والروايا التى على الجمال ما لا يفى به إلا مشاهدته ومقاساته، إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع، فعاينت من ضيق الأسواق التى حوله ماذكرت به ضده فى جامع اشبيلية وجامع مراكش ثم دخلت إليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتبسط فيه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب إلى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك والناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منهم رزقا وفضلات مأكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه، والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان، والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جامع إشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه

ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أنه سر مودع من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم فى ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقة والنحو فى عدة أماكن وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن اقتضاءها يصعب إلا بالجاه والتعب ثم انفصلنا من هنالك إلى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض، إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق والتى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل، ولئن قلت إنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقا والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت إلى جهة الفسطاط وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل وقد ذكر بن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط إلى الجزيرة وهو غير طويل ومن الجانب الآخر إلى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان، ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الجزيرة والفسطاط راكبا احتراما لموضع السلطان، وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل فقلت:

نزلنا من الفسطاط أحسن منزل
بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة
كسرب قطا أضحى يزف على ورد
وأصبح يطغى الموج فيه ويرتمى
ويطغو حنانا وهو يلعب بالنرد
غدا ماؤه كالريق ممن أحبه
فمدت عليه حلية من حلى الخد
وقد كان مثل الزهر من قبل مده
فأصبح لما زاده المد كلازورد

قلت هذا لأنى لم أذق فى المياه أحلى من مائه، وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على أقطاره أبيض فإذا كان عباب النيل صار أحمر، وأنشدنى علم الدين فخر الترك ايد مر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط وأهلها:

حبذا الفسـطاط من والدة

جنبت أولادها در الجفـا

يرد النيـل إليهـا كدرا

فإذا مازج أهلها صفـا

لطفـوا فالمزن لا يألفهم

خجـلا لما رآهم ألطفا

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى أنهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين. وجملة الحال أن أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام، وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة برعاية قدم الصحبة وكثرة الممازجة والألفة ما يطول ذكره وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والخراب فى الفسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة بسبب انتقال السلطان إليها وسكنى الأجناد فيها وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر. يعنى بن سعيد ما بنى على شقة مصر من جهة النيل

ذكر ما عليه مدينة مصر الآن وصفتها

قد تقدم من الأخبار جملة تدل على عظم ما كان بمدينة فسطاط مصر من المبانى وكثرتها، ثم الأسباب التى أوجبت خرابها وآخر ما رأيت من الكتب التى صنفت فى خطط مصر كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل تأليف القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى رحمه اللّه وقطع على سنة خمس وعشرين وسبعمائة فذكر من الأخطاط المشهورة بذاتها لعهده اثنين وخمسين خطا ومن الحارات ثنتى عشرة حارة، ومن الأزقة المشهورة ستة وثمانين زقاقا، ومن الدروب المشهورة ثلاثة وخمسين دربا ومن الخوخ المشهورة خمسا وعشرين خوخة ومن الأسواق المشهورة تسعة عشر سوقا ومن الخطط المشهورة بالدور ثلاثة عشر خطا ومن الرحاب المشهورة خمس عشرة رحبة ومن العقبات المشهورة إحدى عشرة عقبة ومن الكيمان المسماة ستة كيمان ومن الاقباء عشرة أقباء ومن البرك خمس برك ومن السقائف خمسا وستين سقيفة ومن القياسر سبع قياسر ومن مطابخ السكر العامرة ستة وستين مطبخا ومن الشوارع ستة شوارع ومن المحارس عشرين محرسا ومن الجوامع التى تقام فيها الجمعة بمصر وظاهرها من الجزيرة والقرافة أربعة عشر جامعا ومن المساجد أربعمائة وثمانين مسجدا ومن المدارس سبع عشرة مدرسة ومن الزوايا ثمانى زوايا ومن الربط التى بمصر والقرافة بضعا وأربعين رباطا ومن الحباس والأوقاف كثيرا ومن الحمامات بضعا وسبعين حماما ومن الكنائس وديارات النصارى ثلاثين ما بين دير وكنيسة وقد باد أكثر ماذكره ودثر وسيرد ما قاله من ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى فأقول إن مدينة مصر محدودة الآن بحدود أربعة، فحدها الشرقى اليوم من قلة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوخ الجارح وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى إلى الرصد حيث أول بركه الحبش فهذا طول مصر من جهة المشرق وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق، وحدها الغربى من قناطر السباع خارج القاهرة إلى موردة الحلفاء، وتأخذ على شاطىء النيل إلى دير الطين فهذا أيضا طولها من جهة المغرب، وحدها القبلى

من شاطىء النيل بدير الطين حيث ينتهى الحد الغربى إلى بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقى فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التى تسميها أهل مصر الجهة القبلية، وحدها البحرى من قناطر السباع حيث ابتداء الحد الغربى إلى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقى فهذا عرض مصر من جهة الشمال التى تعرف بمصر بالجهة البحرية وما بين هذه الجهات الأربع، فإنه يطلق عليه الآن مصر فيكون أول عرض مصر فى الغرب بحر النيل وآخر عرضها فى الشرق أول القرافة وأول طولها من قناطر السباع وآخره بركة الحبش فإذا عرفت ذلك ففى الجهة الغربية خط السبع سقايات ويجاوره الخليج وعليه من شرقيه حكر أقبغا ومن غربيه المريس ومنشأة المهرانى ويحاذى المنشأة من شرقى الخليج خط قنطرة السد، وخط بين الزقاقين، وخط موردة الحلفاء وخط الجامع الجديد ومن شرقى خط الجامع الجديد خط المراغة ويتصل به خط الكبارة وخط المعاريج ويجاور خط الجامع الجديد من بحريه الدور التى تطل على النيل وهى متصلة إلى جسر الأفرم المتصل بدير الطين وما جاوره إلى بركة الحبش وهذه الجهة هى أعمر ما فى مصر الآن وأما الجهة الشرقية فليس فيها شىء عامر إلا قلعة الجبل وخط المراغة المجاورة لباب القرافة إلى مشهد السيدة نفيسة ويجاور خط مشهد السيدة نفيسة من قبليه الفضاء الذى كان موضع الموقف والعسكر إلى كوم الجارح ثم خط كوم الجارح وما بين كوم الجارح إلى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش تحت الرصد فإنه كيمان، وهى الخطط التى ذكرها القضاعى وخربت فى الشدة العظمى زمن المستنصر وعند حريق شاور لمصر كما تقدم وأما عرض مصر الذى من قناطر السباع إلى القلعة فإنه عامر ويشتمل على بركة الفيل الصغرى بجوار خط السبع سقايات ويجاور الدور الذى على هذه البركة من شرقيها خط الكبش ثم خط جامع أحمد بن طولون ثم خط القبيبات وينتهى إلى الفضاء الذى يتصل بقلعة الجبل وأما عرض مصر الذى من شاطىء النيل بخط دير الطين إلى تحت الرصد حيث بركة الحبش فليس فيه عمارة سوى خط دير الطين وماعدا ذلك فقد خرب بخراب الخطط وكان فيه خط بنى وائل وخط راشدة فأما خط السبع سقايات فإنه من جملة الحمراء الدنيا وسيرد عند ذكر الاخطاط إن شاء الله وما عدا ذلك فقد خرب بخراب الخطط وكان فيه خط بنى وائل وخط راشدة فأما خط

السبع سقايات فإنه من جملة الحمراء الدنيا، وسيرد عند ذكر الأخطاط إن شاء الله تعالى وما عدا ذلك فإنه يتبين من ذكر ساحل مصر .

ذكر ساحل النيل بمدينة مصر

قد تقدم أن مدينة فسطاط مصر اختطها المسلمون حول جامع عمرو بن العاص وقصر الشمع وأن بحر النيل كان ينتهى إلى باب قصر الشمع الغربى المعروف بالباب الجديد ، ولم يكن عند فتح أرض مصر بين جامع عمرو وبين النيل حائل ثم انحصر ماء النيل عن أرض تجاه الجامع وقصر الشمع فابتنى فيها عبد العزيز بن مروان وحاز منه بشر بن مروان لما قدم على أخيه عبد العزيز ثم حاز منه هشام بن عبد الملك فى خلافته ، وبنى فيه فلما زالت دولة بنى أمية قبض ذلك فى الصوافى ثم أقطعه الرشيد السرى بن الحكم فصار فى يد ورثته من بعد يكترونه ويأخذون حكره ، وذلك أنه كان قد اختط فيها المسلمون شيئا بعد شىء وصار شاطىء النيل بعد انحسار ماء النيل عن الأرض المذكورة حيث الموضع الذى يعرف اليوم بسوق المعاريج .

قال القضاعى كان ساحل أسفل الأرض بإزاء المعاريج القديم وكانت آثار المعاريج قائمة سبع درج حول ساحل البيما إلى ساحل البورى اليوم فعرف ساحل البورى بالمعاريج الجديد يعنى بالمعاريج الجديد موضع سوق المعاريج اليوم ، وكان من جملة خطط مدينة فسطاط مصر الحمراوات الثلاث فالحمراء الأولى من جملتها سوق وردان وكان يشرف بغربيه على النيل وبجاوره الحمراء الوسطى ، ومن بعضها الموضع الذى يعرف اليوم بالكبارة وكانت على النيل أيضا وبجانب الكباراة الحمراء القصوى وهى من بحرى الحمراء الوسطى إلى الموضع الذى هو اليوم خط قناطر السباع ومن جملة الحمراء القصوى خط خليج مصر من حد قناطر السباع إلى تجاه قنطرة السد من شرقيها ويآخر الحمراء القصوى الكبش وجبل يشكر ، وكان الكبش يشرف على النيل من غربيه وكان الساحل القديم فيما

بين سوق المعاريج اليوم إلى دار التفاح بمصر وأنت مار إلى باب مصر بجوار الكبارة وموضع الكوم المجاور لباب مصر من شرقيه فلما خربت مصر بحريق شاور بن مجير اياها صار هذا الكوم من حينئذ، وعرف بكوم المشانيق ، فإنه كان يشنق باعلاه أرباب الجرائم ، ثم بنى فوقه دوراً فعرف إلى يومنا هذا بكوم الكبارة وكان يقال لما بين سوق المعرايج، وهذا الكوم لما كان ساحل النيل القالوص .

قال القضاعى رأيت بخط جماعة من العلماء القالوص بألف والذى يكتب فى هذا الزمان القلوص بحذف الألف فأما القلوص بحذف الألف، فهى من الابل والنعام الشابة وجمعها قلص وقلاص وقلائص، والقلوص من الحبارى الانثى الصغيرة فلعل هذا المكان سمى بالقلوص لأنه فى مقابلة الجمل الذى كان على باب الريحان الذى يأتى ذكره فى عجائب مصر وأما القالوص بالألف فهى كلمة رومية ومعناها بالعربية مرحبا بك ولعل الروم كانوا يصفقون لراكب هذا الجمل ويقولن هذه الكلمة على عادتهم .

وقال ابن المتوج والساحل القديم أوله من باب مصر المذكور يعنى المجاور للكبارة وإلى المعاريج جميعه كان بحرا يجرى فيه ماء النيل يعنى وقيل إن سوق المعاريج كان موردة سوق السمك يعنى ما ذكره القضاعى من أنه كان يعرف بساحل البورى ثم عرف بالمعاريج الجديد قال ابن المتوج ونقل أن بستان الجرف المقابل لبستان حوض ابن كيسان كان صناعة العمارة، وأدركت أنا فيه بابها ورأيت زريبة من ركب المسجد المجاور للحوض من غربيه تتصل إلى قبالة مسجد العادل الذى بمراغة الدواب الآن .

«قال مؤلفه رحمه الله» : بستان الجرف يعرف بذلك إلى اليوم، وهو على يمنة من سلك إلى مصر من طريق المراغة وهو جار فى وقف الخانقاه التى تعرف بالواصلة بين الزقاقين وحوض بن كيسان يعرف اليوم بحوض الطواشى تجاه غيط الجرف المذكور يجاوره بستان بن كيسان الذى صار صناعة، وقد ذكر خبر هذه الصناعة عند ذكر مناظر الخلفاء ويعرف بستان بن كيسان اليوم ببستان الطواشىء أيضا وبين بستان الجرف وبستان الطواشى هذا مراغة مصر المسلوك منها إلى الكبارة وباب مصر .

قال بن المتوج : ورأيت من نقل عمن نقل عمن رأى هذا القلوص يتصل إلى آدر الساحل القديم وأنه شاهد ماعليه من العمائر المطلة على بحر النيل من الرباع والدور المطلة وعد الاسطال التى كانت بالطاقات المطلة على بحر النيل فكانت عدتها ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر مؤبد فيها أطناب ترخى بها وتملأ، أخبرنى بذلك من أثق بنقله وقال إنه أخبره به من يثق به متصلا بالمشاهد له الموثوق به، قال وباب مصر الآن بين البستان الذى قبلى الجامع الجديد يعنى بستان العالمة وبين كوم المشانيق يعنى كوم الكباراة ورأيت السور يتصل به إلى دار النحاس وجميع ما بظاهره شون ولم يزل هذا السور القديم الذى هو قبلى بستان العالمة موجودا أراه وأعرفه إلى أن اشترى أرضه من باب مصر إلى موقف المكارية بالخشابين القديمة الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى فأجر مكانه للعامة وصار كل من استأجر قطعة هدم ما بها من البناء بالطوب اللبن وقلع الأساس الحجر وبنى به فزال السور لماكور ثم حدث الساحل الجديد.

قال مؤلفه رحمه الله وهذا الباب الذى ذكره بن المتوج كان يقال له باب الساحل، وأول حفر ساحل مصر فى سنة ست وثلاثين وثلاثمائة وذلك أنه جف النيل عن بر مصر حتى احتاج أن يستقوا من بحر الجيزة الذى هو فيما بين جزيرة مصر التى تدعى الآن بالروضة وبين الجيزة وصار الناس يمشون هم والدواب إلى الجزيرة فحفر الأستاذ كافور الإخشيدى وهو يومئذ مقدم أمراء الدولة اونوجور بن الإخشيد خليجا حتى اتصل بخليج بنى وائل ودخل الماء إلى ساحل مصر ثم إنه لما كان قبل سنة ستمائة تقلص الماء عن ساحل مصر القديمة وصار فى زمن الاحتراق يقل حتى تصير الطريق إلى المقياس. يبسا فلما كان فى سنة ثمان وعشرين وستمائة خاف السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من تباعد البحر عن العمران بمصر فأهم بحفر البحر من دار الوكالة بمصر إلى صناعة التمر الفاضلية وعمل فيه بنفسه فوافقه على العمل فى ذلك الجم الغفير، واستوى فى المساعدة السوقة والأمير وقسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس فاستمر العمل فيه من مستهل شعبان إلى سلخ شوال مدة ثلاثة أشهر حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائما بعدما كان عند الزيادة يصير جدولا رقيقا فى ذيل الروضة

فإذا اتصل ببحر بولاق فى شهر أبيب كان ذلك من الأيام المشهورة بمصر فلما كانت أيام الملك الصالح وعمر قلعة الروضة أراد أن يكون الماء طول السنة كثيرا فيما دار بالروضة فأخذ فى الاهتمام بذلك وغرق عدة مراكب مملوءة بالحجارة فى بر الجيزة تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر ومن قبلى جزيرة الروضة فانعكس الماء وجعل البحر حينئذ يمر قليلا قليلا وتكاثر أولا فأولا فى بر مصر من دارالملك إلى قريب المقس وقطع المنشأة الفاضلية.

قال ابن المتوج، عن موضع الجامع الجديد وكان فى الدولة الصالحية يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب رملة تمرغ الناس فيها الدواب فى زمن احتراق النيل وجفاف البحر الذى هو أمامها فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة وصار فى كل سنة يحفر هذا البحر بجنده ونفسه ويطرح بعض رمله فى هذه البقعة شرع خواص السلطان فى العمارة على شاطىء هذا البحر فذكر من عمر على هذا البحر من قبالة موضع الجامع الجديد الآن إلى المدرسة المعزية وذكر ما وراء هذه الدور من بستان العالمة المطل عليه الجامع الجديد وغيره، ثم قال وإنما عرف بالعالمة لأنه كان قد حله السلطان الملك الصالح لهذه العالمة فعمرت بجانبه منظرة لها وكان الماء يدخل من النيل لباب المنظرة المذكورة فلما توفيت بقى البستان مدة فى يد ورثتها ثم أخذ منهم وذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبل عمارته شونا للاتبان السلطانية، وكذلك ما يجاورها فلما عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون الجامع الجديد كثرت العمائر من حد موردة الحلفاء على شاطىء النيل حتى اتصلت بدير الطين، وعمر أيضا ما وراء الجامع من حد باب مصر الذى كان بحرا كما تقدم إلى حد قنطرة السد وأدركنا ذلك كله على غاية العمارة وقد اختل منذ الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فخرب خط بين الزقاقين المطل من غربيه على الخليج ومن شرقيه على بستان الجرف ولم يبق به إلا قليل من الدور وموضعه كما تقدم كان فى قديم الزمان غامرا بماء النيل ثم ربى جرفا وهو بين الزقاقين المذكورين فعمر عمارة كبيرة ثم خرب الآن وخرب أيضا خط موردة الحلفاء وكان فى القديم غامرا بالماء فلما ربى النيل الجرف المذكور وتربت الجزيرة قدام الساحل القديم الذى هو الآن الكبارة إلى المعاريج وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاون الجامع الجديد عمرت موردة الحلفاء هذه واتصلت من بحريها بمنشأة المهرانى ومن قبليها بالأملاك

التى تمتد من تجاه الجامع الجديد إلى دير الطين وصارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال وغيرها ويملأ منها الناس الروايا وكان البحر لا يبرح طول السنة هناك ثم صار ينشف فى فصل الربيع والصيف، واستمر على ذلك إلى يومنا هذا وخرب ما خلف الجامع الجديد أيضا من الأماكن التى كانت بحرا تجاه الساحل القديم، ثم لما انحسر الماء صارت مراغة للدواب فعرفت اليوم بالمراغة وهى من آخر خط قنطرة السد إلى قريب من الكبارة ويحصرها من غربيها بستان الجرف المقدم ذكره، وعدة دور كانت بستانا وشونا إلى باب مصر ومن شرقها بستان بن كيسان الذى صار صناعة، وعرف الآن ببستان الطواشى ولم يبق الآن بخط المراغة إلا مساكن يسيرة حقيرة .

ذكر المنشأة

أعلم أن خليج مصر كان يخرج من بحر النيل فيمر بطريق الحمراء القصوى، وكان فى الجانب الغربى من هذا الخليج عدة بساتين من جملتها بستان عرف ببستان الخشاب ثم خرب هذا البستان وموضعه الآن يعرف بالمريس. فلما كان بعد الخمسمائة من سنى الهجرة انحسر النيل عن أرض فيما بين ميدان اللوق الآتى ذكره فى الأحكار ظاهر القاهرة إن شاء الله تعالى، وبين بستان الخشاب المذكور فعرفت هذه الأرض بمنشأة الفاضل لأن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى أنشأ بها بساتا عظيما كان يمير أهل القاهرة من ثماره وأعنابه وعمر بجانبه جامعا وبنى حوله، فقيل لتلك الخطة منشأة الفاضل وكثرت بها العمارة وأنشأ بها موفق الدين محمد بن أبى بكر المهدوى العثمانى الديباجى بستانا دفع له فيه ألف دينار فى أيام الظاهر بيبرس وكان الصرف قد بلغ كل دينار ثمانية وعشرين درهما ونصف فاستولى البحر على بستان الفاضل وجامعه وعلى سائر ماكان بمنشأة الفاضل من البساتين والدور وقطع ذلك حتى لم يبق لشىء منه أثر وما برح باعة العنب بالقاهرة ومصر تنادى على العنب بعد خراب بستان الفاضل هذا عدة سنين «رحم الله الفاضل ياعنب»

إشارة لكثرة أعناب بستان الفاضل وحسنها وكان أكل البحر لمنشأة الفاضل هذه بعد سنة ستين وستمائة وكان الموفق الديباجى المذكور يتولى خطابة جامع الفاضل الذى كان بالمنشأة فلما تلف الجامع باستيلاء النيل عليه سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا، وألح عليه وكان من الزامه حتى قام فى عمارة الجامع بمنشأة المهرانى، ومنشأة المهرانى هذه موضعها فيما بين النيل والخليج، وفيها من الحمراء القصوى فوهة الخليج انحسر عنها ماء النيل قديما وعرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل أنه كان يعمل فيها أقمنة الطوب فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ليقوم مقام الجامع الذى كان بمنشأة الفاضل أجابه إلى ذلك وأنشأ الجامع بخط الكوم الأحمر كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع، فأنشأ هناك الأمير سيف الدين بلبان المهرانى دارا وسكنها وبنى مسجدا فعرفت هذه الخطة به وقيل لها منشأة المهرانى فإن المهرانى المذكور أول من ابتنى فيها بعد بناء الجامع وتتابع الناس فى البناء بمنشأة المهرانى وأكثروا من العمائر حتى الغفير واستوى فى المساعدة السوقة والأمير، وقسط مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة. والمقياس فاستمر العمل فيه من مستهل شعبان إلى سلخ شوال مدة ثلاثة أشهر حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة دائماً بعد ما كان عند الزيادة يصير جدولا رقيقا فى ذيل الروضة، فإذا اتصل ببحر بولاق فى شهر أبيب كان ذلك من الأيام المشهودة بمصر. فلما كانت أيام الملك الصالح وعمر قلعة الروضة أراد أن يكون الماء طول السنة كثيراً فيما دار بالروضة فأخذ فى الاهتمام بذلك وغرق عدة مراكب مملوءة بالحجارة فى بر الجيزة تجاه باب القنطرة خارج مدينة مصر ومن قبلى جزيرة الروضة. فانعكس الماء وجعل البحر حينئذ يمر قليلا قليلا، وتكاثر أولا فأولا فى بر مصر من دار الملك إلي قريب المقس وقطع المنشأة الفاضلية.

قال ابن المتوج عن موضع الجامع الجديد: وكان فى الدولة الصالحية يعنى الملك الصالح نجم الدين أيوب رملة تمرغ الناس فيها الدواب فى زمن احتراق النيل وجفاف البحر الذى هو أمامها. فلما عمر السلطان الملك الصالح قلعة الجزيرة وصار فى كل سنة يحفر هذا البحر بجنده ونفسه ويطرح بعض رمله فى هذه البقعة شرع خواص السلطان فى العمارة

على شاطئ هذا البحر . فذكر من عمر على هذا البحر من قبالة موضع الجامع الجديد الآن إلى المدرسة المعزية ، وذكر ما وراء هذه الدور من بستان العالمة المطل عليه الجامع الجديد وغيره . ثم قال : وإنما عرف بالعالمة لأنه كان قد حله السلطان الملك الصالح لهذه العالمة فعمرت بجانبه منظرة لها ، وكان الماء يدخل من النيل لباب المنظرة المذكورة . فلما توفيت بقى البستان مدة فى يد ورثتها ثم أخذ منهم ، وذكر أن بقعة الجامع الجديد كانت قبل عمارته شونا للأتبان السلطانية ، وكذلك ما يجاورها . فلما عمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع الجديد كثرت العمائر من حد موردة الحلفاء على شاطئ النيل حتى اتصلت بدير الطين ، وعمر ايضاً ما وراء الجامع من حد باب مصر الذى كان بحرا كما تقدم إلى حد قنطرة السد ، وأدركنا ذلك كله على غاية العمارة . وقد اختل منذ الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فخرب خط بين الزقاقين المطل من غربيه على بستان الجرف ، ولم يبق به إلا قليل من الدور . وموضعه كما تقدم كان فى الخليج ومن شرقيه على بستان الجرف ولم يبق به إلا قليل من الدور وموضعه كما تقدم كان فى قديم الزمان غامراً بماء النيل ، ثم ربى جرفا وهو بين الزقاقين المذكور . فعمر عمارة كبيرةثم خرب الآن ، وخرب أيضاً خط موردة الحلفاء وكان فى القديم غامراً بالماء فلما ربى النيل الجرف المذكور ، وتربت الجزيرة قدام الساحل القديم الذى هو الآن الكبارة إلى المعاريج ، وأنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الجامع عمرت موردة الحلفاء هذه واتصلت من بحريها بمنشأة المهرانى ومن قبيلها بالأملاك التى تمتد من تجاه الجامع الجديد إلى دير الطين ، وصارت موردة الحلفاء عظيمة تقف عندها المراكب بالغلال وغيرها ويملأ منها الناس الروايا ، وكان البحر لا يبرح طول السنة هناك ثم صار ينشف فى فصل الربيع

يقال أنه كان بها فوق الاربعين من الامراء الدولة سوى من كان هناك من الوزراء وأماثل الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء عن الجهة الشرقية فخربت وبها الآن بقية يسيرة من الدور ، ويتصل بخط الجامع الجديد خط دار النحاس وهو مطل على النيل .

ودار النحاس هذه من الدور القديمة وقد دثرت وصار الخط يعرف بها . . قال القضاعى دار النحاس اختطها وردان مولى عمرو بن العاص فكتب مسلمة بن مخلد- وهو أمير مصر- إلى معاوية يسأله أن يجعلها ديوانا فكتب معاوية إلى وردان يسأله فيها وعوضه فيها دار وردان التى بسوقه الآن . وقال ربيعة كانت هذه الدار من خطة الحجر من الازد فاشتراها عمر بن مروان وبناها فكانت فى يد ولده وقبضت عنهم وبيعت فى الصوافى سنة ثمان وثلاثمائة ثم صارت إلى شمول الإشخيدى فبناها قيسارية وحماما فصارت دار النحاس قيسارية شمول .

وقال ابن المتوج : دار النحاس خط نسب لدار النحاس وهو الآن فندق الاشراف ذو البابين أحدهما من رحبة أمامة والثانى شارع بالساحل القديم ، وبآخر هذه الشقة التى تطل على النيل «جسر الافرم» وهو فى طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار كان مطلا على النيل دائما والآن ينحسر الماء عنه عند هبوط النيل وعرف بالأمير عز الدين أيدمر الافرم الصالحى النجمى أمير جندار ، وذلك أنه لما استأجر بركة الشعيبية كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب جعل منها فدانين من غربيها أذن للناس فى تحكيرها فحكرت وبنى عليها عدة دور بلغت الغاية ، فى اتقان العمارة وتنافس عظماء دولة الناصر محمد بن قلاون من الوزراء وأعيان الكتاب فى المساكن بهذا الجسر وبنوا وتأنقوا وتفننوافى بديع الزخرفة وبالغوا فى تحسين الرخام وخرجوا عن الحد فى كثرة إنفاق الأموال العظيمة على ذلك بحيث صار خط الجسر خلاصة العامر من أقليم مصر ، وسكانه أرق الناس عيشا ، وأترف المتنعمين حياة ، وأوفرهم نعمة ، ثم خرب هذا الجسر بأسره وذهبت دوره .

وأما الجهة الشرقية من مصر ففيها قلعة الجبل ، وقد أفردنا لها خبرا مستقلا يحتوى على فوائد كثيرة تضمنه هذا الكتاب فانظره ، ويتصل آخر قلعة الجبل بخط باب القرافة وهو من أطراف القطائع والعسكر ويلى خط باب القرافة الفضاء الذى كان يعرف بالعسكر وقد تقدم ذكره وكان بأطراف العسكر ، مما يلى كوم الجارح .

«**الموقف**» قال ابن وصيف شاه فى أخبار الريان بن الوليد وهو فرعون نبى الله يوسف صلوات الله عليه : ودخل إلى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه اخوته وباعوه وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم فأوقف الغلام ونودى عليه وهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم فاشتراه أطفين العزيز، ويقال إن الذى أخرج يوسف من الجب مالك بن دعر بن حجر بن جزيلة بن لخم بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان . . وقال القضاعى كان الموقف فضاء لأم عبد اللّه بن مسلمة بن مخلد فتصدقت به على المسلمين فكان موقفا تباع فيه الدواب ثم ملك بعد وقد ذكرته فى الظاهر يعنى فى خطط أهل الظاهر فإن الموقف من جملة خطط أهل الظاهر.

وقال ابن المتوج : بقعة «**خط الصفاء**» هذا الخط دثر جميعه ولم يبق له أثر وهو قبلى الفسطاط أوله بجوار المصنع وخط الطحانين أدركته كان صفين طواحين متلاصقة متصلة من درب الصفاء إلى كوم الجارح وأدركت به جماعة من أكابر المصريين أكثرهم عدول، وكان المار بين هذين الصفين لا يسمع حديث رفيقه إذا حدثه لقوة دوران الطواحين وكان من جملتها طاحون واحد فيه سبعة أحجار دثر جميع ذلك ولم يبق له أثر.

قال وبقعة درب الصفاء هو الدرب الذى كان باب مصر وقيل إنه كان بظاهره سوق يوسف عليه السلام وكان بابا بمصراعين يعلوهما عقد كبير وهو بعتبة كبيرة سفلى من صوان وكان بجوار المصنع الخراب الموجود الآن وكان حول المصنع عمد رخام بدائرة حاملة الساباط يعلوه مسجد معلق هدم ذلك جميعه فى ولاية سيف الدين المعروف باين سلار والى مصر فى دولة الظاهر بيبرس وهذا الدرب يسلك منه إلى درب الصفاء والطحانين.

«قال مؤلفه رحمه الله» : كان هذا الباب المذكور أحد أبواب مدينة مصر وبابها الآخر من ناحية الساحل الذى موضعه اليوم باب مصر بجوار الكباراة وأنا أدركت آثار درب الصفاء

المذكور والمصنع الخراب وكان يصب فيه الماء للسبيل وهو قريب من كوم الجارح وسيأتى ذكر كوم الجارح فى ذكر الكيمان من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وأما الذى يلى كوم الجارح إلى آخر حد طول مصر عند بركة الحبش فإنها الخطط القديمة وأدركتها عامرة - لاسيما خط النخالين وخط زقاق القناديل وخط المصاصة وقد خرب جميع ذلك وبيعت أنقاضه من بعد سنة تسعين وسبعمائة .

وأما الجهة القبلية من مصر فإن خط دير الطين حدثت العمارة فيه بعد سنة ستمائة لما أنشأ الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا الجامع هناك وعمر الناس فى جسر الأفرم وكان قبل ذلك آخر عمارة مدينة مصر دار الملك التى موضعها الآن بجوار المدرسة المعزية ، وأما موضع الجسر فإنه كان بركة ماء تتصل بخط راشدة حيث جامع راشدة ومن قبلى هذه البركة البستان الذى كان يعرف ببستان الأمير تميم بن المعز ، ويعرف اليوم بالمعشوق وهو وقف على رباط الآثار ويجاور المعشوق بركة الحبش وما بين خط دير الطين وآخر عرض مصر من الجهة القبلية طرف خط راشدة .

وأما الجهة البحرية من مصر فإنه يتصل بخط السبع سقايات الدور المطلة على البركة التى يقال لها بركة قارون . وهى التى تجاور الآن حدرة ابن قميحة ، وهى من جملة الحمراء القصوى وبقبلى البركة المذكورة الكوم المعروف بالأسرى وهو من جملة العسكر . وسيرد إن شاء الله تعالى ذكره عند ذكر الكيمان ، ويجاور البركة المذكورة خط الكبش . . وقد ذكر فى الجبال ويأتى إن شاء الله تعالى له خبر عند ذكر الاخطاط ويلى خط الكبش خط الجامع الطولونى ويلى خط الجامع القبيبات وخط المشهد النفيسى وجميع ذلك إلى قلعة الجبل من جملة القطائع .

ذكر أبواب مدينة مصر

وكان لفسطاط مصر أبواب من القديم خربت وتجدد لها بعد ذلك أبواب أخر.. «باب الصفاء».. هذا الباب كان هو فى الحقيقية باب مدينة مصر، وهى فى كمالها ومنه تخرج العساكر وتعبر القوافل. وموضعه الآن بالقرب من كوم الجارح وهدم فى أيام الملك الظاهر بيبرس

«باب الساحل» وكان يفضى بسالكه إلى ساحل النيل القديم، وموضعه قريب من الكبارة

«باب مصر» هذا الباب هو الذى بناه قراقوش ومنه يسلك الآن من دخل إلى مدينة مصر من الطريق التى تعرف بالمراغة، وهو مجاور للكوم الذى يقال له كوم المشانيق ويعرف اليوم بالكباراة وكان موضع هذا الباب غامرا بماء النيل، فلما انحسر الماء عن ساحل مصر صار الموضع المعروف بالمراغة والموضع المعروف بغيط الجرف إلى موردة الحلفاء فضاء لا يصل إليه ماء النيل البتة فأحب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن يدير سورا يجمع فيه القاهرة ومصر وقلعة الجبل فزاد فى سور القاهرة على يد قراقوش من باب القنطرة إلى باب الشعرية وإلى باب البحر يريد أن يمد السور من باب البحر إلى الكوم الأحمر الذى هو اليوم حافة خليج مصر تجاه خط بين الزقاقين ليصل أيضا من الكوم الأحمر إلى باب مصر هذا، فلم يتهيأ له هذا وانقطع السور من عند جامع المقس، وزاد فى سور القاهرة أيضا من باب النصر إلى قلعة الجبل فلم يكمل له ومد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة خارج مصر فصار هذا الباب غير متصل بالسور..

«باب القنطرة».. هذا الباب فى قبلى مدينة مصر عرف بقنطرة بنى وائل التى كانت هناك وهو أيضا من ابناء قراقوش.

ذكر القاهرة . قاهرة المعز لدين الله

أعلم أن القاهرة المعزية رابع موضع انتقل سرير السلطنة إليه من أرض مصر فى الدولة الإسلامية، وذلك أن الإمارة كانت بمدينة الفسطاط ثم صار محلها العسكر خارج الفسطاط فيما عمرت القطائع صارت دار الإمارة إلى أن خربت فسكن الأمراء بالعسكر إلى أن قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الإمام المعز لدين الله معد فبنى القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى المدينة وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فسكنها من بعدهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وابنه الملك العزيز عثمان وابنه الملك المنصور محمد ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وابنه الملك الكامل محمد وانتقل من القاهرة إلى قلعة الجبل فسكنها بحرمه وخواصه وسكنها الملوك من بعده إلى يومنا هذا فصارت القاهرة مدينة سكنى بعدما كانت حصنا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ إليها فهانت بعد العز وابتذلت بعد الاحترام وهذا شأن الملوك مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم فقد هدموا بذلك السبب أكثر المدن والحصون وكذلك كانوا أيام المجد وفى جاهلية العرب وهم على ذلك فى أيام الإسلام فقد هدم عثمان بن عفان صومعة غمدان، وهدم الآطام التى كانت بالمدينة وقد هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر، وقد هدم بنو العباس مدن الشام لبنى مروان.

«وإذا تأملت البقـــاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد»

وسيأتى من أخبار القاهرة والكلام على خططها وآثارها ما تنتهى إليه قدرتى، ويصل إلى معرفته علمى وفوق كل ذى علم عليم.

ذكر ما قيل فى نسب الخلفاء الفاطميين بناة القاهرة

اعلم أن القوم كانوا ينسبون إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما والناس فريقان فى أمرهم . فريق يثبت صحة ذلك وفريق يمنعه وينفيهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويزعم أنهم أدعياء من ولد ديصان البونى الذى ينسب إليه النوبة ، وإن ديصان كان له ابن اسمه ميمون القداح كان له مذهب فى الغلو فولد ميمون عبد الله وكان عبد الله عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب ، وأنه رتب سبع دعوات يندرج الإنسان فيها حتى ينحل عن الأديان كلها ويصير معطلا إباحيا لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ويرى أنه وأهل نحلته على هدى وجميع من خالفهم أهل ضلالة وأنه قصد بذلك أن يجعل له أتباعا وكان يدعو إلى الإمام من آل البيت محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وأنه كان من الأهواز واشتهر بالعلم والتشيع وصار له دعاة وقصد بالمكروه ففر إلى البصرة فاشتهر أمره وسار منها إلى سلمية من أرض الشام فولد له ابن بها أسماه أحمد ، ومات فقام من بعده أحمد وبعث بالحسين الأهوازى داعية إلى العراق فلقى أحمد بن الأشعث المعروف بقرمط فى سواد الكوفة ودعاه إلى مذهبه فأجابه وقام هناك بالأمر وإلى قرمط هذا تنسب القرامطة[1] . . وولد لأحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الحسين ومحمد المعروف بأبى الشعلع ، فلما مات أحمد خلفه ابنه الحسين فى الدعوة حتى مات فقام من بعده أخوة أبو الشعلع وكان لأحمد بن عبد الله ولد اسمه سعيد فصار تحت حجر عمه ، وبعث أبو الشعلع بداعيين إلى المغرب ، وهما أبو عبد الله وأخوه أبو العباس فنزلا فى البربر ودعوها واشتهر سعيد بسلمية بعد موت عمه وكثر ماله فطلبه السلطان ففر من سلمية إلى مصر يريد المغرب وكان على مصر عيسى النوشرى فورد عليه كتاب الخليفة ببغداد بالقبض عليه ففاته وصار بسجلماسة فى زى التجار فبعث المعتضد من بغداد فى طلبه فأخذ وحبس حتى أخرجه أبو عبد الله الشيعى من محبسه فتسمى جينئذ بعبيد الله وتكنى بأبى محمد وتلقب بالمهدى . وصار إماما علويا من ولد محمد بن جعفر الصادق وإنما هو سعيد بن الحسين بن

(١) انظر : كتاب كشف اسرار الباطنية للحمادى ص١ إلى ٤٧

أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى الأهوازى وأصله من المجوس فهذا قول من ينكر نسبهم وبعض منكرى نسبهم فى العلوية يقول إن عبيد الله من اليهود وإن الحسين بن أحمد المذكور تزوج امرأة يهودية من نساء سلمية كان لها ابن من يهودى حداد مات وتركه لها فرباه الحسين وأدبه وعلمه ثم مات عن غير ولد فعهد إلى ابن امرأته هذا فكان هو عبيد الله المهدى وهذه أقوال إن أنصفت تبين لك أنها موضوعة فإن بنى على بن أبى طالب رضى الله عنه قد كانوا إذ ذاك على غاية من وفور العدد وجلالة القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى فهذا مما لا يفعله أحد ولو بلغ الغاية من الجهل والسخف وإنما جاء ذلك من قبل ضعفة خلفاء بنى العباس عند ما غصو بمكان الفاطميين . فإنهم كانوا قد اتصلت دولتهم نحوا من مائتين وسبعين سنة وملكوا من بنى العباس بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والحرمين واليمن وخطب لهم ببغداد نحو أربعين خطبة وعجزت عساكر بنى العباس عن مقاومتهم فلاذت حينئذ بتنفير الكافة عنهم بإشاعة الطعن فى نسبهم وبث ذلك عنهم خلفاؤهم ، وأعجب به أولياؤهم وأمراء دولتهم الذين كانوا يحاربون عساكر الفاطميين كى يدفعوا بذلك عن أنفسهم وسلطانهم معرة العجز عن مقاومتهم ، ودفعهم عما غلبوا عليه من ديار مصر والشام والحرمين حتى اشتهر ذلك ببغداد وأسجل القضاة بنفيهم من نسب العلويين وشهد بذلك من أعلام الناس جماعة منهم الشريفان الرضى والمرتضى وأبو حامد الاسفراينى والقدورى فى عدة وافرة عندما جمعوا لذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة أيام القادر ، وكانت شهادة القوم فى ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد وأهلها إنما هم شيعة بنى العباس الطاعنون فى هذا النسب والمتطيرون من بنى على بن أبى طالب الفاعلون فيهم منذ ابتداء دولتهم الأفاعيل القبيحة فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه ورووه حسب ما تلقوه من غير تدبر والحق من وراء هذا وكفاك بكتاب المعتضد من خلائف بنى العباس حجة . فإنه كتب فى شأن عبيد الله إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسلجماسة بالقبض على عبيد الله فتفطن أعزك الله لصحة هذا الشاهد فإن المعتضد لولا صحة نسب عبيد الله عنده ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه إذ القوم

حينئذ لا يدعون لدعى البتة و لا يذعنون له بوجه، وإنما ينقادون لمن كان علويا فخاف مما وقع ولو كان عنده من الأدعياء لما مر له بفكر ولا خافه على ضيعة من ضياع الأرض، وإنما كان القوم أعنى بنى على بن أبى طالب تحت ترقب الخوف من بنى العباس لتطلبهم لهم فى كل وقت وقصدهم إياهم دائما بأنواع من العقاب، فصاروا ما بين طريد شريد وبين خائف يترقب ومع ذلك فإن لشيعتهم الكثيرة المنتشرة فى أقطارهم من المحبة لهم والاقبال عليهم مالا مزيد عليه وتكرر قيام الرجال منهم مرة بعد مرة والطلب عليهم من ورائهم فلاذوا بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون حتى تسمى محمد بن إسماعيل الإمام جد عبيد الله المهدى بالمكتوم. سماه بذلك الشيعة عند اتفاقهم على إخفائه حذرا من المتغلبين عليهم وكانت الشيعة فرقا فمنهم من كان يذهب إلى أن الإمام من ولد جعفر الصادق هو إسماعيل ابنه وهؤلاء يعرفون من بين فرق الشيعة بالاسماعيلية من أجل أنهم يرون أن الإمام من بعد جعفر ابنه إسماعيل، وأن الإمام بعد إسماعيل بن جعفر الصادق هو ابنه محمد المكتوم وبعد ابنه محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق ومن بعد جعفر الصادق ابنه محمد الحبيب، وكانوا أهل غلو فى دعاويهم فى هؤلاء الائمة وكان محمد بن جعفر هذا يؤمل ظهوره وأنه يصير له دولة. وكان باليمن من أهل هذا المذهب كثير بعدن وبأفريقيا وفى كتامة ونفره. تلقوا ذلك من عهد جعفر الصادق فقدم على محمد بن جعفر والد عبيد الله رجل من شيعته باليمن فبعث معه الحسن بن حوشب فى سنة ثمان وستين ومائتين فأظهرا أمرهما باليمن وأشهرا الدعوة فى سنة سبعين ومائتين وصار لابن حوشب دولة بصنعاء، وبث الدعاة بأقطار الأرض، وكان من جملة دعاته أبو عبد الله الشيعى فسيره إلى المغرب. فلقى كتامة ودعاهم فلما مات محمد بن جعفر عهد لابنه عبيد الله فطلبه المكتفى العباسى، وكان يسكن عسكر مكرم فسار إلى الشام ثم سار إلى المغرب فكان من أمره ما كان، وكانت رجال هذه الدولة الذين قاموا ببلاد المغرب وديار مصر[1].

بضعة عشر رجلا هذه خلاصة أخبارهم في أنسابهم فتفطن ولا تغتر بزخرف القول الذى لفقوه من الطعن فيهم والله يهدى من يشاء.

---

(١) هناك بياض فى الأصل

ذكر الخلفاء الفاطميين

وكان ابتداء الدولة الفاطمية أن أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى سار إلى أبى القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى القائم ببلاد اليمن وصار من كبار أصحابه ،وله علم ، وعنده دهاء ومكر ، فورد علي ابن حوشب من المغرب خبر موت الحلوانى داعيه فى المغرب ورفيقه . فقال لأبى عبد الله الشيعى قد خرب الحلوانى وأبو يوسف بلاد المغرب وقد ماتا ، وليس للبلاد إلا أنت فإنها موطأة ممهدة فخرج أبو عبد الله إلى مكة وقصد حجاج كتامة فجلس قريبا منهم وسمعهم يتحدثون بفضائل البيت فحدثهم فى معناه فمالوا إليه وسألوه أن يأذن لهم فى زيارته فلما زاروه سألوه عن مقصده فلم يخبرهم وأوهمهم أنه يريد مصر فسروا بصحبته ورحلوا وهو رفيقهم فشاهدوا من عبادته وزهده ما زادهم رغبة فيه . هذا وهو يسألهم عن أحوالهم وقبائلهم حتى صار يعرف جميع أمورهم فلما وصلوا مصر هم بمفارقتهم فقالوا : أى شيء تطلب من مصر فقال : أطلب التعليم بها فقالوا إذا كان قصدك هذا فبلادنا أنفع لك وما زالوا به حتى سار معهم فلما وصلوا بلادهم اقترعوا فيمن يضيفه منهم ومن بقية أصحابهم ووصلوا به أرض كتامة(١) للنصف من ربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين وكادوا يحتربون عليه أيهم ينزل عنده فأبى أن ينزل عندهم وقال أين يكون فج الأخيار؟ فعجبوا لذلك إذ لم يكونوا ذكروه له قط فدلوه عليه فسار إليه وقال : هذا فج الأخيار من أهل ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من الكتمان وبخروجكم فى هذا الفج سمى فج الأخيار فتسامعت به القبائل وأتوه فعظم أمره وهو لا يذكر اسم المهدى البتة فبلغ خبره إبراهيم بن أحمد بن الأغلب(٢) أمير أفريقية فبعث يسأل عن خبره وكانت له معه قصص آلت إلى قيام أبى عبد الله ومحاربته لمن خالفه فظفر بهم وصارت إليه أموالهم ، وغلب على مدائن وهزم جيوش بن الأغلب وقتل كثيرا من أصحابه فمات إبراهيم بن الأغلب وولى زيادة الله بن الأغلب وكان كثير اللهو فقوى أمر

---

(١) إحدى القبائل البربرية التى قامت على اكتافها الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب .

(٢) مؤسس دولة الأغالبة عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م فى تونس وهى دولة سنية

أبى عبد الله وانتشرت جنوده فى البلاد وصار يقول المهدى يخرج فى هذه الأيام ويملك الأرض فياطوبى لمن هاجر إلى وأطاعنى ويغرى الناس بزيادة الله بن الأغلب ويعيبه، وكان أكثر خواص زيادة الله شيعة فلم يكن يسوءهم ظفر أبى عبد الله وأكثر من ذكر كرامات المهدى والإرسال إلى أصحاب زيادة الله إلى أن تمكن فبعث برجال من كتامة إلى سلمية من أرض الشام فقدموا على عبيد الله وأخبروه بما فتح الله عليه وكان قد اشتهر هناك وطلبه الخليفة المكتفى فخرج من سلمية[١] فارا ومعه ابنه أبو القاسم نزار ومعهما أهلمها ومواليهما فأقاما بمصر مستترين فوردت على عيسى النوشرى أمير مصر الكتب من بغداد بصفة عبيد الله وحليته وأنه يأخذ عليه الطريق ويقبضه فبلغ ذلك عبيد الله فخرج والأعوان فى طلبه ويقال إن النوشرى ظفر به فناشده الله فى أمره فخلى عنه ووصله فسار إلى طرابلس وقد سبق خبره إلى زيادة الله فسار إلى قسطيلية[٢] فقدم كتاب زيادة الله بن الأغلب إلى عامل طرابلس بأخذ عبيد الله وقد فاتهم فلم يدركوه فرحل إلى سلجماسة[٣] وأقام بها وقد أقيمت له المراصد بالطرقات فتلطف باليسع بن مدرار صاحب سلجماسة[٤] وأهدى إليه فكف عنه ووافاه كتاب زيادة الله بالقبض على عبيد الله فلم يجد بدا من أن قبض عليه وسجنه واشتغل زيادة الله بجمع العساكر لمحاربة أبى عبد الله وتجهيزهم إليه فغلبهم أبو عبد الله وغنم سائر ما معهم وقتل أكثرهم وبلغه ما كان من سجن عبيد الله فكتب إليه يبشره فوصل إليه الكتاب وهو بالسجن مع قصاب دخل به إليه وهو يبيع اللحم ومازال أبو عبد الله يضايق زيادة الله إلى أن فر إلى مصر وقام من بعده إبراهيم بن الأغلب فلم يتم له أمر وملك أبو عبد الله القيروان ونزل برقادة مستهل رجب سنة ست وتسعين

---

(١) بفتح أوله وثانية وسكون الميم وياء مثناة من تحت خفيفة وهى بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماه. أنظر : معجم البلدان ٥ / ١١٢ - ١١٣.

(٢) بالفتح ثم السكون وكسر الطاء وياء ساكنة ولام مكسورة وياء خفيفة فى بلاد الجريد من أرض الزاب الكبير، قسطيلية هى مدينة كبيرة عليها سور حصين، وبها تمر قسب كثير يجلب إلى افريقية. لكن ماؤها غير طيب وسعرها غال، وأهلها شراة وهبية وأباضية. انظر : معجم البلدان ٧ / ٨٩ - ٩٠.

(٣) بكسر أوله وثانية وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة، مدينة فى جنوب المغرب فى طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام: أنظر : معجم البلدان ٣ / ٤١.

(٤) صاحب الدولة الصفرية (الخوارج) فى مدينة سجلمانة.

ومائتين فأمر ونهى وبث العمال فى الأعمال وقتل من يخاف شره وأمر فنقش على السكة . فى أحد الوجهين« بلغت حجة الله» وفى الآخر« تفرق أعداء الله» ونقش على السلاح «عدة فى سبيل الله» ووسم الخيل على أفخاذها «الملك لله» وأقام على ما كان عليه من لبس الخشن الدون وتناول القليل الغليظ من الطعام فلما دخل شهر رمضان سار من رقادة[1] فى جيوش عظيمة اهتز لها المغرب بأسره يريد سلجماسة فحاربة اليسع يوما كاملا إلى الليل ثم فر فى خاصته فدخل أبو عبد الله من الغد إلى البلد وأخرج عبيد الله وابنه ومشى فى ركابهما بجميع رؤساء القبائل وهو يقول للناس هذا مولاكم وهو يبكى من شدة الفرح حتى وصل بهما إلى فسطاط ضربه فى العسكر فأنزلهما فيه وبعث الخيل فى طلب اليسع فأدركته وجاءت به فقتله وأقام عبيد الله بسلجماسة أربعين يوما ثم سار إلى أفريقية فى ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ونزل برقادة وأمر يوم الجمعة أن يذكر فى الخطبة، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين فدعى له فى جميع البلاد بذلك وجلس بعد الصلاة الدعاة ودعوا الناس كافة إلى مذهبهم فمن أجاب قبل منه ومن أبى قتل وعرض جوارى زيادة الله واختار منهن لنفسه ولولده وفرق ما بقى على وجوه كتامة وقسم عليهم أعمال أفريقية ودون الدواوين وجبى الأموال ودانت له البلاد فشق ذلك على أبى عبد الله ونافس المهدى وحسده من أجل أنه كف يده ويد أخيه أبى العباس فعظم عليه الفطام عن الأمر والنهى والأخذ والعطاء، وأقبل أبو العباس يزرى على المهدسى فى مجلس أخيه ويؤنب أخاه على ما فعل حتى أثر فى نفسه فسألة المهدى أن يفوض إليه الأمور ويجلس فى القصر وكان قد بلغ المهدى ما يجهر به أبو العباس من السوء فى حقه فرد أبا عبد الله ردا لطيفا وأسرها فى نفسه، وأكثر أبو العباس من قوله حتى أغرى المقدمين بالمهدى وقال: ما هذا بالذى كنا نعتقد طاعته وندعو إليه لأن المهدى يأتى بالآيات الباهرة فمال إليه جماعة وواجه بعضهم المهدى بذلك وقال له إن كنت المهدى فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك، فبعدما بين المهدى وبين أبى عبد الله وأوجس كل منهما فى نفسه خيفة من الآخر وأخذ أبو العباس يدرب فى

---

(١) بلدة كانت بافريقية بينها وبين القيروان أربعة أميال، وكان دورها أربعة وعشرين ألف ذراع وأربعين ذراعا وأكثرها بساتين، ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما وأرق تربة منها انظر: معجم البدان ٤ / ٢٦٧-٢٦٨.

قتل المهدى والمهدى يحل ما كان يبرمه ثم رتب رجالا فلما ركب أبو عبد الله وأخوه إلى قصر المهدى ثار بهما الرجال فقال أبو عبد الله : لا تفعلوا فقالوا له إن الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك فقتل هو وأخوه للنصف من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائتين بمدينة رقادة فثارت فتنة بسبب قتلهما فركب المهدى حتى سكنت وتتبع جماعة منهم فقتلهم فلما استقام له الأمر عهد إلى ابنه أبى القاسم وتتبع بنى الأغلب فقتل منهم جماعة ، وجهز فى سنة إحدى وثلاثمائة ابنه أبا القاسم بالعساكر إلى مصر فأخذ برقة والاسكندرية والفيوم وكانت له مع عساكر مصر وعساكر العراق الواردة إلى مصر مع مؤنس الخادم عدة حروب ، وعاد إلى الغرب فجهز المهدى فى سنة اثنتين وثلاثمائة حباسة بجيوش إلى مصر فغلب على الاسكندرية وكان من أمره ما تقدم ذكره ، وكان للمهدى ببلاد المغرب عدة حروب وكان يوجد فى الكتب خروج أبى يزيد النكارى على دولته فبنى المهدية[1] وأدار عليها سورا جعل فيه أبوابا زنة كل مصراع منها مائة قنطار من حديد وكان ابتداء بنائها فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثمائة وبنى المصلى بظاهرها .

وقال إلى هنا يصل صاحب الحمار . يعنى أبا يزيد فكان كذلك وأنشأ صناعة فيها تسعمائة شونة وقال إنما بنيت هذه لتعتصم الفواطم بها ساعة من نهار فكان كذلك ، ثم إنه جهز ابنه أبا القاسم فى سنة ست وثلاثمائة على جيش إلى مصر فأخذ الاسكندرية وملك جزيرة الاشمونين وكثيرا من صعيد مصر وكانت هناك حروب مع عساكر مصر والعراق ثم عاد إلى المغرب وخرج أبو القاسم فى سنة خمس عشرة بالجيوش إلى المغرب فحارب قوما ، وعاد فمات عبيد الله فى ليلة الثلاثاء منتصف شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة بالمهدية من القيروان عن ثلاث وستين سنة . وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرا وعشرين يوما ولما مات أخفى ابنه موته وقام من بعد عبيد الله المهدى ولى عهده «القائم بأمر الله أبو القاسم محمد» .

ويقال كان اسمه بالمشرق عبد الرحمن فتسمى فى بلاد المغرب بمحمد وذلك بسلمية فى المحرم سنة ثمانين ومائتين فلما فرغ من جميع ما يريده وتمكن أظهر موت أبيه واستقل

(١) بالفتح ثم السكون مدينة بافريقية أسسها المهدى الفاطمى انظر : معجم البلدان ٨/ ٢٠٥ـ٢٠٨ .

بالأمر وله سبع وأربعون سنة، وتبع سيرة أبيه وثار عليه جماعة فظفر بهم، وبث جيوشه فى البر والبحر فسبوا وغنموا من بلد جنوة وبعث جيشا إلى مصر فملكوا الاسكندرية والإخشيد يومئذ أمير مصر، فلما كان فى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خرج عليه أبو يزيد مخلد بن كندار النكارى الخارجى بأفريقية[1] واشتدت شوكته، وكثرت أتباعه وهزم جيوش القائم غير مرة وكان مذهبه تكفير أهل الملة وإراقة دمائهم ديانة، فملك باجة وحرقها وقتل الأطفال وسبى النسوان ثم ملك القيروان افضطرب القائم وخاف الناس وهموا بالنقلة من زويلة[2] وقوى أمر أبى يزيد ونازل المهدية وحصر القائم بهاوكاد أن يغلب عليها فلما بلغ المصى حيث أشار المهدى أنه يصل هزمه أصحاب القائم وقتلوا كثيرا من أصحابه وكانت له قصص وأنباء إلى أن مات القائم لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن أربع وخمسين سنة وتسعة أشهر ولم يرق منبرا ولا ركب دابة لصيد مدة خلافته حتى مات وصلى مرة على جنازة وصلى بالناس العيد مرة واحدة، وكانت مدة خلافته اثنتى عشرة سنة وستة أشهروأياما وترك أبا الظاهر إسماعيل وأبا عبدالله جعفر أو حمزة وعدنان وعدة آخر وقام من بعده ابنه «المنصور بنصر الله أبو الظاهر اسماعيل» وكتم موت أبيه خوفا أن يعلم أبو يزيد فإنه كان قريبا منه وأبقى الأمور على حالها ولم يتسم بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود وجد فى حرب أبى يزيد حتى ظفر به وحمل إليه فمات من جراحات كانت به سلخ المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ولم يزل المنصور إلى أن مات سلخ شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة عن إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وكانت مدة خلافته ثمان سنين وقيل سبع سنين وعشرة أيام وقد اختلف فى تاريخ ولادته فقيل ولد أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثمائة

---

(١) هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزناتى النكارى أبو يزيد ثائر من زعماء الإباضية واعتاهم، بربرى الأصل، كان يغلب عليه الزهد والتقشف ويلبس جبة صوف قصيرة ضيقة الكمين، ولد ونشأ فى قسطيلة وكانت تابعة لتوزر ونشأ بتوزر وأخواله النكارية بتشديد الكاف وهم من الصفرية وسافر إلى تاهرت فكان معلماً للصبيان فيها، مات سنة ٣٣٩ هـ/ ٩٤٧م أنظر: ابن خلدون ٤ / ٤٠ ـ ٤٤، وفيات الأعيان ١ / ٧٧، البيان المغرب ١ / ١٩٣و٢١٦، اتعاظ الحنفا ١٠٩، النجوم الزاهرة ٣ / ٢٨٧.

(٢) أحدى القبائل البربرية التى قامت على اكتافها الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب.

بالمهدية وقيل بل ولد فى سنة اثنتين وقيل سنة إحدى وثلاثمائة وكان خطيبا بليغا يرتجل الخطبة لوقته شجاعا عاقلا وقام من بعده ابنه «المعز لدين الله أبو تميم معد» وعمره نحو أربع وعشرين سنة فإنه ولد للنصف من رمضان سنة سبع عشرة وثلاثمائة فانقاد إليه البربر وأحسن إليهم فعظم أمره واختص من مواليه بجوهر وكناه بأبى الحسين وأعلى قدره وصيره فى رتبة الوزارة وعقد له على جيش كثيف فيهم الأمير زيرى بن مناد الصنهاجى[1] فدوخ المغرب وافتتح مدنا وقهر عدة أكابر وأسرهم حتى أتى البحر المحيط فأمر باصطياد سمكة منه وسيرها فى قلة من ماء إلى المعز، إشارة إلى أنه ملك حتى سكان البحر المحيط الذى لا عمارة بعده، ثم قدم غانما مظفرا، فعظم قدره عند المعز ولما كان فى بعض الأيام استدعى المعز فى يوم شات عدة من شيوخ كتامة فدخلوا عليه فى مجلس قد فرش بالبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب فقال يا اخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأم الأمراء وإنها الآن بحيث تسمع كلامى أترى إخواننا يظنون أن فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء كما يفعل أرباب الدنيا ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم، واحتجبت عنكم وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لابد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم وإنى مشغول بكتب ترد علىَّ من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى، وإنى لا اشتغل بشىء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثلما أفعله ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلى كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعدو المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن

---

(١)هو زيرى بن مناد الصنهاجى أول من ملك من الصنهاجين بالمغرب الأوسط وهو الذى بنى مدينة اشتر وإليه تنسب وأعطاه المنصور إسماعيل «تاهرت» وأعمالها، مات سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م.

انظر: أعمال الأعلام ٢٦، وفيات الأعيان ١ / ١٩٧.

محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم انهضوا رحمكم الله ونصركم فخرجوا عنه، واستدعى يوما أبا جعفر حسين بن مهذب صاحب بيت المال وهو فى وسط القصر قد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة فقال له هذه صناديق مال وقد شذ عنى ترتيبها فانظرها ورتبها. . قال فأخذت أجمعها إلى أن صارت مرتبة وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين فأنفذت إليه أعلمه فأمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها وأن يغلق عليها وتختم بخاتمه. . وقال قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار وذلك فى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فأنفقتها أجمع على العساكر التى سيرها إلى مصر من سنة ثمان وخمسين إلى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة.

ولما أخذ فى تجهيز جوهر[1] بالعساكر إلى أخذ ديار مصر حتى تهيأ أمره وبرز للمسير بعث المعز خفيفا الصقلى إلى شيوخ كتامة يقول يا اخواننا قد رأينا أن ننفذ رجالا إلى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها عليهم فى بلادهم فإذا احتجنا إليها أنفذنا خلفها، فاستعنا بها على مانحن بسبيله فقال بعض شيوخهم لخفيف لما بلغه ذلك قل لمولانا والله لا فعلنا هذا أبدا كيف تؤدى كتامة الجزية ويصير عليها فى الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديما بالإسلام وحديثا معكم بالإيمان وسيوفنا بطاعتكم فى المشرق والمغرب فعاد خفيف إلى المعز بذلك، فأمر بإحضار جماعة كتامة فدخلوا عليه وهو راكب فرسه فقال ما هذا الجواب الذى صدر عنكم فقالوا هذا جواب جماعتنا ما كنا يا مولانا بالذى يؤدى جزية تبقى علينا فقام المعز فى ركابه، وقال بارك الله فيكم فهكذا أريد أن

---

(١) هو جوهر بن عبد الله الرومى أبو الحسن القائد بانى مدينة القاهرة والجامع الأزهر، كان من موالى المعز العبيدى «صاحب إفريقية» وسيرة من القيروان إلى مصر، بعد موت كافور الإخشيدى فدخلها سنة ٣٥٨هـ، مات سنة ٣٨١هـ.

أنظر: معجم البلدان ٧/ ١٩، خطط مبارك ٢/ ٤٥، وفيات الأعيان ١/ ١١٨، النجوم الزاهرة ٤/ ٢٨، تاريخ ابن عساكر ٣/ ٤١٦

تكونوا، وإنما أردت أن اختبركم فأنظر كيف أنتم بعدى فسار جوهر وأخذ مصر كما قد ذكر فى ترجمته عن ذكر سور القاهرة من هذا الكتاب.

فلما ثبتت قدم جوهر بمصر كتب إليه المعز جوابا عن كتابه وأما ما ذكرت يا جوهر من أن جماعة بنى حمدان وصلت إليك كتبهم يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة فى المسير إليك فاسمع لما أذكره لك أحذر أن تبتدىء أحدا من آل حمدان بمكاتبة ترهيبا له ولا ترغيب ومن كتب إليك كتابا منهم من قيادة جيش ولا ملك طرف فبنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب.. ويتظاهرون بالكرم وليس لواحد منهم كرم فى الله.. ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة فاحذر كل الحذر من الاستناد إلى أحد منهم.

ولما عزم المعز على المسير إلى مصر أجال فكره فيمن يخلفه فى بلاد المغرب، فوقع اختياره على جعفر بن على الأمير فاستدعاه وأسر إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب فقال: تترك معى أحد أولادك أو إخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر، ولا تسألنى عن شىء من الأموال لأن ما أجبيه يكون بإزاء ماأنفقه من الأموال، وإذا أردت أمرا فعلته من غير أن انتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلىّ.

فغضب المعز وقال يا جعفر عزلتنى عن ملكى وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالأعمال والأموال دونى. قم فقد أخطأت حظك وماأصبت رشدك. فخرج عنه ثم أنه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجير[1] وقال له تأهب لخلافة المغرب فأكبر ذلك، وقال يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صفا لكم المغرب. فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى قتلتنى يا مولانا بغير سيف ولا رمح. فما زال به المعز حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ويجعل الحيز لمن يثق به ويجعله قائما بين أيدى هؤلاء فمن استعصى عليهم يأمره هؤلاء به حتى

---

(1) هو بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أبو الفتوح سيف الدولة المسمى بيوسف، مؤسس الإمارة الصنهاجية بتونس، مات سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م انظر: وفيات الأعيان ١ / ٩٢، تاريخ ابن خلدون ٦ / ١٥٥، البيان المغرب ١ / ٢٣٨-٢٣٩ و٣١٨، وأعمال الأعلام ٢٦.

يعمل به ما يجب ويكون الأمر لهم، ويصير كالخادم بين أولئك . . فأحب المعز ما قال وشكره فلما انصرف قال أبو طالب بن القائم بأمر الله للمعز يا مولانا وتثق بهذا القول من يوسف وأنه يقوم بوفاء ما ذكر فقال المعز يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر فاعلم يا عم أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل وهو نهاية ما يفعله وكانت أم الأمراء قد وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر فعرضها وكيلها فى مصر للبيع وطلب فيها ألف دينار فحضر إليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فإذا هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها فعاد الوكيل إلى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز يا اخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا إليهم فقالوا: السمع والطاعة فقال خذوا فى حوايجكم فنحن نقدم الاختيار لمسيرنا إن شاء الله تعالى وكان قيصر ومظفر الصقلبيان قد بلغا رتبة عظيمة عند المنصور والد المعز وكان المظفر يدل على المعز من أجل أنه علمه الخط فى صغره فحرد عليه مرة وولى فسمعه المعز يتكلم بكلمة صقلبية استراب منها ولقنها منه وأنفت نفسه من السؤال عن معناها فأخذ يحفظ اللغات فابتدأ بتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها ثم تعلم الرومية والسودانية حتى أتقنهما ثم أخذ يتعلم الصقلبية فمرت به تلك الكلمة فإذا هى سب قبيح . فأمر بمظفر فقتل من أجل تلك الكلمة وبلغه أمر الحرب التى كانت بين بنى حسن وبنى جعفر بالحجاز حتى قتل من بنى حسن أكثر ممن قتل من بنى جعفر فأنفذ مالا ورجالا فى السر مازالوا بالطائفتين حتى اصطلحتا وتحمل الرجال عن كل منهما الحمالات فجاء الفاضل فى القتلى لبنى حسن عند بنى جعفر نحو سبعين قتيلا فأدوا عنهم وعقدوا بينهم الصلح فى الحرم تجاه الكعبة وتحملوا عنهم الديات من مال المعز وكان ذلك فى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة فصارت هذه الفعلة

يدا عند بنى حسن للمعز . . فلما ملك جوهر مصر بادر حسن بن جعفر الحسنى بالدعاء للمعز فى مكة وبعث إلى جوهر بالخبر فسير إلى المعز يعرفه بإقامة الدعوة له بمكة فأنفذ إليه بتقليده الحرم وأعماله وسار المعز بعساكره من المغرب حتى نزل بالجيزة فعقد له جوهر جسرا جديدا عند المختار بالجزيرة فسار عليه وقد زينت له مدينة الفسطاط فلم يشقها ودخل إلى القاهرة بجميع أولاده وأخوته وسائر أولاد عبيداللّه المهدى وبنوا بيت آبائه وذلك لسبع خلون من رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فعندما دخل القصر صلى ركعتين فاقتدى به من حضر وبات به ثم أصبح فجلس للهناء وأمر فكتب فى سائر مدينة مصر خير الناس بعد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأثبت اسم المعز لدين اللّه واسم أبيه عبداللّه الأمير وجلس فى القصر على السرير الذهب وصلى بالناس صلاة عيد الفطر فى المصلى فسبح فى كل ركعة وفى كل سجدة ثلاثين تسبيحة ثم خطب بعد الصلاة وركب لفتح خليج مصر يوم الوفاء وعمل عيد غدير حم ، ومات بعض بنى عمه فصلى عليه وكبر سبعا وكبر على ميت آخر خمسا ، وقدمت القرامطة إلى مصر فسير إليهم الجيوش وهزموهم ومازال إلى أن توفى من علة اعتلها بعد دخوله إلى القاهرة بسنتين وسبعة أشهروعشرة أيام وعمره خمس وأربعون سنة وستة أشهر تقريبا فإن مولده بالمهدية فى حادى عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة وكانت مدة خلافته بالمغرب وديار مصر ثلاثا وعشرين سنة وعشرة أيام وهو أول الخلفاء الفاطميين بمصر وإليه تنسب القاهرة المعزية لأن عبده جوهرا القائد بناها حسب مارسم له كما ذكر فى خبر بنائها .

وكان المعز عالما فاضلا جوادا حسن السيرة منصفا للرعية مغرما بالنجوم أقيمت له الدعوة بالمغرب كله وديار مصر والشام والحرمين وبعض أعمال العراق . . وقام من بعده ابنه «العزيز بالله أبو منصور نزار» فأقام فى الخلافة إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا ومات وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما فى الثامن والعشرين من رجب سنة ست وثمانين وثلاثمائة بمدينة بلبيس وحمل إلى القاهرة . . وقام من بعده ابنه «الحاكم بأمراللّه أبو على منصور» . . وكانت مدة خلافته إلى أن فقد خمسا وعشرين سنة وشهرا وفقد وعمره ست وثلاثون سنة وسبعة أشهر فى ليلة السابع والعشرين

من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة وقد بسطت خبر العزيز والحاكم عند ذكر الجوامع من هذا الكتاب .

وقام من بعده ابنه «الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على» بن الحاكم بأمر الله ولد بالقاهرة يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وبويع له بالخلافة يوم عيد النحر سنة إحدى عشرة وأربعمائة وعمره ست عشرة سنة فخرج إلى صلاة العيد وعلى رأسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس فى المصلى وعاد فكتب بخلافته إلى الأعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفى سماع الغناء وشرب الفقاع وأكل الملوخيا وجميع الأسماك فأقبل الناس على اللّهو ووزر له الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد وكان يلى ديوان الإنشاء وغيره واستوزره الحاكم إلى أن فقد فتولى البيعة للظاهر ثم قتل بعد سبعة أشهر فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران وصرف عن الوزارة فى المحرم سنة ثلاث عشرة وقبض عليه فى شوال وقتل فوجد له من العين ستمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار وولى بعده الوزارة الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر . . وفى سنة أربع عشرة قلد منتخب الدولة الدريزى متولى قيسارية ولاية فلسطين فكانت له مع حسان بن مفرح بن جراح الطائى حروب وفيها نزع السعر بمصر ، وتعذر وجود الخبز وفى المحرم سنة خمس عشرة لقب الخادم الأسود معضاد بالقائد عز الدولة وسنائها أبى الفوارس معضاد الظاهر وخلع عليه وثار رجل من بنى الحسين ببلاد الصعيد فقبض عليه وأقر أنه قتل الحاكم بأمر الله ووجد معه قطعة من جلد رأسه وقطعة من الفوطة التى كانت عليه فسئل عن سبب قتله إياه فقال : غرت لله وللإسلام ثم قتل نفسه بسكين كانت معه فقطعت رأسه وسيرت إلى القاهرة وفيها اشتد الغلاء بمصر وكثر نقص النيل .

وفيها قرر الشريف الكبير العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجراى والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد أن لا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون فى سائر أمور الدولة ، والظاهر مشغول بلذاته ،

وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلمة وابن حيران صاحب الإنشاء وداعى الدعاة ونقيب نقباء الطالبيين وقاضى القضاة ربما دخلوا على الظاهر فى كل عشرين يوما مرة، ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر البتة والثلاثة الأول هم الذين يقضون الأشغال ويمضون الأمور بعد الاجتماع عند القائد معضاد ومنع الناس من ذبح الأبقار لقلتها وعزت الأقوات بمصر وقلت البهائم كلها حتى بيع الرأس البقر بخمسين دينارا وكثرالخوف فى ظواهر البلد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجارة، فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج طوائف العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتحاسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه واشتد الغلاء وفشت الأمراض وكثر الموت فى الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج، وعز الماء لقلة الظهر فعم البلاء من كل جهة وعرض الناس أمتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركة الجب وأخذت أموالهم وقتل منهم كثيرا وعاد من بقى فلم يحج أحد من أهل مصر وتفاقم الأمر فى شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر: الجوع الجوع يا أمير المؤمنين. لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك. فاللهاللّه فى أمرنا وطرقت عساكر بن جراح الفرما ففر أهلها إلى القاهرة وأصبح الناس بمصر على أقبح حال من الأمراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الأقوات وكثر الخوف من الذعار التى تكبس حتى أنه لما عمل سماط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصيحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه ونهبت الأرياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت أمور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر إلى القرض فحمل بعض أهل الدولة إليه مالا وامتنع آخرون واجتمع نحو الألف عبد لتنهب البلد من الجوع فنودى بأن من تعرض له أحد من العبيد فليقتله وندب جماعة لحفظ البلد واستعد الناس فكانت نهبات بالســاحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها إلى أن خندقوا عليهم خنادق وعملوا الدروب على الأزقة والشوارع، وخرج معضاد فى عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب أعناقهم وأخذ العبيد فى طلب الجرجراى وغيره من وجوه الدولة فحرسوا أنفسهم وامتنعوا فى دورهم وانقضت السنة والناس فى أنواع من البلاء.

وفى سنة ست عشرة أمر الظاهر فأخرج من بمصر من الفقهاء المالكية وغيرهم، وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام ومختصر الوزير وجعل لمن حفظ ذلك مالا .

وفى سنة سبع عشرة ثار بمصر رعاف عظيم بالناس وكثرت زيادة النيل عن العادة وتصدق الظاهر بمائة ألف دينار من أجل أنه سقط عن فرسه وسلم . . وفى سنة ثمان عشرة وقعت الهدنة مع صاحب الروم، وخطب للظاهر فى بلاده، وأعاد الجامع بقسطنطينية وعمل فيه مؤذنا فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس وأذن لمن أظهر الإسلام فى أيام الحاكم أن يعود إلى النصرانية فرجع إليها كثير منهم وصرف الظاهر وزيره عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذبادى وأقام بدله أبا القاسم على بن أحمد الجرجراى .

وفى سنة عشرين كانت فتنة بين المغاربة والأتراك قتل فيها كثير . . وفى سنة إحدى وعشرين بويع لابن الظاهر بولاية العهد وعمره ثمانية أشهر وأنفق على ذلك فى خلع لأهل الدولة وطعام ونثار للعامة ما يجل وصفه . . وفى سنة اثنتين وعشرين تحرك السعر لنقص ماء النيل، ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر . . وفى سنة ثلاث وعشرين قتل الظاهر أحد الدعاة فاضطربت الرعية والجند وتحدث الناس بخلعه ثم سكنت الفتنة بعد إنفاق مال جزيل . . وفى سنة أربع وعشرين ركب ولى العهد من القاهرة إلى مصر وقد زينت الطرقات فكان إذا مر بقوم قبلوا له الأرض ونثر يؤمئذ على العامة مبلغ خمسة آلاف دينار فكان يوما عظيما . . وفى سنة خمس وعشرين بث الظاهر دعاته ببغداد عند اختلاف الأتراك بها فكثرت دعاته هناك واستجاب لهم خلق كثير فلما كان فى سنة ست وعشرين كثر الوباء بمصر ومات الظاهر للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة عن اثنتين وثلاثين سنة إلا أياما فكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وكان مشغوفا باللهو محبا للغناء فتأنق الناس فى أيامه بمصر واتخذوا المغنيات والرقاصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما واتخذ حجرا لمماليكه وعلمهم أنواع العلوم وسائر فنون الحرب واتخذ خزانة البنود وأقام فيها ثلاثة آلاف صانع وراسل الملوك، واستكثر من شراء الجواهر وكانت مملكته بأفريقية ومصر والشام والحجاز وغلب صالح بن مرداس على حلب فى

أيامه، واستولى على ما يليها، وتغلب حسان بن جراح على أكثر بلاد الشام فتضعضعت الدولة.

وقام من بعده ابنه ولى العهد وبويع له وهو «المستنصر بالله أبو تميم معد». . ومولده فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة عشرين وأربعمائة وبويع بالخلافة للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وعمره يومئذ سبع سنين فأقام ستين سنة وأشهرا فى الخلافة كانت فيها أنباء وقصص شنيعة بديار مصر منها أن أمه كانت أمة سوداء لتاجر يهودى يقال له أبو سعد سهل بن هارون التسترى فابتاعها منه الظاهر واستولدها المستنصر فلما أفضت الخلافة إليه استدنت أمه أبا سعد ورقته درجة علية وكان الوزير يومئذ أبا القاسم الجرجراى فلم يتمكن أبو سعد من إظهار ما فى نفسه حتى مات الجرجراى وتولى أبو منصور صدقة بن يوسف العلاجى الوزارة فانبسطت يد أبى سعد وصار العلاجى يأتمر بأمره فعمل عليه وقتله كما ذكر فى خبر خزانة البنود فحقدت أم المستنصر على العلاجى وصرفته عن الوزارة واستقر أبو البركات صفى الدين الحسين بن محمد بن أحمد الجرجراى فى الوزارة.

وفى سنة أربعين سار ناصر الدولة الحسين بن حمدان متولى دمشق بالعساكر إلى حلب وحارب متوليها ثمال بن صالح بن مرداس ثم رجع بغير طائل فقلد مظفر الصقلى دمشق وقبض على ابن حمدان وصادره واعتقله بصور ثم بالرملة وخرج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته نحو الثلاثين ألفا بلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار يريد الشام ومحاربة بنى مرداس.

وفى المحرم سنة إحدى وأربعين صرف قاضى القضاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء بعدما باشره ثلاث عشرة سنة وشهرا وأربعة أيام، وتقلد وظيفة القضاء بعده القاضى الأجل خطير الملك أبو محمد البازورى. . وفيها حارب رفق بنى مرداس فظفروا به وأسروه فمات بقلعة حلب فأفرج عن ابن حمدان وبقى بالحضرة، وقبض على الوزير أبى البركات الجرجراى ونفى إلى الشام وعمل أبو المفضل صاعد بن مسعود واسطة لا وزيرا ثم قلد قاضى القضاة أبو محمد البازورى الوزارة مع وظيفة القضاء ولقب بسيد الوزراء.

وفى سنة اثنتين وأربعين كانت حروب البحيرة واخراج بنى قرة منها وانزال بنى سنيس بعدهم بها وفيها دعا على بن محمد الصليحى باليمن للمستنصر وبعث إليه بمال النجوة والهدن .

وفى سنة أربع وأربعين كتب ببغداد محاضر بالقدح فى نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الانتساب إلى على بن أبى طالب ، وسيرت إلى الآفاق وقصر مد النيل فتحرك السعر بمصر ثم قصر أيضا مد النيل فى سنة ست وأربعين فقوى الغلاء ، وكثر الموت فى الناس . . وفى سنة ثمان وأربعين خرج أبو الحارس البساسيرى من بغداد منتميا للمستنصر فسيرت إليه الأموال والخلع .

وفى سنة ثمان وأربعين عادت حلب إلى مملكة المستنصر . . وفى سنة خمسين قبض على الوزير الناصر للدين أبى محمد البازورى وتقلد بعده الوزارة أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى بن عبداللّه بن محمد وولى القضاء بعد البازورى أبو على أحمد بن عبد الحكيم ثم صرف بعبد الحاكم المليحى ، وفيها أخذ البساسيرى بغداد وأقام فيها الخطبة للمستنصر وفر الخليفة القائم بأمر اللّه العباسى إلى قريش بن بدران فبعث به إلى غانة وسيرت ثياب القائم وعمامته وغير ذلك من الأموال إلى مصر وفيها سار ناصر الدولة إلى دمشق أميرا عليها . . وفى سنة إحدى وخمسين أقيمت دعوة المستنصر بالبصرة وواسط وجميع تلك الأعمال فقدم طغريل إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم بعدما خطب للمستنصر ببغداد أربعون خطبة ، وقتل البساسيرى وفيها قطعت خطبة المستنصر أيضا من حلب فسار إليها بن حمدان وحارب أهلها فانكسر كسرة شديدة شنيعة وعاد إلى دمشق وفيها صرف أبو الفرج بن المغربى عن الوزارة وعبد الحاكم عن القضاء وأعيد إلى الوزارة أبو الفرج البابلى ، واستقر فى وظيفة القضاء أحمد بن أبى زكرى .

وفى سنة ثلاث وخمسين كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة ، وتقدم الأراذل بحيث كان يصل إليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المرافعات والسعايات فاشتبهت عليه الأمور ، وتناقضت الأحوال ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم وخربت الأعمال وقل ارتفاعها

وتغلبُ الرجال على معظمها مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر إلى أن آل الأمر إلى حدوث الشدة العظمى كما قد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب وكان من قدوم أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ست وستين وأربعمائة وقيامه بسلطنة مصر ماذكر فى ترجمته عند ذكر أبواب القاهرة فلم يزل المستنصر مدة أمير الجيوش ملجما عن التصرف إلى أن مات فى سنة سبع وثمانين فأقام العسكر من بعده فى الوزارة ابنه الأفضل شاهنشاه فباشر الأمور يسيرا ومات المستنصر ليلة الخميس لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة سبع وثمانين عن سبع وستين سنة وخمسة أشهر منها فى الخلافة ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام مرت فيها أهوال عظيمة وشدائد آلت به إلى أن جلس على نخ ، وفقد القوت فلم يقدر عليه حتى كانت امرأة من الاشراف تتصدق عليه فى كل يوم بقعب فيه فتيت فلا يأكل سواه مرة فى كل يوم وقد مر فى غير موضع من هذا الكتاب كثير من أخباره فلما مات المستنصر أقام الأفضل بن أمير الجيوش فى الخلافة من بعده ابنه «المستعلى بالله أبا القاسم أحمد» . . وكان مولده فى العشرين من المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة فخالف عليه أخوه نزار وفر إلى الاسكندرية وكان القائم بالأمور كلها الأفضل فحاربه حتى ظفر به وقتله كما تقدم فى خبر أفتكين عند خزائن القصر . . وفى سنة تسعين وقع بمصر غلاء ووباء وقطعت الخطبة من دمشق للمستعلى وخطب بها للعباسى وخرج الفرنج من قسطنطينية لأخذ سواحل الشام وغيرها من أيدى المسلمين فملكوا إنطاكية .

وفى سنة إحدى وتسعين خرج الأفضل بعسكر عظيم من القاهرة فأخذ بيت المقدس من الأرمن وعاد إلى القاهرة . . وفى سنة اثنتين وتسعين ملك الفرنج الرملة وبيت المقدس فخرج الأفضل بالعساكر وسار إلى عسقلان فسار إليه الفرنج وقاتلوه وقتلوا كثيرا من أصحابه وغنموا منه شيئا كثيرا وحصروه ، فنجا بنفسه فى البحر وصار إلى القاهرة . . وفى سنة ثلاث وتسعين عم الوباء أكثر البلاد فهلك بمصر عالم عظيم . . وفى سنة أربع وتسعين خرج عسكر مصر لقتال الفرنج وكانت بينهما حروب كثيرة . . وفى سنة خمس وتسعين وأربعمائة مات المستعلى بالله لثلاث عشرة بقيت من صفر وعمره سبع وعشرون سنة وسبعة وعشرون يوما ومدة خلافته سبع سنين وشهران ، وفى أيامه اختلت الدولة

وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام فإنها صارت بين الأتراك والفرنج وصارت الإسماعيلية فرقتين فرقة نزارية تطعن فى إمامة المستعلى وفرقة ترى صحة خلافته، ولم يكن للمستعلى مع الأفضل أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة وقيل إنه سمّ وقيل بل قتل سرا . . فلما مات أقام الأفضل من بعده فى الخلافة ابنه «الآمر باحكام اللّٰه أبا على منصورا» وعمره خمس سنين وشهر وأيام فقتل الأفضل فى أيامه وأقام فى الخلافة تسعا وعشرين سنة وثمانية أشهر ونصفا وقد ذكرت ترجمته عند ذكر الجامع الأقمر فى ذكر الجوامع من هذا الكتاب ولما قتل الآمر باحكام اللّٰه أقيم من بعده «الحافظ لديناللّٰه أبو الميمون عبد المجيد» ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر باللّٰه وكان قد ولد بعسقلان فى المحرم سنة سبع وقيل فى سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده فى أيام الشدة فلذلك كان يقال له فى أيام الآمر باحكام اللّٰه الأمير عبد المجيد العسقلانى ابن عم مولانا .

ولما قتل النزارية الخليفة الآمر أقام برغش وهزار الملوك الأمير عبد المجيد فى دست الخلافة ولقباه بالحافظ لدين اللّٰه وأنه يكون كفيلا لمنتظر فى بطن أمه من أولاد الآمر واستقر هزار الملوك وزيرا فثار العسكر وأقاموا أبا على بن الأفضل وزيرا، وقتل هزار الملوك ونهب شارع القاهرة وذلك كله فى يوم واحد فاستبد أبو على بالوزارة يوم السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقبض على الحافظ وسجنه مقيدا فاستمر إلى أن قتل أبو على فى سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين فأخرج من معتقله وأخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن يذكر اسمه فاتخذ الحافظ هذا اليوم عيدا سماه عيد النصر وصار يعمل كل سنة، ونهبت القاهرة يومئذ وقام يانس صاحب الباب بالوزارة إلى أن هلك فى ذى الحجة منها بعد تسعة أشهر فلم يستوزر الحافظ بعده أحدا وتولى الأمور بنفسه إلى سنة ثمان وعشرين، فأقام ابنه سليمان ولى عهده مقام وزير، فلم تطل أيامه سوى شهرين ومات فجعل مكانه بن حيدرة فحنق ابنه حسن وثار بالفتنة، وكان من أمره ما ذكر فى خبر الحارة اليانسية من هذا الكتاب فلما قتل حسن قام بهرام الأرمنى وأخذ الوزارة فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وكان نصرانيا فاشتد ضرر المسلمين من النصارى وكثرت

أذيتهم، فسار رضوان بن ولخشى وهو يومئذ متولى الغربية وجمع الناس لحرب بهرام، وسار إلى القاهرة فانهزم بهرام ودخل رضوان القاهرة واستولى على الوزارة فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين فأوقع بالنصارى وأذلهم فشكره الناس إلا أنه كان خفيفا عجولا فأخذ فى إهانة حواشى الخليفة وهم بخلعه وقال: ما هو بإمام وإنما هو كفيل لغيره وذلك الغير لم يصح فتوحش الحافظ منه، ومازال يدبر عليه حتى ثارت فتنة انهزم فيها رضوان وخرج إلى الشام فجمع وعاد فى سنة أربع وثلاثين فجهز له الحافظ العساكر لمحاربته فقاتلهم وانهزم منهم إلى الصعيد فقبض عليه واعتقل، فلم يستوزر الحافظ أحدا بعده إلى أن كانت سنة ست وثلاثين فغلت الأسعار بمصر وكثر الوباء وامتد إلى سنة سبع وثلاثين فعظم الوباء.

وفى سنة اثنتين وأربعين خلص رضوان من معتقله بالقصر وخرج من نقب وثار بجماعة وكانت فتنة آلت إلى قتله.

وفى سنة أربع وأربعين ثارت فتنة بالقاهرة بين طوائف العسكر فمات الحافظ ليلة الخامس من جمادى الآخرة عن سبع وسبعين سنة منها مدة خلافته ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما أصابته فيها شدائد كثيرة، وكان حازما سيوسا كثير المداراة عارفا جماعا للمال مغرى بعلم النجوم يغلب عليه الحلم. . فلما مات والفتنة قائمة أقيم ابنه «الظاهر بأمر الله أبو منصور إسماعيل». . ومولده للنصف من ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فأقام فى الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام، وكان محكوما عليه من الوزارة، وفى أيامه أخذت عسقلان فظهر الخلل فى الدولة، وقد ذكرت أخباره فى خط الخشيبة عند ذكر الخطط من هذا الكتاب. . فلما قتل أقيم من بعده ابنه «الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى». . أقامه فى الخلافة بعد مقتل أبيه الوزير عباس وعمره خمس سنين فقدم طلائع بن رزيك وإلى الاشمونين بجموعه إلى القاهرة ففر عباس واستولى طلائع على الوزارة وتلقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين عن إحدى عشرة سنة وستة أشهر ويومين، منها فى الخلافة ست سنين وخمسة أشهر وأيام لم ير فيها خيرا فإنه لما أخرج ليقام خليفة

رأى أعمامه قتلى وسمع الصراخ فاختل عقله وصار يصرخ حتى مات . . فأقام الصالح بن رزيك فى الخلافة بعده «العاضد لدين اللّه أبا محمد عبداللّه» . . ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين اللّه ومولده لعشر يقين من المحرم سنة ست وأربعين وخمسمائة وكان عمره يوم بويع نحو إحدى عشرة سنة وقام الصالح بتدير الأمور إلى أن قتل فى رمضان سنة ست وخمسين كما ذكر فى خبره عند ذكر الجوامع ، فقام من بعده ابنه رزيك بن طلائع وحسنت سيرته فعزل شاور بن مجير السعدى عن ولاية قوص فلم يقبل العزل وحشد وسار على طريق الواحات فى البرية إلى تروجة فجمع الناس وسار إلى القاهرة فلم يثبت رزيك وفر فقبض عليه باطفيح واستقر شاور فى الوزارة لأيام خلت من صفر سنة ثمان وخمسين فأقام إلى أن ثار ضرغام صاحب الباب ففر منه إلى الشام ، واستبد ضرغام بالوزارة فقتل أمراء الدولة وأضعفها بسبب ذهاب أكابرها ، فقدم الفرنج ونازلوا مدينة بلبيس مدة ودافعهم المسلمون عدة مرار حتى عادوا إلى بلادهم بالساحل ورجع العسكر إلى القاهرة ، وقد قتل منهم كثير فوصل شاور بعساكر الشام فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين فحاربه ضرغام على بلبيس بعساكر مصر ، وكانت لهم منه معارك انهزموا فى آخرها ، وغنم شاور ومن معه سائر ما خرجوا به وكان شيئا جليلا ، فسروا بذلك وساروا إلى القاهرة فكانت بين الفريقين حروب آلت إلى هزيمة ضرغام وقتله فى شهر رمضان منها ، فاستولى شاور على الوزارة مرة ثانية ، واختلف مع الغز القادمين معه من الشام وكانت له معهم حروب آلت إلى أن شاور كتب إلى مرى ملك الفرنج يستدعيه إلى القاهرة ليعينه على محاربة شيركوه ومن معه من الغز فحضر وقد صار شيركوه فى مدينة بلبيس فخرج شاور من القاهرة ونزل هو ومرى على بلبيس وحصرا شيركوه ثلاثة أشهر ثم وقع الصلح فسار شيركوه بالغز إلى الشام ورحل الفرنج وعاد شاور إلى القاهرة فى سنة ستين وخمسمائة فلم يزل إلى أن قدم شيركوه من الشام بالعساكر مرة ثانية فى ربيع الآخر فخرج شاور من القاهرة إلى لقائه واستدعى مرى ملك الفرنج فسار شيركوه على الشرق وخرج من اطفيح فسار إليه شاور بالفرنج وكانت له معه الوقعة المشهورة فسار شيركوه بعد الوقعة من الأشمونين وأخذ الإسكندرية وعاد شاور إلى القاهرة وخرج شيركوه من الاسكندرية بعد أن استخلف عليها

ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولم يزل يسير من الاسكندرية إلى قوص وهو يجبى البلاد فخرج شاور من القاهرة بالفرنج ونازل الإسكندرية فبلغ شيركوه ذلك فعاد من قوص إلى القاهرة وحصرها ثم كانت أموز آخرها مسير شيركوه وأصحابه من أرض مصر إلى الشام فى شوال وقد طمع الفرنج فى البلاد وتسلموا أسوار القاهرة وأقاموا فيها شحنة معه عدة من الفرنج لمقاسمة المسلمين ما يتحصل من مال البلد وفحش أمر شاور وساءت سيرته وكثر تجريه على الدماء واتلافه للأموال فلما كان فى سنة أربع وستين قوى تمكن الفرنج فى القاهرة وجاروا فى حكمهم بها وركبوا المسلمين بأنواع الإهانة فسار مرى يريد أخذ القاهرة، ونزل على مدينة بلبيس وأخذها عنوة فكتب العاضد إلى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستصرخه ويحثه على نجدة الإسلام وإنقاذ المسلمين من الفرنج، فجهز أسد الدين شيركوه فى عسكر كثير وجهزهم وسيرهم إلى مصر وقد أحرق شاور مدينة مصر كما تقدم ونزل مرى ملك الفرنج على القاهرة، وألح فى قتال أهلها حتى كاد أن يأخذها عنوة فسير إليه شاور وخادعه حتى رضى بمال يجمعه له فشرع فى جبايته وإذ بالخبر ورد بقدوم شيركوه فرحل الفرنج عن القاهرة فى سابع ربيع الآخر ونزل شيركوه على القاهرة بالغز ثالث مرة فخلع عليه العاضد وأكرمه، فأخذ شاور يفتك بالغز على عادته فكان من قتله ما ذكر فى موضعه وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر، المذكور، وتقلد شيركوه وزارة العاضد وقام بالدولة شهرين وخمسة أيام ومات فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة ففوض العاضد الوزارة لصلاح الدين يوسف بن أيوب، فساس الأمور ودبر لنفسه فبذل الأموال وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من المال. فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان، وصار يخطب من بعد العاضد للسلطان محمود نور الدين وأقطع أصحابه البلاد وأبعد أهل مصر وأضعفهم واستبد بالأمور ومنع العاضد من التصرف، حتى تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة إلى أن كان من واقعة العبيد ما ذكرنا فأبادهم وأفناهم ومن حينئذ تلاشى العاضد وانحل أمره ولم يبق له سوى إقامة ذكره فى الخطبة فقط هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه فى كل يوم ليضعفه فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه إلى إرساله

وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر البتة وتتبع صلاح الدين جند العاضد وأخذ دور الأمراء واقطاعاتهم فوهبها لأصحابه وبعث إلى أبيه واخوته وأهله فقدموا من الشام عليه فلما كان فى سنة ست وستين أبطل المكوس من ديار مصر وهدم دارالمعونة بمصر وعمرها مدرسة للشافعية وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية وعزل قضاة مصر الشيعة وقلد القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى وجعل إليه الحكم فى اقليم مصر كله فعزل سائر القضاة واستناب قضاة شافعية فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعى رضى الله عنهما واختفى مذهب الشيعة إلى نسى من مصر وأخذ فى غزو الفرنج فخرج إلى الرملة وعاد فى ربيع الأول ثم سار إلى ايلة ونازل قلعتها حتى أخذها من الفرنج فى ربيع الآخر ثم سار إلى الاسكندرية، ولم شعث سورها وعاد وسير توران شاه فأوقع بأهل الصعيد وأخذ منهم ما يمكن وصفه كثرة وعاد فكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذم العاضد وتحدثوا بخلعه وإقامة الدعوة العباسية بالقاهرة ومصر، ثم قبض على سائر من بقى من أمراء الدولة وأنزل أصحابه فى دورهم فى ليلة واحدة فأصبح فى البلد من العويل والبكاء ما يذهل وتحكم أصحابه فى البلد بأيديهم وأخرج اقطاعات سائر المصريين لأصحابه وقبض على بلاد العاضد ومنع عنه سائر مواده وقبض على القصور وسلمها إلى الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى وجعله زمامها فضيق على أهل القصر وصار العاضد معتقلا تحت يده وأبطل من الأذان حى على خير العمل وأزال شعار الدولة وخرج بالعزم على قطع خطبة العاضد فمرض ومات وعمره إحدى وعشرون سنة إلا عشرة أيام منها فى الخلافة إحدى عشرة سنة وستة أشهر وسبعة أيام. وذلك فى ليلة يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة بعد قطع اسمه من الخطبة والدعاء للمستنجد العباسى بثلاثة أيام وكان كريما لين الجانب مرت به مخاوف وشدائد وهو آخر الخلفاء الفاطميين بمصر وكانت مدتهم بالمغرب ومصر منذ قام عبيدالله المهدى إلى أن مات العاضد مائتى سنة واثنتين وسبعين سنة وأياما بالقاهرة منها مائتان وثمانى سنين فسبحان الباقى.

ذكر ما كان عليه موضع القاهرة قبل وضعها

أعلم أن مدينة الإقليم منذ كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص رضى اللّه عنه كانت مدينة الفسطاط المعروفة فى زماننا بمدينة مصر قبلى القاهرة، وبها كان محل الأمراء ومنزل ملكهم وإليها تجبى ثمرات الأقاليم وتاوى الكافةوكانت قد بلغت من وفورالعمارة وكثرة الناس وسعة الأرزاق والتفنن فى أنواع الحضارة والتأنق فى النعيم ما أربت به على كل مدينة فى المعمور حاشا بغداد فإنها كانت سوق العالم وقد زاحمتها مصر وكادت أن تساميها إلا قليلا ثم لما انقضت الدولة الإخشيدية من مصر واختل حال الاقليم بتوالى الغلوات وتواتر الأوباء والفنوات حدثت مدينة القاهرة عند قدوم جيوش المعز لدين الله أبى تميم معد أمير المؤمنين على يد عبده وكاتبه القائد جوهر . فنزل حيث القاهرة الآن وأناخ هناك وكانت حينئذ رملة فيما بين مصر وعين شمس يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس وكانت فيما بين الخليج المعروف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين، ثم قيل له خليج القاهرة، ثم هو الآن يعرف بالخليج الكبير وبالخليج الحاكمى وبين الخليج المعروف باليحاميم وهو الجبل الأحمر وكان الخليج المذكور فاصلا بين الرملة المذكورة وبين القرية التى يقال لها أم دنين ثم عرفت الآن بالمقس وكان من يسافر من الفسطاط إلى بلاد الشام ينزل بطرف هذه الرملة فى الموضع الذى كان يعرف بمنية الأصبغ، ثم عرف إلى يومنا بالخندق وتمر العساكر والتجار وغيرهم من منية الأصبغ إلى بنى جعفر على غيفة وسلمنت إلى بلبيس وبينها وبين مدينة الفسطاط أربعة وعشرون ميلا ومن بلبيس إلى العلاقمة إلى الفرما، ولم يكن الدرب الذى يسلك فى وقتنا من القاهرة إلى العريش فى الرمل يعرف فى القديم، وإنما عرف بعد خراب تنيس والفرما وإزاحة الفرنج عن بلاد الساحل بعد تملكهم له مدة من السنين، وكان من يسافر فى البر من الفسطاط إلى الحجاز ينزل بجب عميرة المعروف اليوم ببركة الجب، وببركة الحاج ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة فيها بنيان سوى أماكن هى بستان الإخشيد محمد بن طغج المعروف اليوم بالكافورى من القاهرة، ودير للنصارى يعرف بئر العظام تزعم النصارى أن فيه بعض

من أدرك المسيح عليه السلام وبقى الآن بذر هذا الدير وتعرف ببئر العظام والعامة تقول بئر العظمة وهى بجوار الجامع الأقمر من القاهرة ومنها ينقل الماء إليه وكان بهذه الرملة أيضا مكان ثالث يعرف بقصير الشوك بصيغة التصغير تنزله بنو عذرة فى الجاهيلة وصار موضعه عند بناء القاهرة يعرف بقصر الشوك من جملة القصور الزاهرة هذا الذى اطلعت عليه أنه كان فى موضع القاهرة قبل بنائها بعد الفحص والتفتيش وكان النيل حينئذ بشاطىء المقس يمر من موضع الساحل القديم بمصر الذى هو الآن سوق المعاريج وحمام طن والمراغة وبستان الجرف وموردة الحلفاء ومنشأة المهرانى على ساحل الحمراء وهى موضع قناطر السباع فيمر النيل بساحل الحمراء إلى المقس موضع جامع المقس الآن وفيما بين الخليج وبين ساحل النيل بساتين الفسطاط فإذا صار النيل إلى المقس حيث الجامع الآن مر من هناك على طرف الأرض التى تعرف اليوم بأرض الطبالة من الموضع المعروف اليوم بالجرف وصار إلى البعل ومر على طرف منية الأصبغ من غربى الخليج إلى المنية وكان فيما بين الخليج والجبل مما يلى بحرى موضع القاهرة مسجد بنى على رأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن أبى طالب، ثم مسجد تبر الإخشيدى فعرف بمسجد تبر والعامة تقول مسجد التبن ولم يكن الممر من الفسطاط إلى عين شمس وإلى الحوف الشرقى وإلى البلاد الشامية إلا بحافة الخليج ولا يكاد يمر بالرملة التى فى موضعها الآن مدينة القاهرة كثير جدا ولذلك كان بها دير للنصارى، إلا أنه لما عمر الأخشيد البستان المعروف بالكافورى أنشأ بجانبه ميدانا، وكان كثيرا ما يقيم به وكان كافور أيضا يقيم به وكان فيما بين موضع القاهرة ومدينة الفسطاط مما يلى الخليج المذكور أرض تعرف فى القديم منذ فتح مصر بالحمراء القصوى، وهى موضع قناطر السباع وجبل يشكر حيث الجامع الطولونى وما دار به، وفى هذه الحمراء عدة كنائس وديارات للنصارى خربت شيئا بعد شىء إلى أن خرب آخرها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون وجميع ما بين القاهرة ومصر مما هو موجود الآن من العمائر فإنه حادث بعد بناء القاهرة، ولم يكن هناك قبل بنائها شىء البتة سوى كنائس الحمراء وسيأتى بيان ذلك مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ذكر حد القاهرة

قال ابن عبد الظاهر فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة : الذى استقر عليه الحال إن حد القاهرة من مصر من السبع سقايات وكان قبل ذلك من المجنونة إلى مشهد السيدة رقية عرضا ، والآن تطلق القاهرة على ما حازه السور الحجر الذى طوله من باب زويلة الكبير إلى باب الفتوح وباب النصر ، وعرضه من باب سعادة وباب الخوخة إلى باب البرقية والباب المحروق ثم لما توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة فسطاط مصر وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق . حيث شاطىء النيل وامتدوا بالعمارة من بولاق على الشاطىء إلى أن اتصلت بمنشأة المهرانى وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السّور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين أحدهما يقال له القاهرة والآخر يقال له مصر فأما مصر فإن حدها على ما وقع عليه الاصطلاح فى زمننا هذا الذى نحن فيه من حد أول قناطر السباع إلى طرف بركة الحبش القبلى مما يلى بساتين الوزير وهذا هو طول حد مصر وحدها فى العرض من شاطىء النيل الذى يعرف قديما بالساحل الجديد حيث فم الخليج الكبير ، وقنطرة السد إلى أول القرافة الكبرى . .

وأما حد القاهرة فإن طولها من قناطر السباع إلى الريدانية ، وعرضها من شاطىء النيل ببولاق إلى الجبل الأحمر ، ويطلق على ذلك كله مصر ، والقاهرة . وفى الحقيقة قاهرة المعز التى أنشأها القائد جوهر عند قدومه من حضرة مولاه المعز لدين الله أبى تميم معد إلى مصر فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إنما هى ما دار عليه السور فقط . غير أن السور المذكور الذى أداره القائد جوهر تغير وعمل منذ بنيت إلى زمننا هذا ثلاث مرات ، ثم حدثت العمائر فيما وراء السور من القاهرة فصار يقال لداخل السور القاهرة ولما خرج عن السور ظاهر القاهرة . . وظاهر القاهرة أربع جهات الجهة القبلية وفيها الآن معظم العمارة وحد هذه الجهة طولا من عتبة باب زويلة إلى الجامع الطولونى وما بعد الجامع الطولونى

فإنه من حد مصر وحدها عرضا من الجامع الطيبرسى بشاطىء النيل غربى المريس إلى قلعة الجبل وفى الاصطلاح الآن أن القلعة من حكم مصر . . والجهة البحرية وكانت قبل السبعمائة من سنى الهجرة وبعدها إلى قبيل الوباء الكبير فيها أكثر العمائر والمساكن ثم تلاشت من بعد ذلك، وطول هذه الجهة من باب الفتوح وباب النصر إلى الريدانية وعرضها من منية الأمراء المعروفة فى زمننا الذى نحن فيه بمنية الشيرج إلى الجبل الأحمر ويدخل فى هذا الحد مسجد تبر والريدانية . . والجهة الشرقية فإنها حيث ترب أهل القاهرة ولم تحدث بها العمائر من التربة إلا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، وحد هذه الجهة طولا من باب القلعة المعروف بباب السلسلة إلى ما يحاذى مسجد تبر فى سفح الجبل وحدها عرضا فيما بين سور القاهرة والجبل والجهة الغربية فأكثر العمائر بها لم يحدث أيضا إلا بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وإنما كانت بساتين وبحرا وحد هذه الجهة طولا من منية الشيرج إلى منشأة المهرانى بحافة بحر النيل وحدها عرضا من باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة إلى ساحل النيل . وهذه الأربع جهات من خارج السور يطلق عليها ظاهر القاهرة.

وتحوى مصر والقاهرة من الجوامع والمساجد والربط والمدارس والزوايا والدور العظيمة والمساكن الجليلة والمناظر البهيجة والقصور الشامخة والبساتين النضرة والحمامات الفاخرة والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس والخانات المشحونة بالواردين والفنادق الكاظة بالسكان، والترب التى تحكى القصور ما لا يمكن حصره ولا يعرف ما هو قدره إلا أن قدر ذلك بالتقريب الذى يصدقه الاختبار طولا بريدا وما يزيد عليه، وهو من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش وعرضا يكون نصف بريد فما فوقه وهو من ساحل النيل إلى الجبل ويدخل فى هذا الطول والعرض بركة الحبش وما دار بها وسطح الجرف المسمى بالرصد، ومدينة الفسطاط التى يقال لها مدينة مصر والقرافة الكبرى والصغرى وجزيرة الحصن المعروف اليوم بالروضة ومنشأة المهرانى وقطائع بن طولون التى تعرف الان بحدرة بن قميحة وخط جامع بن طولون والرميلة تحت القلعة والقبيبات وقلعة الجبل والميدان الأسود الذى هو اليوم مقابر أهل القاهرة خارج باب

البرقية إلى قبة النصر والقاهرة المعزية وهو ما دار عليه السور الحجر والحسينية والريدانية والخندق وكوم الريش وجزيرة الفيل وبولاق والجزيرة الوسطى المعروفة بجزيرة أروى وزريبة قوصون وحكر ابن الأثير ومنشأة الكاتب والاحكار التى فيما بين القاهرة وساحل النيل وأراضى اللوق والخليج الكبير الذى تسميه العامة بالخليج الحاكمى والحبانية والصليبة والتبانة ومشهد السيدة نفيسة وباب القرافة وأرض الطبالة والخليج الناصرى والمقس والدكة وغير ذلك مما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى وقد أدركنا هذه المواضع وهى عامرة والمشيخة تقول هى خراب بالنسبة لما كانت عليه قبل حدوث طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة الذى يسميه أهل مصر الفناء الكبير وقد تلاشت هذه الأماكن وعمها الخراب منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ولله عاقبة الأمور.

ذكر بناء القاهرة
وما كانت عليه فى الدولة الفاطمية

وذلك أن القائد جوهرا الكاتب لما قدم الجيزة بعساكر مولاه الإمام المعز لدين اللّهأبى تميم معد، أقبل فى يوم الثلاثاء لسبع عشر خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وسارت عساكره بعد زوال الشمس وعبرت الجسر أفواجا وجوهر فى فرسانه إلى المناخ الذى رسم له المعز موضع القاهرة الآن فاستقر هناك واختط القصر، وبات المصريون فلما أصبحوا حضروا للهناء فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل وكانت فيه ازورارات غير معتدلة فلما شاهدها جوهر لم يعجبه ثم قال قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام ويقال إن القاهرة اختطها جوهر فى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين واختطت كل قبيلة خطة عرفت بها فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين حارة الروم الآن وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر وقصد جوهر باختطاط القاهرة

حيث هى اليوم أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة وكان مقدار القاهرة حينئذ أقل من مقدارها اليوم فإن أبوابها كانت من الجهات الأربعة ففى الجهة القبلية التى تقضى بالسالك منها إلى مدينة مصر بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة وموضعهما الآن بحذاء المسجد الذى تسميه العام بسام بن نوح ، ولم يبق إلى هذا العهد سوى عقده ويعرف بباب القوس وما بين باب القوس هذا وباب زويلة الكبير ليس هو من المدينة التى أسسها القائد جوهر وإنما هى زيادة حدثت بعد ذلك وكان فى جهة القاهرة البحرية فى جهة وهى التى يسلك منها إلى عين شمس بابان أحدهما باب النصر وموضعه بأول الرحبة التى قدام الجامع الحاكمى الآن وأدركت قطعة منه كانت قدام الركن الغربى من المدرسة القاصدية ، وما بين هذا المكان وباب النصر الآن مما زيد فى مقدار القاهرة بعد جوهر ، والباب الآخر من الجهة البحرية باب الفتوح وعقده باق إلى يومنا هذا مع عضادته اليسرى وعليه أسطر مكتوبة بالقلم الكوفى وموضع هذا الباب الآن بآخر سوق المرحلين وأول رأس حارة بهاء الدين مما يلى باب الجامع الحاكمى ، وفيما بين هذا العقد وباب الفتوح من الزيادات التى زيدت فى القاهرة من بعد جوهر وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان أحدهما يعرف الآن بالباب المحروق ، والآخر يقال له باب البرقية وموضعهما دون مكانهما الآن ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة بين السورين وأحد البابين القديمين موجود إلى الآن أسكفته ، وكان فى الجهة الغربية من القاهر ةوهى المطلة على الخليج الكبير بابان أحدهما باب سعادة والآخر باب الفرج وباب ثالث يعرف بباب الخوخة . أظنه حدث بعد جوهر وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع يقال لأحد القصرين القصر الكبير الشرقى وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه موضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك وهو الذى أسسه القائد جوهر وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء والآخر تجاه هذا القصر ويعرف

بالقصر الغربى وكان يشرف على البستان الكافورى ويتحول إليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج وعلى ما كان إذ ذاك بجانب الخليج الغربى من البركة التى يقال لها بطن البقرة ومن البستان المعروف وبالبغدادية وغيره من البساتين التى كانت تتصل بأرض اللوق وجنان الزهرى وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر.

فأما القصر الكبير الشرقى فإنه كان من باب الذهب الذى موضعه الآن محراب المدرسة الظاهرية، التى أنشأها الظاهر ركن الدين بيبرس البند قد ارى، وكان يعلو عقد باب الذهب منظرة يشرف الخليفة فيها من طاقات فى أوقات معروفة وكان باب الذهب هذا هو أعظم أبواب القصر ويسلك من باب الذهب المذكور إلى باب البحر وهو الباب الذى يعرف اليوم بباب قصر بشتاك مقابل المدرسة الكاملية، وهو باب البحر إلى الركن المخلق ومنه إلى باب الريح، وقد أدركنا منه عضادتيه وأسكفته وعليها أسطر بالقلم الكوفى وجميع ذلك مبنى بالحجر إلى أن هدمه الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الاستادار وفى موضعه الآن قيسارية أنشأها المذكور بجوار مدرسته من رحبة باب العيد ويسلك من باب الريح المذكور إلى باب الزمرذ وهو موضع المدرسة الحجازية الآن ومن باب الزمرذ إلى باب العيد وعقده باق وفوقه قبة إلى الآن فى درب السلامى بخط رحبة باب العيد وكان قبالة باب العيد هذا رحبة عظيمة فى غاية الاتساع تقف فيها العساكر الكثيرة من الفارس والراجل فى يومى العيدين تعرف برحبة العيد وهى من باب الريح إلى خزانة البنود، وكان يلى باب العيد السفينة وبجوار السفينة خزانة البنود ويسلك من خزانة البنود إلى باب قصر الشوك وأدركت منه قطعة من أحد جانبيه كانت تجاه الحمام التى عرفت بحمام الايد مرى ثم قيل لها فى زمننا حمام يونس بجوار المكان المعروف بخزانة البنود وقد عمل موضع هذا الباب زقاق يسلك منه إلى المارستان العتيق وقصر الشوك ودرب السلامى وغيره ويسلك من باب قصر الشوك إلى باب الديلم وموضعه الآن المشهد الحسينى وكان فيما بين قصر الشوك وباب الديلم رحبة عظيمة تعرف برحبة قصر الشوك. أولها من رحبة خزانة البنود، وآخرها حيث المشهد الحسينى الآن، وكان قصر الشوك يشرف على اصطبل الطارمة. ويسلك من باب الديلم إلى باب تربة الزعفران وهى مقبرة أهل القصر من الخلفاء

وأولادهم ونسائهم وموضع باب تربة الزعفران فندق الخليلى فى هذا الوقت ويعرف بخط الزراكشة العتيق وكان فيما بين الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع التى يتوصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر فى ليالى الوقدات . فيجلس بمنظرة الجامع الأزهر ومعه حرمه لمشاهدة الوقيد والجمع ، وبجوار الخوخ السبع اصطبل الطارمة وهو برسم الخيل الخاص المعدة لركاب الخليفة ، وكان مقابل باب الديلم ومن وراء اصطبل الطارمة الجامع المعد لصلاة الخليفة بالناس أيام الجمع وهو الذى يعرف فى وقتنا هذا بالجامع الأزهر ويسمى فى كتب التاريخ بجامع القاهرة وقدام هذا الجامع رحبة متسعة من حد اصطبل الطارمة إلى الموضع الذى يعرف اليوم بالاكفانيين ، ويسلك من باب تربة الزعفران إلى باب الزهومة وموضعه الآن باب سر قاعة مدرسة الحنابلة من المدارس الصالحية وفيما بين تربة الزعفران وباب الزهومة دراس العلم وخزانة الدرق ويسلك من باب الزهومة إلى باب الذهب المذكور أولا وهذا هو دور القصر الشرقى الكبير وكان بحذاء رحبة باب العيد دار الضيافة وهى الدار المعروفة بدار سعيد السعداء التى هى اليوم خانقاه للصوفية ويقابلها دار الوزارة وهى حيث الزقاق المقابل لباب سعيد السعداء والمدرسة القراسنقرية وخانقاه بيبرس وما يجاورها إلى باب الجوانية وما وراء هذه الأماكن وبجوار دار الوزارة الحجر وهى من حذاء دار الوزارة بجوار الجوانية إلى باب النصر القديم ومن وراء دار الوزارة المناخ السعيد وبجاوره حارة العطوفية وحارة الروم الجوانية وكان جامع الخطبة الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم خارجا عن القاهرة وفى غربيه الزيادة التى هى باقية إلى اليوم وكانت أهراء لخزن الغلال التى تدخر بالقاهرة كما هى عادة الحصون وكان فى غربى الجامع الأزهر حارة الديلم وحارة الروم البرانية وحارة الأتراك وهى تعرف اليوم بدرك الأتراك وحارة الباطلية وفيما بين باب الزهومة والجامع الأزهر وهذه الحارات خزائن القصر وهى خزانة الكتب وخزانة الاشربة وخزانة السروج وخزانه الخيم وخزائن الفرش وخزائن الكسوات وخزائن دار افتكين ودار الفطرة ودارالتعبية وغير ذلك من الخزائن ، هذا ما كان فى الجهة الشرقية من القاهرة .

وأما القطر الصغير الغربى فإنه موضع المارستان الكبير المنصورى إلى جوار حارة برجوان وبين هذا القصر وبين القصر الكبير الشرقى فضاء متسع . يقف فيه عشرة آلاف من

العساكر ما بين فارس وراجل يقال له بين القصرين وبجوار القصر الغربى الميدان وهو الموضع الذى يعرف بالخرنشف واصطبل الطارمة وبحذاء الميدان البستان الكافورى المطل من غربيه على الخليج الكبير، ويجاور الميدان دار برجوان العزيزى، وبحذائها رحبة الأفيال ودار الضيافة، القديمة ويقال لهذه المواضع الثلاثة حارة برجوان ويقابل دار برجوان المنحر وموضعه الآن يعرف بالدرب الأصفر ويدخل إليه من قبالة خانقاه بيبرس وفيما بين ظهر المنحر وباب حارة برجوان سوق أمير الجيوش وهو من باب حارة برجوان الآن إلى باب الجامع الحاكمى ويجاور حارة برجوان من بحريها اصطبل الحجرية وهو متصل بباب الفتوح الأول وموضع باب اصطبل الحجرية يعرف اليوم بخان الوراقة والقيسارية تجاه الجملون الصغير وسوق المرحلين وتجاه اصطبل الحجرية الزيادة، وفيما بين الزيادة، والمنحر درب الفرنجية وبجوار البستان الكافورى حارة زويلة وهى تتصل بالخليج الكبير من غربيها، وتجاه حارة زويلة اصطبل الجميزة وفيه خيول الخليفة أيضا وفى هذا الاصطبل بئر زويلة وموضعها الآن قيسارية معقودة على البئر المذكورة يعلوها ربع يعرف بقيسارية يونس من خط البندقانيين. فكان اصطبل الجميزة المذكور فيما بين القصر الغربى من بحرية وبين حارة زويلة وموضعه الآن قبالة باب سر المارستان المنصورى إلى البندقانيين وبحذاء القصر الغربى من قبليه مطبخ القصر تجاه باب الزهومة المذكور والمطبخ موضعه الآن الصاغة قبالة المدارس الصالحية وبجوار المطبخ الحارة العدوية وهى من الموضع الذى يعرف بحمام خشيبة إلى حيث الفندق الذى يقال له فندق الزمام وبجوار العدوية حارة الأمراء ويقال لها اليوم سوق الزجاجين وسوق الحريريين الشراربيين ويجاور الصاغة القديمة حبس المعونة وهو موضع قيسارية العنبر وتجاه حبس المعونة عقبة الصباغين وسوق القشاشين وهو يعرف اليوم بالخراطين ويجاور حبس المعونة دكة الحسبة ودارالعيارويعرف موضع دكة الحسبة الآن بالابزاريين، وفيما بين دكة الحسبة وحارتى الروم والديلم سوق السراجين ويقال له الآن الشوايين، وبطرف سوق السراجين مسجد ابن البناء الذى تسميه العامة سام بن نوح ويجاور هذا المسجد باب زويلة وكان من حذاء حارة زويلة من ناحية باب الخوخة دار الوزير يعقوب بن كلس وصارت بعده دار الديباج ودارالاستعمال وموضعها الآن المدرسة الصاحلية وما وراءها ويتصل دارالديباج بالحارة الوزيرية وإلى جانب الوزيرية الميدان الآخر

إلى باب سعادة وفيما بين باب سعادة وباب زويلة أهراء أيضا وسطاح . . هذا ما كانت عليه صفة القاهرة فى الدولة الفاطمية ، وحدثت هذه الأماكن شيئا بعد شيء ، ولم تزل القاهرة دار خلافة ومنزل ملك و ، معقل قتال لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرفهم بقربه فقط .

وأما ظاهر القاهرة من جهاتها الأربع فإنه كان فى الدولة الفاطمية على ماأذكر . . أما الجهة القبلية وهى التى فيما بين باب زويلة ومصر طولا ، وفيما بين الخليج الكبير والجبل عرضا ، فإنها كانت قسمين ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر ، وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . . فأما ما حاذى يمينك وهى المواضع التى تعرف اليوم بدارالتفاح وتحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الخرق ، وما على حافتى الخليج من جانبيه طولا ، إلى الحمراء التى يقال لها اليوم خط قناطر السباع ، ويدخل فى ذلك سويقة عصفور وحارة الحمزيين وحارة بنى سوس إلى الشارع وبركة الفيل ، والهلالية والمحمودية إلى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة . فإن هذه الأماكن كلها كانت بساتين تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الإسلام وغير ذلك . ثم حدث فى الدولة هناك حارات للسودان ، وعمر الباب الجديد وهو الذى يعرف اليوم بباب القوس من سوق الطيور فى الشارع وحدثت الحارة الهلالية والحارة المحمودية . . وأما ما حاذى شمالك حيث الجامع المعروف بجامع الصالح ، والدرب الأحمر إلى قطائع بن طولون ، التى هى الآن الرميلة والميدان تحت القلعة . فإن ذلك كان مقابر أهل القاهرة .

وأما جهة القاهرة الغربية وهى التى فيها الخليج الكبير وهى من باب القنطرة إلى المقس وما جاور ذلك . فإنها كانت بساتين من غربيها النيل وكان ساحل النيل بالمقس حيث الجامع الآن . فيمر من المقس إلى المكان الذى يقال له الجرف ، ويمضى على شمالى أرض الطبالة إلى البعل وموضع كوم الريش إلى المنية ، ومواضع هذه البساتين اليوم أراضى اللوق والزهرى وغيرها من الحكورة التى فى بر الخليج الغربى إلى بركة قرموط والخور وبولاق . وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بنيان فيه . والمناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى وراءها بحر النيل ، ويخرج الناس فيما بين المناظ والخليج للنزهة . فيجتمع هناك من أرباب البطالة واللهو ما لا يحصى عددهم ، ويمر لهم هنالك من اللذات والمسرات ما لا تسع الأوراق حكايته خصوصا فى

أيام النيل عندما يتحول الخليفة إلى اللؤلؤة ويتحول خاصته إلى دار الذهب وما جاورها . فإنه يكثر حينئذ الملاذ بسعة الأرزاق وإدرار النعم فى تلك المدة ـ كما يأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى .

وأما جهة القاهرة البحرية فإنها كانت قسمين . خارج باب الفتوح وخارج باب النصر . . أما خارج باب الفتوح فإنه كان هناك منظرة من مناظر الخلفاء وقدامها البستانان الكبيران وأولهما من زقاق الكحل ، وآخرهما منية مطر التى تعرف اليوم بالمطرية ، ومن غربى هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربى منظرة البعل فيما بين أرض الطبالة والخندق ، وبالقرب منها مناظر الخمس وجوه والتاج ذات البساتين الأنيقة المنصوبة لتنزه الخليفة . وأما خارج باب النصر فكان به مصلى العيد التى عمل من بعضها مصلى الأموات لاغير . والفضاء من المصلى إلى الريدانية وكان بستانا عظيما ثم حدث فيما خرج من باب النصر تربة أمير الجيوش بدر الجمالى ، وعمر الناس الترب بالقرب منها ، وحدث فيما خرج عن باب الفتوح عمائر منها الحسينية وغيرها . . وأما جهة القاهرة الشرقية . وهى ما بين السور والجبل فإنه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم بأمر اللّه أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور لتمنع السيول أن تدخل إلى القاهرة . فصار منها الكيمان التى تعرف بكيمان البرقية ، ولم تزل هذه الجهة خالية من العمارة إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فسبحان الباقى بعد فناء خلقه .

ذكر ما صارت إليه القاهرة بعد استيلاء الدولة الأيوبية عليها

قد تقدم أن القاهرة إنما وضعت منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجأ ، وإنها ما برحت هكذا حتى كانت السنة العظمى فى خلافة المستنصر ثم قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وسكن القاهرة ، وهى يباب دائرة خاوية على عروشها غير عامرة ، فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته

إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله. فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها، فمن حينئذ سكنها أصحاب السلطان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية باستيلاء السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة فنقلها عما كانت عليه من الصيانة وجعلها متبذلة لسكن العامة والجمهور، وحط من مقدار قصور الخلافة واسكن فى بعضها، وتهدم البعض وأزيلت معالمه وتغيرت معاهده، فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة ونزل السلطان منها فى دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل. فكان السلطان صلاح الدين يتردد إليها ويقيم بها وكذلك ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر. فلما كان الملك الكامل ناصر الدين محد بن العادل أبى بكر بن أيوب تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها، ونقل سوق الخيل والجمال والحمير إلى الرميلة تحت القلعة، فلما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكيزخان فى أعوام بضع عشرة وستمائة إلى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد فى صفر سنة ست وخمسين وستمائة كثر قدوم المشارقة إلى مصر، وعمرت حافتى الخليج الكبير ومادار على بركة الفيل، وعظمت عمارة الحسينية. فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون الثالثة بعد سنة إحدى عشرة وسبعمائة واستجد بقلعة الجبل المبانى الكثيرة من القصور وغيرها، حدثت فيما بين القلعة وقبة النصر عدة ترب بعدما كان ذلك المكان فضاء يعرف بالميدان الأسود وميدان القبق، وتزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية إلى باب الفتوح، وعمر جميع ما حول بركة الفيل والصليبة إلى جامع بن طولون وما جاوره إلى المشهد النفيسى وحكر الناس أرض الزهرى وما قرب منها، وهو من قناطر السباع إلى منشأة المهرانى ومن قناطر السباع إلى البركة الناصرية إلى اللوق إلى المقس. فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرى اتسعت الخطة فيما بين المقس والدكة إلى ساحل النيل، وأنشأ الناس فيها البساتين العظيمة والمساكن الكثيرة والأسواق والجوامع والمساجد والحمامات والشون وهى من المواضع التى من باب البحر خارج المقس إلى ساحل النيل المسمى ببولاق ومن بولاق إلى منية الشيرج، ومنه إلى القبلة إلى منشأة المهرانى، وعمر ما خرج عن باب زويلة يمنة ويسرة من قنطرة الخرق إلى الخليج ومن باب

زويلة إلى المشهد النفيسى ، وعمرت القرافة من باب القرافة إلى بركة الحبش طولا ، ومن القرافة الكبرى إلى الجبل عرضا ، حتى أنه استجد فى أيام الناصر بن قلاون بضع وستون حكرا ، ولم يبق مكان يحكر ، واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارا بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياسر والأسواق والفنادق والحانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمنتزهات . متصلا جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، ومن شاطىء النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم . ومازالت هذه الأماكن فى كثرة العمارة وزيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتهم وتختال عجبا بهم لما بالغوا فى تحسينها وتأنقوا فى جودتها وتنميقها إلى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة . فخلا كثير من هذه المواضع ، وبقى كثير أدركناه . فلما كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة وقصر جرى النيل فى مده ، وخربت البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمور لنك وتحريقها وقتل أهلها ، وارتفاع أسعار الديار المصرية وكثرة الغلاء فيها ، وطول مدته وتلاف النقود المتعامل بها وفسادها ، وكثروة الحروب والفتن بين أهل الدولة وخراب الصعيد وجلاء أهله عنه ، وتداعى أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية والغربية إلى الخراب ، واتضاع أمور ملوك مصر وسوء حال الرعية ، واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس ، وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور ، وتتبع أرباب الأموال واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة ، وطرح البضائع مما يتجر فيه السلطان وأصحابه على التجار والباعة بأغلى الأثمان . إلى غير ذلك مما لا يتسع لأحد ضبطه ، ولا تسع الأوراق حكايته كثر الخراب بالأماكن التى تقدم ذكرها ، وعم سائرها ، وصارت كيمانا وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم والرخم أو مستهدمة واقعة أو آيلة إلى السقوط والدثور . سنة اللّهقد خلت فى عباده ولن تجد لسنة اللّه تبديلا .

ذكر طرف مما قيل فى القاهرة و منتزهاتها

قال أبو الحسن على بن رضوان الطبيب : ويلى الفسطاط فى العظم وكثرة الناس القاهرة. وهى فى شمال الفسطاط وفى شرقيها أيضا الجبل المقطم يعوق عنها ريح الصبا، والنيل منها أبعد قليلا، وجميعها مكشوف للهواء، وإن كان عمل فوق ربما عاق عن بعض ذلك، وليس ارتفاع الأبنية بها كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيرا، وأزقتها وشوارعها بالقياس إلى أزقة الفسطاط وشوارعها أنظف وأقل وسخا وأبعد عن العفن، وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار، وإذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار الفسطاط على القاهرة شيئا كثيرا، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة أن تكون يصل إليها بالرشح من عقونة الكنف شىء ما، وبين القاهرة والفسطاط بطائح تمتلىء من رشح الأرض فى أيام فيض النيل ويصب فيها بعض خرارات القاهرة، ومياه البطائح هذه ردئية وسخة أرضها، وما يصب فيها من العفونة يقتضى أن يكون البخار المرتفع منها على القاهرة والفسطاط زائدا فى رداءة الهواء بهما، ويطرح فى جنوب القاهرة قذر كثير نحو حارة الباطلية، وكذلك يطرح فى وسط حارة العبيد. إلا أنه إذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسطاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالا . لأن أكثر عفوناتهم ترمى خارج المدينة، والبخار ينحل منها أكثر، وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل، وخاصة فى أيام دخوله الخليج، وهذا الماء يستقى بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها قال : وقد اقتصر أمر الفسطاط والجيزة، والجزيرة فظاهر أن أصح أجزاء المدينة الكبرى القرافة ثم القاهرة والشرف وعمل فوق مع الحمراء والجيزة وشمال القاهرة أصح من جميع هذه لبعده عن بخار الفسطاط وقربه من الشمال، وأرقى موضع فى المدينة الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل والسواحل وإلى جانب القاهرة من الشمال الخندق وهو فى غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب، فأما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب.

وقال بن سعيد فى كتاب المعرب فى حلى المغرب عن البيهقى ، وأما مدينة القاهرة فهى الحالية الباهرة التى تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا فى بنائها ، واتخذوها وطنا لخلافتهم ومركزا لأرجائها . فنسى الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط . قال : وسميت القاهرة لأنها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة أميرها ، وقدروا أن منها يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم ، وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به قال بن سعيد : هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين، كان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط وخطب له فى البحرين من جزيرة عند القرامطة ، وفى مكة والمدينة وبلاد اليمن وما جاورها، وقد علت كلمته وسارت مسير الشمس فى كل بلدة ، وهبت هبوب الريح فى البر والبحر . لاسيما وقد عاين مبانى أبيه المنصور فى مدينة المنصورية التى إلى جانب القيروان، وعاين المهدية مدينة جده عبيد اللّه المهدى . لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهى ناطقة إلى الآن بألسن الآثار ولله در القائل :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها

من بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم شأنه

أضحى يدل على عظيم الشان

واهتم من بعد الخلفاء المصريون بالزيادة فى تلك القصور . وقد عاينت فيها أيوانا يقولون إنه بنى على قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن وكان يجلس فيه خلفاؤهم ، ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار ، وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس . ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة ، والمكان المعروف فى القاهرة ببين القصرين هو من الترتيب السلطانى . لأن هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ، ولو كانت القاهرة عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين

الدكاكين إذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان ذلك ماتضيق منه الصدور وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه أمراء الدولة وهو فى موكب جليل، وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه، وقد كاد يهلك المشاة، وكدت أهلك فى جملتهم، وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والأزبال، والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينهما، ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى ويدركنى وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. . ومن عيوب القاهرة إنها فى أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها، وإذا احتاج الإنسان إلى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور إلى موضع يعرف بالمقس، وجوّها لا يبرح كدرا بما تثيره الأرجل من التراب الأسود، وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها:

يقولون سافر إلى القاهرة
وما لى بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب وما
تثير بها أرجل السائره

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوا مغبرا، فتنقبض نفسه ويفر أنسه وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة. لاسيما أرض القرط والكتان فقلت:

سقى اللّه أرضا كلما زرت أرضها
كساها وحلاها بزينته القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها
وفى كل قطر من جوانبها قرط

وفيها خليج لا يزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى :

مازالت الأنحـال تأخـذه

حـتى غـدا كذؤابة النجـم

وقلت فى نوار الكتان على جانبى هذا الخليج :

انظر إلى النهر والكتان يرمقه

من جانبيه بأجفـان لها حدق

رأته سيفا عليه للصبا شطب

فقـابلته بأحـداق بها أرق

وأصبحت فى يد الأرواح تنسجها

حتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم وزرها ووجه الأفق متضح

أو عنـد صفرته إن كنت تعتبق

وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر، والمناظر فوقها كالنجوم، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل، وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم. فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت

بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى والأبصار ترمقها

كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت إليها وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت :

انظر إلى بركة الفيل التى نحرت

لها الغزالة نحرا من مطالعها

وخل طرفك مجنونا ببهجتها

تهيم وجدا وحبا فى بدائعها .

والفسطاط أكثر أرزاقا، وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. فالمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لأنه بعيد عن المدينة. . والقاهرة هى أكثرعمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط. لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها. لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر، وبها الطراز وسائر الأشياء التى تتزين بها الرجال والنساء. إلا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان الآن ببناء قلعة الجزيرة التى أمام الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط، وانتقل إليها كثير من الأمراء وضخمت أسواقها، وبنى فيها للسلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة تنقل إليها من القاهرة سوق الأجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وماأشبه ذلك، ومعاملة القاهرة والفسطاط بالدراهم المعروفة بالسوداء كل درهم منها ثلث من الدرهم الناصرى، وفى المعاملة بها شدة وخسارة فى البيع والشراء ومخاصمة مع الفريقين. وكان بها فى القديم الفلوس فقطعها الملك الكامل فبقيت إلى الآن مقطوعة منها، وهى فى الأقليم الثالث وهواؤها ردىء. لاسيما إذا هب المريسى من جهة القبلة، وأيضا رمد العين فيها كثير والمعايش فيها متعذرة ونزرة. لاسيما أصناف الفضلاء وجوامك المدارس قليلة كدرة، وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الخراج والطب، والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم، واليهود بعلامة صفراء فى عمائمهم ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة، ومآكل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ، ولا تصنع النيدة وهى حلاوة القمح إلا بها وبغيرها من الديار المصرية، وفيها

جوار طباخات أصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين، لهن فى المطبخ صناعة عجيبة ورياسة متقدمة، ومطابخ السكر والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة، ويصنع فيها من الانطاع المستحسنة ما يسفر إلى الشام وغيرها، ولها من الشروب الدمياطية وأنواعها ما اختصت به، وفيها صناع للقسى كثيرون متقدمون، ولكن قسى دمشق بها يضرب المثل وإليها النهاية، ويسفر من القاهرة إلى الشام ما يكون من أنواع الكمرانات وخرائط الجلد والسيور وما أشبه ذلك، وهى الآن عظيمة آهلة يجىء إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا، وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف على طلب زكاة ولا ترسيما وعذابا، ولا يطلب برفيق له إذا مات فيقال له ترك عندك مالا فربما سجن فى شأنه أو ضرب وعصر، والفقير المجرد فيها مستريح من جهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو غيرها أو صحبة المردان وأشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب. وسائر الفقراء لا يعترضون بالقبض للأسطول إلا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر، فقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف، وهم فى القدوم عليها بين حالين. إن كان المغربى غنيا طولب بالزكاة وضيقت عليه أنفاسه حتى يفر منها، وإن كان مجردا فقيرا حمل إلى السجن حتى يجيء وقت الأسطول، وفى القاهرة أزاهير كثيرة غير منقطعة الاتصال وهذا الشأن فى الديار المصرية تفضل به كثيرا من البلاد، وفى اجتماع النرجس والورد فيها أقول:

من فضل النرجس وهو الذى

يرضى بحكم الورد إذ يرأس

أما ترى الورد غدا قاعدا

وقام فى خدمته النرجس

وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز والتفاح، وأما الاجاص فقليل غال، وكذلك الخوخ، وفيها الورد والنرجس والنسرين واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر، وأما العنب والتين فقليل غال، ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل، ومع هذا فشراؤه عندهم فى نهاية الغلاء، وعامتها يشربون المزر الأبيض المتخذ من القمح حتى إن القمح يطلع عندهم سعره بسببه. فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه، ولا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب، وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلى القاهرة. فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الأحيان، وهو ضيق عليه فى الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمخالعة، حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب وللسرج فى جانبيه بالليل منظر فتان، وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر بالليل وفى ذلك أقول:

لا تركبن فى خليج مصر
إلا إذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه
من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أظلا
سلاح ما بينهم كلام
يا سيدى لا تسر إليه
إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابى
عليه من فضله لثام

والسرج قد بددت علـــه

منهـــا دنانير لا ترام

وهو قد امتد والمبـــانى

عليـــه فى خدمة قيام

لله كم دوحة جنينـــا

هنـاك آثمارها الآثام

انتهـــى

وفيه تحامل كثير . . وقال زكى الدين الحسين من رسالة كتبها من مصر فى شهر رجب سنة اثنتين وستين وسبعمائة إلى أخيه وهو بدمشق يتشوق إليها ، ويذكر ما فيها من المواضع والمتنزهات ، ويذم من مصر بقوله : فكيف يبقى لمن حل فى جنة النعيم ورياضها ويرتع فى ميادين المسرات وغياضها تلفت إلى من سلمته يد الأقدار إلى أرض ليس بذات قرار ، وبدلوا بجنتهم ذات البان المتفاوح ، والورق المتصادح ، والنشر المتقادح ، والماء المطلق المسلسل ، والنسيم الصحيح العليل جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ، وتقصدتهم يد القضاء فأخذتهم بالبأساء والضراء ، وأوقعتهم بمصر وشموسها وحميمها وغمومها وحزونها ووعورها وحرورها ووزفيرها وسعيرها وكيماتها ونيرانها ، وسودائها وفلاحيها وملاحيها ومشاربها ومساربها ومسالكها ومهالكها ، وصحناتها وعصفورها وبوريها وعقورها ومخاوف نوروزها وحرارة تموزها ، ودارس طلولها ورائس أسطولها وتعكر مائها وتكدر هوائها ، فلو تراهم فى أرجائها القصوى كالأباعر الهمل ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل . . فأجابه من دمشق بكتاب من جملته على لسان دمشق كأنها تخاطبه : ويا أيها الولد العزيز كيف سمحت فطرتك السليمة ومروءتك الكريمة وسيرتك المستقيمة وصبرك المحافظ ودينك المراقب الملاحظ ، بذم من جنيت نعمها وسكنت حرمها ، وقلت مصر وشموسها ، وسقت عليها القول من كل جانب واستعرت لها التكدير حتى فى المشارب والمسارب ، وهلا ذكرتها وقد باكرها

نيل، نيل النعيم بمغيثه بليل النسيم بكاس من تسنيمه، وطما البحر عليها زاخرا فأغناها عن بكاء السحاب وتجهيمه، وعم معظم أرضها وعب عبابه فى طولها وعرضها حتى كاد يعلو رفيع قصورها، ويتسور بسورته شامخ سورها، ومع ذا تراه جسورا على ضعاف جسورها. قد طبق التهائم والأنجاد، وغرق الآكام والوهاد، وعلا أعلى الصعيد والصعاد، وأعاد البر سلطانه بحرا بالازدياد، فإذا ارتوى أوام أكباد البلاد. وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد، وذهب إملاق الأرض بكل ملقة، وخليج والجاب عنها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، بدت روضة نضرة بأملاق مقطعة كزمردة خضراء بلآل مرصعة، فكم من غدير مستدير كبدر منير، ودقيق مستطيل كسيف صقيل، وكم من قليب قلاب بماء كجلاب، وكم من عظيم بركة حركها النسيم بلطفه، وطيبها عبير عنبرها فضمخها بكفه، وزهت بزهو نيل وفرها فعرفها بعرفه. وكم ترى من ملقة لبقة عليها عيون النرجس محدقة، كصحن خد عروس منمقة، والنوار قد دارت بمدام الندى كؤوسه، وجالت فى مراح الأفراح نفوسه، ونجم نجمه وابتسم عروسه، وسامره الرذاذ المنهل، وباكره الطل فكلله بلؤلؤة وقلده، وزاره النسيم المعتل فأقامه وأقعده، ونمق أرضه وروضه فذهبه وفضضه قد تاهت برياضها الغناء، وزهت بزخرفها وزينتها الحسناء وامتد بساطها الزمردى، وانبسط مدادها الزبرجدى، فلا يدرك أقصاه ناظر مسافر، ولا يحيد بمنتهاه خيال ولا خاطر، فلله درها من روضة مزن، وكعبة حسن، ومقطعات بماء غير آسن، وحرم بحر لحجاج طيره، آمن أتاها حجيج الطير من كل فج عميق. ملبيا داعى حسنها من كل مكان سحيق قد امتطى ركبها متون الرياح، وعلا جثمانها عالم الأرواح، ووصلن الإدلاج بالصباح، وقطعن أجناح الليل بخفاق الجناح، كأنهن الدرارى السوارى، أو المنشآت الجوارى، أو المطايا المهارى.

تواصل من جو حوائض نيله

صعود على حكم الطريق نزول

رفاق تعاهدن على الوفاء، وتحالفن على النعماء والبلاء، خرجن مهاجرات من الأوطان ألوفا وقدمن صافات كالمصلين صفوفا، يقدمهن دليل كأنه إمام، قد قتل طرق

الآفاق خبرا، واستوى لديه الأضواء والاظلام، أبصر من زرقاء اليمامة، وأطير من الورقاء والهامه، وأهدى من النجم وأشد من السهم، يتناجين بلغات أعجميات مسبحات بألحان مطربات، فطفن فى حرمها الآمن واعتمرن بتلك المحاسن، فتراها عند إقبال نوها وحومها فى جوها ما تستقيم خطا مستقيما، وإن كان تصف صفا عظيما فمنها ما يستهل هلالا ومنها ما يحكى بنات نعش حالا ومنها ما ينثنى بإدلاله دالا، ومنها ما يخط نونا نونا، فيحكى حاجبا مقرونا، ومنها ما يكتب زينا فيعيدها عينا، ومنها ما يصور ميم الهجاء فيشاهد مبسم السماء، ومنها ما يأتى زرافات ووحدانا فيدع فى إعجابه حسنا وإحسانا. فكم من حبل أوز معلق بالسماء يحلق إلى ذلك الماء، وأوانس عريسات أنيسات كيسات، وصور صور كأمثال حور وطير لغلغ، مكتس بديباج مصبغ وجليل حبر كعلج متوج، وكركى عريض طويل كبعير كبير جميل، وغرير غير مغرر متغير، وسبيطر شديد شويطر. وكم ضخم الدسيعة جوال، ككوهى بالقوة المنيعة صوال، ورخام مرزم كذى أمرة محتشم وجلالة نسر فى الشائع الذائع، والحاضر الواقع أبهى من النسر الطائر والواقع، وعظم عقاب تم الحسن بحسنه، وكل الصيد فى ضمنه، وكم من خضارى وحرمان وبلشون وشهرمان صنوان وغير صنوان، وكم من بط على شط وخلط وقطقط منقط، وغر وغرنوق وكرسوغ ممشوق ونورس مستأنس، وقد امتلأت بهن الآفاق وتكللت بنجومهن الأملاق وشربن من جريالها فأسكرهن الاصطباح والاغتباق، فكم من مسود كخال نجد وأزرق كلاز ورد، وأشقر كزهر ورد أحمر ناصع، وأصفر فاقع، وأبيض ذى خضاب عندمى، بلطيف منقار بقمى، ومبرقش ومبقع ومعمم ومقنع، وأشقر منقش، وأرقش مرشش، وعودى وهندى، وصينى مسنى، وعينين كياقوتتين قد رصعتا فى لجين، وكم من طائر أبهى من قمر سائر، بفرق مثل صبح سافر، فتراهن فى الماء صموتا وقوفا، صفوفا عكوفا، كصور أصنام أو حجارة مبددة فى آكام، وكم من أطيار ظراف ملاح لطاف، ذوات ألحان ونضرة وألوان، وخلق وأخلاق، ونطق وأطواق، وإيناس من شماس. قد ازدانت الأرض بأصواتها واختلاف لغاتها وعجائب صفاتها، فبرزت بأنواع الأعاجيب، وتجلت بأجمل الجلابيب وأبدعت فى صور الإحسان وتصورت فى بدائع الألوان. فإذا

بدت زرقاء فى زهر كتانها، مذهبة بأزهار لبسانها، مفضضة بنجوم أقحوانها. خلعت السماء عليها خلعة جميل أردانها، وإذا فاح نشر نوار قرطها شممت المسك الذكى من مرطها، ورأيت لآلى سمطها مبسوطة على خضر بسطها، ومغالاتها بغالية نور فولها وهزاتها. إذا رفل النسيم فى ذيولها. قد رصعت أغصانه بفصوص لجينها ونقطته من حسنها بسواد عينها. فعيونه كعيون غزلانها فى فتكها وأحداقه كأحداق ولدانها من تركها، وكم لها من طرة معتبرة وجبهة منورة، ووجنة مزعفرة، وملاءة منشورة معصفرة، وخد مورد وطرف مهند، ولماها صبغ من عقيق الشقيق، وسكرها من ذلك الريق على التحقيق، وأين بزوغ بشنينها وامتداد يقطينها، وأين حلاوة عرائس نخلاتها، وطلاوة أوانس قاماتها بمشابهتها فى صفاتها وغرائس فسيلاتها، وأين نضيد طلعها وحميد فرعها، ومديد جذعها وفر جمارها عن غرة جمارها، واخضرار أكمامها واحمرار لثامها، وبنان بسرها المطرف، وبنان نشرها المشرف، وانتظام سرورها بابتسام منثورها، وورد واديها ومنحناها، وندى ندها وتمر حناها، وآسى آسها، وطبيب طيب أنفاسها، وتبرجها، باترجها، وتبهرجها بنارنجها، وتختمها بمختمها، وتبسمها على بلسمها، وتشقق أبرادها عن نهود كبادها، وتضاعف أرجها بمضعف بنفسجها، وجلالة مقدارها إذا فتحت أزرارها عن جل نارها وطيب شميمها من أشمومها، ونسيمها ووسيمها بأوسيمها، وجنان قليوبها وحرمان قليبها، وأحواضها ببهنها ورياضها، وطربتها بمطريتها، ونفيس أنسها بمقسها، وغريب غرسها ببلقسها، وعظيم آسها بمحلق مقياسها، وكريم تحيتها من قبل اليمن هبوب أنفاسها واجتماع أسعدها، وارتفاع رصدها وسواقيها الحنانة فى سجمها الهتانة. يسكبها من دمعها وجنة لوقها، ولجة بولاقها وبركة فيلها، من بكرة نيلها وجزيرة ذهبها، وقلعة الجزيرة بذهبها، من عجبها حكت فلكها فى بحرها، واحكمت مملكتها فى برها، وعظم جللها بقلعة جبلها، واعتلاء أعلامها ببناء أهرامها، وإذا نظرت إلى سعود صعودها إلى سعيد صعيدها، واغتباطها بانحطاطها إلى صوب سكندريتها ودمياطها، ألهتك عن حسن الثريا ومناطها، ولا تنس الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، التى تسبق عند طياب الرياح مفوقات السهام وإعجابها بغربانها البحرية، وحراقاتها الحربية، وشوانيها وهول مبانيها،

وجلال شكلها وجمال معاونيها، تبدوموشاة بالنضار الأحمر، منقشة باللون الأفخر، فهى كالأرقم المنمر أو كمتلون الثمر أو الطاووس الذكر، أو الناوس لبنى الأصفر. معمرة ببأس الحديد والأحجار محمولة على سبح الماد التيار مشحونة بالرجال، منصورة عند القتال، مصونة بالمجن والنبال، تبرز مذكرة بالآية النوحية، وتضمن إحراز الهمة العليا الفتحية، حصون أمنع من أعز قلاع، تطير إذا فتح لها جناح القلاع، فتسبق وفد الريح عند الإسراع، وتفوق سرعة السحاب عند الاتساع، فهن مع العقبان فى النيل حوم، وهن مع البنيان فى البحر عوم لو اقسم من رآها، ولو قال مشاهد معناها: إن اللّه نفخ فيها الروح فأحياها، لبر فى يمينه التى أقسم وتلاها، وكم من مركز لحسنه معجب، وكم من سفين قوى أمين وخضارى جليل وعشارى طويل، ومسمارى طويل جميل، وفستراوى عكاوى، ولكة ودرمونة، ومعدية مكينه، وسلور دقيق وشختور رشيق، وقرقور رقيق، وزورق ذى زواريق، وطريدة بخيل الطراد معمورة، دهماء بحمل الجياد والأجناد مشهورة ومخلوف فى الآفاق بالمعروف معروف، وما أحلى بنان رطبها المخضب، ورشيق قامة قصبها المقصب، وبهجة فوزها بطلح موزها وخضر أعلام أوراقها، وصفر كرام أعلاقها. فلا البلاغة تبلغ من إحصاء فضلها مراما، ولا الفصاحة تضوغ لوصف تشبهها كلاما. فنسأل اللّه تعالى أن يكنفها بركنه الذى لا يرام، ويحرسها بعينه التى لا تنام بمنه وكرمه.

وقال الرئيس شهاب الدين أحمد بن محيى الدين يحيى بن فضل العمرى كاتب السر:

لمصر فضـــل باهر

بعيشها الرغد النضر

فى كل سـفح يلتقي

مـاء الحياة والخضر

وقال إبراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق يتشوق إلى مصر، وقد خرج عنها فى سنة ست وثمانين وثلاثمائة من قصيدة:

هل الريح إن سارت مشرقة تسري

تؤدى تحيـــــاتى إلى ساكنى مصر

فما خطـرت إلا بكيت صـــبابة

وحملتها ما ضاق عن حمله صدرى

لأنى إذا هبـــت قبولا بنشـــرهم

شممت نسيم المسك من ذلك النشر

فكم لى بالأهرام أو دير نهـــيـــة

مصـــايد غزلان المطـــايد والقفر

إلى جيزة الدنيا وما قــد تضمنت

جزيرتها ذات المـــــواخر والجسر

وبالمقس والبســـتان للعين منظره

أنيق إلى شاطىء الخليج إلى القصر

وفى بئر دوس مســتراد وملعب

إلى دير مرحنا إلى ســاحة البحر .

فكم بين بســان الأمـير وقصـر

إلى البركة النضـراء من زهــر نضر

تراها كمـرآة بدت فى رفارب

من السندس الموشى تنشر للتجـــر

وكم ليـــلة لى بالقرافة خلتها

لمـــا نلت من لذاتها ليـــلة القـــدر

وقال أحمد بن رستم بن اسفهسلار الديلمى يخاطب الوزير نجم الدين أبا يوسف بن الحسين المجاور، وتوفى فى رابع عشر ذى الحجة سنة إحدى وعشرين وستمائة :

حى الديار بشاطىء مقياسـها

فالمقسـم الفياح بين دهاسها

فالروضتين وقد تضوع عرفها

أرج البنفسج فى غضارة آسها

فمنازل العين المنيفة أصبحت

يغنى سناها عن سنا نبراسها

فخليجيها لذاته مطلوبة

تسمو محاسنه علا بأناسها

جافاته محفوفة بمنازل

نزلت بها الآرام دون كناسها

وقال العلامة جلال الدين محمد الشيرازى المعروف بإمام منكلى بغا :

حيا الحيا مصرا وسكانها

وباكر الوسمى كثبانها

وجاد صوب المزن من أرضها

معاهد الأنس وأوطانها

معاهد بالأنس معمورة

لم أنس مهما عشت إحسانها

كم أيقظتنى فى ذرا دوحها

عجمـــاء لا تفقه ألحانها

وكم نعيم قد تخيـــلته

فيها وكم غازلت غزلانها

وعاينت عينى بها أغيدا

منعس المقـــلة وسنانها

تسحر بالتفتير ألحـــاظه

كأن من بابـل شيطانها

وكم شجت قلبى بها غادة

قد كحلت بالغنج أجفانها

إذا دعت صبا إلى حبها

لا يستطيع الصب عصيانها

وكم ليال لى بها قد مضت

تسحب بالإعجاب أردانها

والهف نفسى كيف شطت بها

حوادث قوضن بنيانها

فارقتها لا عن قلى صدني

عنها فراق الروح جسمانها

واعتضت عن غزلانها والمها

نعـــاج جـــيرون وثيرانها

يا سائلى عن حالتى بعدها

ها أنا ذا أذكر عنوانها

ما حال من فارق أصحابه

وفارق الدنيا وجيرانها

تقلب فوق الجمر أحشاؤه

تؤجج الأشواق نيرانها

والعين لا تنفك من عبرة

ترسل فوق الخد طوفانها

يا سائق النوق يبث الثرى

كمثل بث السحب تهتانها

حى ربا مصر وجناتها

وحورها العين وولدانها

ودورها الزهر وساحاتها

وبين قصريها وميدانها

وأرضها المخصب أرجاؤها

ونيلها الزاهى وخلجانها

والروضة الفيحاء تلك التى

تجلو عن الأنفس أحزانها

ومنية السيرج لا تنسها

وقرطها الأحوى وكتانها

والتاج والخمس وجوه التى

أضحت من الأعين إنسانها

وحى يابرق وجد بالحيـــا

جزيرة الفيـــل وغيطانها

وبانها الغض ونسرينها

ووردها البكر وريحانها

وظلها الضافى وأزهارها

وماءها الصافى وغدرانها

والمعهد المأنوس من ربعها

وحى أهليهـــا وسكانها

لم أنس لا أنسى اصطباحى بها

ولا اغتباقاتى وأبلهـــا

ولا أويقات النصابى ولا

تلك الخلاعات وأزمانها

أيام لا أنفك من صبوة

أهوى اللذاذات وإعلانها

أخطرتيها فى رياض الصبا

مرنح الأعطاف كسلانها

وخيل هوى فى ميادينها

تجـرجر الصبوة أرسانها

ودوحتي ناضرة غضـــــة

تعطف ريح اللهو أغصانها

حاشاى أن أنقض عهدا لها

حاشــاى أن أصبح خوانها

حاشاى أن أهجــرها قاليا

حاشاى أن أحدث سلوانها

حاشاى أن أرضى بديلا بها

روابى الشـــــام وقيعانها

وماءها الثج وحصـــباءها

وصخرها الصلد وصوانها

قد تاقت النفس إلى إلفها

وحنت الأشـواق أظعانها

وادكرت فى البعد أحبابها

فهيج التبريح أشـــجانها

وما لها غيرك من ملتجا

يا أوحد الدنيا وإنسانها

ذكر ما قيل في مدة بقاء القاهرة ووقت خرابها

قال العارف محيى الدين محمد بن العربى الطائى الحاتمى فى الملحمة المنسوبة إليه: قاهرة تعمر فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وتخرب سنة ثمانين وسبعمائة، ووقفت لها على شرح لم أعرف تصنيف من هو فإنه لم يسم فى النسخة التى وقفت عليها، وهو شرح لطيف قليل الفائدة. فإنه ترك كلام المصنف فيما مضى على ما هو معروف فى كتب التاريخ، ولم يبين مراده فيما يستقبل، وكانت الحاجة ماسة إلى معرفة ما يستقبل أكثر من المعرفة بحال ما مضى. لكن أخبرنى غير واحد من الثقات أنه وقف لهذه الملحمة على شرح كبير فى مجلدين. قال هذا الشارح: كانت بداية عمارة القاهرة والنيران فى شرفهما. الشمس فى برج الحمل، والقمر فى برج الثور وهو برج ثابت. قال فعمر القاهرة ومدتها أربعمائة وإحدى وستون سنة. قال فى الأصل: وإذا نزل زحل برج الجوزاء عزت الأقوات بمصر، وقل أغنياؤهم وكثر فقراؤهم، ويكون الموت فيهم ويخرج أهل برقة عن أوطانهم. لاسيما إذا قارن زحل الجوزهر، فإن الحال يكون أشد وأقوى. قال الشارح كان ذلك سنة أربع وستين وستمائة فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس. فإنه نزل زحل برج الجوزاء فوقع الغلاء وفى آخر سنة أربع وأول سنة خمس وتسعين وستمائة فى أيام الملك العادل كتبغا حل زحل فى برج الجوزاء، وكان معه الجوزهر فكانت أشد وأقوى وكثر الغلاء، والوباء. قال: سئل المعز عن الترك ما هم؟ فقال قوم مسلمون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الحدود والواجبات ويقاتلون فى سبيل اللّهأعداءاللّه. فقيل له: أتطول مدتهم؟ قال: لا تطول مدتهم. قيل فكيف يكون زوالهم؟ قال: يكون هكذا.. وكان إلى جانبه طبق كيزان فحركه حركة شديدة فتكسرت الكيزان. فقال هكذا يكون زوالهم يقتل بعضهم بعضا قال:

احذر بنى من القران العاشر

وارحل بأهلك قبل نقر الناقر

قال الشارح : أول القران العاشر فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، وفيه تكون حالات ردیئة بأرض مصر . وهذا يوافق ما فى القول عن القاهرة ، وتخرب فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة يعنى بداية انحطاطها من سنة خمس وثمانين وسبعمائة التى فيها القران العاشر ، ويثبت فى عشرين سنة التى هى أيام القران ، وقد ذكر فى الربع الآخر أربعمائة وإحدى وستين سنة ، وقد تخيلت أنها مدة عمر القاهرة . فإذا زدتها على تاريخ عمارتها بلغ ذلك ثمانمائة وتسع عشرة سنة ، وفى ذلك الوقت يكون زوالها وهو ما بين سنة ثمانين وسبعمائة إلى سنة تسع عشرة وثمانمائة ، ويكون ذلك سببه قحط عظيم وقلة خير وكثرة شر ، حتى تتخرب ويضعف أهلها . قال : قران زحل والمريخ فى برج الجدى يكون فى سنة سبعين وسبعمائة فتعد لكل مائة سنة من سنى الهجرة ثلاث سنين فيكون ثلاثا وعشرين سنة تزيدها على سبعمائة وسبعين سنة تبلغ سبعمائة وثلاثا وتسعين سنة . ففى مثلها من سنى الهجرة يكون أول أوقات خراب القاهرة ، انتهى .

وتهذيب هذا القول أن زحل كلما حل برج الجوزاء اتضعت أحوال مصر وقلت أموالهم وكثر الغلاء والفناء عندهم بحسب الأوضاع الفلكية ، وزحل يحل فى برج الجوزاء كل ثلاثين سنة شمسية فيقيم فيه نحو من ثلاثين شهرا ، وأنت إذا اعتبرت أمور العالم وجدت الحال كما ذكرنا . فإنه كلما حل زحل برج الجوزاء وقع الغلاء بمصر وذكر أن القران العاشر تتضع فيه أحوال القاهرة ، ورأينا الأمر كما ذكرنا . فإن القران العاشر كان فى سنة ست وثمانين وسبعمائة ومدة سنيه عشرون سنة شمسية . آخرها سابع عشر رجب سنة سبع وثمانمائة ، وفى هذه المدةاتضع حال القاهرة وأهلها اتضاعا قبيحا . ومن الأوقات المحذورة لها أيضا اقتران زحل والمريخ فى برج السرطان ، ويكون ذلك فى كل ثلاثين سنة شمسية ويقترنان فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، وفى مدته تنقضى الأربعمائة والإحدى والستون سنة التى ذكر أنها عمر القاهرة فى سنة تسع عشرة وثمانمائة . وشواهد الحال اليوم تصدق ذلك لما عليه أهل القاهرة الآن من الفقر والفاقة وقلة المال وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة وقرب انقضاء مدتهم وغلاء سائر الأسعار ، ولقد سمعت عمن يرجع إليه فى مثل ذلك أن العمارة تنتقل من القاهرة إلى بركة الحبش فيصير هناك مدينة والله تعالى أعلم .

ذكر مسالك القاهرة وشوارعها على ما هى عليه الآن

وقبل أن نذكر خطط القاهرة فلنبتدىء بذكر شوارعها ومسالكها المسلوك منها إلى الأزقة والحارات لتعرف بها الحارات والخطط والأزقة والدروب وغير ذلك مما سنقف عليه إن شاء اللّه تعالى .

فالشارع الأعظم قصبة القاهرة من باب زويلة إلى بين القصرين . عليه باب الخرنفش أو الخرنشف ، ومن باب الخرنفش ينفرق من هنالك طريقان ذات اليمين ، ويسلك منها إلى الركن المخلق ورحبة باب العيد إلى باب النصر ، وذات اليسار ويسلك منها إلى الجامع الأقمر وإلى حارة برجوان إلى باب الفتوح . فإذا ابتدأ السالك بالدخول من باب زويلة فإنه يجد يمنة الزقاق الضيق الذى يعرف اليوم بسوق الخلعيين ، وكان قديما يعرف بالخشابين ، ويسلك من هذا الزقاق إلى حارة الباطلية وخوخة حارة الروم البرانية ، ثم يسلك الداخل أمامه فيجد على يسرته سجن متولى القاهرة المعروف بخزانة شمايل وقيسارية سنقر الأشقر ودرب الصفيرة ، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته حمام الفاضل المعدة لدخول الرجال ، وعلى يسرته تجاه هذا الحمام قيسارية الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار الناصرى ، إلى أن ينتهى بين الحوانيت والرباع فوقها إلى بابى زويلة الأول ، ولم يبق منهما سوى عقد أحدهما ويعرف الآن بباب القوس ، ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الحدادين والحجارين المعروف اليوم بسوق الأنماطيين وسكن الملاهى والى المحمودية وإلى سوق الأخفاقيين وحارة الجودرية والصوافين والقصارين والفحامين وغير ذلك ، ويجد تجاه هذا الزقاق عن يمينه المسجد المعروف قديما بابن البناء ، وتسميه العامة الآن بسام بن نوح ، وهو فى وسط سوق الغرابليين والمناخليين ومن معهم من الضبيين . ثم يسلك أمامه فيجد سوق السراجين ، ويعرف اليوم بالشوابين وفى هذا السوق على يمينه الجامع الظافرى المعروف بجامع الفكاهين ، وبجانبه الزقاق المسلوك منه إلى حارة الديلم وسوق القفاصين وسوق الطيوريين والاكفانيين القديمة المعروفة الآن بسكنى دقاق الثياب ، ويجد على يسرته الزقاق المسلوك منه إلى حارة الجودرية ودرب كركامة ودكة الحسبة المعروفة قديما بسوق

الحدادين ، وسوق الوراقين القديم ،ة وإلى سوق الفاميين المعروف اليوم بالأبازرة ، وإلى غير ذلك ، ثم يسلك أمامه إلى سوق الحلاويين الآن فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الكعكيين المعروف قديما بالقطانين وسكنى الاساكفة ، وإلى بابى قيسارية جهاركس ، وعن يسرته قيسارية الشرب ثم يسلك أمامه إلى سوق الشرابشيين المعروف قديما بسكن الحالقبين ، وعن يمنته درب قيطون ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الشرابشيين فيجد عن يمنته قيسارية أمير على ، ويجد عن يسرته سوق الجملون الكبير المسلوك فيه إلى قيسارية بن قريش وإلى سوق العطارين والوراقين ، وإلى سوق الكفتيين والصيارف والاخفافيين ، وإلى بئر زويلة والبندقانيين وإلى غير ذلك . ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الفرايين الآن ، وكان يعرف أولا بدرب البيضاء ، وإلى درب الاسوانى وإلى الجامع الأزهر وغير ذلك . ويجد عن يسرته قيسارية بنى أسامة ، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق الجوخيين واللجميين فيجد عن يمينه قيسارية السروج وعن يسرته قيسارية ، ثم يسلك أمامه إلى سوق السقطيين والمهامزيين فيجد عن يمينه درب الشمسى ، ويقابله باب قيسارية الأمير علم الدين الخياط وتعرف اليوم بقيسارية العصفر ، ثم يسلك أمامه شاقافى السوق المذكور فيجد عن يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق القشاشين وعقبة الصباغين ، المعروف اليوم بالخراطين وإلى سوق الخيميين وإلى الجامع الأزهر وغير ذلك ، ويجد قبالة هذا الزقاق عن يسرته قيسارية العنبر المعروفة قديما بحبس المعونة ، ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الوراقين وسوق الحريريين الشراربيين ، المعروف قديما بسوق الصاغة القديمة وإلى درب شمس الدولة ، وإلى سوق الحريريين وإلى بئر زويلة والبندقانيين وإلى سويقة الصاحب والحارة الوزيرية ، وإلى باب سعادة وغير ذلك ، ثم يسلك أمامه شاقافى بعض سوق الحريريين وسوق المتعيشين ، وكان قديما سكنى الدجاجين والكعكيين ، وقبل ذلك أولا سكنى السيوفيين فيجد عن يمينه قيسارية الصنادقيين ، وكانت قديما تعرف بفندق الدبابليين ، ويجد عن يسرته مقابلها دار المأمون البطائحى المعروفة بمدرسة الحنفية ، ثم عرفت اليوم بالمدرسة السيوفية لأنها كانت فى سوق السيوفيين ، ثم يسلك أمامه فى سوق السيوفيين الذى هو الآن سوق المتعيشين فيجد عن يمينه خان مسرور

وحجرتى الرقيق ودكة المماليك بينهما، ولم تزل موضعا لجلوس من يعرض من المماليك الترك والروم ونحوهم للبيع إلى أوائل أيام الملك الظاهر برقوق ثم بطل ذلك. ويجد عن يسرته قيسارية الرماحين وخان الحجر، ويعرف اليوم هذا الخط بسوق باب الزهومة، ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته الزقاق والساباط المسلوك فيه إلى حمام خشيبة ودرب شمس الدولة وإلى حارة العدوية المعروفة اليوم بفندق الزمام وإلى حارة زويلة وغير ذلك، ويجد بعد هذا الزقاق قريبا منه فى صفه درب السلسلة ومن هنا ابتداء خط بين القصرين وكان قديما فى أيام الدولة الفاطمية مراحا واسعا ليس فيه عمارة ألبتة يقف فيه عشرة آلاف فارس، والقصران هما موضع سكنى الخليفة. أحدهما شرقى وهو القصر الكبير، وكان على يمنة السالك من موضع خان مسرور طالبا باب النصر وباب الفتوح، وموضعه الآن المدارس الصالحية النجمية والمدرسة الظاهرية الركنية وما فى صفها من الحوانيت والرباع إلى رحبة العيد وما وراء ذلك إلى البرقية، ويقابل هذا القصر الشرقى القصر الغربى وهو القصر الصغير ومكانه الآن المارستان المنصورى وما فى صفه من المدارس والحوانيت إلى تجاه باب الجامع الأقمر. فإذا ابتدأ السالك بدخول بين القصرين من جهة خان مسرور فإنه يجد على يسرته درب السلسلة ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الزقاق المسلوك فيه إلى سوق الأمشاطيين المقابل لمدرسة الصالحية التى للحنفية والحنابلة. وإلى الزقاق الملاصق لسور المدرسة المذكورة المسلوك فيه إلى خط الزراكشة العتيق. حيث خان الخليلى وخان منجك وإلى الخوخ السبع حيث الآن سوق الأبارين وإلى الجامع الأزهر وإلى المشهد الحسينى وغير ذلك، ثم يسلك أمامه شاقافى سوق السيوفيين الآن. فيجد على يساره دكاكين السيوفيين وعلى يمينه دكاكين النقليين ظاهر سوق الكتبيين الآن، وعلى يساره سوق الصيارف برأس باب الصاغة، وكان قديما مطبخ القصر قبالة باب الزهومة، ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه باب المدارس الصالحية تجاه باب الصاغة، ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه القبة الصالحية وبجوارها المدرسة الظاهرية الركنية ويجد على يساره باب المارستان المنصورى، وفى داخله القبة المنصورية التى فيها قبور الملوك وتحت شبابيكها دكك الفضيات التى فيها الخواتيم ونحوها فيما بين القبة المذكورة، والمدرسة الظاهرية المذكورة

وفى داخله أيضا المدرسة المنصورية وتحت شبابيكها أيضا دكك الفضيات فيما بين شبابيكها وشبابيك المدرسة الصالحية التى للشافعية والمالكية ، وتحتها خيمة الغلمان بجوار قبة الصالح ، وفى داخله أيضا المارستان الكبير المنصورى المتوصل من باب سره إلى حارة زويلة وإلى الخرنشف وإلى الكافورى وإلى البندقانيين وغير ذلك ، ثم يسلك من باب المارستان فيجد على يمنته سوق السلاح والنشابين الآن تحت الربع المعروف بوقف أمير سعيد ، ويجد على يسرته المدرسة الناصرية الملاصقة لمئذنة القبة المنصورية ، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته خان بشتاك وفوقه الربع ، وعرف الآن هذا الخان بالمستخرج ، ويجد على يسرته المدرسة الظاهرية الجديدة بجوار المدرسة الناصرية ، وكانت قبل إنشائها مدرسة فندقا يعرف بخان الزكاة ، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته باب قصر بشتاك ، ويجد على يسرته المدرسة الكاملية المعروفة بدار الحديث وهى ملاصقة للمدرسة الظاهرية الجديدة . ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته الزقاق المسلوك فيه إلى بيت أمير سلاح المعروف بقصر أمير سلاح ، وهو الأمير فخر الدين بكتاش الفخرى الصالحى النجمى ، وإلى دار الأمير سلار نائب السلطنة ، وإلى دار الطواشى سابق الدين ومدرسته التى يقال له المدرسة السابقية ، وكان فى داخل هذا الزقاق مكان يتوصل إليه من تحت قبو المدرسة السابقية يعرف بالسودوس فيه عدة مساكن صارت كلها اليوم دارا واحدة إنشاء الأمير جمال الدين الاستادار ، وكان تجاه باب المدرسة السابقية ربع تحته فرن ومن ورائه عدة مساكن يعرف مكانها بالحدرة ، فهدم الأمير جمال الدين المذكور الربع وماوراءه وحفر فيه صهريجا وأنشأ به عدة آدر هى الآن جارية فى أوقافه ، وكان يسلك من باب السابقية على باب الربع والفرن المذكور إلى دهليز طويل مظلم ينتهى إلى باب القصر تجاه سور سعيد السعداء ، ومنه يخرج السالك إلى رحبة باب العيد ، وإلى الركن المخلق فهدمه الأمير جمال الدين وجعل مكانه قيسارية ، وركب على رأس هذا الزقاق تجاه حمام البيسرى دربا فى داخله دروب ليصون أمواله ، وانقطع التطرق من هذا الزقاق وصار دربا غير نافذ ، ويجد السالك عن يسرته قبالة هذا الزقاق وصار دربا مدربا باب قصر البيسرية ، وقد بنى فى وجهه حوانيت بجانبها حمام البيسرى ، ومن هنا ينقسم شارع القاهرة المذكور إلى طريقين . إحداهما ذات اليمين ، والأخرى ذات

اليسار . فأما ذات اليسار فإنها تتمة القصبة المذكورة ، فإذا مر السالك من باب حمام الأمير بيسرى فإنه يجد على يسرته باب الخرنشف المسلوك فيه إلى باب سر البيسرية ، وإلى باب حارة برجوان الذى يقال له أبو تراب وإلى الخرنشف واصطبل القطبية وإلى الكافورى وإلى حارة زويلة وإلى البندقانيين وغير ذلك ، ثم يسلك أمامه فيجد سوقا يعرف أخيرا بالوزازين والدجاجين يباع فيه الأوز والدجاج والعصافير وغير ذلك من الطيور ، وأدركناه عامرا سوقا كبيرا من جملته دكان لا يباع فيها غير العصافير ، فيشتريها الصغار للعب بها ، وفى هذا السوق على يمنة السالك قيسارية يعلوها ربع كانت مدة سوقا يباع فيه الكتب ، ثم صارت لعمل الجلود ، وكانت من جملة أوقاف المارستان المنصورى فهدمها بعض من كان يتحدث فى نظره عن الأمير أيتمش فى سنة إحدى وثمانمائة وعمرها على ما هى عليه الآن ، وعلى يسرة السالك فى هذا السوق ربع يجرى فى وقف المدرسة الكاملية . وكان هذا السوق يعرف قديما بالتبانين والقماحين ثم يمر سالكا أمامه فيجد سوق الشماعين متصلا بسوق الدجاجين وكان سوقا كبيرا فيه صفان عن اليمين والشمال من حوانيت باعة الشمع أدركته عامرا ، وقد بقى منه الآن يسير ، وفى آخر هذا السوق على يمنة السالك الجامع الأقمر وكان موضعه قديما سوق القماحين وقبالته درب الخضرى وبجانب الجامع الأقمر من شرقية الزقاق الذى يعرف بالمحايريين ، ويسلك فيه إلى الركن المخلق وغيره وقبالة هذا الزقاق بئر الدلاء ، ثم يسلك المار أمامه فيجد على يمنته زقاقا ضيقا ينتهى إلى دور ومدرسة تعرف بالشرابشية يتوصل من باب سرها إلى الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس ثم يسلك أمامه فى سوق المتعيشين فيجد على يسرته باب حارة برجوان ، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين ـ وقد أدركته سوقا عظيما لا يكاد يعدم فيه شىء مما يحتاج إليه من المأكولات وغيرها . بحيث إذا طلب منه شىء من ذلك فى ليل أو نهار وجد وقد خرب الآن ولم يبق منه إلا اليسير ، وكان هذا السوق قديما يعرف بسوق أمير الجيوش وبآخره خان الرزواسين ، وهو زقاق على يمنة السالك غير نافذ ، ويقابل هذا الزقاق على يسرة السالك إلى باب الفتوح شارع يسلك فيه إلى سوق يعرف اليوم بسويقة أمير الجيوش ، وكان قبل اليوم يعرف بسوق الخروقيين ، ويسلك من هذا السوق إلى باب القنطرة فى شارع معمور بالحوانيت من

جانبيه ويعلوها الرباع ، وفيما بين الحوانيت دروب ذات مساكن كثيرة ، ثم يسلك أمامه من رأس سويقة أمير الجيوش فيجد على يمينه الجملون الصغير المعروف بجملون ابن صيرم ، وكان مسكنا للبزازين فيه عدة حوانيت عامرة بأصناف الثياب - أدركتها عامرة ، وفيه مدرسة ابن صيرم المعروفة بالمدرسة الصيرمية ، وفى آخره باب زيادة الجامع الحاكمى ، وكان على بابها عدة حوانيت تعمل فيها الضبب التى برسم الأبواب ، ويخرج من هذا الجملون إلى طريقين إحداهما يسلك فيها إلى درب الفرنجية وإلى دار الوكالة وشارع باب النصر ، والأخرى إلى درب الرشيدى النافذ إلى درب الجوانية ، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته شباك المدرسة الصيرمية ، ويقابلة باب قيسارية خونداردكين الأشرفية ، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المرحلين وكان صفين من حوانيت عامرة فيها جميع ما يحتاج إليه فى ترحيل الجمال ، وقد خرب وبقى منه قليل . . وفى هذا السوق على يسرة السالك زقاق يعرف بحارة الوراقة ، وفيه أحد أبواب قيسارية خوند المذكورة وعدة مساكن ، وكان مكانه يعرف قديما باصطبل الحجرية . ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته أحد أبواب الجامع الحاكمى وميضأته ويجد باب الفتوح القديم ، ولم يبق منه سوى عقدته وشيء من عضادته وبجواره شارع الى يسرة السالك يتوصل منه إلى حارة بهاء الدين وباب القنطرة ، ثم يسلك أمامه شاقا فى سوق المتعيشين فيجد على يمينه بابا آخر من أبواب الجامع الحاكمى ، ثم يسلك أمامه فيجد عن يسرته زقاقا بساباط ينفذ إلى حارة بهاء الدين فيه كثير من المساكن ، ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه باب الجامع الحاكمى الكبير ، ويجد عن يساره فندق العادل ، ويشق فى سوق عظيم إلى باب الفتوح وهو آخر قصبة القاهرة ، وأما ذات اليمين من شارع بين القصرين فإن المار إذا سلك من الدرب الذى يقابل حمام البيسرى طالبا الركن المخلق فإنه يشق فى سوق القصاصين وسوق الحصريين إلى الركن المخلق ، ويباع فيه الآن النعال ، وبه حوض فى ظهر الجامع الأقمر لشرب الدواب تسميه العامة حوض النبى ، ويقابله مسجد يعرف بمراكع موسى وينتهى هذا السوق إلى طريقين . إحداهما إلى بئر العظام التى تسميها العامة بئر العظمة ومنها ينقل الماء إلى الجامع الأقمر ، والحوض المذكور بالركن المخلق ويسلك منه إلى المحايريين ، والطريق الأخرى تنتهى إلى الفندق المعروف بقيسارية

الجلود، ويعلوها ربع - أنشأت ذلك خوندبركة أم الملك الأشرف شعبان بن حسين، وبجوار هذه القيسارية بوابة عظيمة قد سترت بحوانيت يتوصل منها إلى ساحة عظيمة هى من حقوق المنحر. كانت خوند المذكورة قد شرعت فى عمارتها قصرا لها فماتت دون إكماله، ثم يسلك أمامه فيجد الرباع التى تعلو الحوانيت والقيسارية المستجدة فى مكان باب القصر الذى كان ينتهى إلى مدرسة سابق الدين وبين القصرين، وكان أحد أبواب القصر ويعرف بباب الريح، وهذه الرباع والقيسارية من جملة إنشاء الأمير جمال الدين الاستادار وكانت قبله حوانيت ورباعا فهدمها وأنشأها على ما هى عليه اليوم. ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه مدرسة الأمير جمال الدين المذكور وكان موضعها خانا وظاهره حوانيت فبنى مكانها مدرسة وحوضا للسبيل وغير ذلك، ويقال لهذه الأماكن رحبة باب العيد ويسلك منها إلى طريقين. إحداهما ذات اليمين والأخرى ذات اليسار. فأما ذات اليمين فإنها تنتهى إلى المدرسة الحجازية وإلى درب قراصيا وإلى حبس الرحبة وإلى درب السلامى المسلوك منه إلى باب العيد الذى تسميه العامة بالقاهرة وإلى المارستان العتيق وإلى قصر الشوك ودار الضرب وإلى باب سر المدارس الصالحية وإلى خزانة البنود، ويسلك من رأس درب السلامى هذا فى رحبة باب العيد إلى السفينة وخط خزانة البنود ورحبة الأيدمرى والمشهد الحسينى ودرب الملوخيا والجامع الأزهر والحارة البرقية إلى باب البرقية والباب المحروق والباب الجديد، وأما ذات اليسار من رحبة باب العيد فإن المار يسلك من باب مدرسة الأمير جمال الدين إلى باب زاوية الخدام إلى باب الخانقاه المعروفة بدار سعيد السعداء، فيجد عن يمينه زقاقا بجوار سور دار الوزارة يسلك فيه إلى خرائب تتر وإلى خط الفهادين وإلى درب ملوخيا، وغير ذلك، ثم يسلك أمامه فيجد عن يمينه المدرسة القراسنقرية وخانقاه ركن الدين بيبرس وهما من جملة دار الوزارة وما جوار الخانقاه إلى باب الجوانية، وتجاه خانقاه بيبرس الدرس الأصفر وهو المنحر الذى كانت الخلفاء تنحر فيه الأضاحى، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته دارالأمير قزمان بجوار خانقاه بيبرس، وبجوارهما دارالأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير، وقد عرفت الآن بدار خوند طولوباى زوجة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون وبجوارها حمام الأعسر المذكور، وجميع هذا

من دار الوزارة، ويجد على يسرته درب الرشيدى تجاه حمام الأعسر المسلوك فيه إلى درب الفرنجية وجملون ابن صيرم، ثم يسلك أمامه فيجد على يمينه الشارع المسلوك فيه إلى الجوانية وإلى خط الفهادين وإلى درب ملوخيا وإلى العطوفية وقد خربت هذه الأماكن، ويجد على يسرته الوكالة المستجدة من إنشاء الملك الظاهر برقوق، ثم يسلك أمامه فيجد على يسرته زقاقا يسلك فيه إلى جملون ابن صيرم وإلى درب الفرنجية، ثم يسلك أمامه فيجد على يمنته دار الأمير شهاب الدين أحمدبن خالة الملك الناصر محمد بن قلاوون ودارالأمير علم الدين سنجر الجاولى، وهما من حقوق الحجر التى كانت بها مماليك الخلفاء وأجنادهم، ويجد على يسرته وكالة الأمير قوصون، ثم يسلك من باب الوكالة فيجد مقابل باب قاعة الجاولى خان الجاولى وبعدها باب النصر القديم، وأدركت فيه قطعة كانت تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربى وقد زال، ويسلك منه إلى رحبة الجامع الحاكمى، فيجد على يمنته المدرسة القاصدية وعلى يسرته بابى الجامع الحاكمى وتجاه أحدهما الشارع المسلوك فيه إلى حارة العبدانية وحارة العطوفية وغير ذلك، ومن باب الجامع الحاكمى ينتهى إلى باب النصر فيما بين حوانيت ورباع ودور. فهذه صفة القاهرة الآن وستقف إن شاءالله تعالى على كيفية ابتداء وضع هذه الأماكن وما صارت إليه، وذكر التعريف بمن نسبت إليه أو عرفت به، على ما التقطت ذلك من كتب التواريخ ومجامع الفضلاء، ووقفت عليه بخطوط الثقاة، وأخبرنى بذلك من أدركته من المشيخة، وما شاهدته من ذلك سالكا فيه سبيل التوسط فى القول بين الإكثار والاختصار، والله الموفق بمنه وكرمه لا إله غيره.

ذكر سور القاهرة

اعلم أن القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث مرات. الأولى وضعه القائد جوهر، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر، والمرة الثالثة بناه الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول ملوك القاهرة.

«السور الأول» كان من لبن وضعه جوهر القائدعلى مناخه الذى نزل به هو وعساكره حيث القاهرة الآن، فأداره على القصر والجامع، وذلك أنه لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة بعساكره وقصد إلى مناخه الذى رسمه له مولاه الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد، واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح المصريون يهنونه فوجوده قد حفر الأساس فى الليل فأدار السور اللبن وسماها المنصورية، إلى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى مصر ونزل بها فسماها القاهرة، ويقال فى سبب تسميتها أن القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبدا، فاختاروا طالعا لوضع الأساس، وطالعا لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة، وبنوا فصاح النجمون: القاهر فى الطالع، فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك، فسموها القاهرة، واقتضى نظرهم أنها لاتزال تحت القهر وأدخل فى دائر هذا السور بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز، وعمر القصر بترتيب ألقاه إليه المعز، ويقال إن المعز لما رأى القاهرة لم يعجبه مكانها. وقال لجوهر لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل كان ينبغى عمارتها بهذا الجبل. يعنى سطح الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد المشرف على جامع راشدة ورتب فى القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء بحيث لا تراهم الأعين فى النقلة من مكان إلى مكان وجعل فى ساحاته البحرة والميدان والبستان وتقدم بعمارة المصلى بظاهر القاهرة.

وقد أدركت من هذا السور اللبن قطعا، وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط، هدمها شخص من الناس فى سنة ثلاث وثمانمائة فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمننا حتى أن اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان، وكان بعيدا عن السور الحجر الموجود الآن وبينهما نحو الخمسين ذراعا، وما أحسب أنه بقى الآن من هذا السور اللبن شيء.

«وجوهر» هذا مملوك رومى رباه المعز لدين الله أبو تميم معد، وكناه بأبى الحسن وعظم محله عنده فى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وصار فى رتبة الوزارة. فصيره قائد جيوشه وبعثه فى صفر منها ومعه عساكر كثيرة فيهم الأمير زيرى بن مناد الصنهاجى وغيره من الأكابر فسار إلى تاهرت وأوقع بعدة أقوام وافتتح مدنا، وسار إلى فاس فنازلها مدة ولم ينل منها شيئا فرحل عنها إلى سجلماسة وحارب تائرا فأسره بها، وانتهى فى مسيره إلى البحر المحيط واصطاد منه سمكا وبعثه فى قلة ماء إلى مولاه المعز، وأعلمه أنه قد استولى على ما مر به من المدائن والأمم حتى انتهى إلى البحر المحيط ثم عاد إلى فاس فألح عليها بالقتال إلى أن أخذها عنوة، وأسر صاحبها وحمله هو والتائر بسجلماسة فى قفصين مع هدية إلى المعز، وعاد فى أخريات السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته، ثم لما قوى عزم المعز على تسيير الجيوش لأخذ مصر وتهيأ أمرها، فقدم عليها القائد جوهرا وبرز إلى رمادة ومعه ما ينيف على مائة ألف فارس وبين يديه أكثر من ألف صندوق من المال، وكان المعز يخرج إليه فى كل يوم ويخلو به، وأطلق يده فى بيوت أمواله فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه، وخرج إليه يوما فقام جوهر بين يديه وقد اجتمع الجيش، فالتفت المعز إلى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال: والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا، وأمر المعز بإفراغ الذهب فى هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة، وأمر أولاده واخوته الأمراء وولى العهد وسائر أهل الدولة أن يمشوا فى خدمته وهو راكب، وكتب إلى سائر عماله يأمرهم إذا قدم عليهم جوهر أن يترجلوا مشاة فى خدمته. فلما قدم برقة افتدى صاحبها من ترجله ومشيه فى ركابه بخمسين ألف دينار ذهبا. فأبى جوهر إلا أن يمشى فى ركابه ورد المال فمشي، ولما رحل من القيروان إلى مصر فى يوم السبت رابع عشر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة أنشد محمد بن هانىء فى ذلك:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع

وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سـد بمثـلـه

فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

فلم أدر إذ ودعت كيف أودع

ولم أدر إذا شـيعت كيف أشـيع

إلا أن هذا حشد من لم يذق له

غرار الكرى جفن ولا بات يهجع

إذا حل فى أرض بناها مدائنا

وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع

تحل بيوت المال حيث محله

وجم العطايا والرواق المرفع

وكبرت الفرسان لله إذ بدا

وظل السلاح المنتضى يتقعقع

وعب عباب الموكب الفخم حوله

ورق كمارق الصباح الملمع

رحلت إلى الفسطاط أول رحلة

بأيمن فأل بالذى أنت تجمع

فإن يك فى مصر ظماء لمورد

فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ويممهم من لا يغار بنعمة

فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

ولما دخل إلى مصر واختط القاهرة وكتب بالبشارة إلى المعز قال بن هانئ:

تقول بنو العباس قد فتحت مصر

فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر

تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

ولم يزل معظما مطاعا وله حكم ما فتح من بلاد الشام حتى ورد المعز من المغرب إلى القاهرة، وكان جعفر بن فلاح يرى نفسه أجل من جوهر، فلما قدم معه إلى مصر سيره جوهر إلى بلاد الشام فى العساكر فأخذ الرملة وغلب الحسن بن عبد الله بن طغج وسار فملك طبرية ودمشق، فلما صارت الشام له شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز وهو بالمغرب سرا من جوهر يذكر فيها طاعته ويقع فى جوهر ويصف ما فتح الله للمعز على يده. فغضب المعز لذلك ورد كتبه كما هى مختومة، وكتب إليه: قد أخطأت الرأى لنفسك نحن قد انفذناك مع قائدنا جوهر فاكتب إليه فما وصل منك إلينا على يده قرأناه، ولا تتجاوزه بعد. فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته، وإن كنت أهله عندنا، ولكنا لا نستفسد جوهرا مع طاعته لنا. فزاد غضب جعفر ابن فلاح وانكشف ذلك لجوهر فلم يبعث بن فلاح لجوهر يسأله نجدة خوفا ألا ينجده بعسكر، وأقام مكانه لا يكاتب جوهرا بشيء من أمره إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطي، وكان من أمره ما قد ذكر فى موضعه.

ولما مات المعز واستخلف من بعده ابنه العزيز وورد إلى دمشق هفتكين الشرابى من بغداد ندب العزيز بالله جوهرا القائد إلى الشام فخرج إليه بخزائن السلاح والأموال والعساكر العظيمة فنزل على دمشق لثمان بقين من ذى القعدة سنة خمس وستين وثلاثمائة فأقام عليها وهو يحارب أهلها إلى أن قدم الحسن بن أحمد القرمطى من الأحساء إلى الشام فرحل جوهر فى ثالث جمادى الأولى سنة ست وستين فنزل على الرملة والقرمطى فى

أثره، فهلك وقام من بعده جعفر القرمطى فحارب جوهرا واشتد الأمر على جوهر، وسار إلى عسقلان وحصره هفتكين بها حتى بلغ من الجهد مبلغ عظيما، فصالح هفتكين وخرج من عسقلان إلى مصر بعد أن أقام بها وبظاهر الرملة نحوا من سبعة عشر شهرا. فقدم على العزيز وهو يريد الخروج إلى الشام فلما ظفر العزيز بهفتكين واصطنعه فى سنة ثمانين وثلاثمائة واصطنع منجوتكين التركى أيضا أخرجه راكبا من القصر وحده فى سنة إحدى وثمانين والقائد جوهر وابن عمار ومن دونهما من أهل الدولة مشاة فى ركابه، وكانت يد جوهر فى يد ابن عمار فزفر ابن عمار زفرة كاد أن ينشق لها وقال لا حول ولا قوة إلا بالله، فنزع جوهر يده منه وقال: قد كنت عندى يا أبا محمد أثبت من هذا فظهر منك إنكار فى هذا المقام، لأحدثنك حديثا عسى يسليك عما أنت فيه، والله ما وقف على هذا الحديث أحد غيري: لما خرجت إلى مصر وأنفذت إلى مولانا المعز من أسرته ثم حصل فى يدى آخرون اعتقلتهم وهم نيف على ثلاثمائة أسير من مذكوريهم والمعروفين فيهم. فلما ورد مولانا المعز إلى مصر أعلمته بهم فقال أعرضهم عليّ واذكر فى كل واحد حاله ففعلت وكان فى يده كتاب مجلد يقرأ فيه فجعلت آخذ الرجل من يد الصقالبة وأقدمه إليه وأقول: هذا فلان ومن حاله وحاله فيرفع رأسه وينظر إليه ويقول: يجوز، ويعود إلى قراءة ما فى الكتاب حتى أحضرت له الجماعة وكان آخرهم غلاما تركيا فنظر إليه وتأمله، ولما ولى اتبعه بصره فلما لم يبق أحد قبلت الأرض وقلت يا مولانا رأيتك فعلت لما رأيت هذا التركى ما لم تفعله مع من تقدمه فقال يا جوهر: يكون عندك مكتوما حتى ترى أنه يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتفق له فتوحات عظيمة فى بلاد كثيرة ويرزقه الله على يده ما لم يرزقه أحد منا مع غيره، وأنا أظن أنه ذاك الذى قال لى مولانا المعز، ولا علينا إذا فتح الله لموالينا على أيدينا أو على يد من كان. يا أبا محمد لكل زمان دولة ورجال. أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا. لقد أرجل لى مولانا المعز لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته. فتعجب الناس من ذلك، وها أنا اليوم أمشى راجلا بين يدى منجوتكين أعزونا وأعزوا بنا غيرنا. وبعد هذا فأقول اللهم قرب أجلى ومدتي. فقد

أنفت على الثمانين أو أنا فيها فمات فى تلك السنة، وذلك أنه اعتل فركب إليه العزيز بالله عائداً وحمل إليه قبل ركوبه خمسة آلاف دينار ومرتبة مثقل، وبعث إليه الأمير منصور بن العزيز بالله خمسة آلاف دينار، وتوفى يوم الاثنين لسبع بقين من ذى القعدة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فبعث إليه العزيز بالحنوط والكفن وأرسل إليه الأمير منصور بن العزيز أيضا الكفن وأرسلت إليه السيدة العزيزية الكفن فكفن فى سبعين ثوبا. ما بين مثقل ووشى مذهب، وصلى عليه العزيز بالله وخلع على ابنه الحسين وحمله وجعله فى مرتبة أبيه، ولقبه بالقائد ابن القائد، ومكنه من جميع ما خلفه أبوه وكان جوهر عاقلا محسنا إلى الناس. كاتبا بليغا. فمن مستحسن توقيعاته على قصة رفعت إليه: بمصر سوء الاحترام.. أوقع بكم حلول الانتقام.. وكفر الإنعام.. أخرجكم من حفظ الذمام.. فالواجب فيكم ترك الإيجاب.. واللازم لكم ملازمة الاحتساب.. لأنكم بدأتم فأسأتم.. وعدتم فتعديتم.. فابتداؤكم ملوم.. وعودكم مذموم.. وليس بينهما فرجة إلا تقتضى الذم لكم.. والإعراض عنكم.. ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم.. ولما مات رثاه كثير من الشعراء.

«السور الثانى» بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ثمانين وأربعمائة، وزاد فيه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب زويلة الكبير، وفيما بين باب الفتوح الذى عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن، وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم الآن، إلى باب النصر، وجعل السور من لبن، وأقام الأبواب من حجارة، وفى نصف جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ابتدىء بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج عندما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه. فوجد عرض السور فى الأماكن نحو العشرة أذرع.

«السور الثالث» ابتدأ فى عمارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست وستين وخمسمائة، وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله فلما كانت سنة تسع وستين وخمسمائة قد استولى على المملكة انتدب لعمل السور الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن، وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة

سورا واحدا، فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب الشعرية، ومن باب الشعرية إلى باب البحر، وبنى قلعة المقس وهى برج كبير، وجعله على النيل بجانب جامع المقس، وانقطع السور من هناك، وكان فى أمله مد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر، وزاد فى سور القاهرة قطعة مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير، ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة لموته، وإلى الآن آثار الجدر ظاهرة لمن تأملها فيما بين آخر السور إلى جهة القلعة وكذلك لم يتهيأ له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مصر، وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة وعشرين ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعين بذراع العمل، وهو الذراع الهاشمي، من ذلك ما بين قلعة المقس على شاطيء النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف ذراع، وخمسمائة ذراع ومن قلعة المقس إلى حائط قلعة الجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا، ومن جانب حائط قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع، ومن وراء القلعة بحيال مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع، وذلك طول قوسه فى أبراجه من النيل إلى النيل، وقلعة المقس المذكورة كانت برجا مطلا على النيل فى شرقى جامع المقس، ولم تزل إلى أن هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى عند ما جدد الجامع المذكور فى سنة سبعين وسبعمائة، وجعل فى مكان البرج المذكور جنينته، وذكر أنه وجد فى البرج مالا، وأنه إنما جدد الجامع منه، والعامة تقول اليوم جامع المقسى بالإضافة، وكان يحيط بسور القاهرة خندق، شرع فى حفره من باب الفتوح إلى المقس فى المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وكان أيضا من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده، وشاهدت آثار الخندق باقية ومن ورائه سور بأبراج له عرض كبير مبنى بالحجارة. إلا أن الخندق انطم وتهدمت الأسوار التى كانت من ورائه وهذا السور هو الذى ذكره القاضى الفاضل فى كتابه إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فقال: والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، ويمتد عليهما رواقه، فما عقيلة ما كان معصمها ليترك بغير سوار، ولا خصرها ليتحلى بغير منطقة نضار، والآن قد استقرت خواطر الناس وأمنوا به من يد تتخطف، ومن يد مجرم يقدم ولا يتوقف.

ذكر أبواب القاهرة

وكان للقاهرة من جهتها القبلية بابان متلاصقان. يقال لهما بابا زويلة ومن جهتها البحرية بابان متباعدان. أحدهما باب الفتوح، والآخر باب النصر، ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة. أحدها يعرف الآن بباب البرقية، والآخر بالباب الجديد، والآخر بالباب المحروق، ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب. باب القنطرة، وباب الفرج وباب سعادة، وباب آخر يعرف بباب الخوخة ولم تكن هذه الأبواب على ما هى عليه الآن، ولا فى مكانها عند ما وضعها جوهر.

باب زويلة

كان باب زويلة عندما وضع القائد جوهر القاهرة بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف اليوم بسام بن نوح. فلما قدم المعز إلى القاهرة دخل من أحدهما وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه إلى اليوم عقد، ويعرف بباب القوس فتيامن الناس به، وصاروا يكثرون الدخول والخروج منه، وهجروا الباب المجاور له حتى جرى على الألسنة أن من مر به لا تقضى له حاجة، وقد زال هذا الباب ولم يبق له أثر اليوم. إلا أنه يفضى إلى الموضع الذى يعرف اليوم بالحجارين. حيث تباع آلات الطرب من الطنابير والعيدان ونحوهما وإلى الآن مشهور بين الناس أن من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة، ويقول بعضهم من أجل أن هنالك آلات المنكر وأهل البطالة من المغنين والمغنيات، وليس الأمر كما زعم. فإن هذا القول جار على ألسنة أهل القاهرة من حين دخل المعز إليها قبل أن يكون هذا الموضع سوقا للمعازف، وموضعا لجلوس أهل المعاصي.

فلما كان فى سنة خمس وثمانين وأربعمائة بنى أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله بأب زويلة الكبير. الذى هو باق إلى الآن وعلى أبراجه ولم يعمل له باشورة

كما هى عادة أبواب الحصون من أن يكون فى كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر فى وقت الحصار، ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة. لكنه عمل فى بابه زلاقة كبيرة من حجارة صوان عظيمة بحيث إذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان فلم تزل هذه الزلاقة باقية إلى أيام السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب فاتفق مروره من هنالك فاختل فرسه وزلق به، وأحسبه سقط عنه فأمر بنقضها فنقضت، وبقى منها شيء يسير ظاهر. فلما ابتنى الأمير جمال الدين يوسف الاستادار المسجد المقابل لباب زويلة وجعله باسم الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ظهر عند حفره الصهريج الذى به بعض هذه الزلاقة، وأخرج منها حجارة من صوان لا تعمل فيها العدة الماضية وأشكالها فى غاية من الكبر لا يستطيع جرها إلا أربعة رؤوس بقر فأخذ الأمير جمال الدين منها شيئا، وإلى الآن حجر منها ملقى تجاه قبو الخرنشف من القاهرة.

ويذكر أن ثلاثة أخوة قدموا من الرُّها بنائين بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح كل واحد بنى بابا، وأن باب زويلة هذا بنى فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وأن باب الفتوح بنى فى سنة ثمانين وأربعمائة.

وقد ذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة أن باب زويلة هذا بناه العزيز بالله نزار بن المعز، وتممه أمير الجيوش، وأنشد لعلى بن محمد النيلي:

يا صاح لو أبصرت باب زويلة

لعلمت قدر محـــله بنيانا

باب تأزر بالمجرة وارتدى الـ

شعرى ولاث برأسه كيوانا

لو أن فرعـــونا بناه لم يرد

صرحا ولا أوصى به هامانا

وسمعت غير واحد يذكر أن فردتيه يدوران فى سكر جتين من زجاج . . وذكر جامع سيرة الناصر محمد بن قلاون أن فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة رتب أيدكين والى القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون على باب زويلة خليلية تضرب كل ليلة بعد العصر . . وقد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظم باب زويلة ولا يرى مثل بدنتيه اللتين على جانبيه ، ومن تأمل الأسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه فإنه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه ، وقد كانت البدنتان أكبر مما هما الآن بكثير هدم أعلاهما الملك المؤيد شيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة ، وعمر على البدنتين منارتين ، ولذلك خبر تجده فى ذكر الجوامع عند ذكر الجامع المؤيدي .

باب النصر

كان باب النصر أولا دون موضعه اليوم ، وأدركت قطعة من أحد جانبيه كان تجاه ركن المدرسة القاصدية الغربي ، بحيث تكون الرحبة التى فيما بين المدرسة القاصدية وبين بابى جامع الحاكم القبليين خارج القاهرة ، ولذلك تجد فى أخبار الجامع الحاكمى أنه وضع خارج القاهرة فلما كان فى أيام المستنصر ، وقدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ، وتقلد وزارته وعمر سور القاهرة نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر إلى حيث هو الآن . فصار قريبا من مصلى العيد وجعل له باشورة أدركت بعضها إلى أن احتفرت أخت الملك الظاهر برقوق الصهريج السبيل تجاه باب النصر فهدمته ، وأقامت السبيل مكانه ، وعلى باب النصر مكتوب بالكوفى فى أعلاه لا إله إلا الله محمد رسول الله عليٌّ ولى الله صلوات الله عليهما .

باب الفتوح

وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن، وبقى منه إلى يومنا هذا عقده وعضادته اليسرى وعليه أسطر من الكتابة بالكوفي، وهو برأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي، وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح، فإنه من وضع أمير الجيوش وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح.

«أمير الجيوش» أبو النجم بدر الجمالى كان مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار. فلذلك عرف بالجمالي، ومازال يأخذ بالجد من زمن سبيه فيما يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم، ويتنقل فى الخدم حتى ولى إمارة دمشق من قبل المستنصر فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة، ثم سار منها كالهارب فى ليلة الثلاثاء لأربع عشرة خلت من رجب سنة ست وخمسين ثم وليها ثانيا يوم الأحد سادس شعبان سنة ثمان وخمسين، فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان، فخرج فى شهر رمضان سنة ستين وأربعمائة فثار العسكر وأخربوا قصره، وتقلد نيابة عكا، فلما كانت الشدة بمصر من شدة الغلاء وكثرة الفتن، والأحوال بالحضرة قد فسدت، والأمور قد تغيرت، وطوائف العسكر قد شغبت، والوزراء يقنعون بالاسم دون نفاذ الأمر والنهي، والرخاء قد أيس منه، والصلاح لا مطمع فيه، ولواتة قد ملكت الريف، والصعيد بأيدى العبيد، والطرقات قد انقطعت برا وبحرا إلا بالخفارة الثقيلة، فلما قتل بلد كوش ناصر الدولة حسين بن حمدان كتب المستنصر إليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته. فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العساكر، ولا يبقى أحدا من عسكر مصر، فأجابه المستنصر إلى ذلك فاستخدم معه عسكرا، وركب البحر من عكا فى أول كانون، وسار بمائة مركب بعد أن قيل له إن العادة لم تجر بركوب البحر فى الشتاء لهيجاته وخوف التلف فأبى عليهم وأقلع فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوما، حتى كثر التعجب من ذلك وعد من سعادته فوصل إلى تنيس ودمياط، واقترض المال من تجارها ومياسيرها، وقام بأمر ضيافته وما يحتاج إليه من الغلال سليمان اللواتى كبير أهل البحيرة، وسار إلى قليوب فنزل بها

وأرسل إلى المستنصر يقول لا أدخل إلى مصر حتى تقبض على بلدكوش، وكان أحد الأمراء، وقد اشتد على المستنصر بعد قتل ابن حمدان فبادر المستنصر وقبض عليه واعتقله بخزانة البنود، فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة خمس وستين وأربعمائة فتهيأ له أن قبض على جميع أمراء الدولة، وذلك أنه لما قدم لم يكن عند الأمراء علم من استدعائه فما منهم إلا من أضافه وقدم إليه، فلما انقضت نوبهم فى ضيافته استدعاهم إلى منزله فى دعوة صنعها لهم وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أجنهم الليل فإنهم لابد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم إلى الخلاء يقتل هناك، ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه، وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من دار ومال وإقطاع وغيره. فصار الأمراء، إليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحابه على جميع دور الأمراء، وصارت رؤوسهم بين يديه فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقور، وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده، وزيد فى ألقابه أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، وتتبع المفسدين فلم يبق منهم أحدا حتى قتله وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة، ثم خرج إلى الوجه البحرى فأسرف فى قتل من هنالك من لواتة، واستصفى أموالهم وأزاح المفسدين وأفناهم بأنواع القتل، وصار إلى البر الشرقى فقتل منه كثيرا من المفسدين، ونزل إلى الإسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة إلى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات، وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ثم سار إلى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل، وغنم من الأموال ما لا يعرف قدره كثرة، فصلح به حال الاقليم بعد فساده، ثم جهز العساكر لمحاربة البلاد الشامية. فسارت إليها غير مرة، وحاربت أهلها ولم يظفر منها بطائل، واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولى عهده.

فلما كان فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة مات فى ربيع الآخر، وقيل فى جمادى الأولى منها، وقد تحكم فى مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد

بالأمور فضبطها أحسن ضبط، وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة، قتل من مصر خلائق لا يحصيها إلا خالقها. منها أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف إنسان، إلى غير ذلك من أهل دمياط والإسكندرية والغربية والشرقية وبلا دالصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر. إلا أنه عمر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها بإتلاف المفسدين من أهلها، وكان له يوم مات نحو الثمانين سنة وكانت له محاسن. . منها أنه أباح الأرض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت أحوال الفلاحين واستغنوا فى أيامه. . ومنها حضور التجار إلى مصر لكثرة عدله بعد انتزاحهم منها فى أيام الشدة. . ومنها كثرة كرمه، وكانت مدة أيامه بمصر إحدى وعشرين سنة، وهو أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر. . ومن آثاره الباقية بالقاهرة باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر، وقام من بعده بالأمر ابنه شاهنشاه الملقب بالأفضل بن أمير الجيوش، وبه وبابنه الأفضل أبهة الخلفاء الفاطمية بعد تلاشى أمرها، وعمرت الديار المصرية بعد خرابها واضمحلال أحوال أهلها، وأظنه هو الذى أخبر عنه المعز فيما تقدم من حكاية جوهر عنه فإنه لم يتفق ذلك لأحد من رجال دولتهم غيره، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

باب القنطرة

عرف بذلك لأن جوهرا القائد بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليمشى عليها إلى المقس عند مسيرة القرامطة إلى مصر فى شوال سنة ستين وثلاثمائة.

باب الشعرية

يعرف بطائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية هم ومزانة وزيارة وهوارة من أحلاف لواتة الذين نزلوا بالمنوفية.

باب سعادة

عرف بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القائد جوهر القاهرة نزل بالجيزة، وخرج جوهر إلى لقائه فلما عاين سعادة جوهرا ترجل وسار إلى القاهرة فى رجب سنة ستين وثلاثمائة فدخل إليها من هذا الباب فعرف به، وقيل له باب سعادة ووافى سعادة هذا القاهرة بجيش كبير معه. فلما كان فى شوال سيره جوهر فى عسكر مجر عند ورود الخبر من دمشق بمجيء الحسين بن أحمد القرمطى المعروف بالأعصم إلى الشام، وقتل جعفر بن فلاح فسار سعادة يريد الرملة فوجد القرمطى قد قصدها فانحاز بمن معه إلى يافا ورجع إلى مصر، ثم خرج إلى الرملة فملكها فى سنة إحدى وستين فأقبل إليه القرمطى ففر منه إلى القاهرة، وبها مات لخمس بقين من المحرم سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وحضر جوهر جنازته وصلى عليه الشريف أبو جعفر مسلم، وكان فيه بر وإحسان.

الباب المحروق

كان يعرف قديما بباب القراطين فلما زالت دولة بنى أيوب واستقل بالملك الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى - أول من ملك من المماليك - بمملكة مصر فى سنة خمسين وستمائة كان حينئذ أكبر الأمراء البحرية مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب الفارس أقطاى الجمدار وقد استفحل أمره وكثرت أتباعه ونافس المعز أيبك، وتزوج بإبنه الملك المظفر صاحب حماه، وبعث إلى المعز بأن ينزل من قلعة الجبل ويخليها له حتى يسكنها بامرأته المذكورة، فقلق المعز منه وأهمه شأنه وأخذ يدبر عليه فقرر مع عدة من مماليكه أن يقفوا بموضع من القلعة عينه لهم، وإذا جاء الفارس أقطاى فتكوا به، وأرسل إليه وقت القائلة يستدعيه ليشاوره فى أمر مهم. فركب فى قائلة يوم الاثنين حادى عشر شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة فى نفر من مماليكه وهو آمن مطمئن بما صار له فى الأنفس من

الحرمة والمهابة، وبما يثق به من شجاعته فلما صار بقلعة الجبل وانتهى إلى قاعة العواميد عوق من معه من المماليك عن الدخول معه، ووثب به المماليك الذين أعدهم المعز، وتناولوه بالسيوف فهلك لوقته، وغلقت أبواب القلعة، وانتشر الصوت بقتله فى البلد. فركب أصحابه وخشداشيته وهم نحو السبعمائة فارس إلى تحت القلعة وفى ظنهم أن الفارس أقطاى لم يقتل وإنما قبض عليه السلطان، وأنهم يقاتلونه حتى يطلقه لهم فلم يشعروا إلا برأس الفارس أقطاى وقد ألقيت عليهم من القلعة فانفضوا لوقتهم وتواعدوا على الخروج من مصر إلى الشام، وأكابرهم يومئذ بيبرس البندقدارى وقلاون الألفى وسنقر الأشقر وبيسرى وسكر وبرامق. فخرجوا فى الليل من بيوتهم بالقاهرة إلى جهة باب القراطين ومن العادة أن تغلق أبواب القاهرة بالليل فألقوا النار فى الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه فقيل له من ذلك الوقت الباب المحروق، وعرف به، وأما القوم فإنهم ساروا إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز صاحب الشام فقبلهم وأنعم عليهم وأقطعهم، إقطاعات واستكثر بهم وأصبح المعز وقد علم بخروجهم إلى الشام، فأوقع الحوطة على جميع أموالهم ونسائهم وأولادهم وعامة متعلقاتهم وسائر أسبابهم وتتبعه، ونادى عليهم فى الأسواق بطلب البحرية وتحذير العامة من إخفائهم فصار إليه من أموالهم ما ملأ عينه، واستمرت البحرية فى الشام إلى أن قتل المعز أيبك وخلع ابنه المنصور وتسلطن الأمير قطز، فتراجعوا فى أيامه إلى مصر وآلت أحوالهم إلى أن تسلطن منهم بيبرس وقلاوون ولله عاقبة الأمور.

ذكر قصور الخلفاء ومناظرهم والإلمام بطرف من مآثرهم وما صارت إليه أحوالها من بعدهم

أعلم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر. منها القصر الكبير الشرقى الذى وضعه القائد جوهر عندما أناخ فى موضع القاهرة، ومنها القصر الصغير الغربى والقصر اليافعى وقصر الذهب وقصر الاقيال وقصر الظفر وقصر الشجرة وقصر الشوك وقصر الزمرد وقصر النسيم وقصر الحريم وقصر البحر. وهذه كلها قاعات ومناظر

من داخل سور القصر الكبير، ويقال لها القصور الزاهرة، ويسمى مجموعها القصر وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبستان الكافوري، وكان لهم عدة مناظر وآدر سلطانية غير هذه القصور منها دار الضيافة ودار الوزارة ودار الوزارة القديمة ودار الضرب والمنظرة بالجامع الأزهر والمنظرة بجوار الجامع الأقمر، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة ومنظرة الغزالة ودار الذهب ومنظرة المقس ومنظرة الدكة والبعل والخمس وجوه والتاج وقبة الهواء والبساتين الجيوشية والبستان الكبير ومنظرة السكرة والمنظرة ظاهر باب الفتوح ودار الملك بمدينة مصر ومنازل العز بها ومنظرة الصناعة بالساحل ومنظرة بجوار جامع القرافة الكبرى ـ المعروف اليوم بجامع الأولياء والأندلس بالقرافة والمنظرة ببركة الحبش، وسأذكر من أخبار هذه الأماكن فى مدة الدولة الفاطمية وما آل إليه حالها بحسب ما انتهى إلى علمه إن شاء الله تعالى.

القصر الكبير

هذا القصر كان فى الجهة الشرقية من القاهرة، فلذلك يقال له القصر الكبير الشرقي، ويسمى القصر المعزي. لأن المعز لدين الله أبا تميم معدا هو الذى أمر عبده وكاتبه جوهرا ببنائه حين سيره من رمادة أحد بلاد أفريقية بالعساكر إلى مصر، وألقى إليه ترتيبه فوضعه على الترتيب الذى رسمه له، ويقال إن جوهرا لما أسسه فى الليلة التى أناخ قبلها فى موضعه وأصبح رأى فيه ازورارات غير معتدلة لم تعجبه فقيل له فى تغييرها فقال: قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله.

وكان ابتداء وضعه مع وضع أساس سور القاهرة فى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وركب عليه بابان يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ثم إنه أدار عليه سورا محيطا به فى سنة ستين وثلاثمائة، وهذا القصر كان دار الخلافة، وبه سكن الخلفاء إلى آخر أيامهم فلما انقرضت

الدولة على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخرج أهل القصر منه وأسكن فيه الأمراء، ثم خرب أولا فأولا.

وذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة عن مرهف بواب باب الزهومة أنه قال: أعلم هذا الباب المدة الطويلة وما رأيته دخل إلى حطب ولا رمى منه تراب. قال: وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه. قال: ولما أخذه صلاح الدين وأخرج من كان به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة، ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده فأسكنهم دار المظفر بحارة برجوان وكانت تعرف بدار الضيافة، قال: ووجد إلى جانب القصر بئر تعرف ببئر الصم كان الخلفاء يرمون فيها القتلى فقيل إن فيها مطلبا، وقصد تغويرها فقيل إنها معمورة بالجان وقتل عمارها جماعة من أشياعه فردمت وتركت. انتهي، وكان صلاح الدين لما أزال الدولة أعطى هذا القصر الكبير لأمراء دولته وأنزلهم فيه فسكنوه، وأعطى القصر الصغير الغربى لأخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب فسكنه، وفيه ولد له ابنه الكامل ناصر الدين محمد وكان قد أنزل والده نجم الدين أيوب بن شادى فى منظرة اللؤلؤة، ولما قبض على الأمير داود ابن الخليفة العاضد وكان ولى عهد أبيه وينعت بالحامد لله اعتقله وجميع إخوته وهم أبو الأمانة جبريل وأبو الفتوح وابنه أبو القاسم وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد وإسماعيل بن العاضد وجعفر ابن أبو الطاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجماعة. فلم يزالوا فى الاعتقال بدار المظفر وغيرها إلى أن انتقل الكامل محمد بن العادل من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل فنقل معه ولد العاضد وإخوته وأولاد عمه، واعتقلهم بها، وفيها مات داود بن العاضد ولم يزل بقيتهم معتقلين بالقلعة إلى أن استبد السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. فأمر فى سنة ستين بالاشهاد على كمال الدين اسماعيل بن العاضد وعماد الدين أبى القاسم ابن الأمير أبى الفتوح بن العاضد وبدر الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد أن جميع المواضع التى قبلى المدارس الصالحية من القصر الكبير، والموضع المعروف بالتربة باطنا وظاهرا بخط الخوخ السبع، وجميع الموضع المعروف

بالقصر اليافعى بالخط المذكور، وجميع الموضع المعروف بالجباسة بالخط المذكور، وجميع الموضع المعروف بخزائن السلاح السلطانية وما هو بخطه، وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ وغيرهم من القصر الشارع بابه قبالة دار الحديث النبوى الكاملية، وجميع الموضع المعروف بالقصر الغربي، وجميع الموضع المعروف بدار القنطرة بخط المشهد الحسيني، وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان، وجميع الموضع المعروف بدار الذهب بظاهر القاهرة، وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة، وجميع قصر الزمرذ وجميع البستان الكافورى ملك لبيت المال بالنظر المولوى السلطانى الملكى الظاهرى من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه، ولا لواحد منهم فى ذلك، ولا فى شيء منه ولاء ولا شبهة بسبب يدولا ملك، ولا وجه من الوجوه كلها خلا ما فى ذلك من مسجد لله تعالى أو مدفن لآبائهم، فأشهدوا عليهم بذلك وورخوا الإشهاد بالثالث عشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة، وأثبت على يد قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعي، وتقرر مع المذكورين أنه مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم واتصلوا إليه يحاسبوا به من جملة ما تحرر ثمنه عند وكيل بيت المال. وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم، واتصلوا إليه يحاسبون به من جملة ما تحرر ثمنه عند وكيل بيت المال، وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة وغيرها مما هو منسوب إلى آبائهم، ورسم ببيع ذلك فباعه وكيل بيت المال كمال الدين ظافر شيأ بعد شيء، ونقضت تلك المباني، وابتنى فى مواضعها على غير تلك الصفة من المساكن وغيرها كما يأتى ذكره إن شاء الله تعالي. وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها. . «قاعة الذهب» . . وكان يقال لقاعة الذهب، قصر الذهب وهو أحد قاعات القصر الذى هو قصر المعز لدين الله معد وبنى قصر الذهب العزيز بالله نزار بن المعز، وكان يدخل إليه من باب الذهب الذى كان مقابلا للدار القطبية التى هى اليوم المارستان المنصوري، ويدخل إليه أيضا من باب البحر الذى هو الآن تجاه المدرسة الكاملية، وجدد هذا القصر من بعد العزيز الخليفة المستنصر فى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وبهذه القاعة كانت الخلفاء تجلس فى

الموكب يوم الاثنين ويوم الخميس، وبها كان يعمل سماط شهر رمضان للأمراء وسماط العيدين، وبها كان سرير الملك. . «هيئة جلوس الخليفة بمجلس الملك». . قال الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فى كتاب سيرة المعز: وكان وصول المعز لدين الله إلى قصره بمصر فى يوم الثلاثاء لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، ولما وصل إلى قصره خر ساجدا ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه، واستقر فى قصره بأولاده وحشمه وخواص عبيده، والقصر يومئذ يشتمل على ما فيه من عين وورق وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح وأسفاط وأعدال وسروج ولجم وبيت المال بحاله بما فيه، وفيه جميع ما يكون للملوك، وللنصف من رمضان جلس المعز فى قصره على السرير الذهب الذى عمله عبده القائد جوهر فى الإيوان الجديد وأذن بدخول الأشراف أولا، ثم أذن بعدهم للأولياء ولسائر وجوه الناس. وكان القائد جوهر قائما بين يديه يقدم الناس قوما بعد قوم، ثم مضى القائد وجوهر، وأقبل بهديته التى عباها ظاهرة يراها الناس، وهى من الخيل مائة وخمسون فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب، ومنها مرصع ومنها معنبر، وإحدى وثلاثون قبة على نوق بخاتى بالديباج والمناطق والفرش، منها تسعة بديباج مثقل وتسع نوق مجنوبة مزينة بمثقل، وثلاثة وثلاثون بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة، ومائة وثلاثون بغلا للنقل، وتسعون نجيبا، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما فيها وفيها أوانى الذهب والفضة، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة، ودرجان من فضة مخرقة فيها جوهر وشاشية مرصعة فى غلاف، وتسعمائة ما بين سفط وتخت فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر. . وفى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره، وسعتها اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا وأرضها ديباج أحمر ودورها اثنا عشر هلال ذهب فى كل هلال أترجه ذهب مسبك، جوف كل أترجه خمسون درة كبار كبيض الحمام، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمرذ أخضر قد فسر، وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله وحشوا الشمسية المسك المسحوق يراها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلوّ موضعها، وإنما نصبها عدة فراشين وجروها لثقل وزنها.

وقال في كتاب الذخائر والتحف : وما كان بالقصر من ذلك أن وزن ما استعمل من الذهب الأبريز الخالص في سرير الملك الكبير مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال ، ووزن ما حلي به الستر الذي أنشأه سيد الوزراء أبو محمد البازوري من الذهب أيضا ثلاثون ألف مثقال ، وأنه رصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر ألوانه ، وذكر أن في الشمسية الكبيرة ثلاثين ألف مثقال ذهبا وعشرين ألف درهم مخرّقة ، وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر من سائر ألوانه وأنواعه ، وأن في الشمسية التي لم تتم من الذهب سبعة عشر ألف مثال .

وقال المرتضى أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الحسن بن عبد السلام بن الطوير الفهري القيسراني الكاتب المصري في كتاب نزهة المقلتين في أخبار الدولتين - الفاطمية والصلاحية الفصل العاشر في ذكر هيئتهم في الجلوس العام بمجلس الملك : ولا يتعدى ذلك يومي الإثنين والخميس ، ومن كان أقرب الناس إليهم ، ولهم خدم لا تخرج عنهم ، وينتظر لجلوس الخليفة أحد اليومين المذكورين وليس على التوالي . بل على التفاريق . فإذا تهيأ ذلك في يوم من هذه الأيام استدعى الوزير من داره صاحب الرسالة على الرسم المعتاد في سرعة الحركة فيركب في أبهته وجماعته على الترتيب المقدم ذكره - يعني في ذكر الركوب أول العام - وسيأتي إن شاء الله تعالى في موضعه من هذا الكتاب ، فيسير من مكان ترجله عن دابته بدهلبز العمود إلى مقطع الوزارة وبين يديه أجلاء أهل الإمارة . كل ذلك بقاعة الذهب التي كان يسكنها السلطان بالقصر وكان الجلوس قبل ذلك بالإيوان الكبير الذي هو خزائن السلاح في صدره على سرير الملك ، وهو باق في مكانه إلى الآن من هذا المكان إلى آخر أيام المستعلي . ثم إن الآمر نقل الجلوس إلى هذا المكان ، واسمه مكتوب بأعلى باذهنجه إلى اليوم ، ويكون المجلس المذكور معلقا فيه ستور الديباج شتاء والديبقي صيفا ، وفرش الشتاء بسط الحرير عوضا عن الصوف مطابقا لستور الديباج ، وفرش الصيف مطابقا لستور الديبقي ما بين طبري وطبرستاني مذهب معدوم المثل ، وفي صدره المرتبة المؤهلة لجلوسه في هيئة جليلة على سرير الملك المغشى بالقرقوبي ، فيكون وجه الخليفة عليه قبالة وجوه الوقوف بين يديه . فإذا تهيأ الجلوس استدعى الوزير من المقطع إلى

باب المجلس المذكور، وهو مغلق وعليه ستر. فيقف بحذائه، وعن يمينه زمام القصر، وعن يساره زمام بيت المال فإذا انتصب الخليفة على المرتبة، وضع أمين الملك مفلح أحد الأستاذين المحنكين الخواص الدواة مكانها من المرتبة وخرج من المقطع الذى يقال له فردالكم. فإذا الوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوقون أرباب الخدم الجليلة وغيرهم، وفى خلالهم قراء الحضرة فيشير صاحب المجلس إلى الأستاذين فيرفع كل منهم جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا بمنصبه المذكور فتستفتح القراء بقراءة القرآن الكريم، ويسلم الوزير بعد دخوله إليه فيقبل يديه ورجليه ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع وهو قائم قدر ساعة زمانية ثم يؤمر بأن يجلس على الجانب الأيمن وتطرح له مخدة تشريفا ويقف الأمراء فى أماكنهم المقررة. فصاحب الباب واسفهسلار العساكر من جانبى الباب يمينا ويسارا، ويليهم من خارجه لاصقا بعتبته زمام الآمرية والحافظية كذلك، ثم يرتبهم على مقاديرهم. فكل واحد لا يتعدى مكانه. هكذا إلى آخر الرواق وهو الإفريز العالى عن أرض القاعة، ويعلوه الساباط على عقود القناطر التى على العهد هناك، ثم أرباب القصب والعماريات يمنة ويسرة كذلك، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة، ويقف مستندا للصدر الذى يقابل باب المجلس بواب الباب والحجاب، ولصاحب الباب فى ذلك المحل الدخول والخروج، وهو الموصل على كل قائل ما يقول، فإذا انتظم ذلك النظام واستقر بهم المقام فأول ماثل للخدمة بالسلام قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام، فيجيز صاحب الباب القاضى دون من معه. فيسلم متأدبا، ويقف قريبا، ومعنى الأدب فى السلام أنه يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فيتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل السلام، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم، وهو من الأستاذين المحنكين وبالاشراف الطالبيين نقيبهم، وهو من الشهود المعدلين، وتارة يكون من الاشراف المميزين فيمضى عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث، ويخص بالسلام فى ذلك الوقت من خلع عليه لقوص الشرقية أو الغربية أو الإسكندرية فيشرفون بتقبيل القبة. فإن دعت حاجة الوزير إلى مخاطبة الخليفة فى أمر قام من مكانه، وقرب منه منحنيا على سيفه فيخاطبه مرة أو مرتين ثم يؤمر الحاضرون فيخرجون حتى يكون يكون آخر من يخرج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة

ورجله، ويخرج فيركب على عادته إلى داره، وهو مخدوم بأؤلئك ثم يرخى الستر ويغلق باب المجلس إلى يوم مثله. فيكون الحال كما ذكر، ويدخل الخليفة إلى مكانه المستقر فيه ومعه خواص أستاذيه. وكان أقرب الناس إلى الخلفاء الأستاذون المحنكون، وهم أصحاب الأنس لهم، ولهم من الخدم ما لا يتطرق إليه سواهم، ومنهم زمام القصر وشاد التاج الشريف، وصاحب بيت المال، وصاحب الدفتر، وصاحب الرسالة، وزمام الاشراف الأقارب، وصاحب المجلس. وهم المطلعون على أسرار الخليفة، وكانت لهم طريقة محمودة فى بعضهم بعضا. منها أنه متى ترشح أستاذ للتحنيك وحنك حمل إليه كل واحد من المحنكين بدلة من ثياب ومنديلا وفرشا وسيفا. فيصبح لاحقا بهم، وفى يديه مثل ما فى أيديهم. وكان لا يركب أحد فى القصر إلا الخليفة، ولا ينصرف ليلا ونهارا إلا كذلك وله فى الليل شدّدات من النساء يخدمن البغلات والحمير الإناث للجواز فى السراديب القصيرة الاقباء، والطلوع على الزلاقات إلى أعالى المناظر والأماكن، وفى كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق فى الليل.

كيفية سماط شهر رمضان بهذه القاعة

قال ابن الطوير: فإذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان رتب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر إلى السادس والعشرين منه، ويستدعى له قاضى القضاة ليالى الجمع توقيرا له. فأما الأمراء ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة، ولا يحرمونهم الإفطار مع أولادهم وأهاليهم ويكون حضورهم بمسطور يخرج إلى صاحب الباب واسفهسلاره. فيعرف صاحب كل نوبة ليلته فلا يتأخر، ويحضر الوزير فيجلس صدره، فإن تأخر كان ولده أو أخوه، وإن لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب، ويهتم فيه اهتماما عظيما تاما. بحيث لا يفوته شيء من الأصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائقة، وهو مبسوط فى طول القاعة ماد من الرواق إلى ثلثى القاعة المذكورة، والفراشون قيام لخدمة الحاضرين، وحواشى الأستاذين يحضرون الماء المبخر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين، ويكون

انفصالهم العشاء الآخرة. فيعمهم ذلك، ويصل منه شيء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض، ويأخذ الرجل الواحد ما يكفى لنفسه، وربما حمل لسحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر، ثم يتفرق الناس إلى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين. قال: ومبلغ ما نيفق فى شهر رمضان لسماطه مدة سبعة وعشرين يوما ثلاثة آلاف دينار.

عمل سماط عيد الفطر بهذه القاعة

قال الأمير المختار عز الملك بن عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز المشيحى فى تاريخه الكبير: وفى آخر يوم منه يعنى شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة حمل يانس الصقلى صاحب الشرطة السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل حلوى وحمل أيضا على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر.

وقال ابن الطوير: فأما الاسمطة الباطنة التى يحضرها الخليفة بنفسه ففى يوم عيد الفطر اثنان ويوم عيد النحر واحد. فأما الأول من عيد الفطر فإنه يعين فى الليل بالإيوان قدّام الشباك الذى يجلس فيه الخليفة فيمد ما مقداره ثلاثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع من الخشكنان والفانيذ والبسندود المقدم ذكر عمله بدار الفطرة فإذا صلى الفجر فى أوّل الوقت حضر إليه الوزير وهو جالس فى الشباك، ومكن الناس من ذلك الممدود، فأخذ وحمل ونهب فيأخذه من يأكله فى يومه ومن يدخره لغده ومن لا حاجة له به فيبيعه ويتسلط عليه أيضا حواشى القصر المقيمون هناك فإذا فرغ من ذلك، وقد بزغت الشمس ركب من باب الملك بالايوان وخرج من باب العيد إلى المصلى والوزير معه كما وصفنا فى هيئة ركوب هذا العيد فى فصله مخليا لقاعة الذهب لسماط الطعام، فينصب له سرير الملك قدام باب المجلس فى الرواق، وينصب فيه مائدة من فضة ويقال لها المدورة وعليها أوانى الفضيات

والذهبيات والصينى الحاوية للأطعمة الخاص الفائحة الطيب الشهية من غير خضراوات سوى الدجاج العائق المسمن المعمول بالأمزجة الطيبة النافعة، ثم ينصب السماط أمام السرير إلى باب المجلس قبالته، ويعزف بالمحول طول القاعة، وهو اليوم الباب الذى يدخل منه إليها من باب البحر الذى هو باب القصر اليوم، والسماط خشب مدهون شبه الدكك اللاطية، فيصير من جمعه للأوانى سماطا عاليا فى ذلك الطول، وبعرض عشرة أذرع فيفرش فوق ذلك الأزهار، ويرص الخبز على حافتيه سواميذ كل واحد ثلاثة أرطال من نقى الدقيق، ويدهن وجهها عند خبزها بالماد فيحصل لها بريق ويحسن منظرها، ويعمر داخل السماط على طوله بأحد وعشرين طبقا فى كل طبق أحد وعشرون ثنيا سمينا مشويا، وفى كل من الدجاج والفراريج وفراخ الحمام ثلاثمائة وخمسون طائرا، فيبقى طائلا مستطيلا فيكون كقامة الرجل الطويل، ويسور بشرائح الحلواء اليابسة، ويزين بألوانها المصبغة، ثم يسد خلل تلك الأطباق بالصحون الخزفية التى فى كل واحد منها سبع دجاجات، وهى مترعة بالألوان العائقة من الحلواء المائعة والطباهجة المشققة، والطيب غالب على ذلك كله، فلا يبعد أن تناهز عدة الصحون المذكورة خمسمائة صحن، ويرتب ذلك أحسن ترتيب من نصف الليل بالقاعة إلى حين عود الخليفة من المصلى والوزير معه، فإذا دخل القاعة وقف الوزير على باب دخول الخليفة لينزع عنه الثياب العيدية التى فى عمامتها السمة، ويلبس سواها من خزائن الكسوات الخاصة التى قدمنا ذكرها، وقد عمل بدار الفطرة قصران من حلوى فى كل واحد سبعة عشر قنطارا وحملا فمنهما واحد يمضى به من طريق قصر الشوك إلى باب الذهب، والآخر يشق به بين القصرين يحملهما العتالون فينصبان أول السماط وآخره وهما شكل مليح مدهونان بأوراق الذهب وفيهما شخوص ناتئة كأنها مسبوكة فى قوالب لوحا لوحا. فإذا عبر الخليفة راكبا ونزل على السرير الذى عليه المدورة الفضة وجلس قام على رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين وأربعة من خواص الفراشين، ثم يستدعى الوزير فيطلع إليه، ويجلس عن يمينه ويستدعى الأمراء المطوقين ومن يليهم من الأمراء دونهم فيجلسون على السماط كقيامهم بين يديه، فيأكل من

أراد من غير إلزام. فإن فى الحاضرين من لا يعتقد الفطر فى ذلك اليوم فيستولى على ذلك المعمول الآكلون، وينقل إلى دار أرباب الرسوم، ويباح فلا يبقى منه إلا السماط فقط فيعم أهل القاهرة ومصر من ذلك نصيب وافر. فإذا انقضى ذلك عند صلاة الظهر انفض الناس وخرج الوزير إلى داره مخدوما بالجماعة الحاضرين، وقد عمل سماطا لأهله وحواشيه ومن يعز عليه لا يلحق بأيسر يسير من سماط الخليفة، وعلى هذا العمل يكون سماط عيد النحر أول يوم منه وركوبه إلى المصلى كما ذكرنا، ولا يخرج عن هذا المنوال ولا ينقص عن هذا المثال، ويكون الناس كلهم مفطرين ولا يفوت أحدا منهم شيء كما ذكرنا فى عيد الفطر. قال: ومبلغ ما ينفق فى سماطى الفطر والأضحى أربعة آلاف دينار وكان يجلس على أسمطة الأعياد فى كل سنة رجلان من الأجناد. يقال لأحدهما ابن فائز والآخر الديلمي. يأكل كل واحد منهما خروفا مشويا وعشر دجاجات محلاة وجام حلوى عشرة أرطال ولهما رسوم تحمل إليهما بعد ذلك من الاسمطة لبيوتهما، ودنانير وافرة على حكم الهبة، وكان أحدهما أسر بعسقلان فى تجريدة جرد إليها وأقام مدة فى الأسر، فاتفق أنه كان عندهم عجل سمين فيه عدة قناطير لحم فقال له الذى أسره وهو يداعبه: إن أكلت هذا العجل أعتقتك، ثم ذبحه وسوى لحمه وأطعمه حتى أتى على جميعه، فوفى له وأعتقه فقدم على أهله بالقاهرة، ورأيته يأكل على السماط.

الإيوان الكبير

قال القاضى الرئيس محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر الروحى الكاتب فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة: الايوان الكبير بناه العزيز بالله أبو منصور نزار ابن المعز لدين الله معد فى سنة تسع وستين وثلاثمائة انتهى، وكان الخلفاء أولا يجلسون به فى يومى الاثنين والخميس إلى أن نقل الخليفة الآمر بأحكام الله

الجلوس منه فى اليومين المذكورين إلى قاعة الذهب كما تقدم، وبصدر هذا الايوان كان الشباك الذى يجلس فيه الخليفة وكان يعلو هذا الشباك قبة، وفى هذا الايوان كان يمد سماط الفطرة بكرة يوم عيد الفطر كما تقدم، وبه أيضا كان يعمل الاجتماع والخطبة فى يوم عيد الغدير، وكان بجانب هذا الايوان الدواوين، وكان بهذا الايوان ضلعا سمكه إذا أقيما واريا الفارس بفرسه، ولم يزالا حتى بعثهما السلطان صلاح الدين يوسف إلى بغداد فى هدية .

عيد الغدير

اعلم أن عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا، ولا عمله أحد من سالف الأمة المقتدى بهم وأول ما عرف فى الإسلام بالعراق أيام معز الدولة على بن بويه فإنه أحدثه فى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا، وأصلهم فيه ما خرجه الإمام أحمد فى مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه قال: « **كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر لنا فنزلنا بغدير خم ونودى الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرتين فصلى الظهر، وأخذ بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال: ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟.. قالوا بلى.. قال ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا بلى. فقال من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.. قال فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال هنيئا لك يا ابن أبى طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة**» .

وغديـــر خـــم

على ثلاثة أميال من الجحفة بسرة الطريق، وتصب فيه عين، وحوله شجر كثير، ومن سنتهم فى هذا العيد، وهو أبدا يوم الثامن عشر من ذى الحجة أن يحيوا ليلته بالصلاة، ويصلوا فى صبيحته ركعتين قبل الزوال، ويلبسوا فيه الجديد، ويعتقوا الرقاب ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح، ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق أرادت عوام السنية مضاهاة فعلهم ونكايتهم فاتخذوا فى سنة تسع وثمانين وثلاثمائة بعد عيد الغدير بثمانية أيام عيدا أكثروا فيه من السرور واللهو، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وبالغوا فى هذا اليوم فى إظهار الزينة ونصب القباب وإيقاد النيران، ولهم فى ذلك أعمال مذكورة فى أخبار بغداد.

وقال ابن زولاق: وفى يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وهو يوم الغدير تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم للدعاء، لأنه يوم عيد. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى أمير المؤمنين على بن أبى طال فيه واستخلفه. فأعجب المعز ذلك من فعلهم، وكان هذا أول ما عمل بمصر.

قال المسبحى: وفى يوم الغدير، وهو ثامن عشر ذى الحجة اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر، ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة، وذكر أن الحاكم بأمر الله كان قد منع من عمل عيد الغدير، قال ابن الطوير: إذا كان العشر الأوسط من ذى الحجة اهتم الامراء والأجناد بركوب عيد العدير، وهو فى الثامن عشر منه، وفيه خطبة وركوب الخليفة بغير مظلة ولا سمة ولا خروج عن القاهرة، ولا يخرج لأحد شيء. فإذا كان ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجارى به العادة فيدخل القصر وفى دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسى على عادته. فيخدم ويخرج ويركب من مكانه من الدهليز ويخرج فيقف قبالة باب القصر، ويكون ظهره إلى دار فخر الدين جهاركس اليوم، ثم يخرج الخليفة راكبا أيضا فيقف فى الباب، ويقال له

القوس، وحواليه الأستاذون المحنكون رجالة، ومن الأمراء المطوقين من يأمره الوزير بإشارة خدمة الخليفة على خدمته، ثم يجوز زى كل من له زى على مقدار همته. فأول ما يجوز زى الخليفة، وهو الظاهر فى ركوبه. فتجد الجنائب الخاص التى قدمنا ذكرها أولا، ثم زى الأمراء المطوقين لأنهم غلمانه واحدا فواحدا بعددهم وأسلحتهم وجنائبهم، إلى آخر أرباب القصب والعماريات، ثم طوائف العسكر أزمتها أمامها وأولادهم مكانهم. لأنهم فى خدمة الخليفة وقوف بالباب طائفة طائفة، فيكونون أكثر عددا من خمسة آلاف فارس، ثم المترجلة الرماة بالقسى بالأيدى والأرجل، وتكون عدتهم قريبا من ألف، ثم الراجل من الطوائف الذين قدمنا ذكرهم فى الركوب فتكون عدتهم قريبا من سبعة آلاف كل منهم بزمام وبنود ورايات وغيرها بترتيب مليح مستحسن، ثم يأتى زى الوزير مع ولده أو أحد أقاربه وفيه جماعته وحاشيته فى جمع عظيم وهيئة هائلة، ثم زى صاحب الباب وأجناده فى عدة وافرة، ثم يأتى زى والى القاهرة، وزى والى مصر فإذا فرغا خرج الخليفة من الباب والوقوف بين يديه مشاة فى ركابه خارجا عن صبيان ركابه الخاص، فإذا وصل إلى باب الزهومة بالقصر انعطف على يساره داخلا من الدرب هناك جائزا على الخوخ. فإذا وصل إلى باب الزهومة بالقصر انعطف على يساره داخلا من الدرب هناك جائزا على الخوخ. فإذا وصل إلى باب الديلم الذى داخله المشهد الحسينى فيجد فى دهليز ذلك الباب قاضى القضاة والشهود. فإذا وازاهم خرجوا للخدمة والسلام عليه. فيسلم القاضى كما ذكرنا من تقبيل رجله الواحدة التى تليه والشهود أمام رأس الدابة بمقدار قصبة. ثم يعودون ويدخلون من ذلك الدهليز إلى الايوان الكبير وقد علق عليه الستور القرقوبية جميعه على سعته، وغير القرقوبية سترا فسترا ثم يعلق بدائرة على سعته ثلاثة صفوف، الأوسط طوارف فارسيات مدهونة، والأعلى والأسفل درق وقد نصب فيه كرسى الدعوة، وفيه تسع درجات لخطابة الخطيب فى هذا العيد. فيجلس القاضى والشهود تحته والعالم من الأمراء والأجناد والمتشيعين، ومن يرى هذا الرأى من الأكابر والأصاغر. فيدخل الخليفة من باب العيد إلى الايوان إلى باب الملك. فيجلس بالشباك، وهو ينظر القوم ويخدمه الوزير عندما ينزل ويأتى هو ومن معه. فيجلس بمفرده على يسار منبر الخطيب، ويكون قد

سير لخطيبه بدلة حرير يخطب فيها وثلاثون دينارا، ويدفع له كراس محرر من ديوان الإنشاء يتضمن نص الخلافة من النبى صلى الله عليه وسلم إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه بزعمهم، فإذا فرغ ونزل صلى قاضى القضاة بالناس ركعتين، فإذا قضيت الصلاة قام الوزير إلى الشباك، فيخدم الخليفة، وينفض الناس بعد التهانى من الإسماعيلية بعضهم بعضا، وهو عندهم أعظم من عيد النحر، وينحر فيه أكثرهم قال: وكان الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد لما سلم من يد أبى على بن الأفضل الملقب كتيفات لما وزر له وخرج عليه عمل عيدا فى ذلك اليوم، وهو السادس عشر من المحرم من غير ركوب ولا حركة، بل إن الايوان باق على فرشه وتعليقه من يوم الغدير. فيفرش المجلس المحول اليوم فى الإيوان الذى بابه خورنق وكان يقابل الإيوان الكبير الذى هو اليوم خزائن السلاح بأحسن فرش، وينصب له مرتبة هائلة قريبا من باذهنجه. فيجتمع أرباب الدولة سيفا وقلما، ويحضرون إلى الإيوان إلى باب الملك المجاور للشباك فيخرج الخليفة راكبا إلى المجلس فيترجل على بابه، وبين يديه الخواص. فيجلس على المرتبة، ويقفون بين يديه صفين إلى باب المجلس، ثم يجعل قدامه كرسى الدعوة، وعليه غشاء قرقوبى وحواليه الأمراء الأعيان وأرباب الرتب، فيصعد قاضى القضاة ويخرج من كمه كراسة مسطحة تتضمن فصولا، كالفرج بعد الشدة بنظم مليح، يذكر فيه كل من أصابه من الأنبياء والصالحين والملوك شدة وفرج الله عنه واحدا فواحدا حتى يصل إلى الحافظ، وتكون هذه الكراسة محمولة من ديوان الإنشاء. فإذا تكاملت قراءتها نزل من المنبر ودخل إلى الخليفة ولا يكون عنده من الثياب أجل مما لبسه، ويكون قد حمل إلى القاضى قبل خطابته بدلة مميزة يلبسها للخطابة ويوصل إليه بعد الخطابة، خمسون دينارا.

وقال الأمير جمال الدين أبو على موسى بن المأمون أبى عبد الله محمد بن فاتك بن مختار البطائحى فى تاريخه: واستهل عيد الغدير يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة، وهاجر إلى باب الأجل - يعنى الوزير المأمون البطائحى الضعفاء والمساكين من البلاد، ومن انضم إليهم من العوالى والأدوان على عادتهم فى طلب الحلال، وتزويج الأيامى، وصار

موسما يرصده كل أحد ويرتقبه كل غنى وفقير فجرى فى معروفه على رسمه، وبالغ الشعراء فى مدحه بذلك، ووصلت كسوة العيد المذكور فحمل ما يختص بالخليفة والوزير، وأمر بتفرقة ما يختص بأزمة العساكر فارسها وراجلها من عين وكسوة ومبلغ ما يختص بهم من العين سبعمائة وتسعون دينارا، ومن الكسوات مائة وأربع وأربعون قطعة، والهيئة المختصة بهذا العيد برسم كبراء الدولة وشيوخها وأمرائها وضيوفها والأستاذين المحنكين والمميزين منهم خارجا عن أولاد الوزير وأخوته، ويفرق من مال الوزير بعد الخلع عليه ألفان وخمسمائة دينار وثمانون دينارا، وأمر بتغليق جميع أبواب القصور، وتفرقة المؤذنين بالجوامع والمساجد عليها، وتقدم بأن تكون الاسمطة بقاعة الذهب على حكم سماط أول يوم من عيد النحر، وفى باكر هذا اليوم توجه الخليفة إلى الميدان وذبح ما جرت به العادة، وذبح الجزارون بعده مثل عدد الكباش المذبوحة فى عيد النحر، وأمر بتفرقة ذلك للخصوص دون العموم وجلس الخليفة فى المنظرة، وخدمت الرهجية، وتقدم الوزير والأمراء وسلموا. فلما حان وقت الصلاة والمؤذنون على أبواب القصر يكبرون تكبير العيد إلى أن دخل الوزير فوجد الخطيب على المنبر قد فرغ. فتقدم القاضى أبو الحجاج يوسف بن أيوب فصلى به وبالجماعة صلاة العيد، وطلع الشريف بن أنس الدولة وخطب خطبة العيد ثم توجه الوزير إلى باب الملك، فوجد الخليفة قد جلس قاصدا للقائه، وقد ضربت المقدمة فأمره بالمضى إليها، وخلع عليه خلعة مكملة من بدلات النحر، وثوبها أحمر بالشدة الدائمية، وقلده سيفا مرصعا بالياقوت والجوهر، وعندما نهض ليقبل الأرض وجده قد أعد له العقد الجوهر وبطه فى عنقه بيده، وبالغ فى إكرامه وخرج من باب الملك فتلقاه المقربون، وسارع الناس إلى خدمته، وخرج من باب العيد وأولاده وإخوته والأمراء المميزون بحجبه، وخدمت الرهجية، وضربت العربية والموكب جميعه بزيه، وقد اصطفت العساكر، وتقدم إلى ولده بالجلوس على أسمطته وتفرقتها برسومها وتوجه إلى القصر، واستفتح المقرئون، فسلم الحاضرون، وجرى الرسم فى السماط الأول والثانى وتفرقة الرسوم والموائد، على حكم أول يوم من عيد النحر، وتوجه الخليفة بعد ذلك إلى السماط الثالث الخاص بالدار الجليلة لأقاربه وجلسائه، ولما انقضى حكم التعييد جلس الوزير فى

مجلسه واستفتح المقرئون وحضر الكبراء وبياض البلدين لتهنىء بالعيد والخلع، وخرج الرسم، وتقدم الشعراء فأنشدوا وشرحوا الحال، وحضر متولى خزائن الكسوة الخاص بالثياب التى كانت على المأمون قبل الخلع وقبضوا الرسم الجارى به العادة وهو مائة دينار، وحضر متولى بيت المال وصحبته صندوق فيه خمسة آلاف دينار برسم فكاك العقد الجوهر والسيف المرصع، فأمر الوزير المأمون الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست الشريف بكتب مطالعة إلى الخليفة بما حمل إليه من المال برسم منديل الكم، وهو ألف دينار، ورسم الإخوة والأقارب ألف ديناروتسلم متولى الدولة بقية المال ليفرق على الأمراء المطوقين والمميزين والضيوف والمستخدمين.

المحــــول

قال ابن عبد الظاهر: المحول هو مجلس الداعى، ويدخل إليه من باب الريح، وبابه من باب البحر، ويعرف بقصر البحر، وكان فى أوقات الاجتماع يصلى الداعى بالناس فى رواقه.

وقال المسبحى: وفى ربيع الأول يعنى من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب، فمات فى الزحمة أحد عشر رجلا فكفنهم العزيز بالله.

وقال ابن الطوير: وأما داعى الدعاة فإنه يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه فى اللباس وغيره ووصفه أنه يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت. يقرأ عليه ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم. وبين يديه من نقباء المعلمين اثنا عشر نقيبا، وله نواب كنواب الحكم فى سائر البلاد ويحضر إليه فقهاء الدولة، ولهم مكان يقال له دار العلم، ولجماعة منهم على التصدير بها أرزاق واسعة. وكان الفقهاء منهم يتفقون على دفتر يقال له مجلس الحكمة فى كل يوم اثنين وخميس، ويحضر مبيضا إلى داعى الدعاة، فينفذه إليهم ويأخذه

منهم، ويدخل به إلى الخليفة فى هذين اليومين المذكورين فيتلوه عليه إن أمكن، ويأخذ علامته بظاهره، ويجلس بالقصر لتلاوته على المؤمنين فى مكانين للرجال على كرسى الدعوة بالإيوان الكبير، وللنساء بمجلس الداعى وكان من أعظم المبانى وأوسعها. فإذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا إليه لتقبيل يديه فيمسح على رؤسهم بمكان العلامة - أعنى خط الخليفة، وله أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالهما. لاسيما الصعيد، ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث فيجتمع من ذلك شىء كثير يحمله إلى الخليفة بيده. بينه وبينه وأمانته فى ذلك مع الله تعالى. فيفرض له الخليفة منه ما يعينه لنفسه وللنقباء، وفى الإسماعيلية الممولين من يحمل ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار على حكم النجوى، وصحبة ذلك رقعة مكتوبة باسمه فيتميز فى المحول، فيخرج له عليها خط الخليفة: «بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك» فيدخر ذلك ويتفاخر به، وكانت هذه الخدمة متعلقة بقوم يقال لهم بنو عبد القوى أبا عن جد. آخرهم الجليس، وكان الأفضل بن أمير الجيوش نفاهم إلى المغرب فولد الجليس بالمغرب وربى به، وكان يميل إلى مذهب أهل السنة وولى القضاء مع الدعوة، وأدركه أسد الدين شيركوه وأكرمه، وجعله واسطة عند الخليفة العاضد، وكان قد حجر على العاضد، ولولاه لم يبق فى الخزائن شىء لكرمه، وكأنه علم أنه آخر الخلفاء.

قال المسبحى: وكان الداعى يواصل الجلوس بالقصر لقراءة ما يقرأ على الأولياء والدعاوى المتصلة: فكان يفرد للأولياء مجلسا وللخاصة وشيوخ الدولة، ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا، ولعوام الناس وللطارئين على البلد مجلسا، وللنساء فى جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مجلسا، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً، وكان يعمل المجالس فى داره، ثم ينفذها إلى من يختص بخدمة الدولة، ويتخذ لهذه المجالس كتبا يبيضونها بعد عرضها على الخليفة، وكان يقبض فى كل مجلس من هذه المجالس ما يتحصل من النجوم من كل من يدفع شيئا من ذلك عينا وورقا من الرجال والنساء، ويكتب أسماء من يدفع شيئا على ما يدفعه وكذلك فى عيد الفطر يكتب ما يدفع عن الفطرة، ويحصل من ذلك مال جليل يدفع إلى بيت المال شيئا بعد شىء، وكانت

تسمى مجالس الدعوة «مجالس الحكمة» وفى سنة أربعمائة كتب سجل عن الحاكم بأمر الله فيه رفع الخمس والزكاة والفطرى والنجوى التى كانت تحمل ويتقرب بها، وتجرى على أيدى القضاة، وكتب سجل آخر بقطع مجالس الحكمة التى تقرأ على الأولياء يوم الخميس والجمعة. انتهى - ووظيفة داعى الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية وقد لخصت من أمر الدعوة طرفا أحببت إيراده هنا.

«وصف الدعوة وترتيبها»

وكانت الدعوة مرتبة على منازل. دعوة بعد دعوة.

«الدعوة الأولى»

سؤال الداعى لمن يدعوه إلى مذهبه عن المشكلات وتأويل الآيات ومعانى الأمور الشرعية وشىء من الطبيعيات، ومن الأمور الغامضة، فإن كان المدعو عارفا سلم له الداعى وإلا تركه يعمل فكره فيما ألقاه عليه من الأسئلة، وقال له يا هذا إن الدين لمكتوم، وإن الأكثر له منكرون وبه جاهلون، ولو علمت هذه الأمة ما خص الله به الأئمة من العلم لم تختلف. فيتشوق حينئذ المدعو إلى معرفة ما عند الداعى من العلم. فإذا علم منه الاقبال أخذ فى ذكر معانى القراءات وشرائع الدين، وتقرير أن الآفة التى نزلت بالأمة وشتتت الكلمة وأورثت الأهواء المضلة ذهاب الناس عن أئمة نصبوا لهم، وأقيموا حافظين لشرائعهم يؤدونها على حقيقتها، ويحفظون معانيها، ويعرفون بواطنها. غير أن الناس لما عدلوا عن الأئمة، ونظروا فى الأمور بعقولهم واتبعوا ما حسن فى رأيهم، وقلدوا سفلتهم، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعا للملوك وطلبا للدنيا التى هى أيدى متبعى الأثم وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة، الذين يحبون العاجلة ويجتهدون فى طلب الرياسة

على الضعفاء، ومكايدة رسول الله ﷺ فى أمته، وتغيير كتاب الله عز وجل، وتبديل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفة دعوته وإفساد شريعته وسلوك غير طريقته، ومعاندة الخلفاء الأئمة من بعده بختر من قبل ذلك، وصار الناس إلى أنواع الضلالات فإن دين محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء بالتحلى، ولا بأمانى الرجال ولا شهوات الناس، ولا بما حف على الألسنة وعرفته دهماء العامة، ولكنه صعب مستصعب وأمر مستقبل، وعلم خفى غامض ستره الله فى حجبه وعظم شأنه عن ابتذال أسراره فهو سر الله المكتوم وأمره المستور الذى لا يطيق حمله، ولا ينهض بأعبائه وثقله إلا ملك مقرب أو نبى مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى. فإذا ارتبط المدعو على الداعى وأنس له نقله إلى غير ذلك.

فمن مسائلهم ما معنى رمى الجمار والعدو بين الصفا والمروة، ولم كانت الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟، وما بال الجنب يغتسل من ماء دافق يسير ولا يغتسل من البول النجس الكثير القذر وما بال الله خلق الدنيا فى ستة أيام؟، أعجز عن خلقها فى ساعة واحدة؟، وما معنى الصراط المضروب فى القرآن مثلا والكاتبين الحافظين؟، وما لنا لا نراهما؟، أخاف أن نكابره ونجاحده حتى أدلى العيون، وأقام علينا الشهود وقيد ذلك فى القرطاس بالكتابة، وما تبديل الأرض غير الأرض وما عذاب جهنم؟، وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يعذب؟، وما معنى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، وما إبليس وما الشياطين وما وصفوا به؟، وأين مستقرهم وما مقدار قدرهم؟، وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت وأين مستقرهم؟، وما سبعة أبواب النار وما ثمانية أبواب الجنة؟، وما شجرة والزقوم النابتة فى الجحيم وما دابة الأرض ورؤوس الشياطين والشجرة الملعونة فى القرآن والتين والزيتون؟، وما الخنس الكنس؟، وما معنى ألم وألمص وما معنى كهيعص وحمعسق؟، ولم جعلت السموات سبعا والأرضون سبعا والمثانى من القرآن سبع ايات؟، ولم فجرت العيون اثنتى عشرة عينا ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا؟، وما يعمل معكم عمل الكتاب والسنة ومعانى الفرائض اللازمة؟، فكروا أولا فى أنفسكم. أين أرواحكم وكيف صورها وأين مستقرها؟،

وما أول أمرها والإنسان ما هو وما حقيقته وما الفرق بين حياته وحياة البهائم وفضل ما بين حياة البهائم وحياة الحشرات وما الذى بانت به حياة الحشرات؟ ، من حياة النبات؟ ، وما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت حواء من ضلع آدم»؟ ، وما معنى قول الفلاسفة: الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير؟ ، ولم كانت قامة الإنسان منتصبة دون غيره من الحيوانات؟ ولم كان فى يديه من الأصابع عشر وفى رجليه عشر أصابع ، وفى كل أصبع من أصابع يديه ثلاثة شقوق إلا الإبهام فإن فيه شقين فقط؟ ، ولم كان فى وجهه سبع ثقوب وفى سائر بدنه ثقبان؟ ، ولم كان فى ظهره اثنتا عشرة عقدة وفى عنقه سبع عقد؟ ، ولم جعل عنقه صورة ميم ويداه حاء وبطنه ميما ورجلاه دالا حتى صار ذلك كتابا مرسوما يترجم عن محمد؟ ، ولم جعلت قامته إذا انتضب صورة ألف وإذا ركع صارت صورة هاء فكان كتابا يدل على الله؟ ، ولم جعلت أعداد عظام الإنسان كذا وأعداد أسنانه كذا والأعضاء الرئيسية كذا؟ ، إلى غير ذلك من التشريح ، والقول فى العروق والأعضاء ووجوه منافع الحيوان ، ثم يقول الداعى ألا تتفكرون فى حالكم؟ ، وتعتبرون وتعلمون أن الذى خلقكم حكيم غير مجازف وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية حتى جمع ما جمع وفرق ما فرق فكيف يسعكم الإعراض عن هذه الأمور وأنتم تسمعون قول الله عز وجل ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾(*) ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾(**) ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾(***) فأى شىء رآه الكفار فى أنفسهم وفى الآفاق حتى عرفوا أنه الحق؟ ، وأى حق عرفه من جحد الديانة؟ ، ألا يدلكم هذا على أن الله جل اسمه أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية ، وأسرار فيها مكتومة لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة وظهرت لكم المعارف السنية ، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها كان حريا أن لا يعلم غيرها؟ ، أليس الله تعالى يقول ﴿ **ومن كان**

(*) ٢٠ـ٢١ الذاريات ٥١ ك.

(**) ٢٥ ك ابراهيم ١٤.

(***) ٥٣ ك فصلت ٤١ .

فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾(*) ونحو ذلك من تأويل القرآن وتفسير السنن والأحكام وإيراد أبواب من التجويز والتعليل . فإذا علم الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما سأله عنه وطلب من الجواب عنها قال له حينئذ : لا تعجل . فإن دين الله أعلى وأجل من أن يبذل لغير أهله ، ويجعل غرضا للعب ، وجرت عادة الله وسنته فى عباده عند شرع من نصبه أن يأخذ العهد على من يرشده ، ولذلك قال : **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسي وعيسي بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾**(**) وقال عز وجل : **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضي نحبه ومنهم ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾**(***) وقال جل جلاله : **﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾**(****) وقال : **﴿ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ـ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا﴾**(*****) وقال : **﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾**(******) ومن أمثال هذا فقد أخبر الله تعالى أنه لم يملك حقه إلا لمن أخذ عهده ، فأعطنا صفقة يمينك ، وعاهدنا بالموكد من أيمانك وعقودك ألا تفشى لنا سرا ، ولا تظاهر علينا أحدا ، ولا تطلب لنا غيلة ، ولا تكتمنا نصحا ، ولا توالى لنا عدوا ، فإذا أعطى العهد قال له الداعى : أعطنا جعلا من مالك نجعله مقدمة أمام كشفنا لك الأمور وتعريفك إياها ، والرسم فى هذا الجعل بحسب ما يراه الداعى . فإن امتنع المدعو أمسك عنه الداعى . وإن أجاب وأعطى نقله إلى الدعوة الثانية ، وإنما سميت الإسماعيلية بالباطنية . لأنهم يقولون لكل ظاهر من الأحكام الشرعية باطن ، ولكل تنزيل تأويل .

(*) ٧٢ ك الاسراء ١٧ .
(**) ٧ م الأحزاب ٣٣ .
(***) ٢٣ م الأحزاب ٣٣ .
(****) ١ م المائدة ٥ .
(*****) ٩٠ ـ ٩١ ك النحل ١٦ .
(******) ٨٣ م البقرة ٢ .

«الدعوة الثانية»

لا تكون إلا بعد تقدم الدعوى الأولى . فإذا تقرر فى نفس المدعو جميع ما تقدم وأعطى الجعل ، قال له الداعى : إن الله تعالى لم يرض فى إقامة حقه وما شرعه لعباده إلاأن يأخذوا ذلك عن أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراده الله تعالى ، ويسلك فى تقرير هذا ويستدل عليه بأمور مقررة فى كتبهم حتى يعلم أن اعتقاد الأئمة قد ثبت فى نفس المدعو . فإذا اعتقد ذلك نقله إلى الدعوة الثالثة .

«الدعوة الثالثة»

مرتبة على الثانية . وذلك أنه إذا علم الداعى ممن دعاه أن ارتباطه على دين الله لا يعلم إلا من قبل الأئمة . قرر حينئذ عنده أن الأئمة السبعة هم على بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان . وهم أعنى الشيعة مختلفون فى هذا القائم . فمنهم من يجعله محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويسقط إسماعيل بن جعفر ، ومنهم من يعد اسماعيل بن جعفر إماما ، ثم يعد ابنه محمد بن إسماعيل فإذا تقرر عند المدعو أن الأئمة سبعة انحل عن معتقد الإمامية من الشيعة القائلين بإمامة اثنى عشر إماما ، وصار إلى معتقد الإسماعيلية بأن الإمامة انتقلت إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر فإذا علم الداعى ثبات هذا العقد فى نفس المدعو شرع فى ثلب بقية الأئمة الذين قد اعتقد الإمامية فيهم الإمامة ، وقرر عند المدعو أن محمد بن إسماعيل عنده علم المستورات وبواطن المعلومات ، التى لا يمكن أن توجد عند أحد غيره ، وأن عنده أيضا

علم التأويل، ومعرفة تفسير ظاهر الأمور، وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم، وإتقان دلالته فى كل أمر يسأله عنه فى جميع المعدومات، وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله، والتأويلات وتأويل التأويلات، وأن دعاته هم الوارثون لذلك كله من بين سائر طوائف الشيعة. لأنهم أخذوا عنه ومن جهته رووا وأن أحدا من الناس المخالفين لهم لا يستطيع أن يساويهم، ولا يقدر على التحقق بما عندهم إلا منهم، ويحتج لذلك بما هو معروف فى كتبهم مما لا يسع هذا الكتاب حكايته لطوله. فإذا انقاد المدعو وأذعن لما تقرر نقله إلى الدعوة الرابعة.

«الدعوة الرابعة»

لا يشرع الداعى فى تقريرها حتى يتيقن صحة انقياد المدعو لجميع ما تقدم، فإذا تيقن منه صحة الانقياد قرر عنده أن عدد الأنبياء الناسخين للشرائع المبدلين لأحكامها أصحاب الأدوار وتقليب الأحوال الناطقين بالأمور سبعة فقط. كعدد الأئمة سواء، وكل واحد من هؤلاء الأنبياء لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته، ويكون معه ظهيرا له فى حياته وخليفة له من بعد وفاته إلى أن يبلغ شريعته إلى أحد يكون سبيله معه كسبيله هو مع نبيه الذى اتبعه، ثم كذلك كل مستخلف خليفة إلى أن يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة أشخاص ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون لثباتهم على شريعة اقتفوا فيها أثر واحد هو أولهم، ويسمى الأول من هؤلاء السبعة السوس، وأنه لابد عند انقضاء هؤلاء السبعة ونفاذ دورهم من استفتاح دور ثان يظهر فيه نبى ينسخ شرع من مضى من قبله، وتكون الخلفاء من بعده أمورهم تجرى كأمر من كان قبلهم، ثم يكون من بعدهم نبى ناسخ يقوم من بعده سبعة صمت أبدا، وهكذا حتى يقوم النبى السابع

من النطقاء فينسخ جميع الشرائع التى كانت قبله، ويكون صاحب الزمان الأخير، فكان أول هؤلاء الأنبياء النطقاء آدم عليه السلام، وكان صاحبه وسوسه ابنه شيث، وعدوا تماما السبعة الصامتين على شريعة آدم وكان الثانى من الأنبياء النطقاء نوح عليه السلام. فإنه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم، وكان صاحبه وسوسه ابنه سام، وتلاه بقية السبعة الصامتين على شريعة نوح، ثم كان الثالث من الأنبياء النطقاء إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه، فإنه نطق بشريعة نسخ بها شريعة نوح وآدم عليهما السلام، وكان صاحبه وسوسه فى حياته والخليفة القائم من بعده المبلغ شريعته ابنه اسماعيل عليه السلام، ولم يزل يخلفه صامت بعد صامت على شريعة إبراهيم حتى تم دور السبعة الصمت، وكان الرابع من الأنبياء النطقاء موسى بن عمران عليه السلام، فإنه نطق بشريعة نسخ بها شريعة آدم ونوح وإبراهيم وكان صاحبه وسوسه أخوه هارون، ولما مات هارون فى حياة موسى قام من بعد موسى يوشع بن نون خليفة له صمت على شريعته وبلغها، فأخذها عنه واحد بعد واحد إلى أن كان آخر الصمت على شريعة موسى يحيى بن زكريا وهو آخر الصمت، ثم كان الخامس من الأنبياء النطقاء المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه فإنه نطق بشريعة نسخ بها شرائع من كان قبله، وكان صاحبه وسوسه شمعون الصفا ومن بعده تمام السبعة الصمت على شريعة المسيح إلى أن كان السادس من الأنبياء النطقاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه نطق بشريعة نسخ بها جميع الشرائع التى جاء بها الأنبياء من قبله، وكان صاحبه وسوسه على بن أبى طالب رضى الله عنه، ثم من بعد على ستة صمتوا على الشريعة المحمدية وقاموا بميراث أسرارها، وهم ابنه الحسن ثم الحسين، ثم على بن الحسين، ثم محمد بن علي، ثم جعفر بن محمد، ثم اسماعيل بن جعفر الصادق، وهو آخر الصمت من الأئمة المستورين والسابع من النطقاء هو صاحب الزمان وعند هؤلاء الإسماعيلية أنه محمد ابن إسماعيل بن جعفر، وأنه الذى انتهى إليه علم الأولين وقام بعلم بواطن الأمور وكشفها، وإليه المرجع فى تفسيرها دون غيره، وعلى جميع الكافة اتباعه والخضوع له والانقياد إليه والتسليم له، لأن الهداية فى موافقته واتباعه، والضلال والحيرة فى العدول عنه فإذا تقرر ذلك عند. المدعو انتقل الداعى إلى الدعوة الخامسة.

«الدعوة الخامسة»

مترتبة على ما قبلها، وذلك أنه إذا صار المدعو فى الرتبة الرابعة من الاعتقاد أخذ الداعى يقرر أنه لابد مع كل إمام قائم فى كل عصر حجج متفرقون فى جميع الأرض عليهم تقوم، وعدة هؤلاء الحجج أبدا اثنا عشر رجلا فى كل زمان. كما أن عدد الأئمة سبعة ويستدل لذلك بأمور. منهاأن الله تعالى لم يخلق شيئا عبثا، ولابد فى خلق كل شيء من حكمة، وإلا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة؟، وجعل أيضا السموات سبعا والأرضين سبعا، والبروج اثنى عشر والشهور اثنى عشر شهرا، ونقباء بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبا، ونقباء رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار اثنى عشر نقيبا، وخلق تعالى فى كف كل إنسان أربع أصابع وفى كل أصبع ثلاث شقوق تكون جملتها اثنى عشر شقا على أنه فى يد كل إبهام شقان دلالة على أن الإنسان بدؤه كالأرض، وأصابعه كالجزائر الأربع، والشقوق التى فى الأصابع كالحجج والإبهام الذى به قوام جميع الكف وسداد الأصابع كالذى يقوم الأرض بقدر ما فيها، والشقان اللذان فى الإبهام إشارة إلى أن الإمام وسوسه لايفترقان، ولذلك صار فى ظهر الإنسان اثنتا عشرة خرزة، إشارة إلى الحجج الاثنى عشر، وصار فى عنقه سبع، فكان العنق عاليا على خرزات الظهر وذلك إشارة إلى الأنبياء النطقاء، والأئمة السبعة، وكذلك الأثقاب السبعة التى فى وجه الإنسان العالى على بدنه وأشياء من هذا النوع كثيرة. فإذا تمهد عند المدعو ما دعاه إليه الداعى تقرر نقله حينئذ إلى الدعوة السادسة.

«الدعوة السادسة»

لا تكون إلا بعد ثبوت جميع ما تقدم فى نفس المدعو، وذلك أنه إذا صار إلى الرتبة الخامسة أخذ الداعى فى تفسير معانى شرائع الإسلام من الصلاة والزكاة والحج والطهارة

وغير ذلك من الفرائض بأمور مخالفة للظاهر، بعد تمهيد قواعد تبين فى أزمنة من غير عجلة تؤدى إلى أن هذه الأشياء وضعت على جهة الرموز لمصلحة العامة وسياستهم حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض، وتصدهم عن الفساد فى الأرض. حكمة من الناصبين للشرائع، وقوة فى حسن سياستهم لاتباعهم، وإتقانا منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك، حتى يتمكن هذا الاعتقاد فى نفس المدعو فإذا طال الزمان وصار المدعو يعتقد أن أحكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة، وأن لها معانى أخر غير ما يدل عليه الظاهر نقله الداعى إلى الكلام فى الفلسفة، وحضه على النظر فى كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورث ومن فى معناهم، ونهاه عن قبول الأخبار والاحتجاج بالسمعيات، وزين له الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها. فإذا استقر ذلك عنده واعتقده نقله بعد ذلك إلى الدعوة السابعة ويحتاج ذلك إلى زمان طويل.

«الدعوة السابعة»

لا يفصح بها الداعى ما لم يكثر أنسه بمن دعاه، ويتيقن أنه قد تأهل إلى الانتقال إلى رتبة أعلى مما هو فيه، فإذا علم ذلك منه قال إن صاحب الدلالة والناصب للشريعة لا يستغنى بنفسه، ولابد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل والآخر عنه كان وصدر، وهذا إنما هو إشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوي. فإن مدبر العالم فى أصل الترتيب وقوام النظام صدر عنه أول موجود بغير واسطة ولا سبب نشأ عنه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾**(*) إشارة إلى الأول فى الرتبة والآخر هو القدر الذى قال فيه: **﴿إنا كل شىء خلقناه بقدر﴾**(**) وهذا معنى ما نسمعه من أن الله أول ما خلق القلم فقال للقلم أكتب فكتب فى اللوح ما هو كائن

(*) ٨٢ ك يس ٣٦.
(**) ٤٩ ك القمر ٥٤.

وأشياء من هذا النوع موجودة فى كتبهم، وأصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين الواحد لا يصدر عنه إلا واحد وقد أخذ هذا المعنى المتصوفة وبسطوه بعبارات أخر فى كتبهم فإن كنت ممن ارتاض وعرف مقالات الناس تبين لك ما ذكرت، ولا يحتمل هذا الكتاب بسط القول فى هذا المعني، وإذا تقرر ما ذكر فى هذه الدعوة عند المدعو نقله الداعى إلى الدعوة الثامنة .

«الدعوة الثامنة»

متوقفة على اعتقاد سائر ما تقدم، فإذا استقر ذلك عند المدعو دينا له قال له الداعي : اعلم أن أحد المذكورين اللذين هما مدبر الوجود والصادر عنه إنما تقدم السابق على اللاحق تقدم العلة على المعلول . فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى بترتيب معروف فى بعضهم، ومع ذلك فالسابق عندهم لا اسم له ولا صفة، ولا يعبر عنه ولا يقيد . فلا يقال هو موجود ولا معدوم ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز، وكذلك سائر الصفات فإن الإثبات عندهم يقتضى شركة بينه وبين المحدثات، والنفى يقتضى التعطيل . وقالوا ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته، والمحدث خلقه وفطرته . كما هو مبسوط فى كتبهم فإذا استقر ذلك عند المدعو قرر عنده الداعى أن التالى يدأب فى أعماله حتى يلحق بمنزلة السابق، وأن الصامت فى الأرض يدأب فى أعماله حتى يصير بمنزلة الناطق سواء، وأن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس وحاله سواء . وهكذا تجرى أمور العالم فى أكواره وأدواره، ولهذا القول بسط كثير . فإذا اعتقده المدعو قرر عنده الداعى أن معجزة النبى الصادق الناطق ليست غير أشياء ينتظم بها سياسة الجمهور، وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة تحوى معانى فلسفية تنبيء عن حقيقة آنية السماء والأرض وما يشتمل العالم عليه بأسره من الجواهر والأعراض فتارة برموز يعقلها العالمون، وتارة بإفصاح يعرفه كل أحد فينتظم بذلك للنبى شريعة يتبعها

الناس، ويقرر عنده أيضا أن القيامة والقرآن والثواب والعقاب معناها سوى ما يفهمه العامة وغير ما يتبادر الذهن إليه، وليس هو إلا حدوث أدوار عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها من كون وفساد جاء على ترتيب الطبائع . كما قد بسطه الفلاسفة فى كتبهم فإذا استقر هذا العقد عند المدعو نقله الداعى إلى الدعوة التاسعة .

«الدعوة التاسعة»

هى النتيجة التى يحاول الداعى بتقرير جميع ماتقدم رسوخها فى نفس من يدعوه . فإذا تيقن أن المدعو تأهل لكشف السر والإفصاح عن الرموز أحاله على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة، والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية، حتى إذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعى قناعه وقال: ما ذكر من الحدوث والأصول رموز إلى معانى المباديء وتقلب الجواهر، وأن الوحى إنما هو صفاء النفس فيجد النبى فى فهمه ما يلقى إليه ويتنزل عليه فيبرزه إلى الناس، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبى شريعته بحسب ما يراه من المصلحة فى سياسة الكافة، ولا يجب حينئذ العمل إلا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء، بخلاف العارف فإنه لا يلزمه العمل بها، ويكفيه معرفته فإنها اليقين الذى يجب المصير إليه، وما عدا المعرفة من سائر المشروعات فإنما هى أثقال وآصار حملها الكفار أهل الجهالة، لمعرفة الأعراض والأسباب، ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة، وأن الإمام إنما وجوده فى العالم الروحاني، إذا صرنا بالرياضة فى المعارف إليه، وظهوره الآن إنما هو ظهور أمره ونهيه على لسان أوليائه ونحو ذلك مما هو مبسوط فى كتبهم، وهذا حاصل علم الداعي، ولهم فى ذلك مصنفات كثيرة منها اختصرت ما تقدم ذكره .

«ابتداء هذه الدعوة»

علم أن هذه الدعوة منسوبة إلى شخص كان بالعراق يعرف بميمون القداح، وكان من غلاة الشيعة فولد ابنا عرف بعبد الله ابن ميمون اتسع علمه وكثرت معارفه، وكاد أن يطلع على جميع مقالات الخليقة. فرتب له مذهبا وجعله فى تسع دعوات، ودعا الناس إلى مذهبه فاستجاب له خلق، وكان يدعو إلى الإمام محمد بن إسماعيل وظهر من الأهواز ونزل بعسكر مكرم فصار له مال، واشتهرت دعاته فأنكر الناس عليه وهموا به، ففر إلى البصرة ومعه من أصحابه الحسين الاهوازى فلما انتشر ذكره بها طلب فصار إلى بلاد الشام وأقام بسلمية، وبها ولد له ابنه أحمد، فقام من بعد أبيه عبد الله بن ميمون. فسير الحسين الاهوازى داعية له إلى العراق، فلقى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط بسواد الكوفة فدعاه واستجاب له، وأنزله عنده، وكان من أمره ما هو مذكور فى أخبار القرامطة من كتابنا هذا عند ذكر المعز لدين الله معد ثم إنه ولد لأحمد بن عبد الله ابنه الحسين ومحمد المعروف بأبى الشلعلع، فلما هلك أحمد خلفه ابنه الحسين، ثم قام من بعده أخوه أبو الشلعلع وكان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه، فانتشرت الدعاة فى أقطار الأرض وتفقهوا فى الدعوة حتى وضعوا فيها الكتب الكثيرة، وصارت علما من العلوم المدونة، ثم اضمحلت الآن وذهبت بذهاب أهلها. ولهذا يقال إن أصل دعوة الإسماعيلية مأخوذ من القرامطة ونسبوا من أجلها إلى الإلحاد.

«صفة العهد الذي يؤخذ على المدعو»

وهو أن الداعى يقول لمن يأخذ عليه العهد ويحلفه: جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه، وذمة رسوله وأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله، وما أخذه على النبيين من عقد وعهد وميثاق أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته وعلمته وتعلمه، وعرفته وتعرفه من

أمرى وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الإمام الذى عرفت إقرارى له، ونصحى لمن عقد ذمته وأمور إخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين ومخالصته له من الذكور والإناث والصغار والكبار. فلا تظهر من ذلك شيئا قليلا ولا كثيرا، ولا شيئا يدل عليه إلا ما أطلقت لك أن تتكلم به، أو أطلقه لك صاحب الأمر المقيم بهذا البلد. فتعمل فى ذلك بأمرنا ولا تتعداه، ولا تزيد عليه وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله، وتشهد أن الجنة حق، وأن النار حق وأن الموت حق وأن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، وتقيم الصلاة لوقتها، وتؤتى الزكاة لحقها، وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده على ماأمر الله به ورسوله، وتوالى أولياء الله، وتعادى أعداء الله، وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ظاهرا وباطنا وعلانية سرا وجهرا. فإن ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه، ويثبته ولا يزيله، ويقربه ولا يباعده ويشده ولا يضعفه، ويوجب ذلك ولا يبطله، ويوضحه ولا يعميه، كذلك هوالظاهر والباطن وسائر ما جاء به النبيون من ربهم صلوات الله عليهم أجمعين على الشرائط المبنية فى هذا العهد جعلت على نفسك الوفاء بذلك. قل نعم. فيقول المدعو نعم. ثم يقول الداعى له والصيانة له بذلك وأداء الأمانة على ألا تظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد فى حياتنا ولا بعد وفاتنا، لا فى غضب ولا على حال رضى ولا على رغبة ولا فى حال رهبة، ولا عند شدة، ولا فى حال رخاء ولا على طمع، ولا على حرمان. تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له على الشرائط المبينة فى هذا العهد، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن تمنعنى وجميع من أسميه لك وأثبته عندك مما تمنع منه نفسك وتنصح لنا ولوليك ولى الله نصحا ظاهرا وباطنا. فلا تخن الله ووليه ولا أحدا من إخواننا وأوليائنا ومن تعلم أنه منا بسبب فى أهل ولا مال ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما يبطله، فإن فعلت شيئا من ذلك، وأنت تعلم أنك قد خالفته، وأنت على ذكر منه، فأنت بريء من

الله خالق السموات والأرض الذى سوى خلقك وألف تركيبك، وأحسن إليك فى دينك ودنياك وآخرتك، وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبيين والروحانيين، والكلمات التامات والسبع المثانى والقرآن العظيم، وتبرأ من التوراة والإنجيل والزبور والذكر الحكيم، ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الآخرة ومن كل عبد رضى الله عنه، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه، وخذلك الله خذلانا بينا. يعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير إلى نار جهنم التى ليس لله فيها رحمة، وأنت برىء من حول الله وقوته ملجأ إلى حول نفسك وقوتك، وعليك لعنة الله التى لعن الله بها إبليس، وحرك عليه بها الجنة وخلده فى النار إن خالفت شيئا من ذلك، ولقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان. ولله عليك أن تحج إلى بيته الحرام ثلاثين حجة حجا واجبا ماشيا حافيا لا يقبل الله منك إلا الوفاء بذلك، وكل ما تملك، فى الوقت الذى تخالفه فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين الذين لا رحم بينك وبينهم لا يأجرك الله عليه، ولا يدخل عليك بذلك منفعة وكل مملوك لك من ذكر أو أنثى فى ملكك أو تستفيده إلى وقت وفاتك إن خالفت شيئا من ذلك فهم أحرار لوجه الله عز وجل، وكل امرأة لك أو تتزوجها إلى وقت وفاتك إن خالفت شيئا من ذلك فهن طوالق ثلاثا بتة طلاق الحرج. لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ولا مشيئة، وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام، وكل ظهار فهو لازم لك، وأنا المستحلف لك لإمامك وحجتك، وأنت الحالف لهما، وإن نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلفك به. فهذه اليمين من أولها إلى آخرها مجددة عليك لازمة لك لا يقبل الله منك إلا الوفاء بها، والقيام بما عاهدت بينى وبينك. قل نعم. فيقول نعم، ولهم مع ذلك وصايا كثيرة أضربنا عنها خشية الإطالة، وفيما ذكرناه كفاية لمن عقل.

«الدواوين»

وكانت دواوين الدولة الفاطمية لما قدم المعز لدين الله إلى مصر ونزل بقصره فى القاهرة محلها بدار الإمارة من جوار الجامع الطولوني، فلما مات المعز وقلد العزيز بالله الوزارة ليعقوب بن كلس نقل الدواوين إلى داره، فلما مات يعقوب نقلها العزيز بعد موته إلى القصر فلم تزل به إلى أن استبد الأفضل بن أمير الجيوش، وعمر دار الملك بمصر، فنقل إليها الدواوين، فلما قتل عادت من بعده إلى القصر، ومازالت هناك حتى زالت الدولة.

قال فى كتاب الذخائر والتحف: وحدثنى من أثق به قال: كنت بالقاهرة يوما من شهور سنة تسع وخمسين وأربعمائة وقد استفحل أمر المارقين وقويت شوكتهم، وامتدت أيديهم إلى أخذ الذخائر المصونة فى قصر السلطان بغير أمره، فرأيت وقد دخل من باب الديلم أحد أبواب القصور المعمورة الزاهرة المعروف بتاج الملوك شادي، وفخر العرب على بن ناصر الدولة بن حمدان، ورضى الدولة بن رضى الدولة وأمير الأمراء بحتكين بن بسكتكين وأمير العرب بن كيغلغ والأعز بن سنان وعدة من الأمراء أصحابهم البغداديين وغيرهم، وصاروا فى الإيوان الصغير، فوقفوا عند ديوان الشام لكثرة عددهم وجماعتهم، وكان معهم أحد الفراشين المستخدمين برسم القصور والمعمورة. فدخلوا. إلى حيث كان الديوان النظرى فى الديوان المذكور، وصحبتهم فعلة وانتهوا إلى حائط مجير، فأمروا الفعلة بكشف الجير عنه فظهرت حنية باب مسدود، فأمروا بهدمه فتوصلوا منه إلى خزانة ذكر أنها عزيزية من أيام العزيز بالله، فوجدوا فيها من السلاح ما يروق الناظر، ومن الرماح العزيزية المطلية أسنتها بالذهب ذات مهارك فضة مجراة بسواد ممسوح وفضة بياض ثقيلة الوزن عدة رزم، أعوادها من الزان الجيد ومن السيوف المجوهرة النصول، ومن النشاب الخلنجى وغيره من الدرق اللمطى والحجف التينى وغير ذلك، ومن الدروع المكلل سلاح بعضها، والمحلى بعضها بالفضة المركبة عليه، ومن التخافيف والجواشن والكراعيدات الملبسة ديباجا المكوكبة بكواكب فضة وغير ذلك مما ذكر أن قيمته تزيد على عشرين ألف دينار، فحملوا جميع ذلك بعد صلاة المغرب، ولقد شاهدت بعض

حواشيهم وركابياتهم يكسرون الرماح ويتلفون بذلك أعوادها الزان ليأخذوا المهارك الفضة، ومنهم من يجعل ذلك فى سراويله وعمامته وجيبه، ومنهم من يستوهب من صاحبه السيف الثمين، وكان فيها من الرماح الطوال الخطية السمر الجياد عدة حملوا منها ما قدروا عليه، وبقى منها ما كسره الركابية ومن يجرى مجراهم كانوا يبيعونه للعازليين ولصناع المرادن حتى كثر هذا الصنف بالقاهرة، ولم تعترضهم الدولة ولا التفتت إلى قدر ذلك، ولا احتفلت به وجعلته هو وغيره فداء لأموال المسلمين وحفظا لما فى منازلهم.

ديوان المجلس

قال ابن الطوير: ديوان المجلس هو أصل الدواوين قديما، وفيه علوم الدولة بأجمعها وفيه عدة كتاب، ولكل واحد مجلس مفرد، وعنده معين أو معينان. وصاحب هذا الديوان هو المتحدث فى الإقطاعات، ويلحق بديوان النظر ويخلع عليه، وينشأ له السجل وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك. قال: ذكر خدمهم الخاصة المتصلة بهم، فأولها دفتر المجلس، وصاحبه من الأستاذين المحنكين، ثم يتولاه أجل كتاب الدولة ممن يكون مترشحا لرأس الدواوين، ويتضمن ذلك الدفتر، وله مكان ديوان بالقصر الباطن من الإنعام فى العطايا، والظاهر من الرسوم المعروفة فى غرة السنة والضحايا، والمرتب من الكسوات للأولاد والأقارب والجهات وأرباب الرتب على اختلاف الطبقات، وما يرد من ملوك الدنيا من التحف والهدايا وما يرسل إليهم من الملاطفات ومقادير الصلات للمترسلين بالمكاتبات وما يخرج من الأكفان لمن يموت من أرباب الجهات المحترمات، ثم يضبط ما ينفق فى الدولة من المهمات، ليعلم ما بين كل سنة من التفاوت فالصرة المنعم بها فى أول العام من الدنانير والرباعية والقراريط تقرب من ثلاثة آلاف دينار، وثمن الضحايا يقرب من ألفى دينار، وما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرق على الناس سبعة آلاف دينار، وما ينفق فى دار الطراز للاستعمالات الخاص وغيرها فى كل سنة عشرة آلاف دينار، وما ينفق

فى مهم فتح الخليج غير المطاعم ألفا دينار، وما ينفق فى شهر رمضان فى سماطه ثلاثة آلاف دينار، وما ينفق فى سماطى الفطر والنحر أربعة آلاف دينار، وهذا خارج عما يطلق للناس أصنافا من خزائنه من المآكل والمشارب والمواصلة من الهبات، وما تخرج به الخطوط من التشريفات والمسامحات، وما يطلق من الأهراء من الغلات حتى لا يفوتهم علم شيء من هذه المطلقات، وفى هذه الخدمة كاتب مستقل بين يدى صاحب ديوانه الأصلي، ومعه كاتبان آخران لتنزيل ذلك فى الدفتر، والدفتر عبارة عن جرائد مسطوحات ينزل ذلك فيها فى أوقاته من غير فوات. قال: وإذا انقضى عيد النحر من كل سنة تقدم بعمل الاستيمار لتلك السنة تمام ذى الحجة منها فيجتمع كتاب ديوان الرواتب عند متوليه، وتحمل العروض إليه. فإذا تحررت نسخة التحرير بيضت بعد أن يستدعى من المجلس أوراق بالإدرار الذى يقبض بغير خرج، وفى الإدرار ما هو مستقر بالوجهين. فيضاف هذا المبلغ بجهاته إلى المبالغ المعلومة بديوان الرواتب وجهاتها حتى لا يفوت من الاستيمار شيء من كل ما تقرر شرحه، ويعلم مقداره عينا وورقا وغلة وغير ذلك فيحرر ذلك كله باسماء المرتزقين، وأولهم الوزير ومن يلوذ به، وعلى ذلك إلى أن ينتهى الجميع إلى أرباب الضر. فإذا تكمل استدعى له من خزانة الفرش وطاء حرير لشده، وشرابة لمسكه إما خضراء أو حمراء، ويعمل له صدر من الكلام اللائق بما بعده، وهذا كله خارج عن الكسوات المطلقة لأربابها، والرسوم المعدة فى كل سنة، وما يحمل من دار الفطرة من الأصناف برسم عيد الفطر، وعما يشهد به دفتر المجلس من العطايا الخافية والرسوم وقد انعقد مرة وأنا أتولى ديوان الرواتب على ما مبلغه نيف ومائة ألف دينار أو قريب من مائتى ألف دينار، ومن القمح والشعير على عشرة آلاف إردب. فإذا فرغ من مسكه فى الشرابة، حمل إلى صاحب ديوان النظر إن كان وإلا فلصاحب ديوان المجلس ليعرضه على الخليفة إن كان يعنى مستبدا أو الوزير لاستقبال المحرم من السنة الآتية فى أوقات معلومة، فيتأخر فى العرض، وربما يستوعب المحرم ليحيط العلم بما فيه، فإذا أكمل العرض أخرج إلى الديوان وقد شطب على بعضه، وكانوا يتحرجون من الإقامات على مال الدولة التى لا أصل لها وعلى غير متوفر، ويتنجزها أربابها بالمستقبلات على الخلفاء والوزراء، وينقص قوم للاستكثار ويزاد

قوم للاستحقاق، ويصرف قوم ويستخدم آخرون على ما تقتضيه الآراء فى ذلك الوقت.
ثم يسلم لرب هذا الديوان فيحمل الأمر على ما شطب عليه، وعلامة الإطلاق خروجه من العرض. وقيل إنه عمل مرة فى أيام المستنصر بالله فلما استؤذن على عرضه قال: هل وقع أحد بما فيه غيرنا؟ قيل له معاذ الله يا مولانا ما تم إنعام إلا لك، ولا رزق إلا من الله على يديك، فقال ما ينقض به أمرنا ولا خطنا، وما صرفناه فى دولتنا بإذننا، وتقدم إلى ولى الدولة ابن جبران كاتب الإنشاء بإمضائه للناس من غير عرض وحمل الأمر على حكمه ووقع عن الخليفة بظاهره.

الفقر مر المذاق.

والحاجة تذل الأعناق.

وحراسة النعم بإدرار الأرزاق.

فليجروا على رسومهم فى الإطلاق.

ما عندكم ينفد وما عند الله باق.

ووقع فى خلافة الحافظ لدين الله على استيمار الرواتب مانصه.

أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير الإعطاء.

ولا يكدره بالتأخير له والتسويف والإبطاء.

ولما انتهى إليه ما أرباب الرواتب عليه من القلق للامتناع من إيجاباتهم.. وحمل خروجاتهم.. قد ضعفت قلوبهم.. وقنطت نفوسهم.. وساءت ظنونهم.. شملهم برحمته ورأفته.. وأمنهم ما كانوا وجلين من مخافته.. وجعل التوقيع بذلك بخط يده تأكيدا للإنعام والمن.. وتهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى والمن.. فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصورة إجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم.. على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم.. وإيجابها على سياقها لكافتهم.. من غير تأول ولاتعنت.. ولا استدراك ولا تعقب.. وليجروا فى نسبياتهم على عادتهم، لا ينقض من أمرهم ما كان مبرما.. ولا ينسخ من

رسمهم ما كان محكما . . كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا . . وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى **﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾**(*) . . ولينسخ فى جميع الدواوين بالحضرة إن شاء الله تعالى .

وقال فى كتاب كنز الدرر : إن فى سنة ست وأربعمائة عرض على الحاكم بأمر الله الاستيمار باسم المتفقهين والقراء والمؤذنين بالقاهرة ومصر ، وكانت الجملة فى كل سنة أحدا وسبعين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى دينار وربع دينار . فأمضى جميع ذلك .

وقال ابن المأمون : وأما الاستيمار فبلغنى ممن أثق به أنه كان فى الأيام الأفضلية اثنى عشر ألف دينار ، وصار فى الأيام المأمونية لاستقبال سنة ست عشرة وخمسمائة ستة عشر ألف دينار ، وأما تذكرة الطراز فالحكم فيها مثل الاستيمار ، والشائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية على أحد وثلاثين ألف دينار ، ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار ، وتضاعفت فى الأيام الآمرية وعرض روزنامج بما أنفق عينا من بيت المال فى مدة أولها محرم سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وآخرها سلخ ذى الحجة . منها فى العساكر المسيرة لجهاد الفرنج برا والأساطيل بحرا والمنفق فى أرباب النفقات من الحجرية والمصطيعية والسودان على اختلاف قبوضهم ، وما ينصرف برسم خزانة القصور الزاهرة ، وما يبتاع من الحيوان برسم المطابخ وما هو برسم منديل الكم الشريف فى كل سنة مائة دينار ، والمطلق فى الأعياد والمواسم ، وما ينعم به عند الركوبات من الرسوم والصدقات وعند العود منها ، وثمن الأمتعة المبتاعة من التجار على أيدى الوكلاء ، والمطلق برسم الرسل والضيوف ، ومن يصل مستأمنا ودار الطراز ودار الديباج ، والمطلق برسم الصلات والصدقات ، ومن يهتدى للإسلام وما ينعم به على الولاة عند استخدامهم فى الخدم ، ونفقات بيت المال والعمائر وهو من العين أربعمائة ألف وثمانية وستون ألفا وسبعمائة وسبعة وتسعون دينارا ونصف . من جملة خمسمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائة وأربعين دينارا ونصف يكون الحاصل بعد ذلك مما يحمل إلى الصناديق الخاص برسم المهمات

(*) ٩ م الإنسان ٧٦ .

لما يتجدد من تسفير العساكر، وما يحمل إلى الثغور عند نفاد ما بها ثمانية وتسعين ألفا ومائة وسبعة وتسعين دينارا وربعا وسدسا، ولم يكن يكتب من بيت المال وصول ولا مجرى ولا تعرف، وذلك خارج عما يحمل مشاهرة برسم الديوان المأمونى والأجلاء إخوته وأولاده وما أنعم به على ما تضمنت اسمه مشاهرة من الأصحاب والحواشى وأرباب الخدم والكتاب والأطباء والشعراء والفراشين الخاص، والجوق والمؤدبين والخياطين والرفائين وصبيان بيت المال ونواب الباب ونقباء الرسائل وأرباب الرواتب المستقرة من ذوى النسب والبيوتات، والضعفاء والصعاليك من الرجال والنساء عن مشاهرتهم ستة عشر ألفا وستمائة واثنان وثمانون دينارا وثلثا دينار. يكون فى السنة مائتى ألف ومائة دينار فتكون الجملة سبعمائة ألف وسبعة وستين ألفا ومائتين وأربعة وتسعين دينارا ونصفا.

قال: وفى هذا الوقت يعنى شوال سنة سبع عشرة وخمسمائة وقعت مرافعة فى أبى البركات بن أبى الليث متولى ديوان المجلس. صورتها المملوك يقبل الأرض وينهى أنه ما واصل إنهاء حال هذا الرجل وما يعتمده، لأنه أهل أن ينال خدمة، وإنما هى نصيحة تلزمه فى حق سلطانه، وقد حصل له على الأموال والذخائر ما لا عدد له ولا قيمة عليه، ويضرب المملوك عن وجوه الجناية التى هى ظاهرة. لأن السلطان لا يرضى بذكرها فى عالى مجلسه ولا سماعها فى دولته وله ولأهله مستخدمون فى الدولة ست عشرة سنة بالجارى الثقيل لكل منهم، ويذكر المملوك ما وصلت قدرته إلى عمله ما هو باسمه خاصة دون من هو مستخدم فى الدواوين من أهله وأصحابه، ويبدأ بما باسمه مياومة إدرارا من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الحطب، وهو ما يبين برسم البقولات والتوابل نصف دينار، ومن الضأن رأس واحد، ومن الحيوان ثلاثة أطيار، ومن الحطب حملة واحدة، ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ومن الخبز عشرون وظيفة، ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصريتان وشمامة، وكل اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفور خاص، وصحن من الأوائل، وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز الموائدى والسميذ، وفى كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة بالدار المأمونية مثل ذلك، وفى كل يوم سبت وثلاثاء من

أسمطة الركوبات خروف مشوي، وجام حلوى ورباعى عنبا، ويحضر إليه فى كل يوم من الاصطبلات بغلة بمركوب محلي، وبلغة برسم الراجل، وفراشين من الجوف برسم خدمته، وتبيت على بابه وإذا خرج من بين يدى السلطان فى الليل كان له شمعة من الموكبيات توصله إلى داره وزنها سبعة عشر رطلا، ولا تعود وبرسم ولده فى كل يوم ثلاثة أرطال لحم وعشرة أرطال دقيق، وفى أيام الركوبات رباعي، والمشاهرة جارى ديوان الخاص والمجلس برسمه مائة وعشرون دينارا وبرسم ولده راتبا عشرة دنانير، وأتيت أربعة غلمان نصارى ونسبهم للإسلام فى جملة المستخدمين فى الركاب، ولم يخدموا لا فى الليل ولا فى النهار بما مبلغه سبعة دنانير، ومن السكر خمسة عشر رطلا، ومن عسل النحل عشرة أرطال، ومن قلب الفستق ثلاثة أرطال، وقلب البندق خمسة أرطال، وقلب اللوز أربعة أرطال، وورد مربى رطلان، وزيت طيب عشرة أرطال، شيرج خمسة أرطال، زيت حار ثلاثون رطلا، خل ثلاث جرار أرز نصف ويبة سماق أربعة أرطال، حصرم وكشك وحب رمان وقراصيا بالسوية اثنا عشر رطلا، سدر وأشنان ويبة ومن الكيزان عشرون شربة عزيزية وثلجية واحدة، ومن الشمع ست شمعات منهن اثنتان منويات وأربعة رطليات، والمسانهة فى بكور الغرة برسم الخاصة خمسة دنانير، وخمس رباعية، وعشرة قراريط جدد، وبرسم ولده دينار ورباعى وثلاثة قراريط، وخروف مقموم، وخمسة أرؤس وربع قنطار خبز برماذق، وصحن أرز بلبن وسكر، ومن السماط بالقصر فى اليوم المذكور خروف شواء وزبادى وجام حلوى والخبز وقطعة منفوخ، ومن القمح ثلثمائة إردب ومن الشعير مائة وخمسون إردبا وفى المواليد الأربعة أربع صوانى فطرة، وكسوة الشتاء برسمه خاصة منديل حريري، وشقة ديبقى حرير، وشقة ديباج، ورداء أطلس، وشقة ديباج داري، وشقتان سقلاطون أحداهما إسكندرانية، وشقتان عتابي، وشقتان خز مغربي، وشقتان إسكندراني، وشقتان دمياطى وشقة طلى مرش، وفوطة خاصة، وبرسم لولده شقة سقلاطون داري، وشقة عتابى دارى وشقة خز مغربي، وشقتان دمياطي، وشقتان اسكندراني، وشقة طلي، وفوطة وبرسم من عنده منديلا كم أحدهما خزائنى خاص ونصفى أردية ديبقي، وشقة سقلاطون داري، وشقة عتابي، وشقة

سوسى وشقة دمياطي، وشقتان إسكندرانى وفوطة، وبرسمه أيضا فى عيد الفطر طيفوران فطرة مشورة ومائة حبة بورى وبدلة مذهبة مكملة، ولولده بدلة حرير، وبرسم من عنده حلة مذهبة وفى عيد النحر رسمه مثل عيد الفطر ويزيد عنه مائة دينار، ولولده مثل عيد الفطر وزيادة عشرة دنانير ويساق إليه من الغنم ما لم يكن باسمه، وفى موسم فتح الخليج أربعون دينارا وصينية فطرة وطيفور خاص من القصر، وخروف شواء وجام حلواء، وبرسم ولده خمسة دنانير ولخاصه فى النوروز ثلاثون دينارا وشقة ديبقي، حريرى وشقة لاذ، ومعجر حريري، ومنديل كم حريرى وفوطة ومائة بطيخة، وسبعمائة حبة رمان، وأربعة عناقيد موز وفرد بسر، وثلاثة أقفاص تمر قوصى وقفصان سفر جل، وثلاث بكالى هريسة. واحدة بدجاج وأخرى بلحم ضان، والثالثة بلحم بقرى وأربعون رطلا خبز برماذق، ولولده خمسة دنانير وحوائج النوروز بما تقدم ذكره، وبرسمه فى الميلاد جام قاهرية ومترد سميد معتصمى وزلابية وست قرابات جلاب، وعشر حبات بورى وبرسم الغيطاس خمسمائة حبة ترنج ونارنج وليمون مركب، وخمسة عشر طن قصب وعشر حبات بوري، وباسمه فى عيد الغدير من السماط بالقصر مثل عيد النحر، وله هبة عن رسم الخلع من المجلس المأموني. يعنى مجلس الوزارة ثلاثون دينارا، ولولده خمسة دنانير، ومن تكون هذه رسومه، فى أى وجه تنصرف أمواله، والذى باسم أخيه نظير ذلك وكذلك صهره فى ديوان الوزارة وابن أخيه فى الديوان التاجي، ووجوه الأموال من كل جهة واصلة إليهم والأمانة مصروفة عنهم وقد اختصر المملوك فيما ذكر، والذى باسمه أكثر وإذا أمر بكشف ذلك من الدواوين تبين صحة قول المملوك، وعلم أنه ممن يتجنب قول المحال ولا يرضاه لنفسه. سيما أن رفعه إلى المقام الكريم وشنع ذلك بكثرة القول فيهم، وعرض بالقبض عليهم وأوجب على نفسه أنه يثبت فى جهاتهم من الأموال التى تخرج عن هذا الإنعام ما يجده حاضرا مدخورا عند من يعرفه مائة ألف دينار، فلم يسمع كلامه إلى أن ظهر الراهب فى الأيام الآمرية، فوجد هو وغيره الفرصة فيهم، وكثر الوقائع عليهم، فقبض عليهم عن آخرهم ومن يعرفهم، وأخذ منهم الجملة الكبيره، ثم بعد ذلك عادوا إلى خدمهم بما كان من أسمائهم، وتجدد من جاههم وانتقامهم من أعدائهم أكثر مما

كان أولا . انتهى ، فانظر أعزك الله إلى سعة أحوال الدولة من معلوم رجل واحد من كتاب دواوينها يتبين لك بما تقدم ذكره فى هذه المرافعة من عظم الشأن وكثرة العطاء ما يكون دليلا على باقى أحوال الدولة .

ديوان النظر

قال ابن الطوير : أما دواوين الأموال فإن أجلها من يتولى النظر عليهم ، وله العزل والولاية ومن يده عرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير ، ولم ير فيه نصرانى إلا الاحز . . ولم يتوصل إليه إلا بالضمان ، وله الاعتقال بكل مكان يتعلق بنواب الدولة ، وله الجلوس بالمرتبة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ، وتخرج له الدواة بغير كرسي ، وهو ينذب المترسلين لطلب الحساب والحث على طلب الأموال ، ومطالبة أرباب الدولة ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة .

ديوان التحقيق

هو ديوان مقتضاه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير ، وله الخلع والمرتبة والحاجب ، ويلحق برأس الديوان ، يعنى متولى النظر ويفتقر إليه فى أكثر الأوقات .

وقال ابن المأمون : وفى هذه السنة يعنى سنة إحدى وخمسمائة فتح ديوان المجلس . قال : ولما كثرت الأموال عند ابن أبى الليث صاحب الديوان رغب فى التبجح على الأفضل بن أمير الجيوش ، ينهضه ويسأله أن يشاهده قبل حمله ، وذكر أنه سبعمائة ألف دينار خارجا عن نفقات الرجال . فجعلت الدنانير فى صناديق بجانب ، والدراهم فى صناديق

بجانب، وقال ابن أبى الليث بين الصفين. فلما شاهد الأفضل بن أمير الجيوش ذلك قال لابن أبى الليث: يا شيخ تفرحنى بالمال، وتربة أمير الجيوش أن بلغنى أن بئرا معطلة أو أرضا بائرة أو بلدا خراب لأضربن عنقك. فقال: وحق نعمتك، لقد حاشا الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب، أو بئر معطلة، أو أرض بور فأبى أن يكشف عما ذكر. انتهى وقتل ابن أبى الليث فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة.

ديوان الجيوش والرواتب

قال ابن الطوير: أما الخدمة فى ديوان الجيوش فتنقسم قسمين. . الأول ديوان الجيش، وفيه مستوف أصيل، ولا يكون إلا مسلما وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدى الخليفة داخل عتبة باب المجلس، وله الطراحة والمسند، وبين يديه الحاجب، وترد عليه أمور الأجناد، وله العرض والحلى والشياب، ولهذا الديوان خازنان برسم رفع الشواهد، وإذا عرض أحد الأجناد ورضى به عرض دوابه فلا يثبت له إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناثها، ولا يترك لأحد منهم برذون ولا بغل، وإن كان عندهم البراذين والبغال، وليس لهم تغيير أحد من الأجناد إلا بمرسوم وكذلك إقطاعهم، ويكون بين يدى هذا المستوفى نقباء الأمراء ينهون إليه متجددات الأجناد من الحياة والموت والمرض والصحة، وكان قد فسح للأجناد فى مقايضة بعضهم بعضا فى الإقطاع بالتوقيعات بغير علامة. بل بتخريج صاحب ديوان المجلس. ومن هذا الديوان تعمل أوراق أرباب الجرايات. وما كان لأمير وإن علا قدره بلد مقور الإنادرا. . وأما القسم الثانى من هذا الديوان فهو ديوان الرواتب، ويشتمل على أسماء كل مرتزق وجار وجارية، وفيه كاتب أصيل بطراحة وفيه من المعينين والمبيضين نحو عشرة أنفس، والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار من هو مستمر، ومباشرة من استجد وموت من مات ليوجب استحقاقه على النظام المستقيم وفى هذا الديوان عدة عروض.

العرض الأول: يشتمل على راتب الوزير، وهو فى الشهر خمسة آلاف دينار، ومن يليه من ولد وأخ من ثلاثمائة دينار إلى مائتى دينار، ولم يقرر لولد وزير خمسمائة دينار سوى شجاع بن شاور المنعوت بالكامل، ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من خمسمائة إلى أربعمائة إلى ثلاثمائة خارجا عن الإقطاعات.

العرض الثانى: حواشى الخليفة وأولهم الأستاذون المحنكون على رتبهم، وجوارى خدمهم التى لا يباشرها سواهم. فزمام القصر، وصاحب بيت المال، وحامل الرسالة، وصاحب الدفتر ومشاد التاج، وزمام الاشراف الأقارب، وصاحب المجلس. لكل واحد منهم مائة دينار فى كل شهر، ومن دونهم ينقص عشرة دنانير، حتى يكون آخرهم من له فى كل شهر عشرة دنانير وتزيد عدتهم على ألف نفس ولطبيبى الخاص لكل واحد خمسون دينارا، ولمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير.

العرض الثالث: يتضمن أرباب الرتب بحضرة الخليفة. فأوله كاتب الدست الشريف وجاريه مائة وخمسون دينارا، ولكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا، ثم صاحب الباب وجاريه مائة وعشرون دينارا، ثم حامل السيف وحامل الرمح لكل منهما سبعون دينارا، وبقية الأزمة على العساكر والسودان من خمسين إلى أربعين دينارا إلى ثلاثين دينارا.

العرض الرابع: يشتمل على المستقر لقاضى القضاة، ومن يلى قاضى القضاة مائة دينار، وداعى الدعاة مائة دينار، ولكل من قراء الحضرة عشرون دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة، ولخطباء الجوامع من عشرين دينارا إلى عشرة، وللشعراء من عشرين دينارا إلى عشرة دنانير.

العرض الخامس: يشتمل على أرباب الدواوين ومن يجرى مجراهم، وأولهم من يتولى ديوان النظر وجاريه سبعون دينارا، وديوان التحقيق جاريه خمسون دينارا، وديوان المجلس أربعون دينارا، وصاحب دفتر المجلس خمسة وثلاثون دينارا، وكاتبه خمسة دنانير، وديوان الجيوش وجاريه أربعون دينارا، والموقع بالقلم الجليل ثلاثون دينارا ولجميع

أصحاب الدواوين الجارى فيها المعاملات لكل واحد عشرون دينارا، ولكل معين من عشرة دنانير إلى سبعة إلى خمسة دنانير.

العرض السادس: يشتمل على المستخدمين بالقاهرة ومصر لكل واحد من المستخدمين فى ولاية القاهرة وولاية مصر فى الشهر خمسون دينارا، والحماة بالأهراء والمناخات والجوالى والبساتين والأملاك وغيرها لكل منهم من عشرين دينارا إلى خمسة عشر إلى عشرة إلى خمسة دنانير.

العرض السابع: الفراشون بالقصور برسم خدمتها وتنظيفها خارجا وداخلا ونصب الستائر المحتاج إليها، وخدمة المناظر الخارجة عن القصر. فمنهم خاص برسم خدمة الخليفة وعدتهم خمسة عشر رجلا. منهم صاحب المائدة، وحامى المطابخ من ثلاثين دينارا إلى ما حولها ولهم رسوم متميزة، ويقربون من الخليفة فى الاسطمة التى يجلس عليها ويليهم الرشاشون داخل القصر وخارجه ولهم عرفاء، ويتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة وعدتهم نحو الثلاثمائة رجل وجاريهم من عشرة دنانير إلى خمسة دنانير.

العرض الثامن: صبيان الركاب وعدتهم تزيد على ألفى رجل، ومقدموهم أصحاب ركاب الخليفة، وعدتهم اثنا عشر مقدما، منهم مقدم المقدمين وهو صاحب الركاب اليمين، ولكل من هؤلاء المقدمين فى كل شهر خمسون دينارا، ولهم نقباء من جهة المذكورين يعرفونهم، وهم مقررون جوقا على قدر جواريهم جوقة لكل منهم خمسة عشر دينارا، وجوقة لكل منهم عشرة دنانير، وجوقة لكل منهم خمسة دنانير، ومنهم من ينتدب فى الخدم السلطانية، ويكون لهم نصيب من الأعمال التى يدخلونها، وهم الذين يحملون الملحقات لركوب الخليفة فى المواسم وغيرها، وأول من قرر العطاء لغلمانه وخدمه وأولادهم الذكور والإناث ولنسائهم، وقرر لهم أيضا الكسوة العزيز بالله نزار بن المعز.

ديوان الإنشاء والمكاتبات

وكان لا يتولاه إلاأجل كتاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل، ويقال له كاتب الدست الشريف، ويسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها للكتاب، والخليفة يستشيره فى أكثر أموره، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه، وهذا أمر لا يصل إليه غيره، وربما بات عند الخليفة ليالي، وكان جاريه مائة وعشرين دينارا فى الشهر، وهو أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر، ولا يجتمع بكتابه أحد إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون، وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة. لكنها بغير كرسي، وهى من أخص الدوى ويحملها أستاذ من أستاذى الخليفة.

التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم

وكان لابد للخليفة من جليس يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله، وتجويد الخط وأخبار الأنبياء والخلفاء. فهو يجتمع به فى أكثر الأيام ومعه أستاذ من المحنكين مؤهل لذلك. فيكون الأستاذ ثالثهما، ويقرأ على الخليفة ملخص السير، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، وله بذلك رتبة عظيمة تلحق برتبة كاتب الدست، ويكون صحبته للجلوس دواة محلاة. فإذا فرغ من المجالسة ألقى فى الدواة كاغد فيه عشرة دنانير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند مثلث خاص ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى مرة، وله منصب التوقيع بالقلم الدقيق، وله طراحة ومسند وفراش يقدم إليه ما يوقع عليه، وله موضع من حقوق ديوان المكاتبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن، وهو يلى صاحب ديوان المكاتبات فى الرسوم والكساوى وغيرها.

التوقيع بالقلم الجليل

وهى رتبة جليلة. ويقال لها الخدمة الصغرى، ولها الطراحة والمسند بغير حاجب إلى الفراش لترتيب ما يوقع فيه.

مجلس النظر في المظالم

كانت الدولة إذا خلت من وزير صاحب سيف جلس صاحب الباب فى باب الذهب بالقصر وبين يديه النقباء والحجاب. فينادى المنادى بين يديه : يا أرباب الظلامات! فيحضرون. فمن كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة والقضاة رسالة بكشفها، ومن تظلم ممن ليس من أهل البلدين أحضر قصة بأمره فيتسلمها الحاجب منه. فإذا جمعها أحضرها إلى الموقع بالقلم الدقيق فيوقع عليها ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل، فيبسط ما أشار إليه الموقع الأول، ثم تحمل فى خريطة إلى الخليفة فيوقع عليها. ثم تخرج فى الخريطة إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه، فإن كان وزيره صاحب سيف جلس للمظالم بنفسه وقبالته قاضى القضاة ومن جانبيه شاهدان معتبران، ومن جانب الوزير الموقع بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه صاحب الباب واسفهسلار العساكر، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم. ويكون الجلوس بالقصر فى مجلس المظالم فى يومين من الأسبوع، وكان الخليفة إذا رفعت إليه القصة وقع عليها: «يعتمد ذلك إن شاء الله تعالى» يوقع فى الجانب الأيمن منها. يوقع بذلك فتخرج إلى صاحب ديوان المجلس فيوقع عليها جليلا، ويخلى مكان العلامة فيعلم عليها الخليفة وتثبت، وكانت علامتهم أبدا «الحمد لله رب العالمين» وكان الخليفة يوقع فى المسامحة والتسويغ والتحبيس «قد أنعمنا بذلك وقد أمضينا ذلك» وكان إذا أراد أن يعلم ذلك الشيء

الذى أنهى وقع ليخرج الحال فى ذلك، فإذا أحضر إليه إخراج الحال علم عليه. فإن كان حينئذ وزير وقع الخليفة بخط: «وزيرنا السيد الأجل» وذكر نعته المعروف به «أمتعنا الله ببقائه يتقدم بنجاز ذلك إن شاء الله تعالي» فيكتب الوزير تحت خط الخليفة يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ويثبت فى الدواوين.

رتب الأمراء

وكان أجل خدم الأمراء أرباب السيوف خدمة الباب، ويقال لمتولى هذه الخدمة صاحب الباب، وينعت أولا بالمعظم، وأول من خدم بها المعظم خمرتاش فى أيام الخليفة الحافظ، وكان من العقلاء، وناب عن الحافظ فى مرضه، فلما عوفى أراده على الوزارة فامتنع، وله نائب يقال له النائب، وتسمى الخدمة فيها بالنيابة الشريفة، ومقتضاها أنها مميزة ولا يليها إلا أعيان العدول وأرباب العمائم، وينعت أبدا بعدى الملك، وهو الذى يتلقى الرسل الواصلة من الدول ومعه نواب الباب فى خدمته، ويحفظهم وينزلهم بالأماكن المعدة لهم، ويقدمهم للسلام على الخليفة والوزير مع صاحب الباب. فيكون صاحب الباب يمينا وهو يسار، ويتولى افتقادهم والحث على ضيافتهم، ولا يمكن من التقصير فى حقوقهم واجتماع الناس بهم والاطلاع على ما جاءوا فيه، ولا من ينقل الأخبار إليه، ويلى رتبة صاحب الباب الاسفهسلار، وهو زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد، ثم يليه حامل سيف الخليفة أيام الركوب بالمظلة واليتيمة، ثم من يزم طائفتى الحافظية والآمرية، وهما وجه الأجناد، وهؤلاء أرباب الأطواف، ويليهم أرباب القصب والعماريات، وهى الاعلام ثم زى الطوائف، ثم من يترشح لذلك من الأماثل، وكانت الدولة لا تسند ذلك إلا إلى أرباب الشجاعة والنجدة، ولهذا دخل فيه أخلاط الناس من الأرمن والروم وغيرهم، وعلى ذلك كان عملهم لا للزينة والتباهي.

قاضي القضاة

وكان من عادة الدولة أنه إذا كان وزير رب سيف، فإنه يقلد القضاء رجلا نيابة عنه، وهذا إنما حدث من عهد أمير الجيوش بدر الجمالي، وإذا كان الخليفة مستبدا قلد القضاء رجلا ونعته بقاضى القضاة، وتكون رتبته أجل رتب أرباب العمائم وأرباب الأقلام، ويكون فى بعض الأوقات داعيا. فيقال له حينئذ قاضى القضاة وداعى الدعاة، ولا يخرج شيء من الأمور الدينية عنه، ويجلس السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بن العاص بمصر على طراحة ومسند حرير فلما ولى ابن عقيل القضاء رفع المرتبة والمسند وجلس على طراحات السامان، فاستمر هذا الرسم، ويجلس الشهود حواليه يمنه ويسرة بحسب تاريخ عدالتهم، وبين يديه خمسة من الحجاب اثنان بين يديه، واثنان على باب المقصورة، وواحد ينفذ الخصوم إليه، وله أربعة من الموقعين بين يديه اثنان يقابلان اثنين، وله كرسى الدواة، وهى دواة محلاة بالفضة تحمل إليه من خزائن القصور، ولها حامل بجامكية فى الشهر على الدولة، ويقدم له من الاصطبلات برسم ركوبه على الدوام بغلة شهباء، وهو مخصوص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة وعليها من خزانة السروج سرج محلى ثقيل وراءه دفتر فضة، ومكان الجلد حرير، وتأتيه فى المواسم الأطواق ويخلع عليه الخلع المذهبة بلا طبل ولا بوق. إلا إذا ولى الدعوة مع الحكومة فإن للدعوة فى خلعها الطبل والبوق والبنود الخاص، وهى نظير البنود التى يشرف بها الوزير صاحب السيف، وإذا كان للحكم خاصة كان حواليه القراء رجالة، وبين يديه المؤذنون يعلنون بذكر الخليفة والوزير إن كان ثم، ويحمل بنواب الباب والحجاب ولا يتقدم عليه أحد فى محضر هو حاضره من رب سيف وقلم، ولا يحضر لأملاك ولا جنازة إلا بإذن، ولا سبيل إلى قيامه لأحد وهو فى مجلس الحكم، ولا يعدل شاهد إلا بأمره، ويجلس بالقصر فى يومى الاثنين والخميس أول النهار للسلام على الخليفة ونوابه لا يفترون عن الأحكام ويحضر إليه وكيل بيت المال، وكان له النظر فى ديوان الضرب لضبط ما يضرب من الدنانير، فكان يحضر مباشرة التغليق

بنفسه، ويختم عليه ويحضر لفتحه، وكان القاضى لا يصرف إلا بجنحة، ولا يعدل أحدا إلا بتزكية عشرين شاهد عشرة من مصر وعشرة من القاهرة، ورضى الشهود به ولا يحتمى أحد على الشرع، ومن فعل ذلك أدب.

قاعة الفضة

وهى من جملة قاعات القصر

قاعة السدرة

كانت بجوار المدرسة والتربة الصالحية، واشتراها قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الحنبلى مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية بألف وخمسة وتسعين دينارا فى رابع شهر ربيع الآخر سنة ستين وستمائة من كمال الدين ظافر ابن الفقيه نصر وكيل بيت المال، ثم باعها شمس الدين المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى ربيع الآخر المذكور، وكان يتوصل إليها من باب البحر.

قاعة الخيم

كانت شرقى قاعة السدرة، وقد دخلت قاعة السدرة وقاعة الخيم فى مكان المدرسة الظاهرية العتيقة.

المناظر الثلاث

استجدهن الوزير المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر بأحكام الله إحداهن بين باب الذهب وباب البحر ، والأخرى على قوس باب الذهب ، ومنظرة ثالثة ، وكان يقال لها الزاهرة والفاخرة والناضرة ، وكان يجلس الخليفة فى إحداها لعرض العساكر يوم عيد الغدير ، ويقف الوزير فى قوس باب الذهب .

قصر الشوك

قال ابن عبد الظاهر : كان منزلا لبنى عذرة قبل القاهرة يعرف بقصر الشوك ، وهو الآن أحد أبواب القصر . انتهي ، والعامة تقول قصر الشوق ، وأدركت مكانه دارا استجدت بعد الدولة الفاطمية . هدمها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة لينشئها دارا فمات قبل ذلك ، وموضعه اليوم بالقرب من دار الضرب فيما بينه وبين المارستان العتيق .

قصر أولاد الشيخ

هذا المكان من جملة القصر الكبير ، وكان قاعة فسكنها الوزير الصاحب الأمير الكبير معين الدين جسين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعرف به ، وأدركت هذا المكان خطا يعرف بالقصر يتوصل إليه من زقاق تجاه حمام بيسري ، وفيه عدة دور منها دار الطواشى سابق الدين ومدرسته المعروفة بالمدرسة السابقية ،

وكان يتوصل إليه من الركن المخلق أيضا من الباب المظلم تجاه سور سعيد السعداء، المعروف قديما باب الريح، ثم عرف بقصر ابن الشيخ، وعرف فى زمننا بباب القصر، إلى أن هدمه جمال الدين الاستادار، كما يأتى إن شاء الله تعالى.

قصر الزمرذ

هو من جملة القصر الكبير، وعرف أخيرا بقصر قوصون، ثم عرف في زمننا بقصر الحجازية وقيل له قصر الزمرذ. لأنه كان بجوار باب الزمرذ. أحد أبواب القصر ووجد به فى سنة بضع وسبعين وسبعمائة تحت التراب عمودان عظيمان من الرخام الأبيض، فعمل لهما ابن عابد رئيس الحراريق السلطانية أساقيل وجرهما إلى المدرسة التى أنشأها الملك الأشرف شعبان بن حسين تجاه الطبلخاناة من قلعة الجبل، وأدركنا لجر هذين العمودين أوقاتا فى أيام تجمع الناس فيها من كل أوب لمشاهدة ذلك، ولهجوا بذكرهما زمنا وقالوا فيما شعرا وغناء كثيرا، وعملوا نموذجات من ثياب الحرير وتطريز المناديل عرفت بجر العمود، وكانت الأنفس حينئذ منبسطة والقلوب خالية من الهموم، وللناس إقبال على اللهو لكثرة نعمهم وطول فراغهم، وكان العمودان المذكوران مما ارتدم من أنقاض القصر. فسبحان الوارث.

الركن المخلق

موضعه الآن تجاه حوض الجامع الأقمر على يمنة من أراد الدخول إلى المسجد المعروف الآن بمعبد موسي، وقيل له الركن المخلق لأنه ظهر فى سنة ستين وستمائة فى هذا الموضع حجر مكتوب عليه: هذا مسجد موسى عليه السلام. فخلق بالزعفران، وسمى من ذلك

اليوم بالركن المخلق، وأخبرني الأمير الوزير أبو المعالي يلبغا السالمي أنه قرأ في الأسطر المكتوبة بأسكفة باب الجامع الأقمر كلاما من جملته: والحوانيت التي بالركن المخوق بواو بعد الخاء. فرأيت بعد ذلك في الأمالي للقالي: وقال أبو عبيدة عن أبي عمر والخوقاء الصحراء التي لا ماء بها، ويقال الواسعة، وأخوق واسع. فلعله سمي المخوق بمعنى الاتساع فكان ركنا متسعا، وفي بناء واسع أو يكون المخلق باللام، من قولهم قدح مخلق بضم الميم وفتح الخاء وتشديد اللام وفتحها - أي مستو أملس، وكل ما لين وملس فقد خلق. فكل مملس مخلق وسمته العامة بعد ذلك الركن المخلق عندما خلقوه بالزعفران والله أعلم.

السقيفة ٣

وكان من جملة القصر الكبير موضع يعرف بالسقيفة، يقف عنده المتظلمون، وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين. فإذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة، وقال بصوت عال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، على ولى الله، فيسمعه الخليفة. فيأمر بإحضاره إليه أو يفوض أمره إلى الوزير أو القاضي أو الوالي. . وغريب ماوقع أن الموفق بن الخلال لما كان يتحدث في أمور الدواوين أيام الخليفة الحافظ لدين الله، وخرج من انتدب بعد انحطاط النيل من العدول والنصارى الكتاب إلى الأعمال لتحرير ما شمله الري، وزرع من الأراضي، وكتابة المكلفات. فخرج إلى بعض النواحي من يمسحها من شاد وناظر وعدول، وتأخر الكاتب النصراني، ثم لحقهم وأراد التعدية إلى الناحية فحمله ضامن تلك المعدية إلى البر، وطلب منه أجرة التعدية، فنفر فيه النصراني وسبه، وقال: أنا ماسح هذه البلدة وتريد مني حق التعدية، فقال له الضامن: إن كان لي زرع خذه، وقلع لجام بغلة النصراني وألقاه في معديته، فلم يجد النصراني بدا من دفع الأجرة إليه حين أخذ لجام بغلته فلما تمم مساحة البلد وبيض مكلفة المساحة ليحملها إلى دواوين

الباب، وكانت عادتهم حينئذ كتب الجملة بزيادة عشرين فدانا ترك بياضا فى بعض الأوراق، وقابل العدول على المكلفة وأخذ الخطوط عليها بالصحة ثم كتب فى البياض الذى تركه أرض اللجام باسم ضامن المعدية عشرين فدانا قطيعة كل فدان أربعة دنانير عن ذلك ثمانون دينارا، وحمل المكلفة إلى ديوان الأصل، وكانت العادة إذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر ندب من الجند من فيه حماسة وشدة، ومن الكتاب العدول وكاتب نصرانى فيخرجون إلى سائر الأعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة، فينفق فى الأجناد فإنه لم يكن حينئذ للأجناد إقطاعات كما هو الآن، وكان من العادة أن يخرج إلى كل ناحية ممن ذكر من لم يكن خرج وقت المساحة، بل ينتدب قوم سواهم فلما خرج الشاد والكاتب والعدول لاستخراج ثلث مال الناحية استدعوا أرباب الزرع على ما تشهد به المكلفة ومن جملتهم ضامن المعدية. فلما حضر ألزم بستة وعشرين دينارا وثلثى دينار عن نظير ثلث المال الثمانين دينارا التى تشهد بها المكلفة عن خراج أرض اللجام. فأنكر الضامن أن تكون له زراعة بالناحية وصدقه أهل البلد. فلم يقبل الشاد ذلك وكان عسوفا وأمر به فضرب بالمقارع واحتج بخط العدول على المكلفة، وما زال به حتى باع معديته وغيرها وأورد ثلث المال الثابت فى المكلفة وسار إلى القاهرة فوقف تحت السقيفة وأعلن بما تقدم ذكره فأمر الخليفة الحافظ بإحضاره فلما مثل بحضرته قص عليه ظلامته مشافهة، وحكى له ما اتفق منه فى حق النصرانى وما كاده به فأحضر ابن الخلال وجميع أرباب الدواوين وأحضرت المكلفات التى عملت للناحية المذكورة فى عدة سنين ماضية وتصفحت بين يديه سنة سنة فلم يوجد لأرض اللجام ذكر البتة. فحينئذ أمر الخليفة الحافظ بإحضار ذلك النصرانى وسمر فى مركب وأقام له من يطعمه ويسقيه وتقدم بأن يطاف به سائر الأعمال، وينادى عليه ففعل ذلك، وأمر بكف أيدى النصرانية كلها عن الخدم فى سائر المملكة فتعطلوا مدة إلى أن ساءت أحوالهم، وكان الحافظ مغرما بعلم النجوم وله عدة من المنجمين من جملتهم شخص صار إليه عدة من أكابر كتاب النصاري، ودفعوا إليه جملة من المال، ومعهم رجل منهم يعرف بالأخرم بن أبى زكريا، وسألوه أن يذكر للحافظ فى أحكام تلك السنة حلية هذا الرجل فإنه إن أقامه فى تدبير دولته زاد النيل

ونما الارتفاع وزكت الزروع ونتجت الأغنام ودرت الضروع وتضاعفت الأسماك وورد التجار وجرت قوانين المملكة على أجمل الأوضاع، فطمع ذلك المنجم فى كثرة ما عاينه من الذهب وعمل ما قرره النصارى معه فلما رأى الحافظ ذلك تعلقت نفسه بمشاهدة تلك الصفة فأمر بإحضار الكتاب من النصارى وصار يتصفح وجوههم من غير أن يطلع أحدا على ما يريده وهم يؤخرون الأخرم عن الحضور إليه قصدا منهم، وخشية أن يفطن بمكرهم إلى أن اشتد إلزامهم بإحضار سائر من بقى منهم فأحضروه بعد أن وضعوا من قدره فلما رآه الحافظ رأى فيه الصفات التى عينها منجمه، فاستدناه إليه وقربه وآل أمره إلى أن ولاه أمير الدواوين فأعاد كتاب النصارى أوفر ما كانوا عليه، وشرعوا فى التجبر وبالغوا فى إظهار الفخر، وتظاهروا بالملابس العظيمة وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسروج المحلاة، واللجم الثقيلة وضايقوا المسلمين فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية، واتخذوا العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات وصودر بعض كتاب المسلمين فألجأته الضرورة إلى بيع أولاده وبناته فيقال إنه اشتراهم بعض النصارى وفى ذلك يقول ابن الخلال :

إذا حكم النصارى فى الفروج

وغالوا بالبالغ وبالسروج

وذلت دولة الإسلام طرا

وصار الأمر فى أيدى العلوج

فقل للأعور الدجال هذا

زمانك إن عزمت على الخروج

وموضع السقيفة فيما بين درب السلامى وبين خزانة البنود يتوصل إليه من تجاه البئر التى قدام دار كانت تعرف بقاعة ابن كتيلة، ثم استولى عليها جمال الدين الاستادار، وجعلها مسكنا لأخيه ناصر الدين الخطيب وغير بابها.

دار الضرب

هذا المكان الذى هو الآن دار الضرب من بعض القصر . فكان خزانة بجوار الايوان الكبير سجن بها الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد، وذلك أن الآمر لما قتل فى يوم الثلاثاء رابع عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة قام العادل برغش وهزار الملوك جوامرد، وكانا أخص غلمان الآمر بالأمير عبد المجيد ونصباه خليفة ونعتاه بالحافظ لدين الله، وهو يومئذ أكبر الأقارب سنا، وذكر أن الآمر قال قبل أن يقتل بأسبوع عن نفسه : المسكين المقتول بالسكين، وأنه أشار إلى أن بعض جهاته حامل منه، وأنه رأى أنها ستلد ذكرا وهو الخليفة من بعده، وأن كفالته للأمير عبد المجيد فجلس على أنه كافل . لمذكور وندب هزار الملوك للوزارة وخلع عليه فلم ترض الأجناد به وثاروا بين القصرين وكبيرهم رضوان بن ولخشي، وقاموا بأبى على بن الأفضل الملقب بكتيفات وقالوا لا نرضى إلا أن يصرف هزار الملوك، وتفوض الوزارة لأحمد بن الأفضل فى سادس عشر . فكان أول ما بدأ به أن أحاط على الخليفة الحافظ وسجنه بالقاعة المذكورة وقيده وهم بخلعه فلم يتأت له ذلك، وكان إماميا فأبطل ذكر الحافظ من الخطبة، وصار يدعو للقائم المنتظر ونقش على السكة، الله الصمد الإمام محمد «فلما قتل فى يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة بالميدان خارج باب الفتوح سارع صبيان الخاص الذين تولوا قتله إلى الحافظ وأخرجوه من الخزانة المذكورة، وفكوا عنه قيده، وكان كبيرهم يانس وأجلسوه فى الشباك على منصب الخلافة وطيف برأس أحمد ابن الأفضل، وخلع على يانس خلع الوزارة، ومازالت الخلافة فى يد الحافظ حتى مات ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة عن سبع وستين سنة منها خليفة من حين قتل ابن الأفضل ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وأيام .

خزائن السلاح

كانت بالإيوان الكبير الذى تقدم ذكره فى صدر الشباك الذى يجلس فيه الخليفة تحت القبة التى هدمت فى سنة سبع وثمانين وسبعمائة كما تقدم، وخزائن السلاح المذكورة هى الآن باقية بجوار دار الضرب خلف المشهد الحسينى ، وعقد الإيوان باق وقد تشعث .

المارستان العتيق

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة فى تاسع ذي القعدة أمر السلطان يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير له مكان بالقصر وأفرد برسمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلات جهاتها الفيوم واستخدم له أطباء وطبائعيين وجرايحيين ومشارف وعاملا وخداما ووجد الناس به رفقا وإليه مستروحا وبه نفعا وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم وأفرد برسمه من ديوان الاحباس ما تقدير ارتفاعه عشرون دينارا واستخدم له طبيب وعامل ومشارف وارتفق به الضعفاء وكثر بسبب ذلك الدعاء، وقال ابن عبد الظاهر كان قاعة بناها العزيز بالله فى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة وقيل إن القرآن مكتوب فى حيطانها، ومن خواصها أنه لا يدخلها نمل لطلسم بها، ولما قيل ذلك لصلاح الدين رحمه الله، قال: هذا يصلح أن يكون مارستانا، وسألت مباشريه عن ذلك فقالوا: إنه صحيح، وكان قديما المارستان فيما بلغنى القشاشين، وأظنه المكان المعروف بدار الديلم. انتهي، والقشاشين المذكورة تعرف اليوم بالخراطين المسلوك فيها إلى الخيميين والجامع الأزهر.

التربة المعزية

كان من جملة القصر الكبير التربة المعزية، وفيها دفن المعز لدين الله آباءه الذين أحضرهم فى توابيت معه من بلاد المغرب، وهم الإمام المهدى عبيد الله، وابنه القائم بأمر الله محمد، وابنه الإمام المنصور بنصر الله إسماعيل، واستقرت مدفنا يدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران، وهو مكان كبير من جملتها الموضع الذى يعرف اليوم بخط الزراكشة العتيق ومن هناك بابها، ولما أنشأ الأمير جهاركس الخليلى خانه المعروف به فى الخط المذكور أخرج ما شاء الله من عظامهم، فألقيت فى المزابل على كيمان البرقية، ويمتد من هناك من حيث المدرسة البديرية خلف المدارس الصالحية النجمية، وبها إلى اليوم بقايا قبورهم، وكان لهذه التربة عوايد ورسوم، منها أن الخليفة كلما ركب بمظلة وعاد إلى القصر لابد أن يدخل إلى زيارة آبائه بهذه التربة، وكذلك لابد أن يدخل فى يوم الجمعة دائما وفى عيدى الفطر والأضحى مع صدقات ورسوم تفرق. قال ابن المأمون: وفى هذا الشهر يعنى شوالا سنة ست عشرة وخمسمائة تنبه ذكر الطائفة النزارية، وتقرر بين يدى الخليفة الآمر بأحكام الله أن يسير رسول إلى صاحب الموق بعد أن جمعوا الفقهاء من الاسماعيلية والإمامية، وقال لهم الوزير المأمون البطائحي: ما لكم فى الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الاسماعيلية، فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله، وذكروا حجتهم، فكتب الكتاب ووصلت كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قويت شوكتهم واشتدت فى البلاد طمعتهم، وأنهم سيروا الآن ثلاثة آلاف برسم النجوم برسم المؤمنين الذين تنزل الرسل عندهم، ويختفون فى محلهم، فتقدم الوزير بالفحص عنهم والاحتراز التام على الخليفة فى ركوبه ومنتزهاته وحفظ الدور والأسواق، ولم يزل البحث فى طلبهم إلى أن وجدوا فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلون بالمال، فصلبوا، وأما المال وهو ألفا دينار فإن الخليفة أبى قبوله وأمر أن ينفق فى السودان عبيد الشراء، وأحضر من بيت المال نظير المبلغ، وتقدم بأن يصاغ به قنديلان من ذهب وقنديلان من فضة، وأن يحمل منها قنديل ذهب وقنديل فضة

إلى مشهد الحسين بثغر عسقلان، وقنديل إلى التربة المقدسة ـ تربة الأئمة بالقصر، أوأمر الوزير المأمون بإطلاق ألفى دينار من ماله، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسم المشهد العسقلاني، وأن يصاغ على المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب بالجامع العتيق بمصر من فوق الفضة ذهب، وأطلق حاصل الصناديق التى تشتمل على مال النجاوى برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق فى الجوامع الثلاثة. الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وجامع القرافة، وعلى فقراء المؤمنين على أبواب القصور، وأطلق من الاهراء ألفى أردب قمحا، وتصدق على عدة من الجهات بجملة كثيرة، واشتريت عدة جوار من الحجر وكتب عتقهن للوقت وأطلق سراحهن، وقال فى كتاب الذخائر، إن الأتراك طلبوا من المستنصر نفقة فى أيام الشدة فماطلهم وأنهم هجموا على التربة المدفون فيها أجداده فأخذوا ما فيها من قناديل الذهب وكانت قيمة ذلك مع ما اجتمع إليه من الآلات الموجودة هناك مثل المداخن والمجامروحلى المحاريب وغير ذلك خمسين ألف دينار.

القصر النافعي

قال ابن عبد الظاهر: القصر النافعى قرب التربة يقرب من جهة السبع خوخ، كان فيه عجائز من عجائز القصر وأقارب الاشراف. انتهي، وموضع هذا القصر اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب وما فى قبليه من خان منجك، ودار خواجا عبد العزيز المجاورة للمسجد الذى بحذاء خان منجك، وما بجوار دار خواجا من الزقاق المعروف بدرب الحبشي، وكان حد هذا القصر الغربى ينتهى إلى الفندق الذى بالخيميين المعروف قديما بخان منكورس ويعرف اليوم بخان القاضي، واشترى بعض هذا القصر لما بيع بعد زوال الدولة الأمير ناصر الدين عثمان بن سنقر الكاملى المهمندار، الذى يعرف بفندق المهمندار بعد أن كان اصطبلا له، واشترى بعضه الأمير حسام الدين لاجين الأيدمرى

المعروف بالدرفيل دوادار الملك الظاهر بيبرس، وعمره اصطبلا ودارا، وهى الدار التى تعرف اليوم بخواجا عبد العزيز على باب درب الحبشي، ثم عمل الاصطبل الخان الذى يعرف اليوم بخان منجك، وابتنى الناس فى مكان درب الحبشى الدور، وزال أثر القصر. فلم يبق منه شيء البتة.

الخزائن التي كانت بالقصر

وكانت بالقصر الكبير عدة خزائن منها خزانة الكتب، وخزانة البنود، وخزائن السلاح، وخزائن الدرق، وخزائن السروج، وخزانة الفرش، وخزانة الكسوات، وخزائن الادم، وخزائن الشراب، وخزانة التوابل، وخزائن الخيم، ودار التعبية، وخزائن دار افتكين، ودار الفطرة، ودار العلم، وخزانة الجوهر والطيب، وكان الخليفة يمضى إلى موضع من هذه الخزائن، وفى كل خزانة دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها طول السنة، وله جار فى كل شهر فيطوفها كلها فى السنة.

خزانة الكتب

قال المسيحي: وذكر عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره، فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد، وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه، وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منها، وقال فى كتاب الذخائر: عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، وأن الموجود فيها من جملة

الكتب المخرجة فى شدة المستنصر ألفان وأربعمائة ختمة قرآن فى ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما، وأن جميع ذلك كله ذهب فيما أخذه الأتراك فى واجباتهم ببعض قيمته، ولم يبق فى خزائن القصر البرانية منه شيء بالجملة دون خزائن القصر الداخلة التى لا يتوصل إليها، ووجدت صناديق مملوءة أقلاما مبرية من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما. قال: وكنت بمصر فى العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا محمولة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربي. فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق فى الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين، وأن حصة الوزير أبى الفرج منها قومت عليه من جارى مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار، وذكر لى من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر فى صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبى الفرج وابن أبى كدينة وغيرهما. هذا سوى ما كان فى خزائن دارالعلم بالقاهرة، وسوى ما صار إلى عماد الدولة أبى الفضل بن المحترق بالإسكندرية ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب، وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار إليه بالابتياع والغصب فى بحر النيل إلى الإسكندرية فى سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار، المعدومة المثل فى سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة، التى أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم وأحرق ورقها، تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز الله أنصاره، وأن فيها كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم، سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار، وبقى منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب، فصار تلالا باقية إلى اليوم فى نواحى آثار تعرف بتلال الكتب. وقال ابن الطوير: خزانة الكتب كانت فى أحد مجالس المارستان اليوم يعنى المارستان العتيق. فيجيء الخليفة راكبا ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر إليه من يتولاها، وكان فى ذلك الوقت الجليس بن عبد القوي. فيحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب. فإن عن له أخذ شيء منها. أخذه ثم

بعيده. وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات، ويسير من المجردات. فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ، ومنها النواقص التى ما تممت. كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة ومافيها من المصاحب الكريمة فى مكان فوقها، وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البواب وغيره، وتولى بيعها ابن صورة فى أيام الملك الناصر صلاح الدين. فإذا أراد الخليفة الانفصال مشى فيها مشية لنظرها، وفيها ناسخان وفراشان صاحب المرتبة وآخر. فيعطى الشاهد عشرين دينارا، ويخرج إلى غيرها. وقال ابن أبى طى بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر: ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا. ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك. ويقال إنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. انتهى، ومما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن على لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد، وباع ابن صورة دلال الكتب منها جملة فى مدة أعوام. فلو كانت كلها مائة ألف لما فضل عن القاضى الفاضل منها شيء، وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد.

خزانة الكسوات

قال ابن أبى طي: وعلم يعنى المعز لدين الله دارا، وسماها دار الكسوة كان يفصل فيها من جميع أنواع الثياب والبز، ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف، وكانت لأولاد الناس ونسائهم كذلك وجعل ذلك رسما يتوارثونه فى

الأعقاب، وكتب بذلك كتبا، وسمى هذا، لموضع خزانة الكسوة. وقال عند ذكر انقراض الدولة: ومن أخبارهم أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السراويل وما دونه من الملابس والمنديل من فاخر الثياب ونفيس الملبوس، ويقومون لهم بجميع ما يحتاجون إليه من نفيس المطعومات والمشروبات وسمعت من يقول إنه حضر كسا القصر التى تخرج فى الصيف والشتاء فكان مقدارها ستمائة ألف دينار وزيادة، وكانت خلعهم على الأمراء الثياب الديبقى والعمائم بالطراز الذهب، وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق والأسورة والسيوف المحلاة، وكان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر، وقال ابن المأمون: وجلس الأجل يعنى الوزير المأمون فى مجلس الوزارة لتنفيذ الأمور وعرض المطالعات وحضر الكتاب، ومن جملتهم ابن أبى الليث كاتب الدفتر، ومعه ما كان أمر به من عمل جرائد الكسوة للشتاء بحكم حلوله، وأوان تفرقتها، فكان ما اشتمل عليه المنفق فيها لسنة ستة عشرة وخمسمائة من الأصناف أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وخمس قطع، وأن أكثر ما أنفق عن مثل ذلك فى الأيام الأفضلية فى طول مدتها لسنة ثلاث عشرة وخمسمائة ثمانية آلاف وسبعمائة وخمس وسبعون قطعة. يكون الزائد عنها بحكم ما رسم به فى منفق سنة ست عشرة خمسة آلاف وستمائة وأربعا وثلاثين قطعة، ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر الشهر وقد تضاعفت عما كانت عليه فى الأيام الأفضلية لهذا الموسم، وهى تشتمل على ذهوب وسلف دون العشرين ألف دينار، وهو عندهم الموسم الكبير، ويسمى بعيد الحلل، لأن الحلل فيه تعم الجماعة، وفى غيره للأعيان خاصة فأحضر الأمير افتخار الدولة مقدم خزانة الكسوة الخاص ليتسلم ما يختص بالخليفة وهو برسم الموكب: بدلة خاص جليلة مذهبة ثوبها موشح معجاوم مذايل عدتها باللفافتين إحدى عشرة قطعة. السلف عنها مائة وستة وسبعون دينارا ونصف، ومن الذهب العالى المغزول ثلاثمائة وسبعة وخمسون مثقالا ونصف كل مثقال أجرة غزله ثمن دينار، ومن الذهب العراقى ألفان وتسعمائة وأربع وتسعون قصبة.

تفصيل ذلك: شاشية طميم. السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا، منديل بعمود ذهب. السلف سبعون وألفان ومائتان وخمسون قصبة ذهبا عراقيا، فإن كان الذهب نظير المصرى كان الذى يرقم فيه ثلاثمائة وخمسة وعشرين مثقالا، لأن كل مثقال نظير تسع قصبات ذهبا عراقيا، وسط سرب بطانة للمنديل السلف عشرة دنانير وسبعون قصبة ذهبا عراقيا. ثوب موشح مجاوم مطرف. السلف خمسون دينارا وثلاثمائة وأحد وخمسون مثقالا ونصف ذهبا، عاليا أجرة كل مثقال ثمن دينار تكون جملة مبلغه وقيمة ذهبه ثلاثمائة وأربعة وتسعين دينارا ونصفا، وثوب ديبقى حريرى وسطاني. السلف اثنا عشر دينارا، غلالة ديبقى حريري، السلف عشرون دينارا. منديل كم أول مذهب. السلف خمسة دنانير ومائتان وأربع قصبات ذهبا عراقيا. منديل كم ثان حريرى السلف خمسة دنانير، حجرة. السلف أربعة دنانير. عرضى مذهب. السلف خمسة دنانير وخمسة عشر مثقالا ذهبا، عاليا عرضى لفافة للتخت دينار واحد، ونصف بدلة ثانية برسم الجلوس على السماط عدتها باللفافتين عشر قطع. السلف مائةوأربعة عشر دينارا، ومن الذهب العالى خمسة وخمسون مثقالا، ومن الذهب العراقى سبعمائة وأربعون قصبة. تفصيل ذلك: شاشية طميم. السلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا. منديل السلف ستون دينارا وستمائة قصبة ذهبا عراقيا، شقة وكم. السلف ستة عشر دينارا وخمسة وخمسون مثقالا ذهبا، عاليا أجرة كل مثقال ثمن دينار، شقة ديبقى حريرى وسطانى اثنا عشر دينارا، شقة ديبقى غلالة ثمانية دنانير، منديل الكم الحريرى خمسة دنانير، حجرة أربعة دنانير، عرضى بخمسة دنانير، عرضى برسم التخت دينار واحد ونصف، وهذه البدلة لم تكن فيما تقدم فى أيام الأفضل، لأنه لم يكن ثم سماط يجلس عليه الخليفة، فإنه كان قد نقل ما يعمل فى القصور من الاسمطة والدواوين إلى داره. فصار يعمل هناك ما هو برسم الأجل أبى الفضل جعفر أخى الخليفة الآمر بدلة مذهبة، مبلغها تسعون دينارا ونصف وخمسة وعشرون مثقالا ذهبا عاليا وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا، تفصيل ذلك: منديل السلف خمسون دينارا وأربعمائة وسبعون قصبة ذهبا عراقيا، شقة ديبقى حريرى وسطانى السلف عشرة دنانير، شقة غلالة ديبقى السلف ثمانية دنانير، حجرة ثلاثة دنانير وثلث، عرضى ديبقى ثلاثة دنانير.

الجهة العالية بالدار الجديدة التى يقوم بخدمتها جوهر حلة مذهبة موشح مجاوم مذايل مطرف عدتها خمس عشرة قطعة. سلفها ستة آلاف وثلثمائة وثلاثون قصبة. تفصيل ذلك: مذهب مكلف موشح مجاوم السلف خمسة عشر دينارا وستمائة وستون قصبة، سداسى مذهب السلف ثمانية عشر دينارا ومائتا قصبة، معجر أول مذهب موشح مجاوم مطرف السلف خمسون دينارا وألف وتسعمائة قصبة، معجر ثان حريرى السلف خمسة وثلاثو ن دينارا ونصف، رداء حريرى أول السلف عشرة دنانير ونصف رداء حريرى ثان السلف تسعة دنانير، دراعة موشح مجاوم مذايل مذهبة السلف خمسة وتسعون دينارا، ومن الذهب العراقى ألفان وستمائة وخمس وخمسون قصبة، شقة ديبقى حريرى وسطانى السلف عشرون دينارا، ونصف شقة ديبقى بغير رقم برسم عجز التفصيل ثلاثة دنانير، ملاءة ديبقى السلف أربعة وعشرون دينارا وستمائة قصبة، منديل كم أول السلف ستة دنانير ومائة وستون قصبة، منديل كم ثان السلف خمسة دنانير ومائة وستون قصبة، منديل كم ثالث السلف خمسة دنانير، حجرة ثلاثة دنانير، عرضى ديبقى ثلاثة دنانير.

جهة مكنون القاضى بمثل ذلك على الشرح والعدة.

جهة مرشد حلة مذهبة عدتها أربع عشرة قطعة. السلف مائة وأحد وأربعون دينارا ومن الذهب العراقى ألف وستمائة وتسع وثمانون قصبة.

جهة عنبر مثل ذلك السيدة جهة ظل مثل ذلك.

جهة منجب مثل ذلك الأمير أبو القاسم عبد الصمد بدلة مذهبة، الأمير داود، مثله السيدة العمة حلة مذهبة، السيدة العابدة العمة مثل ذلك، الموالى الجلساء من بنى الأعمام، وهم أبو الميمون بن عبد المجيد والأمير أبو اليسر ابن اليسر ابن الأمير محسن، والأمير أبو على ابن الأمير جعفر، والأمير حيدرة ابن الأمير عبد المجيد، والأمير موسى ابن الأمير عبد الله، والأمير أبو عبد الله ابن الأمير داود لكل منهم بدلة مذهبة، البنون والبنات من بنى الأعمام غير الجلساء لكل منهم بدلة حريري، ست سيدات لكل منهم حلة حريري.

جهة المولى أبى الفضل جعفر التى يقوم بخدمتها ريحان حلة مذهبة .

جهة المولى عبد الصمد حلة حريري . ما يختص بالدار الجيوشية والمظفرية فعلى ما كان بأسمائهم المستخدمات لخزانة الكسوة الخاص . زين الخزان المقدمة حلة مذهبة . ست خزان لكل منهم حلة حريري ، عشر وقفات لكل منهن كذلك ، المعلمة مقدمة المائدة ، كذلك رايات مقدمة خزانة الشراب ، كذلك المستخدمات من أرباب الصنائع من القصوريات ، وممن انضاف إليهن من الأفضليات مائة وسبعون حلة مذهبة وحريرى على التفصيل المتقدم .

المستخدمات عند الجهات العالية .

جهة جوهر عشرون حلة مذهبة وحريري ، وكذلك المستخدمات عند مكنون الأمراء الأستاذون المحنكون . الأمير الثقة زمام القصور بدلة مذهبة ، الأمير نسيب الدولة مرشد متولى الدفتر ، كذلك الأمير خاصة الدولة ريحان متولى بيت المال ، كذلك الأمير عظيم الدولة وسيفها حامل المظلة ، كذلك الأمير صارم الدولة صاف متولى الستر ، كذلك وفيّ الدولة إسعاف متولى المائدة ، مثله الأمير افتخار الدولة جندب بدلة مذهبة نظير البدلة المختصة بالأمير الثقة ، ولكل من غير هؤلاء المذكورين حلة حريرى أربع قطع ، ولفافة فوطة مختار الدولة ظل بدلة حريري . ستة أستاذين فى خزانة الكسوة الخاص عند الأمير افتخار الدولة جندب لكل منهم بدلة مذهبة ، جوهر زمام الدار الجديدة بدلة حريري ، تاج الملك أمين بيت المال مثله مفلح برسم الخدمة فى المجلس ، مثله مكنون متولى خدمة الجهة العالية ، مثله فنون متولى خدمة التربة ، مثله مرشد الخاصى مثله النواب عن الأمير الثقة فى زمام القصور ، وعدتهم أربعة لكل منهم بدلة حريري ، خسروانى العظمى مقدم خزانة الشراب ورفيقه لكل منهما بدلة ، كذلك الصقالبة أرباب المداب وعدتهم أربعة ، لكل منهم بدلة حريرى وشقة وفوطة ، نائب الستر مثل ذلك ، الأستاذون برسم خدمة المظلة وعدتهم خمسة لكل منهم منديل سوسى وشقة دمياطى وشقة إسكندرانى وفوطة ، الأستاذون الشدادون برسم الدواب وعدتهم ستة ، كذلك ما حمل برسم السيد الاجل المأمون يعنى الوزير بدلة خاصة مذهبة كبيرة موكبية عدتها إحدى عشرة ، وما هو

يرسم جهاته وبرسم أولاده. الاجل تاج الرياسة وتاج الخلافة وسعد الملك محمد وشرف الخلافة جمال الملك موسى وهو صاحب التاريخ نظير ما كان باسم أولاد الأفضل بن أمير الجيوش، وهم حسن وحسين وأحمد الاجل المؤتمن سلطان الملوك يعنى أخا الوزير عن تقدمة العساكر وزم الأزمة، وبرسم الجهة المختصة به، وركن الدولة عز الملوك أبو الفضل عفر عن حمل السيف الشريف خارجا عماله من حماية خزانة الكسوات وصناديق النفقات، وما يحمل أيضا للخزائن المأمونية مما ينفق منها على من يحسن فى الرأى من الحاشية المأمونية ثلاثون بدلة. الشيخ الاجل أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست الشريف بدلة مذهبة عدتها خمس قطع وكم وعرضي. الأمير فخر الخلافة حسام الملك متولى حجبيه الباب بدلة مذهبة، كذلك القاضى ثقة الملك ابن النائب فى الحكم بدلة مذهبة عدتها أربع قطع وكم وعرضي. الشيخ الداعى ولى الدولة ابن أبى الحقيق بدلة مذهبة. الأمير الشريف أبو على أحمد بن عقيل نقيب الاشراف بدلة حريرى ثلاث قطع وفوطة. الشريف أنس الدولة متولى ديوان الإنشاء بدلة، كذلك ديوان المكاتبات الشيخ أبو الرضى ابن الشيخ الأجل أبى الحسن النائب عن والده فى الديوان المذكور بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع وكم. أبو المكارم هبة الله أخوه بدلة مذهبة ثلاث قطع وفوطة. أبو محمد حسن أخوهما، كذلك أخوهم أبو الفتح بدلة حريرى قطعتان وفوطة. الشيخ أبو الفضل يحيى بن سعيد الندمى منشيء ما يصدر عن ديوان المكاتبات، ومحرز ما يؤمر به من المهمات بدلة مذهبة عدتها ثلاث قطع وكم ومزنر. أبو سعيد الكاتب بدلة حريري. أبو الفضل الكاتب كذلك. الحاج موسى المعين فى الالصاق. كذلك.

وأما الكتاب بديوان الإنشاء فلم يتفق وجود الحساب الذى فيه أسماؤهم فيذكروا، ومن القياس أن يكونوا قريبا من ذلك الشيخ ولى الدولة. أبو البركات متولى ديوان المجلس والخاص بدلة مذهبة عدتها خمس قطع وكم وعرضي، ولامرأته حلة مذهبة. الشيخ أبو الفضائل هبة الله بن أبى الليث متولى الدفترة وما جمع إليه بدلة. أبو المجد ولده بدلة حريري. عدى الملك أبو البركات متولى دار الضيافة بدلة مذهبة، وبعده الضيوف الواردون إلى الدولة جميعهم. منهم من له بدلة مذهبة، ومنهم من له بدلة حريري،

وكذلك من يتفق حضورة من الرسل على هذا الحكم. مقدمو الركاب. عفيف الدولة. مقبل. بدلة مذهبة، القائد موفق والقائد تميم مثل ذلك. أربعة من المقدمين برسم الشكيمة لكل منهم بدلة حريري، الرواض عدتهم ثلاثة لكل منهم بدلة حريري. الخاص من الفراشين وهم اثنان وعشرون رجلا منهم أربعة مميزون لكل منهم بدلة مذهبة، وبقيتهم لكل واحد بدلة حريري، الأطباء. الشديد أبو الحسن على بن أبى الشديد بدلة حريري. أبو الفضل النسطورى بدلة حريري، وكذلك الفئة المستخدمون برسم الحكام وهم ثمانية. مقدمهم بدلة مذهبة وبقيتهم لكل واحد بدلة حريري. والى القاهرة ووالى مصر لكل منهما بدلة مذهبة. المستخدمون فى المواكب. الأمير كوكب الدولة حامل الرمح الشريف وراء الموكب والدرقة المعزية بدلة حريري. حاملا الرمحين المعزية أيضا أمام الموكب بغير درق لكل منهما منديل وشقة وفوطة، وهؤلاء الثلاثة رماح ما هى عربية بل هى خشوت قدم بها المعز من المغرب. حاملا لواء الحمد المختصان بالخليفة عن يمينه ويساره لكل منهما بدلة. متولى بغل الموكب الذى يحمل عليه جميع العدة المغربية بدلة حريري. متولى حمل المظلة. كذلك عشرة نفر من صبيان الخاص برسم حمل العشرة رماح العربية المغشاة بالديباج وراء الموكب لكل منهم منديل وشقة وفوطة. حامل السبع وراء الموكب بدلة حريري. المقدمون من صبيان الخاص وهم عشرون لكل منهم بدلة. عرفاء الفراشين الذين ينحطون عن فراشى الخاص وفراشى المجلس وفراشى خزائن الكسوة الخاص لكل منهم بدلة حريري. الفراشون فى خزائن الكسوات المستخدمون بالإيوان، وهم الذين يشدون ألوية الحمد بين يدى الخليفة ليلة الموسم فإنها لا تشد إلا بين يديه، ويبدأ هو باللف عليها بيده على سبيل البركة، ويكمل المستخدمون بقية شدها وما سوى ذلك من القضب الفضة وألوية الوزارة وغيرها، وعدتهم سبعة لكل منهم منديل سوسى وشقتان إسكندراني. المستخدمون برسم حمل القضب الفضة ولواءى الوزارة أربعة عشر، كذلك مشارف خزانة الطيب ـ وكانت من الخدم الجليلة ـ وكان بها أعلام الجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد، ويستدعى منها عند الحاجة، ويعاد إليها عند الغنى عنها، وكذلك السيف والثلاثة رماح المعزية. مشارف خزائن السروج بدلة حريري. مشارف خزائن الفرش، وكاتب بيت

المال ومشارف خزائن الشراب، ومشارف خزائن الكتب. كل منهم بدلة حريري. بركات الادمى والمستخدمون بالدولة بالباب، وسنان الدولة من الكركندى عن زم الرهجية، والمبيت على أبواب القصور، وكانت من الخدم الجليلة والصبيان الحجرية المشدون بلواء الموكب بعد المقربين، وعدتهم عشرون، لكل منهم الكسوة فى الشتاء والعيدين وغيرهما، وعدة الذين يقبضون الكسوة فى العيدين من الفراشين أكثر من صبيان الركاب، وذلك أنهم يتولون الأسمطة، ويقفون فى تقدمتها، وينفرد عنهم المستخدمون فى الركاب بما لهم من المتحصل فى المخلفات فى العيدين وهو ما مبلغه ستة آلاف دينار، ما لأحد معهم فيها نصيب، وكان يكتب فى كل كسوة هى برسم وجوه الدولة رقعة من ديوان الإنشاء، فمما كتب به من إنشاء ابن الصيرفى مقترنة بكسوة عيد الفطر من سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، ولم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب.. موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب.. مجزلا حظهم من منائحه ومواهبه.. موصلا إليهم من الحباء ما يقصر شكرهم عن حقه وواجبه.. وأنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه.. وأحراهم باستنشاق نسيمه.. وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضه وتقسيمه.. إذ كنت فى سماء المسابقة بدرا.. وفى جرائد المناصحة صدرا.. وممن أخلص فى الطاعة سرا وجهرا.. وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا.. ولما أقبل هذا العيد السعيد والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم.. ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم.. ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه.. وفى المواسم التى تجاريه.. بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال.. ولا يبقى بعدها مطمع للآمال.. وكنت من أخص الأمراء المقدمين. قال: ووصلت الكسوة المختصة بغرة شهر رمضان وجمعيته برسم الخليفة للغرة بدلة كبيرة موكبية مكملة مذهبة، وبرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حريرى مكملة منديلها، وطيلسانها بياض وبرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعري، وما هو برسم أخى الخليفة للغرة بدلة مذهبة مكملة موكبية وبرسم الجمعتين بدلتان حريري، ولم يكن لغير الخليفة وأخيه والوزير فى ذلك شيء، فيذكر. ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج، وهى برسم الخليفة تختان ضمنهما

بدلتان. احداهما منديلها وطيلسانها طميم برسم المضي، والأخرى جميعها حريرى برسم العود. وكذلك ما يختص بإخوته وجهاته بدلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبة، وبرسم الوزير بدلة موكبية مذهبة، فى تخت، وبرسم أولاده الثلاثة. ثلاث بدلا مذهبة، وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت، وبقية ما يخص المستخدمين وابن أبى الردّاد فى تخوت كل تخت عدة بدلات، وحضر متولى الدفتر واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة، وما يفرق ويفصل برسم الخلع، وما يخرج من حاصل الخزائن عن الواصل، وهو ما يفصل برسم الخاص من الغلمان برسم سبعمائة قباء وخمسمائة وشقين سقلاطون داري، وبرسم رؤساء العشاريات من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الحمر، وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الإسكندرانى والكلوتات، وقد تقدم تفصيل الكسوات جميعها، وعددها وأسماء المستمرين لقبضها.

وقال فى كتاب الذخائر وحدثنى من أثق به عن ابن عبد العزيز أنه قال: قوّمنا ما أخرج من خزائن القصر يعنى فى سنى الشدة أيام المستنصر من سائر ألوان الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة. أكثرها مذهب وسألت ابن عبد العزيز فقال: أخرج من الخزائن مما حررت قيمته على يدى وبحصرتى أكثر من ألف قطعة، وحدثنى أبو الفضل يحيي بن إبراهيم البغدادى أحد أصحاب الدواوين بالحضرة أن الذى تولى أبو سعيد النهاوندى المعروف بالمعتمد بيعه خاصة من مخرج القصر دون غيره من الأمناء فى مدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور، ويحكم منها ما يساوى الألف دينار إلى عشرة دنانير، ونيف وعشرون ألف قطعة خسرواني. وحدثنى عميد الملك أبو الحسن على بن عبد الكريم فخر الوزراء بن عبد الحاكم أن ناصر الدولة أرسل يطالب المستنصر بما بقى لغلمانه. فذكر أنه لم يبق عنده شيء إلا ملابسه فأخرج ثمانمائة بدلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة، فقومت وحملت إليه، وقال ابن الطوير: الخدمة فى خزائن الكسوات لها رتبة عظيمة فى المباشرات، وهما خزانتان. فالظاهرة يتولاها خاصة أكبر حواشى الخليفة. إما أستاذ أو غيره، وفيها من الحواصل ما يدل على إسباغ نعم الله تعالى على من يشاء من خلقه من الملابس. الشروب والخاص الديبقى الملونة رجالية ونسائية، والديباج الملونة والسقلاطون

وإليها يحمل ما يستعمل فى دار الطراز بتنيس ودمياط وإسكندرية من خاص المستعمل، وبها صاحب المقص وهو مقدم الخياطين، ولأصحابه مكان لخياطتهم، والتفصيل يعمل على مقدار الأوامر وما تدعو الحاجة إليه، ثم ينقل إلى خزانة الكسوة الباطنة ما هو خاص للباس الخليفة، ويتولاها امرأة تنعت بزين الخزان أبدا، وبين يديها ثلاثون جارية. فلا يغير الخليفة أبدا ثيابه إلا عندها، ولباسه خافيا الثياب الدارية، وسعة أكمامها سعة نصف أكمام الظاهر، وليس فى جهة من جهاته ثياب أصلا، ولا يلبس إلا من هذه الخزانة، وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطيء الخليج - يعنى أبدا فيه النسرين والياسمين. فيحمل فى كل يوم منه شيء فى الصيف والشتاء لا ينقطع ألبتة برسم الثياب والصناديق. فإذا كان أوان التفرقة الصيفية أو الشتوية شد لمن تقدم ذكره من أولاد الخليفة وجهاته وأقاربه وأرباب الرواتب والرسوم من كل صنف شدة على ترتيب المفروض، من شقق الديباج الملون والسقلاطون إلى السوسى والإسكندرانى على مقدار الفصول من الزمان ما يقرب من مائتى شدة. فالخواص فى العراضى الديبقى ودونهم فى أوطية حرير، ودونهم فى فوط إسكندرية، ويدخل فى ذلك كتاب ديوانى الإنشاء والمكاتبات دون غيرهم من الكتاب على مقدارهم و، ذلك يخرج من الجوارى فى الشهر المطلقات.

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة: بعد وفاة العاضد وكشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر. فقيل إن الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع، وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة، وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر، وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش.

خزائن الجوهر والطيب والطرائف

قال ابن المأمون: وكان بها الاعلام والجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد، ويستدعى منها عند الحاجة، ويعاد إليها عند الغنى عنها، وكذلك السيف الخاص والثلاثة

رماح المعزية، وقال فى كتاب الذخائر والتحف : وذكر بعض شيوخ دار الجوهر بمصر أنه استدعى يوما هو غيره من الجوهريين من أهل الخبرة بقيمة الجوهر إلى بعض خزائن القصر - يعنى فى أيام الشدة زمن المستنصر . فأخرج صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرذ قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار، وكان هناك جالسا فخر العرب بن حمدان وابن سنان وابن أبى كدينة وبعض المخالفين. فقال بعض من حضر من الوزراء المعطلين للجوهريين كم قيمة هذا الزمرذ. فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودا، ومثل هذا لا قيمة له ولا مثل، فاغتاظ وقال ابن أبى كدينة : فخر العرب كثير المؤنة وعليه خرج، فالتفت إلى كتاب الجيش وبيت المال فقال يحسب عليه فيه خمسمائة دينار فكتب ذلك وقبضه وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل من ثمانين ألف دينار فصاعدا فتحريا فيه. فقال يكتب بألفى دينار وتشاغلوا بنظر ما سواه وانقطع سلكه فتناثر حبه، فأخذ واحدمنهم واحدة فجعلها فى جيبة، وأخذ ابن أبى كدينة أخرى وأخذ فخر العرب بعض الحب وباقى المخالفين التقطوا ما بقى منه، وغاض كأن لم يكن وأخذ ما كان أنفذه الصليحى من نفيس الدر الرفيع الرائع وكيله على ما ذكر سبع ويبات، وأخذوا ألفا ومائتى خاتم ذهبا وفضة فصوصها من سائر أنواع الجوهر المختلف الألوان والقيم والأثمان والأنواع، مما كان لأجداده وله، وصار إليه، من وجوه دولته. منها ثلاثة خواتم ذهب مربعة عليها ثلاثة فصوص أحدها زمرذ والاثنان ياقوت سماقى ورمانى بيعت باثنى عشر ألف دينار بعد ذلك، وأحضر خريطة فيها نحو ويبة جوهر وأحضر الخبراء من الجوهريين وتقدم إليهم بقيمتها، فذكروا أن لا قيمة لها، ولا يشترى مثلها إلا الملوك، فقومت بعشرين ألف دينار فدخل جوهر الكاتب المعروف بالمختار عز الملك إلى المستنصر وأعلمه أن هذا الجوهر اشتراه جده بسبعمائة ألف دينار واسترخصه، فتقدم بإنفاقه فى الاتراك فقبض كل واحد منهم جزء بقيمة الوقت، وفرق عليهم. قال : فأما ما أخذ مما فى خزائن البلور والمحكم والمينا المجرى بالذهب والمجرود والبغدادى والخيار والمدهون والخلنج والعينى والدهيمى والأمدي، وخزائن الفرش والبسط والستور والتعاليق فلا يحصى كثرة. وحدثنى من أثق به من المستخدمين فى بيت المال أنه أخرج يوما فى جملة ما أخرج من خزائن القصر عدة صناديق، وأن واحدا

منها فتح فوجد فيه على مثال كيزان الفقاع من صافى البلور المنقوش والمجرود شيء كثير ، وأن جميعها مملوء من ذلك وغيره ، وحدثنى من أثق به أنه رأى قدح بلور بيع مجرودا بمائتين وعشرين دينارا ، ورأى خردادى بلور بيع بثلثمائة وستين دينارا ، وكوز بلور بيع بمائتين وعشرة دنانير ، ورأى صحون مينا كثيرة تباع من المائة دينار إلى ما دونها ، وحدثنى من أثق بقوله أنه رأى بطرابلس قطعتين من البلور الساذج الغاية فى النقاء وحسن الصنعة . إحداهما خردادى والأخرى باطية مكتوب على جانب كل واحدة منها اسم العزيز بالله تسع الباطية سبعة أرطال بالمصرى ماء ، والخردادى تسعة وأنه عرضهما على جلال الملك أبى الحسن على ابن عمار فدفع فيهما ثمانمائة دينار فامتنع من بيعهما ، وكان اشتراهما من مصر من جملة ما أخرج من الخزائن ، وأن الذى تولى بيعه أبو سعيد النهاوندى من مخرج القصر دون غيره من الأمناء فى مدة يسيرة ثمانية عشر ألف قطعة من بلور ، ويحكم منها ما يساوى الألف دينار إلى عشرة دنانير ، وأخرج من صوانى الذهب المجراة بالمينا وغير المجراة المنقوشة بسائر أنواع النقوش المملوء جميعها من سائر أنواعه وألوانه وأجناسه شيء كثير جدا ، ووجد فيما وجد غلف خيار مبطنة بالحرير محلاة بالذهب مختلفة الأشكال . خالية مما فيها من الأواني . عدتها سبعة عشر ألف غلاف ، كان فى كل قطعة . إما بلور مجرود أو محكم أو ما يشاكله ، ووجد أكثر من مائة كاس بادزهر ونصب وأشباهها على أكثرها اسم هارون الرشيد وغيره ، ووجد فى خزائن القصر عدة صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنصب مختلفة من سائر الجواهر ، وصناديق كثيرة مملوءة من أنواع الدوى المربعة والمدورة والصغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصندل والعود والأبنوس الزبجى والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاة بالجوهر والذهب والفضة وسائر الأنواع الغريبة والصنعة المعجزة الدقيقة بجميع آلاتها ، فيها ما يساوى الألف دينار والأكثر والأقل ، سوى ما عليها من الجواهر ، وصناديق مملوءة مشارب ذهب وفضة مخرقة بالسواد . صغار وكبار مصنوعة بأحسن ما يكون من الصنعة وعدة أزيار صينى كبار مختلفة الألوان مملوءة كافورا قيصوريا ، وعدة من جماجم العنبر الشحرى ونوافج المسك التبتى وقواريره وشجر العود وقطعه ، ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ما

قيمته ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار من جملته ثلاثون ثوب خز مقطوع، واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا، ومائة قاطرمين مملوءة كافورا قيصوريا، ومما وجد لها معممات بجواهرها من أيام المعز وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذى مات فيه بطوس، وكان من ولى من الخلفاء ينتظرون وفاتها فلم يقض ذلك إلا للمستنصر بالله فحازه فى خزانته، ووجد لعبدة بنت المعز أيضا، وماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة مالا يحصي. حدثنى بعض خزان القصر أن خزائن السيدة عبدة ومقاصيرها وصناديقها، وما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع فى خواتيمه على الصحة والمشاهدة أربعون رطلا بالمصري، وأن بطائق المتاع الموجود كتبت فى ثلاثين رزمة ورق، ومما وجد لها أيضا أربعمائة قمطرة وألف وثلاثمائة قطعة مينا فضة مخرقة زنة كل مينا عشرة آلاف درهم، وأربعمائة سيف محلى بالذهب، وثلاثون ألف شقة صقلية، ومن الجوهر ما لا يحد كثرة وزمرد كيله أردب واحد، وأن سيد الوزراء أبا محمد البازورى وجد فى موجوداتها طستا وإبريقا، فلفرط استحسانه لهما سأل المستنصر فيهما فوهبهما له، ووجد مدهن ياقوت أحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا، وأخرج أيضا تسعون طستا وتسعون إبريقا من صافى البلور، ووجد فى القصر خزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى منها أجاجين صينى كبار محلاة. كل أجانة منها على ثلاثة أرجل على صورة الوحوش والسباع. قيمة كل قطعة منها ألف دينار معمولة لغسل الثياب، ووجد عدة أقفاص مملوءة ببيض صينى معمول على هيئة البيض فى خلقته وبياضه يجعل فيها ماء البيض النيمبرشت يوم الفصاد، ووجد حصير ذهب وزنها ثمانية عشر رطلا ذكر أنها الحصير التى جليت عليها بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون، وأخرج ثمان وعشرون صينية مينا مجرا بالذهب بكعوب. كان أرسلها ملك الروم إلى العزيز بالله قومت كل صينية منها بثلاثة آلاف دينار. أنفذ جميعها إلى ناصر الدولة، ووجد عدة صناديق مملوءة مراءى حديد من صيني، ومن زجاج المينا لا يحصى ما فيها كثرة. جميعها محلى بالذهب المشبك والفضة، ومنها المكلل بالجوهر فى غلف الكيمخت، وسائر أنواع الحرير والخيزران وغيره مضبب بالذهب والفضة، ولها المقابض من العقيق وغيره، وأخرج من المظال وقضبها الفضة والذهب شيء كثير، وأخرج من

خزائن الفضة ما يقارب الألف درهم من الآلات المصنوعة من الفضة المجراة بالذهب. فيها ما زنة القطعة الواحدة منه خمسة آلاف درهم الغريبة النقش والصنعة التى تساوى خمسة دراهم بدينار، وأن جميعه بيع كل عشرين درهما بدينار، سوى ما أخذ من العشاريات الموكبية وأعمدة الخيام وقضب المظال والمتحوقات والأعلام والقناديل والصناديق والتوقات والروازين والسروج واللجم والمناطق التى للعمايرات والقباب وغيرها مثل ذلك وأضعافه، وأخرج من الشطرنج والنرد المعمولة من سائر أنواع الجوهر والذهب والفضة والعاج والأبنوس برقاع الحرير والمذهب ما لا يحد كثرة ونفاسة، وأخرج آلات فضة وزنها ثلثمائة ألف ونيف وأربعون ألف درهم. تساوى ستة دراهم بدينار، وأخرج أقفاص مملوءة من سائر آلات مصوغة مجراة بالذهب. عدتها أربعمائة قفص كبار سبكت جميعها وفرقت على المخالفين، وأخرجت أربعة آلاف نرجسية مجوفة بالذهب يعمل فيها النرجس وألفا بنفسجية كذلك، وأخرج من خزانة الطرائف ستة وثلاثون ألف قطعة من محكم وبلور، وقوم السكاكين بأقل القيم. فجاءت قيمتها على ذلك ستة وثلاثين ألف دينار وأخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة، أقل تمثال منها وزنه اثنا عشر منا، وأكبره يجاوز ذلك، ومن تماثيل الخليفة ما لا يحد. من جملتها ثمانمائة بطيخة كافور، وأخرجت الكلوتة المرصعة بالجوهر، وكانت من غريب ما فى القصر ونفيسه. ذكر أن قيمتها ثلاثون ألف دينار ومائة ألف دينار قومت بثمانين ألف دينار، وكان وزن ما فيها من الجوهر سبعة عشر رطلا، اقتسمها فخر العرب وتاج الملوك فصار إلى فخر العرب منها قطعة بلخش، وزنها ثلاثة وعشرون مثقالا، وصار إلى تاج الدين مما وقع إليه حبات در كل حبة. ثلاثة مثاقيل عدتها مائة حبة فلما كانت هزيمتهم من مصر نهبت، وأخرج من خزائن الطيب خمسة صوارى عود هندي، كل واحد من تسعة أذرع، إلى عشرة أذرع وكافور قيصورى زنة كل حبة من خمسة مثاقيل إلى ما دونها، وقطع عنبر وزن القطعة ثلاثة آلاف مثقال وأخرج متارد صينى محمولة على ثلاثة أرجل ملء كل وعاء منها مائتا رطل من الطعام، وعدة قطع شب وبادزهر. منها جام سعته ثلاثة أشبار ونصف، وعمقه شبر. مليح الصنعة وقاطر ميز بلور فيه صور ثابتة تسع سبعة عشر رطلا، وبلوجة بلور مجرود

تسع عشرين رطلا، وقصرية نصب كبيرة جدا، وطابع ند فيه ألف مثقال. كان فخر الدولة أبو الحسن على بن ركن الدولة بن بويه الديلمى عمله مكتوب فى وسطه فخر الدولة شمس الملة وأبيات منها:

ومن يكن شمس أهل الأرض قاطبة

فنــده طـــابع من ألف مثقـال

وطاووس ذهب مرصع بنفيس الجوهر. عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب على ألوان ريش الطاوس. وديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر ما يكون من أعراف الديوك من الياقوت الأحمر مرصع بسائر الدر والجوهر، وعيناه ياقوت، وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر وبطنه أبيض قد نظم من در رائع، ومجمع سكارج من بلور تخرج منه وتعود فيه فتحته أربعة أشبار. مليح الصنعة فى غلاف خيزران وبطيخة من الكافور فى شباك ذهب مرصعة. وزنها خالصة سبعون مثقالا من كافور. وقطعة عنبر تسمى الخروف وزنها سوى ما يمسكها من الذهب ثمانون منا. وبطيخة كافور أيضا وجد ما عليها من الذهب ثلاثة آلاف مثقال، ومائدة نصب كبيرة واسعة. قوائمها منها، وبيضة بلخش وزنها سبعة وعشرون مثقالا أشد صفاء من الياقوت الأحمر، وقاطرميز بلور مليح التقدير يسع مروقتين قوم فى المخرج بثمانمائة دينار. دفع إلى تاج الملوك فيه بعد ذلك ألفا دينار، فامتنع عن بيعه، ومائدة جزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة منها، ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر فى أجانة ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لا قيمة لها، وكوز زير بلور يحمل عشرة أرطال ماء، ودارج مرصع بنفيس الجوهر لا قيمة له، ومزيرة مكللة بحب لؤلؤ نفيس، وقبة العشارى وكارته وكسوة رحله الذى استعمله على بن أحمد الجرجراي، وفيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا، وسبعمائة درهم نقرة، وأطلق للصناع عن أجرة صياغته وثمن ذهب للطلاء ألفان وتسعمائة دينار، وكان سعر الفضة حينئذ كل مائة درهم بستة دنانير وربع، سعر ستة عشر درهما بدينار، وأخرج العشارى الفضى الذى استعمله على بن أحمد لأم المستنصر، وكان فيه مائة ألف وعشرون ألف درهم نقرة، وصرف أجرة

صياغة وطلاء ألفان وأربعمائة دينار وكسوة بمال جليل، وأخرج جميع كسا العشاريات التى برسم البرية والبحرية وعدتها ومناطقها، ورؤوس منحرفات وأهله وصفريات، وكانت أربعمائة ألف دينار لستة وثلاثين عشاريا، وعدة مياكيم فضة. فيها ما وزنه مائة وتسعة أرطال فضة، وأخرج بستان أرضه فضة مخرقة مذهبة وطينه ند، وأشجاره فضة مذهبة مصوغة، وأثماره عنبر وغيره، وزنه ثلاثمائة وستة أرطال، وبطيخة كافور وزنها ستة عشر ألف مثقال، وقطع ياقوت أزرق زنة كل قطعة سبعون درهما، وقطع زمرذ زنة كل قطعة ثمانون درهما، ونصاب مرآة من زمرذ له طول وثخن، كل ذلك أخذه المخالفون.

خزائن الفرش والأمتعة

قال فى كتاب الذخائر: وحدثنى من أثق به عن ابن عبد العزيز الأنماطى قال: قومنا ما أخرج من خزائن القصر من سائر الخسروانى ما يزيد على خمسين ألف قطعة. أكثرها، مذهب وسألت ابن عبد العزيز فقال: أخرج من الخزائن ما حررت قيمته على يدى وبحضرتى أكثر من مائة ألف قطعة، وأخرج مرتبة خسراونى حمراء بيعت بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار، ومرتبة قلمونى بيعت بألفين وأربعمائة دينار، وثلاثون سندسية بيعت كل واحدة منها بثلاثين دينارا، ونيف وعشرون ألف قطعة خسروانى فى هدبه لم يقطع منها شىء وكانت قيمة الغرض المبيع بأقل القيم وأبرز الأثمان فى مدة خمسة عشر يوما من صفر سنة ستين وأربعمائة سوى ما نهب، وسرق ثلاثون ألف ألف دينار قبض جميعها الجند والأتراك ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق. وحدثنى الأمير أبو الحسن على بن الحسن أحد مقدمى الخيميين بالقصر أن الفراشين دخلوا إلى بعض خزائن الفرش لما اشتدت مطالبة المارقى للمستنصر بالمال إلى الخزانة المعروفة بخزانة الرفوف، وسميت بذلك لكثرة رفوفها ولكل رف منها سلم مفرد فأنزلوا منها ألفى عدل شقق طميم بهدبها من

سائر أنواع الخسرواني وغيره لم تستعمل بعد، وجميع ما فيه أمذهب معمول بسائر الأشكال والصور وأنهم فتحوا عدلا منها فوجدوا ما فيه أجلة معمولة للفيلة من خسرواني أحمر مذهب، كأحسن ما يكون من العمل وموضع نزول أفخاذ الفيل ورجليه ساذجة بغير ذهب، وأخرج من بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض في هدبها لم يفصل من كسا بيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها، وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه وعتبه ومقاطعه وستوره، وكل ما يحتاج إليه فيه. قال: وأخرج من خزائن الفرش من البيوت الكاملة الفرش من القلموني والديبقي من سائر ألوانه وأنواعه المخمل والخسرواني والديباج الملكي والخز وسائر الحرير من جميع ألوانه وأنواعه ما لا يحصى كثرة، ولا يعرف قدره نفاسة، وأخرج من الحصر والانخاخ السامان المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة من المخرمة والطيور والفيلة المصورة بسائر أنواع الصور شيء كثير، والتمس بعض الأتراك من المستنصر مقرمة يعني ستارة سندس أخضر مذهبة. فأخرج عدل منها مكتوب عليه مائة وثمانية وثمانون من جملة أعداد أعدال فيها من المتاع، ووجد من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها عدة مئين تقارب الألف. فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب على صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله، وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه، وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد باقية على حالها لم تمس، وصار إلى فخر العرب مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير، كان المعز لدين الله أمر بعمله في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه جغرافيا، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، وفي آخره: «مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا إلى حرم الله وإشهارا لمعالم رسول الله، في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة» والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار، وصار إلى تاج الملوك بيت أرمني أحمر منسوج بالذهب عمل للمتوكل على الله لا مثل له ولا قيمة، وبساط خسرواني دفع إليه فيه ألف

دينار فامتنع من بيعه، وقال ابن الطوير: خزانة الفرش. وهى قريبة من باب الملك يحضر إليها الخليفة من غير جلوس ويطوف فيها ويستخبر عن أحوالها، ويأمر بإدامة الاستعمال، وكان من حقوقها استعمال السامان فى أماكن خارجها بالقاهرة ومصر ويعطى مستخدمها خمسة عشر دينارا - يعنى يوم يطوف بها الخليفة.

خزائن السلاح

قال فى كتاب الذخائر: فأما خزائن السيوف والآلات والسلاح فإن بعضها أخذ وقسم بين العشرة الثائرين على المستنصر وهم ناصر الدولة بن حمدان وأخواه، وبلدكوس، وابن سبكتكين، وسلام عليك، وشاور بن حسين، حتى صار ذو الفقار إلى تاج الملوك وصمصامة عمرو بن معدى كرب وسيف عبد الله بن وهب الراسى وسيف كافور وسيف المعز وسيف أبى المعز إلى الأعز بن سنان، ودرع المعز لدين الله وكانت تساوى ألف دينار وسيف الحسين ابن على بن أبى طالب عليهما السلام، ودرقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وسيف جعفر الصادق رضى الله عنه ومن الخود والدروع والتخافيف والسيوف المحلاة بالذهب والفضة والسيوف الحديدية وصناديق النصول وجعاب السهام الخلنج وصناديق القسى ورزم الرماح الزان الخطية وشدات القسى الطوال والزرد والبيض مئين ألوف، وكان كل صنف مفردا عشرات ألوف.

وقال ابن الطوير: خزانة السلاح يدخل إليها الخليفة ويطوفها قبل جلوسه على السرير هناك. ويتأمل حواصلها من الكراغندات المدفونة بالزرد المغشاة بالديباج المحكمة الصناعة، والجواشن المبطنة المذهبة والزرديات السابلة برؤوسها، والخود المحلاة بالفضة، وكذلك أكثر الزرديات والسيوف على اختلافها من العربيات والقلجوريات والرماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة والأسنة البرصانية، والقسى لرماية اليد المنسوبة إلى صناعها مثل الخطوط المنسوبة إلى أربابها. فيحضر إليه منها ما يجربه، ويتأمل النشاب وكانت

نصوله مثلثة الأركان على اختلافها ثم قسى الرجل والركاب، وقسى اللولب الذى زنة نصله خمسة أرطال، ويرمى من كل سهم بين يديه، فينظر كيف مجراه، والنشاب الذى يقال له الجراد وطوله شبر يرمى به عن قسى فى مجال معمولة برسمه، فلا يدرى به الفارس أو الراجل إلا وقد نفذ، فإذا فرغ من نظر ذلك كله خرج من خزانة الدرق، وكانت فى المكان الذى هو خان مسرور وهى برسم الاستعمالات للأساطيل من الكبورة الخرجية، والخود الجلودية إلى غير ذلك، فيعطى مستخدمها خمسة وعشرون دينارا ويخلع على متقدم الاستعمالات جوكانية مزيدة حريرا وعمامة لطيفة.

خزائن السروج

قال فى كتاب الذخائر: أخرج فيما أخرج صناديق سروج محلاة بفضة مجراة بسواد ممسوحة ـ وجد على صندوق منها الثامن والتسعون والثلاثمائة وعدة ما فيها زيادة على أربعة آلاف سرج وأخرج المستنصر من خزائن السروج خمسة آلاف سرج. كان أبو سعد إبراهيم ابن سهل التسترى ادخرها فيها وتقدم بحفظها، كل سرج منها يساوى من سبعة آلاف دينار إلى ألف وأكثرها عال سبك، جميعها وفرق فى الأتراك. كان برسم ركابه منها أربعة آلاف سرج، وأخذ من خزائن السيدة والدته أربعة آلاف سرج مثلها ودونها صنع بها مثل ذلك.

وقال ابن الطوير خزانة السروج تحتوى على ما لا يحتوى عليه مملكة من الممالك، وهى قاعة كبيرة بدورها مصطبة، علوها ذراع، ومجالسها كذلك، وعلى تلك المصطبة متكآت مخلصة الجانبين. على كل متكأ ثلاثة سروج متطابقة، وفوقه فى الحائط وتد مدهون مضروب فى الحائط قبل تبييضه، وهو بارز بروزا متكئا عليه المركبات الحلى على لجم، تلك السروج الثلاثة من الذهب خاصة، أو الفضة خاصة أو الذهب والفضة وقلائدها وأطواقها لأعناق الخيل، وهى لخاص الخليفة وأرباب الرتب ما يزيد على ألف سرج،

ومنها لجام هو الخاص ومنها الوسط ومنها الدون، وهى خيار غيرها برسم العوارى لأرباب الرتب والخدم، ومنها ما هو قريب من الخاص. فيكون عند المستخدم بشداده الدائم، وجاريه على الخليفة ما دام مستخدما، والعلف مطلق من الأهراء، وأما الصاغة فإن فيها منهم ومن المركبين والخرازين عددا جما دائمين لا يفترون عن العمل، وكل مجلس مضبوط بعد متكآته، وما عليها من السروج والأوتاد واللجم وكل مجلس لذلك عند مستخدميه فى العرض. فلا يختل عليهم منها شىء، وكذلك وسط قاعتها بعدة متوالية أيضا. والشدادون مطلبون بالنقائص منها أيام المواسم، وهم يحضرونها أو قيمتها فيعرض ويركب ويحضر إليها الخليفة ويطوفها من غير جلوس، ويعطى حاميها للتفرقة فى المستخدمين عشرين دينارا، ويقال إن الحافظ لدين الله عرضت له فيها حاجة فجاء إليها مع الحامى فوجد الشاهد غير حاضر، وختمه عليها فرجع إلى مكانه وقال لا يفك ختم العدل إلا هو ونحن نعود فى وقت حضوره. انتهى، وكان الخليفة الآمر بأحكام الله تحدثه نفسه بالسفر إلى المشرق والغارة على بغداد. فأعد لذلك سروجا مجوفة القرابيص، وبطنها بصفائح من قصدير ليجعل فيها الماء، وجعل لها فما فيه صفارة، فإذا دعت الحاجة إلى االماء شرب منه الفارس، وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء، وعمل عدة مخال للخيل من ديباج وقال فى ذلك:

دع اللوم عنى لست منى بموثق

فلابد لى من صدمة المتحقق

وأسقى جيادى من فرات ودجلة

وأجمع شمل الدين بعد التفرق

وأول من ركب المتصرفين فى دولته من خيوله بالمراكب الذهب فى المواسم العزيز بالله نزار بن المعز.

خزائن الخيم

قال فى كتاب الذخائر : وأخبرنى سماء الرؤساء أبو الحسن على بن أحمد بن مدبر وزير ناصر الدولة . قال : أخرج فيما أخرج من خزائن القصر عدة لم تحص من أعدال الخيم والمضارب والفازات والمسطحات والجركاوات والحصون والقصور والشراعات والمشارع والفساطيط المعمولة من الديبقى والمخمل والخسروانى والديباج الملكى والأرمنى والبهنساوى والكردوانى والجيد من الحلى ، وما أشبه ذلك من سائر ألوانه وأنواعه وأنواعه ، ومن السندس والطميم أيضا . منها المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير ، وغير ذلك من سائر الوحوش والطير والآدميين من سائر الأشكال والصور البديعة الرائعة ، ومنها الساذج والمنقوش فى ظاهره بغرائب النقوش بجميع آلاتها من الأعمدة الملبسة أنابيب الفضة ، والثياب المذهبة وغير المذهبة من سائر أنواعها وألوانها والصفريات الفضة على أقدارها ، والحبال الملبسة القطن والحرير والأوتاد وسائر ما يحتاج إليه من جميع آلاتها وعدتها ، المبطون جميعها بالديبقى الطميم المذهب والخسروانى المذهب ، وثياب الحرير الصينى والتسترى والمضبب والرجيح والشرفى والشعرى والديباج والمريش وسائر أنواع الحرير من سائر الألوان وأنواعها كبارا وصغارا ، منها ما يحمل خرقه وأوتاده وعمده وسائر عدته على عشرين بعيرا ، ودون ذلك وفوقه ، فالمسطح بيت مربع له أربعة حيطان وسقف بستة أعمدة . منها عمودان للحائط الواحد المرفوع للدخول والخروج ، والخيمة ظهرها حائط مربع وسقيفتها إلى الباب حائط مربع وأركانها شوارك من الجانبين على قدر القائم ، وفيها أربعة أعمدة اثنان فى الباب ، واثنان فى وسطها ، وكلما زادت زاد عمدها وسقفها ، ولها حدان مشروكان من الجانبين ، والشراع حائط فى الظهر مسقف على الرأس بعمودين من أى موضع دارت الشمس حول إلى ناحية الشمس ، والمشرعة فيه مثل المظلة على عمود واحد تام ، وشراع سابل خلفها من أى موضع دارت الشمس أدير والقبة على حالها .

وحدثنى أبو الحسن على بن الحسن الخيمى قال : أخرجنا فى جملة ما أخرج من خزائن القصر أيام المارقين حين اشتدت المطالبة على السلطات فسطاطا كبيرا أكبر ما يكون ، يسمى

المدورة الكبيرة يقوم على فرد عمود طوله خمسة وستون ذراعا بالكبير، ودائر فلكته عشرون ذراعا، وقطرها ستة أذرع وثلثا ذراع، ودائره خمسمائة ذراع، وعدة قطع خرقه أربع وستون قطعة. كل قطعة منها تحزم فى عدل واحد يجمع بعضه إلى بعض بعرى وشراريب حتى ينصب يحمل خرقه وحباله وعدته على مائة جمل، وفى صفريته المعمولة من الفضة ثلاثة قناطير مصرية، يحملها من داخلها قضبان حديد من سائر نواحيها تمتلىء ماء من راوية جمل، قد صور فى رفرفه كل صورة حيوان فى الأرض، وكل عقد مليح وشكل ظريف، وفيه باذهنج طوله ثلاثون ذراعا فى أعلاه. كان أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن البازورى أمر بعمله أيام وزارته، فعمله الصناع وعدتهم مائة وخمسون صانعا فى مدة تسع سنين، واشتملت النفقة عليه على ثلاثين ألف دينار، وكان عمله على مثال القاتول الذى كان العزيز بالله أمر بعمله أيام خلافته إلا أن هذا أعلى عمودا منه، وأوسع وأعظم وأحسن، وكان الخليفة أنفذ إلى ملك الروم فى طلب عمودين للفسطاط طول كل واحد منهما سبعون ذراعا بعد أن غرم عليهما ألف دينار، أحدهما فى هذا الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع، والآخر حمله ناصر الدولة بن حمدان حين خرج على الخليفة المستنصر بالله إلى الإسكندرية، وما أدرى ما فعل به. قال: وأقمنا مدة طويلة فى تفصيل بعضه من بعض وتقطيعه خرقا وشققا قومت على المذكورين بأقل القيم، وتفرق فى الآفاق. وقال لى أيضا: أخرجنا مسطحا قلمونيا مخملا موجها من جانبيه عمل بتنيس للعزيز بالله، يسمى دار البطيخ وسطه بكنيس على ستة أعمدة. أربعة منها فى أركان الكنيس، وفى أربعة الأركان أربع قباب، ومن القبة إلى القبة رواق دائر عليه، والقباب دونه، وفى كل قبة أربعة أعمدة طول كل عمود من أعمدة الكنيس ثمانية عشر ذراعا، وكذلك طول قائم القباب. وفعلنا به مثل ما فعلنا فى الأول. وقال لى أخرجنا مسطحا عمل للظاهر لإعزاز دين الله بتنيس ذهب فى ذهب طميم. قائم على عمود له ست صفارى بلور، وستة أعمدة فضة أنفق عليه أربعة عشر ألف دينار، ومسطحا ديبقيا كبيرا مذهبا بدوائر كردوانى منقوش، وأخرجنا قصورا تحيط بالخيام بشرفات من المخمل والقلمونى والديبقى والديباج الخسروانى والحرير من سائر أنواعه وألوانه المذهبة المنقوشة

بحياضها ودككها ومصاطبها وقدورها وزجاجها وسائر عددها، وأخرجنا من الخيام الكردوانى شيئا كثيرا، وأخرجنا خيمة كبيرة مدورة كردوانى مليحة النقش والصنعة. عدتها قطع كثيرة. طول عمودها خمسة وثلاثون ذراعا، فعلنا بجميعها مثل ما فعلنا بالأول، وأخرج فى جملتها الفسطاط الكبير. المعروف بالمدورة الكبيرة المتولى عمله بحلب الحسن على بن أحمد المعروف بابن الأيسر فى سنى نيف وأربعين وأربعمائة المنفق على خرقه ونقشه وعمله، وعدته ثلاثون ألف دينار. الذى عموده أطول ما يكون من صوارى درامين الروم البنادقة أربعون ذراعا، ودائر فلكة عموده أربعة وعشرون شبرا، ويحمل على سبعين جملا، ووزن صفريته الفضة قنطاران. سوى أنابيب عمده، ويتولى اتقان عمده ونصبه مائتا رجل من فراش ومعين، وهو شبيه بالقاتول العزيزى وسمى بالقاتول لأنه ما نصب قط إلا وقتل رجلا أو رجلين ممن يتولى اتقانه من فراش وغيره. قال: ووجد فى خزائن مملوءة من سائر أنواع الصوانى المدهونة ببغداد المذهبة التى حشيت كل واحدة منها بما دونها فى السعة إلى ما سعته دون الدرهم، ومن سائر أنواع الأطباق الخلع الرازى فى هذه السعة. وفوق ذلك ودونه قد حشيت بطونها بما دونها فى السعةإلى ما سعته دون الدينار، ومن الموائد القوائمية الصغار والكبار ألوف، ومن موائد الكرم وماأشبهها شىء كثير، ومن الجفان الحور الواسعة التى قد عملت مقابضها من الفضة، وحليت بأنواع الحلى التى لا يقدر الجمل القوى على حمل جفنتين منها لعظمها، تساوى الواحدة منها مائة دينار، وفوقها ودونها شىء كثير ووجد من الدكك والمحاريب والأسرة العود والصندل والعاج والأبنوس والبقم شىء كثير مليح الصنعة.

وقال ابن ميسر: وعمل الأفضل بن أمير الجيوش خيمة سماها خيمة الفرح. اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع، وقائمها ارتفاعه خمسون ذراعا بذراع العمل، صرف عليها عشرة آلاف، ومدحها جماعة من الشعراء.

خزانة الشراب

قال ابن المأمون: ولم يكن فى الإيوان فيما تقدم شراب حلو. بل إنها قررت لاستقبال النظر المأمونى، وأطلق لها من السكر مائة وخمسة عشر قنطارا، وبرسم الورد المربى خمسة عشر قنطارا وأما ما يستعمل بالكافورى من الحلو الفانيد والحامض، فالمبلغ فى ذلك على ما حصره شاهده فى السنة. ستة آلاف وخمسمائة دينار، وما يحمل للكافورى أيضا برسم كرك الماورد ما يستدعيه متولى الشراب.

وقال ابن الطوير: خزانة الشراب. وهى أحد مجالسه أيضا - يعنى القاعة التى هى الآن المارستان العتيق. فإذا جلس الخليفة على السرير عرض عليه ما فيها حاميها، وهو من كبار الأستاذين وشاهدها. فيحضر إليه فراشوها بين يدى مستخدمها من عيون الأصناف العالية من المعاجين العجيبة فى الصينى والطيافير الخلنج. فيذوق ذلك شاهدها بحضرته ويستخبر عن أحوالها بحضور أطباء الخاص. وفيها من الآلات والازيار الصينى والبرابى عدة عظيمة للورد والبنفسج والمرسين، وأصناف الأدوية من الراوند الصينى وما يجرى مجراه، مما لا يقدر أحد على مثله إلا هناك. وما يدخل فى الأدوية من آلات العطر إلى ذلك، ويسأل عن الدرياق الفاروق، ويأمرهم بتحصيل أصنافه ليستدرك عمله قبل انقطاع الحاصل منه، ويؤكد فى ذلك تأكيدا عظيما ويستأذن على ما يطلق منها برقاع أطباء الخاص للجهات وحواشى القصر. فيأذن فى ذلك ويعطى الحامى للتفرقة فى الجماعة ثلاثين دينارا.

خزانة التوابل

وقال ابن المأمون: فأما التوابل العالى منها والدون فإنها جملة كثيرة، ولم يقع لى شاهد بها. بل إننى اجتمعت بأحد من كان مستخدما فى خزانة التوابل، فذكر أنها تشتمل على

خمسين ألف دينار في السنة ، وذلك خارج عما يحمل من البقولات ، وهي باب مفرد مع المستخدم في الكافوري ، والذي استقر إطلاقه على حكم الاستيمار من الجرايات المختصة بالقصور والرواتب المستجدة والمطلق من الطيب ، ويذكر الطراز وما يبتاع من الثغور ويستعمل بها وغير ذلك . فأولها جراية القصور وما يطلق لها من بيت المال إدرارا لاستقبال النظر المأموني ستة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وأربعون دينارا تفصيله منديل الكم الخاص الآمري في الشهر ثلاثة آلاف دينار . عن مائة دينار كل يوم أربع جمع الحمام . في كل جمعة مائة دينار ، أربعمائة دينار وبرسم الإخوة والاخوات ، والسيدة الملكة والسيدات والأمير أبي علي وإخوته والموالي والمستخدمات ومن استجد من الأفضليات ألفان وتسعمائة وثلاثة وأربعون دينارا ، ولم يكن للقصور في الأيام الأفضلية من الطيب راتب فيذكر ، بل كان إذا وصلت الهدية والجاوي من البلاد اليمنية تحمل برمتها إلى الإيوان فينقل منها بعد ذلك للأفضل ، والطيب المطلق للخليفة من جملتها ، فانفسخ هذا الحكم وصار المرتب من الطيب مياومة ومشاهرة على ما يأتي ذكره ما هو برسم الخاص الشريف . في كل شهر ند مثلث ثلاثون مثقالا عود صيفي . مائة وخمسة دراهم كافور قديم خمسة عشر درهما عنبر خام . عشرة مثاقيل زعفران . عشرون درهما ماء ورد . ثلاثون رطلا برسم بخور المجلس الشريف في كل شهر في أيام السلام ند مثلث عشرة مثاقيل . عود صيفي عشرون درهما . كافور قديم ثمانية دراهم . زعفران شعر عشرة دراهم . ما هو برسم بخور الحمام في كل ليلة جمعة عن أربع جمع في الشهر . ند مثلث أربعة مثاقيل . عود صيفي عشرة مثاقيل . ما هو برسم السيدات والجهات والإخوة في كل شهر . ند مثلث خمسة وثلاثون مثقالا . عود صيفي مائة وعشرون درهما . زعفران شعر خمسون درهما . عنبر خام عشرون مثقالا . كافور قديم عشرون درهما . مسك خمسة عشر مثقالا . ماء ورد أربعون رطلا . ما هو برسم المائدة الشريفة ما تستلمه المعلمة . مسك خمسة عشر مثقالا . ماء ورد خمسة عشر رطلا . ما هو برسم خزانة الشراب الخاص . مسك ثلاثة مثاقيل . ند مثلث سبعة مثاقيل . عود صيفي خمسة وثلاثون درهما . ماء ورد عشرون رطلا . ما هو برسم بخور المواكب الستة ، وهي الجمعتان الكائنتان في شهر رمضان برسم الجامعين

بالقاهرة - يعنى الجامع الأزهر والجامع الحاكمى والعيدان وعيد الغدير وأول السنة بالجوامع والمصلى. ند خاص جملة كثيرة لم تتحقق فتذكر، ولم يكن للغرتين - غرة السنة وغرة شهر رمضان وفتح الخليج بخور فيذكر، وعدة المبخرين فى المواكب ستة. ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال، وكل منهم مشدود الوسط، وفى كمه فحم برسم تعجيل المدخنة، والمداخن فضة وحامل الدرج الفضة الذى فيه البخور أحد مقدمى بيت المال، وهو فيما بين المبخرين طول الطريق، ويضع بيده البخور فى المدخنة وإذا مات أحد هؤلاء المبخرين لا يخدم عوضا عنه إلا من يتبرع بمدخنة فضة. لأن لهم رسوما كثيرة فى المواسم مع قربهم فى المواكب من الخليفة، ومن الوقت الذى يتبرع فيه بالمدخنة يرجع فى حاصل بيت المال، وإذا توفى حاملها لا ترجع لورثته. وعدة ما يبخر فى الجوامع والمصلى غير هؤلاء فى مداخن كبار فى صوانى فضة ثلاث صوان فى المحراب احداهن، وعن يمين المنبر وشماله اثنتان، وفى الموضع الذى يجلس فيه الخليفة إلى أن تقام الصلاة صينية رابعة، وأما البخور المطلق برسم المأمون فهو فى كل شهر. ند مثلث خمسة عشر مثقالا. عود صيفى ستون درهما. عنبر خام ستة مثاقيل. كافور ثمانية دراهم زعفران شعر. عشرة دراهم. ماء ورد خمسة عشر رطلا، ومنها مقرر المجامع، وما قرر من خزانة التفرقة فى كل يوم اثنا عشر مجمعا. كل بيت عياره رطل واحد، ولكل مجمع ثلاثة أرطال جبن قريش وفاكهة بنصف درهم، والمستقر لهذه المجامع فى كل يوم من اللبن خمسة وثمانون رطلا، ومنها مقرر الحلوى والفستق. ومما استجد ما يعمل فى الإيوان برسم الخاص. فى كل يوم من الحلوى اثنا عشر جاما رطبة، ويابسة نصفين. وزن كل جام من الرطب عشرة أرطال ومن اليابس ثمانية أرطال، ومقرر الخشكنانج والبسندود فى كل ليلة على الاستمرار برسم الخاص الآمرى والمأمونى قنطار واحد سكر، ومثقالان مسك وديناران برسم المؤن لعمل خشكنانج وبسندود فى قعيان وسلال صفصاف، ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر، والثلث إلى الدار المأمونية. قال: وجرت مفاوضة بين متولى بيت المال ودار الفطرة بسبب الأصناف، ومن جملتها الفستق وقلة وجوده وتزايد سعره إلى أن بلغ رطل ونصف بدينار، وقد وقف منه لأرباب الرسوم ما حصل شكواهم بسببه فجاوبه متولى الديوان بأن قال: ما تم موجب

الإنفاق لما هو راتب من الديوان، وطالما المقام العالى بأنه لما رسم لهما ذكرا جميع ما اشتمل عليه ما هو مستقر الإنفاق من قلب الفستق والذى يطلق من الخزائن من قلب الفستق إدرارا مستقرا بغير استدعاء ولا توقيع مياومة كل يوم حسابا فى الشهر التام عن ثلاثين يوما خمسمائة وخمسة وثمانون رطلا، وفى الشهر الناقص عن تسعة وعشرين يوما خمسمائة وخمسة وستون رطلا حسابا عن كل يوم تسعة عشر رطلا ونصف. من ذلك ما يستلمه الصناع الحلاويون والمستخدمون بالإيوان مما يصنع به خاص خارجا عما يصنع بالمطابخ الآمرية عن اثنى عشر جام حلوى خاص. وزنها مائة وثمانية أرطال. منها رطب ستون رطلا، ويابس وغيره ثمانية وأربعون رطلا مما يحمل فى يومه وساعته. منها ما يحمل مختوما برسم المائدتين الآمريتين بالباذهنج والدار الجديدة. اللتين ما يحضرهما إلا من كبرت منزلته وعظمت وجاهته جامان رطبا ويابسا، وما يفرق فى العوالى من الموالى والجهات على أوضاع مختلفة تسع جامات، وما يحمل إلى الدار المأمونية برسم المائدة بالدار دون السماط جام واحد. تتمة المياومة المذكورة ما يتسلمه مقدم الفراشين فى خدمة المائدة الشريفة التى تتولاها المعلمة بالقصور الزاهرة. أربعة أرطال فستق. ما يتسلمه الشاهد والمشارف على المطابخ الآمرية مما يصنع فيها برسم الجامات الحلوى وغيره، مما يكون على المدورة فى الاسمطة المستمرة بقاعة الذهب فى أيام السلام وفى أيام الركوبات وحلول الركاب بالمناظر أربعة أرطال، وما يتسلمه الحاج مقبل الفراش برسم المائدة المأمونية مما يوصله لزمام الدار دون المطابخ الرجالية رطلان. الحكم الثانى يطلق مشاهرة بغير توقيع ولا استدعاء باسماء كبراء الجهات والمستخدمين من الأصحاب والحواشى فى الخدم المميزة، وهو فى الشهر ثلاثة عشر رطلا، والديوان شاهد بأسماء أربابه، وما يطلق من هذه الخزائن السعيدة بالاستدعاءات والمطالعات ويوقع عليه بالإطلاق من هذا الصنف فى كل سنة على ما يأتى ذكره، وما يستدعى برسم التوسعة فى الراتب عند تحويل الركاب العالى إلى اللؤلؤة مدة أيام النيل المبارك فى كل يوم رطلان، وما يستدعى برسم الصيام مدة تسعة وخمسين يوما. رجب وشعبان حسابا عن كل يوم رطلان. مائة وثمانية عشر رطلا، وما يستدعى لما يصنع بدار الفطرة فى كل ليلة برسم الخاص خشكنانج لطيفة وبسندود

وجوارشات ونواطف، ويحمل فى سلال صفصاف لوقته عن كل يوم رطلان. مائة وثمانية عشر رطلا، وما يستدعى لما يصنع بدار الفطرة فى كل ليلة برسم الخاص خشكنانج لطيفة وبسندود وجوراشات ونواطف، ويحمل في سلال صفصاف لوقته عن مدة أولها مستهل رجب وآخرها سلخ رمضان عن تسعة وثمانين يوما مائة وثمانية وسبعون رطلا. لكل ليلة رطلان، ويسمى ذلك بالتعبية. ومايستدعيه صاحب بيت المال ومتولى الديوان فيما يصنع بالإيوان الشريف برسم الموالد الشريفة الأربعة النبوى والعلوى والفاطمى والآمرى مما هو برسم الخاص والموالى والجهات بالقصور الزاهرة والدار المأمونية والأصحاب والحواشى. خارجا عما يطلق مما يصنع بدار الوكالة، ويفرق على الشهود والمتصدرين والفقراء والمساكين مما يكون حسابه من غير هذه الخزائن. عشرون رطلا قلب فستق حسابا لكل يوم مؤبد منها خمسة أرطال ما يستدعى برسم ليالى الوقود الأربع الكائنات فى رجب وشعبان مما يعمل بالايوان برسم الخاصيين والقصور خاصة عشرون رطلا. لكل ليلة خمسة أرطال، وأما ما ينصرف فى الأسمطة والليالى المذكورات فى الجامع الأزهر بالقاهرة والجامع الظاهرى بالقرافة. فالحكم فى ذلك، يخرج عن هذه الخزائن ويرجع إلى مشارف الدار السعيدة، وكذلك ما يستدعيه المستخدمون فى المطابخ الآمرية من التوسعة من هذا الصنف المذكور فى جملة غيره برسم الأسمطة لمدة تسعة وعشرين يوما من شهر رمضان وسلخه لاسماط فيه، وفى الأعياد جميعها بقاعة الذهب وما يستدعيه النائب برسم ضيافة من يصرف من الأمراء فى الخدم الكبار، ويعود إلى الباب ومن يرد إليه من جميع الضيوف، وما يستدعيه المستخدمون فى دار الفطرة برسم فتح الخليج وهى الجملتان الكبيرتان. فجميع ذلك لم يكن فى هذه الخزائن محاسبته ولا ذكر جملته، والمعاملة فيه مع مشارف الدار السعيدة، وأما ما يطلق من هذا الصنف من هذه الخزائن فى هذه الولائم والأفراح وإرسال الإنعام فهو شىء لم تتحقق أوقاته ولا مبلغ استدعائه. أنهى، المملوكان ذلك، والمجلس فضل السمو والقدرة فيما يأمر به إن شاء الله تعالى.

دار التعبية

قال ابن المأمون: دار التعبية كانت فى الأيام الأفضلية تشتمل على مبلغ يسير. فانتهى الأمر فيها إلى عشرة دنانير كل يوم خارجا عما هو موظف على البساتين السلطانية، وهو النرجس والنينوفران الأصفر والأحمر، والنخل الموقوف برسم الخاص، وما يصل إليه من الفيوم وثغر الإسكندرية ومن جملتها تعبية القصور للجهات والخاص والسيدات، ولدار الوزارة، وتعبية المناظر فى الركوبات إلى الجمع فى شهر رمضان. خارجا عن تعبية الحمامات، وما يحمل كل يوم من الزهرة، وبرسم خزانة الكسوة الخاص، وبرسم المائدة، وتفرقة الثمرة الصيفية فى كل سنة على الجهات والأمراء والمستخدمين والحواشى والأصحاب، وما يحمل لدارالوزارة والضيوف وحاشية دار الوزارة.

خزانة الأدم

قال: وأما الراتب من عند بركات الأدمى فإنه فى كل شهر ثمانون زوجا أوطية من ذلك برسم الخاص. ثلاثون زوجا برسم الجهات. أربعون زوجا برسم الوزارة. عشرة أزواج خارجا عن السباعيات، فإنها تستدعى من خزانة الكسوة، وفى كل موسم تكون مذهبة.

خزائن دار أفتكين

قال ابن الطوير: وكانت لهم دار كبرى يسكنها نصر الدولة أفتكين الذى رافق نزار ابن المستنصر بالإسكندرية. جعلوها برسم الخزن. فقيل خزائن دار أفتكين، وتحتوى على أصناف عديدة من الشمع المحمول من الإسكندرية وغيرها، وجميع القلوب المأكولة من

الفستق وغيره، والاعسال على اختلاف أصنافها، والسكر والقند والشيرج والزيت. فيخرج منهذه الخزائن بيد حاميها، وهو من الأستاذين المميزين ومشارفها، وهو من المعدلين راتب المطابخ خاصا وعاما ليوم أو لأيام. ينفق منها للمستخدمين، ثم لأرباب التوقيعات من الجهات وأرباب الرسوم فى كل شهر من أرباب الرتب. حتى لا يخرج عما يحتاجون فيها إلا اللحم والخضراوات فهى أبدا معمورة بذلك. انتهى.

خبر نزار وأفتكين

لما مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد. ابن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور فى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة بادر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القصر، وأجلس أبا القاسم أحمد بن المستنصر فى منصب الخلافة، ولقبه بالمستعلى بالله، وسير إلى الأمير نزار والأمير عبد الله والأمير إسماعيل أولاد المستنصر. فجاءوا إليه فإذا أخوهم أحمد وهو أصغرهم قد جلس على سرير الخلافة. فامتعضوا لذلك وشق عليهم وأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض. وقال لهم: قبلوا الأرض لمولانا المستعلى بالله وبايعوه، فهو الذى نص عليه الإمام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده، فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم: إن أباه قد وعده بالخلافة وقال نزار: لو قطعت ما بايعت من هو أصغر منى سنا، وخط والدى عندى بأنى ولى عهده، وأنا أحضره، وخرج مسرعا ليحضر الخط فمضى لا يدرى به أحد، وتوجه إلى الاسكندرية فلما أبطأ مجيئه بعث الأفضل إليه ليحضر بالخط، فلم يعلم له خبرا فانزعج لذلك انزعاجا عظيما، وكانت نفرة نزار من الأفضل لأمور. منها أنه خرج يوما فإذا بالأفضل قد دخل من باب القصر وهو راكب فصاح به نزار: أنزل يا أرمنى الجنس فحقدها عليه، وصار كل منهما يكره الآخر، ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا فى أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبطش بغلمانه. فلما مات

المستنصر خافه، لأنه كان رجلا كبيرا وله حاشية وأعوان. فقدم لذلك أحمد بن المستنصر بعدما اجتمع بالأمراء وخوفهم من نزار، ومازال بهم حتى وافقوه على الإعراض عنه وكان من جملتهم محمود بن مصال فسير خفية إلى نزار وأعلمه بما كان من اتفاق الأفضل مع الأمراء على إقامة أخيه أحمد وإدارته لهم عنه، فاستعد إلى المسير إلى الاسكندرة هو وابن مصال فلما فارق الأفضل ليحضر إليه بخط أبيه خرج من القصر متنكرا وسار هو وابن مصال إلى الإسكندرية وبها الأمير نصر الدولة أفتكين أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالى، ودخلا عليه ليلا، وأعلماه بما كان من الأفضل وتراميا عليه، ووعده نزار، بأن يجعله وزيرا مكان الأفضل فقبلهما أتم قبول وبايع نزارا وأحضر أهل الثغر لمبايعته ونعته بالمصطفى لدين الله. فبلغ ذلك الأفضل. فأخذ يتجهز لمحاربتهم، وخرج فى آخر المحرم سنة ثمان وثمانين بعساكره وسار إلى الإسكندرية فبرز إليه نزار وأفتكين وكانت بين الفريقين عدة حروب شديدة انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما إلى القاهرة، فقوى نزار وأفتكين وصار إليهما كثير من العرب، واشتد أمر نزار وعظم، واستولى على بلاد الوجه البحرى وأخذ الأفضل يتجهز ثانيا إلى المسير لمحاربة نزار ودس إلى أكابر العربان ووجوه أصحاب نزار وأفتكين وصاروا إلى الإسكندرية فنزل الأفضل إليها وحاصرها حصارا شديدا، وألح فى مقاتلتهم وبعث إلى أكابر أصحاب نزار ووعدهم. فلما كان فى ذى القعدة وقد اشتد البلاد من الحصار جمع ابن مصال ماله، وفر فى البحر إلى جهة بلاد المغرب ففت ذلك فى عضد نزار وتبين فيه الانكسار واشتد الأفضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وأفتكين إليه يطلبان الأمان منه. فأمنهما ودخل الإسكندرية وقبض على نزار وأفتكين وبعث بهما إلى القاهرة. فأما نزار فإنه قتل فى القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما، وأما أفتكين فإنه قتله الأفضل بعد قدومه، ودار أفتكين هذه كانت خارج القصر، وموضعها الآن حيث مدرسة القاضى الفاضل وآدره بدرب ملوخيا.

خزانة البنود

البنود هى الرايات والاعلام، ويشبه أن تكون هى التى يقال لها فى زمننا العصائب السلطانية. وكانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير، ومن حقوقه فيما بين قصر الشوك وباب العيد. بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله، وكان فيها ثلاثة آلاف صانع مبرزين فى سائر الصنائع، وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة، وكان مشتغلا بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغانى، وفى زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة فى اتخاذ الأغانى والرقاصات، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة، واتخذت له حجرة المماليك، وكانوا يعلمونهم فيها أنواع العلوم، وأنواع آلة الحرب، وصنوف حيلها من الرماية والمطاعنة والمسابقة وغير ذلك.

وقال فى كتاب الذخائر والتحف: ولما وهب السلطان - يعنى الخليفة المستنصر لسعد الدولة المعروف بـ «سلام عليك» ما فى خزانة البنود من جميع المتاع والآلات وغير ذلك فى اليوم السادس من صفر سنة إحدى وستين وأربعمائة، حمل جميعه ليلا وكان فيما وجد سعد الدولة فيها ألفا وتسعمائة درقة إلى ما سوى ذلك من آلات الحرب وما سواه، وغير ذلك من القضب الفضة والذهب والبنود وما سواه، وفى خلال ذلك سقط من بعض الفراشين مقط شمع موقد نارا فصادف هناك أعدال كتان ومتاعا كثيرا فاحترق جميعه، وكانت لتلك غلبة عظيمة وخوف شديد فيما يليها من القصر ودور العامة والأسواق. وأعلمنى من له خبرة بما كان فى خزانة البنود أن مبلغ ما كان فيها من سائر الآلات والأمتعة والذخائر لا يعرف له قيمة عظما، وإن المنفق فيها كل سنة من سبعين ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار من وقت دخول القائد جوهر وبناء القصر من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى هذا الوقت، وذلك زائد على مائة سنة، وأن جميعه باق فيها على الأيام لم يتغير، وأن جميعه احترق حتى لم يبق منهم باقية ولا أثر، وأنه احترق فى هذه الليلة من قربات النفط عشرات ألوف ومن زراقت النفط أمثالها، فأما الدرق والسيوف والرماح والنشاب فلا تحصى بوجه ولا سبب. مع ما فيها من قضب الفضة وثيابها المذهبة وغيرها، والبنود

المجملة، وسروج ولجم، وثياب الفرحية المصبغات والبنادين وغيرها بعد أن أخذوا ما قدروا عليه حتى لواء الحمد وسائر البنود وجميع العلامات والألوية. وحدثنى من أثق به أيضا أنه احترق فيها من السيوف عشرات ألوف، وما لا يحصى كثرة، وأن السلطان بعد ذلك بمدة طويلة احتاج إلى إخراج شىء من السلاح لبعض مهماته فأخرج من خزانة واحدة مما بقى وسلم خمسة عشر ألف سيف مجوهرة سوى غيرها. حدثنى بجميعه الأجل عظيم الدولة متولى الستر الشريف. انتهى.

وجعلت خزانة البنود بعد هذا الحريق حبسا، وفيها يقول القاضى المهذب بن الزبير لما اعتقل بها وكتب بها للكامل بن شاور:

أيا صاحبى سجن الخزانة خليا

نسيم الصبا يرسل إلى كبدى نفحا

وقولا لضوء الصبح هل أنت عائد

إلى نظرى أم لا أرى بعدها صبحا

ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى

سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا

وقال:

أيا صاحبى سجن الخزانة خليا

من الصبح ما يبدو سناه لناظرى

فو الله ما أدرى أطرفى ساهر

على طول هذا الليل أم غير ساهر

ومالى من أشكو إليه أذا كما

سوى ملك الدنيا شجاع بن شاور

واستمرت سجنا للأمراء والوزراء والأعيان إلى أن زالت الدولة فاتخذها ملوك بنى أيوب أيضا سجنا تعتقل فيه الأمراء والمماليك.

ومن غريب ما وقع بها أن الوزير أحمد ابن على الجرجراى لما توفى طلب الوزارة الحسن بن على الأنبارى فأجيب إليها. فتعجل من سوء التدبير قبل تمامه ما فوته مراده وضيع ماله ونفسه، وذلك أنه كان قد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله أخوان يهوديان يتصرف أحدهما فى التجارة والآخر فى الصرف، وبيع ما يحمله التجار من العراق، وهما أبو سعد إبراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التستري، واشتهر من أمرهما فى البيوع وإظهار ما يحصل عندهما من الودائع الخفية لمن يفقد من التجار فى القرب والبعد ما ينشأ به جميل الذكر فى الآفاق. فاتسع حالها لذلك، واستخدم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبا سعد إبراهيم بن سهل التسترى فى ابتياع ما يحتاج إليه من صنوف الأمتعة، وتقدم عنده فباع له جارية سوداء. فتحظى بها الظاهر وأولدها ابنه المستنصر فرعت لأبى سعد ذلك. فلما أفضت الخلافة إلى المستنصر ولدها قدمت أبا سعد وتخصصت به فى خدمتها. فلما مات الوزير الجرجراى وتكلم ابن الأنبارى فى الوزارة قصده أبو نصر أخو أبى سعد فجبهه أحد أصحابه بكلام مؤلم. فظن أبو نصر أن الوزير ابن الابنارى إذا بلغه ذلك ينكر على غلامه ويعتذر إليه فجاء منه خلاف ما ظنه، وبلغه عنه أضعاف ما سمعه من الغلام. فشكا ذلك إلى أخيه أبى سعد، وأعلمه بأن الوزير متغير النية لهما فلم يفتر أبو سعد عن ابن الأنباري، وأغرى به أم المستنصر مولاته. فتحدثت مع ابنهـا الخليفة المستنصر فى أمره حتى عزله عن الوزارة، فسعى أبو سعد عند أم المستنصر لأبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى فى الوزارة فاستوزره المستنصر، وتولى أبو سعد الاشراف عليه، وصار الوزير الفلاحى منقادا لأبى سعد تحت حكمه، وأخذ الفلاحى يعمـل على ابن الانبارى ويغرى به، ويصنع عليه ديونا ويذكر عنه ما يوجب الغضب عليه حتى تم ما يريد، فقبض عليه وخرج عليه من الدواوين أموالا كثيرة مما كان يتولاه قديمـا، وألزمه بحملها ونوع له أصناف العذاب واستصفى أمواله وهو معتقل بخزانة البنود، ثم قتله فى يوم الاثنين الخامس من المحرم سنة أربعين وأربعمائة بها. فاتفق أن الفلاحى لمـا صرف عن الوزارة

اعتقل بخزانة البنود، حيث كان ابن الانباري، ثم قتل بها وحفر له ليدفن فظهر فى الحفر رأس ابن الانبارى قبل أن يمضى فيه القتل. فقال: لا إله إلا الله هذا رأس ابن الانباري. أنا قتلته ودفنته ههنا وأنشد

رب لحد قد صار لحدا مرارا

ضاحكا من تزاحم الأضداد

فقتل ودفن فى تلك الحفرة مع ابن الانباري. فعد ذلك من غرائب الاتفاق.

ثم إن خزانة البنود جعلت منازل للأسرى من الفرنج المأسورين من البلاد الشامية أيام كانت محاربة المسلمين لهم. فأنزل بها الملك الناصر محمد بن قلاون الأسارى بعد حضوره من الكرك، وأبطل السجن بها، فلم يزالوا فيها بأهاليهم وأولادهم فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون. فصار لهم فيها أفعال قبيحة وأمور منكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمر والتظاهر بالزنا واللياطة، وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم فلا يقدر أحد ولو جل على أخذ من صار إليهم واحتمى بهم، والسلطان يغضى عنهم لما يرى فى ذلك من مراعاة المصلحة والسياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج، وكان يسكن بالقرب منها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار، ويبلغه ما يفعله الفرنج من العظائم الشنيعة فلا يقدر على منعهم، وفحش أمرهم فرفع الخبر إلى السلطان وأكثر من شكايتهم غير مرة، والسلطان يتغافل عن ذلك، إلى أن كثرت مفاوضة الحاج آل ملك للسلطان فى أمرهم فقال له السلطان انتقل أنت عنهم يا أمير. فلم يسعه إلا الإعراض عن ذلك وعمر داره التى بالحسينية، والاصطبل والجامع المعروف بآل ملك والحمام والفندق، وانتقل من داره التى كان فيها بجوار خزانة البنود، وسكن بالحسينية إلى أن مات السلطان الملك الناصر فى أخريات سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وتنقل الملك فى أولاده إلى أن جلس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك الناصر محمد بن قلاون، وضرب شورى على من يكون نائب السلطنة بالديار المصرية يدبر أحوال المملكة كما كانت العادة فى ذلك مدة الدولة التركية. فأشير بتولية الأمير بدر الدين جنكل بن الباب فنصل من ذلك وأبى قبوله، فعرضت النيابة على الأمير الحاج آل ملك فاستبشر وقال

لى شروط أشرطها على السلطان فإن أجابنى إليها فعلت ما يرسم به، وهى ألا يفعل شيء فى المملكة إلا برأيي، وأن يمنع الناس من شرب الخمر، ويقام منار الشرع ولا يعترض على أمر من الأمور. فأجيب إلى ما سأل، وأحضرت التشاريف فأفيضت عليه بالجامع من قلعة الجبل فى يوم الجمعة الثانى عشر من المحرم سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وأصبح يوم السبت جالسا فى دار النيابة من القلعة، وحكم بين الناس وأول ما بدأ به أن أمر والى القاهرة بالنزول إلى خزانة البنود، وأن يحتاط على جميع ما فيها من الخمر والفواحش، ويخرج الأسرى منها ويهدمها حتى يجعلها دكا، ويسوى بها الأرض فنزل إليها ومعه الحاجب فى عدة وافرة، وهجموا على من فيها وهم آمنون، وأحاطوا بسائر ما تشتمل عليه، وقد اجتمع من العامة والغوغاء ما لا يقع عليه حصر فأراقوا منها خمورا كثيرة تتجاوز الحد فى الكثرة، وأخرج من كان فيها من النساء البغايا وغيرهن من الشباب وأرباب الفساد، وقبض على الفرنج والأرمن، وهدمها حتى لم يبق لها أثر، ونودى فى الناس فحكروها، وبنوا فيها الدور والطواحين على ما هى عليه الآن، وأمر بالأسرى فأنزلوا بالقرب من المشهد النفيسى بجوار كيمان مصرفهم هناك إلى الآن، وأنزل من كان منهم أيضا بقلعة الجبل فأسكنوا معهم، وطهر الله تلك الأرض منهم وأراح العباد من شرهم، فإنها كانت شر بقعة من بقاع الأرض. يباع فيها لحم الخنزير على الوضم كما يباع لحم الضأن، ويعصر فيها من الخمور فى كل سنة ما لا يستطيع أحد حصره. حتى يقال إنه كان يعصر بها فى كل سنة اثنان وثلاثون ألف جرة خمر، ويباع فيها الخمر نحو اثنى عشر رطلا بدرهم إلى غير ذلك من سائر أنواع الفسوق.

دار الفطرة

قال ابن الطوير: دار الفطرة خارج القصر بناها العزيز بالله، وهو أول من بناها، وقرر فيها ما يعمل مما يحمل إلى الناس فى العيد وهى قبالة باب الديلم من القصر الذى يدخل منه إلى المشهد الحسيني، ويكون مبدأ الاستعمال فيها وتحصيل جميع أصنافها من السكر

والعسل والقلوب والزعفران والطيب والدقيق لاستقبال النصف الثانى من شهر رجب كل سنة ليلا ونهارا من الخشكنانج والبسندود وأصناف الفانيذ الذى يقال له كعب الغزال والبرما ورد والفستق، وهو شوابير مثال الصنج، والمستخدمون يرفعون ذلك إلى أماكن وسيعة مصونة. فيحصل منه فى الحاصل شيء عظيم هائل بيد مائة صانع. للحلاويين مقدم، وللخشكنانيين آخر، ثم يندب لها مائة فراش لحمل طيافير للتفرقة على أرباب الرسوم، خارجا عمن هو مرتب لخدمتها من الفراشين الذين يحفظون رسومها ومواعينها الحاصلة بالدائم. وعدتهم خمسة. فيحضر إليها الخليفة والوزير معه، ولا يصحبه فى غيرها من الخزائن. لأنها خارج القصر، وكلها للتفرقة فيجلس على سريره بها، ويجلس الوزير على كرسى ملين على عادته فى النصف الثانى من شهر رمضان، ويدخل معه قوم من الخواص، ثم يشاهد ما فيها من تلك الحواصل المعمولة المعباة مثل الجبال من كل صنف فيفرقها من ربع قنطار إلى عشرة أرطال إلى رطل واحد، وهو أقلها، ثم ينصرف الخليفة والوزير بعد أن ينعم على مستخدميها بستين دينارا، ثم يحضر إلى حاميها ومشارفها الأدعية المعمولة، المخرجة من دفتر المجلس كل دعو لتفريق فريق من خاص وغيره حتى لا يبقى أحد من أرباب الرسوم إلا واسمه وارد فى دعو من تلك الأدعية، ويندب صاحب الديوان الكتاب المسلمين فى الديوان فيسيرهم إلى مستخدميها. فيسلم كل كاتب دعوا أو دعوين أو ثلاثة على كثرة ما يحتويه وقلته، ويؤمر بالتفرقة من ذلك اليوم. فيقدمون أبدا مائتى طيفور من العالى والوسط والدون. فيحملها الفراشون برقاع من كتاب الأدعية باسم صاحب ذلك الطيفور علا أو دنا، وينزل اسم الفراش بالدعو أو عريفه حتى لا يضيع منها شيء ولا يختلط. ولا يزال الفراشون يخرجون بالطيافير ملأى ويدخلون بها فارغة. فبمقدار ما تحمل المائة الأولى عبيت المائة الثانية. فلا يفتر ذلك طول التفرقة. فأجل الطيافير ما عدد خشكنانه مائة حبة، ثم إلى سبعين وخمسين، ويكون على صاحب المائة طرحه فوق قوارته ثم إلى خمسين، ثم إلى ثلاث وثلاثين، ثم إلى خمس وعشرين، ثم إلى عشرين، ونسبة منثور كل واحد على عدد خشكنانه، ثم العبيد السودان بغير طيافير. كل طائفة يتسلمه لها عرفاؤها فى أفراد الخواص. لكل طائفة على مقدارها. الثلاثة الأفراد والخمسة

والسبعة إلى العشرة، فلا يزالون كذلك إلى أن ينقضى شهر رمضان، ولا يفوت أحدا شيء من ذلك، ويتهاداه الناس فى جميع الإقليم. قال وما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرق على الناس منها سبعة آلاف دينار.

وقال ابن عبد الظاهر: دار الفطرة بالقاهرة قبالة مشهد الإمام الحسين عليه السلام، وهى الفندق الذى بناه الأمير سيف الدين بهادر الآن فى سنة ست وخمسين وستمائة. أول من رتبها الإمام العزيز بالله، وهو أول من سنها وكانت الفطرة قبل أن ينتقل الأفضل إلى مصر تعمل بالإيوان، وتفرق منه، وعند ما تحول إلى مصر نقل الدواوين من القصر إليها، واستجد لها مكانا قبالة دار الملك بإيوانى المكاتبات والإنشاء، فإنهما كانا بقرب الدار، ويتوصل إليهما من القاعة الكبرى التى فيها جلوسه. ثم استجد للفطرة دارا عملت بعد ذلك وراقة، وهى الآن دار الأمير عز الدين الأفرم بمصر قبالة دار الوكالة، وعملت بها الفطرة مدة، وفرق منها إلا ما يخص الخليفة والجهات والسيدات والمستخدمات والأستاذين. فإنه كان يعمل بالإيوان على العادة، ولما توفى الأفضل، وعادت الدواوين إلى مواضعها. أنهى خاصة الدولة ريحان، وكان يتولى بيت المال أن المكان بالإيوان يضيق بالفطرة، فأمره المأمون أن يجمع المهندسين ويقطع قطعة من اصطبل الطارمة يبنيه دار الفطرة. فأنشأ الدار المذكورة قبالة مشهد الحسين، والباب الذى بمشهد الحسين يعرف بباب الديلم، وصار يعمل بها ما استجد من رسوم المواليد والوقودات، وعقدت لها جملتان. إحداهما وجدت فسطرت، وهى عشرة آلاف دينار خارجا عن جوارى المستخدمين، والجملة الثانية فصلت فيها الأصناف وشرحها. دقيق ألف حملة سكر سبعمائة قنطار. قلب فستق ستة قناطير. قلب لوز ثمانية قناطير. قلب بندق أربعة قناطير. تمر أربعمائة إردب. زبيب ثلاثمائة إردب. خل ثلاثة قناطير. عسل نحل خمسة عشر قنطارا. شيرج مائتا قنطار. حطب ألف ومائتا حملة. سمسم أردبان، أنيسون أردبان. زيت طيب برسم الوقود ثلاثون قنطارا. ماء ورد خمسون رطلا. مسك خمس نوافج. كافور قديم عشرة. مثاقيل زعفران مطحون مائة وخمسون درهما، وبيد الوكيل برسم المواعين والبيض والسقائين وغير ذلك من المؤن على ما يحسب به، وبرفع المحازيم خمسمائة دينار.

ووجدت بخط ابن ساكن قال : كان المرتب فى دار الفطرة ولها ما يذكر وهو : زيت طيب برسم القناديل خمسة عشر قنطارا . مقاطع سكندرى برسم القوارات ثلاثمائة مقطع . طيافير جدد برسم السماط ثلاثمائة طيفور . شمع برسم السماط وتوديع الامراء ثلاثون قنطارا . أجرة الصناع ثلاثمائة دينار . جارى الحامى مائة وعشرون دينارا . جارى العامل والمشارف مائة وثمانون دينارا وشقة ديبقى بياض حريرى ومنديل ديبقى كبير حريرى وشقة سقلاطون أندلسي ، يلبسها قدام الفطرة يوم حملها ، ليفرق طيافير الفطرة على الأمراء وأرباب الرسومات وعلى طبقات الناس حتى يعم الكبير والصغير والضعيف والقوي ، ويبدأ بها من أول رجب إلى آخر رمضان .

ذكر ما اختص من صفة الطيافير

الأعلى منها طيفور فيه مائة حبة خشكنانج . وزنها مائة رطل ، وخمسة أرطال بسندود . عشرون حبة كعك وزبيب وتمر قنطار . جملة الطيفور ثلاثة قناطير وثلث إلى ما دون ذلك على قدر الطبقات إلى عشر حبات .

وقال ابن أبى طي : وعمل المعز لدين الله دار أسماها دار الفطرة . فكان يعمل فيها من الخشكنانج والحلواء والبسندود والفانيذ والكعك والتمر والبندق شيء كثير من أول رجب إلى نصف رمضان . فيفرق جميع ذلك فى جميع الناس الخاص والعام على قدر منازلهم فى أوان لا تستعاد ، وكان قبل ليلة العيد يفرق على الأمراء الخيول بالمراكب الذهب ، والخلع النفيسة والطراز الذهب ، والثياب برسم النساء .

المشهد الحسيني

قال الفاضل محمد بن على بن يوسف بن ميسر : وفى شعبان سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرج الأفضل بن أمير الجيوش بعساكر جمة إلى بيت المقدس، وبه سكان وابلغازى ابنا ارتق فى جماعة من أقاربهما ورجالهما وعساكر كثيرة من الأتراك فراسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم القدس إليه بغير حرب فلم يجيباه لذلك. فقاتل البلد ونصب عليها المجانيق وهدم منها جانبا فلم يجدا بدا من الإذعان له وسلماه إليه، فخلع عليهما وأطلقهما وعاد فى عساكره وقد ملك القدس فدخل عسقلان وكان بها مكان دارس فيه رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، فأخرجه وعطره وحمله فى سفط إلى أجل دار بها، وعمر المشهد. فلما تكامل حمل الأفضل الرأس الشريف على صدره وسعى به ماشيا إلى أن أحله فى مقره. وقيل إن المشهد بعسقلان بناه أمير الجيوش بدر الجمالي، وكمله ابنه الأفضل، وكان حمل الرأس إلى القاهرة من عسقلان ووصوله إليها فى يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وكان الذى وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها كان والقاضى المؤتمن بن مسكين مشارفها، وحصل فى القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة المذكور.

ويذكر أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان وجد دمه لم يجف، وله ريح كريح المسك، فقدم به الأستاذ مكنون فى عشارى من عشاريات الخدمة، وأنزل به إلى الكافوري، ثم حمل فى السرداب إلى قصر الزمرذ، ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة. فكان كل من يدخل الخدمة يقبل الأرض أمام القبر، وكانوا ينحرون فى يوم عاشوراء عند القبر الإبل والبقر والغنم، ويكثرون النوح والبكاء ويسبون من قتل الحسين، ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم.

وقال ابن عبد الظاهر : مشهد الإمام الحسين صلوات الله عليه قد ذكرنا أن طلائع بن رزيك المنعوت بالصالح كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان لما خاف عليها من

الفرنج، وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به ويفوز بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر على ذلك، وقالوا لا يكون ذلك إلا عندنا. فعمدوا إلى هذا المكان وبنوه له، ونقلوا الرخام إليه، وذلك فى خلافة الفائز على يد طلائع فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

وسمعت من يحكى حكاية يستدل بها على بعض شرف هذا الرأس الكريم المبارك وهي: أن السلطان الملك الناصر رحمه الله لما أخذ هذا القصر وشى إليه بخادم له قدر فى الدولة المصرية، وكان زمام القصر، وقيل له إنه يعرف الأموال التى بالقصر والدفائن. فأخذ وسئل فلم يجب بشيء وتجاهل، فأمر صلاح الدين نوابه بتعذيبه فأخذه متولى العقوبة وجعل على رأسه خنافس وشد عليها قرمزية وقيل إن هذه أشد العقوبات، وأن الإنسان لا يطيق الصبر عليها ساعة إلا تنقب دماغه وتقتله ففعل ذلك به مرارا وهو لا يتأوه وتوجد الخنافس ميتة، فعجب من ذلك وأحضره وقال له: هذا سر فيك ولابد أن تعرفنى به فقال والله ما سبب هذا إلا أنى لما وصلت رأس الإمام الحسين حملتها. قال: وأى سر أعظم من هذا وراجع فى شأنه فعفا عنه.

ولما ملك السلطان الملك الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء، وفوضها للفقيه البهاء الدمشقي، وكان يجلس للتدريس عند المحراب الذى الضريح خلفه. فلما وزر معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ بن حمويه ورد إليه أمر هذا المشهد بعد إخوته جمع من أوقافه ما بنى به ايوان التدريس الآن وبيوت الفقهاء العلوية. خاصة واحترق هذا المشهد فى الأيام الصالحية فى سنة بضع وأربعين وستمائة، وكان الأمير جمال الدين بن يعمور نائبا عن الملك الصالح فى القاهرة. وسببه أن أحد خزان الشمع دخل ليأخذ شيئا فسقطت منه شعلة، فوقف الأمير جمال الدين المذكور بنفسه حتى طفيء وأنشدته حينئذ فقلت:

قالوا تعصب للحسين ولم يزل

بالنفس للهول المخوف معرضا

حتى انضوى ضوء الحريق وأصبح المسـ

ـود من تلك المخاوف أبيضا

أرضـــى الإلـــه بما أتـــى فكأنه

بين الأنام بفعله موسى الرضي

قـال : ولحـفـظة الآثار وأصـحـاب الحـديث ونقلة الأخبـار مـا إذا طولع وقف منه على المسطور وعلم منه ما هو غير المشهور، وإنما هذه البركات مشاهدة مرئية، وهى بصحة الدعوى ملية والعمل بالنية.

وقال فى كتاب الدر النظيم فى أوصاف القاضى الفاضل عبد الرحيم: ومن جملة مبانيه الميضأة قريب مشهد الإمام الحسين بالقاهرة، والمسجد والساقية، ووقف عليها أراضى قريب الخندق ظاهر القاهرة ووقفها دارٌ جار، والانتفاع بهذه المثوبة عظيم، ولما هدم المكان الذى بنى موضعه مئذنة وجد فيها شيء من طلسم لم يعلم لأى شيء هو فيه اسم الظاهرين الحاكم واسم أمه رصد.

«خبر الحسين»

هو الحسين بن على بن أبى طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى أبو عبد الله، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع، وقيل سنة ثلاث، وعق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم سابعه بكبش، وحلق رأسه وأمر أن يتصدق بزنته فضة، وقال: أرونى ابني. ما سميتموه؟ فقال على بن أبى طالب «حربا» فقال بل هو «حسين» وكان أشبه الناس بالنبى صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من صدره وكان فاضلا دينا كثير الصوم والصلاة والحج، وقتل يوم الجمعة لعشر خلون من المحرم يوم عاشوراء سنة إحدى وستين من الهجرة بموضع يقال له كربلاء من أرض العراق بناحية الكوفة، ويعرف الموضع أيضا بالطف قتله سنان ابن انس اليحصبي، وقيل قتله رجل من مذحج، وقيل قتله شمر بن ذى الجوشن، وكان أبرص، وأجهز عليه خولى بن يزيد الاصبحى من حمير حز رأسه وأتى عبيد الله بن زياد وقال:

أوقر ركابى فضـــــة وذهبا

أنى قتلت الملـك المحجبا

قتلت خـــير النـــاس أما وأبا

وخـيرهـم إذ ينسبون نسبا

وقيل قتله عمرو بن سعد بن أبى وقاص، وكان الأمير على الخيل التى أخرجها عبيد الله بن زياد إلى قتل الحسين وأمر عليهم عـمرو بن سعد ووعده أن يوليه الرى إن ظفر بـالحسين وقتله، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم نصف النهار وهو قائم أشعث أغبر بيده قـارورة فيها دم. فقلت بأبى أنت وأمى ما هذا؟ قال هذا دم الحسين لـم أزل التقطه منه اليوم. فوجدته قد قتل فى ذلك اليوم، وهذا البيت زعموا قديما لا يدرى قائله:

أترجو أمة قتلت حسينـا

شفاعة جده يوم الحساب

وقتل مع الحسين سبعة عشر رجلا كلهم من ولد فاطمة، وقيل قتل معه من أهل بيته وإخوته ثلاثة وعشرون رجلا.

وكان سبب قتله أنه لما مات معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى سنة ستين وردت بيعة اليزيد على الوليد بن عقبة بالمدينة ليأخذ البيعة على أهلها. فأرسل إلى الحسين بن علي، وإلى عبد الله بن الزبير ليلا فأتى بهما. فقال: بايعا. فقالا مثلنا لا يبايع سرا، ولكنا نبايع على رؤوس الناس إذا أصبحنا. فرجعا إلى بيوتهما وخرجا من ليلهما إلى مكة، وذلك ليلة الأحد لليلتين بقيتا من رجب. فأقام الحسين بمكة شعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة، وخرج يوم التروية يريد الكوفة بكتب أهل العراق إليه. فلما بلغ عبيد الله بن زياد مسير الحسين من مكة بعث الحصين بن تميم التميمى صاحب شرطته فنزل القادسية، ونظم الخيل ما بينها وبين جبل لعلع فبلغ الحسين الحاجز له عن البلاد. فكتب إلى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه مع قيس بن مسهر فظفر به الحصين وبعث به إلى ابن زياد فقتله، وأقبل

الحسين يسير نحو الكوفة فأتاه خبر قتل مسلم بن عقيل وخبر قتل أخيه من الرضاعة. فقام حتى أعلم الناس بذلك، وقال: قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف فليس عليه ذمام منا. فتفرقوا حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من مكة وسار فأدركته الخيل وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي، ونزل الحسين فوقفوا تجاهه وذلك فى نحر الظهيرة فسقى الحسين الخيل وحضرت صلاة الظهر فأذن مؤذنه وخرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم أنى لم آتكم حتى اتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا، فليس لنا إمام، لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى وقد جئتكم فإن تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه فسكتوا، وقال للمؤذن أقم فأقام وقال الحسين للحر أتريد أن تصلى أنت بأصحابك قال بل صل أنت ونصلى بصلاتك فصلى بهم ودخل فاجتمع إليه أصحابه وانصرف الحر إلى مكانه، ثم صلى بهم العصر واستقبلهم فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إنكم إن تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم. السائرين فيكم بالجور والعدوان. فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتتنى به كتبكم انصرفت عنكم. فقال الحر إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر. فأخرج خرجين مملوءين صحفا. فنشرها بين أيديهم فقال الحر: إنا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا إذا نحن قليناك ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد. فقال الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه لينصرفوا فركبوا فمنعهم الحر من ذلك فقال له الحسين ثكلتك أمك ما تريد؟ فقال له: والله لو كان غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائنا من كان، والله ما لى إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما نقدر عليه. فقال له الحسين ما تريد؟ قال أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد وتراد الكلام فقال له الحر: إنى لم أومر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أدخلك الكوفة فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ولا تزول إلى المدينة حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد أو إلى ابن زياد فلعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك فتياسر عن

طريق العذيب والقادسية والحر يسايره. فلما كان يوم الجمعة الثالث من المحرم سنة إحدى وستين قدم عمرو بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف، وبعث إلى الحسين رسولا يسأله ما الذى جاء به؟ فقال كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم. فإذا كرهونى فأنا انصرف عنهم. فكتب عمرو إلى ابن زياد يعرفه ذلك. فكتب إليه أن يعرض على الحسين بيعة يزيد. فإن فعل رأينا فيه رأينا، وإلا تمنعه ومن معه الماء فأرسل عمرو بن سعد خمسمائة فارس فنزلوا على الشريعة، وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتله بثلاثة أيام ونادى مناد: ياحسين ألا تنظر الماء. لا ترى منه قطرة حتى تموت عطشا ثم التقى الحسين بعمرو بن سعد مرارا. فكتب عمرو بن سعد إلى عبيد الله بن زياد: أما بعد فإن الله قد أطفأ الثائرة وجمع الكلمة، وقد أعطانى الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أتى منه، أو أن تسيره إلى أى ثغر من الثغور شاء، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده، فى يده وفى هذا لكم رضى وللأمة صلاح. فقال ابن زياد لشمر بن ذى الجوشن: أخرج بهذا الكتاب إلى عمرو فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي. فإن فعلوا فليبعث بهم، وإن أبوا فليقاتلهم فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس، واضرب عنقه وابعث إليّ برأسه، وكتب إلى عمرو بن سعد: أما بعد فإنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاوله، ولا لتقعد له عندى شافعا. انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى سلما، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل الحسين فأوطيء الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم. فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر وبين العسكر والسلام. فلما أتاه الكتاب ركب والناس معه بعد العصر فأرسل إليهم الحسين ما لكم؟ فقالوا جاء أمر الأمير بكذا فاستمهلهم إلى غدوة فلما أمسوا قام الحسين ومن معه الليل كله يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون. فلما صلى عمرو بن سعد الغداة يوم السبت وقيل يوم الجمعة يوم عاشوراء خرج فيمن معه وعبى الحسين أصحابه، وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا وركب ومعه مصحف بين يديه وضعه أمامه واقتتل أصحابه بين يديه وأخذ عمرو بن سعد سهما فرمى به

وقال اشهدوا أني أول من رمى الناس ، وحمل أصحابه فصرعوا رجالا وأحاطوا بالحسين من كل جانب وهم يقاتلون قتالا شديدا حتى انتصف النهار ولا يقدرون يأتونهم إلا من وجه واحد وحمل شمر حتى بلغ فسطاط الحسين ، وحضر وقت الصلاة فسأل الحسين أن يكفوا عن القتال حتى يصلى ففعلوا ، ثم اقتتلوا بعد الظهر أشد قتال ووصل إلى الحسين وقد صرعت أصحابه ومكث طويلا من النهار ، كلما انتهى إليه رجل من الناس رجع عنه وكره أن يتولى قتله . فأقبل عليه رجل من كندة يقال له مالك فضربة على رأسه بالسيف قطع البرنس وأدماه فأخذ الحسين دمه بيده فصبه فى الأرض ثم قال : اللهم إن كنت حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين واشتد عطشه فدنا ليشرب فرماه حصين بن تميم بسهم فوقع فى فمه فتلقى الدم بيده ورمى به إلى السماء ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم إنى أشكو إليك ما يصنع بابن بنت نبيك ، اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدا فأقبل شمر فى نحو عشرة إلى منزل الحسين وحالوا بينه وبين رحله ، وأقدم عليه وهو يحمل عليهم وقد بقى فى ثلاثة ومكث طويلا من النهار ولو شاءوا أن يقتلوه لقتلوه ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء فنادى شمر فى الناس : ويحكم ما تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمكم فحملوا عليه من كل جانب فضرب زرعة بن شريك التميمى كفه الأيسر وضرب عاتقه وهو يقوم ويكبو ، فحمل عليه فى تلك الحال سنان بن انس النخعى فطعنه بالرمح فوقع . وقال لخولى بن يزيد الاصبحي : احتز رأسه فأرعد وضعف فنزل عليه وذبحه وأخذ رأسه فدفعه إلى خولي ، وسلب الحسين ما كان عليه حتى سراويله ، ومال الناس فانتهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء ، ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وأربعون ضربة وناد عمر بن سعد فى أصحابه : من ينتدب للحسين فيوطئه فرسه فانتدب عشرة فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره ، وكان عدة من قتل معه اثنين وسبعين رجلا ، ومن أصحاب عمرو بن سعد ثمانية وثمانين رجلا غير الجرحي ، ودفن أهل العاصرية من بنى أسد الحسين بعد قتله بيوم ، وبعد أن أخذ عمرو بن سعد رأسه ورؤوس أصحابه وبعث بها إلى ابن زياد فأحضر الرؤوس بين يديه وجعل ينكث بقضيب ثنايا الحسين وزيد بن أرقم حاضر ، وأقام ابن سعد بعد قتل الحسين يومين . ثم رحل إلى الكوفة ومعه ثياب الحسين

وإخوانه ومن كان معه من الصبيان . وعلى بن الحسين مريض فأدخلهم على زياد ، ولما مرت زينب بالحسين صريعا صاحت يا محمداه هذا حسين بالعراء . مزمل بالدماء مقطع الأعضاء . يا محمد بناتك سبايا وذريتك مقتلة فأبكت كل عدو وصديق ، وطيف برأسه بالكوفة على خشبة ، ثم أرسل بها إلى يزيد بن معاوية وأرسل النساء والصبيان وفى عنق على بن الحسين ويده الغل وحملوا على الاقتاب فدخل بعض بنى أمية على يزيد فقال : أبشر يا أمير المؤمنين فقد أمكنك الله من عدو الله وعدوك قد قتل ووجه برأسه إليك . فلم يلبث إلا أياما حتى جيء برأس الحسين . فوضع بين يدى يزيد فى طشت فأمر الغلام فرفع الثوب الذى كان عليه . فحين رآه خمر وجهه بكمه كأنه شم منه رائحة وقال الحمد لله الذى كفانا المؤنة بغير مؤنة . كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله . قالت ريا حاضنة يزيد فدنوت منه فنظرت إليه وبه ردغ من حناء ، والذى أذهب نفسه وهو قادر على أن يغفر له : لقد رأيته يقرع ثناياه بقضيب فى يده ويقول أبياتا من شعر ابن الزبعري ، ومكث الرأس مصلوبا بدمشق ثلاثة أيام ، ثم أنزل فى خزائن السلاح حتى ولى سليمان بن عبد الملك الملك فبعث إليه . فجيء به وقد محل وبقى عظما أبيض ، فجعله فى سفط وطيبه وجعل عليه ثوبا ودفنه فى مقابر المسلمين فلما ولى عمر بن عبد العزيز بعث إلى خازن بيت السلاح أن وجه إليّ برأس الحسين بن علي . فكتب إليه : سليمان أخذه وجعله فى سفط وصلى عليه ودفنه فلما دخلت المسودة سألوا عن موضع الرأس الكريمة الشريفة فنبشوه وأخذوه والله أعلم ما صنع به .

وقال السرى لما قتل الحسين بن على بكت السماء عليه ، وبكاؤها حمرتها ، وعن عطاء فى قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والأرض . قال بكاؤها حمرة أطرافها ، وعن على بن مسهر قال حدثتنى جدتى قالت كنت أيام الحسين جارية شابة فكانت السماء أياما كأنها علقة ، وعن الزهري : بلغنى أنه لم يقلب حجر من أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين إلا وجد تحته دم عبيط ، ويقال إن الدنيا أظلمت يوم قتل ثلاثا ، ولم يمس أحد من زعفرانهم شيئا فجعله على وجهه إلا احترق ، وأنهم أصابوا إبلا فى عسكر الحسين يوم قتل فنحروها وطبخوها فصارت مثل العلقم . فما استطاعوا أن يسيغو منها شيئا ، وروى أن السماء أمطرت دما فأصبح كل شيء لهم ملآن دما .

ما كان يعمل فى يوم عاشوراء

قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين الله، فى يوم عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين. قبر كلثوم ونفيسة، ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالتهم بالنياحة والبكاء على الحسين عليه السلام، وكسروا أوانى السقائين فى الأسواق وشققوا الروايا، وسبوا من ينفق فى هذا اليوم، ونزلوا حتى بلغوا مسجد الريح، وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل، فخرج أبو محمد الحسين بن عمار، وكان يسكن هناك فى دار محمد بن أبى بكر، وأغلق الدرب، ومنع الفريقين، ورجع الجميع فحسن موقع ذلك عند المعز، ولولا ذلك لعظمت الفتنة. لأن الناس قد أغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وعطلوا الأسواق، وإنما قويت أنفس الشيعة بكون المعز بمصر، وقد كانت مصر لا تخلو منهم فى أيام الإخشيدية والكافورية فى يوم عاشوراء عند قبر كلثوم وقبر نفيسة، وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة، وتتعلق السودان فى الطرقات بالناس، ويقولون للرجل من خالك فإن قال معاوية أكرموه، وإن سكت لقى المكروه وأخذت ثيابه وما معه. حتى كان كافور قد وكل بالصحراء ومنع الناس من الخروج . . وقال المسيحي: وفى يوم عاشوراء يعنى من سنة ست وتسعين وثلاثمائة جرى الأمر فيه على ما يجرى كل سنة من تعطيل الأسواق، وخروج المنشدين إلى جامع القاهرة ونزولهم مجتمعين بالنوح والنشيد، ثم جمع بعد هذا اليوم قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان سائر المنشدين الذين يتكسبون بالنوح والنشيد وقال لهم: لا تلزموا الناس أخذ شيء منهم إذا وقفتم على حوانيتهم، ولا تؤذوهم، ولا تكسبوا بالنوح والنشيد، ومن أراد ذلك فعليه بالصحراء، ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة فى الجامع العتيق بعد الصلاة، وأنشدوا وخرجوا إلى الشارع بجمعهم، وسبوا السلف فقبضوا على رجل ونودى عليه: هذا جزاء من سب عائشة وزوجها صلى الله عليه وسلم، وقدم الرجل بعد النداء وضرب عنقه.

وقال ابن المأمون: وفى يوم عاشوراء يعنى من سنة خمس عشرة وخمسمائة عبى السماط بمجلس العطايا من دار الملك بمصر، التى كان يسكنها الأفضل بن أمير الجيوش وهو السماط المختص بعاشوراء، وهو يعبى فى غير المكان الجارى به العادة فى الأعياد، ولا يعمل مدورة خشب. بل سفرة كبيرة من أدم والسماط يعلوها من غير مرافع نحاس، وجميع الزبادى أجبان وسلائط ومخللات، وجميع الخبز من شعير وخرج الأفضل من باب فرد الكم، وجلس على بساط صوف من غير مشورة، واستفتح المقرئون، واستدعى الاشراف على طبقاتهم، وحمل السماط لهم، وقد عمل فى الصحن الأول الذى بين يدى الأفضل إلى آخر السماط عدس أسود ثم بعده عدس مصفى إلى آخر السماط، ثم رفع وقدمت صحون جميعها عسل نحل، ولما كان يوم عاشوراء من سنة ست عشر وخمسمائة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب الباذهنج يعنى من القصر بعد قتل الأفضل وعود الاسمطة إلى القصر على كرسى جريد بغير مخدة مثلما هو وجميع حاشيته. فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقراميز وأذن للقاضى والداعى والاشراف والأمراء بالسلام عليه، وهم بغير مناديل ملثمون حفاة، وعبى السماط فى غير موضعه المعتاد، وجميع ما عليه خبز الشعير والحواضر على ما كان فى الأيام الأفضلية، وتقدم إلى والى مصر والقاهرة بألا يمكنا أحد من جمع ولا قراءة مصرع الحسين، وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء الخاص والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم.
قال: وفى ليلة عاشورا ءمن سنة سبع عشرة وخمسمائة اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضى فيها إلى التربة الجيوشية، وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن إلى آخر الليل وعوده إلى داره، واعتمد فى صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك، وجلس الخليفة على الأرض مثلما يرى به الحزن، وحضر من شرف بالسلام عليه، والجلوس على السماط بما جرت به العادة.

قال ابن الطوير: إذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس. فإذا علا النهار ركب قاضى القضاة والشهود وقد غيروا زيهم. فيكونون كما هم اليوم، ثم صاروا إلى المشهد الحسيني. وكان قبل ذلك يعمل فى الجامع الأزهر. فإذا جلسوا فيه ومن معهم

من قراء الحضرة والمتصدرين فى الجوامع جاء الوزير. فجلس صدرا والقاضى والداعى من جانبيه، والقراء يقرءون نوبة بنوبة، وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعرا يرثون به أهل البيت عليهم السلام، فإن كان الوزير رافضيا تغلوا، وإن كان سنيا اقتصدوا، ولا يزوال كذلك إلى أن تمضى ثلاث ساعات. فيستدعون إلى القصر بنقباء الرسائل. فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره ويدخل قاضى القضاة والداعى ومن معهما إلى باب الذهب. فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط، وينصب فى الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ويجدون صاحب الباب جالسا هناك. فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه، والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضا، ثم يفرش عليها سماط الحزن مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة، والأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه بالقصد. فإذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة، وأدخل الناس للأكل منه. فيدخل القاضى والداعي، ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران إلى جانبه، وفى الناس من لا يدخل ولا يلزم أحد بذلك. فإذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركبانا بذلك الزى الذى ظهروا فيه، وطاف النوّاح بالقاهرة ذلك اليوم، وأغلق البياعون حوانيتهم إلى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون.

ذكر أبواب القصر الكبير الشرقي

وكان لهذا القصر الكبير الشرقى تسعة أبواب. أكبرها وأجلها باب الذهب، ثم باب البحر، ثم باب الريح، ثم باب الزمرد، ثم باب العيد ثم باب قصر الشوك، ثم باب الديلم، ثم باب تربة الزعفران ث، م باب الزهومة.

«باب الذهب»

وهو باب القصر الذى تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة فى يومى الاثنين والخميس للموكب المقدم ذكره بقاعة الذهب. قال ابن أبى طيء عن المعز لدين الله أنه لما خرج من بلاد المغرب، أخرج أموالا كانت له ببلاد المغرب وأمر بسبكها أرحية كارحية الطواحين، وأمر بها حين دخل إلى مصر فألقيت على باب قصره، وهى التى كان الناس يسمونها الحشرات، ولم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء فى أيام الخليفة المستنصر بالله. فلما ضاق بالناس الأمر أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد. فاتخذ الناس مبارد حادة وغرهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها ف. أمر بحمل الباقى إلى القصر فلم تر بعد ذلك.

وقال ابن ميسر: إن المعز لما قدم إلى القاهرة كان معه مائة جمل عليها الطواحين من الذهب. وقال غيره: كانت خمسمائة جمل على كل جمل ثلاثة أرحية ذهبا، وأنه عمل عضادتى الباب من تلك الارحية واحدة فوق أخري. فسمى باب الذهب.

«جلوس الخليفة فى الموالد بالمنظرة علو باب الذهب»

قال ابن المأمون فى أخبار سنة ست عشرة وخمسمائة: وفى الثانى عشر من المحرم كان المولد الآمري، واتفق كونه فى هذا الشهر يوم الخميس، وكان قد تقرر أن يعمل أربعون صينية خشكنانج وحلوى وكعك، وأطلق برسم المشاهد المحتوية على الضرائح الشريفة. لكل مشهد سكر وعسل ولوز ودقيق وشيرج، وتقدم بأن يعمل خمسمائة رطل حلوي، وتفرق على المتصدرين والقراء والفقراء للمتصدرين ومن معهم فى صحون، وللفقراء على أرغفة السميذ. ثم حضر فى الليلة المذكورة القاضى والداعى والشهود وجميع المتصدرين وقراء الحضرة، وفتحت الطاقات التى قبلى باب الذهب، وجلس الخليفة وسلموا عليه، ثم خرج متولى بيت المال بصندوق مختوم ضمنه عينا مائة دينار وألف

وثمانمائة وعشرون درهما برسم أهل القرافة وساكنيها وغيرهم، وفرقت الصوانى بعدما حمل منها للخاص وزمام القصر ومتولى الدفتر خاصة، وإلى دار الوزارة والأجلاء الإخوة والأولاد وكاتب الدست ومتولى حجبه الباب والقاضى والداعى ومفتى الدولة ومتولى دار العلم والمقرئين الخاص وأئمة الجوامع بالقاهرة ومصر، وبقية الأشراف. قال: وخرج الآمر. يعنى فى سنة سبع عشرة وخمسمائة بإطلاق ما يخص المولد الآمرى برسم المشاهد الشريفة من سكر وعسل وشيرج ودقيق، وما يصنع مما يفرق على المساكين بالجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وبالقرافة. خمسة قناطير حلوى وألف رطل دقيق، وما يعمل بدار الفطرة ويحمل للأعيان والمستخدمين من بعد القصور والدار المأمونية صينية خشكنانج، وحضر القاضى والداعى والمستخدمون بدار العيد والشهود فى عشية اليوم المذكور، وقطع سلوك الطريق بين القصرين وجلس الخليفة فى المنظرة وقبلوا الأرض بين يديه، والمقرئون الخاص جميعهم يقرءون القرآن، وتقدم الخطيب وخطب خطبة وسع القول فيها، وذكر الخليفة والوزير ثم حضر من أنشد وذكر فضيلة الشهر والمولود فيه، ثم خرج متولى بيت المال ومعه صندوق من مال النجاوى خاصة مما يفرق على الحكم المتقدم ذكره. قال واستهل ربيع الأول. ونبدأ بما شرف به الشهر المذكور وهو ذكر مولد سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله وسلم لثلاث عشرة منه، وأطلق ما هو برسم الصدقات من مال النجاوى خاصة ستة آلاف درهم ومن الأصناف من دار الفطرة أربعون صينية فطرة، ومن الخزائن برسم المتولين والسدنه للمشاهد الشريفة التى بين الجبل والقرافة التى فيها أعضاء آل رسول الله صلى الله عليه وسلم سكر ولوز وعسل وشيرج لكل مشهد، وما يتولى تفرقته سنا الملك ابن ميسر أربعمائة ألف رطل حلاوة وألف رطل خبزا. قال: وكان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطل أمر الموالد الأربعة النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر وما يهتم به، وقدم العهد به حتى نسى ذكرها. فأخذ الأستاذون يجددون ذكرها للخليفة الآمر بأحكام الله، ويرددون الحديث معه فيها، ويحسنون له معارضة الوزير بسببها وإعادتها، وإقامة الجوارى والرسوم فيها، فأجاب إلى ذلك وعمل ما ذكر، وقال ابن الطوير: ذكر جلوس الخليفة فى الموالد الستة فى تواريخ مختلفة وما يطلق فيها،

وهى مولد النبى صلى الله عليه وسلم، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ومولد فاطمة عليها السلام، ومولد الحسن، ومولد الحسين عليهما السلام، ومولد الخليفة الحاضر. ويكون هذا الجلوس فى المنظرة التى هى أنزل المناظر وأقرب إلى الأرض قبالة دار فخر الدين جهاركس والفندق المستجد. فإذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول، تقدم بأن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطارا من السكر اليابس حلواء يابسة من طرائفها وتعنى فى ثلاثمائة صينية من النحاس، وهو مولد النبى صلى الله عليه وسلم فتفرق تلك الصوانى فى أرباب الرسوم من أرباب الرتب، وكل صينية فى قوارة من أول النهار إلى ظهره، فأول أرباب الرسوم قاضى القضاة. ثم داعى الدعاة، ويدخل فى ذلك القراء بالحضرة والخطباء والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة وقومة المشاهد، ولا يخرج ذلك مما يتعلق بهذا الجانب بدعو يخرج من دفتر المجلس كما قدمناه. فإذا صلى الظهر ركب قاضى القضاة والشهود بأجمعهم إلى الجامع الأزهر، ومعهم أرباب تفرقة الصواني. فيجلسون مقدار قراءة الختمة الكريمة، ثم يستدعى قاضى القضاة ومن معه، فإن كانت الدعوة مضافة إليه وإلا حضر الداعى معه بنقباء الرسائل. فيركبون ويسيرون إلى أن يصلوا إلى آخر المضيق من السيوفيين قبل الابتداء بالسلوك بين القصرين، فيقفون هناك وقد سلكت الطريق على السالكين من الركن المخلق ومن سويقة أمير الجيوش عند الحوض هناك، وكنست الطريق فيما بين ذلك، ورشت بالماء رشا خفيفا، وفرش تحت المنظرة المذكورة بالرمل الأصفر، ثم يستدعى صاحب الباب من دار الوزارة ووالى القاهرة ماض وعائد لحفظ ذلك اليوم من الازدحام على نظر الخليفة. فيكون بروز صاحب الباب من الركن المخلق هو وقت استدعاء القاضى ومن معه من مكان وقوفهم، فيقربون من المنظرة ويترجلون قبل الوصول إليها بخطوات فيجتمعون تحت المنظرة دون الساعة الزمانية بسمت وتشوف لانتظار الخليفة، فتفتح إحدى الطاقات فيظهر منها وجهه وما عليه من المنديل وعلى رأسه عدة من الأستاذين المحنكين وغيرهم من الخواص منهم، ويفتح بعض الأستاذين طاقة ويخرج منها رأسه ويده اليمنى فى كمه، ويشير به قائلا: أمير المؤمنين يرد عليكم السلام فيسلم القضاة أولا بنعوته وبصاحب الباب بعده كذلك، وبالجماعة الباقية

جملة جملة من غير تعيين أحد، فيستفتح قراء الحضرة بالقراءة، ويكونون قياما فى الصدر وجوههم للحاضرين وظهورهم إلى حائط المنظرة. فيقدم خطيب الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم: فيخطب كما يخطب فوق المنبر إلى أن يصل إلى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فيقول: وإن هذا يوم مولده إلى ما من الله به على ملة الإسلام من رسالته، ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة، ثم يؤخر، ويقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم خطيب الجامع الأقمر فيخطب كذلك، والقراء فى خلال خطابة الخطباء يقرءون. فإذا انتهت خطابة الخطباء أخرج الأستاذ رأسه ويده فى كمه من طاقته ورد على الجماعة السلام، ثم تغلق الطاقتان فتنفض الناس، ويجرى أمر الموالد الخمسة الباقية على هذا النظام إلى حين فراغها على عدتها من غير زيادة ولا نقص. انتهي، وهذا الباب صار بعد زوال الدولة الفاطمية يقابل دار الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحى التى عرفت بعد ذلك بالدار القطبية، وهى الآن المارستان المنصوري، وصار موضع هذا الباب محراب مدرسة الظاهر ركن الدين بيبرس.

«باب البحر»

هو من إنشاء الحاكم بأمر الله أبى على منصور، وهدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، وشوهد فيه أمر عجيب. قال جامع السيرة الظاهرية: لما كان يوم عاشوراء - يعنى من سنة اثنتين وسبعين وستمائة رسم بنقض علو أحد أبواب القصر المسمى بباب البحر قبالة المدرسة دار الحديث الكاملية. لأجل نقل عمد فيه لبعض العمائر السلطانية. فظهر صندوق فى حائط مبنى عليه فللوقت أحضرت الشهود وجماعة كثيرة، وفتح الصندوق فوجد فيه صورة من نحاس أصفر مفرغ على كرسى شبه الهرم ارتفاعه قدر شبر له أربعة أرجل تحمل الكرسي، والصنم جالس متوركا وله يدان مرفوعتان ارتفاعا جيدا. يحمل صحيفة دورها قدر ثلاثة أشبار، وفى هذه الصحيفة أشكال ثابتة، وفى

الوسط صورة رأس بغير جسد ودائره مكتوب كتابة بالقبطى وبالقلفطيريات، وإلى جانبها فى الصحيفة شكل له قرنان يشبه شكل السنبلة، وإلى الجانب الآخر شكل آخر، وعلى رأسه صليب والآخر فى يده عكاز وعلى رأسه صليب، وتحت أرجلهم أشكال طيور، وفوق رؤوس الأشكال كتابة، ووجد من هذا الصنم فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان التى يكتبون فيها بالمكاتب مدهون. وجهه الواحد أبيض ووجه الواحد أحمر وفيه كتابة قد تكشط، وأما الوجه الأبيض فهومكتوب بقلم الصحيفة القبطى والمكتوب فى الوجه الأحمر على هذه الصورة السطر الأول بقى منه مكتوبا الإسكندر، والسطر الثانى الأرض وهبها له، والسطر الثالث وجرب لكل، والسطر الرابع أصحاب السطر الخامس وهو بحرس السطر السادس واحترازه بقوة، والسطر السابع الملك مرجو، وأبواب السطر الثامن غير بيته سبعة. السطر التاسع عالم حكيم عالم فى عقله، والسطر العاشر وصفها فلا تفسد، والسطر الحادى عشر طارد كل سوء والذى صاغها النساء، والسطر الثانى عشر سد أيضا كل آثار أسدية بيبرس وهى أحد السطر الثالث عشر بيبرس ملك الزمان والحكمة كلمة الله عز وجل. هذا صورة ما وجد فى اللوح مما بقى من الكتابة، والبقية قد تكشط، وقيل إن هذا اللوح بخط الخليفة الحاكم وأعجب ما فيه اسم السلطان وهو بيبرس، ولما شاهد السلطان ذلك أمر بقراءته فعرض على قراء الأقلام فقريء، وذلك بالقلم القبطي، ومضمونه طلسم عمل للظاهرين الحاكم واسم أمه رضد وفيه أسماء الملائكة وعزائم ورقى وأسماء روحانية وصور ملائكة أكثره حرس لديار مصر وثغورها وصرف الأعداء عنها وكفهم عن طروقهم إليها، وابتهال إلى الله تعالى بأقسام كثيرة لحماية الديار المصرية وصونها من الأعداء، وحفظها من كل طارق من جميع الأجناس، وتضمن هذا الطلسم كتابة بالقلفطيريات وأوفاقا وصورا وخواص لا يعلمها إلا الله تعالي، وحمل هذا الطلسم إلى السلطان وبقى فى ذخائره. قال ورأيت فى كتاب عتيق رث. سماه مصنفه وصية الإمام العزيز بالله والد الإمام الحاكم بأمر الله لولده المذكور، وقد ذكر فيه الطلسمات التى على أبواب القصر ومن جملتها أن أول البروج الحمل وهو بيت المريخ وشرف الشمس، وله القوة على جميع سلطان الفلك. لأنه صاحب السيف واسفهسلارية العسكر بين يدى

الشمس الملك، وله الأمر والحرب والسلطان والقوة والمستولى لقوة روحانيته على مدينتنا، وقد أقمنا طلسما لساعته ويومه لقهر الأعداء وذل المنافقين. فى مكان أحكمناه على إشرافه عليه والحصن الجامع لقصر مجاور الأول باب بنيناه. هذا نص ما رأيته. انتهي، ولعل معنى كتابة بيبرس فى هذا اللوح إشارة إلى أن هدم هذا الباب يكون على زمان بيبرس. فإن القوم كانت لهم معارف كثيرة وعنايتهم بهذا الفن وافرة كبيرة والله أعلم وموضع باب البحر هذا اليوم يعرف بباب قصر بشتاق قبالة المدرسة الكاملية.

«باب الريح»

كان على ما أدركته تجاه سور سعيد السعداء على يمنة السالك من الركن المخلق إلى رحبة باب العيد، وكان بابا مربعا يسلك فيه من دهليز مستطيل مظلم إلى حيث المدرسة السابقية ودار الطواشى سابق الدين وقصر أمير السلاح، وينتهى إلى ما بين القصرين تجاه حمام البيسري، وعرف هذا الباب فى الدولة الايوبية بباب قصر ابن الشيخ، وذلك أن الوزير الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب كان يسكن بالقصر الذى فى داخل هذا الباب، ثم قيل له فى زمننا باب القصر، وكان على حاله له عضادتان من حجارة ويعلوه أسكفة حجر مكتوب فيها نقرا فى الحجر عدة أسطر بالقلم الكوفى لم يتهيأ لى قراءة ما فيها، وكان دهليز هذا الباب عريضا يتجاوز عرضه فيما أقدر العشرة أذرع فى طول كبير جدا، ويعلو هذا الباب دور للسكنى تشرف على الطريق. ومازال على ذلك إلى أن أنشأ الأمير الوزير المشير جمال الدين يوسف الاستادار مدرسته برحبة باب العيد، واغتصب لها أملاك الناس، وكان مما اغتصب ما بجوار المدرسة المذكورة من الحوانيت والرباع التى فوقها وما جاور ذلك، وهدمها ليبنيها على ما يريد. فهدم هذا الباب فى صفر سنة إحدى عشرة وثمانمائة وبنى فى مكانه ومكان الدهليز المظلم الذى كان ينتهى بالسالك فيه من هذا الباب إلى المدرسة السابقية هذه القيسارية الكبيرة، ذات

الحوانيت والسقيفة والأبواب الجديدة، ودخل فيها بعض مما كان بجانبى هذا الباب من الحوانيت وعلوها، ولما هدم هذا الباب ظهر فى داخل بنيانه شخص، وبلغنى ذلك فسرت إلى الأمير المذكور، وكان بينى وبينه صحبة لأشاهد هذا الشخص المذكور، والتمست منه احضاره فأخبرنى أنه أحضر إليه شخص من حجارة قصير القامة. إحدى عينيه أصغر من الأخري. فقلت لابد لى من مشاهدته. فأمر بإحضاره الموكل بالعمارة وأنا معه إذ ذاك فى موضع الباب وقد هدم ما كان فيه من البناء. فذكر أنه رماه بين أحجار العمارة وأنه تكسر وصار فيما بينها ولا يستطيع تمييزه منها. فأغلظ عليه وبالغ فى الفحص عنه فأعياهم إحضاره. فسألت الرجل حينئذ عنه فقال لي: إنهم لما انتهوا فى الهدم إلى حيث كان هذا الشخص إذا بدائرة فيها كتابة وبوسطها شخص قصير صغير إحدى العينين من حجارة، وهذه كانت صفة جمال الدين. فإنه كان قصير القامة إحدى عينيه أصغر من الأخري، ويشبه والله أعلم أن يكون قد عين فى تلك الكتابة التى كانت حول الشخص أن هذا الباب يهدمه من هذه صفته كما وجد فى باب البحر اسم بيبرس الذى هدم على يديه وبأمره، وقد ظفر جمال الدين هذا بأموال عظيمة وجدها فى داخل هذا القصر لما أنشأ داره الأولى فى الحدرة من داخل هذا الباب فى سنة ست وتسعين وسبعمائة، وكان لكثرة هذا المال لا يستطيع كتمانه، ومن شدة خوفه يومئذ من الظاهر برقوق أن يظهر عليه لا يقدر أن يصرح به فكان يقول لأصحابه وخواصه: وجدت فى هذا المكان سبعين قفة من حديد. أخبرنى اثنان رئيسان من أعيان الدولة عنه أنه قال لهما هذا القول. وكنت إذ ذاك أيام عمارته لهذه القاعة أتردد لشيخنا سراج الدين عمر بن الملقن رحمه الله تعالى بالمدرسة السابقية، وبها كان يسكن، فتعرفت بجمال الدين منه، وكان يومئذ من عرض الجند ويعرف باستادار نحاس. فاشتهر هناك أنه وجد حال هدمه وعمارته القاعة والرواق بالحدرة مكانا مبنيا تحت الأرض مبيض الحيطان فيه مال. فما كان عندى شك أنه من أموال خبايا الفاطميين. فإنه قد ذكر غير واحد من الإخباريين أن السلطان صلاح الدين لما استولى على القصر بعد موت العاضد لم يظفر بشيء من الخبايا و، عاقب جماعة فلم يوقفوه على أمرها.

«باب الزمرذ»

هذا الباب مكانه اليوم فى داخل درب السلامى بخط رحبة باب العيد، وهو عقد محكم البناء، ويعلوه قبة قد عملت مسجدا، وتحتها حانوت يسكنه سقاء ويقابله مصطبة، وأدركت العامة وهم يسمون هذا القبة بالقاهرة، ويزعمون أن الخليفة كان يجلس بها ويرخى كمه فتأتى الناس وتقبله، وهذا غير صحيح، وقيل لهذا الباب باب العيد. لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيد إلى المصلى بظاهر باب النصر. فيخطب بعد أن يصلى بالناس صلاة العيد كما سنقف عليه عند ذكر المصلى إن شاء الله تعالي. وفى سنة إحدى وستين وستمائة بنى الملك الظاهر بيبرس خانا للسبيل بظاهر مدينة القدس، ونقل إليه باب العيد هذا فعمله بابا له، وتم بناؤه فى سنة اثنتين وستين.

«باب قصر الشوك»

وهو الذى كان يتوصل منه إلى قصر الشـــوك وموضـــعه الآن تجــاه حمام عرفت بحمـام الأيدمري، ويقـال لهـا اليوم حمام يونس عند موقف المكارية بجوار خزانة البنـــود على يمنة السالك منها إلى رحبة الأيدمري، وهـو الآن زقاق ينتهى إلى بئر يســقى منها بالدلاء، ويتوصل من هناك إلى المارستـان العتيق وغيره، وأدركت منه قطعـــة من جانبه الأيسر.

«باب الديلم»

وكان يدخل منه إلى المشهد الحسينى وموضعه الآن درج ينزل منها إلى تجاه الفندق الذى كان دار الفطرة و، لم يبق لهذا الباب أثر البتة .

«باب تربة الزعفران»

مكانه الآن بجوار خان الخليلى من بحريه مقابل فندق المهمندار الذى يدق فيه ورق الذهب، وقد بنى بأعلاه طبقة ورواق، ولا يكاد يعرفه كثير من الناس، وعليه كتابة بالقلم الكوفى ، وهذا الباب كان يتوصل منه إلى تربة القصر المذكورة فيما تقدم .

«باب الزهومة»

كان فى آخر ركن القصر مقابل خزانة الدرق التى هى اليوم خان مسرور وقيل له باب الزهومة . لأن اللحوم وحوائج الطعام التى كانت تدخل إلى مطبخ القصر الذى للحوم إنما يدخل بها من هذا الباب . فقيل له باب الزهومة يعنى باب الزفر، وكان تجاهه أيضا درب السلسلة الآتى ذكره إن شاء الله تعالي، وموضعه الآن باب قاعة الحنابلة من المدارس الصالحية تجاه فندق مسرور الصغير، ومن بعد باب الزهومة المذكور باب الذهب الذى تقدم ذكره فهذه أبواب القصر الكبير التسعة .

ذكر المنحر

وكان بجوار هذا القصر الكبير المنحر، وهو الموضع الذى اتخذه الخلفاء لنحر الأضاحى فى عيد النحر وعيد الغدير، وكان تجاه رحبة باب العيد، وموضعه الآن يعرف بالدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس، وصار موضعه ما فى داخل هذا الدرب من الدور والطاحون وغيرها، وظاهره تجاه رأس حارة برجوان. يفصل بينه وبين حارة برجوان الحوانيت التى تقابل باب الحارة، ومن جملة المنحر الساحة العظيمة التى عملت لها خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين البوابة العظيمة بخط الركن المخلق بجوار قيسارية الجلود، التى عمل فيها حوانيت الأساكفة، وكان الخليفة إذا صلى صلاة عيد النحر وخطب ينحر بالمصلي، ثم يأتى المنحر المذكور وخلفه المؤذنون يجهرون بالتكبير ويرفعون أصواتهم كلما نحر الخليفة شيء، وتكون الحربة فى يد قاضى القضاة وهو بجانب الخليفة ليناوله إياها إذا نحر، وأول من سن منهم إعطاء الضحايا وتفرقتها فى أولياء الدولة على قدر رتبهم العزيز بالله نزار.

«ما كان يعمل فى عيد النحر»

قال المسبحي: وفى يوم عرفة يعنى من سنة ثمانين وثلاثمائة حمل يانس صاحب الشرطة السماط، وحمل أيضا على بن سعد المحتسب سماطا آخر، وركب العزيز بالله يوم النحر فصلى وخطب على العادة ثم نحر عدة نوق بيده، وانصرف إلى قصره فنصب السماط والموائد، وأكل ونحر بين يديه، وأمر بتفرقة الضحايا على أهل الدولة، وذكر مثل ذلك فى باقى السنين. وقال ابن المأمون: فى عيد النحر من سنة خمس عشرة وخمسمائة وأمر بتفرقة عيد النحر والهبة وجملة العين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وسبعون دينارا، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع. برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين وكاتب

الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم من المستخدمين، وعدة ما ذبح ثلاثة أيام النحر فى هذا العيد وعيد الغدير ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا. تفصيله. نوق مائة وسبعة عشر رأسا بقر أربعة وعشرون رأسا. جاموس عشرون رأسا هذا الذى ينحره ويذبحه الخليفة بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط ويذبح الجزارون من الكباش ألفين وأربعمائة رأس، والذى اشتملت عليه نفقات الاسمطة فى الأيام المذكورة خارجا عما يعمل بالدار المأمونية من الاسمطة وخارجا عن أسمطة القصور عند الحرم، وخارجا عن القصور الحلواء، والقصور المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة ألف وثلاثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار، ومن السكر برسم القصور، والقطع المنفوخ أربعة وعشرون قنطارا تفصيله. عن قصرين فى أول يوم خاصة اثنا عشر قنطارا. المنفوخ عن ثلاث الأيام اثنا عشر قنطارا، وقال فى سنة ست عشرة وخمسمائة، وحضر وقت تفرقة كسوة عيد النحر، ووصل ما تأخر فيها بالطراز، وفرقت الرسوم على من جرت عادته خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته، وخارجا عما يفرق على سبيل المناخ ومن باب الساباط مذبوحا ومنحورا ستمائة دينار وسبعة عشر دينارا، وفى التاسع من ذى الحجة جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على سرير الملك، وحضر الوزير وأولاده وقاموا بما يجب من السلام، واستفتح المقرئون، وتقدم حامل المظلة، وعرض ما جرت عادته من المظال الخمسة التى جميعها مذهب، وسلم الأمراء على طبقاتهم، وختم المقرئون، وعرضت الدواب جميعها والعماريات والوحوش، وعاد الخليفة إلى محله. فلما أسفر الصبح خرج الخليفة وسلم على من جرت عادته بالسلام عليه، ولم يخرج شيء عما جرت به العادة فى الركوب والعود، وغير الخليفة ثيابه، ولبس ما يختص بالنحر، وهى البدلة الحمراء بالشدة التى تسمى بشدة الوقار والعلم. الجوهر فى وجهه بغير قضيب ملك فى يده إلى أن دخل المنحر، وفرشت الملاءة الديبقى الحمراء وثلاث بطائن مصبوغة حمر، ليتقى بها الدم مع كون كل من الجزارين بيده مكبة صفصاف مدهونة. يلقى بها الدم على الملاءة، وكبر المؤذنون، ونحر الخليفة أربعا وثلاثين ناقة، وقصد المسجد الذى آخر صف المنحر وهو مغلق بالشروب والفاكهة المعباة فيه بمقدار ما غسل يديه، ثم ركب من فوره، وجملة ما

نحره وذبحه الخليفة خاصة فى المنحر وباب الساباط دون الأجل الوزير المأمون وأولاده وإخوته فى ثلاثة الأيام ما عدته ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا، تفصيله. نوق مائة وثلاث عشرة ناقة نحر منها فى المصلى عقيب الخطبة ناقة وهى التى تهدي، وتطلب من آفاق الأرض للتبرك بلحمها، ونحر فى المناخ مائة ناقة، وهى التى يحمل منها للوزير وأولاده وإخوته والامراء والضيوف والأجناد والعسكرية والمميزين من الراجل، وفى كل يوم يتصدق منها على الضعفاء والمساكين بناقة واحدة، وفى اليوم الثالث من العيد تحمل ناقة منحورة للفقراء فى القرافة، وينحر فى باب الساباط ما يحمل إلى من حوته القصور، وإلى دار الوزارة، وإلى الأصحاب والحواشى اثنتا عشرة ناقة، وثمانى عشرة بقرة وخمس عشرة جاموسة، ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس ويتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر، وأما مبلغ المنصرف على الاسمطة فى ثلاثة الأيام خارجا عن الأسمطة بالدار المأمونية فألف وثلثمائة وستة وعشرون دينارا وربع وسدس دينار، ومن السكر برسم قصور الحلاوة والقطع المنفوخ المصنوعة بدار الفطرة خارجا عن المطابخ ثمانية وأربعون قنطارا.

وقال ابن الطوير: فإذا انقضى ذو القعدة وأهل ذو الحجة اهتم بالركوب فى عيد النحر، وهو يوم عاشره فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى والركوب إلى المصلي، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح، ولا ينخرم منه شيء وركوبه ثلاثة أيام متوالية. فأولها يوم الخروج إلى المصلي، والخطابة كعيد الفطر، وثانى يوم وثالثه إلى المنحر، وهو المقابل لباب الريح الذى فى ركن القصر المقابل لسور دار سعيد السعداء - الخانقاه اليوم - وكان براحا خاليا لا عمارة فيه. فيخرج من هذا الباب الخليفة بنفسه، ويكون الوزير واقفا عليه فيترجل ويدخل ماشيا بين يديه بقربه هذا بعد انفصالهما من المصلي، ويكون قد قيد إلى هذا المنحر أحد وثلاثون فصيلا وناقة أمام مصطبة مفروضة يطلع عليها الخليفة والوزير ثم أكابر الدولة، وهو بين الأستاذين المحنكين فيقدم الفراشون له إلى المصطبة رأس، ويكون بيده حربة من رأسها الذى لا سنان فيه ويد قاضى القضاة فى أصل سنانها فيجعله القاضى فى نحر النحيرة ويطعن بها الخليفة وتجر من بين يديه حتى يأتى على العدة

المذكورة، فأول نحيرة هى التى تقدد، وتسير إلى داعى اليمن، وهو الملك فيه فيفرقها على المعتقدين من وزن نصف درهم، إلى ربع درهم ثم يعمل ثانى يوم كذلك. فيكون عدد ما ينحر سبعا وعشرين، ثم يعمل فى اليوم الثالث كذلك وعدة ما ينحر ثلاث وعشرون. هذا وفى مدة هذه الأيام الثلاثة يسير رسم الأضحية إلى أرباب الرتب والرسوم كما سيرت الغرة فى أول السنة من الدنانير بغير رباعية ولا قراريط على مثال الغرة من عشرة دنانير إلى دينار، وأما لحم الجزور فإنه يفرق فى أرباب الرسوم للتبرك فى أطباق مع أدوان الفراشين، وأكثر ذلك تفرقة قاضى القضاة وداعى الدعاة للطلبة بدار العلم، والمتصدرين بجوامع القاهرة ونقباء المؤمنين بها من الشيعة للتبرك. فإذا انقضى ذلك خلع الخليفة على الوزير ثيابه الحمر، الذى كانت عليه ومنديلا آخر بغير السمة، والعقد المنظوم من القصر عند عود الخليفة من المنحر، فيركب الوزير من القصر بالخلع المذكورة شاقا القاهرة، فإذا خرج من باب زويلة انعطف على يمينه سالكا على الخليج. فيدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة، وبذلك انفصال عيد النحر.

وقال ابن أبى طيّ: عدة ما يذبح فى هذا العيد فى ثلاثة أيام النحر، وفى يوم عيد الغدير ألفان وخمسمائة وأحد وستون رأسا تفصيله. نوق مائة وسبعة عشر رأسا بقر. أربعة وعشرون رأسا جاموس. عشرون رأسا هذا الذى ينحره الخليفة ويذبحه بيده فى المصلى والمنحر وباب الساباط، ويذبح الجزارون بين يديه من الكباش ألفا وأربعمائة رأس.

وقال ابن عبد الظاهر كان الخليفة ينحر بالمنحر مائة رأس، ويعود إلى خزانة الكسوة فيغير قماشه ويتوجه إلى الميدان وهو الخرنشف بباب الساباط للنحر والذبح، ويعود بعد ذلك إلى الحمام ويغير ثيابه للجلوس على الاسمطة، وعدة ما يذبحه ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا مائة وثلاث عشر ناقة والباقى بقر وغنم.

قال ابن الطوير: وثمن الضحايا على ما تقرر ما يقرب من ألفى دينار، وكانت تخرج المخلقات إلى الأعمال بشائر بركوب الخليفة فى يوم عيد النحر. فمما كتب به الأستاذ البارع أبو القسم على بن منجب بن سليمان الكاتب المعروف بابن الصيرفى المنعوت بتاج الرياسة: أما بعد فالحمد لله الذى رفع منار الشرع وحفظ نظامه.. ونشر راية هذا الدين

وأوجب إعظامه . . وأطلع بخلافة أمير المؤمنين كواكب سعوده . . وأظهر للمؤلف والمخالف عزة أحزابه وقوة جنوده . . وجعل فرعه ساميا ناميا ، وأصله ثابتا راسخا . . وشرفه على الأديان بأسرها ، وكان لعراها فاصما ، ولأحكامها ناسخا . . يحمده أمير المؤمنين أن ألزم طاعته الخليقة . . وجعل كراماته الأسباب الجديرة بالإمارة الخليقة . . ويرغب إليه فى الصلاة على جده محمد الذى حاز الفخار أجمعه . . وضمن الجنة لمن آمن به واتبع النور الذى أنزل معه . . ورفعه إلى أعلى منزلة تخير لها منها المحل . . وأرسله بالهدى ودين الحق فزهق الباطل وخمدت ناره واضمحل . . صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبى طالب خير الأمة وإمامها . . وحبر الملة وبدر تمامها . . والموفى يومه فى الطاعات على ماضى أمسه . . ومن أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المباهلة مقام نفسه . . واختصه بأبعد غاية فى سورة براءة فنادى فى الحج بأولها ، ولم يكن غيره ينفذ نفاذه ولا يسد مكانه . . لأنه قال لا يبلغ عنى إلا رجل من أهل بيتي . عملا فى ذلك بما أمر الله به سبحانه . . وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله فى أرضه . . والقائمين فى سياسة خلقه . . بصريح الإيمان ومحضه . . والمحكمين من أمر الدين ما لا وجه لحله ولا سبيل إلى نقضه . . وسلم عليهم أجمعين سلاما يتصل دوامه . . ولا يخشى انصرامه . . و مجد وكرم . . وشرف وعظم . . وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم الأحد عيد النحر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة الذى تبلج فجره عن سيئات محصت . . ونفوس من آثار الذنوب خلصت . . ورحمة امتدت ظلالها وانتشرت . . ومغفرة هنأت ونشرت . . وكان من خبر هذا اليوم أن أمير المؤمنين برز لجميع من بحضرته من أوليائه . . متوجها لقضاء حق هذا العيد السعيد وأدائه . . فى عترة راسخة ، قواعدها متمكنة . . وعساكر جمة تضيق عنها ظروف الأمكنة . . ومواكب تتوالى كتوالى السيل . . وتهاب هيبة مجيئه فى الليل . . بأسلحة تحسر لها الأبصار وتبرق . . وترتاع الأفئدة منها وتفرق . . فمن مشرفى إذا ورد تورد . . ومن سمهرى إذا قصد تقصد . . ومن عمد إذا عمدت . . تبرأت المغافر من ضمانها . . و من قسى إذا أرسلت بنانها وصلت إلى القلوب بغير استئذانها . . ولم يزل سائرا فى هدى الإمامة وأنوارها . . وسكينة الخلافة ووقارها . . إلى

أن وصل إلى المصلى قدام المحراب . . وأدى الصلاة . إذا لم يكن بينه وبين التقبيل حجاب . . ثم علا المنبر فاستوى على ذروته . . ثم هلل الله وكبر ، وأثنى على عظمته . . وأحسن إلى الكافة ببليغ موعظته . . وتوجه إلى ما أعد من البدن فنحره تكميلا لقربته . . وانتهى فى ذلك إلى ما أمر الله عز وجل وعاد إلى قصوره المكرمة . . ومنازله المقدسة . . وقد رضى الله عمله . . وشكر فعله وتقبله . . أعلمك أمير المؤمنين بذلك لتشكر الله على النعمة فيه . . وتذيعه قبلك على الرسم مما تجاريه . . فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى .

ذكر دار الوزارة الكبرى

وكان بجوار هذا القصر الكبير الشرقى تجاه رحبة باب العيد دار الوزارة الكبري ، ويقال لها الدار الأفضلية والدار السلطانية .

قال ابن عبد الظاهر : دار الوزارة بناها بدر الجمالى أمير الجيوش ، ثم لم يزل يسكنها من يلى أمرة االجيوش إلى أن انتقل الأمر عن المصريين ، وصار إلى بنى أيوب . فاستقر سكن الملك الكامل بقلعة الجبل خارج القاهرة ، وسكنها السلطان الملك الصالح ولده ، ثم أرصدت دار الوزارة لمن يرد من الملوك ورسل الخليفة إلى هذا الوقت ، وكانت دار الوزارة قديما تعرف بدار القباب ، وأضافها الأفضل إلى دور بنى هريسة ، وعمرها دارا وسماها دار الوزارة . انتهي ، والذى تدل عليه كتب ابتياعات الأملاك القديمة التى بتلك الخطة أنها من بناء الأفضل ، لا من عمارة أبيه بدر والدار التى عمرها أمير الجيوش بدر هى داره بحارة برجوان . التى قيل لها دار المظفر ، وما زال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل بن أمير الجيوش يسكنون بدار الوزارة هذه إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وابنه من بعده الملك العزيز عثمان ، ثم ابنه الملك المنصور ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ثم ابنه الملك الكامل وصاروا يسمونها

الدار السلطانية، وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن بالقلعة الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر أيوب، وجعلها منزلا للرسل فلما ولى قطز سلطنة ديار مصر وتلقب بالملك العادل فى سنة سبع وخمسين وستمائة، وحضر إليه البحرية وفيهم بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى من الشام خرج الملك العادل قطز إلى لقائهم، وأنزل الأمير ركن الدين بيبرس بدار الوزارة. فلم يزل بها حتى سافر صحبة قطز إلى الشام وقتله، وعاد إلى مصر فتسلطن وسكن بقلعة الجبل.

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة لما قتل الأشرف خليل بن قلاوون فى واقعة بيدرا، ثم قتل بيدرا، وأجلس الملك الناصر محمد على تخت الملك، وثارت الأشرفية من المماليك على الأمراء وقتل من قتل منهم خاف بقية الأمراء من شر المماليك الأشرفية. فقبض منهم على نحو الستمائة مملوك، وأنزل بهم من القلعة وأسكن منهم نحو الثلاثمائة بدار الوزارة، وأسكن منهم كثير فى مناظر الكبش، وأجريت عليهم الرواتب، ومنعوا من الركوب إلى أن كان من أمرهم ما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب.

ولما كانت سنة سبعمائة أخذ الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب السلطنة فى أيام الملك المنصور حسام الدين لاجين قطعة من دار الوزارة. فبنى بها الربع المقابل لخانقاه سعيد السعداء، ثم بنى المدرسة المعروفة بالقراسنقرية، ومكتب الأيتام. فلما كانت دولة البرجية بنى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية والرباط بجانبها من جملة دار الوزارة، وذلك فى سنة تسع وسبعمائة، ثم استولى الناس على ما بقى من دار الوزارة وبنوا فيها. فمن حقوقها الربع تجاه الخانقاه الصلاحية دار سعيد السعداء، والمدرسة القراسنقرية وخانقاه ركن الدين بيبرس وما بجوارها من دار قزمان ودار الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير المعروفة بدار خوند طولوباى الناصرية جهة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وحمام الأعسر التى بجانبها الحمام المجاورة لها، وما وراء هذه الأماكن من الآدر وغيرها وهى الفرن والطاحون التى قبليّ المدرسة القراسنقرية، ومن الآدر والخربة التى قبليّ ربع قراسنقر وما جاور باب سر المدرسة القراسنقرية من الآدر وخربة أخرى هناك، والدار الكبرى المعروفة بدار الأمير سيف الدين برلغى الصغير ـ صهر

الملك المظفر بيبرس الجاشنكير المعروفة اليوم بدار الوزارة إلى سعيد السعداء ، وهو باق إلى الآن فى صدر قاعتها ، وذكر أن فيه حية عظيمة ، ومن حقوق دار الوزارة المناخ المجاور لهذه القاعة ، وكان على دار الوزارة سور مبنى بالحجارة ، وقد بقى الآن منه قطعة فى حد دار الوزارة الغربى وفى حدها القبلي ، وهو الجدار الذى فيه باب الطاحون والساقية تجاه باب سعيد السعداء من الزقاق . الذى يعرف اليوم بخرائب تتر ، ومنه قطعة فى حدها الشرقى عند باب الحمام والمستوقد بباب الجوانية ، وكان بدار الوزارة هذا الشباك الكبير المعمول من الحديد فى القبة التى دفن تحتها بيبرس الجاشنكير من خانقاهه ، وهو الشباك الذى يقرأ فيه القراء ، وكان موضوعا فى دار الخلافة ببغداد ، يجلس فيه الخلفاء من بنى العباس . فلما استولى الأمير أبو الحرث البساسيرى على بغداد ، وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى أربعين جمعة ، وانتهب قصر الخلافة ، وصار الخليفة القائم بأمر الله العباسى إلى عانة ، وسير البساسيرى الأموال والتحف من بغداد إلى المستنصر بالله بمصر فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، كان من جملة ما بعث به منديل الخليفة القائم بأمر الله الذى عممه بيده فى قالب من رخام ، قد وضع فيه كما هو حتى لا تتغير شدته ، ومع هذا المنديل رداءه ، والشباك الذى كان يجلس فيه ويتكيء عليه . فاحتفظ بذلك إلى أن عمرت دار الوزارة على يد الأفضل بن أمير الجيوش . فجعل هذا الشباك بها يجلس فيه الوزيرويتكيء عليه ، ومازال بها إلى أن عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية ، وأخذ من دار الوزارة أنقاضا . منها هذا الشباك فجعله فى القبة ، وهو شباك جليل وأما العمامة والرداء فما زالا بالقصر حتى مات العاضد ، وتملك السلطان صلاح الدين ديار مصر فسيرهما فى جملة ما بعث من مصر إلى الخليفة المستضيء بالله العباسى ببغداد ، ومعهما الكتاب الذى كتبه الخليفة القائم على نفسه ، وأشهد عليه العدول فيه أنه لاحق لبنى العباس ولا له من جملتهم فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام ، وكان البساسيرى ألزمه حتى أشهد على نفسه بذلك ، وبعث بالإشهاد إلى مصر فأنفذه صلاح الدين إلى بغداد مع ما سير به من التحف التى كانت بالقصر ، وأخبرنى شيخ معمر يعرف بالشيخ على السعودى ولد فى سنة سبع وسبعمائة قال : رأيت مرة وقد سقط من ظهر الرباط المجاور

الخانقاه بيبرس من جملة ما بقى من سور دار الوزارة جانب ظهرت منه علبة فيها رأس إنسان كبير. عندى أن هذا الرأس من جملة رؤوس الأمراء البرقية الذين قتلهم ضرغام فى أيام وزارته للعاضد بعد شاور، فإنه كان عمل الحيلة عليهم بدار الوزارة، وصار يستدعى واحدا بعد واحد إلى خزانة بالدار، ويوهم أنه يخلع عليهم فإذا صار واحد منهم فى الخزانة قتل وقطع رأسه وذلك فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وكانت دار الوزارة فى الدولة الفاطمية تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان وغيره، وكان فيها مائة وعشرون مقسما للماء الذى يجرى فى بركها ومطابخها ونحو ذلك.

ذكر رتبة الوزارة وهيئة خلعهم ومقدار جاريهم وما يتعلق بذلك

أما المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بديار مصر فإنه لم يوقع اسم الوزارة على أحد فى أيامه، وأول من قيل له الوزير فى الدولة الفاطمية الوزير يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز، وإليه تنسب الحارة الوزيرية كما سنقف عليه عند ذكر الحارات من هذا الكتاب. فلما مات ابن كلس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحدا، وإنما كان رجل يلى الوساطة والسفارة. فاستقر فى ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبى على منصور الحاكم بأمر الله، ثم ولى الوزارة أحمد بن على الجرجراى فى أيام الظاهر أبى هاشم على بن الحاكم ومازال الوزراء من بعده واحدا بعد واحد، وهم أرباب أقلام حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالي.

قال ابن الطوير: وكان من زى هؤلاء الوزراء أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم مثل العدول الآن. وينفردون بلبس ثياب قصار يقال لها الذراريع وأحدها ذراعة، وهى مشقوقة أمام وجهه إلى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعري، ومنهم من

تكون أزراره من ذهب مشبك، ومنهم من أزراره لؤلؤ وهذه علامة الوزارة، ويحمل له الدواة المحلاة بالذهب، ويقف بين يديه الحجاب، وأمره نافذ فى أرباب السيوف من الأجناد وأرباب الأقلام، وكان آخرهم الوزير ابن المغربى الذى قدم عليه أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا ووزر للمستنصر وزير سيف، ولم يتقدمه فى ذلك أحد. انتهي، وترتيب وزارته بأن تكون وزارته وزارة صاحب سيف بأن تكون الأمور كلها مردودة إليه، ومنه إلى الخليفة دون سائر خدمه. فعقد له هذا العقد وأنشيء له السجل، ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوش، وهو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق وأضيف إليه كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، وجعل القاضى والداعى نائبين عنه ومقلدين من قبله، وكتب له فى سجله وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك، مدبرا للبلاد ومصلحا للفساد، ومدمرا أهل العناد، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقورزى قاضى القضاة، وذلك فى سنة سبع وستين وأربعمائة. فصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض، ويقال لمتوليها أمير الجيوش، وبطل اسم الوزارة. فلما قام شاهنشاه بن أمير الجيوش من بعد أبيه، ومات الخليفة المستنصر وأجلس ابن بدر فى الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلى صار يقال له الأفضل، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب به أيضا، وأول من لقب بالملك منهم مضافا إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله، فقيل له السيد الاجل الملك الأفضل، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور، وتلقب ابنه رزيك بن طلائع بالملك العادل، وتلقب شاور بالملك المنصور، وتلقب آخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب بالملك الناصر، وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية، وصار حال الخليفة معه كما هو حال ملوك مصر من الأتراك. إذا كان السلطان

صغيرا والقائم بأمره من الأمراء، وهو الذى يتولى تدبير الأمور. كما كان الأمير يلبغا الخاصكى مع الأشرف شعبان، وكما أدركنا الأمير برقوق قبل سلطنته مع ولدى الأشرف، وكما كان الأمير ايتمش مع الملك الناصر فرج بعد موت الظاهر برقوق.

قال ابن أبى طي: وكانت خلعهم يعنى الخلفاء الفاطميين على الأمراء الثياب الديبقى والعمائم القصب بالطراز الذهب، وكان طراز الذهب والعمامة من خمسمائة دينار، ويخلع على أكابر الأمراء الأطواق الذهب والأسورة والسيوف المحلاة، وكان يخلع على الوزير عوضا عن الطوق عقد جوهر.

قال ابن الطوير: وخلع عليه يعنى على أمير الجيوش بدر الجمالى بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور، زى قاضى القضاة، وهذه الخلع تشابه خلع الوزراء وأرباب الأقلام فى زمننا هذا. غير أنه لقصور أحوال الدولة جعل عوض العقد الجوهر الذى كان للوزير ويفك بخمسة آلاف مثقال ذهبا قلادة من عنبر مغشوش. يقال لها العنبرية، ويتميز بها الوزير خاصة، ويلبس أيضا الطيلسان المقور ويسمى اليوم بالطرحة. ويشاركه فيها جميع أرباب العمائم إذا خلع عليهم، فإنه تكون خلعهم بالطرحة، وترك أيضا اليوم من خلعة الوزير وغيره الذؤابة المرخاة وهى العذبة، وصارت الآن من زى القضاة فقط، وهجرها الوزراء، ويشبه والله أعلم أن يكون وضعها فى الدولة الفاطمية للوزير فى خلعه إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام. فإنه كان مع ذلك يتقلد بالسيف، وكذلك ترك فى الدولة التركية من خلع الوزارة تقليد السيف. لأنه لا حكم له على أرباب السيوف، ولما قام الأفضل بن أمير الجيوش خلع أيضا عليه بالسيف والطيلسان المقور، وبعد الأفضل لم يخلع على أحد من الوزراء كذلك. إلى أن قدم طلائع بن رزيك، ولقب بالملك الصالح عندما خلع عليه للوزارة و، جعل فى خلعته السيف والطيلسان المقور.

قال ابن المأمون: وفى يوم الجمعة ثانيه يعنى ثانى ذى الحجة يعى سنة خمس عشرة وخمسمائة خلع على القائد ابن فاتك البطائحى من الملابس الخاص الشريفة فى فردكم مجلس الكعبة، وطوق بطوق ذهب مرصع وسيف ذهب كذلك، وسلم على الخليفة الآمر

بأحكام الله، وأمر الخليفة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل بن أمير الجيوش يركب منه، ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه، وخرج بتشريف الوزارة يعنى من باب الذهب، ودخل من باب العيد راكبا، وجرى الحكم فيه على ما تقدم للأفضل، ووصل إلى داره فضاعف الرسوم، وأطلق الهبات، ولما كان يوم الاثنين خامس ذى الحجة اجتمع أمراء الدولة لتقبيل الأرض بين يدى الخليفة الآمر على العادة التى قررها مستجدة، واستدعى الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة، فلما حضر أمر بإحضار السجل للأجل الوزير المأمون من يديه فقبله وسلمه لزمام القصر، وأمر الخليفة الوزير المأمون بالجلوس عن يمينه، وقرىء السجل على باب المجلس. وهو أول سجل قرىء فى هذا المكان، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان ورسم للشيخ أبى الحسن أن ينقل النسبة للأمراء والمحنكين من الأمراء إلى المأمونى للناس أجمع، ولم يكن أحد منهم ينتسب للأفضل ولا لأمير الجيوش، وقدمت الدواة للمأمون فعلم فى مجلس الخليفة، وتقدمت الأمراء والأجناد فقبلوا الأرض، وشكروا على هذا الإحسان وأمر الخليفة بإحضار الخلع لحاجب الحجاب حسام الملك، وطوق بطوق ذهب. وسيف ذهب ومنطقة ذهب ثم أمر بالخلع للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة باستمراره على ما بيده من كتابة الدست الشريف، وشرفه بالدخول إلى مجلس الخليفة، ثم استدعى الشيخ أبا البركات بن أبى الليث، وخلع عليه بدلة مذهبة وكذلك أبو الرضى سالم ابن الشيخ أبى الحسن، وكذلك أبو المكارم أخوه وأبو محمد أخوهما، ثم أبو الفضل بن الميدمى ووهبه دنانير كثيرة بحكم أنه الذى قرأ السجل، وخلع على الشيخ أبى الفضائل بن أبى الليث صاحب دفتر المجلس ثم استدعى عدى الملك سعيد بن عماد الضيف متولى أمور الضيافات والرسل الواصلين إلى الحضرة من مجلس الأفضل، ولا يصل لعتبته أحد لا حاجب الحجاب ولا غيره سوى عدى الملك هذا. فإنه كان يقف من داخل العتبة وكانت هذه الخدمة فى ذلك الوقت من أجل الخدم وأكبرها، ثم عادت من أهون الخدم وأقلها. فعند ذلك قال القاضى أبو الفتح بن قادوس يمدح الوزير المأمون عند مثوله بين يديه وقد زيد فى نعوته .

قالوا أتاه النعت وهو السيد

المأمون حقا والأجل الأشرف

ومغيث أمة أحمد ومجيرها

ما زادنا شيء على ما نعرف

قال: ولما استمر حسن نظر المأمون للدولة وجميل أفعاله بلغ الخليفة الآمر بأحكام الله فشكره وأثنى عليه. فقال له المأمون: ثم كلام يحتاج إلى خلوة. فقال الخليفة تكون فى هذا الوقت وأمر بخلو المجلس. فعند ذلك مثل بين يدى الخليفة وقال له: يا مولانا استنالنا الأمر صعب ومخالفته أصعب، وما يتسع خلافه قدام أمراء دولته، وهو فى دست خلافته، ومنصب آبائه وأجداده، وما فى قواى ما يرومه مني، ويكفينى هذا المقدار، وهيهات أن أقوم به، والأمر كبير، فعند ذلك تغير الخليفة. وأقسم إن كان لى وزير غيرك وهو فى نفسى من أيام الأفضل وهو مستمر على الاستعفاء إلى أن بان له التغير فى وجه الخليفة، وقال ما اعتقدت أنك تخرج عن أمرى ولا تخالفني. فقال له المأمون عند ذلك لى شروط وأنا أذكرها فقال له: مهما شئت اشترط. فقال له قد كنت بالأمس مع الأفضل، وكان قد اجتهد فى النعوت وحل المنطقة فلم أفعل. فقال الخيفة علمت ذلك فى وقته. قال وكان أولاده يكتبون إليه لما يعلمه مولاى من كونى قد خنته فى المال والأهل، وما كان والله العظيم ذلك منى يوما قط، ثم مع ذلك معاداة الأهل جميعا والأجناد وأرباب الطيالس والأقلام، وهو يعطينى كل رقعة تصل إليه منهم، وما سمع كلام أحد منهم فيّ فعند ذلك قال له الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته إيش يكون فعلى أنا؟ فقال المأمون يعرفنى المولى ما يأمر به فأمتثله، بشرط ألا يكون عليه زائد. فأول ما ابتدأ به أن قال أريد الأموال لا تجبى إلا بالقصر، ولا تصل الكسوات من الطراز والثغور إلا إليه، ولا تفرق إلا منه وتكون أسمطة الأعياد فيه، ويوسع فى رواتب القصور من كل صنف، وزيادة رسم منديل الكم فعند ذلك قال له المأمون سمعا وطاعة. أما الكسوات والجباية من الأسمطة فما تكون إلا بالقصور، وأما توسعة الرواتب فما ثم من يخالف الأمر، وأما زيادة رسم منديل

الكم فقد كان الرسم فى كل يوم ثلاثين دينارا يكون فى كل يوم مائة دينار ومولانا سلام الله عليه يشاهد ما يعمل بعد ذلك فى الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها فى سائر الأيام. ففرح الخليفة وعظمت مسرته، ثم قال المأمون أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين، ويقسم لى فيه بآبائه الطاهرين ألا يلتفت لحاسد ولا مبغض، ومهما ذكر فيّ يطلعنى عليه، ولا يأمر فيّ بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسى وانحطاط قدري. وهذه الإيمان باقية إلى وقت وفاتي، فإذا توفيت تكون لأولادى ولمن أخلفه بعدي، فحضرت الدواة وكتب ذلك جميعه وأشهد الله تعالى فى آخرها على نفسه فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه، وكان الخط بالأيمان نسختين. إحداهما فى قصبة فضة. قال: فلما قبض على المأمون فى شهر رمضان سنة تسع وعشرين وخمسمائة أنفذ الخليفة الآمر بأحكام الله يطلب الإيمان فنفذ له التى فى القصبة الفضة. فحرقها لوقتها، وبقيت النسخة الأخرى عندي، فعدمت فى الحركات التى جرت.

وقال ابن ميسر فى حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة: وفيها تشرف القائد أبو عبد الله محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى المعروف بابن البطائحى فى الخامس من ذى الحجة، وكان قبل ذلك عند الأفضل استاداره، وهو الذى قدمه إلى هذه المرتبة، واستقرت نعوته فى سجله المقرر على كافة الأمراء والأجناد بالأجل المأمون تاج الخلافة وجيه الملك فخر الصنائع ذخر أمير المؤمنين، ثم تجدد له من النعوت بعد ذلك الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين والدنيا، ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل. وهو السيد الأجل المأمون أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين، ولما كان يوم الثلاثاء التاسع من ذى الحجة وهو يوم الهناء بعيد النحر جلس المأمون فى داره عند أذان الصبح، وجاء الناس لخدمته للهناء على طبقاتهم من أرباب السيوف والأقلام، ثم الأمراء والأستاذون المحنكون والشعراء بعدهم فركب إلى القصر وأتى باب الذهب فوجد المرتبة المختصة بالوزارة قد هيئت له فى موضعها الجارى به العادة، وأغلق الباب الذى عندها على الرسم المعتاد لوزراء السيوف والأقلام، وهذا الباب يعرف بباب السرداب فعندما شاهد

الحال فى المرتبة توقف عن الجلوس عليها لأنها حالة لم يجر معه حديث فيها، ثم ألجأته الضرورة لأجل حضور الأمراء إلى الجلوس فجلس عليها، وجلس أولاده الثلاثة عن يمينه وأخواه عن يساره والأمراء المطوقون خاصة دون غيرهم قيام بين يديه. فإنه لا يصل أحد إلى هذا المكان سواهم، فلم يكن بأسرع من أن فتح الباب، وخرج عدة من الأستاذين المحنكين بسلام أمير المؤمنين، وخرج إليه الأمير الثقة متولى الرسالة وزمام القصور فعند حضوره وقف له أولاد المأمون وأخواه فطلع عند خروجه قبالة المرتبة، وقال أمير المؤمنين يرد على السيد الأجل المأمون السلام. فوقف عند ذلك المأمون وقبل الأرض، وعاد فجلس مكانه وتأخر الأمير إلى أن نزل من المصطبة وقبل الأرض وقبل يد المأمون، ودخل من فوره من الباب وأغلق الباب على حاله على ما كان عليه الأفضل، وكان الأفضل يقول ما أزال أعد نفسى سلطانا حتى أجلس على تلك المرتبة والباب يغلق فى وجهى والدخان فى أنفي، فإن الحمام كانت من خلف الباب فى السرداب ثم فتح الباب وعاد الثقة، وأشار بالدخول إلى القصر. فدخل إلى المكان الذى هيىء له، وعاد لمجلس الوزارة وبقى الأمراء بالدهاليز إلى أن جلس الخليفة واستفتح القراء واستدعى المأمون، فحضر بين يديه وسلم عليه أولاده وإخوته، وأحلّ الأمراء على قدر طبقاتهم. أولهم أرباب الأطواق، ويليهم أرباب العماريات والأقصاب ثم الضيوف والأشراف، ثم دخل ديوان المكاتبات وسلم بهم الشيخ أبو الحسن بن أبى أسامة، ثم ديوان الإنشاء وسلم بهم الشريف ابن أنس الدولة، ثم بقية الطالبيين من الأشراف، ثم سلم القاضى ابن الرسعنى بشهوده، والداعى ابن عبد الحق بالمؤمنين، ثم سلم القائد مقبل مقدم الركاب الآمرى بجميع المقدمين الآمرية، ثم سلم بعدهم الشيخ أبو البركات بن أبى الليث متولى ديوان المملكة، ثم دخل الأجناد من باب البحر وسلم كل طائفة بمقدمها. فلما انقضى ذلك دخل وإلى القاهرة، ووالى مصر وسلم كل منهما ببياض أهل البلدين، ثم دخل البطرك بالنصارى وفيهم كتاب الدولة من النصارى ورئيس اليهود ومعه الكتاب من اليهود، ثم سلم المقربون، وقد قارب القصر، ودخل الشعراء على طبقاتهم، وأنشد كل منهم ما سمحت به قريحته. قال: فكان هذا رتبة الوزير المأمون قال ابن المأمون: وأما ما قرر للوزارة عينا فى الشهر بغير إيجاب بل يقبض

من بيت المال فهو ثلاثة آلاف دينار تفيصلها . ما هو على حكم النيابة فى العلامة ألف دينار وما هو على حكم الراتب ألف وخمسمائة دينار ، وما هو عن مائة غلام برسم مجلسه وخدمته لكل غلام خمسة دنانير فى الشهر . فأما الغلمان الركابية وغيرهم من الفراشين والطباخين فعلى حكم ما يرغب فى إثباته ، وفى السنة من الإقطاعات خمسون ألف دينار . منها دهشور وجزيرة الذهب وبقية الجملة صفقات ، ومن البساتين ثلاثة . بستان الأمير تميم وبستانان بكوم أشفين ، ومن القوت يعنى القمح ومن القضم يعنى الشعير والبرسيم فى السنة عشرون ألف أردب قمحا وشعيرا ، ومن الغنم برسم مطابخه ساقة من المراحات ثمانية آلاف رأس ، وأما الحيوان والأحطاب وجميع التوابل العال منها والدون فمهما استدعاه متولى المطابخ يطلق من دار أفتكين وشون الأحطاب وغير ذلك ، وقد تقدم مقرر كسوة الوزارة فى العيدين وفصلى الشتاء والصيف وموسم عيد الغدير وفتح الخليج ، وغير ذلك من غرتى شهر رمضان وأول العام وغيره ـ كما سيرد فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالي ، وقد استقصيت سير الوزراء فى كتابى الذى سميته تلقيح العقول والآراء فى تنقيح أخبار الجلة الوزراء فانظره .

ذكر الحجر التى كانت برسم الصبيان الحجرية

وكان بجوار دار الوزارة مكان كبير يعرف بالحجر . جمع حجرة . فيها الغلمان المختصون بالخلفاء . كما أدركنا بالقلعة البيوت التى كان يقال لها الطباق ، وكانت هذه الحجر من جانب حارة الجوانية وإلى حيث المسجد الذى يعرف بمسجد القاصد تجاه باب الجامع الحاكمى الذى يفضى إلى باب النصر ، فمن حقوق هذه الحجر دار الأمير بهادر اليوسفى السلاحدار الناصرى التى تجاور المسجد الكائن على يمنة من سلك من باب الجوانية طالبا باب النصر ، ومنها الحوض المجاور لهذه الدار ودار الأمير أحمد قريب الملك الناصر محمد بن قلاون ، والمسجد المعروف بالنخلة ، وما

بجواره من القاعتين اللتين تعرف إحداهما بقاعة الأمير علم الدين سنجر الجاولي ، وما فى جانبها إلى المسجد القاصد ، وما وراء هذه الدور وكان لهؤلاء الحجرية اصطبل برسم دوابهم سيأتى ذكره إن شاء الله تعالي ، ومازالت هذه الحجر باقية بعد انقضاء دولة الخلفاء الفاطميين إلى ما بعد السبعمائة ، فهدمت وابتنى الناس مكانها الأماكن المذكورة .

قال ابن أبى طى عن المعز لدين الله : وجعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص ، وأفرد لهم مكانا برسمهم ، وكذلك فعل بالكتاب والأفاضل ، وشرط على ولاة الأعمال عرض أولاد الناس بأعمالهم . فمن كان ذا شهامة وحسن خلقة أرسله ليخدم فى الركاب ، فسيروا إليه عالما من أولاد الناس فأفرد لهم دورا وسماها الحجر .

وقال ابن الطوير : وكوتب الأفضل ابن أمير الجيوش من عسقلان باجتماع الفرنج فاهتم للتوجه إليها . فلم يبق ممكنا من مال وسلاح وخيل ورجال واستناب أخاه المظفر أبا محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر بين يدى الخليفة مكانه ، وقصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج . فوصل إلى عسقلان وزحف عليها بذلك العسكر فخذل من جهة عسكره ، وهى نوبة النصة ، وعلم أن السبب فى ذلك من جنده ، ولما غلب حرق جميع ما كان معه من الآلات ، وكان عند الفرنج شاعر منتجع إليهم . فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج

نصرت بسيفك دين المسيح

فلله درك من صنجل

وما سمع الناس فيما رووه

بأقبح من كسرة الأفضل

فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر ولم ينتفع بعده هذه النوبة أحد من الأجناد بالأفضل ، وحظر عليهم النعوت ، ولم يسمع لأحد منهم كلمة ، وأنشأ سبع حجر واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف راجل وقسمهم فى الحجر ، وجعل لكل مائة زماما ونقيبا ، وزم الكل بأمير يقال له الموفق ، وأطلق لكل منهم ما يحتاج إليه من خيل وسلاح وغيره وعنى بهولاء الأجناد . فكان إذا دهمه أمر مهم جهزهم إليه مع الزمام الأكبر .

وقال ابن المأمون: وكان من جملة الحجرية الذين يحضرون السماط رجل يعرف بابن زحل وكان يأكل خروفا كبيرا مشويا ويستوفيه إلى آخره، ثم يقدم له صحن كبير من القصور المعمولة بالسكر وجميع صنوف الحيوانات على اختلاف أجناسها ما لم يعمل قط مثله من الأطعمة فيأكل معظمه، وكان يقعد فى طرف المدورة حتى يكون بالقرب من نظر الخليفة لا لميزته، وكان من الأجناد، وأسر فى أيام الأفضل وقيده الفرنجى الذى أسره وعذبه وطالت مدته فى الأسر وكان فقيرا فاتفق أن ذكر للفرنجى كثرة أكله فأراد أن يمتحنه فقال له أحضر لى عجلا أكبر عجل عندكم آكله إلى آخره. فضحك منه الفرنجى ونقص عقله، وأتاه بعجل كبير ويقال بخنزير فقال له أذبحه وأشوه وائتنى معه بجرة خل ثم قال إذا كلته ما يكون لى عندك؟ فغلط الفرنجى وقال له أطلقك تمضى إلى أهلك. فاستحلفه على ذلك وغلظ عليه اليمين، وأحضر الفرنجى عدة من أصحابه ليشاهدوا فعله، فلما استوفى العجل جميعه صلب كل من الحاضرين على وجهه وتعجب من فعله وأطلقه، فقال أخاف من أن يعتقد أننى هربت فأرد إليكم، فأحضر الفرنجى من العربان من سلمه إليهم ولم يشعر به إلا بباب عسقلان فطلع منها، وأعفى بعد ذلك من السفر وبقى برسم الاسمطة.

وقال ابن عبد الظاهر الحجر قريب من باب النصر، وهو مكان كبير فى صف دار الوزارة إلى جانبه باب القوس الذى يسمى باب النصر قديما على يمنة الخارج من القاهرة، كان تربى فيه جماعة من الشباب يسمون صبيان الحجر يكونون فى جهات متعددة، وهم يناهزون خمسة آلاف نسمة، ولكل حجرة اسم تعرف به، وهى المنصورة والفتح والجديدة وغير ذلك مفردة لهم، وعندهم سلاحهم فإذا جردوا خرج كل منهم لوقته لا يكون له ما يمنعه، وكانوا فى ذلك على مثال الذؤابة والاستار، وكانوا إذا سمى الرجل منهم بعقل وشجاعة خرج من هناك إلى الأمرة أو التقدمة مثل على بن السلار وغيره، ولا يأوى أحد منهم إلا بحجرته بفرسه وعدته وقماشه، وللصبيان الحجرية حجرة مفردة عليهم أستاذون يبيتون عندهم وخدام برسمهم.

ذكر المناخ السعيد

وكان من وراء القصر الكبير فيما يلى ظهر دار الوزارة الكبرى والحجر المناخ، وهو موضع برسم طواحين القمح التى تطحن جرايات القصور، وبرسم مخازن الأخشاب والحديد ونحو ذلك.

وقال ابن الطوير: وأما المناخات ففيها من الحواصل ما لا يحصر، إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة وآلات الأساطيل من الأسلحة المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه، والقنب والكتان والمنجنيقات المعدة، والطواحين الدائرة برسم الجرايات المقدمة ذكرها والزفت فى المخازن الذى عليه الأتربة، ولا ينقطع إلا بالمعاول، وقد أدركت هذه الدولة - يعنى دولة بنى أيوب منه شيئا كثيرا فى هذا المكان انتفع به، وإليه يأوى الفرنج فى بيوت برسمهم وكانت عدتهم كثيرة. ففيه من النجارين والجزارين والدهانين والخبازين والخياطين والفعلة ومن العجانين والطاحنين فى تلك الطواحين والفرانين فى أفران الجرايات، وفى هذا المكان مادة أكثر أهل الدولة، وحاميه أمير من الأمراء ومشارفه من العدول، وفيه أيضا شاهد النفقات وعامل يتولى التنفيذ مع المشارف، وعامل برسم نظم الحساب من تعلقاتهما بجار غير جواريهم، لأن أوقاتهم مستغرقة فى مباشرة الإطلاقات وغيرها، وذكر ابن الطوير أن المأمون بن البطائحى استجد طواحين برسم الرواتب.

ذكر اصطبل الطارمة

الطارمة بيت من خشب، وهو دخيل، وكان بجوار القصر الكبير تجاه باب الديلم من شرقى الجامع الأزهر اصطبل.

قال ابن الطوير : و كا ن لهم اصطبلان . احدهما يعرف بالطارمة يقابل قصر الشوك ، والاخر بحارة زويلة يعرف بالجميزة ، وكان للخليفة الحاضر ما يقرب من ألف رأس فى كل اصطبل . النصف من ذلك منها ما هو برسم الخاص ، ومنها ما يخرج برسم العوارى لأرباب الرتب والمستخدمين دائما ، ومنها ما يخرج أيام المواسم ، وهى التغيرات المتقدم ذكر إرسالها لأرباب الرتب والخدم ، والمرتب لكل اصطبل منها لكل ثلاثة أرؤس سائس واحد ملازم ، ولكل واحد منها شداد برسم تسييرها ، وفى كل اصطبل بئر بساقية تدور إلى أحواض ومخازن فيها الشعير والأقراط اليابسة المحمولة من البلاد إليها ، ولكل عشرين رجلا من السواس عريف يلتزم دركهم بالضمان . لأنهم الذين يتسلمون من خزائن السروج المركبات بالحلي ، ويعيدونها إليها كما تقدم ذكره فى خزائن السروج ، ولكل من الاصطبلين رائض كأمير اخور ، ولهما ميرة وجامكية متسعة ، وللعرفاء على السواس ميرة وللجماعات الجرايات من القمح والخبز خارجا من الجامكيات ، فإذا بقى لأيام المواسم التى يركب فيها الخليفة بالمظلة مدة أسبوع أخرج إلى كل رائض فى الاصطبل مع أستاذ مظلة ديبقى مركبة على قنطارية مدهونة ، ويختص الرائض على ما يركبه الخليفة ، إما فرسين أو ثلاثة وعليهما المركبات الحلى التى يركبها الخليفة ، فيركبها الرائض بحائل بينه وبين السرج ويركب الأستاذ بغلة مظلة ، ويحمل تلك المظلة ويسير فى براح الاصطبل ، وفيه سعة عظيمة ، مارا وعائدا ، وحولها البوق والطبل ، فيكرر ذلك عدة دفعات فى كل يوم . مدة ذلك الأسبوع ليستقر ما يركبه الخليفة من الدواب على ذلك ، ولا ينفر منه فى حال الركوب عليه فيعمل كذلك فى كل اصطبل من الاصطبلين والدواب ، والبغلة التى تتهيأ هى التى يركبها الخليفة وصاحب المظلة يوم الموسم ، ولا يختل ذلك ، ويقال إنه ما راثت دابة ولا بالت والخليفة راكبها ولا بغلة صاحب المظلة أيضا إلى حين نزولهما عنهما وكان فى الساحل بطريق مصرمن القاهرة فى البساتين المنسوبة إلى ملك صارم الدين حاليا اشونتان مملوءتان تبنا معبيتان كتعبيته فى المراكب كالجبلين الشاهقين ، ولهما مستخدمون . حام ومشارف وعامل بجامكية جيدة تصل بذلك المراكب التبانة الموهلة له من موظف الاتبان بالبلاد الساحلية وغيرها مما يدخل إليه فى أيام النيل ، ولها رؤساء ، وأمرها جار فى ديوان

العمائر والصناعة، والإنفاق منها بالتوقيعات السلطانية للاصطبلات المذكورة وغيرها من الأواسى الديوانية، وعوامل بساتين الملك، وإذا جرى بين المستخدمين خلف فى الشنف التبن المعتبر عادوا إلى قبضه بالوزن، فيكون الشنف التبن ثلاثمائة وستين رطلا بالمصرى نقيا، وإذا أنفقوا دريسا قد تغيرت صورة قته كان عن القتة اثنا عشر رطلا ولم يزل ذلك كذلك إلى آخر وقته، ومما يخبر عنهم أنهم لم يركبوا حصانا أدهم قط، ولا يرون إضافته إلى دوابهم بالاصطبلات، وقال ابن عبد الظاهر: اصطبل الطارمة كان اصطبلا للخليفة، فلما زالت تلك الأيام اختط وبنى آدرا.

ذكر دار الضرب وما يتعلق بها

وكان بجوار خزانة الدرق التى هى اليوم خان مسرور الكبير دار الضرب، وموضعها حينئذ كان بالقشاشين التى تعرف اليوم بالخراطين، وصار مكان دار الضرب اليوم درب يعرف بدرب الشمسى فى وسط سوق السقطيين المهامزيين، وباب هذا الدرب تجاه قيسارية العصفر. فإذا دخلت هذا الدرب فما كان على يسارك من الدور. فهو موضع دار الضرب، وبجوارها دار الوكالة الحافظية. فجعلت الحوانيت التى على يمينة من سلك من رأس الخراطين تجاه سوق العنبر طالبا الجامع الأزهر فى ظهر دار الضرب، وأنشأ هذه الحوانيت وما كان يعلوها من البيوت الأمير المعظم خمرتاش الحفاظي، وجعلها وقفا وقال فى كتاب وقفها: وحد هذه الحوانيت الغربى ينتهى إلى دار الضرب، وإلى دار الوكالة وقد صارت هذه الحوانيت الآن من جملة أوقاف المدرسة الجمالية مما اغتصب من الأوقاف، ومازالت دار الضرب حيث هى اليوم كما تقدم ذكره وكان لدار الضرب المذكورة فى أيامهم أعمال، ويعمل بها دنانير الغرة، ودنانير خميس العدس ويتولاها قاضى القضاة لجلالة قدرها عندهم.

قال ابن المأمون: وفى شوال منها وهى سنة ست عشرة وخمسمائة أمر الأجل ببناء دار الضرب بالقاهرة المحروسة لكونها مقر الخلافة وموطن الإمامة. فبنيت بالقشاشين قبالة المارستان وسميت بالدار الآمرية، واستخدم لها العدول، وصار دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب بجميع الامصار. انتهي، وكانت دار الضرب المذكورة تجاه المارستان فكان المارستان بجوار خزانة الدرق. فما عن يمينك الآن إذا سلكت من رأس الخراطين فهو موضع دار الضرب، ودار الوكالة هكذا إلى الحمام التى بالخراطين، وما وراءها، وما عن يسارك فهو موضع المارستان.

قال ابن عبد الظاهر فى أيام المأمون بن البطائحى وزير الآمر بأحكام الله بنيت دار الضرب فى القشاشين قبالة المارستان الذى هناك، وسميت بالدار الآمرية.

«دار العلم الجديدة»

وكان بجوار القصر الكبير الشرقى دار فى ظهر خزانة الدرق من باب تربة الزعفران لما أغلق الأفضل بن أمير الجيوش دار العلم، التى كان الحاكم بأمر الله فتحها فى باب التبانين اقتضى الحال بعد قتله إعادة دار العلم، فامتنع الوزير المأمون من إعادتها فى موضعها. فأشار الثقة زمام القصور بهذا الموضع فعمل دار العلم فى شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وخمسمائة وولاها لأبى محمد حسن بن آدم، واستخدم فيها مقرئين، ولم تزل دار العلم عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية.

قال ابن عبد الظاهر: رأيت فى بعض كتب الأملاك القديمة ما يدل على أنها قريبة من القصر النافعيّ، وكذا ذكر لى السيد الشريف الحلبى أنها دار ابن أزدمر المجاورة لدار سكنى الآن خلف فندق مسرور الكبير، وكذلك قال لى والدى رحمه الله، وقد بناها جمال الدين الاستادار الحلبى دارا عظيمة غرم عليها مائة ألف وأكثر من ذلك على ما ذكره. انتهي، وموضع دار العلم هذه دار كبيرة ذات زلاقة بجوار درب ابن عبد الظاهر، قريبا من خان الخليلى بخط الزراكشة العتيق.

«موسم أول العام»

قال ابن المأمون: وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة وبادر المستخدمون فى الخزائن وصناديق الانفاق بحمل ما يحضر بين يدى الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات وجميع الأستاذين العوالى والادوان، وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته، واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأصحاب والحواشى والأمراء والضيف والأجناد. فأمروا بتفرقته، والذى اشتمل عليه المبلغ فى هذه السنة نظير ما كان قبلها، وجلس المأمون باكرا على السماط بداره، وفرقت الرسوم على أرباب الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب إلى الدار المأمونية، وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصفات العساكر، وترتيب الاسمطة، وأصمد كل منهم إلى شغله، وتوجه لخدمته ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون. ثم خرج من باب الذهب، وقد نشرت مظلته، وخدمت الرهجية، ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله، وجميع تجار البلدين من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين وغيرهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة، وخرج من باب الفتوح والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزيها وأبواب حارات العبيد معلقة بالستور، ودخل من باب النصر، والصدقات تعم المساكين، والرسوم تفرق على المستقرين إلى أن دخل من باب الذهب فلقيه المقرئون بالقرآن الكريم فى طول الدهاليز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص، وغير ثياب الموكب بغيرها، وتوجه إلى تربة آبائه للترحيم على عادته، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة وعبيت الاسمطة، وجرى الحال فيها، وفى جلوس الخليفة ومن جرت عادته وتهيئة قصور الخلافة، وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر، وتوجه الاجل المأمون إلى داره، فوجد الحال فى الأسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها، وكذلك الهناء فى صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور،

وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم، وعادت الأمور فى أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود، وأحضر كل من المستخدمين فى الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات مما تحتاج إليه الدولة فى طول السنة، وينعم به ويتصدق، ويحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل فى التذاكر على يد المندوبين، ويحمل إلى الثغور ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل، ويباع فى الثغور والبلاد والاستيمار وجريدة الأبواب، وتذكرة الطراز والتوقيع عليها.

وقال ابن الطوير: فإذا كان العشر الأخير من ذى الحجة فى كل سنة انتصب كل من المستخدمين بالأماكن لإخراج آلات الموكب من الأسلحة وغيرها. فيخرج من خزائن الأسلحة ما يحمله صبيان الركاب حول الخليفة من الأسلحة، وهو الصماصم المصقولة المذهبة مكان السيوف المحدبة والدبابيس الكيمخت الأحمر والأسود، ورؤوسها مدورة مضرسة واللتوت كذلك، ورؤوسها مستطيلة مضرسة أيضا، وآلات يقال لها المستوفيات وهى عمد حديد من طول ذراعين مربعة الأشكال بمقابض مدورة فى أيديهم بعدة معلومة من كل صنف. فيتسلمها نقباؤهم وهى فى ضمانهم، وعليهم إعادتها إلى الخزائن بعد تقضى الخدمة بها، ويخرج للطائفة من العبيد الأقوياء السودان الشباب، ويقال لهم أرباب السلاح الصفر، وهم ثلاثمائة عبد لكل واحد حربتان بأسنة مصقولة تحتها جلب فضة. كل اثنتين فى شرابة وثلاثمائة درقة بكوامخ فضة يتسلم ذلك عرفاؤهم على ما تقدم. فيسلمونه للعبيد لكل واحد حربتان ودرقة، ثم يخرج من خزانة التجمل. وهى من حقوق خزائن السلاح القصب الفضة برسم تشريف الوزير والأمراء أرباب الرتب وأزمة العساكر والطوائف من الفارس والراجل، وهى رماح ملبسة بأنابيب الفضة المنقوشة بالذهب إلا ذراعين منها، فيشد فى ذلك الخالى من الأنابيب عدة من المعاجر الشرب الملونة ويترك أطرافها المرقومة مسبلة كالصناجق، وبرؤوسها رمامين منفوخة فضة مذهبة وأهلة مجوفة كذلك، وفيها جلاجل لها حس إذا تحركت، وتكون عدتها ما يقرب من مائة، ومن العماريات وهى شبه الكخاوات من الديباج الأحمر وهو أجلها، والأصفر والقرقوبى والسقلاطون مبطنة مضبوطة بزنانير حرير، وعلى دائر التربيع منها مناطق بكوامخ فضة

مسمورة فى جلد نظير عدد القصب، فيسير من القصب عشرة، ومن العماريات مثلها من الحمر خاصة، ويخرج للوزير خاصة لواءان على رمحين طويلين ملبسين بمثل تلك الأنابيب، ونفس اللواء ملفوف غير منشور، وهذا التشريف يسير أمام الوزير، وهو للأمراء من ورائهم، ثم يسير للأمراء أرباب الرتب فى الخدم. وأولهم صاحب الباب - وهو أجلهم - خمس قصبات وخمس عماريات، ويرسل لاسفهسلار العساكر أربع قصبات وأربع عماريات من عدة ألوان ومن سواهما من الأمراء على قدر طبقاتهم ثلاث ثلاث، واثنتان اثنتان، وواحدة واحدة. ثم يخرج من البنود الخاص الديبقى المرقوم الملون عشرة برماح ملبسة بالأنابيب، وعلى رؤوسها الرمامين والأهلة للوزير خاصة. ودون هذه البنود مما هو من الحرير على رماح غير ملبسة ورؤوسها ورمامينها من نحاس مجوف مطلى بالذهب. فتكون هذه أمام الأمراء المذكورين من تسعة إلى سبعة أذرع، برأسها طلعة مصقولة وهى من خشب القنطاريات داخلة فى الطلعة، وعقبها حديد مدور أسفل. فهى فى كف حاملها الأيمن، وهو يفتلها فيه فتلا متدارك الدوران، وفى يده اليسرى نشابة كبيرة يخطر بها، وعدتها ستون مع ستين رجلا، يسيرون رجالة فى الموكب يسيرون يمنة ويسرة، ثم يخرج من النقارات حمل عشرين بغلا. على كل بغل ثلاث مثل نقارات الكوسات بغير كوسات. يقال لها طبول فيتسلمها صناعها ويسيرون فى الموكب اثنين اثنين. ولها حس مستحسن، وكان لها ميزة عندهم فى التشريف، ثم يخرج لقوم متطوعين بغير جار ولا جراية تقرب عدتهم من مائة رجل، لكل واحد درقة من درق اللمط، وهى واسعة وسيف، ويسيرون أيضا رجالة فى الموكب هذا وظيفة خزائن السلاح، ثم يحضر حامى خزائن السروج، وهو من الأستاذين المحنكين إليها مع مشارفها، وهو من الشهود المعدلين. فيخرج منها برسم خاص الخليفة من المركبات الحلى ما هو برسم ركوبه. وما يجنب فى موكبه مائة سرج. منها سبعون على سبعين حصانا، ومنها ثلاثون على ثلاثين بغلة، كل مركب مصوغ من ذهب أو من ذهب وفضة، أو من ذهب منزل فيه المينا، أو من فضة منزلة بالمينا، وروادفها وقرابيسها من نسبتها، ومنها ما هو مرصع بالجواهر الفائقة، وفى أعناقها الأطواق الذهب وقلائد العنبر، وربما يكون فى أيدى وأرجل أكثرها خلاخل

مسطوحة دائرة عليها. ومكان الجلد من السروج الديباج الأحمر والأصفر وغيرهما من الألوان والسقلاطون المنقوش بألوان الحرير. قيمة كل دابة وما عليها من العدة ألف دينار، فيشرف الوزير من هذه بعشرة حصن لركوبه وأولاده وإخوته ومن يعز عليه من أقاربه، ويسلم ذلك لعرفاء الاصطبلات بالعرض عليهم من الجرائد، التى هى ثابتة فيها بعلاماتها فى أماكنها وأعدادها، وعدد كل مركب منقوش عليه مثل أول وثان وثالث إلى آخرها. كما هو مسطور فى الجرائد فيعرف بذلك قطعة قطعة، ويسلمها العرفاء للشدادين بضمان عرفائهم إلى أن تعود، وعليهم غرامة ما نقص منها وإعادتها برمتها، ثم يخرج من الخزائن المذكورة لأرباب الدواوين المرتبين فى الخدم على مقاديرهم مركبات أيضا من الحلى دون ما تقدم ذكره ما تقرب عدته من ثلاثمائة مركب على خيل وبغلات وبغال يتسلمها العرفاء المتقدم ذكرهم على الوجه المذكور، وينتدب حاجب يحضر على التفرقة لفلان وفلان من أرباب الخدم سيفا وقلما. فيعرف كل شداد صاحبه فيحضر إليه بالقاهرة ومصر سحر يوم الركوب، ولهم من الركاب رسوم من دينار إلى نصف دينار. إلى ثلث دينار فإذا تكمل هذا الأمر وسلم أيضا الجمالون المناخات أغشية العماريات، ويكون إراحة فى ذلك كله إلى آخر الثامن والعشرين من ذى الحجة، وأصبح اليوم التاسع والعشرون من سلخه على رأى القوم عزم الخليفة على الجلوس فى الشباك لعرض دوابه الخاص المقدم ذكرها، ويقال له يوم عرض الخيل فيستدعى الوزير بصاحب الرسالة، وهو من كبار الأستاذين المحنكين وفصحائهم وعقلائهم ومحصليهم. فيمضى إلى استدعائه فى هيئة المسرعين على حصان دهراج امتثالا لأمر الخليفة بالإسراع على خلاف حركته المعتادة. فإذا عاد مثل بين يدى الخليفة وأعلمه باستدعائه الوزير. فيخرج راكبا من مكانه فى القصر، ولا يركب أحد فى القصر إلا الخليفة، وينزل فى السد لا بدهليز باب الملك الذى فيه الشباك، وعليه من ظاهره للناس ستر، فيقف من جانبه الأيمن زمام القصر، ومن جانبه الأيسر صاحب بيت المال، وهما من الأستاذين المحنكين، فيركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء. فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وهو راكب، ويكون دخوله فى هذا اليوم من باب العيد، ولا يزال راكبا إلى أول باب من الدهاليز الطوال، فينزل هناك ويمشى فيها وحواليه حاشيته

وغلمانه وأصحابه ومن يراه من أولاده وأقاربه، ويصل إلى الشباك فيجد تحته كرسيا كبيرا من كراسى البلق الجيد فيجلس عليه ورجلاه تطأ الأرض فإذا استوى جالسا رفع كل أستاذ الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسا فى المرتبة الهائلة، فيقف ويسلم ويخدم بيديه إلى الأرض ثلاث مرات، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس، ويستفتح القراء بالقراءة قبل كل شيء بآيات لائقة بذلك الحال مقدار نصف ساعة، ثم يسلم الأمراء، ويسرع فى عرض الخيل والبغال الخاص المقدم ذكرها دابة دابة، وهى هادئة كالعرائس بأيدى شداديها إلى أن يكمل عرضها. فيقرأ القراء لختم ذلك الجلوس، ويرخى الأستاذان الستر، فيقدم الوزير ويدخل إليه ويقبل يديه ورجليه، وينصرف عنه إلى داره فيركب من مكان نزوله، والأمراء بين يديه لوداعه إلى داره ركبانا ومشاة إلى قريب المكان. فإذا صلى الخليفة الظهر بعد انفضاض ما تقدم جلس لعرض ما يلبسه فى عيد تلك الليلة، وهو يوم افتتاح العام بخزائن الكسوات الخاص، ويكون لباسه فيه البياض غير الموشح. فيعين على منديل خاص وبدلة. فأما المنديل فيسلم لشاد التاج الشريف، ويقال له شدة الوقار، وهو من الأستاذين المحنكين وله ميزة لمماسة ما يعلو تاج الخليفة فيشدها شدة غريبة لا يعرفها سواء، شكل الاهليلجة، ثم يحضر إليه اليتيمة وهى جوهرة عظيمة لا يعرف لها قيمة فتنظم هى وحواليها ما دونها من الجواهر، وهى موضوعة فى الحافر، وهو شكل الهلال من ياقوت أحمر ليس له مثال فى الدنيا فتنظم على خرقة حرير أحسن وضع، ويخيطها شاد التاج بخياطة خفيفة ممكنة فتكون بأعلى جبهة الخليفة، ويقال إن زنة الجوهرة سبعة دراهم وزنة الحافر أحد عشر مثقالا، وبدائرها قصبة زمرد ذبابى له قدر عظيم، ثم يؤمر بشد المظلة التى تشابهها تلك البدلة المحضرة بين يديه، وهى مناسبة للثياب، ولها عندهم جلالة لكونها تعلو رأس الخليفة، وهى اثنا عشر شوركا عرض سقل كل شورك شبر، وطوله ثلاثة أذرع وثلث، وآخر الشورك من فوق دقيق جدا. فيجتمع ما بين الشوارك فى رأس عودها بدائرة وهو قنطارية من الزان ملبسة بأنابيب الذهب، وفى آخر أنبوبة تلى الرأس من جسمه فلكة بارزة مقدار عرض إبهام، فيشد آخر الشوارك فى حلقة من ذهب ويترك متسعا فى رأس الرمح، وهو مفروض فتلقى تلك الفلكة فتضع المظلة من الحدور فى العمود المذكور، ولها

اضلاع من خشب الخلنج مربعات مكسوة بوزن الذهب على عدد الشوارك. خفاف فى الوزن. طولها طول الشوارك، وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها ببعض، وهى تنضم وتنفتح على طريقة شوكة الكيزان، ولها رأس شبه الرمانة، ويعلوه رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر يظهر للعيان، ولها رفرف دائر يفتحها من نسبتها عرضه أكثر من شبر ونصف، وسفل الرمانة فاصل يكون مقداره ثلاث أصابع. فإذا أدخلت الحلقة الذهب الجامعة لآخر شوارك المظلة فى رأس العمود ركبت الرمانة عليها ولفت فى عرض ديبقى مذهب. فلا يكشفها منه إلا حاملها عند تسليمها إليه وقت الركوبة، ثم يؤمر بشد لواءى الحمد المختصين بالخليفة، وهما رمحان طويلان ملبسان بمثل أنابيب عمود المظلة إلى حد نصفهما، وهما من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب وغير منشورين بل ملفوفين على جسم الرمحين فيشدان ليخرجا بخروج المظلة إلى أميرين من حاشية الخليفة برسم حملهما، ويخرج إحدى وعشرون راية لطاف من الحرير المرقوم ملونة بكتابة تخالف ألوانها من غيره، ونص كتابتها «نصر من الله وفتح قريب» على رماح مقومة من القنا المنتقي. طول كل راية ذراعان فى عرض ذراع ونصف. فى كل واحدة ثلاث طرازات فتسلم لأحد وعشرين رجلا من فرسان صبيان الخاص، ولهم بشارة عود الخليفة سالما عشرون دينارا، ثم يخرج رمحان رؤوسهما أهلة من ذهب صامتة فى كل واحد سبع من ديباج أحمر وأصفر، وفى فمه طارة مستديرة يدخل فيه الريح فينفتحان، فيظهر شكلهما، ويتسلمهما فارسان من صبيان الخاص، فيكونان أمام الرايات ثم يخرج السيف الخاص، وهو من صاعقة وقعت على ما يقال، وجلبته ذهب مرصعة بالجوهر فى خريصة مرقومة بالذهب. لا يظهر إلا رأسه ليسلم إلى حامله، وهو أمير عظيم القدر، وهذه عندهم رتبة جليلة المقدار، وهو أكبر حامل، ثم يخرج الرمح وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم من اللؤلؤ، وله سنان مختصر بحلية ذهب ودرقة بكوامخ ذهب فيها سعة منسوبة إلى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فى غشاء من حرير، لتخرج إلى حاملها، وهو أمير مميز، ولهذه الخدمة وصاحبها عندهم جلالة، ثم تشعر الناس بطريق الموكب وسلوكه لا يتعدى دورتين إحداهما كبري، والأخرى صغري. أما الكبرى فمن باب القصر إلى باب النصر، مارا إلى

حوض عز الملك نبا ومسـجده هنـاك، وهو أقصـاها، ثم ينعطف على يسـاره طالبـا باب الفتوح إلى القصر، والأخرى إذا خرج من باب النصر سار حافا بالسور، ودخل من باب الفتوح. فيعلم الناس بسلوك إحداهما فيسيرون إذا ركب الخليفة فيها من غير تبديل للموكب ولا تشويش ولا اختلال، فلا يصبح الصبح من يوم الركوب إلا وقد اجتمع من بالقاهرة ومصر من أرباب الرتب وأرباب التميزات من أرباب السيوف والأقلام قياما بين القصرين، وكان براحا واسعا خاليا من البناء الذى فيه اليـوم فيسع القوم لانتظـار الخليفة، ويبكر الأمـراء إلى الوزير إلى داره، فيركب إلى القصر من غير اسـتدعاء، لأنها خدمة لازمة للخليفة، فيسير أمامه تشريفه المقدم ذكره والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة، وأمامه أولاده وإخوته وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك، وهو فى أبهة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل، وهو بالحنك ويتقلد بالسيف المذهب. فإذا وصل القصر ترجل قبله أهله فى أخص مكان لا يصل الأمراء إليه، ودخل من باب القصر وهو راكب دون الحاضرين إلى دهليز يقال له دهليز العمود. فيترجل على مصطبة هناك، ويمشى بقية الدهليز إلى القاعة. فيدخل مقطع الوزارة هو وأولاده وإخوته وخواص حاشيته، ويجلس الأمراء بالقاعة على دكك معدة لذلك مكسوة فى الصيف بالحصر السامان، وفى الشتاء بالبسط الجهرمية المحفورة. فإذا أدخلت الدابة لركوب الخليفة. وأسندت إلى الكرسى الذى يركب عليه من باب المجلس أخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها مما هى ملفوفة فيه غير مطوية. فيتسلمها بإعانة أربعة من الصقالبة برسم خدمتها. فيركزها فى آلة حديد. متخذة شكل القرن، وهو مشدود فى ركاب حاملها الأيمن بقوة وتأكيد، فيمسك العمود بحاجز فوق يده. فيبقى وهو منتصف واقف، ولم يذكر قط أنها اضطربت فى ريح عاصف، ثم يخرج بالسيف فيتسلمه حامله، فإذا تسلمه أرخيت ذؤابته ما دام حاملا له، ثم تخرج الدواة فتسلم لحاملها، وهو من الأستاذين المحنكين، وكان الوزراء حملوها لقوم من الشهود المعدلين وهى الدواة التى كانت من أعاجيب الزمان، وهى فى نفسها من الذهب وحليتها مرجان، وهى ملفوفة فى منديل شرب بياض مذهب، وقد قال فيها بعض

الشعراء يخاطب الخليفة التى صنعت حلية المرجان فى وقته، وهذا من أغرب ما يكون.
ذكر ذلك فى بيتين وهما:

ألين لداود الحديد كرامة

فقدر منه السرد كيف يريد

ولان لك المرجان وهو حجارة

ومقطعه صعب المرام شديد

فيخرج الوزير ومن كان معه من المقطع، وتنضم إليه الأمراء ويقفون إلى جانب الراية فيرفع صاحب المجلس الستر، فيخرج من كان عند الخليفة للخدمة منهم، وفى أثرهم يبرز الخليفة بالهيئة المشروح حالها فى لباسه الثياب المعروضة عليه، والمنديل الحامل لليتيمة بأعلى جبهته وهو محنك مرخى الذؤابة مما يلى جانبه الأيسر، ويتقلد بالسيف المغربي، وبيده قضيب الملك وهو طول شبر ونصف من عود مكسو بالذهب المرصع بالدر والجوهر، فيسلم على الوزير قوم مرتبون لذلك، وعلى أهله وعلى الأمراء بعدهم، ثم يخرج أولئك أولا فأولا، والوزير يخرج بعد الأمراء فيركب ويقف قبالة باب القصر بهيئته، ويخرج الخليفة وحواليه الأستاذون ودابته ماشية على بسط مفروشة خيفة من زلقها على الرخام. فإذا قارب الباب وظهر وجهه ضرب رجل ببوق لطيف من ذهب معوج الرأس، يقال له الغربية بصوت عجيب يخالف أصوات البوقات. فإذا سمع ذلك ضربت الأبواق فى الموكب، ونشرت المظلة، وبرز الخليفة من الباب ووقف وقفة يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا بالقاعة للخدمة، وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المظلة وهو يبالغ ألا يزول عنه ظلها، ثم يكتنف الخليفة مقدمو صبيان الركاب منهم اثنان فى الشكيمة، واثنان فى عنق الدابة من الجانبين، واثنان فى ركابه. فالأيمن مقدم المقدمين، وهو صاحب المقرعة التى يتناولها ويناولها، وهو المؤدى عن الخليفة مدة ركوبه الأوامر والنواهي، ويسير الموكب بالحث. فأوله فروع الأمراء وأولادهم وأخلاط بعض العسكر الأماثل إلى أرباب القصب إلى أرباب الأطواق إلى الأستاذين

المحنكين إلى حامل اللواءين من الجانبين إلى حامل الدواة، وهى بينه وبين قربوس السرج إلى صاحب السيف، وهما فى الجانب الأيسر. كل واحد ممن تقدم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه، ويحجبه أهل الوزير المقدم ذكرهم من الجانب الأيمن بعد الأستاذين المحنكين، ثم يأتى الخليفة وحواليه صبيان الركاب المذكورة تفرقة السلاح فيهم، وهم أكثر من ألف رجل، وعليهم المناديل الطبقيات ويتقلدون بالسيوف وأوساطهم مشدودة بمناديل، وفى أيديهم السلاح مشهور وهم من جانبى الخليفة كالجناحين المادين، وبينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان للمذبتين، وهما مرفوعتان كالنخلتين لما يسقط من طائر وغيره وهو سائر على تؤدة ورفق، وفى طول الموكب من أوله إلى آخره وإلى القاهرة مار وعائد يفسح الطرقات، ويسير الركبان فيلقى فى عوده الاسفهسلار كذلك مارا وعائدا، لحث الأجناد فى الحركة والإنكار على المزاحمين المعترضين، ويلقى فى عوده صاحب الباب ومروره فى زمرة الخليفة إلى أن يصل إلى الاسفهسلار، فيعود لترتيب الموكب وحراسة طرقات الخليفة، وفى يد كل منهم دبوس، وهو راكب خير دوابه وأسرعها. هذا لمن أمام الموكب، ثم يسير خلف دابة الخليفة قوم من صبيان الركاب لحفظ أعقابه، ثم عشرة يحملون عشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب غزيرة يقال لها سيوف الدم برسم ضرب الأعناق، ثم يسير بعدهم صبيان السلاح الصغير أرباب الفرنجيات المقدم ذكرهم أولا، ثم يأتى الوزير فى هيبة، وفى ركابه من أصحابه قوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الأجناد يختارهم لنفسه ما مقداره خمسمائة رجل من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة، وكأنه على وفز من حراسة الخليفة، ويجتهد ألا يغيب عن نظره وخلفه الطبول والصنوج والصفافير، وهو مع عدة كثيرة تدوى بأصواتها وحسها الدنيا، ثم يأتى حامل الرمح المقدم ذكره ودرقته حمراء، ثم طوائف الراجل من الركابية والجيوشية وقبلهما المصامدة ثم الفرنجية ثم الوزيرية زمرة زمرة، فى عدة وافرة تزيد على أربعة آلاف فى الوقت الحاضر، وهم أضعاف ذلك، ثم أصحاب الرايات والسبعين، ثم طوائف العساكر من الآمرية والحجرية الكبار والحافظية والحجرية الصغار المنقولين، والأفضلية والجيوشية ثم الأتراك المصطنعون ثم الديلم، ثم

الأكراد ثم الغز المصطنعة، وقد كان تقدم هؤلاء الفرسان عدة وافرة من المترجلة أرباب قسيّ اليد وقسيّ الرجل فى أكثر من خمسمائة، وهم المعدون للأساطيل، ويكون من الفرسان المقدم ذكرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف، وهذا كله بعض من كل. فإذا انتهى الموكب إلى المكان المحدود عادوا على أدراجهم، ويدخلون من باب الفتوح، ويقفون بين القصرين بعد الرجوع كما كانوا قبله، فإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأقمر بالقماحين اليوم، وقف وقفة بجملته فى موكبه، وانفرج الموكب للوزير فتحرك مسرعا ليصير أمام الخليفة حتى يدخل بين يديه فيمر الخليفة، ويسكع له سكعة ظاهرة، فيشير الخليفة للسلام عليه إشارة خفية، وهذه أعظم مكارمة تصدر عن الخليفة، ولا تكون إلا للوزير صاحب السيف، وسبقه إلى دخول باب القصر راكبا على عادته إلى موضعه، ويكون الأمراء قد نزلوا قبله، لأنهم فى أوائل الموكب، فإذا وصل الخليفة إلى باب القصر ودخله ترجل الوزير، ودخل قبله الأستاذون المحنكون وأحد قوابه، والوزير أمام وجه الفرس مكان ترجله إلى الكرسى الذى ركب منه فينزل عليه، ويدخل إلى مكانه بعد خدمة المذكورين له فيخرج الوزير ويركب من مكانه الجارى به على عادته، والأمراء بين يديه وأقاربه حواليه فيركبون من أماكنهم، ويسيرون صحبته إلى داره فيدخل وينزل أيضا إلى مكانه على كرسي، فتخدمه الجماعة بالوداع، ويتفرق الناس إلى أماكنهم فيجدون قد أحضر إليهم الغرة، وهو أنه يقدم الخليفة. بأن يضرب بدار الضرب فى العشر الأخر من ذى الحجة بتاريخ السنة التى ركب أولها فى هذا اليوم جملة من الدنانير والرباعية والدراهم المدورة المقسقلة. فيحمل إلى الوزير منها ثلاثمائة وستون دينارا وثلاثمائة وستون رباعيا وثلاثمائة وستون قيراطا، وإلى أولاده وإخوته من كل صنف من ذلك خمسون، وإلى أرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام من عشرة دنانير وعشر رباعيات وعشرة قراريط إلى دينار واحد ورباعى واحد وقيراط واحد، فيقبلون ذلك على حكم البرمكية من مبلغ الخليفة، قال ومبلغ الغرة التى ينعم بها فى أول العام المقدم ذكرها من الدنانير والرباعيات والقراريط ما يقرب من ثلاثة آلاف دينار، والله تعالى أعلم.

ذكر ما كان يضرب فى خميس العدس من خراريب الذهب

قال ابن المأمون: وأحضر الأجل المأمون كاتب الدفتر، وأمره بالكشف عما كان يضرب برسم خميس العدس من الخراريب الذهب، وهو خمسمائة دينار عن عشرين ألف خروبة، واستدعى كاتب بيت المال، ووقع له بإطلاق ألف دينار، وأمره بإحضار مشارف دار الضرب وسلمها إليه، فاعتمد ذلك وضربت عشرون ألف خروبة، وأحضرها. فأمر بحملها إلى الخليفة فسير الخليفة منها إلى المأمون ثلاثمائة دينار، وذكر أنها لم تضرب فى مدة خلافة الحافظ لدين الله غير سنة واحدة ثم بطل حكمها ونسى ذكرها. قال: وصارما يضرب باسم الخليفة يعنى الآمر بأحكام الله فى ستة مواضع القاهرة ومصر وقوص وعسقلان وصور والاسكندرية.

وقال ابن عبد الظاهر: خميس العدس كان يضرب فيه خمسمائة تعمل عشرة آلاف خروبة. كان الأفضل بن أمير الجيوش يحمل منها للخليفة مائتى دينار والبقية برسمه، ثم جعلت فى الأيام المأمونية ألف دينار، وربما زادت أو نقصت يسيرا، وقد تقدم أن قاضى القضاة كان يتولى عيار دار الضرب، ويحضر التغليق بنفسه، ويختم عليه ويحضر للموعد الآخر لفتحه.

ذكر دار الوكالة الآمرية

كانت دار الوكالة المذكورة بجانب دار الضرب، وموضعها الآن على يمنة السالك من رأس الخراطين إلى سوق الخيميين والجامع الأزهر.

قال ابن المأمون فى شوال سنة ست عشرة وخمسمائة: ثم أنشأ يعنى المأمون بن البطائحى وزير الخليفة الآمر بأحكام الله دار الوكالة بالقاهرة المحروسة لمن يصل من العراقيين والشاميين وغيرهما من التجار، ولم يسبق إلى ذلك.

ذكر مصلى العيد

وكان فى شرقى القصر الكبير مصلى العيد من خارج باب النصر، وهذا المصلى بناه القائد جوهر لأجل صلاة العيد فى شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ثم جدده العزيز بالله وقد بقى إلى الآن بعض هذا المصلى ، واتخذ فى جانب منه موضع مصلى الأموات اليوم.

ذكر هيئة صلاة العيد وما يتعلق بها

قال ابن زولاق : وركب المعز لدين الله يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة التى بناها القائد جوهر، وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسنى قد بكر وجلس فى المصلى تحت القبة فى موضع . فجاء الخدم وأقاموه وأقعدوا موضعه أباب جعفر مسلما، وأقعدوه هو دونه، وكان أبو جعفر مسلم خلف المعز عن يمينه وهو يصلي، وأقبل المعز فى زيه وبنوده وقبابه، وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة قرأ فى الأولى بأم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية، ثم كبر بعد القراءة وركع فأطال، وسجد فأطال أنا سبحت خلفه فى كل ركعة وفى كل سجدة نيفا وثلاثين تسبيحة، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير، وقرأ فى الثانية بأم الكتاب وسورة الضحي، ثم كبر أيضا بعد القراءة، وهى صلاة جده على بن أبى طالب عليه السلام، وأطال أيضا فى الثانية الركوع والسجود . أنا سبحت خلفه نيفا وثلاثين تسبيحة فى كل ركعة، وفى كل سجدة، وجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة، وأنكر جماعات يتوسمون بالعلم قراءته قبل التكبير لقلة علمهم وتقصيرهم فى العلوم . . حدثنا محمد بن أحمد قال حدثنا عمر بن شبية . حدثنا عبد الله ورجاء عن إسرائيل عن أبى اسحق عن الحارث عن عليّ عليه السلام، أنه كان يقرأ فى صلاة العيد قبل التكبير . فلما فرغ المعز من الصلاة صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا ثم ستر

بالسترين اللذين كانا على المنبر فخطب وراءهما على رسمه، وكان في أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل فجلس عليها بين الخطبتين، واستفتح لخطبة ببسم الله الرحمن الرحيم وكان معه على المنبر القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة ثم قال الله أكبر الله أكبر واستفتح بذلك وخطب وأبلغ، وأبكى الناس، وكانت خطبة بخشوع وخضوع، فلما فرغ من خطبته انصرف في عساكره وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخود على الخيل بأحسن زي، وساروا بين يديه بالفيلين. فلما حضر في قصره أحضر الناس فأكلوا، وقدمت إليهم السمط ونشطهم إلى الطعام وعتب على من تأخر وهدد من بلغه عنه صيام العيد.

وقال المسبحي في حوادث آخر يوم من رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة وبقيت مصاطب ما بين القصور والمصلى الجديدة ظاهر باب النصر عليها المؤذنون حتى يتصل التكبير من المصلى إلى القصر، وفيه تقدم أمر القاضي محمد بن النعمان بإحضار المتفقهة والمؤمنين. يعني الشيعة، وأمرهم بالجلوس يوم العيد على هذه المصاطب، ولم يزل يرتب الناس، وكتب رقاعا فيها أسماء الناس فكانت تخرج رقعة رقعة. فيجلس الناس على مصطبة مصطبة بالترتيب، وفي يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يده الجنائب والقباب الديباج بالحلي والعسكر في زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والأخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر، والسروج بالعنبر، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرّاقة، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف.

وقال ابن المأمون: ولما توفي أمير الجيوش بدر الجمالي وانتقل الأمر إلى ولده الأفضل بن أمير الجيوش جرى على سنن والده في صلاة العيد، ويقف في قوس باب داره الذي عند باب النصر. يعني دار الوزارة، فلما سكن بمصر صار يطلع من مصر باكرا، ويقف على باب داره على الحالة الأولى حتى تستحق الصلاة. فيدخل من باب العيد إلى الايوان ويصلي به القاضي ابن الرسعني ثم يجلس بعد الصلاة على المرتبة إلى أن تنقضي الخطبة. فيدخل من باب الملك ويسلم على الخليفة بحيث لا يراه أحد غيره، ثم يخلع عليه ويتوجه

إلى داره بمصر . فيكون السماط بهامدى الأعياد . فلما قتل الأفضل واستقر بعده المأمون بن البطائحى فى الوزارة قال هذا نقص فى حق العيد ، ولا يعلم السبب فى كون الخليفة لا يظهر فقال له الخليفة الآمر بأحكام الله فما تراه أنت؟ فقال : يجلس مولانا فى المنظرة التى استجدت بين باب الذهب وباب البحر . فإذا جلس مولانا فى المنظرة وفتحت الطاقات ، وقف المملوك بين يديه فى قوس باب الذهب ، وتجوز العساكر فارسها وراجلها وتشملها بركة نظر مولانا إليها . فإذا حان وقت الصلاة توجه المملوك بالموكب والزى وجميع الأمراء والأجناد ، واجتاز بأبواب القصر ودخل الايوان . فاستحسن ذلك منه واستصوب رأيه ، وبالغ فى شكره ، ثم عاد المأمون إلى مجلسه وأمر بتفرقة كسوة العيد والهبات يعنى فى عيد النحر سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وجملة العين ثلاثة آلاف وثلاثمائة دينار وسبعة دنانير ، ومن الكسوات مائة قطعة وسبع قطع برسم الأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب وغيرهم . قال : ووصلت الكسوة المختصة بالعيد فى آخر شهر رمضان يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة ، وهى تشتمل على دون العشرين ألف دينار وهو عندهم الموسم الكبير ، ويسمى بعيد الحلل ، لأن الحلل فيه تعم الجماعة وفى غيره للأعيان خاصة ، وقد تقدم تفصيلها عند ذكر خزانة الكسوة من هذا الكتاب .

قال : ولما كان فى التاسع والعشرين من شهر رمضان خرجت الأوامر بأضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور . بحكم أنها ليلة ختم الشهر ، وحضر المأمون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة ، والحضور على الاسمطة على العادة ، وحضر إخوته وعمومته وجميع الجلساء ، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور بلاحى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقي ، وجعلت أمام المذكورين . ليشملها بركة ختم القرآن ، واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبا ، ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ، ودعا فأبلغ ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ، ثم كبر المؤذنون وهللوا ، وأخذوا فى الصوفيات إلى أن نثر عليهم من الروشن دراهم ودنانير ورباعيات ، وقدمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوي . فجروا على

عادتهم وملأوا أكمامهم، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجليلة بخلع خلعها على الخطيب وغيره، ودارهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين، ورسم أن تحمل الفطرة إلى قاعة الذهب، وأن تكون التعبية فى مجلس الملك، وتعبى الطيافير المشورة الكبار من السرير إلى باب المجلس، وتعبى من باب المجلس إلى ثلثى القاعة سماطا واحدا مثل سماط الطعام، ويكون جميعه سدا واحدا من حلاوة الموسم، ويزين بالقطع المنفوخ.
فامتثل الأمر وحضر الخليفة إلى الإيوان واستدعى المأمون وأولاده وإخوته، وعرضت المظال المذهبة المحاومة، وكان المقرئون يلوحون عند ذكرها بالآيات التى فى سورة النحل ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالا﴾(*) إلى آخرها، وجلس الخليفة ورفعت الستور، واستفتح المقرئون وجدد المأمون السلام عليه وجلس على المرتبة عن يمينه، وسلم الأمراء جميعهم على حكم منازلهم لا يتعدى أحد منهم مكانه، والنواب جميعهم يستدعونهم بنعوتهم وترتيب وقوفهم، وسلم الرسل الواصلون من جميع الأقاليم، ووقفوا فى آخر الايوان، وختم المقرئون وسلموا، وخدمت الرهجية، وتقدم متولى كل اصطبل من الروّاض وغيرهم يقبل الأرض، ويقف ودخلت الدواب من باب الديلم، والمستخدمون فى الركاب بالمناديل يتسلمونها من الشدادين، ويدورون بها حول الايوان، ودواب المظلة متميزة عن غيرها. يتسلمها الأستاذون والمستخدمون فى الركاب، ويعلون بها إلى قريب من الشباك الذى فيه الخليفة، وكلما عرض دواب اصطبل قبل الأرض متوليه وانصرف، وتقدم متولى غيره على حكمه إلى أن يعرض جميع ما أحضروه، وهو ما يزيد على ألف فرس خارجا عن البغال، وما تأخر من العشاريات والحجور والمهارة، ولما عرضت الدواب أبطلت الرهجية، وعاد استفتاح المقرئين وكانوا محسنين فيما ينتزعونه من القرآن الكريم مما يوافق الحال مثل الآية من آل عمران ﴿زين للناس حب الشهوات﴾(**) إلى آخرها ثم بعدها ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء﴾(***) إلى آخرها، وعرضت الوحوش بالأجلة الديباج والديبقى بقباب الذهب والمناطق والاهلة، وبعدها النجب والبخاتى

(*) ٨١ ك النحل ١٦.
(**) ٢ م سورة آل عمران آية ١٤.
(***) ٢ م سورة آل عمران آية ٢٦.

بالاقتاب الملبسة بالديبقى الملون المرقوم، وعرض السلام وآلات الموكب جميعها، ونصبت الكسوات على باب العيد، وضربت طول الليل، وحملت الفطرة الخاص التى يفطر عليها الخليفة بأصناف الجوارشات بالمسك والعود والكافور والزعفران والتمور المصبغة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره وتسد وتختم، وسلمت للمستخدمين فى القصور وعبيت فى مواعين الذهب المكللة بالجواهر، وخرجت الأعلام والبنود، وركب المأمون فلما حصل بقاعة الذهب أخذ فى مشاهدة السماط من سرسر الملك إلى آخرها، وخرج الخليفة لوقته من الباذهنج وطلع إلى سرير ملكه، وبين يديه الصوانى المقدم ذكرها، واستدعى بالمأمون فجلس عن يمينه بعد أداء حق السلام، وأمر بإحضار الأمراء المميزين والقاضى والداعى والضيوف، وسلم كل منهم على حكم ميزته، وقدمت الرسل وشرّفوا بتقبيل الأرض، والمقرئون يتلون والمؤذنون يهللون ويكبرون، وكشفت القوارات الشرب المذهبات عما هو بين يدى الخليفة. فبدأ وكبر وأخذ بيده تمرة فأفطر عليها، وناول مثلها الوزير. فأظهر الفطر عليها، وأخذ الخليفة فى أن يستعمل من جميع ما حضر، ويناول وزيره منه وهو يقبله، ويجعله فى كمه وتقدمت الأجلاء إخوة الوزير وأولاده من تحت السرير، وهو يناولهم من يده فيجعلونه فى أكمامهم بعد تقبيله، وأخذ كل من الحاضرين كذلك، ويومىء بالفطور، ويجعله فى كمه على سبيل البركة. فمن كان رأيه الفطور أفطر، ومن لم يكن رأيه أومأ، وجعله فى كمه لا ينتقد على أحد فعله، ثم قال المأمون بعد ذلك: ما على من يأخذ من هذا المكان نقيصه بل له به الشرف والميزة، ومد يده وأخذ من الطيفور الذى كان بين يديه عود نبات وجعله فى كمه بعد تقبيله، وأشار إلى الأمراء فاعتمد كل من الحاضرين ذلك، وملأوا أكمامهم، ودخل الناس فأخذوا جميع ذلك. ثم خرج الوزير إلى داره والجماعة فى ركابه، فوجد التعبية فيها من صدر المجلس إلى آخره على ما أمر به، ولم يعدم مما كان بالقصر غير الصوانى الخاص. فجلس على مرتبته والأجلاء أولاده، واستدعى بالعوالى من الأمراء والقاضى والداعى والضيوف فحضروا، وشرفوا بجلوسهم معه وحصل من مسرتهم بذلك ما بسطهم، ورفعوا اليسير مما حضر على سبيل الشرف، ثم انصرفوا وحضرت الطوائف والرسل على طبقاتهم إلى أن حمل جميع ما كان

بالدار بأسره، وانقضى حكم الفطور وعاد للتنفيذ فى غيره، وضربت الطبول والأبواق على أبواب القصور والدار المأمونية، وأحضرت التغايير وفرقت على أربابها من الأجناد والمستخدمين، وخرجت أزمة العساكر فارسها وراجلها، وندب الحاجب الذى بيده الدعو لترتيب صفوفها من باب القصر إلى المصلي، ثم حضر إلى الدار المأمونية الشيوخ المميزون، وجلس المأمون فى مجلسه وأولاده بهيئة العيد وزينته، ورفعت الستور وابتدأ المقرئون، وسلم متولى الباب والشيوخ، ولم يدخل المجلس غير كاتب الدست ومتولى الحجبة، وبالغ كل منهما فى زيه وملبوسه وجروا على رسمهم فى تقبيل الأرض وعتبة المجلس، ووصل إلى الدار المأمونية التجمل الخاص الذى برسم الخليفة جميعه. القصب الفضة والأعلام والمنجوقات والعقبات والعماريات، ولواءا الوزارة لركوب الخليفة بالمظلة بالطميم، والمراكيب الذهب المرصعة بالجوهر. وغير ذلك من التجملات، وركب المأمون من داره وجميع التشاريف الخاص بين يديه، وخدمت الرهجية، ومن جملتهم الغريبة، وهى أبواق لطاف عجيبة غريبة الشكل تضرب كل وقت يركب فيه الخليفة، ولا تضرب قدام الوزير إلا فى المواسم خاصة وفى أيام الخلع عليه والأمراء مصطفون عن يمينه وعن شماله، ويليهم إخوته، وبعدهم أولاده ودخل إلى الإيوان وجلس على المرتبة المختصة به، وعن يمينه جميع الأجلاء والمميزون وقوف أمامه، ومن انحط عنهم من باب الملك إلى الإيوان قيام، ويخرج خاصة الدولة ريحان إلى المصلى بالفرش الخاص، وآلات الصلاة وعلق المحراب بالشروب المذهبة وفرش فيه ثلاث سجادات متراكبة وأعلاها السجادة اللطيفة التى كانت عندهم معظمة، وهى قطعة من حصير ذكر أنها كانت من جملة حصير لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام يصلى عليها، وفرش الأرض جميعها بالحصر المحاريب، ثم علق على جانبى المنبر وفرش جميع درجه وجعل أعلاه المخاد التى يجلس عليها الخليفة، وعلق اللواءان عليه، وقعد تحت القبة خاصة الدولة ريحان والقاضي، وأطلق البخور ولم يفتح من أبوابه إلا باب واحد، وهو الذى يدخل منه الخليفة ويقعد الداعى فى الدهليز، ونقباء المؤمنين بين يديه، وكذلك الأمراء والأشراف والشيوخ والشهود ومن سواهم من أرباب الحرف، ولا يمكن من الدخول إلا من يعرفه الداعى

ويكون فى ضمانه واستفتحت الصلاة، وأقبل الخليفة من قصوره بغاية زيه، والعلم الجوهر فى منديله، وقضيب الملك بيده وبنو عمه واخوته وأستاذوه فى ركابه، وتلقاه المقرئون عند وصوله والخواص، واستدعى بالمأمون فتقدم بمفرده، وقبل الأرض وأخذ السيف والرمح من مقدمى خزائن الكسوة، والرهجية تخدم، وحمل لواء الحمد بين يديه إلى أن خرج من باب العيد فوجد المظلة قد نشرت عن يمينه، والذى بيده الدعو فى ترتيب الحجبة لمن شرف بها لا يتعدى أحد حكمه وسائر المواكب بالجنائب الخاص، وخيل التخافيف ومصفات العساكر والطوائف جميعها بزيها وراياتها وراء الموكب. إلى أن وصل إلى قريب المصلى والعماريات والزراقات، وقد شد على الفيلة بالاسرة مملوءة رجالا مشبكة بالسلاح لا يتبين منهم إلا الأحداق، وبأيديهم السيوف المجردة والدرق الحديد الصيني، والعساكر قد اجتمعت وترادفت صفوفا من الجانبين إلى باب المصلي، والنظارة قد ملأت الفضاء لمشاهدة ما لم يبلغوه، والموكب سائر بهم، وقد أحاط بالخليفة والوزير صبيان الخاص، وبعدهم الأجناد بالدروع المسبلة والزرديات بالمغافر ملثمة، والبروك الحديد بالصماصم والدبابيس، ولما طلع الموكب من ربوة المصلى ترجل متولى الباب والحجاب، ووقف الخليفة بجمعه بالمظلة، إلى أن اجتاز المأمون راكبا بمن حول ركابه ورد الخليفة السلام عليه بكمه وصار أمامه وترجل الأمراء المميزون والأستاذون المحنكون بعدهم، وجميع الاجلاء، وصار كل منهم يبدأ بالسلام على الوزير، ثم على الخليفة إلى أن صار الجميع فى ركابه، ولم يدخل من باب المصلى راكبا غير الوزير خاصة. ثم ترجل على بابه الثانى إلى أن وصل الخليفة إليه فاستدعى به فسلم، وأخذ الشكيمة بيده إلى أن ترجل الخليفة فى الدهليز الآخر، وقصد المحراب والمؤذنون يكبرون قدامه واستفتح الخليفة فى المحراب، وسامته فيه وزيره والقاضى والداعى عن يمينه وشماله ليوصلوا التكبير لجماعة المؤذنين من الجانبين، ويتصل منهم التكبير إلى مؤذنى مصلى الرجال والنساء الخارجين عن المصلى الكبير وكاتب الدست وأهله ومتولى ديوان الإنشاء يصلون تحت عقد المنبر، ولا يمكن غيرهم أن يكون معهم، ولما قضى الخليفة الصلاة وهى ركعتان قرأ فى الأولى بفاتحة الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية وكبر سبع تكبيرات وركع وسجد، وفى الثانية بالفاتحة

وسورة والشمس وضحاها وكبر خمس تكبيرات وهذه سنة الجميع ومن ينوب عنهم فى صلاة العيدين على الاستمرار، وسلم وخرج من المحراب وعطف عن يمينه والحرص عليه شديد، ولا يصل إليه إلا من كان خصيصا به، وصعد المنبر بالخشوع والسكينة وجميع من بالمصلى والتربة لا يسأم نظره ويكثرون من الدعاء له، ولما حصل فى أعلى المنبر أشار إلى المأمون فقبل الأرض وسارع فى الطلوع إليه وأدى ما يجب من سلامه وتعظيم مقامه، ووقف بأعلى درجة وأشار إلى القاضى فتقدم وقبل كل درجة إلى أن يصل إلى الدرجة الثالثة وقف عندها وأخرج الدعو من كمه وقبله ووضعه على رأسه وأعلي، بما تضمنه، وهو ما جرت به العادة من تسمية يوم العيد وسنته والدعاء للدولة، وكانت الحال فى أيام وزراء الأقلام والسيوف إذا حصل الخليفة فى أعلى المنبر بقى الوزير مع غيره، وأشار الخليفة إلى القاضى فيقبل الأرض ويطلع إلى الدرجة الثالثة ويخرج الدعو من كمه ويقبله ويضعه على رأسه، ويذكر يوم العيد وسنته والدعاء للدولة، ثم يستدعى بالوزير بعد ذلك فيصعد بعد القاضى فراعى الخليفة ذلك الأمر فى حق الوزير، فجعل الإشارة منه إليه أولا ورفعه عن أن يكون مزمورا مثل غيره، وجعلها له ميزة على غيره ممن تقدمه، واستمرت فيما بعد، واستفتح الخليفة بالتكبير الجارى به العادة فى الفطر والخطبتين إلى آخرهما وكبر المؤذنون ورفع اللواءان وترجل كل أحد من موضعه كما كان ركوبه، وصار الجميع فى ركاب الخليفة، وجرى الأمر فى رجوعه على ما تقدم شرحه، ومضى إلى تربة آبائه وهى سنتهم فى كل ركبة بمظلة، وفى كل يوم جمعة مع صدقات ورسوم تفرق، وأما الوزير المأمون فإنه توجه وخرج من باب العيد والأمراء بين يديه إلى أن وصل إلى باب الذهب فدخل منه بعد أن أمر ولده الأكبر بالوصول إلى داره والجلوس على سماط العيد على عادته، ولما دخل المأمون بقاعة الذهب وجد الشروع قد وقع من المستخدمين بتعبية السماط. فأمر بتفرقة الرسوم على أربابها، وهو ما يحمل إلى مجلس الوزارة برسم الحاشية، ولكل من حاشية أولاده وإخوته وكاتب الدست ومتولى حجبة الباب ومتولى الديوان وكاتب الدفتر والنائب. لكل منهم رسم يصرف قبل جلوس الخليفة، وعند انقضاء الاسمطة لغير المذكورين على قدر منزلة كل منهم، ثم حضر أبو الفضائل بن أبى الليث

واستأذن على طيافير الفطرة الكبار التى فى مجلس الخليفة . فأمره الوزير بأن يعتمد فى تفرقتها على ما كان يعتمده فى الأيام الأفضلية وهو لكل من يصعد المنبر مع الخليفة طيفور .
فلما أخذ الخليفة راحة بعد مضيه إلى التربة جلس على السرير وبين يديه المائدة اللطيفة الذهب بالمينا معباة بالزبادى الذهب واستدعى الوزير واصطف الناس من المدورة إلى آخر السماط من الجانبين على طبقاتهم ، ورفعت الستور واستفتح المقرئون ووفى الدولة اسعاف متولى المائدة مشدود الوسط ، ومقدم خزانة الشراب بيده شربة فى مرفع ذهب وغطاء مرصعين بالجوهر والياقوت ، ومتولى خزائن الإنفاق بيده خريطة مملوءة دنانير لمن يقف يطلب صدقة وإنعاما . فيؤمر بما يدفع إليه ، وتفرقة الرسوم الجارى بها العادة ، ولعبت المنافقون والتحسارية ، وتناوب القراء والمنشدون ، وأرخيت الستور وعبى السماط ثانيا على ما كان عليه أولا ، ثم رفعت الستور وجلس على المدورة والسماط من جرت العادة به ، وفرقت الدنانير على المقرئين والمنشدين والتحسارية والمنافقين ، ومن هو معروف بكثرة إلا كل ونهبت قصور الخليفة ، وفرق من الأصناف ما جرت به العادة وأرخيت الستور ، وأحضر متولى خزانة الكسوة الخاص للخليفة بدلة إلى أعلى السرير حسبما كان أمره فلبسها وخلع الثياب التى كانت عليه ، على الوزير بعد ما بالغ فى شكره والثناء عليه وتوجه إلى داره فوصل إليه من الخليفة الصوانى الخاص المكللة معباة على ما كانت بين يديه وغيرها من الموائد ، وكذلك إلى أولاده وإخوته صينية صينية ، ولكاتب الدست ومتولى حجبة الباب مثل ذلك ، ويكبر الوزير بجلوسه فى داره معلنا ، وتسارع الناس على طبقاتهم بالعيد والخلع ، وبما جرى فى صعود المنبر وحضر الشعراء وأسنيت لهم الجوائز ، وجرى الحال يومئذ فى جلوس الخليفة ، وفى السلام لجميع الشيوخ والقضاة والشهود والأمراء والكتاب ومقدمى الركاب والمتصدرين بالجوامع والفقهاء ، والقاهريين والمصريين ، واليهود برئيسهم ، والنصارى ببطريقهم على ما جرت به عادتهم ، وختم المقرئون ، وقدمت الشعراء على طبقاتهم إلى آخرهم وجدد لكل من الحاضرين سلامه وانكفأ الخليفة إلى الباذهنج لأداء فريضة الصلاة والراحة بمقدار ما عبيت المائدة الخاص ، واستحضر المأمون وأولاده واخوته على عادتهم ، واستدعى من شرف بحضور المائدة ، وهم الشيخ أبو الحسن

كاتب الدست، وأبو الرضى سالم ابنه، ومتولى حجبة الباب، وظهير الدين الكنانى على ما كان عليه الحال قبل الصيام وانقضى حكم العيد.

وقال ابن الطوير: إذا قرب آخر العشر الآخر من شهر رمضان خرج الزى من أماكنه على ما وصفنا فى ركوب أول العام، ولكن فيه زيادات يأتى ذكرها، ويركب فى مستهل شوال بعد تمام شهر رمضان وعدته عندهم أبدا ثلاثون يوما. فإذا تهيأت الأمور من الخليفة والوزير والأمراء وأرباب الرتب على ما تقدم، وصار الوزير بجماعته إلى باب القصر ركب الخليفة بهيئة الخلافة من المظلة واليتيمة والآلات المقدم ذكرها، ولباسه فى هذا اليوم الثياب البياض الموشحة المحومة، وهى أجل لباسهم، والمظلة كذلك فإنها أبدا تابعة لثيابه كيف كانت، الثياب كانت ويكون خروجه من باب العيد إلى المصلي، والزيادة ظاهرة فى هذا اليوم فى العساكر، وقد انتظم القوم له صفين من باب القصر إلى باب المصلي، ويكون صاحب بيت المال قد تقدم على الرسم لفرش المصلى فيفرش الطراحات على رسمها فى المحراب مطابقة، ويعلق سترين يمنة ويسرة فى الأيمن البسملة والفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى، وفى الأيسر مثل ذلك وهل أتاك حديث الغاشية، ثم يركز فى جانب المصلى لواءين مشدودين على رمحين ملبسين بأنابيب الفضة، وهما مستوران مرخيان فيدخل الخليفة من شرقى المصلى إلى مكان ليستريح فيه دقيقة، ثم يخرج محفوظا كما يحفظ فى جامع القاهرة، فيصير إلى المحراب ويصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة والوزير وراءه والقاضي، ويقرأ فى كل ركعة ما هو مرقوم فى السترين. فإذا فرغ وسلم صعد المنبر للخطابة العيدية يوم الفطر. فإذا جلس فى الذروة وهناك طراحة سامان أو ديبقى على قدرها وباقية يستر ببياض على مقداره فى تقطيع درجه، وهو مضبوط لا يتغير فيراه أهل ذلك الجمع جالسا فى الذروة، ويكون قد وقف أسفل المنبر الوزير وقاضي القضاة وصاحب الباب اسفهسلار العساكر، وصاحب السيف وصاحب الرسالة وزمام القصر وصاحب دفتر المجلس وصاحب المظلة، وزمام الإشراف الأقارب وصاحب بيت المال وحامل الرمح، ونقيب الاشراف الطالبيين، ووجه الوزير إليه فيشير إليه. فيصعد ويقرب وقوفه منه، ويكون وجهه موازيا رجليه فيقبلهما بحيث يراه العالم. ثم يقوم ويقف على

يمينه . فإذا وقف أشار إلى قاضى القضاة فيصعد إلى سابع درجة ، ويتطلع إليه صاغيا لما يقول فيشير إليه فيخرج من كمه مدرجا قد أحضر إليه أمس من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير . فيعلن بقراءة مضمونه ، ويقول : بسم الله الرحمن الرحيم . ثبت بمن شرف بصعوده المنبر الشريف فى يوم كذا وهو عيد الفطر من سمة كذا من عبيد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، بعد صعود السيد الاجل ونعوته المقررة ودعائه المحرر . فإن أراد الخليفة أن يشرف أحدا من أولاد الوزير وإخوته استدعاه القاضى بالنعت المذكور ، ثم يتلو ذلك ذكر القاضى وهو القاريء . فلا يتسع له أن يقول عن نفسه نعوته ولا دعاءه . بل يقول المملوك فلان بن فلان وقرأه مرة القاضى ابن أبى عقيل فلما وصل إلى اسمه قال العبد الذليل المعترف بالصنع الجميل فى المقام الجليل أحمد بن عبد الرحمن بن أبى عقيل ، فاستحسن ذلك منه ، ثم حذا حذوه الأعز بن سلامة وقد استقضى فى آخر الوقت فقال المملوك فى محل الكرامه . . الذى عليه من الولاء أصدق علامه . . حسن بن على بن سلامة . . ثم يستدعى من ذكرنا وقوفهم على باب المنبر بنعوتهم ، وذكر خدمهم ودعائهم على الترتيب . فإذا طلع الجماعة وكل منهم يعرف مقامه فى المنبر يمنة ويسرة ، أشار الوزير إليهم فأخذ من هو من كل جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه فيستر الخليفة ويسترون ، وينادى فى الناس بأن ينصتوا . فيخطب الخليفة من المسطور على العادة ، وهى خطبة بليغة موافقة لذلك اليوم . فإذا فرغ ألقى كل من فى يده من اللواء شيء خارج المنبر . فينكشفون وينزلون أولا فأولا . الأقرب فالأقرب إلى القهقري ، فإذا خلا المنبر منهم قام الخليفة هابطا ، ودخل إلى المكان الذى خرج منه . فلبث يسيرا وركب فى زيه المفخم ، وعاد من طريقه بعينها إلى أن يصل إلى قريب القصر . فيتقدمه الوزير كما شرحنا ، ثم يدخل من باب العيد فيجلس فى الشباك وقد نصب منه إلى فسقية كانت فى وسط الايوان مقدار عشرين قصبة سماط من الخشكنان والبسندود والبرماورد مثل الجبل الشاهق ، وفيه القطعة وزنها من ربع قنطار إلى رطل فيدخل ذلك الجمع إليه ويفطر منه . . من يفطر وينقل منه من ينقل ، ويباح ولا يحجر عليه ولا مانع دونه . فيمر ذلك بأيدى الناس وليس هو مما يعتد به ولا يعنى مما يفرق للناس ، ويحل إلى

دورهم، ويعمل فى هذا اليوم سماط من الطعام فى القاعة يحضر عليه الخليفة والوزير. فإذا انقضى ذو القعدة وهل هلال ذى الحجة اهتم بركوب عيد النحر. فيجرى حاله كما جرى فى عيد الفطر من الزى والركوب إلى المصلي، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح ولا ينخرم منه شيء. انتهى.

وصعد مرة الخليفة الحافظ لدّين الله أبو الميمون عبد المجيد المنبر يوم عيد فوقف الشريف ابن أنس الدولة بإزائه وقال مشيرا إلى الحاضرين:

خشوعا فإن الله هذا مقـــــامه

وهمسا فهذا وجهه وكلامه

وهذا الذى فى كل وقت بروزه

تحيـــــاته من ربنا وسلامه

فضرب الحافظ الجانب الأيسر من المنبر فرقى إليه زمام القصر فقال له: قل للشريف حسبك قضيت حاجتك، ولم يدعه يقول شيئا آخر، وكانت تكتب المخلفات بركوب أمير المؤمنين لصلاة العيد و، يبعث بها إلى الأعمال ف. مما كتب به من إنشاء ابن الصيرفي.

أما بعد: فالحمد لله الذى رفع بأمير المؤمنين عماد الدين وثبت قواعده.. وأعز بخلافته معتقده وأذل بمهابته معانده.. وأظهر من نوره ما انبسط فى الآفاق وزال معه الإظلام.. ونسخ به ما تقدمه من الملل. فقال إن الدين عند الله الإسلام.. وجعل المعتصم بحبله مفضلا على من يفاخره ويباهيه، وأوجب دخول الجنة وخلودها لمن عمل بأوامره ونواهيه.. وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذى اصطفى له الدين.. وبعثه إلى الأقربين والأبعدين.. وأيده فى الإرشاد حتى صار العاصى مطيعا.. ودخل الناس فى التوحيد فرادى وجميعا.. وغدوا بعروته الوثقى متمسكين.. وأنزل عليه: **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾**(*). وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب إمام الأمة.. وكاشف الغمة.. وأوجه الشفعاء

(*) ٦ ك الأنعام ١٦١ - ١٦٢.

لشيعته يوم العرض . . ومن الإخلاص فى ولائه قيام بحق وأداء فرض . . وعلى الأئمة من ذريتهما سادة البرية . . والعادلين فى القضية . . والعاملين بالسيرة المرضية . . وسلم وكرم . . وشرف وعظم . . وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم الثلاثاء عيد الفطر من سنة ست وثلاثين وخمسمائة، وقد كان من قيام أمير المؤمنين بحقه وأدائه . . وجريه فى ذلك على عادته وعادة من قبله من آبائه . . وما ينبئك به . . ويطلعك على مستوره عنك ومغيبه . . وذلك أن دنس ثوب الليل لما بيضه الصباح . . وعاد المحرم المحظور بما أطلقه المحلل المباح . . توجهت عساكر أمير المؤمنين من مظانها إلى بابه . . وأفطرت بين يديه بعد ما حازته من أجر الصيام وثوابه . . ثم انثنت إلى مصافها فى الهيآت . . التى يقصر عنها تجريد الصفات . . وتغنى مهابتها عن تجريد المرهفات . . وتشهد أسلحتها وعددها بالتنافس فى الهمم . . وتقلق مواضيها فى أغمادها شوقا إلى الطلى والقمم . . وقد امتلأت الأرض بازدحام الرجل والخيل . . وثار العجاج فلم ير أغرب من اجتماع النهار والليل . . وبرز أمير المؤمنين من قصوره . . و ظهر للإبصار على أنه محتجب بضيائه ونوره . . وتوجه إلى المصلى فى هدى جده وأبيه . . والوقار الذى ارتفع فيه عن النظير والشبيه . . ولما انتهى إليه قصد المحراب واستقبله . . وأدى الصلاة على وضع رضيه الله وتقبله . . وأجرى أمرها على أفضل المعهود . . ووفاها حقها من القراءة والتكبير والركوع والسجود . . وانتهى إلى المنبر فعلا وكبر الله . . وهلله على ما أولاه . . وذكر الثواب على إخراج الفطرة وبشربه . . وإن المسارعة إليه من وسائل المحافظة على الخير وقربه . . ووعظ وعظا ينتفع قابله فى عاجلته ومنقلبه . . ثم عاد إلى قصوره الزاهرة مشمولا بالوقاية . . مكنوفا بالكفاية . . منتهيا فى إرشاد عبيده ورعاياه أقصى الغاية . . أعلمك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتعلم منه ما تسكن إليه . . وتعلن بتلاوته على الكافة ليشتركوا فى معرفته، ويشكروا الله عليه . . فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالي .

وكان من أهل برقة طائفة تعرف بصبيان الخف لها إقطاعات وجرايات وكسوات ورسوم . فإذا ركب الخليفة فى العيدين مدوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى

الأرض . حبلا عن يمين الباب . وحبلا عن شماله فإذا عاد الخليفة من المصلى نزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون ، وفى أيديهم رايات ، وخلف كل واحد منهم رديف وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه ، ويعملون أعمالا تذهل العقول ، ويركب منهم جماعة فى الموكب على خيول فيركضون ، وهم يتقلبون عليها ، ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ويعود يركب من الجانب الآخر ، ويعود وهو على حاله لا يتوقف ولا يسقط منه شيء إلى الأرض ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف .

ذكر القصر الصغير الغربي

وكان تجاه القصر الكبير الشرقى الذى تقدم ذكره فى غربيه قصر آخر صغير . يعرف بالقصر الغربي ، ومكانه الآن حيث المارستان المنصوري ، وما فى صفه من المدارس ، ودار الأمير بيسري ، وباب قبو الخرنشف ، وربع الملك الكامل المطل على سوق الدجاجين اليوم المعروف قديما بالتبانين وما يجاوره من الدرب المعروف اليوم بدرب الخضيرى تجاه الجامع الأقمر ، وما وراء هذه الأماكن إلى الخليج ، وكان هذا القصر الغربى يعرف أيضا بقصر البحر ، والذى بناه العزيز بالله نزار بن المعز .

قال المسبحي : ولم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب . . وقال ابن أبى طي : فى أخبار سنة سبع وخمسين وأربعمائة : ففيها تمم الخليفة المستنصر بناء القصر الغربى وسكنه وغرم عليه ألفى ألف دينار ، وكان ابتداء بنيانه فى سنة خمسين وأربعمائة ، وكان سبب بنائه أنه عزم على أن يجعله منزلا للخليفة القائم بأمر الله صاحب بغداد ، ويجمع بنى العباس إليه ، ويجعله كالمجلس لهم فخانه أمله ، وتممه فى هذه السنة ، وجعله لنفسه وسكنه .

وقال ابن ميسر : إن ست الملك أخت الحاكم كانت أكبر من أخيها الحاكم ، وأن والدها العزيز بالله كان قد أفردها بسكنى القصر الغربي ، وجعل لها طائفة برسمها كانوا يسمون بالقصرية . وهذا يدلك على أن القصر الغربى كان قد بنى قبل المستنصر وهو الصحيح ، وكان هذا القصر يشتمل أيضا على عدة أماكن .

«الميدان»

وكان بجوار القصر الغربى ومن حقوقه الميدان ويعرف هذا الميدان ، اليوم بالخرنشف واصطبل القطبية .

«البستان الكافوري»

وكان من حقوق القصر الصغير الغربى البستان الكافوري ، وكان بستانا أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طفج بن جف الإخشيد أمير مصر ، وكان مطلا على الخليج . فاعتنى به الأخشيد وجعل له أبوابا من حديد ، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام ، واهتم بشأنه من بعد الأخشيد ابناه الأمير أبو القاسم أو نوجور بن الإخشيد والأمير أبو الحسن على ابن الأخشيد فى أيام إمارتهما بعد أبيهما . فلما استبد من بعدهما الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدى بإمارة مصر كان كثيرا ما يتنزه به ، ويواصل الركوب إلى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان . فلما قدم القائد جوهر من المغرب بجيوش مولاه المعز لدين الله لأخذ ديار مصر أناخ بجوار هذا البستان ، وجعله من جملة القاهرة وكان منتزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم ، وكانوا يتوصلون إليه من سراديب مبنية تحت الأرض ينزلون إليها من القصر الكبير الشرقي ، ويسيرون فيها بالدواب إلى البستان الكافورى ومناظر اللؤلؤة ،

بحيث لا تراهم الأعين ومازال البستان عامرا إلى أن زالت الدولة. فحكر وبنى فيه فى سنة إحدى وخمسين وستمائة كما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى عند ذكر الحارات والخطط من هذا الكتاب، وأما الاقباء والسراديب فإنها عملت أسربة للمراحيض وهى باقية إلى يومنا هذا تصب فى الخليج.

«القاعة»

وكان من جملة القصر الغربى قاعة كبيرة هى الآن المارستان المنصوري. حيث المرضي، كانت سكن ست الملك أخت الحاكم بأمر الله وكانت أحوالها متسعة جدا.. قال فى كتاب الذخائر والتحف وأهدت السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله إلى أخيها يوم الثلاثاء التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة هدايا من جملتها ثلاثون فرسا بمراكبها ذهبا، منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور، وعشرون بغلة بسروجها ولجمها، وخمسون خادما منهم عشرة صقالبة، ومائة تخت من أنواع الثياب وفاخرها، وتاج مرصع بنفيس الجوهر، وبديعه وشاشية مرصعة، وأسفاط كثيرة من طيب من سائر أنواعه، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر. قال: وخلفت حين ماتت فى مستهل جمادى الآخرة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة ما لا يحصى كثرة، وكان إقطاعها فى كل سنة يغل خمسين ألف دينار، ووجد لها بعد وفاتها ثمانية آلاف جارية منها بنيات ألف وخمسمائة، وكانت سمحة نبيلة كريمة الأخلاق والفعل، وكان فى جملة موجودها نيف وثلاثون زيرا صينيا مملوء جميعها مسكا مسحوقا، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت ذكر أن فيها عشرة مثاقيل.

قال المسبحي: ولدت بالمغرب فى ذى القعدة سنة خمس وثلاثمائة ولما زالت الدولة عرفت هذه الدار بالأمير فخر الدين جهاركس موسك، ثم بالملك المفضل قطب الدين بن الملك العادل، فلما كان فى شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين وستمائة

شرع الملك المنصور قلاون الألفى فى بنائها مارستانا ومدرسة وتربة ، وتولى عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك ، ويقال إن ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع .

أبواب القصر الغربي

كان لهذا القصر عدة أبواب منها باب الساباط وباب التبانين وباب الزمرذ .

«باب الساباط»

هذا الباب موضعه الآن باب سر المارستان المنصورى الذى يخرج منه الآن إلى الخرنشف ، وكان من الرسم أن يذبح فى باب الساباط المذكور مدة أيام النحر وفى عيد الغدير عدة ذبائح تفرق على سبيل الشرف .

قال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة : وجملة ما نحره الخليفة الآمر بأحكام الله وذبحه خاصة فى المنحر وباب الساباط دون المأمون وأولاده وإخوته فى ثلاثة الأيام ألف وسبعمائة وستة وأربعون رأسا . فذكر ما كان بالمنحر قال : وفى باب الساباط مما يحمل إلى من حوته القصور وإلى دار الوزارة والأصحاب والحواشى اثنتا عشرة ناقة وثمانية عشر رأس بقر وخمسة عشر رأس جاموس ، ومن الكباش ألف وثمانمائة رأس ، ويتصدق كل يوم فى باب الساباط بسقط ما يذبح من النوق والبقر .

وقال ابن عبد الظاهر : كان فى القصر باب يعرف بباب الساباط كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلى الميدان وهو الخرنشف الآن لينحر فيه الضحايا .

«باب التبانين»

هذا الباب مكان باب الخرنشف الآن، وجعل فى موضعه دار العلم التى بناها الحاكم الآتى ذكرها إن شاء الله تعالي.

«باب الزمرذ»

كان موضع اصطبل القطبية قريبا من باب البستان الكافورى الموجود الآن.

ذكر دار العلم

وكان بجوار القصر الغربى من بحريه دار العلم، ويدخل إليه من باب التبانين الذى هو الآن يعرف بقبو الخرنشف، وصار مكان دار العلم الآن الدار المعروفة بدار الخضيرى الكائنة بدرب الخضيرى المقابل للجامع الأقمر، ودار العلم هذه اتخذها الحاكم بأمر الله فاستمرت إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش.

قال الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله المسيحي: وفى يوم السبت - هذا يعنى العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها، وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم

بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها. فكان ذلك من المحاسب المأثورة أيضا، التى لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم. فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وهى الدار المعروفة بمختار الصقلبى قال: وفى سنة ثلاث وأربعمائة أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغنى بن سعيد، وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه، ثم خلع على الجميع ووصلهم، ووقف الحاكم بأمر الله أماكن فى فسطاط مصر على عدة مواضع، وضمنها كتابا ثبت على قاضى القضاة مالك بن سعيد، وقد ذكر الجامع الأزهر وقال فيه، وقد ذكر دار العلم، ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه فى كل سنة من العين المغربى مائتان وسبعة وخمسون دينارا من ذلك لثمن الحصر العبدانى وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير، ومن ذلك لورق الكاتب يعنى الناسخ تسعون دينارا، ومن ذلك للخازن بها ثمانية وأربعون دينارا، ومن ذلك لثمن الماء اثنا عشر دينارا ومن ذلك للفراش خمسة عشر دينارا، ومن ذلك للورق والحبر والأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء اثنا عشر دينارا، ومن ذلك لمرمة الستارة دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها اثنا عشر دينارا، ومن ذلك لثمن لبود للفرش فى الشتاء خمسة دنانير، ومن ذلك لثمن طنافس فى الشتاء أربعة دنانير.

وقال ابن المأمون: وفى هذا الشهر يعنى شهر ذى الحجة سنة ست عشرة وخمسمائة جرت نوبة القصار وهى طويلة، وأولها من الأيام الأفضلية، وكان فيهم رجلان يسمى أحدهما بركات والآخر حميد بن مكى الاطفيحى القصار مع جماعة يعرفون بالبديعية وهم على الإسلام والمذاهب الثلاثة المشهورة، وكانوا يجتمعون فى دارالعلم بالقاهرة. فاعتمد بركات من جملتهم أن استفسد عقول جماعة وأخرجهم عن الصواب، وكان ذلك فى أيام

الأفضل، فأمر للوقت بغلق دار العلم والقبض على المذكور فهرب، وكان من جملة من استفسد عقله بركات المذكور أستاذان من القصر. فلما طلب بركات المذكور واستتر دقق الأستاذان الحيلة إلى أن أدخلاه عندهما فى زى جارية اشترياها وقاما بحقه وجميع ما يحتاج إليه، وصار أهله يدخلون إليه فى بعض الأوقات. فمرض بركات عند الأستاذين فحارا فى أمره ومداواته وتعذر عليهما إحضار طبيب له واشتد مرضه ومات فأعملا الحيلة وعرفا زمام القصر أن إحدى عجائزهما قد توفيت وأن عجائزهما يغسلنها على عادة القصور ويشيعنها إلى تربة النعمان بالقرافة، وكتبا عدة من يخرج ففسح لهما فى العدة، وأخذا فى غسله وألبساه ما أخذاه من أهله وهو ثياب معلمة وشاشية ومنديل وطيلسان مقور وأدرجوه فى الديبقي، وتوجه مع التابوت الأستاذان المشار إليهما فلما قطعوا به بعض الطريق أرادا تكميل الأجر له على قدر عقولهما فقالا للحمالين هو رجل تربيته عندنا فنادوا عليه نداء الرجال، واكتموا الحال، وهذه أربعة دنانير لكم فسر الحمالون بذلك فلما عادوا إلى صاحب الدكان عرفوه بما جرى وقاسموه الدنانير فخافت نفسه وعلم أنها قضية لا تخفي. فمضى بهم إلى الوالى وشرح له القضية فأودعهم فى الاعتقال وأخذ الذهب منهم وكتب مطالعة بالحال. فمن أول ما سمع القائد أبو عبد الله بن فاتك الذى قيل له بعد ذلك المأمون بالقضية، وكان مدرب الأمور فى الأيام الأفضلية قال: هو بركات المطلوب وأمر بإحضار الأستاذين والكشف عن القضية وإحضار الحمالين والكشف عن القبر بحضورهم فإذا تحققوا . . أمرهم بلعنه، فمن أجاب إلى ذلك منهم أطلقوه، ومن أبى أحضروه فحققوا معرفته. فمنهم من بصق فى وجهه وتبرأ منه، ومنهم من همّ بتقبيله ولم يتبرأ منه. فجلس الأفضل واستدعى الوالى والسياف واستدعى من كان تحت الحوطة من أصحابه، فكل من تبرأ منه ولعنه أطلق سبيله وبقى من الجماعة ممن لم يتبرأ منه خمسة نفر وصبى لم يبلغ الحلم فأمر بضرب رقابهم، وطلب الأستاذين فلم يقدر عليهما. وقال للصبى من لفظه تبرأ منه وأنعم عليك وأطلق سبيلك. فقال له الله يطالبك إن لم تلحقنى بهم فإنى مشاهد ما هم فيه وأخذ بسيفه على الأفضل. فأمر بضرب عنقه فلما توفى الأفضل أمر الخليفة الآمر بأحكام الله وزيره المأمون بن البطائحى باتخاذ دار العلم، وفتحها على الأوضاع الشرعية، ثم عاد حميد القصار المثنى بذكره وظهر وسكن مصر يدق الثياب

بها ويطلع إلى دار العلم وأفسد عقل أستاذ وخياط وجماعة وادعى الربوبية، فحضر الداعى ابن عبد الحقيق إلى الوزير المأمون وعرفه بأن هذا قد تعرف بطرف من علم الكلام على مذهب أبى الحسن الاشعري، ثم انسلخ عن الإسلام وسلك طريق الحلاج فى التمويه فاستهوى من ضعف عقله وقلت بصيرته. فإن الحلاج فى أول أمره كان يدعى أنه داعية المهدي، ثم ادعى أنه المهدى ثم ادعى الإلهية، وأن الجن تخدمه وأنه أحيا عدة من الطيور، وكان هذا القصار شيعى الدين، وجرت له أمور فى الأيام الأفضلية ونفى دفعة، واعتقل أخرى ثم هرب بعد ذلك، ثم حضر وصار يواصل طلوع الجبل واستصحب من استهواه من أصحابه. فإذا أبعد قال لبعضهم بع دأن يصلى ركعتين نطلب شيئا تأكله أصحابنا فيمضى ولا يلبث دون أن يعود ومعه ما كان أعده مع بعض خاصته الذين يطلعون على باطنه. فكانوا يهابونه ويعظمونه حتى أنهم يخافون الإثم فى تأمل صورته، فلا ينفكون مطرقين بين يديه، وكان قصيرا دميم الخلقة وادعى مع ذلك الربوبية، وكان ممن اختص بحميد رجل خياط وخصي. فرسم المأمون بالقبض على المذكور وعلى جميع أصحابه فهرب الخياط وطلب فلم يوجد، ونودى عليه، وبذل لمن يحضر به مال فلم يقدر عليه واعتقل القصار وأصحابه وقرروا فلم يقروا بشيء من حاله، وبعد أيام تماوت فى الحبس فلما استؤمر عليه أمر بدفنه، فلما حمل ليدفن ظهر أنه حي، فأعيد إلى الاعتقال، وبقى كل من لم يتبرأ منه معتقلا ما خلا الخصى فإنه لم يتبرأ منه وذكر أن القتل لا يصل إليه فأمر بقطع لسانه ورمى قدامه وهو مصر على ما فى نفسه، فأخرج القصار والخصى ومن لم يتبرأ منه من أصحابه فصلبوا على الخشب، وضربوا بالنشاب فماتوا لوقتهم ثم نودى على الخياط ثانيا فأحضر، وفعل به ما فعل بأصحابه بعد أن قيل له: ها أنت تنظره، فلم يتبرأ منه وصلب إلى جانبه وذكر أن بعض أصحاب هذا القصار ممن لم يعرف أنه كان يشترى الكافور ويرميه بالقرب من خشبته التى هو مصلوب عليها فيستقبل رائحته من سلك تلك الطريق، ويقصد بذلك أن يربط عقول من كان القصار قد أضله. فأمر المأمون أن يحطوا عن الخشب وأن تخلط رممهم ويدفنوا متفرقين حتى لا يعرف قبر القصار من قبورهم، وكان قتلهم فى سنة سبع عشرة وخمسمائة وابتداء هذه القضية سنة ثلاث عشرة

وخمسمائة، قال: وكان الشريف عبد الله يحدث عن صديق له مأمون القول أنه أخبره أنه لما شاع خبر هذا القصار وما ظهر منه أراد أن يمتحنه. فتسبب إلى أن خالطه وصار فى جملة أصحابه ومن يعظمه ويطلع معه إلى الجبل. فأفسد عقله وغير معتقده وأخرجه عن الإسلام وأنه لامه على ذلك وردعه فحدثه بعجائب منها أنه قال والله ما من الجماعة الذين يطلعون معه إلى الجبل أحد إلا ويسأله ويستدعيه ما يريد على سبيل الامتحان فيحضره إليه لوقته، وإن بيده سكينا لا تقطع إلا بيده، وإذا أمسك طائرا وقبضه أحد من الحاضرين يدفع السكين التى معه له ويقول له اذبحه فلا تمشى فى يده فيأخذها هو ويذبحه بها ويجرى دمه ثم يعود ويمسكه بيده ويسرحه فيطير، ويقول إن الحديد لا يعمل فيه، ويوسع القول فيما يشاهده منه ويسمعه، فلما اعتقل القصار بقى الرجل مصراً على اعتقاده، فلما قتل وخرج إليه وشاهده، وتحقق موته علم أن ما كان فيه سحر وزور وإفك، فتصدق بجملة من ماله، وعاد إلى مذهبه وصح معتقده.

وقال ابن عبد الظاهر: دار العلم كان الأفضل بن أمير الجيوش قد أبطلها، وهى بجوار باب التبانين، وهى متصلة بالقصر الصغير، وفيها مدفون الداعى المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الاعجمي، وكان لابطالها أمور سببها اجتماع الناس والخوض فى المذاهب والخوف من الاجتماع على المذهب النزاري، ولم يزل الخدام يتوصلون إلى الخليفة الآمر بأحكام الله حتى تحدث فى ذلك مع الوزير المأمون. فقال أين تكون هذه الدار؟ فقال بعض الخدام تكون بالدار التى كانت أولاً فقال المأمون: هذا لا يكون، لأنه باب صار من جملة أبواب القصر وبرسم الحوائج، ولا يمكن الاجتماع ولا يؤمن من غريب يتحصل به، فأشار كل من الأستاذين بشيء فأشار بعضهم أن تكون فى بيت المال القديم. فقال المأمون يا سبحان الله قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير الذى هو سكن الخليفة لجعلها ملاصقة! فقال الثقة زمام القصور فى جوارى موضع ليس ملاصقا للقصر ولا مخالطا له يجوز أن يعمر، ويكون دارالعلم فأجاب المأمون إلى ذلك. وقال: بشرط أن يكون متوليها رجلا دينا والداعى الناظر فيها، ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن. فاستخدم فيها أبو محمد حسن بن آدم فتولاها، وشرط عليه ما تقدم ذكره، واستخدم فيها مقرئون.

ذكر دار الضيافة

خرج مالك فى الموطا عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : كان إبراهيم عليه السلام أول من ضيف الضيف، وأول من اتخذ دار ضيافة فى الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة سبع عشرة، وأعد فيها الدقيق والسمن والعسل وغيره، وجعل بين مكة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء إلى ماء حتى يوصلهم إلى البلد. فلما استخلف عثمان ابن عفان رضى الله عنه أقام الضيافة لأبناء السبيل والمتعبدين فى المسجد، وأول من بنى دار الضيافة بمصر للناس عثمان بن قيس بن أبى العاص السهمى أحد من شهد فتح مصر من الصحابة، وكان ميدان القصر الغربى الذى هو الآن الخرنشف دار الضيافة بحارة برجوان، وكانت هذه الدار أولا تعرف بدار الأستاذ برجوان، وفيها كان يسكن حيث الموضع المعروف بحارة برجوان، ثم لما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر من عكا واستبد بأمر الدولة أنشأ هناك دارا عظيمة وسكنها، ولم يسكن بدار الديباج التى كانت دار الوزارة القديمة، فلما مات أمير الجيوش بدر واستولى سلطنة ديار مصر ابنه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش. وأنشأ دار القباب التى عرفت بدار الوزارة الكبرى قريبا من رحبة باب العيد أقر أخاه أبا محمد جعفرا المنعوت بالمظفر بن أمير الجيوش بدار أمير الجيوش من حارة برجوان. فعرفت بدار المظفر ومازال بها حتى مات وقبر بها وإلى اليوم قبره بها، وتسميه العامة جعفرا الصادق، ولما مات المظفر اتخذت داره المذكورة دار ضيافة برسم الرسل الواردين من الملوك، واستمرت كذلك إلى أن انقرضت الدولة، فانزل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد إلى أن نقلهم إلى قلعة الجبل الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فلما كان فى سنة تسع وسبعين وستمائة تقدم أمر الملك المنصور قلاون لوكيل بيت المال القاضى مجد الدين عيسى بن الخشاب ببيع دار المظفر، فباع القاعة الكبرى وما هو من حقوقها، وبيعت دار المظفر الصغري، وهدمها الناس وبنوا فى مكانها دورا، وموضعها الآن دار قاضى القضاة شمس الدين محمد

الطرابلسى الحنفى وما بجوارها إلى الدار التى بها سكنى اليوم، وهى من حقوق دار المظفر الصغرى على ما فى كتبها القديمة، ولما أنشأ قاضى القضاة شمس الدين المذكور داره فى سنة سبع أو سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ظهر من تحت الأرض عند حفر الأساس حجر عظيم قيل إنه عتبة دار المظفر الكبري، وكان إذ ذاك الأمير جهاركس الخليلى يتولى عمارة مدرسة الملك الظاهر برقوق التى فى خط بين القصرين. فلما بلغه خبر هذا الحجر بعث إليه وأمر بجره إلى العمارة فعمل عتبة باب المزملة التى للمدرسة، وكان من وراء هذه الدار رحبة الأفيال أدركتها ساحة ثم عمر فيها.

قال ابن الطوير: الخدمة المعروفة بالنيابة للقاء المرسلين، وهى خدمة جليلة يقال لمتوليها النائب وينعت بعدى الملك، وهو ينوب عن صاحب الباب فى لقاء الرسل الوافدين على مسافة، وإنزال كل واحد فى دار تصلح له، ويقيم له من يقوم بخدمته، وله نظير فى دار الضيافة، وهو يسمى اليوم بمهمندار، ويرتب لهم ما يحتاجون إليه، ولا يمكن أحدا من الاجتماع بهم، ويذكر صاحب الباب بهم، ويبالغ فى نجاز ما وصلوا فيه، وهو الذى يسلم بهم أبدا عند الخليفة والوزير وينفذ بهم ويستأذن عليهم، ويدخل الرسول وصاحب الباب قابض على يده اليمنى والنائب بيده اليسري. فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم، ويجتهد فى انفصالهم على أحسن الوجوه، وبين يديه من الفراشين المقدم ذكرهم عدة لإعانته، وإذا غاب أقام عنه نائبا إلى أن يعود، وله من الجارى خمسون دينارا فى كل شهر، وفى اليوم نصف قنطار خبز، وقد يهدى إليه المرسلون طرفا فلا يتناولها إلا بإذن. انتهي.

وفى هذه الدولة التركية يقال لمتولى هذه الوظيفة مهمندار، ولا يليها عندهم إلا صاحب سيف من الأمراء العشراوات، وكانت فى الدولة الفاطمية على ما ذكره ابن الطوير لا يليها إلا أعيان العدول، وأرباب العمائم، وينعت أبدا بعدى الملك، وأصل هذه الكلمة بالفارسية مهمان دار «ومعناها ملتقى الضيوف».

ذكر اصطبل الحجرية

وكان بجوار دار الضيافة اصطبل الصبيان الحجرية المقدم ذكرهم، وموضع هذا الاصطبل اليوم يعرف بخان الوراقة داخل باب الفتوح القديم بسوق المرحلين، على يسرة من أراد الخروج من باب الفتوح القديم تجاه زيادة الجامع الحاكمي، ومن حقوق هذا الاصطبل أيضا الموضع الذى فيه الآن القيسارية المعروفة بقيسارية الست، التى هى اليوم تجاه المدرسة الصيرمية والجملون الصغير، وكانت بهذا الاصطبل خيول الصبيان الحجرية - إحدى طوائف العساكر فى زمن الخلفاء الفاطميين.

ذكر مطبخ القصر

وكان بجوار القصر الغربى قبالة باب الزهومة من القصر الكبير مطبخ القصر، وموضعه الآن الصاغة تجاه المدارس الصالحية، ولما كانت مطبخا كان يخرج إليه من باب الزهومة، وذكر ابن عبد الظاهر أنه كان يخرج من المطبخ المذكور مدة شهر رمضان ألف ومائتا قدر من جميع ألوان الطعام ت، فرق كل يوم على أرباب الرسوم والضعفاء.

«درب السلسلة»

وكان بجوار مطبخ القصر درب السلسلة. قال ابن الطوير: ويبيت خارج باب القصر فى كل ليلة خمسون فارسا. فإذا أذن بالعشاء الآخرة داخل القاعة وصلى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم، ووقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة ابن الكركندي. فإذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق ولواتقهما من

عدة وافرة بطرائق مستحسنة مدة ساعة زمانية، ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول: أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام. فيصقع ويغرس حربة على الباب ثم يرفعها بيده. فإذا رفعها أغلق الباب وسار حوالى القصر سبع دورات. فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين والفراشين المقدم ذكرهم، وانصرف المؤذنون إلى خزانتهم هناك وترمى السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين. فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب النوبة سحرا قرب الفجر ف. تنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة.

وقال ابن عبد الظاهر: درب السلسلة الذى هو الآن إلى جانب السيوفيين كانت عنده سلسلة منه إلى قبالته تعلق كل يوم من الظهر حتى لا يعبر راكب تحت القصر، وهذا الدرب يعرف بسنان الدولة بن الكركندي، وهذا الدرب هو المختص بالتقفيزة، وهذه التقفيزة أمرها مستطرف لا من قبل الحسن، بل من قبل التعجب من العقول، ولها خمسة أوقات، وهى ليالى العيدين وغرة السنة وغرة شهر رمضان ويوم فتح الخليج، وهو أنه يقف راكبا فى وسط الزلاقة التى لباب الذهب قبالة الدار القطبية، فيخرج إليه السلام من الخليفة، ثم يخدم الرهجية، ثم يصعد على كندرة باب الزهومة وقدامه دواب المظلة يمنة ويسرة، والرهجية تخدم، وأرباب الضوء ومستخدمو الطرق على السلسلة. فإذا كان الطرف وصلوا إليه، واجتمعت الرهجية كلهم، وركب فرسا وعليه ثياب حسنة وكشف عن راياته، وأخذ بيده رمحا واجتمعت الرهجية حوله، ويعبر مشورا وأولئك خلفه بالصراخ والصياح بشعار الإمام. ثم يسير بذاك الجمع وخيل المظلة إلى أبواب القصر. فيقف عند كل باب تخدم الرهجية، إلى أن يعودوا إلى باب الذهب، ثم إلى دار الوزارة للهناء فلم يزالوا كذلك إلى ولاية ابن الكركندي، فبطلت هذه السنة فى الأيام الآمرية، وصاحب التقفيزة ممن وصل آباؤه صحبة المعز لدين الله من بلاد المغرب. فكانت هذه سنتهم.

ذكر الدار المأمونية

وكان بجوار درب السلسلة الدار المأمونية، وهى المدرسة السيوفية، وكانت هذه الدار سكن المأمون بن البطائحى ،وعرفت قديما بقوام الدولة حبوب، ثم جددها المأمون محمد ابن فاتك.

«المأمون البطائحى»

هو أبو عبد الله محمد ابن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى. اتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش فى شهر شوال سنة إحدى وخمسمائة، عندما تغير على تاج المعالى مختار. الذى كان اصطنعه وفخم أمره وسلم إليه خزائن أمواله وكسواته، وسلم ما كان بيده من الخدمة لمحمد بن فاتك. فتصرف فيها، وقرر له الأفضل ما كان باسم مختار من العين. خاصة دون الإقطاع وهو مائة دينار فى كل شهر، وثلاثون دينارا عن جارى الخزائن. مضافا إلى الأصناف الراتبة مياومة ومشاهرة ومسانهة. فحسن عند الأفضل موقع خدمته، فاعتمد عليه وسلم له جميع أموره، وصرفه فى كل أحواله. فلما كثر عليه الشغل استعان بأخويه أبى تراب حيدرة، وأبى الفضل جعفر فأطلق الأفضل لهما ما وسع به عليهما من المياومة والمشاهرة والمسانهة، ونعته الأفضل بالقائد فصار يخاطب بالقائد ويكاتب به، وصار عنده بمنزلة الاستادار. فلما قتل الأفضل ليلة عيد الفطر من سنة خمس عشرة وخمسمائة قام القائد أبو عبد الله بن فاتك لخدمة الخليفة الآمر بأحكام الله، وأطلعه على أموال الأفضل، وبالغ فى مناصحته، حتى لقد اتهم أنه هو الذى دبر فى قتل الأفضل بإشارة الخليفة. فخلع عليه الآمر فى مستهل ذى القعدة بمجلس اللعبة من القصر، وهو المجلس الذى يجلس فيه الخليفة، ولم يخلع قبله على أحد فيه، وحل المنطقة من وسطه وخلع على ولده وحل منطقته وخلع على

اخوته، واستمر تنفيذ الأمور إليه إلى أن استهل ذو الحجة. ففى يوم الجمعة ثانية خلع عليه من الملابس الخاص فى فرد كم مجلس اللعبة طوق ذهب مرصع، وسيف ذهب كذلك، وسلم على الخليفة وتقدم الأمر للأمراء وكافة الأستاذين المحنكين بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذى كان الأفضل يركب منه، ومشى فى ركابه القواد على عادة من تقدمه، وخرج بتشريف الوزارة، ودخل من باب العيد راكبا، ووصل إلى داره فضاعف الرسوم وأطلق الهبات. فلما كان يوم الاثنين خامسه اجتمع الأمراء بين يدى الخليفة وأحضر السجل فى لفافة خاص مذهبة. فسلمه الخليفة له من يده فقبله وسلمه لزمام القصر فأمره الخليفة بالجلوس إلى جانبه عن يمينه، وقرىء السجل على باب المجلس وهو أول سجل قرىء هناك، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالإيوان، ورسم للشيخ أبى الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست أن ينقل نسبة الأمراء والمحنكين من الآمرى إلى المأمونى، وكذا الناس أجمع، ولم يكن أحد ينتسب إلى الأفضل ولا لأمير الجيوش، وقدمت له الدواة. فعلم فى مجلس الخليفة، ونعت بالسيد الأجل المأمون تاج الخلافة ووجيه الملك فخر الصنائع ذخر أمير المؤمنين عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الانام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين. وكان يجلس بداره فى يومى الأحد والأربعاء للراحة والنفقة فى العسكر البساطية إلى الظهر، ثم يرفع النفقة ويحط السماط، ويجلس بعد العصر والكتاب بين يديه فينفق فى الراجل إلى آخر النهار، وفى يوم الجمعة يطلق للمقرئين بحضرته خمسة دنانير، ولكل من هو مستمر القراءة على بابه من الضعفاء والأجراء مما هو ثابت بأسمائهم خمسمائة درهم، ولبقية الضعفاء والمساكين خمسمائة درهم أخرى، فإذا توجه يوم الجمعة إلى القرافة يكون المبلغ المذكور مستقرا لأربابه، ولم يزل إلى ليلة السبت الرابع من رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة فقبض الآمر المذكور عليه وعلى اخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من خواصه وأهله واعتقله ثم صلبه مع اخوته فى سنة اثنتين وعشرين.

قيل إن سبب القبض عليه ما بلغ الآمر عنه أنه بعث إلى الأمير جعف بن المستعلى يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه فى الخلافة، وكان الذى بلغ الآمر ذلك الشيخ أبا الحسن بن أبى

أسامة وبلغه ايضاً عنه أنه سير نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن ليضرب سكة عليها الامام المختار محمد بن نزار، وذكر عنه انه سم شيئاً ودفعه لقصاد الخليفة فنم عليه القصاد، وكان مولد المأمون فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول كريماً واسع الصدر سفاكا للدماء كثير التحرز والتطلع إلى معرفة أحوال الناس من العامة والجند فكثر الوشاة فى أيامه.

حبس المعونة

وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة وموضعه اليوم قيساريه العنبر. قال ابن المأمون فى سنة سبع عشرة وخمسمائة تقدم أمر المأمون إلى الواليين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وأخذ الحجج على المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهام ليلاً ونهاراً، وكذلك يعتمد فى القربيين وأن يبيتوا على باب كل معونة ومعهم عشرة من الفعلة بالطوارئ والمساحي، وأن يقوما لهم بالعشاء من أموالهما بحكم فقرهم. انتهى وكان حبس المعونة هذا يسجن فيه ارباب الجرائم كما هو اليوم السجن المعروف بخزانة شمائل، وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود كما تقدم، ولم يزل هذا الموضع سجناً مدة الدولة الفاطمية ومدة دولة بنى أيوب إلى أن عمره الملك المنصور قلاوون قيسارية أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ثمانين وستمائة.

ذكر الحسبة ودار العيار

وكان بجوار حبس المعونة دكة الحسبة. ومكانها اليوم يعرف بالإبازرة ومكسر الحطب بجوار سوق القصارين والفحامين. قال ابن الطوير: وأما الحسبة فإن من تسند إليه لايكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين. لانها خدمة دينية وله استخدام النواب عنه بالقاهرة

ومصر وجميع أعمال الدولة كنواب الحكم، وله الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوماً بعد يوم. ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزاره. وكذلك الطباخون، ويتتبعون الطرقات ويمنعون من المضايقة فيها ويلزمون رؤساء المراكب إن لا يحلموا أكثر من وسق السلامة، وكذلك مع الحمالين على البهائم، ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا. كل دلو أربعون رطلاً وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهى زرق، وينذرون معملى المكاتب بأن لايضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا فى مقتل، وكذلك معلمو العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ويقفون على من يكون سيء المعاملة فينهونه بالردع والادب، وينظرون المكاييل والموازين وللمحتسب النظر فى دار العيار، ويخلع عليه ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر، ولايحال بينه وبين مصلحة إذا رآها. والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك، وجاريه ثلاثون ديناراً فى كل شهر انتهى وكان للعيار مكان يعرف بدار العيار تعير فيه الموازين بأسرها، وجميع الصنج، وكان ينفق على هذه الدار من الديوان السلطانى فيما تحتاج إليه من الأصناف كالنحاس والحديد والخشب والزجاج وغير ذلك من الآلات وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم، ويحضر المحتسب أو نائبه إلى هذه الدار ليعير المعمول فيها بحضوره. فإن صح ذلك أمضاه، وإلا أمر بإعادة عمله حتى يصح، وكان بهذه الدار أمثلة يصحح بها العيار فلا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بهذه الدار ويحضر جميع الباعة إلى هذه الدار، باستدعاء المحتسب لهم ومعهم موازينهم وصنجهم ومكاييلهم فتغير فى كل قليل، فإن وجد فيها الناقص استهلك، وأخذ من صاحبه لهذه الدار، وألزم بشراء نظيره مما هو محرر بهذه الدار والقيام بثمنه، ثم سومح الناس، وصار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل بإصلاح ما فيها من فساد فقط، والقيام بأجرته فقط ومازالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية. فلما استولى صلاح الدين على السلطنة أقر هذه الدار، وجعلها وقفا على سور القاهرة مع ما كان جاريا فى أوقاف السور من الرباع والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار، ومازالت هذه الدار باقية.

«اصطبل الجميزة»

وكان بجوار القصر الغربى من قبليه اصطبل الجميزة من جانب باب الساباط، الذى هو الآن باب سر المارستان المنصورى، وقيل له اصطبل الجميزة من أجل أنه كان فى وسطه شجرة جميز كبيرة، وكان موضع هذا الاصطبل تجاه من يخرج من باب الساباط. فينزل من الحدرة التى هى الآن تجاه باب سر المارستان المتوصل منها إلى حارة زويلة، ويمتد فيما حاذاه يسارك إذا وقفت بأول هذه الحدرة. حيث الطاحون الكبيرة التى هى الآن فى أوقاف المارستان وما وراءها، ويحاذيها إلى الموضع المعروف اليوم بالبندقانيين، وكانت بئره تعرف ببئر زويلة، وعليها ساقية تنقل الماء لشرب الخيول، وموضع هذا، البئر اليوم قيسارية تعرف بقيسارية يونس تجاه درب الأنجب. وقد شاهدت هذه البئر لما أنشأ الأمير يونس الدوادار هذه القيسارية والربع علوها، فرأيت بئرا كبيرة جدا، وقد عقد على فوهتها عقد ركب فوقه بعض القيسارية وترك منها شىء. ومنها الآن الناس تسقى بالدلاء. ومازال هذا الاصطبل باقيا إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية. فحكر وبنى فى مكانه الآدر التى هى موجودة الآن، وحكره جار فى أوقاف الصلاح الأزبكى و، قد تقدم ذكر هذا الاصطبل عند ذكر اصطبل الطارمة فانظر رسومه هناك.

«دار الديباج»

وكان بجوار اصطبل الطارمة من غربيه دار الديباج. وهى حيث المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب وما جاورها، ومن جانبها وما خلفها إلى الوزيرية، وكانت هى دار الوزارة القديمة، وأول من أنشأها الوزير يعقوب بن يونس بن كلس وزير العزيز بالله، ثم سكنها الوزير الناصر للدين قاضى القضاة وداعى الدعاة علم المجد أبو محمد الحسن بن علىّ بن عبد الرحمن البازورى، وما زالت سكن الوزراء إلى أن قدم أمير الجيوش بدر

الجمالى من عكا ووزره المستنصر، وصار وزيرا مستبدا، فأنشأ داره بحارة برجوان وسكنها، وسكن من بعده ابنه الأفضل بن أمير الجيوش بدار القباب التى عرفت بدار الوزارة الكبرى، وصارت هذه الدار تعرف بدار الديباج. لأنه يعمل فيها الحرير الديباج. ويتولاها الأماثل والأعيان. فممن وليها أبو سعيد بن قرقة الطبيب متولى خزائن السلاح وخزائن السروج والصناعات. فلما انقرضت الدولة الفاطمية بنى الناس فى مكان دار الديباج المدرسة السيفية وما وراءها من المواضع التى تعرف أماكنها اليوم بدرب الحريرى وما جاور هذا الدرب إلى المدرسة الصاحبية وما بجوارها وما هو فى ظهرها. فصار يعرف خط دار الديباج فى زمننا بخط سويقة الصاحب.

«الأهراء السلطانية»

وكانت أهراء الغلال السلطانية فى دولة الخلفاء الفاطميين حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل وما وراءها إلى قرب الحارة الوزيرية.

قال ابن الطوير: وأما الأهراء فإنها كانت فى عدة أماكن بالقاهرة هى اليوم اصطبلات ومناخات وكانت تحتوى على ثلاثمائة ألف أردب من الغلات وأكثر من ذلك، وكان فيها مخازن يسمى أحدها بغداى. وآخر الفول، وآخر القرافة، ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العدول، والمراكب واصلة إليها بأصناف الغلات إلى ساحل مصر وساحل المقس، والحمالون يحملون ذلك إليها بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانية، وأكثر ذلك من الوجه القبلى ومنها إطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصدقات وأرباب الجوامع والمساجد وجرايات العبيد السودان بتعريفات، وما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفة، وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو، حتى لا تقارب زبل الدواب، ويحمل دقيقها للخاص وما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية، ومن الاهراء تخرج جرايات رجال الأسطول، وفيها ما هو قديم يقطع

بالمساحى ويخلط فى بعض الجرايات بالجديد بجرايات المذكورين وجرايات السودان ، ومنها ما يستدعى بدار الضيافة لأخباز الرسل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول . فلا يفتر مستخدموها من دخل وخرج ولهم جامكية مميزة ، وجرايات برسم أقواتهم ، وشعير لدوابهم وما يقبض من الواصلين بالغلال إلا ما يماثل العيون المختومة معهم والاذرى وطلب العجز بالنسبة .

وذكر ابن المأمون أن غلات الوجه القبلى كانت تحمل إلى الاهراء ، وأما الأعمال البحرية والبحيرة والجزيرتان والغربية والكفور والأعمال الشرقية فيحمل منها اليسير ، ويحمل باقيها إلى الإسكندرية ودمياط وتنيس ليسير إلى ثغر عسقلان وثغر صوروانه كان يسير إليهما فى كل سنة مائة وعشرون ألف إردب . منها لعسقلان خمسون ألفا ، ولصور سبعون ألفا . فيصير هناك ذخيرة ، ويباع منها عند الغنى عنها . قال : وكان متحصل الديوان فى كل سنة ألف ألف إزدب .

وذكر جامع السيرة البازورية أن المتجر كان يقام به للديوان من الغلة ، وأن الوزير أبا محمد البازورى قال للخليفة المستنصر وهو يومئذ يتقلد وظيفة قاضى القضاة ، وقد قصر النيل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، ولم يكن بالمخازن السلطانية غلال . فاشتدت المسغبة بأمير المؤمنين : إن المتجر الذى يقام بالغلة فيه مضرة على المسلمين ، وربما أقحط السعر من مشتراها ، ولا يمكن بيعها فتتغير فى المخازن وتتلف ، وأنه يقام متجر لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ، ولا يخشى عليه من تغير فى المخازن ، ولا انحطاط سعر وهو الصابون والخشب والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك . فأمضى الخليفة ما رآه ، واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس وتوسعوا .

ذكر المناظر التى كانت للخلفاء الفاطميين ومواضع نزههم وما كان لهم فيها من أمور جميلة

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر كثيرة بالقاهرة ومصر والروضة والقرافة وبركة الحبش وظواهر القاهرة، وكانت لهم عدة منتزهات أيضا . . فمن مناظرهم التى بالقاهرة منظرة الجامع الأزهر، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج، ومنظرة الدكة، ومنظرة المقس، ومنظرة باب الفتوح، ومنظرة البعل، ومنظرة التاج، والخمس وجوه، ومنظرة الصناعة بمصر، ودار الملك، ومنازل العز، والهودج بالروضة، ومنظرة بركة الحبش، والأندلس بالقرافة، وقبة الهواء، ومنظرة السكرة، وكان من منتزهاتهم كسر خليج أبى المنجا، وقصر الورد بالخرقانية وبركة الحب .

«منظرة الجامع الأزهر»

وكان بجوار الجامع الأزهر من قبليه منظرة تشرف على الجامع الأزهر، يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالى الوقود .

«ذكر ليالى الوقود»

قال المسبحى فى حوادث شهر رجب من سنة ثمانين وثلاثمائة : وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة - يعنى الجامع الأزهر

عوضا عن القرافة، وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم فى كل سنة، والأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة، وطيف بها، وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف بالمقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد، وقدمت إليه سلال الحلوى والطعام، وجلس بين يديه القراء وغيرهم، والمنشدون والناحة، وأقام إلى نصف الليل وانصر إلى داره بعد أن قدم إلى من معه أطعمة من عنده وبخرهم.

وقال فى شعبان: وكان الناس فى كل ليلة جمعة وليلة النصف على مثل ما كانوا عليه فى رجب وأزيد، وفى ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين، وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد، ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه، ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء، وحمل إليهم العزيز بالله الأطعمة والحلوى والبخور. فكان جمعا عظيما.

قال: وفى شهر رجب سنة اثنتين وأربعمائة قطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى يقام فى هذه الثلاثة الأشهر لمن يبيت بجامع القاهرة فى ليالى الجمع والأنصاف، وحضر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى إلى جامع القاهرة ليلة النصف من رجب، واجتمع الناس بالقرافة على ما جرت به رسومهم من كثرة اللعب والمزاح.

روى الفاكهى فى كتاب مكة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يصيح فى أهل مكة ويقول يا أهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم فأوضحوا فجاجكم لحاج بيت الله واحرسوهم ليلة هلال المحرم حتى يصبحوا. وكان الأمر على ذلك بمكة فى هذه الليلة، حتى كانت ولاية عبد الله بن محمد بن داود على مكة. فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب. فيحرسوا عمار أهل اليمن. ففعلوا ذلك فى ولايته ثم تركوه بعد.

وفى ليلة النصف من رجب سنة خمس عشرة وأربعمائة حضر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم على بن الحاكم بأمر الله، ومعه السيدات وخدم الخاصة وغيرهم وسائر

العامة والرعايا. فجلس الخليفة فى المنظرة، وكان فى ليلة شعبان أيضا اجتماع لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله، وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد، كان مشهدا عظيما بعد عهد الناس بمثله. لأن الحاكم بأمر الله كان أبطل ذلك فانقطع عمله.

وقال ابن المأمون: ولما كانت ليلة مستهل رجب يعنى من سنة ست عشرة وخمسمائة عملت الأسمطة الجارى بها العادة، وجلس الخليفة الآمر بأحكام الله عليها والأجل المأمون الوزير ومن جرت عادته بين يديه، وأظهر الخليفة من المسرة والانشراح ما لم تجر به عادته، وبالغ فى شكر وزيره وإطرائه وقال: قد أعدت لدولتى بهجتها، وجددت فيها من المحاسن ما لم يكن، وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالى، وقد كان بها مواسم قد زال حكمها، وكان فيها توسعة وبر ونفقات. وهى ليالى الوقود الأربع. وقد آن وقتهن فاشتهى نظرهن فامتثل الأمر وتقدم بأن يحمل إلى القاضى خمسون دينارا يصرفها فى ثمن الشمع، وأن يعتمد الركوب فى الأربع الليالى، وهى ليلة مستهل، رجب وليلة نصفه، وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه وأن يتقدم إلى جميع الشهود بأن يركبوا صحبته وأن يطلق للجوامع والمساجد توسعة فى الزيت برسم الوقود. ويتقدم إلى متولى بيت المال بأن يهتم برسم هذه الليالى من أصناف الحلاوات مما يحب برسم القصور ودار الوزارة خاصة.

وقال: فى سنة سبع عشرة وخمسمائة، وفى الليلة التى صبيحتها مستهل رجب حضر القاضى أبو الحجاب يوسف بن أيوب المغربى، ووقع له بما استجد إطلاقه فى العام الماضى، وهو خمسون دينارا من بيت المال لابتياع الشمع برسم أول ليلة من رجب، واستدعى ما هو برسم التعبيتين. إحداهما للمقصورة، والأخرى للدار المأمونية بحكم الصيام من مستهل رجب إلى سلخ رمضان ما يصنع فى دار الفطرة خشكنانج صغير وبسندود فى كل يوم قنطار سكر ومثقالان مسكا وديناران مؤنة، وكان يطلق فى أربع ليالى الوقود برسم الجوامع الستة. الأزهر والأقمر والأنور بالقاهرة والطولونى والعتيق بمصر، وجامع القرافة والمشاهد التى تضمنت الأعضاء الشريفة وبعض المساجد التى لأربابها وجاهة جملة كبيرة من الزيت الطيب، ويختص بجامع راشدة وجامع ساحل الغلة بمصر، والجامع بالمقس يسير. قال: ولقد حدثنى القاضى المكين بن حيدرة، وهو من أعيان الشهود

أن من جملة الخدم التى كانت بيده مشارفة الجامع العتيق، وأن القومة بأجمعهم كانوا يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدة إلى أن يكملوا ثمانية عشر ألف فتيلة، وأن المطلق برسمه خاصة فى كل ليلة برسم وقوده أحد عشر قنطارا ونصف قنطار زيت طيب، وذكر ركوب القاضى والشهود فى الليلة المذكورة على جارى العادة. قال: وتوجه الوزير المأمون يوم الجمعة ثانى الشهر بموكبه إلى مشهد السيدة نفيسة وما بعده من المشاهد، ثم إلى جامع القرافة وبعده إلى الجامع العتيق بمصر، وقد عم معروفه جميع الضعفاء وقومة المساجد والمشاهد وصلى الجمعة، وعند انقضاء الصلاة أحضر إليه الشريف الخطيب المصحف الذى بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فوقع بإطلاق ألف دينار من ماله، وأن يصاغ عليه فوق حلية الفضة حلية ذهب، وكتب عليه اسمه وفى الخامس عشر من الشهر المذكور ليلة الوقود جرى الحال فى ركوب القاضى وشهوده على الترتيب الذى تقدم فى أول الشهر، ولما وصل إلى الجامع وجده قد عبى فى الرواق الذى عن يمين الخارج منه سماط كعك وخشكنانج وحلوى فجلس عليه بشهوده، ونهبه الفقراء والمساكين، وتوجه بعده إلى ما سواه من جامع القرافة وغيره فوجد فى رواق الجامع المذكور سماطا مثل السماط المذكور، فاعتمد فيه على ما ذكره، وله أيضا رسم صدقة فى هذا النصف للفقراء، وأهل الربط مما يفرقه القاضى عشرة دنانير يفرقها القاضى.

وقال ابن الطوير: إذا مضى النصف من جمادى الآخرة، وكان عدده عندهم تسعة وعشرين يوما أمر أن يسبك فى خزائن دار أفتكين ستون شمعة. وزن كل شمعة منها سدس قنطار بالمصرى، وحملت إلى دار قاضى القضاة لركوب ليلة مستهل رجب فإذا كان بعد صلاة العصر من ذلك اليوم اهتم الشهود أيضا. فمنهم من يركب بثلاث شمعات إلى اثنتين إلى واحدة ويمضى أهل مصر منهم إلى القاهرة فيصلون المغرب فى الجوامع والمساجد، ثم ينتظرون ركوب القاضى. فيركب من داره بهيئته وأمامه الشمع المحمول إليه موقودا مع المندوبين لذلك. من الفراشين من الطبقة السفلى من كل جانب ثلاثون شمعة، وبينهما المؤذنون بالجوامع يذكرون الله تعالى، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقدر محفوظ، ويندب فى حجبته ثلاثة من نواب الباب، وعشرة من الحجاب، خارجا عن حجاب الحكم

المستقرين، وعدتهم خمسة فى زى الأمراء وفى ركابه القراء يطربون بالقراءة، والشهود وراءه على الترتيب فى جلوسهم بمجلس الحكم. الأقدم فالأقدم، وحوالى كل واحد ما له من شمع فيشقون من أول شارع فيه دار القاضى إلى بين القصرين وقد اجتمع من العالم فى وقت جوازهم ما لا يحصى كثرة رجالا ونساء وصبيانا. بحيث لا يعرف الرئيس من المرءوس وهو مار، إلى أن يأتى هو والشهود باب الزمرذ من أبواب القصر فى الرحبة الوسيعة تحت المنظرة العالية فى السعة العظيمة من الرحبة المذكورة، وهى التى تقابل درب قراصيا. فيحضر صاحب الباب ووالى القاهرة والقراء والخطباء كما شرحنا فى المواليد الستة، ويترجلون تحتها ريثما يجلس الخليفة فيها وبين يديه شمع ويبين شخصه، ويحضر بين يديه الخطباء الثلاثة، ويخطبون كالمواليد ويذكرون استهلال رجب، وأن هذا الركوب علامته. ثم يسلم الأستاذ من الطاقة الأخرى استفتاحا وانصرافا كما ذكرنا، ثم يركب الناس إلى دار الوزارة فيدخل القاضى والشهود إلى الوزير فيجلس لهم فى مجلسه، ويسلمون عليه، ويخطب الخطباء أيضا بأخف من مقام الخليفة، ويدعون له ويخرجون عنه فيشق القاضى والجماعة القاهرة وينزل على باب كل جامع بها، ويصلى ركعتين ثم يخرج من باب زويلة طالبا مصر بغير نظام، ووالى القاهرة فى خدمته اليوم مستكثرا من الأعوان والحفظة فى الطرقات إلى جامع ابن طولون. فيدخل القاضى إليه للصلاة. فيجد والى مصر عنده للقاء القوم وخدمتهم فيدخل المشاهد التى فى طريقه أيضا فإذا وصل إلى باب مصر ترتب كما ترتب فى القاهرة وسار شاقا الشارع الأعظم إلى باب الجامع من الزيادة التى يحكم فيها. فيوقد له التنور الفضة الذى كان معلقا فيه - وكان مليحا فى شكله - وتعليقه غير منافر فى الطول والعرض واسع التدوير. فيه عشر مناطق فى كل منطقة مائة وعشرون بزاقة، وفيه سروات بارزة مثل النخيل فى كل واحدة عدة بزاقات، تقرب عدة ذلك من ثلاثمائة، ومعلق بدائر سفله مائة قنديل نجومية، ويخرج له الحاكم فإن كان ساكنا بمصر استقر بها، وإن كان ساكنا بالقاهرة وقف له والى القاهرة بجامع ابن طولون فيودعه وإلى مصر ويسير معه والى القاهرة إلى داره. فإذا مضى من رجب أربعة عشر يوما ركب ليلة الخامس عشر كذلك، وفيه زيادة طلوعه بعد صلاته بجامع مصر إلى القرافة ليصلى فى

جامعها، والناس يجتمعون له لينظروه ومن معه فى كل مكان، ولا يملون من ذلك. فإذا انقضت هذه الليلة استدعى منه الشمع ليكمل بعضه حتى يركب به فى أول شعبان ونصفه على الهيئة المذكورة، والأسواق معمورة بالحلواء، ويتفرغ الناس لذلك هذه الأربع الليالى.

«منظرة اللؤلؤة»

وكان للخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بقصر اللؤلؤة وبمنظرة اللؤلؤة على الخليج. بالقرب من باب القنطرة، وكان قصرا من أحسن القصور وأعظمها زخرفة، وهو أحد منتزهات الدنيا المذكورة. فإنه كان يشرف من شرقيه على البستان الكافورى، ويطل من غربيه على الخليج، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المبانى شىء، وإنما كان فيه بساتين عظيمة وبركة تعرف ببطن البقرة. فيرى الجالس فى قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبلها و، يرى بحرالنيل من وراء البساتين.

قال ابن ميسر: هذه المنظرة بناها العزيز بالله، ولما ولى برجوان وزارة الحاكم بأمر الله بعد أمين الدولة ابن عمار الكتامى سكن بمنظرة اللؤلؤة فى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة إلى أن قتل، وفى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها، فهدمت ونهبت وبيع ما فيها.

وقال المسبحى: وفى سادس عشرى ربيع الآخر. يعنى سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم بأمر الله بهدم الموضع المعروف باللؤلؤة على الخليج موازاة المقس، وأمر بنهب أنقاضه فنهبت كلها، ثم قبض على من وجد عنده شىء من نهب أنقاض اللؤلؤة واعتقلوا.

وقال ابن المأمون: ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة والمقام فيها مدة النيل على الحكم الأول يعنى قبل وزارة أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل أمر بإزالة ما لم تكن العادة جارية به من مضايقها بالبناء، ولما بدت زيادة النيل وعول الخليفة الآمر بأحكام الله

على السكن باللؤلؤة أمر الوزير المأمون بأخذ جماعة الفراشين الموقوفين برسم خدمتها بالمبيت بها على سبيل الحراسة . لا على سبيل السكن بها ، وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيم ، وعندما قارب النيل الوفاء تحول الخليفة فى الليل من قصوره بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسيدات كرائمه وعماته إلى اللؤلؤة ، وتحول المأمون إلى دار الذهب ، وأسكن الشيخ أبا الحسن محمد بن أبى أسامة الغزالة على شاطىء الخليج ، وسكن حسام الملك حاجب الباب داره على الخليج ، وأمر متولى المعونة أن يكشف الأدر المطلة على الخليج قبلى اللؤلؤة ولا يمكن أحدا من السكن فى شىء منها إلا من كان له ملك ، ومن كان ساكنا بالأجرة ينقل ، ويقام بالأجرة لرب الملك ليسكن بها حواشى الخليفة مدة سنة ، وقرر من التوسعة فى النفقات وما يكون برسم المستخدمين فى المبيتات ما يخص برواتب القصور مدة المقام فى اللؤلؤة فى أيام النيل مياومة من الغنم والحيوان وجميع الأصناف ، وهى جملة كبيرة وأمر متولى الباب أن يندب فى كل يوم خروف شواء وقنطار خبز ، وكذلك جميع الدروب من يحرسها ، ويطلق لهم برسم الغداء مثل ذلك ، وتكون نوبة دائرة بينهم وبقية مستخدمى الركاب ملازمون لأبواب القصر على رسمهم ، وفى يومى الركوب يجتمعون للخدمة إلا من هو فى نوبته فيما رسم له ، وأمر متولى زمام المماليك الخاص أن يكونوا بأجمعهم حيث يكون الخليفة . وفى الليل يبيت منهم عدة برسم الخدمة تحت اللؤلؤة ولهم فى كل يوم مثل ما تقدم ، والرهجية تقسم قسمين . أحدهما على أبواب القصور والآخر على أبواب اللؤلؤة ، وأصحاب الضوء مثل ذلك ، وقرر للجماعة المقدم ذكرها فى الليل عن رسم المبيت ، وعن ثمن الوقود ما يخرج إليهم مختوما بأسماء كل منهم ، ويعرضهم متولى الباب فى كل ليلة بنفسه عند رواحه وعوده ، وكذلك ما يختص بدار الذهب من الحرس عليها من باب سعادة ومن باب الخوخة ، ولهم رسوم كما تقدم لغيرهم ، والمتفرجون يخرجون كل ليلة للنزهة عليهم ويقيمون إلى بعض الليل حتى ينصرفوا من غير خروج فى شىء من ذلك عما يوجبه الشرع ، وفى يومى السلام يمضى الخليفة من قصوره بحيث لا يراه إلا أستاذوه وخواصه إلى قاعة الذهب من القصر الكبير الشرقى ، ويحضر الوزير على عادته إليه . فيكون السلام بها على مستمر العادة

والأسمطة بها فى يومى الاثنين والخميس، وتكون الركوبات من اللؤلؤة فى يومى السبت والثلاثاء إلى المنتزهات.

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة: ولما جرى النيل وبلغ خمسة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيام والمضارب الديبقى والديباج، وتحول الخليفة الآمر بأحكام الله إلى اللؤلؤة بحاشيته، وأطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص والجهات والأستاذين من جميع الأصناف وانضاف إليها ما يطلق كل ليلة عينا وورقا، وأطعمة للبياتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار، والسهر فى طول الليل من باب القنطرة بما دار إلى مسجد الليمونة من التزين من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب. كل طائفة بنقيبها، والعرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة، ولا يمكن بعضهم بعضا من المنام، والرهجية تخدم على الدوام، وتحول الوزير المأمون إلى دار الذهب، وأطلقت التوسعة والحال فى إطلاق الاسمطة لهم فى الليل والنهار مستمر.

وقال ابن عبد الظاهر: المنظرة المعروفة باللؤلؤة على بر الخليج بناها الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم - يعنى بعدما هدمها أبوه الحاكم، وكانت معدة لنزهة الخلفاء، وكان التوصل إليها من القصر يعنى القصر الغربى من باب مراد، وأظنه فيما ذكره لى علم الدين بن مماتى الوراق أنه شاهد فى كتب دار ابن كوخيا العتيقة أنه بابها، وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل، ولما حصل التوهم من النزارية والحشيشية قبل تصرفهم. لا سيما لصغر سن الخليفة وقلة حواشيه، أمر بسد باب مراد المذكور الذى يتوصل منه إلى الكافورى وإلى اللؤلؤة، وأسكن فى بعضها فراشين لحفظها. فإذا كان فى صبيحة كسر الخليج استؤذن الأفضل بن أمير الجيوش فى فتح باب مراد الذى يتوصل منه إلى اللؤلؤة وغيرها فيفتح ويروح الخليفة ليتفرج هو وأهله من النساء، ثم يعود ويسد الباب. هذا إلى آخر أيام الأفضل، فلما راجع الوزير المأمون فى ذلك سارع إليه فأصلحت وأزيل ما كان أنشىء قبالتها على ما سيذكر فى مكانه إن شاء الله تعالى، ومات بقصر اللؤلؤة من خلفاء الفاطميين الآمر بأحكام الله والحافظ لدين الله والفائز، وحملوا إلى القصر الكبير الشرقى من السراديب، ولما قدم نجم الدين أيوب بن شادى من الشام على ولده صلاح الدين

يوسف، وخرج الخليفة العاضد لدين الله إلى لقائه بصحراء الهليلج بآخر الحسينية عند مسجد تبر أنزل بمنظرة اللؤلؤة فسكنها حتى مات فى سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أن حضر يوما عنده الفقيه نجم الدين عمارة اليمنى، والرضى أبو سالم يحيى الأحدب ابن أبى حصيبة الشاعر فى قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد. فأنشد ابن أبى حصيبة نجم الدين أيوب فقال:

يا مالك الأرض لا أرضى له طرفا

منهـــا وما كان منها لم يكن طرفا

قد عجل الله هذى الدار تسكنها

وقـــد أعد لك الجنـــات والغرفا

تشرفت بك عمن كان يسكنها

فالبس بها العز ولتلبس بك الشرفا

كانوا بهـــا صدفا والدار لؤلؤة

وأنت لؤلؤة صـــارت لها صدفا

فقال الفقيه عمارة يرد عليه:

أثمت يا من هجا السادات والخلفا

وقلت ما قلته فى ثلبهم ســـــخفا

جعلتهم صـــدفا حلُّـــوا بلؤلؤة

والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا

وإنما هى دار حـــــل جوهرهم

فيهـــا وشف فأسناها الذى وصفا

فقـــــال لؤلؤة عجبا ببهجتها

وكونها حوت الأشراف والشرفا

فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا

فيها ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا

والجوهر الفرد نور ليس يعرفه

من البرية لا كل من عـــــــرفا

لولا تجسمهم فيــه لكان على

ضعف البصائر للإبصار مختطفا

فالكلب ياكلب اسنى منك مكرمة

لأن فيه حفـــاظا دائمـــا ووفا

فلله در عمارة. لقد قام بحق الوفاء، ووفى بحسن الحفاظ كما هى عادته. لا جرم أنه قتل فى واجب من يهوى كما هى سنة المحبين، فالله يرحمه ويتجاوز عنه.

«منظرة الغزالة»

وكان بجوار منظرة اللؤلؤة منظرة تعرف بالغزالة على شاطىء الخليج تقابل حمام ابن قرقة، وقد خربت هذه المنظرة أيضا، وموضعها الآن تجاه باب جامع ابن المغربى الذى من ناحية الخليج، وقد خرجت أيضا حمام ابن قرقة، وصار موضعها فندقا بجوار حمام السلطان التى هناك يعرف بفندق عماد، وموضع منظرة الغزالة اليوم ربع يعرف بربع غزالة إلى جانب قنطرة الموسكى فى الحد الشرقى، وكان يسكن بهذه المنظرة الأمير أبو القاسم ابن

المستنصر والد الحافظ لدين الله، ثم سكنها أبو الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست، وكان بعد ذلك ينزلها من يتولى الخدمة فى الطراز أيام الخلفاء.

قال ابن المأمون: لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله إلى اللؤلؤة وأسكن الشيخ أبا الحسن بن أبى أسامة كاتب الدست الغزالة التى على شاطىء الخليج، ولم يسكن أحد فيها قبلة ممن يجرى مجراه، ولا كانت إلا سكن الأمير أبى القاسم ولد المستنصر والد الإمام الحافظ قال: وأما ما يذكره الطراز فالحكم فيه مثل الاستيمار، والشائع فيها أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية على أحد وثلاثين ألف دينار، فمن ذلك السلف خاصة خمسة عشر ألف دينار، قيمة الذهب العراقى والمصرى ستة عشر ألف دينار، ثم اشتملت فى الأيام المأمونية على ثلاثة وأربعين ألف دينار، وتضاعفت فى الأيام الآمرية.

وقال ابن الطوير: الخدمة فى الطراز، وينعت بالطراز الشريف، ولا يتولاه إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف، وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين، ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما، وجاريه أمير الجوارى، وبين يديه من المندوبين مائة رجل لتنفيذ الاستعمالات بالقرى، وله عشارى دتماس مجرد معه، وثلاثة مراكب من الدكاسات ولها رؤساء ونواتية لا يبرحون، ونفقاتهم جارية من مال الديوان. فإذا وصل بالاستعمالات الخاصة التى منها المظلة وبدلتها والبدنة واللباس الخاص الجمعى وغيره، هيىء بكرامة عظيمة وندب له دابة من مراكيب الخليفة لا تزال تحته حتى يعود إلى خدمته، وينزل فى الغزالة على شاطىء الخليج، وكانت من المناظر السلطانية، وجددها شعاع بن شاور، ولو كان لصاحب الطراز فى القاهرة عشرة دور لا يمكن من نزوله إلا بالغزالة، وتجرى عليه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة. فيتمثل بين يدى الخليفة بعد حمل الاسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة، ويعرض جميع ما معه، وهو ينبه على شىء فشىء بيد فراشى الخاص فى دار الخليفة مكان سكنه، ولهذا حرمة عظيمة ولا سيما إذا وافق استعماله غرضهم. فإذا انقضى عرض ذلك بالمدرج الذى يحضره سلم لمستخدم الكسوات، وخلع عليه بين يدى الخليفة باطنا، ولا يخلع على أحد كذلك سواه، ثم ينكفىء إلى مكانه وله فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك

غيـر غـريب منه، ولا يمكن أن يكون إلا ولدا أو أخـا فـإن الرتبـة عـظيـمـة، والمطلق له من الجامكية فى الشـهر سبعون دينارا، ولهذا النائب عشرون دينارا. لأنه يتولى عنه إذا وصل بنفسه، ويقوم إذا غـاب فى الاستعـمـال مقـامـه، ومن أدواته أنه إذا عبى ذلك فى الأسفـاط استدعى والى ذلك المكان ليشاهده عند ذلك، ويكون الناس كلهم قياما لحلول نفس المظلة وما يليهـا من خـاص الخليفة فى مجلس دار الطراز وهو جالس فى مرتبته، والوالى واقف على رأسه خدمة لذلك، وهذا من رسوم خدمته وميزتها.

«دار الذهب»

وكان بجوار الغزالة دار الذهب، وموضعها الآن على يسرة الخارج من باب الخوخة فيما بينه وبين باب سـعـادة، وكـانت مطلة على الخليج، وفى مكانـهـا اليوم دار تعـرف بـبـهـادر الأعـسـر، وبقى منـهـا عـقـد بجـوار دار الأعـسـر، يعـرف الآن بقـبـو الذهب من خطة بين السورين.

قال ابن المأمون: لما ذكر تحول الخليفة الآمر بأحكام الله إلى اللؤلؤة ثم أحضر الوزير المأمون وكيله أبا البركـات مـحـمـد بن عثـمـان، وأمره أن يمضى إلى دارى الفلك والذهب اللتين عـلى شـاطـىء الخليج. فـالدار الأولى التى من حـيـز باب الخوخـة بناها فلك الملك، وذكر أنه من الأستـاذين الحـاكـمـيـة، ولم تكن تعرف إلا بدار الفلك، ولما بنى الأفضل ابن أمير الجيوش الدار الملاصقة لهـا التى من حيز باب سعادة، وسماها دار الذهب غلب الاسم على الدارين، ويصلح ما فسد منهما، ويضيف إليهما دار الشابورة. وذكر أن هذه الدار لم تسم بهـذا الاسم إلا لأن جزءا منهـا بيع فى أيام الشـدة فى زمن المستنصر بشـابورة. قـال: وعندما قارب النيل الوفاء تحول الخليفة فى الليل من قصوره بجميع جهاته واخوته وأعمامه والسـيدات كـرائمـه وعـمـاته إلى اللؤلـؤة، وتحول الأجل المأمون بالأجـلاء أولاده إلى دار الذهب وما أضيف إليها.

وقال ابن عبد الظاهر : دار الذهب بناها الأفضل ابن أمير الجيوش، وكانت عادة الأفضل أن يستريح بها . إذا كان الخليفة باللؤلؤة يكون هو بدار الذهب، وكذلك كان المأمون من بعده وكان حرس دار الذهب يسلم للوزيرية من باب سعادة يسلم لهم، ومن باب الخوخة للمصامدة أرباب الشعور وصبيان الخاص، وكان المقرر لهم فى كل يوم سماطين. أحدهما بقاعة الفلك للمماليك الخاص والحاشية وأرباب الرسوم، والآخر على باب الدار برسم المصامدة حتى أنه من اجتاز ورأى أنه يجلس معهم على السماط لا يمنع، والضعفاء والصعاليك يقعدون بعدهم، وفى أول الليل بمثل ذلك ، ولكل منم رسم لجميع من يبيت من أرباب الضوء إلى الأعلى .

«منظرة السكرة»

وكان من جملة مناظر الخلفاء منظرة تعرف بمنظرة السكرة فى بر الخليج الغربى . يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج، وكان لها بستان عظيم، بناها العزيز بالله ابن المعز، وقد دثرت هذه المنظرة، ويشبه أن يكون موضعها فى المكان الذى يقال له اليوم المريس قريبا من قنطرة السد، وكانت السكرة من جنات الدنيا المزخرفة، وفيها عدة أماكن معدة لنزول الوزير وغيره من الأستاذين .

ذكر ما كان يعمل يوم فتح الخليج

قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين الله : وفى ذى القعدة يعنى من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وهى السنة التى قدم فيها الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة، فكسر بين يديه ثم سار على شاطىء النيل حتى بلغ إلى بنى وائل، ومر على سطح الجرف فى موكب عظيم وخلفه وجوه أهل الدولة، ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر يسير معه ويعرفه بالمواضع التى يجتاز

عليها، ونجعت له الرعية بالدعاء، ثم عطف على بركة الحبش، ثم على الصحراء على الخندق الذى حفره القائد جوهر، ومر على قبر كافور وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طبا طبا الحسنى، وعرفه به ثم عاد إلى قصره.

وذكر الأمير المسبحى فى تاريخه الكبير ركوب العزيز بالله بن المعز وركوب الحاكم بأمر الله بن العزيز، وركوب الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم فى كل سنة لفتح الخليج.

وقال ابن المأمون فى سنة ست عشرة وخمسمائة: وعندما بلغ النيل ستة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيم، وأن يضرب الثوب الكبير الأفضلى المعروف بالقاتول، وهو أعظم ما فى الحاصل بأربعة دهاليز وأربع قاعات خارجا عن القاعة الكبيرة، ومساحته على ما ذكر ألف ألف ذراع وأربعمائة ذراع بالذراع الكبير خارجا عن سرادقه، وعمود القاعة الكبيرة منه ارتفاعه خمسون ذراعا، ولما كمل استعماله فى أيام الأفضل ونصب تأذى منه جماعة، ومات رجلان فسمى بالقاتول لأجل ذلك، ومازال لا يضرب إلا بحضور المهندسين، وتنصب له أساقيل عدة بأخشاب كثيرة، والمستخدمون يكرهون ضربه، ويرغبون فى ضرب أحد الثوبين الجيوشيين وإن كانا عظيمين إلا أنهما لا يصلان بجملتهما إلى مقايسته ولا مئونته ولا صنعته، وأقام هذا الثوب فى الاستعمال عدة سنين مع جمع الصناع عليه، وما يضرب منه سوى القاعة الكبيرة لا غير وأربعة الدهاليز وبعض السرادق الذى هو سور عليه لضيق المكان الذى يضرب فيه، وكونه لا يسعه بجملته. قال: ووصلت كسوة موسم فتح الخليج، وهى ما يختص بالخليفة وأخيه وبعض جهاته والوزير.

فأما ما يختص بالخليفة خاصة فبدلة شرحها بدنة طميم. منديل سلفه مائة وعشرون دينارا وأحد طرفيه ثلاثة عشر ذراعا ذهبا عراقيا دمجا لوحا واحدا، والثانى ثلاثة أذرع سلفه أربعة وعشرون دينارا. ثوب طميم سلفه خمسون دينارا، والذهب الذى فى الثوب والمنديل والحنك ألف دينار وخمسة دنانير. فتكون جملتها بالسلف ألف دينار ومائة وخمسة وسبعين دينارا شاشية طميم. للسلف ديناران وسبعون قصبة ذهبا عراقيا، فتكون جملة سلفها وقيمة ذهبها ثمانية دنانير. منديل سلام سلفه ديناران وسبعون قصبة قيمته،

كذلك وسط برسم المنديل بخوص ذهب سلفه اثنا عشر دينارا. غلالة ديبقى حريرى السلف عشرة دنانير. منديل كم مذهب السلف خمسة دنانير ومائتا قصبة وأربع قصبات ذهبا عراقيا. قيمة ذلك خمسة وعشرون دينارا. منديل كم ثان حريرى خمسة دنانير. حجره أربعة دنانير عرضى لفافة خاص خمسة دنانير وستة عشر مثقالا ذهبا مصريا، فيكون سلفه وذهبه خمسة وعشرين دينارا. عرضى ثان برسم تغطية التخت دينار واحد ونصف، تخت ثان ضمنه بدلة خاص حريرى برسم العود من السكرة. شرحها منديل حريرى سلفه ستون دينارا، وسط شرب رسمه اثنا عشر دينارا، شقة ديبقى وكم عشرون دينارا، شقة وسطانى اثنا عشر دينارا. غلالة خمسة عشر دينارا. غلالة عشرة دنانير. منديل سلام ديناران. منديل كم خمسة دنانير منديل كم ثان أيضا خمسة دنانير. شاشية حريرى ديناران. حجره أربعة دنانير. عرضى لفافة خمسة دنانير. عرضى ثان برسم لفافة التخت دينار واحد ونصف.

قال: ورأيت شاهدا أن قيمة كل حلة من هذه الحلل وسلفها إذا كانت حريرى ثلاثمائة وستة دنانير، وإذا كانت مذهبة ألف دينار، واختصر ما باسم أبى الفضل جعفر أخى الخليفة وأربع جهات.

وأما ما يختص بالوزير فبدلة مذهبة شرحها. منديل سلفه سبعون دينارا وخمسمائة وسبعون قصبة عراقى جملة سلفه وذهبه مائة وأربعة عشر دينارا. شقة ديبقى وكم السلف ستة عشر دينارا وثمانية وعشرون مثقالا ذهبا عاليا. تكون جملة ذلك خمسين دينارا. نصف شقة ديبقى وسطانى اثنا عشر دينارا ونصف. شقة وسطانى برسم العود ثلاثة دنانير. غلالة ديبقى سبعة دنانير ونصف. شقة برسم الغلالة ديناران ونصف. منديل كم سبعة دنانير واثنا عشر مثقالا ذهبا تكون قيمته تسعة عشر دينارا. حجره ثلاثة دنانير. عرضى أربعة دنانير وأحد عشر مثقالا ذهبا تكون قيمته تسعة عشر دينارا، حجره ثلاثة دنانير عرضى أربعة دنانير وأحد عشر مثقالا تكون سلفه وذهبه سبعة عشر دينارا، ثم ذكر بعد ذلك ما يكون لجهة الوزير وما يكون برسم صبيان الحمام وما يفصل برسم المماليك الخاص. صبيان الرايات والرماح. خمسمائة شقة سقلاطون دارى، تكون قيمتها

سبعمائة وخمسين قباء، يحمل منها برسم غلمان الوزير مائة قباء، ويفرق جميع ذلك. قال ولم يكن لأحد من الأصحاب والحواشى وغيرهم فى هذا الموسم شىء فيذكر بل لهم من الهبات العين والرسوم الخارجة عن ذلك ما يأتى ذكره فى موضعه، وفى صبيحة هذا الموسم خلع على ابن أبى الرداد، وعلى رؤساء المراكب وغيرهم، وحمل إلى المقياس برسم المبيت وركوب الخليفة بتجمله ومواكبه إلى السكرة ما فصله وبينه مما يطول ذكره.

وقال فى سنة سبع عشرة وخمسمائة: ولما جرى النيل، وبلغ خمسة عشر ذراعا أمر بإخراج الخيام والمضارب الديبقى والديباج، وتحول الخليفة إلى اللؤلؤة بحاشيته، وتحول المأمون إلى دار الذهب، ووصلت كسوة الموسم المذكور من الطراز، وإن كانت يسيرة العدة فهى كثيرة القيمة، ولم تكن للعموم من الحاشية والمستخدمين. بل للخليفة خاصة وإخوته وأربع من خواص جهاته والوزير وأولاده وابن أبى الرداد، فلما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير إلى الصناعة بمصر، ورميت العشاريات بين أيديهما، ثم عديا فى إحداها إلى المقياس وصليا ونزل ونزل الثقة صدقة ابن أبى الرداد منزلته، وخلق العامود وعاد الخليفة على فوره، وركب البحر فى العشارى الفضى والوزير صحبته والرهجية تخدم برا وبحرا والعساكر طول البر قبالته إلى أن وصل إلى المقس ورتب الموكب، وقدم العشارى بالخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون وسار الموكب والرهجية تخدم والصدقات والرسوم تفرق، ودخل من باب القنطرة، وقصد باب العيد، واعتمد ما جرت به العادة من تقديم الوزير وترجله فى ركابه إلى أن دخل من باب العيد إلى قصره، وتقدم بالخلع على ابن أبى الرداد بدلة مذهبة وثوب ديبقى حريرى وطيلسان مقور وبياض مذهب وشقة سقلاطون وشقة تحتانى وشقة خز وشقة ديبقى وأربعة أكياس دراهم، ونشرت قدامه الاعلام الخاص الديبقى المحاومة بالألوان المختلفة التى لا ترى إلا قدامه. لأنها من جملة تجمل الخليفة، وأطلق له برسم المبيت من البخور والشموع والاأنام والحلاوات كثير.

قال : وهيئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم راحة الخليفة وتغيير ثيابه، وقد وقعت المبالغة فى تعليقها وفرشها وتعبيتها، وقدم بين يديه الصوانى الذهب التى وقع التناهى فيها من همم الجهات من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها. المعمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المكلل باللؤلؤة والياقوت والزبرجد من الصور الوحشية ما يشبه الفيلة. جميعها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان، فى كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده، وعليه سرير منجور من عود بمتكآت فضة وذهب، وعليه عدة من الرجال ركبان، وعليهم اللبوس تشبه الزرديات، وعلى رؤوسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق، وجميع ذلك فضة، ثم صور السباع منجورة من عود وعيناه ياقوتتان حمراوان، وهو على فريسته، وبقية الوحوش وأصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة.

قال : ومن جملة ما وقع الاهتمام به فى هذا الموسم ما صار يستعمل فى الطراز، وإن لم يتقدم نظيره للولائم التى تتخذ برسم تغطية الصوانى عدة من عراضى ديبقى، ثم قوارات شرب تكون من تحت العراضى على الصوانى، مفتح كل قوارة منهن دون أربعة أشبار سلف كل واحدة منهن خمسة عشر دينارا، ورقم فى كل منهن سجف ذهب عراقى ثمنه من أربعين إلى ثلاثين دينارا، تكون الواحدة بخمسين دينارا، ويستعمل أيضا برسم الطرح من فوق القوارات الإسكندرانى التى تشد على الموائد التى تحمل من عند كل جهة قوارات ديبقى مقصور من كل لون محاومة بالرقم الحريرى، مفتح كل قوارة أربعة أذرع يكون الثمن عن كل واحدة أربعين دينارا، ولقد بيعت عدة من القوارات الشرب فسارع التجار العراقيون إلى شرائها، ونهاية ما بلغ ثمن كل واحدة منهن ستة عشر دينارا وسافروا بها إلى البلاد فلم يبع لهم منها سوى اثنتين، وعادوا بالبقية إلى الديار المصرية فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وحفظوا منهن شيئاً عن السوق، فلم يحفظ لهم رأس ما لهن. قال : وكان ما تقدم من الزبادى فى الطيافير من الصينى إلى آخر أيام الأفضل بن أمير الجيوش وأيام المأمون، وإنما استجدت الأوانى الذهب فى أواخر الأيام الآمرية، والذى يعبى بين يدى الخليفة قوائمية ضمنها عدة من الطيافير المحمولة بالمرافع الفضة برسم الأطباق الحارة،

وليس فى المواسم مائدة بغير سماط للأمراء، ويجلس عليها الخليفة غير هذا الموسم وإن كان يجرى مجرى الأعياد، وله البخور مطلق مثلها، وينفرد بالجلوس معه الجلساء المميزون والمستخدمو، وعند كمال تعبيتها وبخورها جلس الخليفة عليها عن يمينه وزيره وعن يساره أخوه، ومن شرف بحضوره، وفى آخرها فرق منها ما جرت به العادة على سبيل البركة.

وقال فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة: ووصلت الكسوة المختصة بفتح الخليج، وهى برسم الخليفة تختان ضمنهما بدلتان. إحداهما منديلها وثوبها طميم برسم المضى، والأخرى جميعها حريرى برسم العود، وكذلك ما يخص إخوته وجهاته بدلتان مذهبتان وأربع حلل مذهبة، وبرسم الوزير بدلة موكبة مذهبة فى تخت، وبرسم أولاده الثلاثة ثلاث بدلات مذهبة، وبرسم جهته حلة مذهبة فى تخت. وهؤلاء المميزون لكل منهم تخت، وبقية ما يخص المستخدمين وابن أبى الرداد فى تخوت. كل تخت فيه عدة بدلات، وحضر متولى الدفتر واستأذن على ما يحمل برسم الخليفة وما يفرق وما يفصل برسم الخلع، وما يخرج من حاصل الخزائن غير الواصل، وهو ما يفصل برسم الغلمان الخاص عن سبعمائة قباء، خمسمائة وشقتان سقلاطون دارى، وبرسم رؤساء العشارى من الشقق الدمياطى والمناديل السوسى والفوط الحرير الأحمر، وبرسم النواتية التى برسم الخاص من العشارية من الشقق الإسكندرانى والكلوتات، فوقع بإنفاق جميع ذلك وتفصيل ما يجب منه، ثم ابتيع ذلك بمطالعة ثانية برسم ماهو مستمر العموم من النقد العين والورق للموسم المذكور، وهو من العين أربعة آلاف وخمسمائة دينار، ومن الورق خمسة عشر ألف درهم، فوقع بإطلاق ذلك، وذكر تفصيل الكسوات والهبات بأسماء أربابها، وحضر متولى المائدة الآمرية بمطالعة يستدعى ما جرت به العادة فى هذا الموسم من الحيوان والضأن والبقر، وغير ذلك من الأصناف برسم التفرقة والأسمطة، وحضر متولى دار التعبية يستدعى ما يبتاع به الثمرة والزهرة، وهيئة المتعينين لتعبية السكرة لأجل حلول الركاب بها ومقامه فيها، وتعبية جميع مقاصيرها التى برسم الأستاذين والأصحاب والحواشى، وهو مائة دينار. فوقع بإطلاقها. وفى العاشر من الشهر المذكور يعنى شهر

رجب . وفى النيل ستة عشر ذراعا ، فتوجه المأمون إلى صناعة العمائر بمصر ، ورميت العشاريات بين يديه ، وقد جددت وزينت جميعها بالستور الديبقى الملونة والكوامخ والأهلة الذهب والفضة ، وشمل الإنعام أرباب الرسوم على عادتهم وعدى فى إحدى العشاريات إلى المقياس ، وخلق العمود بما جرت به عادتهم من الطيب وفرقت رسوم الإطلاق ، وانكفأ إلى دار الذهب ، وأمر بإطلاق ما يخص المبيت فى المقياس بجميع الشهود والمتصدرين ، وهى العشرات ، من الخبز عشرة قناطير ، وعشرة خراف شوى ، وعشر جامات حلوى ، وعشر شمعات ، وأول من يحضر المبيت الشريف الخطيب سيد المقربين وامام المتصدرين وله وللجماعة من الدراهم التى تفرق أوفى نصيب . قال : وخرج الخليفة بزى الخلافة ووقارها وناموسها بالثياب الطميم التى تذهل الابصار ، والمنديل بالشدة العربية التى ينفرد بلباسها فى الأعياد والمواسم . خاصة لأعلى الدوام ، وكانت تسمى عندهم شدة الوقار مرصعة بغالى الياقوت والزمرذ والجوهر ، وعند لباسها تخفق لها الأعلام ، ويتجنب الكلام ويهاب ، ولا يكون سلام قريب منه وخليل غير الوزير إلا بتقبيل الأرض من بعيد من غير دنو ، ثم بين يديه من مقدمى خزائنه من يحمل سيفه ورمحه المرصعين بأفخر ما يكون . ثم المذاب التى كل منها عمودها ذهب ، وينفرد بحملها الصقالبة ، ويمشى بين الصفين المرتبين راجلا على بسط حرير فرشت له ، وكل من الصفين يتناهى فى مواصلة تقبيل الأرض إلى أن وصل إلى مجلس خلافته ، وصعد على الكرسى المغشى بالديباج المنصوب برسم ركوبه ، وقد صفت الرواض وأزمة الاصطبلات خيل المظلة بعد أن أزالت الأغشية الحرير والشقق الديبقى المذهبة عن السروج ، وبقيت كما وصفها الله تعالى فى كتابه . فقدم إليه ما وقع اختياره عليه ، وأمر بأن يجنب البقية فى الموكب بين يديه . ولما علا ما قدم إليه استفتح مقرئو الحضرة ، وتسلم جميع مقدمى الركاب ركابه ، والرواض الشكيمة ، وزال حكم الأستاذين المستخدمين فى الركاب ، وعادت الموالى والأقارب إلى محالهم ، واستدعى بالوزير بجميع نعوته . فواصل تقبيل الأرض إلى أن قبل ركابه ، وشرفه بتقبيل يديه بحكم خلوها من قضيب الملك فى هذه المواسم ، ولما أدى ما يجب من فرض السلام أخذ السيف من الأمير افتخار الدولة أحد الأمراء الأستاذين

المميزين المحنكين متولى خزانة الكسوة الخاص، وسلمه بعد أن قبله لأخيه الذى يتولى حمله فى الموكب بعد أن أرخيت عذبته تشريفا له مدة حمله خاصة وترفع بعد ذلك، وشد وسطه بالمنطقة الذهب تأدبا وتعظيما لما معه، وسلم الرمح والدرقة لمن يتولى حملهما بلواء الموكب، ولم يكن للخدمة المذكورة عذبة مرخاة ولا منطقة، واستدعي ركوب الوزير وأولاده من عند باب قاعة الذهب، وخرج الخليفة من القاعة المذكورة إلى أول دهليز فتقلته جماعة صبيان ركابه العشرة المقدمين أرباب الميمنة والميسرة، وصبيان وراء صبيان الرسائل، وصبيان السلام. كل منهم فى الخدمة المعينة لا يخرج عنها لسواها، وجميعهم بالمناديل الشروب المعلمة، وبأوساطهم العراض الديبقى المقصورة، وليس الجميع عبيدا بشراء ولا سودان. بل مولدة، وأولاد أعيان وأهل فهم ولسان، ثم احتاط بركابه بعدهم من هو على غير زيهم. بل بالقنابيز المفرجة والمناديل السوسى، وهم المتولون لحمل السلاح الخاص الذى لا يكون إلا فى موكبه خاصة على الاستمرار من الصوارى والفرنجيات والدبابيس واللتوت والصماصم بالدرق الصينى واليمنى بالكوامخ الفضة والذهب، ويحصل الاستدعاء من صبيان السلام فى مسافة الدهاليز لكل من هو مستخدم فى الموكب ركوبه من محل حجبته إلى أن خرج الخليفة من باب الذهب، وقد ضربت الغربية وأبواق السلام، واجتمع الرهج من كل مكان، ونشرت المظلة فاجتمع إليها الزويلية بالعدد الغريبة وظلل بها، وسارت بسيره، والقرآن الكريم عن يمينه ويساره، والحجرية الصبيان المنشدون، واجتمع الموكب بجملته على ما ذكر أولا والترتيب أمامه لمتولى الباب وحجابه، وتلوه لمتولى الستر، وكل منهم على حكم المدارج التى وصلت إليه. لا سبيل إلى الخروج عما رسم فيها، وسار بجملة موكبه على ترتيب أوضاعه بين حصنين مانعين من طوارق عساكره. فارسها وراجلها. كل طائفة يقدمها زمامها، وقد ازدحموا فى المصفات بعدد المذهبة الحربية والآلات الماتعة المضيئة، وليس بينهم طريق لسالك، وقد زين لهم جميع ما يكون أمامهم من الطرق جميعها. حوانيتها وآدرها وجميع مساكنها وأبواب حاراتها بأنواع من الستور والديباج والديبقى على اختلاف أجناسها، ثم بأصناف السلاح، وملأت النظارة الفجاج والبطاح والوهاد والربا، والصدقات والرسوم تعم أهل الجانبين من أرباب

الجوامع والمساجد وبوابى الأبواب والسقائين والفقراء والمساكين فى طول الطريق. إلى أن أظل على الخيام المنصوبة فوقف بموكبه، واستدعى الوزير بعده من مقدمى ركابه. فاجتاز راكبا بمفرده وجميع حاشيته بسلاحهم رجالة فى ركابه بعد أن بالغ فى الإيماء بتقبيل الأرض أمامه فرد عليه بكمه السلام، وعاد الخليفة فى سيره بالموكب بعد أن حصل الوزير أمامه. وترجل جميع من شرف بحجبته فى ركابه، وآخرهم متولى حمل سيفه ورمحه، وصبيان السلام يستدعون كل منهم إلى تقبيل الأرض بجميع نعوته إكبارا له وتمييزا واحتاطوا بركابه، ووصل إلى المضارب فى الحرس الشديد على أبوابها وسرادقاتها من كل جانب، وقد تبين وجاهة من حصل بها، ومكن من الدخول إليها، وترجل الوزير فى الدهليز الثالث من دهاليزها، وتقدم إلى الخليفة وأخذ شكيمة الفرس من يد الرواض، وشق به الخيام التى جمعت جميع الصور الآدمية والوحشية، وقد فرشت جميعها بالبسط الجهرمية والأندلسية. إلى أن وصل إلى القاعة الكبرى فيها، وترجل على سرير خلافته، وجلس فى محل عظمته، وأجلس وزيره على الكرسى الذى أعد له، واحتاط به المستخدمون حملة السلاح المنتصب جميعه وحجبوا العيون عن النظر إليه، وصف بين يديه الأمراء والضيوف والمشرفون بحجبته، وختم المقرئون القرآن العظيم وقدم عدى الملك النائب شعراء المجلس على طبقاتهم، وعند انقضاء خدمة آخرهم عادت المستخدمون والرواض مقدمة ما أمروا به من الدواب، فعلاه الخليفة والوزير يمسك الشكيمة بيده، وانتظم موكبا عظيما والقراء عوض الرهجية والجماعة فى ركابه رجالة على حكم ما كانوا عليه أولا، وصعد من القاعة التى فى دهاليز الباب القبلى منها فخرج منه، وانفصلت خدمة جميع الأمراء والضيوف من ركابه بأحسن وداع من تقبيل الأرض، وصعد الخليفة ووزيره وأولاده وإخوته والأصحاب والحواشى إلى السكرة وهى من جنات الدنيا المزخرفة، وتلقاه أخوه بعظمة سلامه وتقبيل الأرض بين يديه وجلس لوقته، وفتحت الطاقات التى فى المنظرة وعن يمينه وزيره وعن يساره أخوه جالسان، واعتمد الناس جميعهم عند مشاهدته تقبيل الأرض له وإدامة النظر نحوه، والمستخدمون جميعهم على السد مشدودى الأوساط واقفين عليه. فلما أمرهم الوزير أن يكسروه قبلوا الأرض جميعا وانصرفوا عنه وتولته

الفعلة فى البساتين السلطانية بالفتح من الجانبين والقرآن والتكبير من الجانب الغربى. حيث الخليفة والرهج واللعب من الجانب الشرقى، ولما كمل فتحه انحدرت العشاريات عن آخرها. اللطيف منها يقدم الكبير، والجميع مزينة بالذهب والفضة والستور المرقومة ورؤساؤهم وخدامهم بالكسوات الجميلة، وبعد ذلك غلقت الطاقات وحل الخليفة بالمقصورة التى لراحته، وكذلك الوزير وأولاده واخوته وجميع الأمراء الأستاذين والأصحاب والحواشى، واستدعى للوقت والى مصر من البر الشرقى، وخلع عليه بدلة منديلها وثوبها مذهبان وثوبان عتابى وسقلاطون، وقبل الأرض من تحت المنظرة وعدى فى البحر إلى حفظ مكانه، ثم استدعى بعده حامى البساتين ومشارفها فخلع عليهما بدلتين حريرى وثوبين سقلاطون وعتابى، ثم متولى ديوان العمائر كذلك، ثم مقدمى الرؤساء كذلك، واعتمد كل من سلم إليه الإثباتات المشتملة على أصناف الإنعام من العين والورق وصوانى الفطرة والموائد التى يهتم بها جميع الجهات، والخراف المشوية والجامات الحلواء تفرقة ذلك على ما رسم، وهو شامل غير مخصص من أخى الخليفة والوزير إلى الأصحاب والحواشى من أرباب السيوف والأقلام، ثم الأمراء المستخدمين والضيوف المميزين من الأجناد وغيرهم من الادوان ممن يتعلق به خدمة تختص بالموسم من البحارة وأرباب اللعب وغيرهم، وعبيت الأسمطة فى المسطحات المنصوبة لها بالجانب من الباب الغربى من الخيام، وأمر الوزير أخاه بالمضى إليها والجلوس عليها، فتوجه وبين يديه متولى حجبة الباب ونوابه والمعروفية والحجاب، واستدعت الأمراء والضيوف بالسقاة من خيامهم، وأجلس كل منهم على السماط فى موضعه على عادتهم، وتلاهم العساكر على طبقاتهم ولم يمنع حضورهم ما يسير لكل منهم من جميع ما ذكر على حكم ميزته، ولما انقضى حكم الأسمطة المختصة بالأمراء الكبار عاد أخو الوزير إلى حيث مقر الخلافة، وبقى متولى الباب جالسا لأسمطة العبيد وجميع المستخدمين من الراجل والسودان، وعبيت المائدة الخاص بالسكرة التى ما يحضرها إلا العوالى الخاص المستخدمون فى الخدم الكبار، ويجمع له حالتان حضوره فى أشرف مقام وجلوسه فى محل يحصل له به حرمة وذمام، وجلس الخليفة عليها وأخوه على شماله، ووزيره على يمينه بعد أن أدى كل منهما

ما يجب من سلامه وتعظيمه، وحضر أولاد الوزير واخوته والشيخ أبو الحسن كاتب الدست وابنه سالم، ومن الأستاذين المحنكين أرباب الخدم، وجرى الحال فى المائدة الشريفة على ما هو مألوف، وفرق من جملتها لكل من أرباب الخدم الذين لم يحضروا عليها ما هو لكل منهم على سبيل الشرف، وتميز فى ذلك اليوم خاصة ما يختص بالقاضى وشهوده، والداعى وابن خاله الذين يخصصون عن سواهم بمقامهم دون غيرهم فى قاعة الخيمة الكبرى أمام سرير الخلافة المنصوب مدة النهار، مع ما يحمل إليهم من الموائد وغيرها مما هو بأسمائهم فى الإثباتات مذكور، ولماتكامل وضع المائدة وانقضى حكمها قبل كل من الحاضرين الأرض وانصرف بعد أن استصحب منها ما تقتضيه نفسه على حكم الشرف والبركة. ويقضى بعد ذلك الفرائض الواجبة فى وقتها. ولابد من راحة بعدها، وحضر مقدما الركاب وحاسبا كاتب الدفتر على ما معهما برسم تفرقة الرسوم والصدقات فى مسافة الطريق. فكمل لهما على ما بقى معهما مثلما كان أولا، ولما استحق العود عاد كل من المستخدمين إلى شغله من ترتيب الموكب ومصفات العساكر، وترتيب من يشرف بالحضرة من الأمراء والضيوف، وفرقت الصوانى الخاص التى تكون بين يدى الخليفة مدة النهار الجامعة للثروة من كل جهة والزينة من كل معنى، والغرابة من كل صنف، وقد جمعت ملاذ جميع الحواس، والعدة منها يسيرة، وليس ذلك لتقصير من همم الجهات التى تتنوع فيها بالغرائب، بل للتعب الشديد عليها ثم لضيق الزمان، لأن كلا منها لا مندوحة أن يكون فيه زهرة وثمرة، وطول المكث كذلك يتلف ما فيها، وإذا شملت مع قلتها من له الوجاهة العالية من أخى الخليفة والوزير لم يكن له غير صينية واحدة، وأخذ كل من الحاشية أهبة تجمله لموضع ميزته وغير الخليفة ثيابه بما يقتضيه الموكب، وهو بدلة حريرى بشدة الوقار وعلم الجوهر، وسير إلى الوزير صحبة مقدم خزانة الكسوة الخاص على يد المستخدمين عنده من الأستاذين من جملة بدلات الجمع، التى يتوجه منها إلى زيه ما يؤمر به من يسعى إليه بدلة مكملة حريرى ومنديلها بياض بالشدة الدانية غير العربية، ولما لبس ما سير إليه وحضر بين يديه لشكر نعمته. أمره بركوب أخيه فى إحدى العشاريات فامتثل أمره، وتوجه صحبته من السكرة بجميع خواصه وحواشيه، وفتح لهم الباب الذى

هو منها بشاطىء الخليج، وقدم له إحدى العشاريات الموكبية، وفيها مقدم رياسة البحرية. فركب فيها بجمعه، والوزير واقف راجل على شاطىء الخليج خدمة له إلى أن انحدرت العشاريات جميعها قدامه، ومراكب اللعب بغير أحد من أرباب الرهج، والمستخدمون فى البرين يمنعون من يقاربه، والمتفرجون لا يصدهم ويردهم ما يحل بهم. بل يرمون أنفسهم من على الدواب ويسيرون بسيره، وعاد الوزير إلى السكرة. فلما شاهد الخليفة الدواب الخاص التى برسم ركوبه أمره بما وقع عليه اختياره منها وعلاه. فاحتاط بركابه مقدمو الركاب واستفتح القراء، وخرج من باب السكرة، ودخل من باب الخليفة القبلى وشق قاعتها على سرير مملكته وخص بالسلام فيها شيوخ الكتاب العوالى والقاضى والداعى ومن معهما، ولهم بذلك ميزة عظيمة يختصون بها دون غيرهم، وخرج منها إلى البستان المعروف بنزار، وسار فى ميدانه وجميعه من الجانبين سور معقود من شجر نارنج أصولها مفترقة وفروعها مجتمعة، وظللت الطريق وعليها من الثمرة التى أخرجها من وقته إلى هذا اليوم، وقد خرجت بهجتها عن المعتاد، وحصل عليها ثمرة سنتين إحداهما انتهت والأخرى فى الابتداء وهو بهيئته وزيه وترتيب عساكره وأمرائه، وخرج من الباب بعد أن عمّ من له رسم بإنعامه وعاد الرهج والموكب على ما كان عليه. فلما وصل إلى السد الذى على بركة الحبش كسر بين يديه. . «وقال فى كتاب الذخائر» . . إن مما أخرج من القصر فى سنة إحدى وستين وأربعمائة فى خلافة المستنصر قبة العشارى وقاربه وكسوة رحله، وهو مما استعمله الوزير أحمد بن علىّ الجرجراى فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وكان فيه مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نقرة، وأن المطلق لصناع الصاغة عن أجرة ذلك وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ألفان وسبعمائة دينار، وعمل أبو سهل التسترى لوالدة المستنصر عشاريا يعرف بالفضى وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم، ولزم ذلك أجرة الصناعة ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار، واستعمل كسوة برسمه بمال جليل، وأنفق على العشاريات التى برسم النزه البحرية التى عدتها ستة وثلاثون عشاريا بالتقدير بجميع آلاتها، وكساها وحلاها من مناطق ورؤوس منجوقات وأهلة وصفريات وغير ذلك أربعمائة ألف دينار.

وقال ابن الطوير : إذا أذن الله سبحانه وتعالى بزيادة النيل المبارك طالع ابن أبى الرداد بما استقر عليه أذرع القاع فى اليوم الخامس والعشرين من بؤونة ، وأرخه بما يوافقه من أيام الشهور العربى . فعلم ذلك من مطالعته . وأخرجت إلى ديوان المكاتبات فنزلت فى السير المرتب بأصل القاع ، والزيادة بعد ذلك فى كل يوم تؤرخ بيومه من الشهر العربى وما وافقه من أيام الشهر القبطى . لايزال كذلك وهو محافظ على كتمان ذلك لا يعلم به أحد قبل الخليفة وبعده الوزير . فإذا انتهى فى ذراع الوفاء وهو السادس عشر إلى أن يبقى منه أصبع أو أصبعان وعلم ذلك من مطالعته . أمر أن يحمل إلى المقياس فى تلك الليلة من المطابخ عشرة قناطير من الخبز السميذ وعشرة من الخراف المشوية وعشرة من الجامات الحلواء وعشر شمعات ، ويؤمر بالمبيت فى تلك الليلة بالمقياس . فيحضر إليه قراء الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم . فيستعملون ذلك ويقدرون الشمع عليهم من العشاء الآخرة ، وهم يتلون القرآن برفق ويطربون بمكان التطريب فيختمون الختمة الشريفة ، ويكون هذا الاجتماع فى جامع المقياس فيوفى الماء ستة عشر ذراعا فى تلك الليلة . ولوفاء النيل عندهم قدرعظيم ويبتهجون به ابتهاجا زائدا ، وذلك لأنه عمارة الديار وبه التئام الخلق على فضل الله ، فيحسن عند الخليفة موقعه ، ويهتم بأمره اهتماما عظيما أكثر من كل المواسم . فإذا أصبح الصبح من هذا اليوم وحضرت مطالعة ابن أبى الرداد إليه بالوفاء ركب إلى المقياس لتخليقه . فيستدعى الوزير على العادة فيحضر إلى القصر . فيركب الخليفة بزى أيام الركوب من غير مظلة ولا ما يجرى مجراها . بل فى هيئة عظيمة من الثياب ، والوزير تابعه فى الجمع الهائل على ترتيب الموكب ويخرج شاقا من باب زويلة ، وسالكا الشارع إلى آخر الركن من بستان عباس المعروف اليوم بسيف الإسلام . فيعطف سالكا على جامع ابن طولون والجسر الأعظم بين الركنين إلى الساحل بمصر . إلى الطريق المسلوكة على طرف الخشابين الشرقى على دار الفاضل . إلى باب الصاغة بجوارها وله ، دهليز مادّ بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانىّ بسطا وتأزيرا ، فيشقها والوزير تابعه . فيخرج منها منعطفا على الصناعة الأخرى ، وكانت برسم المكس إلى السيوفيين ، ثم على منازل العز التى هى اليوم مدرسة ، ثم إلى دار الملك فيدخل من الباب

المقابل لسلوكه . فيترجل الوزير عنده للدخول بين يديه ماشيا إلى المكان المعد له ، ويكون قد حمل أمس ذلك اليوم من القصر البيت المتخذ للعشارى الخاص . وهو بيت مثمن من عاج وأبنوس عرض كل جزء ثلاثة أذرع وطوله قامة رجل تام . فيجمع بين الأجزاء الثمانية فيصير بيتا دوره أربعة وعشرون ذراعا ، وعليه قبة من خشب محكم الصناعة وهو بقيته ملبس بصفائح الفضة والذهب . فيتسلمه رئيس العشاريات الخاص ويركبه على العشارى المختص بالخليفة ، ويجعل باكر ذلك اليوم الذى يركب فيه الخليفة على الباب الذى يخرج منه للركوب إلى المقياس . فإذا استقر الخليفة بالمنظرة بدار الملك التى يخرج من بابها إلى العشارى وأسند إليه . استدعى الوزير من مكانه فيحضر إليه ويخرج بين يديه إلى أن يركب فى العشارى . فيدخل البيت . المذهب وحده ومعه من الأستاذين المحنكين من يأمره من ثلاثة إلى أربعة ثم يطلع فى العشارى . من هو جالس سوى الخليفة باطنا والوزير ظاهرا فى رواق من باب البيت . الذى هو بعرانيس من الجانبين قائمة مخروطة من أخف الخشب ، وهى مدهونة مذهبة ، وعليها من جانبيها ستور معمولة برسمها على قدرها . فإذا اجتمع فى العشارى من جرت عادته بالاجتماع اندفع من باب القنطرة طالبا باب المقياس العالى على الدرج التى يعلوها النيل . فيدخل الوزير ومعه الأستاذون بين يدى الخليفة إلى الفسقية . فيصلى هو والوزير ركعات كل واحد بمفرده . فإذا فرع من صلاته أحضرت الآلة التى فيها الزعفران والمسك فيديفها بيده بآلة ، ويتناولها صاحب بيت المال فيناولها لابن أبى الرداد . فيلقى نفسه فى الفسقية وعليه غلالته وعمامته والعمود قريب من درج الفسقية . فيتعلق فيه برجليه ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى ، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرءون القرآن نوبة بنوبة ، ثم يخرج على فوره راكبا فى العشارى المذكور ، وهو بالخيار إما أن يعود إلى دار الملك ويركب منها عائدا إلى القاهرة أو ينحدر فى العشارى إلى المقس . فيتبعه الموكب إلى القاهرة ، ويكون فى البحر فى ذلك اليوم ألف قرقورة مشحونة بالعالم فرحا بوفاء النيل وبنظر الخليفة . فإذا استقر بالقصر اهتم بركوب فتح الخليج ، وفيه همة عظيمة ظاهرة للابتهاج بذلك ، ثم يصير ابن أبى الرداد باكر ثانى ذلك اليوم إلى القصر بالإيوان الكبير الذى فى الشباك إلى باب الملك بجواره . فيجد خلعة معباة هناك فيؤمر

بلبسها، ويخرج من باب العيد شاقا بها بين القصرين من أوله قصدا لإشاعة ذلك، فإن ذلك من علامة وفاء النيل، ولأهل البلاد إلى ذلك تطلع، وتكون خلعة مذهبة، وكان من العدول المحنكين فيشرف فى الخلعة بالطيلسان المقور، ويندب له من التغييرات ولمن يريده خمس تغييرات مركبات بالحلى، ويحمل أمامه على أربع بغال مع أربعة من مستخدمى بيت المال أربعة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم ظاهرة فى أكفهم، وبصحبته أقاربه وبنو عمه وأصدقاؤه ويندب له الطبل والبوق ويكتنف به عدة كثيرة من المتصرفين الرجالة. فيخرج من باب العيد ويركب إحدى التغييرات وهى أميزها، وشرف أمامه بجملين من النقارات التى قدمنا ذكرها. يعنى فى ركوب أول العام من زى الموكب. فيسير شاقا القاهرة والأبواق تضرب أمامه كبارا وصغارا، والطبل وراءه مثل الأمراء، وينزل على كل باب يدخل منه الخليفة ويخرج من باب القصر فيقبله ويركب، وهكذا يعمل كل من يخلع عليه من كبير وصغير من الأمراء المطوقين إلى من دونهم سيفا وقلما، ويخرج من باب زويلة طالبا مصر من الشارع الأعظم إلى مسجد عبد الله إلى دار الأنماط، جائزا على الجامع إلى شاطىء البحر. فيعدى إلى المقياس بخلعه وأكياسه، وهذه الأكياس معدة لأرباب الرسوم عليه فى خلعه ولنفسه ولبنى عمه بتقرير من أول الزمان. فإذا انقضى هذا الشأن شرع فى الركوب إلى فتح الخليج ثانى يوم، وقد كان وقع الاهتمام به منذ دخلت زيادة النيل ذراع الوفاء اهتماما عظيما. فيعمل فى بيت المال من التماثيل شكل الوحوش من الغزلان والسباع والفيلة والزرافات عدة وافرة. منها ما هو ملبس بالعنبر، ومنها ما هو ملبس بالصندل، ثم شكل التفاح والأترج اللطيف، والوحوش مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب إلى غير ذلك، ثم تخرج الخيمة التى يقال لها القاتول، لأن فراشا سقط من أعلى عمودها فمات. فسميت بذلك وطوله سبعون ذراعا، وأعلاه صفرية فضة تسع راوية ماء، وعليه الفلكة التى كانت فى الايوان إلى قريب الوقت. ثم يعمل فى أول العمود شقة دائرة ثم أوسع منها، ويتوالى ذلك إلى إحدى عشرة شقة. فتصير سعة الخيمة ما يزيدعلى فدانين مستديرة وتنصب فى بر الخليج الغربى على حافته مكان بستان الحلى اليوم، وكانت ثم منظرة يقال لها السكرة برسم جلوس الخليفة لفتح الخليج فى مثل هذا اليوم، وينصب

أرباب الرتب من الأمراء من بحرى تلك الخيمة الكبرى خياما كثيرة ويتمايزون فيها على قدر هممهم وضربهم إياها فى الأماكن الأقرب فالأقرب على قدر رتبهم. فإذا تم ذلك وعزم الخليفة على الركوب ثالث يوم التخليق أو رابعه أخرج كل من المستخدمين فى المواضع المقدم ذكرها فى ركوب أول العام آلات الموكب على عادته، ويزاد فيه إخراج أربعين بوقا عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة ويكون بوّاقوها ركبانا، وأرباب الأبواق النحاس مشاة، ومن الطبول الكبار التى مكان خشبها فضة عشرة. فإذا حضر الوزير إلى باب القصر خرج الخليفة فى هيئة عظيمة وهمة عالية، وقد تضاعفت همم الأجناد فى ذلك اليوم. فارسها وراجلها، ويخرج زى الخليفة من المظلة والسيف والرمح والالوية والدواة وغير ذلك من الأستاذين المحنكين، ويركب فى ذلك اليوم من الأقارب المقيمين بالقصر عشرون أو ثلاثون، وهم بالنوبة فى كل سنة. فيتقدمون إلى المنظرة فى مكان لهم صحبة أستاذين لخدمتهم وحفظهم، ويكون قد لف عمود الخيمة الكبرى المشار إليها. إما بديباج أبيض أو أحمر أو أصفر من أعلاه إلى أسفله، وينصب مسندا إليه سرير الملك، ويغشى بقرقوبى وعرانيسه ذهب ظاهرة، فيخرج الخليفة للركوب ويركب فيخرج من باب القصر وعليه ثوب يقال له البدنة، وهو كله ذهب وحرير مرقوم، والمظلة من شكله ولا يلبس هذا الثوب فى غير هذا اليوم، ويسير بالموكب الهائل شاقا القاهرة من الطريق التى ركب منها لتخليق المقياس. إلا أنه لا يدخل طرق مصر من الخشابين. بل خارجها من طريق الساحل. فإذا جاز على جامع ابن طولون وجد قد ربط من رأس المنارة من مكان العشارى النحاس حبل طويل قوى موضوع آخره فى الطريق، وفيه قوم يقال لهم النحتبارية، واحد فى زىّ فارس على شكل فرس وفى يده رمح وبكتفه درقة. فينحدر على بكرة وفى رجليه آخر ممسكها وهو يتلقب فى الهواء بطنا وظهرا حتى يصل إلى الأرض، ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسا فى باب الجامع من هذه الجهة. فإذا وازاهم الخليفة، وكانوا قد ركبوا وقف لهم وقفة. فيسلم على القاضى ثم يدخل فيقبل الرجل التى من جانبه لا غير، ويدخل بالشهود فى الفرجة أمام وجه الدابة بمقدار قصبة المساحة فيسلم عليهم، ويرجعون إلى دوابهم فيركبون، ويكون قد نصب لهم بالقرب من الخيمة الكبرى خيمتان.

إحداهما ديباج أحمر والأخرى ديبقى أبيض بصفارى فضة لكل واحدة. فيتم الخليفة بهيئته إلى أن يدخل من باب الخيمة، ويكون الوزير قد تقدمه على العادة ليخدمه. فيجده راجلا على باب الخيمة. فيمشى بين يديه إلى سرير الملك فينزل ويجلس على المرتبة المنصوبة فيه. ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم، ويوضع للوزير الكرسى الجارى به عادته فيجلس عليه ورجلاه تحك الأرض، ويقف أرباب الرتب صافين من ناحية سرير الملك إلى ناحية الخيمة والقراء يقرءون القرآن ساعة زمانية فإذا ختموا قراءتهم استأذن صاحب الباب على حضور الشعراء للخدمة بما يطلق هذا اليوم. فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد، ولهم منازل على مقدار أقدارهم. فالواحد يتقدم الواحد بخطوة فى الإنشاد، وهو أمر معروف عند مستخدم يقال له النائب، وتقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشأ قصيدة منها:

فتح الخليج فسال منه الماء

وعلت عليـــه الراية البيضاء

فصفت موارده لنـــا فكأنه

كـف الإمام فعرفها الإعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله فسال منه الماء، وقالوا أى شيء يخرج من البحر غير الماء. فضيع ما قاله بعد هذا المطلع، وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير وأنشد:

مازال هذا الســـد ينظر فتحه

إذن الخليفة بالنوال المرســل

حتى إذا برز الإمـــام بوجهه

وسطا عليه كل حامل معول

فجرى كأن قد ديف فيه عنبر

يعـــلوه كافور بطيب المندل

فانتقدوا عليه أيضا قوله فى البيت الثانى. وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه وإن كان قصد فتح السد بالمعاول. لكنه ما نظمه إلا قلقا، ثم تقدم له شاعر شاهد يقال له كافى الدولة أبو العباس أحمد، وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضى الاثير بن سنان. فإنه عملها بحضوره بديها:

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد

للنيل أم لك يا بن بنت محمد؟

أم لاجتماعكما معا فى موطن

وافيتما فيه لأصـــدق موعد؟

ليس اجتماع الخـلق إلا للذى

حـاز الفضيلة منكما فى المولد

شـــكروا لكل منكما لوفائه

بالسعى لكن ميلهم للأجـــود

ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعـــله

بالقصد ليس له كمن لم يقصد

هذا يفى ويعـــود ينقص تارة

وتسـد أنت النقص إن لم يردد

وقواه إن بلغ النهـاية قصرت

وإذا بلغت إلى النهاية تبتدى

فالآن قد ضاقت مسالك سعيه

بالســـد فهو به بحال مقيد

فإذا أردت صـلاحه فافتـح له

ليرى جنابا مخصـبا وترى ندى

وأمر بفصد العرق منه فما شكا

جسم فصح الجسم إن لم يفصد

واسلم إلى أمثال يومك هكذا

فى عيش مغبوط وعز مخـــلد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا وخلع عليه وزيد فى جاريه، ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا والوزير بين يديه حتى يطلع على المنظرة المعروفة بالسكرة وقد فرشت بالفرش المعدة لها. فيجلس فيها، ويتهيأ أيضا للوزير مكان يجلس فيه ويحيط بالسد حامى البساتين ومشارفها، لأنه من حقوق خدمتهما فتفتح إحدى طاقات المنظرة، ويطل منها الخليفة على الخليج، وطاقة تقاربها يتطلع منها أستاذ من الخواص ويشير بالفتح فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول، ويخدم بالطبل والبوق من البرين. فإذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت العشاريات اللطاف، ويقال لها السماويات وكأنها خدم بين يدى العشارى الذهبى المقدم ذكره ثم العشاريات الخاص الكبار هى ستة، الذهبى المذكور والفضى والأحمر والأصفر واللازوردى والصقلى، وكان أنشأه نجار من رؤساء الصناعة صقلى، وزاد فيه على الإنشاء المعتاد فنسب إليه، وهذه العشاريات لا تخرج عن خاص الخليفة فى أيام النيل وتحوله إلى اللؤلؤة للفرجة، وسارت فى الخليج وعلى بيت كل منها الستور الديبقى الملونة، وبرؤوسها وفى أعناقها الاهلة وقلائد من الخرز فتسند إلى البر الذى فيه المنظرة الجالس فيها الخليفة. فإذا استقر جلوس الخليفة والوزير بالمنظرة، ودخل قاضى القضاة والشهود الخيمة الديبقى البيضاء وصلت المائدة من القصر فى الجانب الغربى من الخليج على رؤوس الفراشين صحبة صاحب المائدة، وعدتها مائة شدة فى الطيافير الواسعة، وعليها القوارات الحرير وفوقها الطراحات، ولها رواء عظيم ومسك فائح، فتوضع فى خيمة واسعة منصوبة لذلك، ويحمل للوزير ما هو مستقر له بعادة جارية، ومن صوانى التماثيل المذكورة ثلاث

صوان، ويخصص منها أيضـا لأولاده وإخوته خارجا عن ذلك إكراما وافتقادا، ويحمـل إلى قاضى القضاة والشهود شدة من الطعام الخاص من غير تماثيل توقيرا للشرع، ويحمل إلى كل أمير فى خيمته شدة طعام وصينية تماثيل، ويصل من ذلك إلى الناس شىء كثير، ولا يزالون كذلك إلى أن يؤذن بالظهر، فيصلون ويقيمون إلى العصر، فإذا أذن به صلى وركب الموكب كله لانتظار ركوب الخليفة. فيركب لابسا غير البدنة بل بهيئته، والمظلة مناسبة لثيابه التى عليه، واليتيمة والترتيب بأجمعه على حاله، ويسير فى البر الغربى من الخليج شاقا البساتين هناك حتى يدخل من باب القنطرة إلى القصر والوزير تابعه على الرسم المعتاد و، يمر فيه للقوم أحسن الأيام ويمضى الوزير إلى داره مخدوما على العـادة.

وقال فى كتاب الذخائر والتحف إن المستعمل من الفضة قبة العشارى المعروف بالمقدم وقاربه وكسوة رحله فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة فى وزارة على بن أحمد الجرجراى مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم نقرة، وإن المطلق للصناع عن أجرة الصناعة وفى ثمن ذهب لطلائه خاصة ألفان وتسعمائة دينار وسبعون، وكانت الفضة فى ذلك الوقت كل مائة درهم بستة دنانير وربع سعر ستة عشر درهما بدينار، ولما تولى أبو سعيد سهل التسترى الوساطة سنة ست وثلاثين وأربعمائة استعمل لأم المستنصر عشاريا يعرف بالفضى، وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة ألف وثلاثون ألف درهم، ولزم ذلك أجرة الصناعة، ولطلاء بعضه ألفان وأربعمائة دينار سوى كسوة له بمال جليل، والمنفق على ستة وثلاثين عشاريا برسم النزه البحرية لآلاتها وجلاها من مناطق ورؤوس منجوقات وأهله وصفريات وغير ذلك أربعمائة ألف دينار، وكانت العادة عندهم إذا حصل وفاء النيل أن يكتب إلى العمال. فمما كتب من إنشاء تاج الرياصة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى.

أما بعد. فإن أحق ما وجبت به التهنئة والبشرى.. وغدت المسار منتشرة تتوالى وتترى.. وكان من اللطائف التى غمرت بالمنة العظمى، والنعمة الجسيمة الكبرى.. ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه.. وظلت النعمة به عامة لصامت الحيـوان

وناطقه . . وتلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره الله تعالى ، وله الحمد يوم كذا . فإن هذه العطية تؤدى إلى خصب البلاد وعمارتها . . وشمول المصالح وغزارتها . . وتفضى بتضاعف المنافع والخيرات . . وتكاثر الأرزاق والأقوات . . ويتساهم الفائدة فيها جميع العباد . . وتنتهى البركة بها إلى كل دان وناء ، وكل حاضر وباد . . فأذع هذه النعمة قبلك . . وانشرها فى كل من يتدبر عملك . . وحثهم على مواصلة الشكر لهذه الألطاف الشاملة لهم ولك . . فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى . . وكتب أيضا : إن أولى ماتضاعف به الابتهاج والجذل . . وانفتح فيه الرجاء واتسع الأمل . . ما عم نفعه صامت الحيوان وناطقه . . وأحدث لكل أحد اغتباطا لزمه وآلى ألا يفارقه . . وذلك ما من الله به من وفاء النيل المبارك . الذى تحيا به كل أرض موات . . وتكتسى بعد اقشعرارها حلة النبات . . ويكون سببا لتوافر الأقوات . . فإنه وفى المقدار الذى يحتاج إليه ، فلتذع هذه المنة فى القاصى والدانى . . لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر والتهانى . . إن شاء الله تعالى . . وكتب أيضا : من لطف الله الواجب حمده اللازم شكره . . وفضله الذى لا يمل بشره ولا يسأم ذكره . . ومنه الذى استبشر به الأنام . . وتضاعف فيه الانعام . . ومثل الله الحياة به فى قوله تعالى ﴿ **إنما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام** ﴾(*) . . أمر النيل المبارك الذى يعم النجود والتهائم . . وتنتفع به الخلائق وترتع فيما يظهره البهائم . . وقد توجه إليك بهذا الكتاب بهذه البشرى فلان فأجره على رسمه فى إظهاره مجملا . . وإيصاله إلى رسمه مكملا . . وإذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها . . ويبالغوا فى الشكر لله سبحانه وتعالى بمقتضاها وعلى حسبها . . فاعلم ذلك واعمل به إن شاء الله .

(*) ١٠ ك يونس آية ٢٤ .

«منظرة الدكة»

وكان من جملة مناظر الخلفاء الفاطميين منظرة تعرف بالدكة لها بستان عظيم بجوار المقس، فيما بينه وبين أراضى اللوق، ومازالت باقية حتى زالت الدولة، وحكر مكان البستان وصار خطة تعرف إلى اليوم بخط الدكة، فخربت المنظرة وزال أثرها قال ابن عبد الظاهر: الدكة بالمقس كانت بستانا، وكان الخليفة إذا ركب من كسر الخليج من السكرة بمظلته يسير فى البر الغربى ومضارب الناس والأمراء وخيمهم عن يمينه وشماله إلى أن يصل إلى هذا البستان المعروف بالدكة، وقد غلقت أبوابه ودهاليزه فيدخل إليه بمفرده ويسقى منه الفرس الذى تحته وهى قضية ذكر المؤرخ للسيرة المأمونية أنهم كانوا يعتمدونها إلى آخر وقت، ولم يعلم سببها، ثم يخرج ويسير إلى أن يقف على الترعة الآتى ذكرها، ويدخل من باب القنطرة، وينزل إلى القصر والدكة الآن آدروحارات شهرتها تغنى عن وصفها، فسبحان من لا يتغير.

وقال ابن الطوير عن الظاهر لإعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله: كان بمنظرة يقال لها الدكة بساحل المقس. يعنى أنه مات بها.

«منظرة المقس»

وكان من جملة مناظرهم أيضا منظرة بجوار جامع المقس الذى تسميه العامة اليوم جامع المقسي، وكانت هذه المنظرة بحرى الجامع المذكور، وهى مطلة على النيل الأعظم، وكان حينئذ ساحل النيل بالمقس، وكانت هذه المنظرة معدة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول إلى غزو الفرنج. فتحضر رؤساء المراكب بالشوانى وهى مزينة بأنواع العدد والسلاح، ويعلون بها فى النيل حيث الآن الخليج الناصرى تجاه الجامع وما وراء الخليج من غربيه قال ابن المأمون وذكر تجهيز

العساكر فى البر عند ورود كتب صاحبى دمشق وجلب فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ما يحث على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك وركب الخليفة الآمر بأحكام الله وتوجه إلى الجامع بالمقس وجلس بالمنظرة فى أعلاه واستدعى مقدم الأسطول الثانى وخلع عليه وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة واعتمد ما جرت العادة به من الانعام عليهم وعاد الخليفة إلى البستان المعروف بالبعل إلى آخر النهار وتوجه إلى قصره بعد تفرقة جميع الرسوم والصدقات والهبات الجارى بها العادة فى الركوبات .

وقال ابن الطوير فإذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير إلى ساحل المقس وكان هناك على شاطيء البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه يعنى الاسطول ولقائه إذا عاد فإذا جلس هو والوزير للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر إلى هناك للحركات فى البحر بين يديه وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل فى لقاء العدو بالبحر الملح ويحضر بين يدى الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ويعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينارا وتنحدر إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة ، فإذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح ، وما عدا ذلك فللأسطول ، واتفق مرة أن قدم على الأسطول سيف الملك الجمل فكسب بطشة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال ، وقتل منهم نحوا من مائة وعشرين رجلا وحضر إلى القاهرة ، ففرح الخليفة وركب إلى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم ، وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البر ، فاستدعيت الجمال لركوبهم وشق بهم القاهرة ، مصر وهم كل اثنين على جمل ظهرا لظهر ، وعاد الخليفة إلى القصر فجلس فى إحدى مناظره لنظرهم فى جوازهم . فلما عادوا بهم من مصر صاروا بهم إلى المناخات ، فصح منهم ألف رجل فانضافوا إلى من فى المناخ ، وأماالنساء والصبيان فإنهم دخلوا بهم إلى القصر بعد أن حمل منهم للوزير نصيب وافر ، وأخذ الجهات والأقارب بقيتهن ، فيستخدمونهن ويعلمونهن الصنائع ، ويتولى الأستاذون تربية الصبيان وتعليمهم الخط والرماية ، ويقال لهم الترابى ومن استريب به ، من

الأسرى ونبه عليه بقوة أوقع به والشيخ الذى لا ينتفع به يمضى فيه حكم السيف بمكان يقال له بئر المنامة فى الخراب قريب مصر، ولم يسمع على الدولة قط أنها فادت أسيرا بمال ولا بأسير مثله وهذا الحال فى كل سنة آخذة فى الزيادة لا النقص، وقدم على الأسطول مرة أمير يقال له حرب بن فور صاحب الحاجب لؤلؤ. فكسب بطشة حصل فيها خمسمائة رجل. انتهي، وقد خربت هذه المنظرة، وكان موضعها برج كبير صار يعرف فى الدولة الأيوبية بقلعة المقس مشرف على النيل. فلما جدد الصاحب الوزير شمس الدين عبد الله المقسى جامع المقس على ما هو عليه الآن فى سنة سبعين وسبعمائة هدم هذا البرج، وجعل مكانه جنينة شرقى الجامع، وتحدث الناس أنه وجد فيه مالا والله أعلم.

«منظرة البعل»

وكان من مناظرهم بظاهر القاهرة منظرة فى بستان أنيق يعرف بالبعل أنشأه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، وموضع هذا البستان إلى اليوم يعرف بالبعل، وصارت أرضه مزرعة فى جانب الخليج الغربى بحرى أرض الطبالة فى كوم الريش مقابل قناطر الاوز، وقد خربت المنظرة، وبقى منها آثار أدركتها يعطن بها الكتان تدل على عظمها وجلالتها فى حال عمارتها، وكانت منظرة البعل من أجل منتزهاتهم، وكان لهم بهاأوقات عميمة المبرات جليلة الخيرات.

قال ابن المأمون: فأما يوم السبت والثلاثاء فيكون ركوب الوزير من داره بالرهجية ويتوجه إلى القصر فيركب الخليفة إلى ضواحى القاهرة للنزهة فى مثل الروضة والمشتهى ودار الملك والتاج والبعل وقبة الهواء والخمسة وجوه والبستان الكبير، وكان لكل منظرة منهن فرش معلوم مستقر فيها من الأيام الأفضلية للصيف والشتاء، وتفرق الرسوم، ويسلم لمقدمى الركاب اليمين والشمال لكل واحد عشرون دينارا وخمسون رباعيا، ولتالى مقدم الركاب اليمين مائة كاغدة فى كل كاغدة ثلاثة دراهم، ومائة كاغدة فى كل كاغدة

درهمان، ولتالى مقدم الشمال مثل ذلك. فأما الدنانير. فلكل باب يخرج منه من البلد دينار، ولكل باب يدخل منه دينار، ولكل جامع يجتاز عليه دينار، ما خلا جامع مصر فإن رسمه خمسة دنانير، ولكل مسجد يجتاز عليه رباعي، ولكل من يقف ويتلو القرآن كاغدة، والفقراء والمساكين من الرجال والنساء لكل من يقف كاغدة، ولكل من يركب الخليفة ديناران، ويكون مع هذا متولى صناديق الإنفاق يحجب الخليفة وبيده خريطة ديباج فيها خمسمائة دينار لما عساه يؤمر به. فإذا حصل فى إحدى المناظر المذكورة فرق من العين ما مبلغه سبعة وخمسون دينارا، ومن الرباعية مائة وستة وثمانون دينارا للحواشى والأستاذين وأصحاب الدواوين والشعراء والمؤذنين والمقرئين والمنجمين وغيرهم، ومن الخراف الشواء خمسون رأسا منها طبقان حارة مكملة مشورة برسم المائدة الخاص مضافا لما يحضر من القصور من الموائد الخاص والحلاوات، وطبق واحد برسم مائدة الوزير، وبقية ذلك بأسماء أربابه ورأسا بقر برسم الهرائس. فإذا جلس الخليفة على المائدة استدعى الوزير وخواصه ومن جرت العادة بجلوسه معه، ومن تأخر عن المائدة ممن جرت عادته بحضورها حمل إليه من بين يدى الخليفة على سبيل التشريف، وعند عود الخليفة إلى القصر يحاسب متولى الدفتر مقدمى الركاب على ما أنفق عليه فى مسافة الطريق من جامع ومسجد وباب ودابة، وأما تفرقة الصدقات فهم فيها على حكم الأمانة. قال وإذا وقع الركوب إلى الميادين جرى الحال فيها على الرسم المستقر من الإنعام، ويؤمر متولى خزائن الخاص وصناديق الإنفاق أن يكون معه خريطة فى السرج ديباج تسمى خريطة الموكب فيها ألف دينار معدة لمن يؤمر بالإنعام عليه فى حال الركوب.

«منظرة التاج»

هى من جملة المناظر التى كانت الخلفاء تنزلها للنزهة. بناها الأفضل ابن أمير الجيوش، وكان لها فرش معد لها للشتاء والصيف، وقد خربت ولم يبق لها سوى أثر كوم توجد تحته الحجارة الكبار، وما حول هذا الكوم صار مزارع من جملة أراضى منية الشيرج. قال ابن

عبد الظاهر : وأما التاج فكان حوله البساتين عدة ، وأعظم ما كان حوله قبة الهواء وبعدها الخمس وجوه التى هى باقية .

«منظرة الخمس وجوه»

كانت أيضا من مناظرهم التى يتنزهون فيها ، وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ، وكان لها فرش معد لها ، وبقى منها آثار بناء جليل على بئر متسعة . كان بها خمسة أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان العظيم الوصف . البديع الزي . البهيج الهيئة ، والعامة تقول : التاج والسبع وجوه إلى الآن ، وموضعها إلى وقتنا هذا من أعظم متفرجات القاهرة ، وينبت هناك فى أيام النيل عندما يعم تلك الأراضى البشنين فتفتن رؤيته وتبهج النفوس نضارته وزينته . فإذا نضب ماء النيل زرعت تلك البسطة قرطا وكتانا يقصر الوصف عن تعداد حسنه ، وأدركت حول الخمس وجوه غروسا من نخل وغيره تشبه أن تكون من بقايا البستان القديم ، وقد تلاشت الآن ، ثم إن السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى جدد عمارة منظرة فوق الخمس وجوه ابتدأ بناءها فى يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة .

«منظرة باب الفتوح»

وكان للخلفاء الفاطميين منظرة خارج باب الفتوح ، وكان يومئذ ما خرج عن باب الفتوح براحا فيما بين الباب وبين البساتين الجيوشية ، وكانت هذه المنظرة معدة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكر ووداعها إذا سارت فى البر إلى البلاد الشامية . قال ابن المأمون : وفى هذا الشهرا يعنى المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة وصلت رسل ظهير الدين طفدكين صاحب دمشق وآق سنقر صاحب حلب بكتب إلى الخليفة الآمر بأحكام الله ،

وإلى الوزير المأمون ، إلى القصر ، فاستدعوا لتقبيل الأرض كما جرت العادة من إظهار التجمل ، وكان مضمون الكتب بعد التصدير والتعظيم والسؤال والضراعة أن الأخبار تظافرت بقلة الفرنج بالأعمال الفلسطينية والثغور الساحلية ، وأن الفرصة قد أمكنت فيهم ، والله قد أذن بهلاكهم ، وأنهم ينتظرون ، انعام الدولة العلوية وعوايد أفضالها ، ويستنصرون بقوتها ويحثون على نصرة الإسلام وقطع دابر الكفر ، وتجهيز العساكر المنصورة والأساطيل المظفرة والمساعدة على التوجه نحوهم لئلا يتواصل مددهم ، وتعود إلى القوة شوكتهم. فقوى العزم على النفقة فى العساكر فارسها وراجلها وتجريدها وتقدم إلى الأزمة بإحضار الرجال الأقوياء ، وابتديء بالنفقة فى الفرسان بين يدى الخليفة فى قاعة الذهب ، وأحضر الوزانون وصناديق المال وأفرغت الأكياس على البساط ، واستمر الحال بعد ذلك فى الدار المأمونية ، وتردد الرأى فيمن يتقدم فوقع الاتفاق على حسام الملك البرني ، وأحضر مقدم الأساطيل الثانية ، لأن الأساطيل توجهت فى الغزو وخلع عليه ، وأمر بأن ينزل إلى الصناعتين بمصر والجزيرة وينفق فى أربعين شينيا ، ويكمل نفقاتها وعددها ، ويكون التوجه بها صحبة العسكر وأنفق فى عشرين من الأمراء للتوجه صحبته فكملت النفقة فى الفارس والراجل وفى الأمراء السائرين ، وفى الأطباء والمؤذنين والقراء ، وندب من الحجاب عدة ، وجعل لكل منهم خدمة ، فمنهم من يتولى خزانة الخيام ، وسير معه من حاصل الخزائن برسم ضعفاء العسكر ومن لا يقدر على خيمة خيم ، ومنهم حاجب على خزائن السلاح وأنفق فى عدة من كتاب ديوان الجيش لعرض العساكر ، وفى كتاب العربان ، وأحضر مقدمو الحراسين بالخفار ، وتقدم إليها بأنه من تأخر عن العرض بعسقلان وقبض النفقة فلا واجب له ولا إقطاع ، وكتبت الكتب إلى المستخدمين بالثغور الثلاثة ، الإسكندرية ودمياط وعسقلان بإطلاق وابتياع ما يستدعى برسم الأسمطة على ثغر عسقلان للعساكر والعربان من الأصناف والغلال ووقع الاهتمام بنجاز أمر الرسل الواصلين وكتبت الأجوبة عن كتبهم ، وجهز المال والخلع المذهبات والأطواق والسيوف والمناطق الذهب والخيل بالمراكب الحلى الثقال وغير ذلك من التجملات ، وخلع على الرسل وأطلق لهم التغيير ، وسلمت إليهم الكتب والتذاكر ، وتوجهوا صحبة العسكر ،

وركب الخليفة الآمر بأحكام الله إلى باب الفتوح، ونظر بالمنظرة واستدعى حسام الملك، وخلع عليه بدلة جليلة مذهبة، وطوقه بطوق ذهب، وقلده ومنطقه بمثل ذلك، ثم قال الوزير المأمون للأمراء بحيث يسمع الخليفة: هذا الأمير مقدمكم ومقدم العساكر كلها، وما وعد به أنجزته وما قرره أمضيته. فقبلوا الأرض وخرجوا من بين يديه، وسلم متولى بيت المال وخزائن الكسوة لحسام الملك الكتب بما ضمنته الصناديق من المال وأعدال الكسوات وحملت قدامه، وفتحت طاقات المنظرة فلما شاهد العساكر الخليفة قبلوا الأرض فأشار إليهم بالتوجه. فساروا بأجمعهم، وركب الخليفة وتوجه إلى الجامع بالمقس، وجلس بالمنظرة واستدعى مقدم الأسطول وخلع عليه وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعـــــدة.

«منظرة الصناعة»

وكان من جملة مناظر الخلفاء منظرة بالصناعة فى الساحل القديم من مصر، يجلس بها الخليفة تارة حتى تقدم له العشاريات فيركبها ويسير للمقياس حتى يخلق بين يديه عند الوفاء، وكان بهذه الصناعة ديوان العمائر، وأنشأ هذه المنظرة والصناعة التى هى فيها الوزير المأمون، ولم تزل إلى آخر الدولة ودهليزها مادّ بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى بسطا وتأزيرا، وقد خربت هذه الصناعة والمنظرة وصار موضعهما الآن بستانا كان يعرف ببستان ابن كيسان، ويعرف فى زمننا هذا الذى نحن فيه الآن ببستان الطواشي، وهو بأول مراغة مصر تجاه غيط الجرف على يسرة من يسلك من المراغة يريد الكبارة وباب مصر. قال ابن المأمون: وكانت جميع مراكب الأساطين ما تنشأ إلا بالصناعة التى بالجزيرة. فأنكر الوزير المأمون ذلك، وأمر بأن يكون إنشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر، وأضاف إليها دار الزبيب، وأنشأ المنظرة بها، واسمه باق إلى الآن عليها، وقصد بذلك أن يكون حلول الخليفة يوم تقدمة الأساطيل ورميها بالمنظرة المذكورة، وأن

يكون ما ينشأ من الجرانى والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة. قال: ولما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير إلى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما، ثم عديا فى إحداها إلى المقياس، وقال ابن الطوير: الخدمة فى ديوان الجهاد، ويقال له ديوان العمائر، وكان محله بصناعة الإنشاء بمصر للأسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والأحطاب وغيرها، وكانت تزيد على خمسين عشاريا، ويليها عشرون ديماسا منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها، ولكل منها رئيس ونواتى لا يبرحون ينفق فيهم من مال هذا الديوان، وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الأعمال المميزة. فهى تجر لهم، وينفق فى رؤسائها ورجالها أينما كانوا من مال هذا الديوان، وتقيم مع أحدهم مدة مقامه فإذا صرف عاد فيه، وخرج المتولى الجديد فى العشارى المرسى بالصناعة، ولا يخرج إلا بتوقيع بإطلاقه والإنفاق فيه وللمشارفين بالأعمال عشاريات دون هذه، وفى هذا الديوان برسم خدمة ما يجرى فى الأساطيل نائبان من قبل مقدم الأسطول، وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شيء كثير، وإذا لم يف ارتفاعه بما يحتاج إليه استدعى له من بيت المال ما يسد خلله. قال: وكان من أهم أمورهم احتفالهم بالأساطيل والأجناد ومواصلة إنشاء المراكب بمصر والإسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم. مثل صور وعكا وعسقلان، وكانت جريدة قواده أكثر من خمسة آلاف مدونة. منهم عشرة أعيان تصل جامكية كل منهم إلى عشرين دينارا، ثم إلى خمسة عشر، ثم إلى عشرة دنانير، ثم إلى ثمانية، ثم إلى دينارين وهى أقلها، ولهم إقطاعات تعرف بأبواب الغزاة بما فيه من النطرون، فيصل دينارهم بالمناسبة إلى نصف دينار وحواليه، ويعين من هؤلاء القواد العشرة من يقع الإجماع عليه لرياسة الأسطول المتوجه للغزو. فيكون معه الفانوس، وكلهم يهتدون به ويقلعون بإقلاعه ويرسون بإرسائه، ويقدم على الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جنانا، ويتولى النفقة فيهم للغزو الخليفة بنفسه بحضور الوزير. فإذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة، وكانت آخر وقت تزيد على خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالة، فيتقدم إلى

النقباء بإحضار الرجال، ويسمع بذلك من هو خارج مصر والقاهرة. فيدخل إليها ولهم المشاهرة والجرايات المتقررة مدة أيام السفر، وهم معروفون عند عشرين نقيبا، ولا يعترض أحد أحدا إلا من رغب فى ذلك من نفسه. فإذا اجتمعت العدة المغلقة للمراكب المطلوبة أعلم المقدم بذلك الوزير. فطالع الخليفة بالحال وفرز يوم للنفقة فحضر الوزير بالاستدعاء على العادة. فيجلس الخليفة على هيئته فى المجلس، ويجلس الوزير فى مكانه ويحضر صاحبا ديوان الجيش، وهما المستوفى وهو أميرهما، ويجلس داخل عتبة المجلس، وهذه رتبة له مميزة، وكاتب الجيس الأصل، ويجلس بجانبه تحت العتبة على حصر مفروشة بالقاعة، ولا يخلو المستوفى أن يكون عدلا أو من أعيان الكتاب المسلمين، وأما كاتب الجيش فيهودى فى الأغلب، ويفرش أمام المجلس أنطاع تصب عليها الدراهم ويحضر الوزانون بيت المال لذلك. فإذا تهيأ الإنفاق أدخل القابضون مائة مائة، ويقفون فى آخر الوقوف بين يدى الخليفة من جانب واحد نقابة نقابة، وتكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة، ويستدعى مستوفى الجيش من تلك الأوراق واحدا واحدا. فإذا خرج اسمه عبر من الجانب الذى هو فيه إلى الجانب الخالى فإذا تكمل عشرة رجال وزن الوزانون لهم النفقة، وكانت لكل واحد خمسة دنانير. صرف كل دينار ستة وثلاثون درهما فيتسلمها النقيب وتكتب بيده وباسمه، وتمضى النفقة كذلك إلى آخرها. فإذا تم ذلك اليوم ركب الوزير من بين يدى الخليفة وانفض ذلك الجمع، فيحمل من عند الخليفة مائدة يقال لها غداء الوزير، وهى سبع مجيفات أوساط. احداها بلحم دجاج وفستق والبقية من شواء، وهى مكمورة بالأزهار. فتكون هذه عدة أيام. تارة متوالية وتارة متفرقة. فإذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب، وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير إلى ساحل المقس وذكر ابن أبى طى أن المعز لدين الله أنشأ ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مدينة، وعمل دار صناعة بالمقس.

«دار الملك»

وكان من جملة مناظرهم دار الملك بمصر، وهى من إنشاء الأفضل ابن أمير الجيوش. ابتدأ فى بنائها وإنشائها فى سنة إحدى وخمسمائة. فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر. فصارت بها وجعل فيها الأسمطة، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه. فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة منتزهات الخلفاء، وكان بها بستان عظيم، ومازالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة فجعلها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب دار متجر، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة، وموضع دار الملك ما وراء حبة الخروب بجوار المدرسة المعزية، وبقى منها جدار يجلس تحته بياعوا الحناء.

قال ابن المأمون: ومن جملة ما قرره القائد أبو عبد الله من تعظيم المملكة وتفخيم أمر السلطنة، أن المجلس الذى يجلس فيه الأفضل بدار الملك يسمى مجلس العطايا. فقال القائد مجلس يدعى بهذا الاسم ما يشاهد فيه دينار يدفع لمن يسأل، وأمر بتفصيل ثمان ظروف ديباج أطلس. من كل لون اثنين وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار، فى كل ظرف خمسة آلاف دينار وسكب وبطاقة بوزنه وعدده وشرابة حرير كبيرة، من ذلك ستة ظروف دنانير بالسوية عن اليمين والشمال فى مجلس العطايا الذى برسم الجلوس، وعند مرتبة الأفضل الأفضل بقاعة اللؤلؤة ظرفان. أحدهما دنانير، والآخر دراهم جدد. فالذى فى اللؤلؤة برسم ما يستدعيه الأفضل إذا كان عند الحرم، وأما الذى فى مجلس العطايا فإن جميع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف، وكذلك من يتضرع ويسأل فى طلب صدقة، أو ينعم عليه ابتداء بغير سؤال يخرج ذلك من الظروف. وإذا انصرف الحاضرون نزل القائد المبلغ بخطه فى البطاقة، ويكتب عليه الأفضل بخطه صح، ويعاد إلى الظرف ويختم عليه. فلما استهل رجب من سنة اثنتى عشرة وخمسمائة،

وجلس الأفضل فى مجلس العطايا على عادته، وحضر الأجل المظفر أخوه للهناء، وجلس بين يديه وشاهد الظروف، والقائد وولده وأخوه قيام على رأسه، وتقدمت الشعراء على طبقاتهم أمر لكل منهم بجائزة وشاع خبر الظروف وكثر القول فيها، واستعظم أمرها وضوعف مبلغها، واتسع هذا الانعام بالصدقات الجارى بها العادة فى مثل هذا الشهر لفقهاء مصر والرباطات بالقرافة وفقرائها.

وقال ابن الطوير: وقد ذكر ركوب الخليفة فى أول العام وحضور الغرة وينقطع الركوب بعد هذا اليوم الذى هو أول العام فيركبون فى آحاد الأيام إلى أن يكمل شهر، ولا يتعدى ذلك يومى السبت والثلاثاء، فإذا عزم الخليفة على الركوب فى أحد هذه الأيام أعلم بذلك، وعلامته إنفاق الأسلحة فى صبيان الركاب من خزانة السلاح خاصة دون ما سواها، وأكثر ذلك إلى مصر. ويركب الوزير صحبته من ورائه على أخصر من النظام المتقدم - يعنى فى ركوب أول العام وأقل جمع. فيخرج شاقا القاهرة وشوارعها على الجامع الطولونى على المشاهد إلى درب الصفاء، ويقال له الشارع الأعظم إلى دار الأنماط إلى الجامع العتيق. فإذا وصل إلى بابه وجد الشريف الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب مفروشة بحصر معلق عليها سجادة، وفى يده المصحف المنسوب خطه إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو من حاصله. فإذا وازاه وقف فى موضعه وناوله المصحف من يده فيتسلمه منه ويقبله ويتبرك به مرارا، ويعطيه صاحب الخريطة المرسومة للصلات ثلاثين دينارا، وهى رسمه متى اجتاز به، فيوصلها الشريف إلى مشارف الجامع فيكون نصيبهما منها خمسة عشر دينارا، والباقى للقومة والمؤذنين دون غيرهم، ويسير إلى أن يصل دار الملك فينزلها والوزير معه، ومنذ يخرج من باب القصر إلى أن يصل إلى دار الملك لا يمر بمسجد إلا أعطى قيمه من الخريطة دينارا، فلا يزال بدار الملك نهاره فتأتيه المائدة من القصر، وعدتها خمسون شدة على رؤوس الفراشين مع صاحب المائدة، وهو أستاذ جليل غير محنك، وكل شدة فيها طيفور فيها الأوانى الخاص، وفيها من الأطعمة الخاص من كل نوع شهى وكل صنف من المطاعم العالية، ولها رواء ورائحة المسك فائحة منها وعلى كل شدة طرحة حرير تعلو القوارة التى هى الشدة فيحمل إلى الوزير منها جزء وافر، ولمن

صحبه وللأمراء ولكافة الحاضرين فى الخدمة، ويصل منها إلى الناس بمصر من بعضهم بعضا شيء كثير، ولا يزال إلى أن يؤذن عليه بالعصر فيصلي، ويتحرك إلى العود إلى القاهرة والناس فى طريقه لنظره، فيركب وزيه فى هذه الأيام أنه يلبس الثياب المذهبة البياض والملونة والمنديل من النسبة، وهو مشدود شدة مفردة عن شدات الناس، وذؤابته مرخاة من جانبه الأيسر، ويتقلد بالسيف العربى المجوهر بغير حنك ولا مظلة ولا يتيمة. فإن ذلك فى أوقات مخصوصة، ولا يمر أيضا بمسجد فى سلوكه فى هذه الطريق بالساحل إلا ويعطى قيمه دينارا أيضا. كما جرى فى الرواح، وينعطف من باب الخرق، ويدخل من باب زويلة شاقا القاهرة حتى يدخل القصر. فيكون ذلك من المحرم إلى شهر رمضان إما أربع مرات أو خمس مرات، ومن شعر الأسعد أسعد بن مهذب بن زكريا بن أبى مليح مما فى دار الملك هذه:

حللت بدارالملك والنيل آخذ

بأطرافها والموج يوسعها ضربا

فخيلته قد غار لما وطئتها

عليها فأضحى عند ذلك لها حربا

«منازل العز»

بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز، ولم يكن بمصر أحسن منها، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها شيء عن نظره، ومازال الخلفاء من بعد المعز يتداولونها، وكانت معدة لنزهتهم وكان بجوارها حمام، ولها منها باب، وموضعها الآن مدرسة تعرف بالمدرسة التقوية منسوبة للملك المظفر تقيّ الدين عمرو بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادي.

«الهودج»

وكان من منتزهاتهم العظيمة البناء العجيبة البديعة الزى بناء فى جزيرة الفسطاط، التى تعرف اليوم بالروضة. يقال له الهودج بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية التى غلب عليه حبها بجوار البستان المختار، وكان يتردد إليه كثيرا، وقتل وهو متوجه إليه ومازال منتزها للخفاء من بعده. قال ابن سعيد فى كتاب المحلى بالاشعار: قال القرطبى فى تاريخه تذاكر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر حتى صارت رواياتهم فى هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك. والاختصار منه أن يقال إن الآمر كان قد بلى بعشق الجوارى العربيات، وصارت له عيون بالبوادى فبلغه أن جارية بالصعيد من أكمل العرب وأظرفهم. شاعرة جميلة. فيقال إنه تزيا بزى بداة الأعراف وكان يجول فى الأحياء إلى أن انتهى إلى حيها، وبات هناك فى ضائفة، وتحيل حتى عاينها هنالك. فما ملك صبره ورجع إلى مقر ملكه وأرسل إلى أهلها يخطبها وتزوجها، فلما وصلت صعب عليها مفارقة ما اعتادته وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة. فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج، وكان غريب الشكل على شط النيل، وبقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح فكتبت إليه من قصر الآمر:

يا ابن مياح إليك المشتكي

مالك من بعـدكم قد ملكا

كنت فى حيي مطاعا آمرا

نائلا ما شئت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مرصـــد

لا أرى إلا خبيثا ممســـكا

كم انثنينا كأغصـان اللوا

حيث لانخشى علينا دركا

فأجابها :

بنت عمى والتى غذيته

بالهوى حتى علا واحتبكا

بحت بالشكوى وعندى ضعفها

لو غدا ينفع منا المشتكي

مالك الأمر إليـه أشـــــتكي

مالك وهو الذى قد ملكا

قال وللناس فى طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول، وكان من عرب طيّ فى قصر الآمر طراد بن مهلهل السنبسى فبلغته هذه القضية فقال:

ألا بلغوا الآمـر المصـطفي

مقـــال طـراد ونعـم المقـال

قطعت الإلفــين عن ألفة

بهـا سمر الحى بين الرجـــال

كذلك كان آباؤك الأكرمون

سألت فقل لى جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الأبيات جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله، وطلب فى أحياء العرب فلم يوجد، فقالت العرب ما أخسر صفقة طراد باع أبيات الحى بثلاثة أبيات، وكان بالإسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد له مروءات عظيمة، ويحتذى أفعال البرامكة، وللشعراء فيه أمداح كثيرة. مدحه ظافر الحداد وأمية بن أبى الصلت وغيرهما، وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام، وهو قطعة واحدة وينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره، وكان يجد فى نفسه

برؤيته زيادة على أهل التنعم والمباهاة فى عصره. فوشى به للبدوية محبوبة الآمر. فسألت الخليفة الآمر فى حمل الجرن إليها فأرسل إلى ابن حديد بإحضار الجرن، فلم يجد بدا من حمله من البستان فلما صار إلى الآمر أمر بعمله فى الهودج. فقلق ابن حديد وصارت فى قلبه حرارة من أخذ الجرن. فأخذ يخدم البدوية ومن يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة حتى قالت البدوية: هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا. فلما قيل له هذا القول عنها قال: ما لى حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها. وطول حياتها فى عز غير رد الفسقية التى قلعت من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمتهم ترد إلى مكانها فتعجبت من ذلك وردتها عليه. فقيل له: حصلت فى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب فنزلت همتك إلى قطعة حجر. فقال أنا أعرف بنفسى ما كان لها أمل سوى ألا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه، وقد بلغها الله أملها، وكان هذا المكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها فى أيام الآمر وبلغ من علو همته وعظم مروءاته أن سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحى لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية فى سنة سبع عشرة وخمسمائة، وأضاف إليه الأعمال البحرية ووصل إلى الثغر ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور. فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضى إلى داره لإحضار دهن شمع. فما كان أكثر من مسافة الطريق إلا أن أحضر حقا مختوما فك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر. بيت دهن بمسك. وبيت دهن بكافور. وبيت دهن بغير طيب ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته. فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته. فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر إنعامه وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه. فكان جواب المؤتمن: قد قبلته منك لا لحاجة إليه ولا لنظر فى قيمته بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها، وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار. فانظر رحمك الله إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار. ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه البتة. فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات، وهذا إنما هو حال قاضى الاسكندرية ومن قاضى الاسكندرية،

بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة؟ وما نسبة أعيان الدولة وإن عظمت أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبهتها إلا يسير حقير، ومازال الخليفة الآمر يتردد إلى الهودج المذكور إلى أن ركب يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة يريد الهودج، وقد كمن له عدة من النزارية فى فرن عند رأس الجسر من ناحية الروضة فوثبوا عليه وأثخنوه بالجراحة حتى هلك، وحمل فى العشارى إلى اللؤلؤة فمات بها، وقيل قبل أن يصل إليها. وقد خرب هذا الهودج، وجهل مكانه من الروضة ولله عاقبة الأمور.

«قصر القرافة»

وكان لهم بالقرافة قصر بنته السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز فى سنة ست وستين وثلاثمائة على يد الحسين بن عبد العزيز الفارسى المحتسب. هو والحمام الذى فى غربيه، وبنت البئر والبستان وجامع القرافة، وكان هذا القصر نزهة من النزه من أحسن الآثار فى إتقان بنيانه وصحة أركانه، وله منظرة مليحة كبيرة محمولة على قبو ماد تجوز المارة من تحته، ويقيل المسافرون فى أيام القيظ هناك، ويركب الراكب إليه على زلاقة، وكان كأحسن ما يكون من البناء وتحته حوض لسقى الدواب يوم الحلول فيه، وكان مكانه بالقرب من مسجد الفتح، ولما كان فى سنة عشرين وأربعمائة جدده الخليفة الآمر، وعمل تحته مصطبة للصوفية، وكان يجلس فى الطاق بأعلى القصر، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم، والشموع الكثيرة تزهر، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومدت لهم الأسمطة التى عليها كل نوع لذيذ ولون شهى من الأطعمة والحلوى أصنافا مصنفة. فاتفق أن تواجد الشيخ أبو عبد الله بن الجوهرى الواعظ ومزق مرقصته، وفرقت على العادة خرقا، وسأل الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالقارح المقرى خرقة منها، ووضعها فى رأسه، فلما فرغ التمزيق قال الخليفة الآمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة: يا شيخ أبا اسحق. قال: لبيك يا مولانا. قال أين خرقتي؟ فقال

مجيبا له فى الحال ها هى على رأسى يا أمير المؤمنين . فاستحسن الآمر ذلك وأعجبه موقعه فأمر فى الساعة والوقت فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار فتخاطفها الحاضرون ، وتعاهد المغربلون الأرض التى هناك أياما لأخذ ما يواريه التراب ، وما برح قصر الأندلس بالقرافة حتى زالت الدولة فهدم فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وخمسمائة .

«المنظرة ببركة الحبش»

وكانت لهم منظرة تشرف على بركة الحبش . قال الشريف أبو عبد الله محمد الجوانى فى كتاب النقط على الخطط : إن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على المنظرة التى يقال لها بئر دكة الخركة منظرة من خشب مدهونة . فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش ، وصور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح وذكر الخركاة ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهب . فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرّة مختومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ففعلوا ذلك وأخذوا صررهم وكانوا عدة شعراء .

«البساتين»

وكان للخلفاء عدة بساتين يتنزهون بها . منها البساتين الجيوشية . وهما بستانان كبيران . أحدهما من عند زقاق الكحل خارج باب الفتوح إلى المطرية ، والآخر يمتد من خارج باب القنطرة إلى الخندق ، وكان لهما شأن عظيم ، ومن شدة غرام الأفضل بالبستان الذى كان

يجاور بستان البعل عمل له سورا مثل سور القاهرة، وعمل فيه بحرا كبيرا وقبة عشارى تحمل ثمانية أرادب، وبنى فى وسط البحر منظرة محمولة على أربع عواميد من أحسن الرخام وحفها بشجر النارنج، فكان نارنجها لا يقطع حتى يتساقط، وسلط على هذا البحر أربع سواق، وجعل له معبرا من نحاس مخروط زنته قنطار، وكان يملأ فى عدة أيام وجلب إليه من الطيور المسموعة شيئا كثيرا، واستخدم للحمام الذى كان به عدة مطيرين، وعمر به أبراجا عدة للحمام والطيور المسموعة، وسرح فيه كثيرا من الطاووس، وكان البستانان اللذان على يسار الخارج من باب الفتوح بينهما بستان الخنـــدق. لكل منهما أربعة أبواب من الأربع جهات. على كل منها عدة من الأرمن، وجميع الدهاليز مؤزرة بالحصر العبداني، وعلى أبوابها سلاسل كثيرة من حديد، ولا يدخل منها إلا السلطان وأولاده وأقـــاربه.

قال ابن عبد الظاهر: واتفقت جماعة على أن الذى يشتمل عليه مبيعهما فى السنة من زهر وثمر نيف وثلاثون ألف دينار، وأنها لا تقوم بمؤنهما على حكم اليقين لا الشك، وكان الحاصل بالبستان الكبير والمحصن إلى آخر الأيام الآمرية، وهى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ثمانمائة وأحد عشر رأسا من البقر، ومن الجمال مائة وثلاثة رؤوس، ومن العمال وغيرهم ألف رجل وذكر أن الذى دار سور البستانين من سنط وجميز وأثل من أول حدهما الشرقي، وهو ركن بركة الأرمن مع حدهما البحرى والغربى جميعا إلى آخر زقاق الكحل. فى هذه المسافة الطويلة سبعة عشر ألف ألف ومائتا سجرة، وبقى قبليهما جميعا لم يحصن، وأن السنط تغصن حتى ألحق بالجميز فى العظم وأن معظم قرطه يسقط إلى الطريق، فيأخذه الناس وبعد ذلك يباع بأربعمائة دينار، وكان به كل ثمرة لها دويرة مفردة وعليها سياج، وفيها نخل منقوش فى ألواح عليها برسم الخاص لا تجنى إلا بحضور المشارف، وكان فيهما ليمون تفاحى يؤكل بقشره بغير سكر، وأقام هذان البستانان بيد الورثة الجيوشية مع البلاد التى لهم مدة أيام الوزير المأمون لم تخرج عنهم، وكشف ذلك فى أيام الخليفة الحافظ فكان فيهما ستمائة رأس من البقر وثمانون جملا، وقوم ما عليهما من الأثل والجميز فكانت قيمته مائتى ألف دينار، وطلب الأمير شرف الدين وكانت له

حرمة عظيمة من الخليفة الحافظ قطع شجرة واحدة من سنط فأبى عليه، فتشفع إليه وقومت بسبعين دينارا فرسم الخليفة إن كانت وسط البستان تقطع وإلا فلا، ولما جرى فى آخر أيام الحافظ ما جرى من الخلف ذبحت أبقاره وجماله، ونهبت ما فيه من الآلات والأنقاض ولم يبق إلا الجميز والسنط والأثل لعدم من يشتريه. انتهي، وكان هذان البستانان من جملة الحبس الجيوشي، وهو أن أمير الجيوش بدر الجمالى حبس عدة بلاد وغيرها. منها فى البر الشرقى بناحية بهتيت والأميرية والمنية، وفى البر الغربى ناحية سفط ونهيا ورسيم مع هذين البستانين المذكورين على عقبه. فاستأجر هذا الحبس الوزراء مدة سنين بأجرة يسيرة، وصار يزرع فى الشرقى منه الكتان، ومنه ما تبلغ قطيعته ثلاثة دنانير ونصفا وربعا عن كل فدان. فيتناولون فيه ربحا جزيلا لأنفسهم، فلما بعد العهد انقرضت أعقابه ولم يبق من ذريته سوى امرأة كبيرة فأفتى الفقهاء بأن هذا الحبس باطل. فصار للديوان السلطانى يتصرف فيه، ويحمل متحصله مع أموال بيت المال وتلاشت البساتين، وبنى فى أماكنها ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالي، وبنى العزيز بالله بستانا بناحية سردوس.

«قبة الهواء»

وكان من أحسن متنزهات الخلفاء الفاطميين قبة الهواء، وهى مستشرف بهج بديع فيما بين التاج والخمس وجوه. يحيط به عدة بساتين. لكل بستان منها اسم، ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف، ويركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت والثلاثاء.

«بحر أبى المنجا»

وكان من منتزهات الخلفاء يوم فتح بحر أبى المنجا. قال ابن المأمون: وكان الماء لا يصل إلى الشرقية إلا من السردوسي، ومن الصماصم ومن المواضع البعيدة. فكان أكثرها يشرق

فى أكثر السنين، وكان أبو المنجا اليهودى مشارف الأعمال المذكورة فتضرر المزارعون إليه. وسألوا فى فتح ترعة يصل الماء منها فى ابتدائه إليهم. فابتدأ بحفر خليج أبى المنجا فى يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسمائة، وركب الأفضل ابن أمير الجيوش ضحي، وصحبته القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى وجميع إخوته، والعساكر تحاذيه فى البر، وجمعت شيوخ البلاد وأولادها، وركبوا فى المراكب ومعهم حزم البوص فى البحر. وصار العشارى والمراكب تتبعها إلى أن رماها الموج إلى الموضع الذى حفروا فيه البحر، وأقام الحفر فيه سنتين و، فى كل سنة تتبين الفائدة فيه، ويتضاعف من ارتفاع البلاد ما يهون الغرامة عليه.

ولما عرض على الأفضل جملة ما أنفق فيه استعظمه. وقال: غرمنا هذا المال جميعه، والاسم لأبى المنجا. فغير اسمه ودعى بالبحر الأفضلي، فلم يتم ذلك ولم يعرف إلا بأبى المنجا ثم جرى بين أبى المنجا وبين ابن أبى الليث صاحب الديوان بسبب الذى أنفق خطوب أدت إلى اعتقال أبى المنجا عدة سنين، ثم نفى إلى الاسكندرية بعد أن كادت نفسه تتلف، ولم يزل القائد أبو عبد الله بن فاتك يتلطف بحاله إلى تضاعف من عبرة البلاد ما سهل أمر النفقة فيه، ورأيت بخط ابن عبد الظاهر: وهذا أبو المنجا هو جد بنى صفير الحكماء اليهود، والذين أسلموا منهم، ولما طال اعتقال أبى المنجا فى الاسكندرية فى مكان بمفرده مضيقا عليه تحيل فى تحصيل مصحف، وكتب ختمة وكتب فى آخرها: كتبها أبو المنجا اليهودي، وبعثها إلى السوق ليبيعها. فقامت قيامة أهل الثغر، وطولع بأمره إلى الخليفة فأخرج، وقيل له ما حملك على هذا فقال: طلب الخلاص بالقتل فأدب وأطلق سبيله. وقيل إنه كان فى محبسه حية عظيمة. فأحضر إليه فى بعض الأيام لبن فرأى الحية وقد شربت منه ودخلت جحرها، فصار كل يوم يحضر لها لبنا فتخرج وتشرب منه وتدخل مكانها ولم تؤذه، ولما ولى المأمون البطائحى وزارة الآمر بأحكام الله بعد الأفضل بن أمير الجيوش تحدث الآمر معه فى رؤية فتح هذا الخليج، وأن يكون له يوم كخليج القاهرة. فندب الآمر معه عدى الملك أبا البركات بن عثمان وكيله، وأمره بأن يبنى على مكان السد منظرة متسعة تكون من بحرى السد، وشرع فى عمارتها بعد كمال النيل، ومازال يوم فتح

سد هذا البحر يوما مشهودا إلى أن زالت الدولة الفاطمية . فلما استولى بنو أيوب من بعدهم على مملكة مصر أجروا الحال فيه على ما كان قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وركب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لفتح بحر أبى المنجا وعاد . قال : وفى سنة تسعين وخمسمائة كسر بحر أبى المنجا بعد أن تأخر كسره عن عيد الصليب بسبعة أيام ، وكان ذلك لقصور النيل فى هذه السنة ، ولم يباشر السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين بنفسه وركب أخوه شرف الدين يعقوب الطواشى لكسره ، وبدت فى هذا اليوم من مخايل القبوط ما يوجبه سوء الأفعال من المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش ، وقد أفرط هذا الأمر ، واشترك فيه الآمر والمأمور ، ولم ينسلخ شهر رمضان إلا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله فى الإسلام ، وبدا عقاب الله فى الماء الذى كانت المعاصى على ظهره . فإن المراكب كان يركب فيها فى رمضان الرجال والنساء مختلطين مكشفات الوجوه وأيدى الرجال تنال منها وتنال فى الخلوات ، والطبول والعيدان مرتفعات الأصوات والصنجات ، واستنابوا فى الليل عن الخمر بالماء والجلاب ظاهرا ، وقيل إنهم شربوا الخمر مستورا وقربت المراكب بعضها من بعض ، وعجز المنكر عن الإنكار إلا بقلبه ، ورفع الأمر إلى السلطان . فندب حاجبه فى بعض الليالى ففرق منهم من وجده فى الحالة الحاضرة ، ثم عادوا بعد عوده ، وذكر أنه وجد فى بعض المعادى خمرا فأراقه ، ولما استهل شوال وهو مطموع فيه تضاعف هذا المنكر ، وفشت هذه الفاحشة ونسأل الله العفو والعافية عن الكبائر والتجاوز عما تسقط فيه المعـــاذر .

وقال فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : كسر بحر أبى المنجا ، وباشر العزيز كسره وزاد النيل فيه أصبعا ، وهى الأصبع الثامنة عشرة من ثمانى عشر ذراعا ، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبري ، وقد تلاشى فى زمننا أمر الاجتماع فى يوم فتح سد بحر أبى المنجا ، وقل الاحتفال به لشغل الناس بهم المعيشة .

«قصر الورد بالخاقانية»

وكان من أيام منتزهات الخلفاء يوم قصر الورد بناحية الخاقانية، وهى قرية من قرى قليوب كانت من خاص الخليفة، وبها جنان كثيرة للخليفة، وكانت من أحسن المنتزهات المصرية، وكان بها عدة دويرات يزرع فيها الورد. فيسير إليها الخليفة يوما ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد، ويخدم بضيافة عظيمة.

قال ابن الطوير عن الخليفة الآمر بأحكام الله: وعمل له بالخاقانية ـ وكانت من خاص الخليفة ـ قصر من ورد: فسار إليها يوما، وخدم بضيافة عظيمة. فلما استقر هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك من الأمراء الذين كانوا مع المؤتمن أخى المأمون البطائحى وتخاذلوا عنه. فوصل إلى الخاقانية وهو لابس لامة حربه، والتمس المثول بين يديه يعنى الخليفة. فاستقل ما جاء به فى ذلك الوقت ما ينافى ما فيه الخليفة من الراحة والنزهة وحيل بينه وبين مقصوده. فقال لجماعة من حواشى الخليفة: أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل أليه فإنه يعاقبكم بذلك فأطلعوا الخليفة على أمره وحليته بالسلاح وقوله. فأمر بإحضاره. فلما وقعت عينه عليه قال: يا مولانا لمن تركت أعداءك ـ يعنى الوزير المأمون البطائحى وأخاه، وكان الآمر قد قبض عليهما واعتقلهما، هذا والعهد قريب غير بعيد أأمنت الغدر؟ فما أجابه إلا وهو على الرهاويج من الخيل فلم تمض ساعة إلا وهو بالقصر، فمضى إلى مكان اعتقال المأمون وأخيه فزادهما وثاقا وحراسة، وفى أثناء ذلك وصل ابن نجيب الدولة الذى كان سيره المأمون فى وزارته إلى اليمن لتحقيق نسبه أنه ولد من جارية نزار بن المستنصر لما خرجت من القصر وهى به حامل، ويدعو إليه بقية الناس، وأحضر إلى القاهرة على جمل مشوه فأدخل خزانة البنود، وقتل هو والمأمون وجماعة فى تلك الليلة وصلبوا ظاهر القاهرة.

«بركة الجب»

هى بظاهر القاهرة من بحريها، وتسميها العامة فى زمننا هذا الذى نحن فيه بركة الحاج. لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج فى كل سنة، ونزولهم عند العود بها، ومنها يدخلون إلى القاهرة ومن الناس من يقول جب يوسف وهو خطأ، وإنما هى أرض جب عميرة وعميرة، هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء نسبت هذه الأرض إليه. فقيل لها أرض جب عميرة. ذكره ابن يونس، وكان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر بن الحاكم فى كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة هذا، وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة، وربما حمل معه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء، ويسقيه من معه، وأنشده مرة الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى فى يوم عرفة:

قم فانحر الراح يوم النحر بالمـــاء

ولا تضـــــح ضحى إلا بصهباء

وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم

إلى منى قصـــــفهم مع كل هيفاء

وعج على مكة الروحــاء مبتكرا

فطف بها حول ركن العود والنائي

قال ابن دحية: فخرج فى ساعته بروايا أحمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق.. حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق.. فأقام بها سوق الفسوق على ساق.. وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين.. حتى بيع فى أيامه الرغيف بالثمن الثمين.. وعاد ماء النيل بعد عذوبته كالغسلين.. ولم يبق بشاطئيه أحد بعد إن كانا محفوفين بحور عين.. وقال ابن ميسر: فلما كان فى جمادى الآخرة من سنة أربع

وخمسين وأربعمائة خرج المستنصر على عادته إلى بركة الجب. فاتفق أن بعض الأتراك جرد سيفا فى سكر منه على بعض عبيد الشراء، فاجتمع عليه طائفة من العبيد وقتلوه، فاجتمع الأتراك بالمستنصر، وقالوا: إن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة، وإن كان عن غير رضاك فلا نرضى بذلك، فأنكر المستنصر ما وقع وتبرأ مما فعله العبيد. فتجمع الأتراك لحرب العبيد وبرز بعضهم إلى بعض، وكان بين الفريقين قتال شديد على كوم شريك انهزم فيه العبيد وقتل منهم عدد كثير، وكانت أم المستنصر تعين العبيد وتمدهم بالأموال والأسلحة. فاتفق فى بعض الأيام أن بعض الأتراك ظفر بشيء مما تبعث به أم المستنصر إلى العبيد فأعلم بذلك أصحابه ـ وقد قويت شوكتهم بانهزام العبيد ـ فاجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر وخاطبوه فى ذلك وأغلظوا فى القول وجهروا بما لا ينبغي، وصار السيف قائما والحروب متتابعة إلى أن كان من خراب مصر بالغلاء والفتن ما كان، وكان من قبل المستنصر يترددون إلى بركة الجب. قال المسيحي: ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة عرض العزيز بالله عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب. فنصب له مضرب ديباج رومى فيه ألف ثوب بصفرية فضة، ونصبت له فازة مثقل وقبة مثقل بالجوهر، وضرب لابنه الأمير أبى على منصور مضرب آخر، وعرضت العساكر، وكان عدتها مائة عسكرى وأقبلت أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسون، فطيف بهم وكان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب، ومازالت بركة الجب منتزها للخلفاء والملوك من بعد. واعتنى بها الملك الناصر محمد بن قلاون، وبنى بها أحواشا وميدانا كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالي. وبركة الجب وما يليها فى درك بنى صبرة، وهم ينسبون إلى صبرة بن بطيح بن مغالة بن دعجان بن عنب بن الكليب بن أبى عمرو بن دمية ابن جدس بن أريش بن أراش بن جزيلة بن لخم فهم ـ أحد بطون لخم، وفيهم بنو جذام ابن صبرة بن بصرة بن غنم بن غطفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام أخى لخم.

«المشتهي»

وكان من مواضعهم التى أعدت للنزهة المشتهي.

ذكر الأيام التى كان الخلفاء الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم

وكان للخلفاء الفاطميين فى طول السنة أعياد ومواسم، وهى موسم رأس السنة، وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم، ومولد عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ومولد الحسن، ومولد الحسين عليهما السلام، ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النوروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وخميس العدس، وأيام الركوبات.

«موسم رأس السنة»

وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء بليلة أول المحرم فى كل عام. لأنها أول ليالى السنة، وابتداء أوقاتها. وكان من رسومهم فى ليلة رأس السنة أن يعمل بمطبخ القصر عدة كثيرة

من الخراف المقموم، والكثير من الرؤوس المقموم، وتفرق على جميع أرباب الرتب وأصحاب الدواوين من العوالي، والأدوان أرباب السيوف والأقلام، مع جفان اللبن والخبز وأنواع الحلواء، فيعم ذلك سائر الناس من خاص الخليفة وجهاته والأستاذين المحنكين إلى أرباب الضوء وهم المشاعلية، ويتنقل ذلك فى أيدى أهل القاهرة ومصر.

«موسم أول العام»

وكان لهم بأول العام عناية كبيرة. فيه يركب الخليفة بزيه المفخم وهيئته العظيمة. كما تقدم، ويفرق فيه دنانير الغرة التى مر ذكرها عند ذكر دار الضرب، ويفرق من السماط الذى يعمل بالقصر لأعيان أرباب الخدم من أرباب السيوف والأقلام بتقرير مرتب خرفان شواء، وزبادى طعام، وجامات حلواء، وخبز، وقطع منفوخة من سكر. وأرز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجل وصفه، ويتبسطون بما يصل إليهم من دنانير الغرة من رسوم الركوب. كما شرح فيما تقدم.

«يوم عاشوراء»

كانوا يتخذونه يوم حزن تتعطل فيه الأسواق، ويعمل فيه السماط العظيم المسمي: سماط الحزن، وقد ذكر عند ذكر المشهد الحسينى فانظره، وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير. فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بنى أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسعون فيه على عيالهم، ويتبسطون فى المطاعم، ويصنعون الحلاوات، ويتخذون الاوانى الجديدة، ويكتحلون ويدخلون الحمام، جريا على عادة أهل الشام التى سنها لهم الحجاج فى أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف شيعة على بن أبى طالب كرم الله وجهه. الذين

يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن فيه على الحسين بن علي . لأنه قتل فيه وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء يوم سرور وتبسط ، وكلا الفعلين غير جيد ، والصواب ترك ذلك والاقتداء بفعل السلف فقط .

وما أحسن قول أبى الحسين الجزار الشاعر يخاطب الشريف شهاب الدين ناظر الأهراء ، وكتب بها إليه ليلة عاشوراء عندما أخر عنه ما كان من جاريه فى الأهراء :

قل لشهاب الدين ذى الفضل الندي

والسـيد بن السيد بن السيد

أقسم بالفرد العـلى الصـمد

إن لم يبـادر لنجاز موعدي

لأحضرن للهنـاء فى غـد

مكحل العينين مخضوب اليد

يعرض للشريف بما يرمى به الأشراف من التشيع ، وأنه إذا جاءه بهيئة السرور فى يوم عاشوراء غاظه ذلك . لأنه من أفعال الغضب . وهو من أحسن ما سمعته فى التعريض ، فلله دره .

«عيد النصر»

وهو السادس عشر من المحرم عمله الخليفة الحافظ لدين الله . لأنه اليوم الذى ظهر فيه من محبسه ، ويفعل فيه ما يفعل فى الأعياد من الخطبة والصلاة والزينة والتوسعة فى النفقة ، وكتب فيه أبو القاسم على بن الصيرفى إلى بعض الخطباء : عيد النصر ، وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها ، وأدلها على تقصير الواصف إذا بلغ وتناهي ، ونحن نأمرك أن تبرز فى يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التى

جرت العادة بمثلها فى الأعياء، وتوعد بأن تقرأ على الناس الخطبة التى سيرناها إليك قرين هذا الأمر. بشرح هذا اليوم وتفصيله، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله، وتعتمد فى ذلك ما جرى الرسم فيه فى كل عيد، وتنتهى فيه إلى الغاية التى ليس عليها مزيد. فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

«المواليد الستة»

كانت مواسم جليلة يعمل الناس فيها ميزات من ذهب وفضة وخشكنانج وحلواء كما مر ذلك.

«ليالى الوقود الأربع»

كانت من أبهج الليالى وأحسنها يحشر الناس لمشاهدتها من كل أوب وتصل إلى الناس فيها أنواع من البر، وتعظم فيها ميزة أهل الجوامع والمشاهد فانظره فى موضعه تجده.

«موسم شهر رمضان»

وكان لهم فى شهر رمضان عدة أنواع من البر منها كشف المساجد قال الشريف الجوانى فى كتاب النقط: كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا يوما على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر. فيبدأون بجامع المقس ثم بجوامع القاهرة، ثم بالمشاهد، ثم بالقرافة، ثم بجامع مصر ثم بمشهد الرأس. لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وإزالة شعثه، وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود الطفيليون يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضى لحضور السماط.

«إبطال المسكرات»

قال ابن المأمون: وكانت العادة جارية من الأيام الافضيلة فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختم، ويحذر من بيع الخمر، فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الأفضل بن أمير الجيوش أن يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة. فكتب به إلى جميع ولاة الأعمال، وأن ينادى بأنه من تعرض لبيع شيء من المسكرات أو لشرائها سرا أو جهرا فقد عرض نفسه لتلافها، وبرئت الذمة من هلاكها.

«غرة رمضان»

وكان فى أول يوم من شهر رمضان يرسل لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم لكل واحد طبق، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلواء وبوسطه صرة من ذهب. فيعم ذلك سائر أهل الدولة، ويقال لذلك غرة رمضان.

«ركوب الخليفة فى أول شهر رمضان»

قال ابن الطوير: فإذا انقضى شعبان اهتم بركوب أول شهر رمضان، وهو يقوم مقام الرؤية عند المتشيعين. فيجرى أمره فى اللباس والآلات والأسلحة والعرض والركوب والترتيب والموكب والطريق المسلوكة كما وصفناه فى أول العام لا يختل بوجه، ويكتب إلى الولاة والنواب والأعمال بمساطير مخلقة يذكر فيها ركوب الخليفة.

«سماط شهر رمضان»

وقد تقدم ذكر السماط فى قاعة الذهب من القصر.

«سحور الخليفة»

قال ابن المأمون: وقد ذكر أسمطة رمضان وجلوس الخليفة بعد ذلك فى الروشن إلى وقت السحور والمقرئون تحته يتلون عشرا ويطربون. بحيث يشاهدهم الخليفة، ثم حضر بعدهم المؤذنون، وأخذوا فى التكبير وذكر فضائل السحور، وختموا بالدعاء، وقدمت المخاد للوعاظ. فذكروا فضائل الشهر، ومدح الخليفة والصوفيات، وقام كل منّ الجماعة للرقص، ولم يزالوا إلى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه. فحضر بين يدى الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين، وأحضرت جفان القطائف، وجرار الجلاب برسمهم. فأكلوا وملأوا أكمامهم وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون، ثم جلس الخليفة فى السدلا التى كان بها عند الفطور وبين يديه المائدة معباة. جميعها من جميع الحيوان وغيره، والقعبة الكبيرة الخاص مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة، وحضر الجلساء، واستعمل كل منهم ما اقتدر عليه، وأومأ الخليفة بأن يستعمل من القعبة فيفرق الفراشون عليهم أجمعين، وكل من تناول شيئاً قام وقبل الأرض وأخذ منه على سبيل البركة لأولاده وأهله. لأن ذلك كان مستفاضا عندهم غير معيب على فاعله. ثم قدمت الصحون الصينى مملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة الكفاية، وقام الخليفة وجلس بالباذهنج وبين يديه السحورات المطيبات من لبثين رطب ومخض، وعدة أنواع عصارات وافطلوات وسويق ناعم وجريش. جميع ذلك بقلوبات وموز، ثم يكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفا، وحضر الجلساء، وأخذ كل منهم فى تقبيل الأرض والسؤال بما ينعم عليه منه. فتناوله المستخدمون والأستاذون وفرقوه. فأخذه القوم فى أكمامهم ثم سلم الجميع وانصرفوا.

«الختم فى آخر رمضان»

وكان يعمل فى التاسع والعشرين منه . . قال ابن المأمون : ولما كان التاسع والعشرون من شهر رمضان خرج الأمر بإضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر ، وحضر الأجل الوزير المأمون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة على العادة ، وحضر إخوته وعمومته وجميع الجلساء ، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلموا على عادتهم ، وجلسوا تحت الروشن وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصور ثلاجى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقي ، وجعلها أمام المذكورين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم ، واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمه القرآن تلاوة وتطريبا ، ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع ، ودعا فأبلغ ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات ، ثم كبر المؤذنون وهللوا ، وأخذوا فى الصوفيات إلى أن نثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم ورباعيات ، وقدمت جفان القطائف على الرسم مع البسندود والحلواء . فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم ، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة بخلع خلعها على الخطيب وغيره ، ودراهم تفرق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين .

ذكر مذاهبهم فى أول الشهور

اعلم أن القوم كانوا شيعة ، ثم غلوا حتى عدوا من غلاة أهل الرفض ، وللشيعة فى أثناء الشهور عمل . أحسن مارأيت فيه ما حكاه أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب الآثار العافية عن القرون الخالية قال : وفى سنين من الهجرة نجمت ناجمة لأجل أخذهم بالتأويل إلى اليهود والنصاري . فإذا لهم جداول وحسبانات يستخرجون بها شهورهم ، ويعرفون منها صيامهم ، والمسلمون مضطرون إلى رؤية الهلال ، وتفقد ما اكتساه القمر من

النور وجدوهم شاكين فى ذلك، مختلفين فيه، مقلدين بعضهم بعضا فى عمل رؤية الهلال بطريق الزيجات فرجعوا إلى أصحاب علم الهيئة فألفوا زيجاتهم مفتتحة بمعرفة أوائل ما يراد من شهور العرب بصنوف الحسبانات. فظنوا أنها معمولة لرؤية الأهلة، فأخذوا بعضها ونسبوه إلى جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام، وزعموا أنه سر من أسرار النبوة، وتلك الحسبانات مبنية على حركات التدبير الوسطى دون المعدلة، أو معمولة على سنة القمر التى هى ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم، وسدس يوم وأن ستة أشهر من السنة تامة، وستة أشهر ناقصة، وان كل ناقص منها فهو تال لتام. فلما قصدوا استخراج الصوم والفطر بها خرجت قبل الواجب بيوم فى أغلب الأحوال. فأولوا قوله عليه السلام: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته وقالوا: معنى صوموا لرؤيته أى صوموا اليوم الذى يرى فى عشيته. كما يقال تهيئوا لاستقباله. فيقدم التهيؤ على الاستقبال. قال: ورمضان لا ينقص عن ثلاثين يوما أبدا.

«قافلة الحاج»

قال فى كتاب الذخائر والتحف: إن المنفق على الموسم كان فى كل سنة تسافر فيها القافلة مائة ألف وعشرين ألف دينار. منها ثمن الطيب والحلواء والشمع راتبا فى كل سنة عشرة آلاف دينار ومنها نفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة أربعون ألف دينار. ومنها فى ثمن الحمايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية، وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون ألف دينار، وأن النفقة كانت فى أيام الوزير البازورى قد زادت فى كل سنة وبلغت إلى مائتى ألف دينار، ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك فى دولة من الدول.

«موسم عيد الفطر»

وكان لهم فى موسم عيد الفطر عدة وجوه من الخيرات. منها تفرقة الفطرة، وتفرقة الكسوة، وعمل السماط، وركوب الخليفة لصلاة العيد، وقد تقدم ذكر ذلك كله فيما سبق.

«عيد النحر»

فيه تفرقة الرسوم من الذهب والفضة وتفرقة الكسوة لأرباب الخدم من أهل السيف والقلم وفيه ركوب الخليفة لصلاة العيد، وفيه تفرقة الأضاحى كما مر ذلك مبينا فى موضعه من هذا الكتاب.

«عيد الغدير»

فيه تزويج الأيامي، وفيه الكسوة وتفرقة الهبات لكبراء الدولة ورؤسائها وشيوخها وأمرائها وضيوفها والأستاذين المحنكين والمميزين، وفيه النحر أيضا وتفرقة النحائر على أرباب الرسوم، وعتق الرقاب، وغير ذلك كما سبق بيانه فيما تقدم.

«كسوة الشتاء والصيف»

وكان لهم فى كل من فصلى الشتاء والصيف كسوة تفرق على أهل الدولة وعلى أولادهم ونسائهم، وقد مر ذكر ذلك.

«موسم فتح الخليج»

وكانت لهم فى موسم فتح الخليج وجوه من البر. منها الركوب لتخليق المقياس، ومبيت القراء بجامع المقياس، وتشريف ابن أبى الرداد بالخلع وغيرها، وركوب الخليفة إلى فتح الخليج، وتفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة والعين والمآكل والتحف، وقد تقدم تفصيل ذلك.

ذكر النوروز

وكان النوروز القبطى فى أيامهم من جملة المواسم. فتتعطل فيه الأسواق، ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم، والرسوم من المال وحوائج النوروز.

قال ابن زولاق: وفى هذه السنة يعنى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة منع المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك، ومن صب الماء يوم النوروز، وقال فى سنة أربع وستين وثلاثمائة، وفى يوم النوروز زاد اللعب بالماء، ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق وعملوا فيلة، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السماجات والحلى فى الأسواق. ثم أمر المعز بالنداء بالكف، وألا توقد نار، ولا يصب ماء، وأخذ قوم فحبسوا، وأخذ قوم فطيف بهم على الجمال. وقال ابن ميسر فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة. . وفيها أراد الآمر بأحكام الله أن يحضر إلى دار الملك فى النوروز الكائن فى جمادى الآخرة فى المراكب على ما كان عليه الأفضل بن أمير الجيوش. فأعاد المأمون عليه أنه لا يمكن. فإن الأفضل لا يجرى مجراه مجرى الخليفة، وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات ما له قيمة جليلة، وقال ابن المأمون: وحل موسم النوروز فى التاسع من رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ووصلت الكسوة المختصة به من

الطراز وثغر الإسكندرية مع ما يبتاع من المذاب المذهبة والحريرى والسوادج، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق، وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها بتفصيلها وأسماء أربابها، وأصناف النوروز البطيخ والرمان وعراجين الموز وأفراد البسر وأقفاص التمر القوصى وأقفاص السفرجل وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر من كل لون بكلة مع خبز بر مارق. قال: وأحضر كاتب الدفتر الإثباتات بما جرت العادة به من إطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها فى يوم النوروز وغير ذلك من جميع الأصناف. وهو أربع آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة، والكسوات عدة كثيرة من شقق ديبقى مذهبات وحريرات ومعاجر وعصائب مشاومات ملونات وشقق لاذ مذهب وحريرى ومشفع، وفوط ديبقى حريري. فأما العين والورق والكسوات فذلك لا يخرج عمن تحوزه القصور ودار الوزارة والشيوخ والأصحاب والحواشى والمستخدمون ورؤساء العشاريات وبحارتها. ولم يكن لأحد من الأمراء على اختلاف درجاتهم فى ذلك نصيب، وأما الأصناف من البطيخ والرمان والبسر والتمر والسفرجل والعناب والهرائس على اختلافها فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم، ويشركهم فى ذلك جميع الأمراء أرباب الأطواق والأقصاب وسائر الأماثل، وقد تقدم شرح ذلك. فوقع الوزير المأمون على جميع ذلك. بالإنفاق وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي، وهو مستهل توت- وتوت أول سنتهم- وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية- يعنى دولة الخلفاء الفاطميين من مواسم بطالاتهم ومواقيت ضلالاتهم فكانت المنكرات ظاهرة فيه، والفواحش صريحة فى يومه، ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز ومعه جمع كثير، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار، ويكتب مناشير، ويندب مترسمين. كل ذلك يخرج مخرج الطير، ويقنع بالميسور من الهبات، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة، بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، وتشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم وفى الطرقات، ويتراش الناس بالماء والخمر وبالماء ممزوجا بالأقذار. فإن غلط مستور وخرج من

داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته. فإما فدى نفسه وإما فضح، ولم يجر الحال فى هذا النوروز على هذا، ولكن قد رش الماء فى الحارات، وأحيا المنكر فى الدور أرباب الخمارات، وقال فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة: وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش الماء. واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع، وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة وخرق به.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: إن أول من اتخذ النوروز جمشيد، ويقال فى اسمه أيضا جمشاد أحد ملوك الفرس الأول، ومعناه اليوم الجديد، وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم. غير أنه فى غير هذا اليوم، وقد صنف على بن حميرة الاصفهانى كتابا مفيدا فى أعياد الفرس، وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر من طريق حماد بن سلمة عن محمل بن زياد عن أبى هريرة قال: كان اليوم الذ يرد الله فيه إلى سليمان بن داود خاتمه يوم النوروز. فجاءت إليه الشياطين بالتحف، وكانت تحفة الخطاطيف أن جاءت بالماء فى مناقيرها فرشته بين يدى سليمان. فاتخذ الناس رش الماء من ذلك اليوم. وعن مقاتل بن سليمان قال سمى ذلك اليوم نيروزا، وذلك أنه وافق هذا اليوم الذى يسمونه النيروز، فكانت الملوك تتيمن بذلك اليوم واتخذوه عيدا، وكانوا يرشون الماء فى ذلك اليوم، ويهدون كفعل الخطاف ويتيمنون بذلك، ولله در القائل:

كيف ابتهاجك بالنوروز يا سكنى

وكل ما فيه يحكينى وأحكيه

فناره كلهيب النار فى كبدى

وماؤه كتوالى دمعتى فيه

«وقال آخر»:

نورز الناس ونورزت

ولكن بدموعي

وذكـــــرت نارهـــــم

والنـــار ما بيـن ضـــــلوعي

«وقال غيره» :

ولما أتى النـــــوروز يا غاية المني

وأنت على الإعراض والهجر والصد

بعثت بنار الشوق ليلا إلى الحشي

فنورزت صبحا بالدموع على الخد

«الميــــــلاد»

وهو اليـوم الذى ولد فيـه عبـد الله ورسـوله المسيح عـيسى بن مريم صلى الله وسلم، والنصارى تتخذ ليلة يوم الميلاد عيدا، وتعمله قبط مصر فى التاسع والعشرين من كيهك، وما برح لأهل مصر به اعتناء، وكان من رسوم الدولة الفاطمية. فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية، والمتارد التى فيها السمك، وقرابات الجلاب، وطيافير الزلابية والبوري. فيشمل ذلك أرباب الدولة أصحاب السيوف والأقلام بتقرير معلوم على ما ذكره ابن المأمون فى تاريخه.

«الغطاس»

ومن مواسم النصارى بمصر عمل الغطاس فى اليوم الحادى عشر من طوبة . . قال المسعودى فى مروج الذهب : ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها، وهى ليلة إحدى عشرة من طوبة . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طفج فى داره المعروفة بالمختار فى الجزيرة الراكبة على النيل، والنيل مطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل، غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئات ألوف من الناس من المسلمين والنصاري . منهم فى الزواريق، ومنهم فى الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا، ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء، وقال المسيحى فى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة كان غطاس النصارى فضربت الخيام والمضارب والأشرعة فى عدة مواضع على شاطيء النيل . فنصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصرانى كاتب الأستاذ برجوان، وأوقدت له الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والملهون، وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف .

وقال فى سنة خمس عشرة وأربعمائة : وفى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة كان غطاس النصاري . فجرى الرسم من الناس فى شراء الفواكه والضأن وغيره، ونزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم لقصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ومعه الحرم، ونودى ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم إلى البحر فى الليل، وضرب بدر الدولة الخادم الأسود متولى الشرطتين خيمة عند الجسر وجلس فيها، وأمر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بأن توقد المشاعل والنار فى الليل . فكان وقيدا كثيرا، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسسوا هناك طويلا إلى أن غطسوا . وقال ابن

المأمون: إنه كان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر أهل الدولة الترنج والنارنج والليمون المراكبي، وأطنان القصب والسمك والبورى برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام.

«خميس العهد»

ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس، ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام، ويتهادون فيه، وكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية فى خميس العدس ضرب خمسمائة دينار ذهبا، عشرة آلاف خروبة، وتفرقتها على جميع أرباب الرسوم كما تقدم.

«أيام الركوبات»

وكان الخليفة يركب فى كل يوم سبت وثلاثاء إلى منتزهاته بالبساتين والتاج وقبة الهواء والخمس وجوه وبستان البعل ودار الملك ومنازل العز والروضة. فيعم الناس فى هذه الأيام من الصدقات أنواع ما بين ذهب ومآكل وأشربة وحلاوات، وغير ذلك كما تقدم بيانه فى موضعه من هذا الكتاب.

«صلاة الجمعة»

وكان الخليفة يركب فى كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس. فى جامع القاهرة الذى يعرف بالجامع الأزهر مرة، وفى جامع الخطبة المعروف بالجامع الحاكمى مرة، وفى

جامع عمرو بن العاص بمصر أخري. فينال الناس منه في هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات - كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى عند ذكر الجامع الأزهر - ولله در الفقيه عمارة اليمنى فقد ضمن مرثيته أهل القصر جملا مما ذكر، وهى القصيدة التى قال ابن سعد فيها، ولم يسمع فيما يكتب فى دولة بعد انقراضها أحسن منها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل

وحيده بعد حسن الحلى بالعطل

سعيت فى منهج الرأى العثور فإن

قدرت من عثرات الدهر فاستقل

جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا

ينفك ما بين قرع السن والخجل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل

سعيت مهلا أما تمشى على مهل

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة

على فجيعتها فى أكرم الدول

قدمت مصر فاولتنى خلائفها

من المكارم ما أربى على الأمل

قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن

كمالها أنها جاءت ولم أسل

وكنت من وزراء الدست حين كما

رأس الحصان يهاديه على الكفل

ونلت من عظماء الجيش مكرمة

وخلة حرست من عارض الخلل

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة

لك الملامة إن قصرت فى عذلي

بالله در ساحة القصرين وابك معي

عليهما لأعلى صفين والجمل

وقل لأهليهما والله ما التحمت

فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل

ماذا عسى كانت الإفرنج فاعلة

فى نسل آل أمير المؤمنين علي

هل كان فى الأمر شيء غير قسمة ما

ملكتم بين حكم السبى والنفل

وقد حصلتم عليها واسم جدكم

محمد وأبوكم غير منتقل

مررت بالقصر والأركان خالية

من الوقود وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهى خوف منتقد

من الأعادى ووجه الود لم يمل

أسلت من أسفى دمعى غداة خلت

رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكى على ما تراءت من مكارمكم

حال الزمان عليها وهى لم تحل

دار الضيافة كانت أنس وافدكم

واليوم أوحش من رسم ومن طلل

وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم

تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست

ورث منها جديد عندهم وبلي

وموسم كان فى يوم الخليج لكم

يأتى تجملكم فيه على الجمل

وأول العام والعيدان كم لكم

فيهن من وبل جود ليس بالوشل

والأرض تهتز فى يوم الغدير كما

يهتز ما بين قريكم من الأسل

والخيل تعرض فى وشى وفى شية

مثل العرائس فى حلى وفى حلل

ولا حملتهم قرى الأضياف من سعة ال

أطباق إلا على الأكتاف والعجل

وما حملتهم ببر أهل ملتكم

حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للذمتين وللضيف

المقيم وللطارى من الرسل

ثم الطراز بتنيس الذى عظمت

منه الصلات لأهل الأرض والدول

وللجوامع من إحسانكم نعم

لمن تصدر فى علم وفى عمل

وربما عادت الدنيا فمعقلها

منكم وأضحت بكم محلولة العقل

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم

ولا نجا من عذاب الله غير ولي

ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ

من كف خير البرايا خاتم الرسل

ولا رأى جنة الله التى خلقت

من خان عهد الإمام العاضد بن علي

أئمتى وهداتى والذخيرة لي

إذا ارتهنت بما قدمت من عملي

تالله لم أوفهم فى المدح حقهم

لأن فضلهم كالوابل الهطل

ولو تضاعفت الأقوال واتسعت

ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل

باب النجاة هم دنيا وآخرة

وحبهم فهو أصل الدين والعمل

نور الهدى ومصابيح الدجى ومحـ

ـل الغيث إن ربت الانواء فى المحل

أئمـــة خلقـــوا نورا فنورهم

من محض خالص نور الله لم يغل

والله مازلت عن حبى لهم أبدا

ما أخر الله لى فى مدة الأجل

وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة رحمه الله، وتمحلت له الذنوب. انتهى ما ذكره رحمه الله تعالي.

ذكر ما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية

ولما مات العاضد لدين الله فى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة احتاط الطواشى قراقوش على أهل العاضد وأولاده. فكانت عدة الأشراف فى القصور مائة وثلاثين، والأطفال خمسة وسبعين، وجعلهم فى مكان أفرد لهم خارج القصر، وجمع عمومته وعشريته فى إيوان بالقصر واحترز عليهم، وفرق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، وليكون ذلك أسرع لانقراضهم، وتسلم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب القصر بما فيه من الخزائن والدواوين وغيرها من الأموال والنفائس، وكانت عظيمة الوصف، واستعرض من فيه من الجوارى والعبيد. فأطلق من كان حرا ووهب واستخدم

باقيهم، وأطلق البيع فى كل جديد وعتيق. فاستمر البيع فيما وجد بالقصر عشر سنين، وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها، ثم ملكها أمراءه، وضرب الألواح على ما كان للخلفاء وأتباعهم من الدور والرباع، وأقطع خواصه منها، وباع بعضها، ثم قسم القصور. فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه، وأسكن أباه نجم الدين أيوب ابن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية. فكان الرجل إذا استحسن دارا أخرج منها سكانها ونزل بها. قال القاضى الفاضل: وفى ثالث عشريه يعنى ربيعا الآخر سنة سبع وستين كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر. فقيل إن الموجود فيه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشح ومرصع، وعقود ثمينة، وذخائر فخمة، وجواهر نفيسة، وغير ذلك من ذخائر جمة الخطر، وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش وبيان، وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها الأمير موسك، والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيره من الغز، أو مدفن لآبائهم وورخ ذلك الإشهاد بثالث عشر ربيع الأول سنة ستين وستمائة، وأثبت على قاضى القضاة الصاحب تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافى رحمه الله تعالي، وتقرر مع المذكورين أن مهما كان قبضوه من أثمان بعض الأماكن المذكورة التى عاقد عليها وكلاؤهم، واتصلوا إليه يحاسبوا به من جملة ما يحرز ثمنه عند وكيل بيت المال، وقبضت أيدى المذكورين عن التصرف فى الأماكن المذكورة وغيرها، ورسم ببيعها، فباعها وكيل بيت المال كمال الدين ظافر أولا فأولا، ونقضت شيئاً، فشيئا وبنى فى أماكنها ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالي، واشترى قاعة السدرة بجوار المدرسة والتربة الصالحية قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن مسرور المقدسى الحنبلى مدرس الحنابلة بالمدرسة الصالحية بألف وخمسة وسبعين دينارا فى رابع جمادى الآخرة سنة ستين وستمائة من كمال الدين ظافر بن الفقيه نصر وكيل بيت المال، ثم باعها المذكور للملك الظاهر بيبرس فى حادى عشرى جمادى الآخرة المذكور، وقاعة السدرة هذه قد صارت هى وقاعة الخيم أصل المدرسة الظاهرية الركنية البيبرسية البندقدارية. قال القاضى الفاضل: وفى يوم

الإثنين سادس شهر رجب يعنى من سنة أربع وثمانين وخمسمائة ظهر تسحب رجلين من المعتقلين فى القصر . أحدهما من أقارب المستنصر ، والآخر من أقارب الحافظ ، وأكبرهما سنا كان معتقلا بالإيوان حدث به مرض وأثخن فيه ففك حديده ونقل إلى القصر الغربى فى أوائل سنة ثلاث وثمانين ، واستمر لما به ، ولم يستقل من المرض وطلب ففقد ، واسمه موسى بن عبد الرحمن أبى حمزة بن حيدرة بن أبى الحسن أخى الحافظ واسم الآخر موسى بن عبد الرحمن بن أبى محمد بن أبى اليسر بن محسن بن المستنصر ، وكان طفلا فى وقت الكائنة بأهله ، وأقام بالقصر الغربى مع من أسر به إلى أن كبر وشب . قال : وذكر أن القصر الغربى قد استولى عليه الخراب ، وعلا على جدرانه التشعث والهدم ، وأنه يجاور اصطبلات فيها جماعة من المفسدين ، وربما تسلق إليه للتطرق للنساء المعتقلات ، والمتسلق منه إذا قويت نفسه على التسحب لم تكن عقلته فى القصر المذكور مانعة من التسحب .

قال : وعدد من بقى من هذه الذرية بدار المظفر والقصر الغربى والإيوان مائتان واثنان وخمسون شخصا . ذكور ثمانية وتسعون ، وإناث مائة وأربعة وخمسون . تفصيله : المقيمون بدار المظفر أحد وثلاثون ذكور . أحد عشر كلهم أولاد العاضد لصلبه . إناث عشرون . بنات العاضد خمسة . إخوته أربع . جهات العاضد . أربع بنات الحافظ . ثلاث جهات يوسف ابنه وجبريل ابن عمه أربع . المعتقلون بالإيوان خمسة وخمسون رجلا . منهم الأمير الظاهر بن جبريل بن الحافظ . المقيمون بالقصر الغربى مائة وستة وستون شخصا . ذكور اثنان وثلاثون أكبرهم عمره عشرون سنة . وأصغرهم عمره سبع عشرة سنة إناث مائة وأربع وثلاثون . بنات أربع وستون . أخوات وعمات وزوجات ، وملئت المناظر المصونة على الناظر والمنتزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر . فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض ومورثها ، قال : ومقدار ما يحدس أنه خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يفى به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق فى الآخرة .

وقال الحافظ جمال الدين يوسف اليغموري: وجدت بخط المهذب أبى طالب محمد على بن الخيمي: حدثنى الأمير عضد الدين مرهف بن مجد الدين سويد الدولة بن منقذ أن القصر أغلق على ثمانية عشر ألف نسمة. عشرة آلاف شريف وشريفة، وثمانية آلاف عبد وخادم وأمة ومولدة ومربية.

وقال ابن عبد الظاهر عن القصر: لما أخذه صلاح الدين، وأخرج من به كان فيه اثنا عشر ألف نسمة. ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده، ولما أخرجوا منه أسكنوا فى دار المظفر، وقبض أيضا صلاح الدين على الأمير داود بن العاضد، وكان ولى العهد، وينعت بالحامد لله واعتقل معه جميع إخوته - الأمير أبو الأمانة جبريل وأبو الفتوح وابنه أبو القاطم وسليمان بن داود وعبد الظاهر حيدرة بن العاضد وعبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد وإسماعيل بن العاضد وجعفر بن أبى الظاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن أبى الفتوح بن جبريل بن الحافظ، وجماعة من بنى أعمامه. فلم يزالوا فى الاعتقال بدار الأفضل من حارة برجوان إلى أن انتقل الملك الكامل محمد بن العادل بن أبى بكر بن أيوب من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل. فنقل معه ولد العاضد وإخوته وأولاد عمه واعتقلهم بالقلعة وبها مات العاضد، واستمر البقية حتى انقرضت الدولة الأيوبية، وملك الأتراك إلى أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. فلما كان فى سنة ستين وستمائة أشهد على من بقى منهم، وهم كمال الدين إسماعيل بن العاضد، وعماد الدين أبو القاسم ابن الأمير أبى الفتوح بن العاضد، وبدر الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن العاضد أن جميع المواضع التى قبلى المدارس الصالحية من القصر الكبير، والموضع المعروف بالتربة ظاهرا وباطنا بخط الخوخ السبع، وجميع الموضع المعروف بالقصر اليافعى بالخط المذكور، وجميع الموضع المعروف بسكن أولاد شيخ الشيوخ وغيرهم من القصر الغربي، وجميع الموضع المعروف بدار الفطرة بخط المشهد الحسيني، وجميع الموضع المعروف بدار الضيافة بحارة برجوان، وجميع الموضع المعروف باللؤلؤة، وجميع قصر

الزمرد، وجميع البستان الكافورى ملك لبيت المال المولوى السلطانى الملكى الظاهرى من وجه صحيح شرعى لا رجعة لهم فيه، ولا لواحد منهم فى ذلك، ولا فى شيء منه، ولا مثوبة بسبب يد، ولا ملك، ولا وجه من الوجوه كلها. خلا ما فى ذلك من مسجد لله تبارك وتعالى سبعون.

قال: وفى جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة كانت عدة من فى دار المظفر بحارة برجوان والقصر الغربى والإيوان من أولاد العاضد وأقاربه ومن معهم مضافا إليهم ثلاثمائة واثنتين وسبعين نفسا دار المظفر. أحرار ومماليك مائة وست وستون نفسا. القصر الغربي. أحرار مائة وأربعون نفسا. الايوان تسعة وسبعون رجلا بالغون، وأما منازل العز فاشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب بن شادى فى نصف شعبان سنة ست وستين وخمسمائة، وجعلها مدرسة للفقهاء الشافعية، واشترى الروضة وجعلها وقفا على المدرسة المذكورة، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

ذكر حارات القاهرة وظواهرها

قال ابن سيده: والحارة كل محلة دنت منازلها، قال: والمحلة منزل القوم، وبالقاهرة وظواهرها عدة حارات وهى (**حارة بهاء الدين**) هذه الحارة كانت قديماً خارج باب الفتوح الذى وضعه القائد جوهر عند ما اختط أساس القاهرة من الطوب النيء، وقد بقى من هذا الباب عقدة برأس حارة بهاء الدين، وصارت هذه الحارة إليوم من داخل باب الفتوح الذى وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى، وهو الموجود الآن، وحد هذه الحارة عرضاً من خط باب الفتوح الآن إلى خط حارة الوراقة بسوق المرحلين، وحدها طولا فيما وراء ذلك إلى خط باب القنطرة وكانت هذه الحارة

تعرف بحارة الريحانية والوزيرية، وهما طائفتان من طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين. فإن بها كانت مساكنهم، وكان فيها لهاتين الطائفتين دور عظيمة وحوانينت عديدة، وقيل لها أيضا بين الحارتين، واتصلت العمارة إلى السور ولم تزل الريحانية والوزيرية بهذه الحارة إلى أن كانت واقعة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالعبيد.

ذكر واقعة العبيد

وسببها أن مؤتمن الخلافة جوهراً أحد الاستاذين المحنكين بالقصر تحدث فى إزالة صلاح الدين يوسف بن أيوب من وزارة الخليفة العاضد لدين الله عندما ضايق أهل القصر وشدد عليهم واستبد بأمور الدولة، وأضعف جانب الخلافة، وقبض على أكابر أهل الدولة فصار مع جوهر عدة من الأمراء المصريين والجند واتفق رأيهم أن يبعثوا إلى الفرنج ببلاد الساحل يستدعونهم إلى القاهرة حتى إذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ثاروا وهم بالقاهرة واجتمعوا مع الفرنج على إخراجه من مصر فسيروا رجلا إلى الفرنج وجعلوا كتبهم التى معه فى نعل وحفظت بالجلد مخافة أن يفطن بها. فسار الرجل إلى البير البيضاء قريباً من بلبيس. فإذا بعض أصحاب صلاح الدين هناك فأنكر أمر الرجل من أجل أنه جعل النعلين فى يده، ورآهما وليس فيهما أثر للمشي، والرجل رث الهيئة فارتاب وأخذ النعلين وشقهما فوجد الكتب ببطنهما فحمل الرجل والكتب إلى صلاح الدين فتتبع خطوط الكتب حتى عرفت، فإذا الذى كتبها من اليهود الكتاب فأمر بقتله فاعتصم بالإسلام وأسلم وحدثه الخبر فبلغ ذلك مؤتمن الخلافة فاستشعر الشر وخاف على نفسه ولزم القصر وامتنع من الخروج منه. فأعرض صلاح الدين عن ذلك جملة، وطال الامد فظن الخصى أنه قد أهمل أمره، وشرع يخرج من القصر وكانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية فى بستان فخرج إليها فى جماعة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنهض إليه عدة هجموا عليه وقتلوه فى يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة واحتزوا رأسه وأتوا بها إلى صلاح الدين فاشتهر ذلك بالقاهرة وأشيع. فغضب العسكر المصرى وثاروا بأجمعهم فى سادس عشريه، وقد

انضم إليهم عالم عظيم من الأمراء والعامة حتى صاروا ما ينيف على خمسين ألفاً وساروا إلى دار الوزارة وفيها يومئذ ساكناً بها صلاح الدين، وقد استعدوا بالأسلحة فبادر شمس الدولة فخر الدين توران شاه أخو صلاح الدين وصرخ فى عساكر الغزو، وركب صلاح الدين وقد اجتمع إليه طوائف من أهله وأقاربه وجميع الغزو رتبهم ووقفت الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية والطائفة الفرحية وغيرهم من الطوائف السودانية ومن انضم إليهم بين القصرين فثارت الحروب بينهم وبين صلاح الدين، واشتد الأمر وعظم الخطب حتى لم يبق الا هزيمة صلاح الدين وأصحابة. فعند ذلك أمر توران شاه بالحملة على السودان فقتل فيها أحد مقدميهم فانكف بأسهم قليلا وعظمت حملة الغز عليهم فانكسروا إلى باب الذهب ثم إلى باب الزهومة وقتل حينئذ عدة من الامراء المصريين وكثير ممن عداهم وكان العاضد فى هذه الوقعة يشرف من المنظرة فلما رأى أهل القصر كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من أعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى أنكوا فيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون. فأمر حينئذ صلاح الدين النفاطين بإحراق المنظرة فأحضر شمس الدولة النفاطين، وأخذوا فى تطبيب قارورة النقط وصوبوا بها على المنظرة التى فيها العاضد فخاف على نفسه وفتح باب المنظرة زعيم الخلافة أحد الأستاذين وقال بصوت عال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم من بلادكم. فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا. فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم أقفيتهم إلى أن وصلوا إلى السيوفيين. فقتل منهم كثير وأسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان. فأحرق عليهم وكان فى دار الأرمن التى كانت قريباً من بين القصرين خلق عظيم من الأرمن كلهم رماة، ولهم جار فى الدولة يجرى عليهم فعندما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن أن يسيروا إلى العبيد فأحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقا وقتلا ومروا إلى العبيد فصاروا كلما داخلوا مكانا أحرق عليهم وقتلوا فيه إلى أن وصلوا إلى باب زويلة فإذا هو مغلوق. فحصروا هناك واستمر فيهم القتل مدة يومين، ثم بلغهم أن صلاح الدين أحرق المنصورة التى كانت أعظم حاراتهم وأخذت عليهم أفواه السكك. فأيقنوا أنهم قد أخذوا لا محالة فصاحوا: الأمان. فأمنوا وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من

ذى القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا إلى الجيزة فعدا عليهم شمس الدولة فى العسكر وقد قووا بأموال المهزومين وأسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا الشريد، وتلاشى من هذه الواقعة أمر العاضد، وكان من غرائب الاتفاقات أن الدولة الفاطمية كان الذى افتتح لها بلاد مصر وبنى القاهرة جوهر القائد، والذى كان سببا فى إزالة الدولة وخراب القاهرة جوهر المنعوت بمؤتمن الخلافة. هذا ثم لما استبد صلاح الدين يوسف بسطنة الديار المصرية بعد موت الخليفة العاضد لدين الله سكن هذه الحارة الأمير الطواشى الخصى بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى فعرفت به.

(**حارة برجوان**) منسوبة إلى الاستاذ أبى الفتوح برجوان الخادم وكان خصيا أبيض تام الخلقة ربى فى دار الخليفة العزيز بالله، وولاه أمر القصور. فلما حضرته الوفاة وصاه على ابنه الأمير أبى على منصور فلما مات العزيز بالله أقيم ابنه منصور فى الخلافة من بعده، وقام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الكتامى فدبر الامور وبرجوان يناكده فيما يصدر عنه، ويختص بطوائف من العكسر دونه إلى أن أفسد أمر ابن عمار فنظر برجوان فى تدبير الامور يوم الجمعة لثلاث يقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وصار الواسطة بين الحاكم وبين الناس فأمر بجمع الغلمان ونهاهم عن التعرض لأحد من الكتامين والمغاربة، ووجه إلى دار ابن عمار فمنع الناس عنها بعد أن كانوا قد أحاطوا بها وانتهبوا منها، وأمر أن يجرى لأصحاب الرسوم والرواتب جميع ماكان ابن عمار قطعه، وأجرى لابن عمار ماكان يجرى له فى أيام العزيز بالله من الجرايات لنفسه ولاهله وحرمه ومبلغ ذلك من اللحم والتوابل خمسمائة دينار فى كل شهر. يزيد عن ذلك أو ينقص عنه على قدر الاسعار مع ماكان له من الفاكهة. وهو فى كل يوم سلة بدينار وعشر أرطال شمع بدينار ونصف حمل بلح، وجعل كاتب أبا العلاء فهد ابن إبراهيم النصرانى يوقع عنه، وينظر فى قصص الراغبين وظلاماتهم فجلس لذلك فى القصر وصار يطالعه بجميع مايحتاج إليه ورتب الغلمان فى القصر وأمرهم بملازمة الخدمة وتفقد أحوالهم، وأنزل علل أولياء الدولة وتفقد أمور الناس وأزال ضروراتهم، ومنع الناس كافة من الترجل له. فكان الناس يلقونه فى داره فإذا تكامل لقاؤهم ركبوا بين يديه إلى القصر ماعدا الحسين بن جوهر والقاضى ابن النعمان

فقط . فانهما كانا يتقدمانه من دورهما إلى القصر أو يلحقانه ، ويكون سلامهما عليه فى القصر . حتى أنه لقب كاتبه فهد بالرئيس فصار يخاطب بذلك ويكاتب به ، وكان برجوان يجلس فى دهاليز القصر ، ويجلس الرئيس فهد بالدهليز الأول يوقع ، وينظر ويطالع برجوان مايحتاج إليه مما يطالع به الحاكم . فيخرج الامر بما يكون العمل به ، وترقت أحوال برجوان إلى أن بلغ النهاية فقصر عن الخدمة وتشاغل بلذاته ، وأقبل على سماع الغناء وأكثر من الطرب وكان شديد المحبة فى الغناء فكان المغنون من الرجال والنساء يحضرون داره فيكون معهم كأحدهم . ثم يجلس فى داره حتى يمضى صدر النهار ويتكامل جميع أهل الدولة وأرباب الأشغال على بابه فيخرج راكبا ويمضى إلى القصر فيمشى من الأمور مايختار بغير مشاورة . فلما تزايد الأمر وكثر استبداده تحرد له الحاكم ونقم عليه أشياء من تجربة عليه ومعاملته له بالإذلال وعدم الامتثال منها أنه استدعاه يوما وهو راكب معه فصار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم ونحو ذلك من سوء الأدب . فلما كان يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلاثمائة أنفذ إليه الحاكم عشية للركوب معه إلى المقياس فجاه بعد ماتباطأ وقد ضاق الوقت ، فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم باكيا يصيح : قتل مولاي ، وكان هذا الخادم عينا لبرجوان فى القصر فاضطرب الناس وأشرف عليهم الحاكم ، وقام زيدان صاحب المظلة فصاح بهم من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور . فانصرف الجميع فكان من خبر قتل برجوان أنه لما دخل إلى القصر كان الحاكم فى بستان يعرف بدورة التين والعناب ومعه زيدان فوافاه برجوان بها وهو قائم . فنسلم ووقف فسار الحاكم إلى ان خرج من باب الدورة فوثب زيدان على برجوان وضربه بسكين كانت معه فى عنقه ، وابتدره قوم كانوا قد أعدوا للفتك به فأثخنوه جراحة بالخناجر واحتزوا رأسه ودفنوه هناك . ثم إن الحاكم أحضر إليه الرئيس فهدا بعد العشاء الاخير وقال له : أنت كابني ، وأمنه وطمنه فكانت مدة نظر برجوان فى الوساطة سنتين وثمانية أشهر تنقص يوما واحدا ، ووجد الحاكم فى تركته مائة منديل يمنى عمامة كلها شروب ملونة مصممة على مائة شاشية وألف سراويل دبيقية بألف تكة حرير أرمنى ومن الثياب المخيطة والصحاح والحلى والمصاغ والطيب والفرش

والصياغات الذهب والفضة مالا يحصى كثرة ومن العين ثلاثة وثلاثين ألف دينار، ومن الخيل الركابية مائة وخمسين فرسا وخمسين بغلة ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلاثمائة رأس ومائة وخمسين سرجا منها عشرون وزن ذهبا، ومن الكتب شيء كثير، وحمل لجاريته من مصر إلى القاهرة رحل على ثمانين حماراً. قال ابن خلكان: وبرجوان بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الالف نون هكذا وجدته مقيدا بخط بعض الفضلاء وقال ابن عبد الظاهر، ويسمى الوزغ سماه به الحاكم.

(**حارة زويلة**) قال ابن عبد الظاهر: لما نزل القائد جوهر بالقاهرة اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها. فزويلة بنت الحارة المعروفة بها والبئر التى تعرف ببئر زويلة فى المكان الذى يعمل فيه الآن الروايا والبابان المعروفان ببابى زويلة، وقال ياقوت: زويلة بفتح الزاى وكسر الواو وياء ساكنة وفتح اللام أربعة مواضع. الأول زويلة السودان، وهى قصبة أعمال فزان فى جنوب أفريقية. مدينة كثيرة النخل والزرع.

الثانى زويلة المهدية. بلد كالربض للمهدية اختطه عبد الله الملقب بالمهدي، وأسكنه الرعية وسكن هو بالمهدية التى استجدها، فكانت دكاكين الرعية وأمتعتهم بالمهدية ومنازلهم وحرمهم بزويلة. فكانوا يظلون بالنهار فى المهدية ويبيتون ليلا بزويلة، وزعم المهدى أنه فعل بهم ذلك ليأمن غائلتهم. قال: أحول بينهم وبين أموالهم ليلا، وبينهم وبين نسائهم نهاراً.

الثالث باب زويلة بالقاهرة من جهة الفسطاط.

الرابع حارة زويلة، محلة كبيرة بالقاهرة بينها وبين باب زويلة عدة محال. سميت بذلك لان جوهرا غلام المعز لما اختط محله بالقاهرة أنزل أهل زويلة بهذا المكان فتسمى لهم.

(**الحارة المحمودية**) الصواب فى هذه الحارة ان يقال حارة المحمودية على الإضافة. فإنها عرفت بطائفة من طوائف عسكر الدولة الفاطمية كان يقال لها الطائفة المحمودية. وقد ذكرها المسيحى فى تاريخه مرارا قال: فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وفيها اقتتلت الطائفة المحمودية والبيانسية، واشتبه أمر هذه الحارة على ابن عبد الظاهر، فلم يعرف نسبتها لمن. وقال: لا أعلم فى الدولة المصرية من اسمه محمود الاركن الإسلام محمود ابن أخت

الصالح بن رزيك صاحب التربة بالقرافة . اللهم إلا أن يكون محمود بن مصال الملكى الوزير . فقد ذكر ابن القفطى أنه اسمه محمود ، ومحمود صاحب المسجد بالقرافة ، وكان فى زمن السرى بن الحكم قبل ذلك ، وهذا وهم آخر . فإن ابن مصال الوزير اسمه سليمان وينعت نجم الدين ، ووقعت فى هذه الحارة نكتة ، قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة أربع وتسعين وخمسمائة والسلطان يومئذ بمصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وكان فى شعبان قد تتابع أهل مصر والقاهرة فى إظهار المنكرات وترك الانكار لها وإباحة أهل الأمر والنهى فعلها ، وتفاحش الامر فيها إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره ، وأقيمت طاحون بالمحمودية لطحن حشيشة للبزر وأفردت برسمه ، وحميت بيوت المزر ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة . فمنها ما انتهى أمره فى كل يوم إلى ستة عشر دينارا ومنع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من مواضع الحمي ، وحملت أوانى الخمر على رؤوس الاشهاد وفى الاسواق من غير منكر ، وظهر من عاجل عقوبة الله تعإلى وقوف زيادة النيل عن معتادها ، وزيادة سعر الغلة وقت ميسورها .

(حارة الجودرية) هذه الحارة عرفت أيضا بالطائفة الجودرية أحد طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر الله على ماذكره المسيحي ، وقال ابن عبد الظاهر : الجودرية أحد طوائف منسوبة إلى جماعة تعرف بالجودرية اختطوها ، وكانوا أربعمائة منهم أبو على منصور الجودرى الذى كان فى أيام العزيز بالله ، وزادت مكانته فى الأيام الحاكمية فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك ، ولها حكاية سمعت جماعة يحكونها ، وهى أنها كانت سكن إليهود والمعروفة بهم ، فبلغ الخليفة الحاكم أنهم يجتمعون بها فى أوقات خلواتهم ويغنون

وأمة قد ضلوا ودينهم معتـل

قال لهم نبيهم نعم الإدام الخل

ويسخرون من هذا القول ويتعرضون إلى مالاينبغى سماعه . فأتى إلى أبوابها وسدها عليهم ليلا وأحرقها . فإلى هذا الوقت لايبيت بها يهودى ولايسكنها أبدا ، وقد كان فى الايام العزيزية جودر الصقلى أيضًا ضرب عنقه ونهب ماله فى سنة ست وثمانين وثلاثمائة .

(حارة الوزيرية) هى أيضًا تنسب إلى طائفة يقال لها الوزيرية من جملة طوائف العسكر، وكانت أولا تعرف بحارة بستان المصمودي، وعرفت أيضا بحارة الأكراد. قال ابن عبد الظاهر: الوزيرية إلى الآن منسوبة إليه يعنى الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس أبو الفرج. كان يهوديا من أهل بغداد فخرج منها إلى بلاد الشام، ونزل بمدينة الرملة وأقام بها فصار فيها وكيلا للتجار بها، واجتمع فى قبله مال عجز عن أدائه. ففر إلى مصر فى أيام كافور الإخشيدى فتعلق بخدمته، ووثب إليه بالمتجر فباع إليه أمتعة أحيل بثمنها على ضياع مصر. فكثر لذلك تردده على الريف وعرف أخبار القري، وكان صاحب حيل ودهاء ومكر ومعرفة مع ذكاء مفرط وفطنة وحسن السياسة. فقال لو كان هذا مسلمًا لصلح أن يكون وزيراً. فلما بلغه هذا عن كافور تاقت نفسه إلى الولاية وأحضر من علمه شرائع الإسلام سراً. فلما كان فى شعبان سنة ست وخمسين وثلاثمائة دخل إلى الجامع بمصر وصلى صلاة الصبح وركب إلى كافور معه محمد بن عبد الله بن الخازن فى خلق كثير فخلع عليه كافور ونزل إلى داره، ومعه جمع كثير وركب إليه أهل الدولة يهنونه، ولم يتأخر عن الحضور إليه أحد فغص بمكانه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات وقلق بسببه، وأخذ فى التدبير عليه ونصب الحبائل له حتى خافه يعقوب. فخرج من مصر فارا منه يريد بلاد المغرب فى شوال سنة سبع وخمسين، وقد مات كافور. فلحق بالمعز لدين الله أبى تميم معد فوقع منه موقعًا حسنًا، وشاهد منه معرفة وتدبيرا فلم يزل فى خدمته حتى قدم من المغرب إلى القاهرة فى شهر رمضان سنة اثنين وستين وثلاثمائة فقلده فى رابع عشر المحرم سنة ثلاث وستين الخراج وجميع وجوه الاموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع مايضاف إلى ذلك وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال، وأشرك معه فى ذلك كله عسلوج ابن الحسن وكتب لهما سجلا بذلك قرىء فى يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون فقبضت أيدى سائر العمال والمتضمنين، وجلس يعقوب وعسلوج فى دار الإمارة فى جامع أحمد بن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال وحضر الناس للمقبالات وطالبا بالبقايا من الأموال مما على الناس من المالكين والمقبلين والعمال واستقصيا فى الطلب ونظرا فى المظالم فتوفرت الأموال وزيد فى الضياع وتزايد الناس وتكاشفوا وامتنعا أن يأخذا إلا ديناراً معزيًا. فاتضع الدينار الراضى وانحط ونقص من صرفه أكثر من

ربع دينار فخسر الناس كثيراً من أموالهم فى الدينار الأبيض والدينار الراضي، وكان صرف المعزى خمسة عشر درهمًا ونصفًا، واشتد الاستخراج فكان يستخرج فى اليوم نيف وخمسون ألف دينار معزية، واستخرج فى يوم واحد مائة وعشرون ألف دينار معزية وحصل فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار، وهذا شيء لم يسمع قط بمثله فى بلد. فاستمر الأمر على ذلك إلى المحرم سنة خمس وستين وثلاثمائة فتشاغل يعقوب عن حضور ديوان الخراج، وانفرد بالنظر فى امور المعز لدين الله فى قصره وفى الدور الموافق عليها، وبعد ذلك بقليل مات المعز لدين الله فى شهر ربيع الآخر منها، وقام من بعده فى الخلافة ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار. ففوض ليعقوب النظر فى سائر أموره، وجعله وزيراً له فى أول المحرم سنة سبع وستين وثلاثمائة، وفى شهر رمضان سنة ثمان وستين لقبه بالوزير الأجل وأمر أن لايخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا به وخلع عليه وحمل ورسم له فى المحرم سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة أن يبدأ له فى مكاتباته باسمه على عنوانات الكتب النافذة عنه، وخرج توقيع العزيز بذلك، وفى هذه السنة اعتقل فى القصر ورد الأمر إلى خير بن القاسم فأقام معتقلا عدة شهور ثم أطلق فى سنة أربع وسبعين وحمل على عدة خيول وقرىء سجل برده إلى تدبير الدولة، ووهبه خمسمائة غلام من الناشئة والف غلام من المغاربة ملكه العزيز رقابهم. فكان يعقوب أول وزراء الخلفاء الفاطميين بديار مصر. فدبر أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب وأعمال هذه الأقاليم كلها من الرجال والأموال والقضاء والتدبير وعمل له إقطاعا فى كل سنة بمصر والشام مبلغها وثلاثمائة ألف دينار واتسعت دائرته وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب وكان يجلس كل يوم فى داره ويأمر وينهى ولايرفع إليه رقعة إلا وقع فيها ولايسأل فى حاجة إلا قضاها ورتب فى داره الحجاب نوبا وأجلسهم على مراتب وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف وجعل لهم المناطق، ورتب فرسين فى داره للنوبة لاتبرح واقفة بسروجها ولجمها لهم ونصب فى داره الدواوين فجعل ديوانا للعزيزية فيه عدة كتاب وديوانًا للجيش فيه عدة كتاب، وديوانًا للأموال فيه عدة كتاب، وعدة جهابذة، وديوانًا للخراج، وديوانًا للسجلات والإنشاء، وديوانًا للمستغلات وأقام على هذه الدواوين زمانا، وجعل فى داره خزانة، وكان يجلس عنده فى كل يوم الأطباء لينظروا فى

حال الغلمان ومن يحتاج منهم إلى علاج أو إعطاء دواء، ورتب إلى داره الكتاب والأطباء يقفون بين يديه، وجعل فيها العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأرباب الصنائع لكل طائفة مكان مفرد، وأجرى على كل واحد منهم الارزاق، وألف كتبًا فى الفقه والقراءات ونصب له مجلسا فى داره يحضره فى كل يوم ثلاثاء ويحضر إليه الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل يتناظرون بين يديه. فمن تآليفه كتاب فى القراءات وكتاب فى الأديان، وهو كتاب الفقه واختصره، وكتاب فى آداب رسول الله› وكتاب فى علم الابدان وصلاحها فى ألف ورقة، وكتاب فى الفقه مما سمعها من الإمام المعز لدين الله والامام العزيز بالله، وكان يجلس فى يوم الجمعة أيضًا ويقرأ مصنفاته على الناس بنفسه وفى حضرته القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود. فإذا فرغ من قراءة مايقرأ من مصنفاته قام الشعراء ينشدون مدائحهم فيه، وكان فى داره عدة كتاب يتسخون القرآن الكريم والفقه والطب وكتب الأدب وغيرها من العلوم فإذا فرغوا من نسخها قوبلت وضبطت، وجعل فى داره، قراء وأئمة يصلون فى مسجد داره وأقام بداره عدة مطابخ لنفسه ولجلسائه ولغلمانه وحواشيه، وكان ينصب مائدة لخاصته يأكل هو وخواصه من أهل العلم ووجوه كتابه وخواص غلمانه ومن يستدعيه عليها، وينصب عدة موائد لبقية الحجاب والكتاب والحواشى وكان إذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من المعز والعزيز لايمنع أحد من مجلسه فيجتمع عنده الخاص والعام، ورتب عند العزيز بالله جماعة لايخاطبون إلا بالقائد، وأنشأ عدة مساجد ومساكن بمصر والقاهرة، وكان يقيم فى شهر رمضان الاطعمة للفقهاء ووجوه الناس وأهل الستر والتعفف، ولجماعة كثيرة من الفقراء، وكان إذا فرغ الفقهاء والوجوه من الأكل معه يطاف عليهم بالطيب ومرض مرة من علة أصابت يده فقال فيه عبد الله بن محمد ابن أبى الجرع

يد الوزير هى الدنيا فإن ألمت

رأيت فى كل شىء ذلك الألما

تأمل الملك وانظر فرط علته

من أجله واسأل القرطاس والقلما

وشاهد البيض فى الأغماد حائمــة

إلى العـدا وكثيراً ماروين دما

وانفس الناس بالشكوى قد اتصلت

كأنما أشـعرت من أجله سقما

هل ينهض المجـــد إلا أن يؤيده

ســاق يقدم فى إنهاضه قدما

لولا العـــزيز وآراء الوزير معـــا

تحيفتنـا خطوب تشعب الأمما

فقل لهـــذا وهـــذا أنتما شرف

لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما

كلا كما لم يزل فى الصالحات يدا

مبســوطة ولسانا ناطقا وفما

ولا أصابكما أحـــداث دهر كما

ولا طوى لكما ما عشتما علما

ولا انمحت عنـك يامولاى عافية

فقد محوت بما أوليتنى العدما

وكان الناس يفـتون بكتابه فى الفقه، ودرس فـيه الفقـهاء بجامع مصـر، وأجرى العزيز بالله لجمـاعـة فقـهاء يحضـرون مـجلس الوزير أرزاقـا فى كل شـهر تكفيـهم. وكان للوزير مجلس فى داره للنظر فى رقاع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده فى الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه، وأراد العزيز بالله أن يسافر إلى الشام فى زمن ابتداء الفـاكهـة فأمر الوزير أن يأخذ الأهبة لذلك فقال يامولاى لكل سفر أهبة على مقداره فما الغرض من السفر؟ فقال أنى أريد التفرج بدمشق لاكل القراصيا. فقال السمع والطاعة وخرج فاستدعى جميع أرباب الحمام

وسألهم عما بدمشق من طيور مصر وأسماء من هى عنده، وكانت مائة ونيفا وعشرين طائراً ثم التمس من طيور دمشق التى هى فى مصر عدة فأحضرها وكتب إلى نائبه بدمشق يقول إن بدمشق كذا وكذا طائراً وعرفه أسماء من هى عنده وأمر باحضارها إليه جميعها وأن يصيب من القراصيا فى كل كاغدة ويشدها على كل طائر منها ويسرحها فى يوم واحد فلم يمض إلا ثلاثة أيام أو أربعة حتى وصلت الحمائم كلها ولم يتأخر منها إلا نحو عشر وعلى جناحها القراصيا فاستخراجها من الكواغد وعملها فى طبق من ذهب وغطاها وبعث بها إلى العزيز بالله مع خادم وركب إليه وقدم ذلك، وقال يا أمير المؤمنين قد حضرنا قبالك القراصيا هنا فإن أغناك هذا القدر وإلا استدعينا شيأ آخر فعجب العزيز بالوزير وقال: مثلك يخدم الملوك ياوزير وأتفق انه سابق العزيز بين الطيور فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز فشق ذلك على العزيز ووجد أعداء الوزير سبيلا إلى الطعن فيه فكتبوا إلى العزيز أنه قد اختار من كل صنف أعلاه، ولم يترك لأمير المؤمنين إلا أدناه حتى الحمام فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى العزيز :

قل لامير المؤمنين الذي

له العلى والمثل الثاقب

طائرك السابق لكنه

لم يأت إلا وله حاجب

فأعجب العزيز ذلك وأعرض عما وشى به ولم يزل على حال رفيعة وكلمة نافذة إلى أن ابتدأت به علته يوم الاحد الحادى والعشرين من شوال سنة ثمانين وثلاثمائة ونزل إليه العزيز بالله يعوده، وقال له وددت أنك تباع فأبتاعك بمإلى أو تفدى فأفديك بولدي. فهل من حاجة توصى بها يايعقوب! فبكى وقبل يده وقال أما فيما يخصنى فأنت أرعى بحقى من أن استرعيك إياه وأرأف على من أن أوصيك به، ولكنى أنصح لك فيما يتعلق بك وبدولتك سالم الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والشكر ولاتبق على مفرج بن دعقل إن عرضت لك فيه فرصة وانصرف العزيز فأخذته السكنة وكان فى سباق الموت يقول لايغلب الله غالب. ثم قضى نحبه ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجة فأرسل العزيز بالله إلى

داره الكفن والحنوط وتولى غسله القاضى محمد بن النعمان، وقال كنت والله أغسل لحيته وأنا أرفق به خوفا أن يفتح عينه فى وجهي، وكفن فى خمسين ثوبا ثلاثين مثقلا. يعنى منسوجا بالذهب ووشى مذهبًا وشرب ديبقى مذهبًا وحقه كافورا وقارورتى مسك وخمسين منا ماء ورد وبلغت قيمة الكفن والحنوط عشرة آلاف دينار، وخرج مختار الصقلى وعلى بن عمر العداس والرجال بين أيديهم ينادون لايتكلم أحد ولاينطق، وقد اجتمع الناس فيما بين القصر ودار الوزير التى عرفت بدار الديباج. ثم خرج العزيز من القصر على بغلة والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه حتى وصل، إلى داره فنزل وصلى عليه، وقد طرح على تابوته ثوب مثقل ووقف حتى دفن بالقبة التى كان بناها وهو يبكى ثم انصرف، وسمع العزيز وهو يقول واطول أسفى عليك ياوزير. والله لو قدرت أفديك بجميع ماأملك لفعلت وأمر بإجراء غلمانه على عادتهم وعتق جميع مماليكه وأقام ثلاثًا لا يأكل على مائدته ولايحضرها من عادته الحضور، وعمل على قبره ثوبان مثقلان وأقام الناس عند قبره شهرا وغدا الشعراء إلى قبره فرثاه مائة شاعر أجيزوا كلهم وبلغ العزيز أن عليه ستة عشر ألف دينار فأرسل بها إلى قبره فوضعت عليه وفرقت على أرباب الديون وألزم القراء بالمقام على قبره، وأجرى عليهم الطعام وكانت الموائد تحضر إلى قبره كل يوم مدة شهر يحضر نساء الخاصة كل يوم ومعهن نساء العامة، فتقوم الجوارى بقداح الفضة والبلور وملاعق الفضة فيسقين النساء الأشربة والسويق بالسكر ولم تتأخر نائحة ولا لاعبة عن حضور القبر مدة الشهر، وخلف أملاكا وضياعا قياسير ورباعا وعينا وورقا وأوانى ذهبًا وفضة وجوهرا وعنبرًا وطيبا وثيابا وفرشا ومصاحف وكتبًا وجوارى وعبيدًا وخيلا وبغالا ونوقا وحمرا وإبلا وغلالا وخزائن مابين أشربة وأطعمة قومت بأربعة آلاف ألف دينار، سوى ماجهز به ابنته وهو ماقيمته مائتا ألف دينار وخلف ثمانى مائة حظية سوى جوارى الخدمة، فلم يتعرض العزيز لشيء مما يملكه أهله وجواريه وغلمانه وأمر بحفظ جهاز ابنته إلى أن زوجها وأجرى لمن فى داره كل شهر ستمائة دينار للنفقة سوى الكسوة والجرايات ومايحمل إليهم من الاطعمة من القصر، وأمر بنقل ماخلفه إلى القصر فلما تم له من يوم وفاته شهر قطع الأمير منصور بن العزيز جميع مستغلاته، وأقر العزيز جميع مافعله الوزير وما ولاه من العمال على حاله، وأجرى الرسوم التى كان يجريها، وأقر غلمانه على حالهم،

وقـال : هؤلاء صنائعي ، وكـانت عـدة غلمـان الوزير أربعـة آلاف غـلام عـرفـوا بالطائفـة الوزيرية ، وزاد العزيز أرزاقهم عما كانت عليه وأدناهم ، وإليهم تنسب الوزيرية كأنها كانت مساكنهم ، واتفق أن الوزير عمر قبة أنفق عليها خمسة عشر ألف دينار وآخر ماقال لقد طال أمر هذه القبة . ماهذه قبة . هذه تربة . فكانت كذلك ودفن تحتها وموضع قبره إليوم المدرسة الصاحبية واتفق انه وجد فى داره رقعة مكتوب فيها

احذروا من حوادث الأزمان

وتوقوا طـــــوارق الحدثان

قد أمنتم ريب الزمان ونمتم

رب خوف مكمن فى الأمان

فلمـا قـرأها قـال لاحـول ولاقـوة الا بالله العلى العظيم ولم يلبث بعـدها الا اياما يسـيرة ومرض فمات .

(**حارة الباطلية**) عرفت بطائفة يقال لهم الباطلية قال بن عبد الظاهر : وكان المعز لما قسم العطاء فى الناس جاءت طائفة فسألت عطاء فقيل لها فرغ مـاكان حاضراً ولم يبق شيء . فقالوا : رحنا نحن فى الباطل .

فسـموا الباطلية وعرفت هذه الحارة بهم وفى سنة ثلاث وستين وستمائة احترقت حارة البـاطلية عند ماكثر الحريق فى القاهرة ومصر واتهم النصارى بفعل ذلك فجمعـهم الملك الظاهر بيبرس وحملت لهم الاحطاب الكثيرة والحلفاء وقدموا ليحرقوا بالنار فتشفع لهم الامير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلترموا بالأموال التى احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار فتركوا ، وجرى فى ذلك ماتستحسن حكايته ، وهو أنه قد جمع مع النصـارى سائر إليهود وركب السلطان ليحرقهم بظاهر القاهرة وقد اجتمع الناس من كل مكان للتشفى بحريقهم لما نالهم من البلاء فيما دهوابه من حريق الاماكن . لاسيما البـاطليـة فإنهـا أتت النار عليـها حتى حـرقت بأسرها . فلمـا حضـر السلطان وقـدم إليـهود والنصـارى ليحرقوا برزابن الكازرونى إليهودى وكـان صيرفيا وقـال للسلطان : سـألتك بالله لاتحـرقنا مع هؤلاء الكلاب الملاعين أعـدائنا وأعـدائكـم احـرقنا ناحيـة وحـدنا . فـضـحك

السلطان والامراء، وحينئذ تقرر الامر على ماذكر فندب لاستخراج المال منهم الامير سيف الدين بلبان المهرانى فاستخلص بعض ذلك فى عدة سنين وتطاول الحال فدخل كتاب الأمراء مع مخاديمهم وتحيلوا فى إبطال مابقى فبطل فى أيام السعيد بن الظاهر، وكان سبب فعل النصارى لهذا الحريق حنقهم لما أخذ الظاهر من الفرنج أرسوف وقيسارية وطرابلس ويافا وأنطاكية، ومازالت الباطلية خرابا والناس تضرب بحريقها المثل لمن يشرب الماء كثيرا فيقولون كأن فى باطنه حريق الباطلية ولما عمر الطواشى بهادر المقدم داره بالباطلية عمرت فيها مواضع بعدسنه خمس وثمانين وسبعمائة.

(**حارة الروم**) قال ابن عبد الظاهر: واختطت الروم حارتين حارة الروم الآن، وحارة الروم الجوانية، فلما ثقل ذلك عليهم قالوا الجوانية لا غير والوراقون إلى هذا الوقت يكتبون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا المعروفة إليوم بالجوانية، وفى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم فهدمت ونهبت.

(**حارة الديلم**) عرفت بذلك لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والاتراك فى سنة ثمان وستين وثلاثمائة فسكنوا بها فعرفت بهم وهفتكين هذا يقال له الفتكين أبو منصور التركى الشرابى غلام معز الدولة أحمد بن بويه، ترقى فى الخدم حتى غلب فى بغداد عن عز الدولة، مختار بن معز الدولة وكان فيه شجاعة وثبات فى الحرب، فلما سارت الاتراك من بغداد، الحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين إلا أن أصحابه انهزموا عنه وصار فى طائفة قليلة فولى بمن معه من الأتراك وهم نحو الاربعمائة فسار إلى الرحبة وأخذ منها على البر إلى أن قرب من حواشية احدى قرى الشام، وقد وقع فى قلوب العربان منه مهابة فخرج إليه ظالم بن مرهوب العقيلى من بعلبك وبعث إلى أبى محمود ابراهيم بن جعفر أمير دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله يعلمه بقدوم هفتكين من بغداد لإقامة الخطبة العباسية وخوفه منه فأنفذ إليه عسكرا وسار، إلى ناحية حوشية يريد هفتكين وسار بشارة الخادم من قبل أبى المعالى بن حمدان عوناً لهفتكين فرد ظالم إلى بعلبك من غير حرب، وسار بشارة بهفتكين إلى حمص فحمل إليه أبو المعالى وتلقاه وأكرمه وكان قد ثار بدمشق جماعة من أهل الدعارة

والفساد وحاربوا عمال السلطان، واشتد أمرهم، وكان كبيرهم يعرف بابن الماورد فلما بلغهم خبر هفتكين بعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه ووعدوه بالقيام معه على عسكار المعز وإخراجهم من دمشق ليلى عليهم فوقع ذلك منه بالموافقة، وصار حتى نزل بثنية العقاب لأيام بقيت من شعبان سنة أربع وستين وثلاثمائة فبلغ عسكر المعز خبر الفرنج وانهم قد قصدوا طرابلس فساروا بأجمعهم إلى لقاء العدو ونزل هفتكين على دمشق من غير حرب فأقام أيامًا ثم سار يريد محاربة ظالم ففر منه، ودخل هفتكين بعلبك فطرقه العد ومن الروم والفرنج وانتهبوا بعلبك وأحرقوا، وذلك فى شهر رمضان وانتشروا فى أعمال بعلبك والبقاع يقتلون ويأسرون ويحرقون وقصدوا دمشق وقد التحق بها هفتكين فخرج إليهم أهل دمشق وسألوهم الكف عن البلد والتزموا بمال فخرج إليهم هفتكين وأهدى إليهم وتكلم معهم فى أنه لايستطيع جباية المال لقوة ابن الماورد وأصحابه، وأمر ملك الروم به فقبض عليه وقيده وعاد وحبى المال من دمشق بالعنف، وحمل إلى ملك الروم ثلاثين ألف دينار ورحل إلى بيروت ثم إلى طرابلس فتمكن هفتكين من دمشق وأقام بها الدعوة لابى بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسى وسير إلى العرب السرايا فظفرت وعادت إليه بعده بمن أسرته من رجال العرب فقتلهم صبرا وكان قد تخوف من المعز فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعز، ومازال بهم حتى وافوا دمشق فى سنة خمس وستين ونزلوا على ظاهرها ومعهم كثير من أصحاب هفتكين الذين كانوا قد تشتتوا فى البلاد فقوى بهم، ولقى القرامطة وحمل إليهم وسربهم فأقاموا على دمشق أياما ثم رحلوا نحو الراملة، وبها أبو محمود فلحق بيافا ونزل القرامطة الرملة ونصبوا القتال على يافا حتى كل الفريقان وسئموا جميعًا من طول الحرب، وسار هفتكين على الساحل ونزل بعيدا، وبها ظالم بن مرهوب العقيلى وابن الشيخ من قبل المعز فقاتلهم قتالا شديدًا انهزم منه ظالم إلى صور وقتل بين الفريقين نحو أربعة آلاف رجل فقطع أيدى القتلى من عسكر المعز وسيرها إلى دمشق فطيف بها ثم سار عن صيدا يريد عكا وبها عسكر المعز، وكان قد مات المعز فى شهر ربيع الآخر وقام من بعده ابنه العزيز بالله، وسير جوهر القائد فى عسكر عظيم إلى قتال هفتكين والقرامطة فبلغ ذلك القرامطة وهم على الرملة ووصل الخبر بمسيره إلى هفتكين وهو على عكا فخاف القرامطة وفروا عنها، فنزلها جوهر وسار من القرامطة إلى الأحساء التى هى بلادهم جماعة، وتأخر عدة، وسار هفتكين من عكا إلى طبرية وقد علم بمسير القرامطة، وتأخر بعضهم فاجتمع بهم فى طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من

بلاد حوران والثنية وأدخلها إلى دمشق وسار إليها فتحصن بها فنزل جوهر على ظاهر دمشق لثمان بقين من ذى القعدة فبنى على معسكره سوراً وحفر خندقا عظيما، وجعل له أبوابًا وجمع هفتكين الناس للقتال، وكان قد بقى بعد ابن الماورد رجل يعرف بقسام التراب، وصار فى عدة وافرة من الدعار فأعانه هفتكين وقواه وأمده بالسلاح وغيره ووقعت بينهم وبين جوهر حروب عظيمة طويلة إلى يوم الحادى عشر من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة فاختل أمر هفتكين وهم بالفرار، ثم انه استظهر ووردت الاخبار بقدوم الحسن بن أحمد القرمطى إلى دمشق فطلب جوهر الصلح على أن يرحل من دمشق من غير أن يتبعه أحدو وذلك أنه رأى أمواله قد قلت وهلك كثير مما كان فى عسكره حتى صار أكثر عسكره رجاله وأعوزهم العلف وخشى قدوم القرامطة فأجابه هفتكين وقد عظم فرحه واشتد سروره. فرحل فى ثالث جمادى الأولى وجد فى المسير وقد قرب القرامطة فأناخ بطبرية فبلغ ذلك القرمطى فقصده وقد سار عنها إلى الرملة. فبعث إليه بسرية كانت لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب وأدركه القرمطى وسار فى أثره هفتكين فمات الحسن بن أحمد القرمطى بالرملة، وقام من بعده بأمر القرامطة ابن عمه جعفر ففسد مابينه وبين هفتكين ورجع عن الرملة إلى الأحساء وناصب هفتكين القتال وألح فيه على جوهر حتى انهزم عنه، وسار إلى عسقلان وقد غنم هفتكين مما كان معه شيئاً يجل عن الوصف ونزل عن البلد محاصراً لها وبلغ ذلك العزيز فاستعد للسير إلى بلاد الشام فلما طال الامر على جوهر راسل هفتكين حتى يقرر الصلح على مال يحمله إليه وأن يخرج من تحت سيف هفتكين فعلق سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معه، من تحته وساروا إلى القاهرة فوجد العزيز قد برز يريد المسير فسار معه وكان مدة قتال هفتكين لجوهر على ظاهر الرملة وفى عسقلان سبعة عشر شهراً وصار العزيز بالله حتى نزل الرملة وكان هفتكين بطبرية فسار إلى لقاء العزيز ومعه أبو إسحاق وأبو طاهر وأخو عز الدولة بن بختيار بن أحمد أبن بويه وأبو اللحاد مرزبان عز الدولة بن بويه فحاربوه فلم يكن غير ساعة حتى هزمت عساكر العزيز عساكر هفتكين وملكوه فى يوم الخميس لسبع بقين من المحرم سنة ثمان وستين وثلاثمائة واستأمن أبو اسحاق ومرزبان بن بختيار وقتل أبو طاهر أخو عز الدولة بن بختيار وأخذ أكثر أصحابه أسري، وطلب هفتكين فى القتلى فلم يوجد وكان قد فر وقت الهزيمة على فرس

بمفرده فأخذه بعض العرب أسيراً فقدم به على مفرج بن دعقل بن الجراح الطائى وعمامته فى عنقه فبعث به إلى العزيز فأمر به فشهر فى العسكر وطيف به على جمل فأخذ الناس يلطمونه ويهزون لحيته حتى رأى فى نفسه العبر ثم سار العزيز بهفتكين والأسرى إلى القاهرة فاصطنعه ومن معه وأحس إليه غاية الإحسان وأنزله فى دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال: لقد احتشمت من ركوبى مع مولانا العزيز بالله وتطوفى إليه بما غمرنى من فضله وإحسانه، فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة: ياعم والله انى أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وان يكون ذلك كله من عندي، وبلغ العزيز أن الناس من العامة يقولون: ماهذا التركى فأمر به فشهر فى أجمل حال، ولما رجع من تطوفه وهب له مالا جزيلا وخلع عليه وأمر سائر الأولياء بأن يدعوه إلى دورهم فما منهم إلا من عمل له دعوة وقدم إليه وقاد بين يديه الخيول. ثم إن العزيز قال له بعد ذلك: كيف رأيت دعوات أصحابنا؟ فقال يامولانا حسنة فى للغاية ومافيهم إلا من أنعم وأكرم فصار يركب للصيد والتفرج وجمع إليه العزيز بالله أصحابه من الاتراك والديلم واستحجبه واختص به، وما زال على ذلك إلى ان توفى فى سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة فاتهم العزيز وزيره يعقوب بن كلس أنه سمه لأن هفتكين كان يترفع عليه فاعتقله مدة ثم أخرجه.

(**حارة الاتراك**) هذه الحارة تجاه الجامع الازهر وتعرف إليوم بدرب الاتراك، وكان نافذا إلى حارة الديلم، والوراقون القدماء تارة يفردونها من حارة الديلم وتارة يضيفونها إليها ويجعلونها من حقوقها. فيقولون تارة حارة الترك والديلم، وتارة يقولون حارتى الديلم والأتراك، وقيل لها حارة الأتراك لأن هفتكين لما غلب ببغداد سار معه من جنسه أربعمائة من الأتراك وتلاحق به عند ورود القرامطة عليه بدمشق عدة من أصحابه. فلما جمع لحرب العزيز بالله كان أصحابه مابين ترك وديلم. فلما قبض عليه العزيز ودخل به إلى القاهرة فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ثمان وستين وثلاثمائة كما تقدم-نزل الديلم مع أصحابهم فى موضع حارة الديلم ونزل هفتكين بأتراكه فى هذا المكان فصار يعرف بحارة الأتراك وكانت مختلطة بحارة الديلم لأنهما أهل دعوة واحدة. إلا أن كل جنس على عدة لتخالفهما فى الجنسية، ثم قبل بعد ذلك درب الاتراك.

(**حارة كتامة**) هذه الحارة مجاورة لحارة الباطلية، وقد صارت الآن من جملتها. كانت منازل كتامة بها عند ماقدموا من المغرب مع القائد جوهر ثم مع العزيز، وموضع هذه الحارة إليوم حمام كواى وما جاورها مما وراء مدرسة ابن الغنام. حيث الموضع المعروف بدرب ابن الاعسر إلى رأس الباطلية، وكانت كتامة هى أصل دولة الخلفاء الفاطميين.

ذكر أبى عبد الله الشيعى

هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعى من أهل صنعاء إليمن. ولى الحسبة فى بعض أعمال بغداد، ثم سار إلى ابن حوشب بإليمن، وصار من كبار أصحابه، وكان له علم وفهم، وعنده دهاء ومكر، فورد على ابن حوشب موت الحلوانى داعى المغرب ورفيقه. فقال لابى عبد الله الشيعى إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد خربها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا، وليس لها غيرك. فبادر فإنها موطأة ممهدة لك. فخرج من إليمن إلى مكة، وقد زوده ابن حوشب بمال فسأل عن حجاج كتامة فأرشد إليهم واجتمع بهم، وأخفى عنهم قصده، وذلك أنه جلس قريبًا منهم فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت فحدثهم فى ذلك وأطال، ثم نهض ليقوم فسألوه أن يأذن لهم فى زيارته فأذن لهم فصاروا يترددون إليه لما رأوا من علمه وعقله، ثم انهم سألوه أين يقصد؟ فقال أريد مصر. فسروا بصحبته ورحلوا من مكة وهو لايخبرهم شيأ من خبره وما هو عليه من القصد وشاهدوا منه عبادة وورعا وتحرجا وزهادة. فقوبت رغبتهم فيه واشتملوا على محبته واجتمعوا على اعتقاده وساروا بأسرهم خدما له، وهو فى اثناء ذلك يستخبرهم عن بلادهم ويعلم أحوالهم ويفحص عن قبائلهم. وكيف طاعتهم للسلطان بافريقية. فقالوا له ليس له علينا طاعة وبيننا وبينه عشرة أيام. قال أفتحملون السلاح؟ قالوا هو شغلنا ومابرح حتى عرف جميع ماهم عليه فلما وصلوا إلى مصر أخذ يودعهم فشق عليهم فراقه، وسألوه عن حاجته بمصر. فقال مالى بها من حاجة إلا أنى أطلب التعليم بها قالوا فأما إذا كنت تقصد هذا فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقك، ومازالوا به حتى أجابهم إلى السير معهم. فساروا به إلى أن قاربوا بلادهم،

وخرج إلى لقائهم أصحابهم، وكان عندهم حس كبير من التشييع، واعتقاد عظيم فى محبة أهل البيت كما قرره الحلواني، فعرفهم القوم خير أبى عبد الله فقاموا بحق تعظيمه وإجلاله ورغبوا فى نزوله عندهم، واقترعوا فيمن يضيفه، ثم ارتحلوا إلى أرض كتامة فوصلوا إليها منتصف الربيع الأول سنة ثمان وثمانين ومائتين فما منهم إلا من سأله أن يكون منزله عنده فلم يوافق أحداً منهم. وقال أين يكون فج الاخيار؟ فعجبوا من ذلك ولم يكونوا قط ذكروه له منذ صحبوه. فدلوه عليه فقصده وقال إذا حللنا به صرنا نأتى كل قوم منكم فى ديارهم ونزورهم فى بيوتهم فرضوا جميعًا بذلك، وسار إلى جبل إيلحان وفيه فج الاخيار. فقال هذا فج الاخيار وماسمى إلا بكم ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبوبها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان قوم اسمهم مشتق من كل مكان، وعظم أمره حتى أن كتامة اقتتلت عليه مع قبائل البربر، وهو لايذ كراسم المهدى ولايعرج عليه، فبلغ خبره إبراهيم بن الأغلب أمير أفريقية فقال أبو عبد الله لكتامة: أنا صاحب النذر الذى قال لكم أبو سفيان والحلواني. فازدادت محبتهم له وعظم أمره فيهم وأتته القبائل من كل مكان، وسار إلى مدينة ناصروق وجمع الخيل وصير أمرها للحسن بن هارون كبير كتامة، وخرج للحرب فظفر وغنم وعمل على ناصروق خندقا فرجعت إليه قبائل من البربر وحاربوه فظفر بهم وصارت إليه أموالهم ووالى الغزو فيهم حتى استقام له أمرهم، فسار وأخذ مدائن عدة فبعث إليه ابن الأغلب بعساكر كانت له معهم حروب عظيمة وخطوب عديدة وأنباء كثيرة آلت إلى غلب أبى عبد الله، وانتشار أصحابه من كتامة فى البلاد. فصار يقول المهدى يخرج فى هذه الايام ويملك الأرض فياطوبى من هاجر إليّ وأطاعنى وأخذ يغرى الناس بابن الأغلب ويذكر كرامات المهدى وما يفتح الله له، ويعدهم بأنهم يملكون الارض كلها وسير إلى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح الله له وأنه ينتظره، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص وكان قد اشتهر بها وطلبه الخليفة المكتفى ففر منه بابنه أبى القاسم وسار إلى مصر وكان لهما قصص مع النوشزى عامل مصر حتى خلصا منه، ولحقا ببلاد المغرب وبلغ ابن الأغلب زيادة الله خبر مسير عبيد الله فأزكى له العيون وأقام له الأعوان حتى قبض عليه بسلجماسة وكان عليها إليسع بن مدرار وحبس بها هو وابنه أبو القاسم،

وبلغ ذلك أبا عبد الله وقد عظم أمره فسار وضايق زيادة الله بن الأغلب وأخذ مدائنه شيئاً بعد شيء وصار فيما ينيف على مائتى ألف، وألح على القيروان حتى فر زيادة الله إلى مصر، وملكها أبو عبد الله ثم سار إلى رفادة، فدخلها أول رجب سنه ست وتسعين ومائتين وفرق الدور على كتامة، وبعث العمال إلى البلاد. وجمع الاموال ولم يخطب باسم أحد فلما دخل شهر رمضان سار من رفادة فاهتز لرحيله المغرب بأسره وخافته زنانة وغيرها وبعثوا إليه بطاعتهم وسار إلى سلجماسة ففر منه إليسع بن ميدرار وإليها ودخل البلد فأخرج عبيد الله وابنه من السجن، وقال هذا المهدى الذى كنت أدعوكم إليه وأركبه هو وأبنه ومشى بسائر رؤساء القبائل بين أيديهما وهو يقول: هذا مولاكم ويبكى من شدة الفرح حتى وصل إلى فسطاط ضرب له فأنزل فيه، وبعث فى طلب اليسع فأدركه وحمل إليه فضربه بالسياط وقتله ثم سار المهدى إلى رفادة فصار بها فى آخر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين، ولما تمكن قتل أبا عبد الله وأخاه فى يوم الإثنين للنصف من جمادى الآخر سنة ثمان وتسعين ومائتين. فكان هذا ابتداء أمر الخلفاء الفاطميين ومازالت كتامة هى أهل الدولة مدة خلافة المهدى عبيد الله وخلافة ابنه القاسم القائم بأمر الله وخلافة المنصور بنصر الله إسماعيل بن القاسم وخلافة معد المعز لدين الله ابن المنصور وبهم أخذ ديار مصر لما سيرهم إليها مع القائد جوهر فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وهم أيضا كانوا أكابر من قدم معه من الغرب فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فلما كان فى أيام ولده العزيز بالله نزار أصطنع الديلم والأتراك وقدمهم وجعلهم خاصته فتنافسوا وصار بينهم وبين كتامة تحاسد إلى أن مات العزيز بالله، وقام من بعده أبو على المنصور الملقب بالحاكم بأمر الله فقدم ابن عمار الكتامى وولاه الوساطة، وهى فى معنى رتبة الوزارة فاستبد بأمور الدولة وقدم كتامة وأعطاهم وحط من الغلمان والأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز فاجتمعوا إلى برجوان وكان صقليا، وقد تاقت نفسه إلى الولاية فأغرى المصطنعة بابن عمار حتى وضعوا منه واعتزل عن الأمر وتقلد برجوان الوساطة فاستخدم الغلمان المصطنعين فى القصر وزاد فى عطاياهم وقواهم، ثم قتل الحاكم ابن عمار وكثيراً من رجال دولة أبيه وجده فضعفت كتامة وقويت الغلمان. فلما مات الحاكم وقام من بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله على أكثر من اللهو ومال إلى الأتراك

والمشارقة فانحط جانب كتامة ومازال ينقص قدرهم ويتلاشى أمرهم حتى ملك المستنصر بعد أبيه الظاهر فاستكثرت أمه من العبيد حتى يقال إنهم بلغوا نحواً من خمسين ألف أسود، واستكثر هو من الأتراك وتنافس كل منهما مع الآخر فكانت الحرب التى آلت إلى خراب مصر وزوال بهجتها إلى أن قدم أمير الجيوش بدر الجمالى من عكا وقتل رجال الدولة وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن، فصار من حينئذ معظم الجيش من الأرمن، وذهبت كتامة وصاروا من جملة الرعية بعد ماكانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها.

(حارةالصالحية) عرفت بغلمان الصالح طلائع بن رزيك وهى موضعان. الصالحية الكبرى والصاحية الصغرى وموضعهما فيما بين المشهد الحسينى ورحبة الايدمرى وبين البرقية وكانت من الحارات العظيمة وقد خربت الآن وباقيها متداع إلى الخراب قال ابن عبد الظاهر: الحارة الصالحية منسوبة إلى الصالح طلائع بن رزيك لأن غلمانه كانوا يسكنونها، وهى مكانان وللصالح دار بحارة الديلم كانت سكنه قبل الوزارة، وهى باقية إلى الآن، وبها بعض ذريته، والمكان المعروف بخوخة الصالح نسبة إليه.

(حارة البرقية) هذه الحارة عرفت بطائفة من طوائف العسكر فى الدولة الفاطمية يقال لها الطائفة البرقية ذكرها المسيحى قال ابن عبد الظاهر ولما نزل بالقاهرة يعنى المعز لدين الله اختطت كل طائفة خطة عرفت بها. قال واختطت جماعة من أهل برقة الحارة المعروفة بالبرقية. انتهي، وإلى هذه الحارة تنسب الامراء البرقية.

ذكر الأمراء البرقية ووزارة ضرغام

وذلك أن الصالح طلائع بن رزيك كان قد أنشأ فى وزارته امراء يقال لهم البرقية جعل ضرغاما مقدمهم، فترقى حتى صار صاحب الباب وطمع فى شاور السعدى لما ولى الوزارة بعد رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، فجمع رفقته وتخوف شاور منه وصار العسكر فرقتين. فرقة مع ضرغام، وفرقة مع شاور. فلما كان بعد تسعة أشهر من وزارة شاور ثار ضرغام فى رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وصاح على شاور فأخرجه من القاهرة

وقتل ولده الأكبر المسمى بعلى وبقى شجاع المنعوت بالكامل، وخرج شاور من القاهرة يريد الشام كما فعل الوزير رضوان بن ولخشى فانه كان رفيقًا له فى تلك الكرة، واستقر ضرغام فى وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور، وتلقب بالملك المنصور فشكر الناس سيرته، فإنه كان فارس عصره، وكان كاتبًا جميل الصورة فكه المحاضرة. عاقلا كريما لايضع كرمه، إلا فى سمعة ترفعه، أو مداراة تنفعه، إلا أنه كان أذنا مستحيلا على أصحابه، وإذا ظن فى أحد شرا جعل الشك يقينا وعجل له العقوبة وغلب عليه مع ذلك فى وزارته أخواه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام، وأخذ يتنكر لرفقته البرقية الذين قاموا بنصرته وأعانوه على إخراج شاور وتقليده للوزارة من أجل أنه بلغه عنهم أنهم يحسدونه ويضعون منه، وأن منهم من كاتب شاور وحثه على القدوم إلى القاهرة ووعده بالمعاونة له فأظلم الجو بينه وبينهم وتجرد للإيقاع بهم على عادته فى أسرع العقوبة وأحضرهم إليه فى دار الوزارة ليلا وقتلهم بالسيف صبرا وهم صبح بن شاهنشاه، والطهر مرتفع المعروف بالجلواص، وعين الزمان، وعلى بن الزيد وأسد الفازى وأقاربهم، وهم نحو من سبعين أميرًا سوى أتباعهم فذهبت لذلك رجال الدولة واختلفت أحوالها وضعفت بذهاب أكابرها، وفقد أصحاب الرأى والتدبير وقصد الفرنج ديار مصر فخرج إليهم همام أخو ضرغام وانهزم منهم وقتل منهم عدة ونزلوا على حصن بلبيس وملكوا بعض السور ثم ساروا، وعاد همام عودا رديئا فبعث به ضرغام إلى الإسكندرية وبها الامير مرتفع الجلواص فأخذه العرب وقاده همام إلى أخيه فضرب عنقه وصلبه على باب زويلة. فما هو إلا أن قدم رسل الفرنج على ضرغام فى طلب مال الهدنة المقرر فى كل سنة وهو ثلاثة وثلاثون ألف دينار، وإذا بالخبر قد ورد بقدوم شاور من الشام ومعه أسد الدين شيركوه فى كثير من الغز فأزعجه ذلك، وأصبح الناس يوم التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة خائفين على أنفسهم وأموالهم، فجمعوا الأقوات والماء وتحولوا من مساكنهم، وخرج همام بالعسكر أول يوم من جمادى الآخرة فسار إلى بلبيس وكانت له وقعة مع شاور بمن معه إلى التاج ظاهر القاهرة فى يوم الخميس سادس جمادى الآخرة، فجمع ضرغام الناس وضم إليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية بداخل القاهرة وشاور مقيم بالتاج مدة أيام وطوالعه من العربان فطارد عسكر ضرغام بأرض الطبالة خارج القاهرة ثم سار شاور ونزل بالمقس، فخرج إليه عسكر

ضرغام وحاربوه فانهزم هزيمة قبيحة، وسار إلى بركة الحبش ونزل بالشرف الذى يعرف إليوم بالرصد وملك مدينة مصر وأقام بها أياما فأخذ ضرغام مال الأيتام الذى كان بمودع الحكم فكرهه الناس واستعجزوه، ومالوا مع شاور فتنكر منهم ضرغام وتحدث بإيقاع العقوبة بهم فزاد بعضهم له ونزل شاور فى أرض اللوق خارج باب زويلة، وطارد رجال ضرغام، وقد خلت المنصورة والهلالية وثبت أهل إليانسبة بها وزحف إلى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار فى اللؤلؤة وما حولها من الدور، وعظمت الحروب بينه وبين أصحاب ضرغام وفنى كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا إلى شاور ووعدوه بأنهم عون له، فانحل أمر ضرغام فأرسل إلى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمى فخرج الرجال إلى شاور وصاروا من جملته وفترت همة أهل القاهرة، وأخذ كل منهم يعمل الحياة فى الخروج إلى شاور فأمر ضرغام بضرب الأبواق لتجتمع الناس فضربت الأبواق والطبول ماشاء الله من فوق الأسوار فلم يخرج إليه أحد وانفك عنه الناس. فسار إلى باب الذهب من أبواب القصر ومعه خمسمائة فارس فوقف وطلب من الخليفة أن يشرف عليه من الطاق، وتضرع إليه، وأقسم عليه بآبائه، فلم يجد أحدا واستمر واقفا إلى العصر والناس تحل عنه حتى بقى فى نحو ثلاثين فارسًا فوردت عليه رقعة فيها: خذ نفسك وانج بها وإذا بالأبواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور، فمر ضرغام إلى باب زويلة فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطوا من معه وأدركه القوم فأردوه عن فرسه قريبًا من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر واحتزوا رأسه فى سلخ جمادى الآخرة وفر منهم أخوه إلى جهة المطرية فأدركه الطلب، وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل أخوه الآخر عند بركة الفيل فصار حينئذ ضرغام ملقى يومين، ثم حمل إلى القرافة ودفن بها، وكانت وزارته تسعة أشهر، وكان من أجل أعيان الأمراء وأشجع فرسانهم وأجودهم لعبا بالكرة وأشدهم رميًا بالسهام، ويكتب مع ذلك كتابة ابن مقلة، وينظم الموشحات الجيدة، ولما جىء برأسه إلى شاور ورفع على قناة وطيف به فقال الفقيه عمارة :

أرى جنك الوزارة صار سيفًا

يحز بحده جيد الرقاب

كأنك رائد البلوى وإلا

بشير بالمنية والمصاب

فكان كما قال عمارة فإن البلايا والمنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتى لم يبق منهم عين تطرف ولله عاقبة الامور .

(**حارة العطوفية**) هذه الحارة تنسب إلى طائفة من طوائف العسكر يقال لها العطوفية . وقال ابن عبد الظاهر العطوفية منسوبة لعطوف أحد خدام القصر ، وهو عطوف غلام الطويلة ، وكان قد خدم ست الملك أخت الحاكم قال : وسكنت ـ يعنى الطائفة الجيوشية بحارة العطوفية بالقاهرة ، ولله در الاديب إبراهيم المعمار إذ يقول موإليا يشتمل على ذكر حارات بالقاهرة وفيها تورية

فى الجودرية رأيت صوره هلالية

للباطلية تميل لا للعطوفية

لها من اللؤلؤه ثغرين منشيه

إن حركوا وجهها بنت الحسينيه

وكانت العطوفية من أجل مساكن القاهرة وفيها من الدور العظيمة والحمامات والأسواق والمساجد مالا يدخل تحت حصر ، وقد خربت كلها وبيعت انقاضها وبيوتها ومنازلها وأضحت أوحش من وتد عير فى قاع ، وعطوف هذا كان خادما أسود قتله الحاكم بجماعة من الأتراك وقفوا له فى دهايز القصر واحتزوا رأسه فى يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من صفر سنة إحدى واربعمائة قاله المسبحي .

(**حارة الجوانية**) كان يقال لهذه الحارة أولا حارة الروم الجوانية ثم نقل على الالسنة ذلك . فقال الناس الجوانية ، وكان أيضًا يقال لها حارة الروم العليا المعروفة بالجوانية وقال المسبحي : وقد ذكر ماكتبه أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الأمانات فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فذكر أنه كتب أمانا للعرافة الجوانية ، فدل أنه كان من جملة الطوائف قوم يعرفون بالجوانية ، قال ابن عبد الظاهر : قال لى مؤلفه القاضى زين الدين وفقه الله : إن الجوانية

منسوبة للأشراف الجوانيين منهم الشريف النسابة الجواني . قال مؤلفه رحمة الله : فعلى هذا يكون بفتح الجيم فإن الجوانى بفتح الجيم وتشديد الواو وفتحها وبعد الواو ألف ساكنة ثم نون نسبة إلى جوان على وزن حران ، وهى قرية من عمل مدينة طيبة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وعلى القول الأول تكون الجوانية بفتح الجيم أيضا مع فتح الواو وتشديدها . فإن أهل مصر يقولون لما خرج عن المدينة أو الدار برا ، ولما دخل جواً بضم الجيم وهو خطأ ، ولهذا كان الوراقون يكتبون حارة الروم البرانية . لأنها من خارج القصر ، ويكتبون حارة الروم الجوانية لأنها من داخل القاهرة ولا يصار إليها إلا بعد المرور على القصر ، وكان موضعها إذ ذاك من وراء القصر خلف دار الوزارة والحجر . فكأنها فى داخل البلد ، ولذلك أصل . قال ابن سيده فى مادة (ج و) من كتاب المحكم وجوا البيت داخله لفظة شامية فتعين فتح الجيم من الجوانية ، ولاعبرة بما تقوله العامة من ضمها وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى ابن الحسن بن محمد الجوانى ابن عبد الله الجوانى بن حسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وقيل لمحمد بن عبد الله الجوانى بسبب ضيعة من ضياع المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . يقال لها الجوانية وكانت تسمى البصرة الصغرى لخيراتها وغلالها لا يطلب شيء إلا وجد بها ، وهى قريبة من صرار ضيعة الإمام أبى جعفر محمد بن على الرضي ، وكانت الجوانية ضيعة لعبيد الله فتوفى عنها فورثها بعده ولده وأزواجه ، فاشترى محمد الجوانى ولده بما حصل له بالميراث الباقى من الورثة ، فحصلت له كاملة فعرف بها ، فقيل الجوانى قال : ولم تزل أجداد مؤلفه ببغداد إلى حين قدوم ولده أسعد النحوى مع أبيه من بغداد إلى مصر ومولده بالموصل فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

(**حارة البستان**) ويقال لها حارة بستان المصمودى وحارة الأكراد أيضًا ، وهى الآن من جملة الوزيرية التى تقدم ذكرها .

(**حارة المرتاحية**) هذه الحارة عرفت بالطائفة المرتاحية إحدى طوائف العسكر ، قال ابن عبد الظاهر : خط باب القنطرة يعرف فى كتل الأملاك القديمة بالمرتاحية .

(**حارة الفرحية**) بالحاء المهملة كانت سكن الطائفة الفرحية وهى بجوار حارة المرتاحية فإلى يومنا هذا فيما بين سويقة أمير الجيوش وباب القنطرة زقاق يعرف بدرب الفرحية ،

والفرحية كانت طائفة من جملة عبيد الشراء، وكانت عبيد الشراء عدة طوائف وهم الفرحية والحسينية والميمونية ينسبون إلى ميمون هو أحد الخدام.

(**حارم فرج**) بالجيم كانت تعرف قديمًا بدرب النميرى ثم عرفت بالأمير جمال الدين فرج من أمراء بنى أيوب وهى الآن داخلة فى درب الطفل من خط قصر الشوك.

(**حارة قائد القواد**) هذه الحارة تعرف الآن بدرب ملوخيا، وكانت أولا تعرف بحارة قائد القواد لأن حسين بن جوهر الملقب قائد القواد لما مات أبوه جوهر القائد خلع العزيز بالله عليه، وجعله فى رتبة أبيه ولقبه بالقائد ابن القائد ولم يتعرض لشىء مما تركه جوهر، فلما مات العزيز وقام من بعده ابنه الحاكم استدناه، ثم إنه قلده البريد والإنشاء فى شوال سنة ست وثمانين وثلاثمائة، وخلع عليه وحمله على فرس بموكب، وقاد بين يديه عدة أفراس، وحمل معه ثيابا كثيرة فاستخلف أبا منصور بشر بن عبيد الله بن سورين الكاتب النصرانى على كتابة الإنشاء، واستخلف على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم أمير الدولة الموصلى ولما تقلد برجوان النظر فى تدبير الأمور وجلس للوساطة بعد ابن عمار كان الكافة يلقونه فى داره ويركبون جميعًا بين يديه من داره إلى القصر ماخلا القائد الحسين، ومحمد بن النعمان القاضى فإنهما كانا يسلمان عليه بالقصر فقط. فلما قتل الحاكم الاستاذ برجوان كما تقدم خلع على القائد حسين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة تسعين وثلاثمائة ثوبًا احمر وعمامة زرقاء مذهبة وقلده سيفًا محلى بذهب، وحمله على فرس بسرج ولجام من ذهب وقاد بين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها وحمل معه خمسين ثوبًا صحاحا من كل نوع، ورد إليه التوقيعات والنظر فى أمور الناس وتدبير المملكة كما كان برجوان، ولم يطلق عليه اسم وزير. فكان يبكر إلى القصر ومعه خليفته الرئيس أبو العلاء فهد بن إبراهيم النصرانى كاتب برجوان فينظران فى الأمور ثم يدخلان وينهيان الحال إلى الخليفة فيكون القائد جالسا وفهد من خلفه قائما، ومنع القائد الناس أن يلقوه فى الطريق أو يركبوا إليه فى داره وإن من كان له حاجة فليبلغه إياها بالقصر، ومنع الناس من مخاطبته فى الرقاع بسيدنا، وأمر أن لايخاطب ولايكاتب إلا بالقائد فقط، وتشدد فى ذلك لخوفه من غيرة الحاكم حتى انه رأى جماعة من القواد والأتراك قياما على الطريق ينتظرونه فأمسك عنان فرسه ووقف وقال لهم: كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه، ولست والله أبرح من موضعى أو

تنصرفوا عني، ولايلقاني أحد إلا في القصر فانصرفوا، وأقام بعد ذلك خدما من الصقالية الطرادين على الطريق بالنوبة لمنع الناس المجيء إلى داره ومن لقائه إلا في القصر، وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلي صاحب الستر أن توصل الناس بأسرهم إلى الحاكم وأن لايمنع أحدا عنه فلما كان في سابع عشر جمادي الآخر قرىء سجل على سائر المنابر بتلقيب القائد حسين بقائد القواد وخلع عليه، وما زال إلى يوم الجمعة سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة فاجتمع سائر أهل الدولة في القصر بعد ماطلبوا، وخرج الأمر إليهم أن لايقام لأحد، وخرج خادم من عند الخليفة فأسر إلى صاحب الستر كلاما فصاح: صالح بن علي. فقام صالح بن علي الرودباذي متقلد ديوان الشام فأخذ صاحب الستر بيده، وهو لايعلم هو ولا أحد مايراد به فأدخل إلى بيت المال وأخرج وعليه دراعة مصمتة وعمامة مذهبة ومعه مسعود فأجله بحضرة قائد القواد، وأخرج سجلا قرأه ابن عبد السميع الخطيب فإذا فيه رد سائر الأمور التي ينظر فيها قائد القواد حسين ابن جوهر إليه فعندما سمع من السجل ذكره قام وقبل الارض. فلما انتهت قراءة السجل قام قائد القواد وقبل خد صالح وهنأه وانصرف، فكان يركب إلى القصر ويحضر الأسمطة إلى إليوم الثالث من شوال. أمره الحاكم أن يلزم داره وهو وصهره قاضي القضاة عبد العزيز ابن النعمان، وأن لايركباهما وسائر أولادهما فلبسا الصوف، ومنع الناس من الاجتماع بهما، وصاروا يجلسون على حصر فلما كان في تاسع عشر ذي القعدة عفا عنهما الحاكم وأذن لهما في الركوب فركبا إلى القصر بزيهما من غير حلق شعر ولاتغيير حال الحزن. فلما كان في حادي عشر جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة قبض على عبد العزيز بن النعمان وطلب حسين بن جوهر ففر هو وابنه في جماعة وكثر الصياح بدار عبد العزيز، وغلقت حوانيت القاهرة وأسواقها فأفرج عنهو ونودي أن لايغلق أحد. فرد حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه، وتمثلوا بحضرة الحاكم. فعفا عنهم وأمرهم بالمسير إلى دورهم بعد أن خلع على حسين وعلى صهره عبد العزيز وعلى أولادهما. وكتب لهما أمانان ثم أعيد عبد العزيز في شهر رمضان إلى ماكان يتقلده من النظر في المظالم، ثم رد الحاكم في شهر ربيع الأول سنة أربعمائة على حسين بن جوهر وأولاده وصهره عبد العزيز ماكان لهم من الإقطاعات وقرىء لهم سجل بذلك فلما كان ليلة التاسع من ذي القعدة فر حسين بأولاده وصهره وجميع أموالهم وسلاحهم. فسير الحاكم الخيل في

طلبهم نحو دجوة فلم يدركهم وأوقع الحوطة على سائر دورهم، وجعلت للديوان المفرد وهو ديوان أحدثه الحاكم يتعلق بما يقبض من أموال من يسخط عليه، وحمل سائر ماوجد لهم بعدما ضبط، وخرجت العساكر فى طلب حسين ومن معه وأشيع أنه قد صار إلى بنى قرة بالبحيرة فأنفذت إليه الكتب بتأمينه واستدعائه إلى الحضور. فأعاد الجواب بأنه لايدخل مادام أبو نصر بن عبدون النصرانى الملقب بالكافى ينظر فى الوساطة، ويوقع عن الخليفة فانى أحسنت إليه أيام نظرى فسعى بى إلى أمير المؤمنين ونال منى كل منال، ولا اعود أبدا وهو وزير، فصرف ابن عبدون فى رابع المحرم سنة إحدى وأربعمائة وقدم حسين بن جوهر ومعه عبد العزيز النعمان وسائر من خرج معهما. فخرج جميع أهل الدولة إلى لقائه وتلقته الخلع فأفيضت عليه وعلى أولاده وصهره، وقيد بين أيديهم الدواب فلما وصلوا إلى باب القاهرة ترجلوا ومشوا ومشى الناس بأسرهم إلى القصر فصاروا بحضرة الحاكم، ثم خرجوا وقد عفا عنهم، وأذن لحسين أن يكاتب بقائد القواد، ويكون اسمه تإليا للقبه وأن يخاطب بذلك، وانصرف إلى داره فكان يومًا عظيما، وحمل إليه جميع ماقبض له من مال وعقار وغيره وأنعم عليه، وواصل الركوب هو وعبد العزيز بن النعمان إلى القصر، ثم قبض عليه وعلى عبد العزيز واعتقلا ثلاثة أيام ثم حلفا أنهما لايغيبان عن الحضرة، وأشهدا على أنفسهما بذلك وأفرج عنهما وحلف لهما الحاكم فى أمان كتب لهما فلما كان فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعمائة ركب حسين، وعبد العزيز على رسمهما إلى القصر فلما خرج للسلام على الناس قيل للحسين وعبد العزيز وأبى على أخى الفضل: اجلسوا لأمر تريده الحضرة منكم. فجلس الثلاثة وانصرف الناس، فقبض عليهم وقتلوا فى وقت واحد، وأحيط بأموالهم وضياعهم ودورهم وأخذت الأمانات والسجلات التى كتبت لهم، واستدعى أولاد عبد العزيز ابن النعمان وأولاد حسين بن جوهر ووعدوا بالجميل وخلع عليهم وجملوا والله يفعل مايشاء.

(**حارة الأمراء**) ويقال لها أيضًا حارة الأمراء الأشراف الأقارب، وموضعها يعرف بدرب شمس الدولة، وسيأتى ذكره إن شاء الله تعإلى.

(**حارة الطوارق**) ويقال لها أيضا حارة صبيان الطوارق، وهم من جملة طوائف العسكر كانوا معدين لحمل الطوارق، وموضع هذه الحارة فى طريق من سلك من الرقيق سوق

الخلعيين داخل باب زويلة طالبا الباطلية بالزقاق الطويل والضيق الذى يقال له اليوم حلق الجمل السالك إلى درب ارقطاي.

(**حارة الشرابية**) عرفت بذلك لانها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية إحدى طوائف العسكر، وكانت فيما بين الباطلية وحارة الطوارق.

(**حارة الدميري وحارة الشاميين**) هما من جملة العطوفية.

(**حارة المهاجرين**) وموضعها الآن من جملة المكان الذى يعرف بالرقيق المعد لسوق الخلعيين بجوار باب زويلة، وكان بعد ذلك سوق الخشابين، ثم هو الآن سوق الخلعيين، وموضع هذه الحارة بجوار الخوخة التى كانت تعرف بالشيخ السعيد بن فشيرة النصرانى الكاتب، وهى الخوخة التى يسلك إليها من الزقاق المقابل لحمام الفاضل المعد لدخول النساء، ويتوصل منها إلى درب كوز الزير بحارة الروم. وقد صارت هذه الحارة تعرف بدرب ابن المجندار وسيأتى ذكره إن شاء الله.

(**حارة العدوية**) قال ابن عبد الظاهر: العدوية هى من باب الخشيبة إلى أول حارة زويلة عند حمام الحسام الجلدكى الآن منسوبة لجماعة عدويين نزلوا هناك وهذا المكان إليوم هو عبارة عن الموضع الذى تلقاه عند خروجك من زقاق حمام خشيبة الذى يتوصل إليه من سوق باب الزهومة. فإذا انتهيت إلى آخر هذا الزقاق وأخذت على يمينك صرت فى حارة العدوية، وموضعها الآن من فندق بلال المغينى إلى باب سر المارستان، وتدخل فى العدوية رحبة بيرس التى فيها الآن فندق الرخام عن يمينك إذا خرجت فى الرحبة المذكورة التى صارت الآن دربا إلى باب سر المارستان، وما عن يسارك إلى حمام الكريك وحمام الجوينى الذى تقول له العامة الجهيني، وإلى سوق الزجاجيين، وكل هذا المواضع هى من حقوق العدوية وكانت العدوية قديما واقعة فيما بين الميدان الذى يعرف إليوم بالخرشتف وحارة زويلة وبين سقيفه العداس والصاغة القديمة التى صار موضعها الآن سوق الحريريين الشرابشيين برأس الوراقين وسوق الزجاجيين.

(**حارة العيدانية**) كانت تعرف أولا بحارة البديعيين ثم قيل لها بعد ذلك الحبانية من أجل البستان الذى يعرف بالحبانية الجارى فى وقف الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء، ويتوصل

إلى هذه الحارة من تجاه قنطرة آق سنقر وبعض دورها الآن يشرف على بستان الحبانية وبعضها يطل على بركة الفيل .

(**حارة الحمزيين**) كانت أولا تعرف بالحبانية ثم قيل لها حارة الحمزيين من أجل أن جماعة من الحمزيين نزلوا بها منهم الحاج يوسف بن فاتن الحمزى والحمزيون أيضًا ينسبون إلى حمزة ابن أدركة السارى خرج بخراسان فى أيام هارون الرشيد فعاث وأفسد وفض جموع عيسى بن على عامل خراسان وقتل منهم خلقا ، وانهزم عيسى إلى بابل ثم غرق حمزة بواد فى كرمان فعرفت طائفته بالحمزية وأخوه ضرغام بن فاتن بن ساعد الحمزى والحاج عونى الطحان ابن يونس بن فاتن الحمزى ورضوان ابن يوسف بن فاتن الحمزى الحمامى وأخوه سالم بن يوسف بن فاتن الحمزي ، وكان هؤلاء بعد سنة ستمائة ، وهذه الحارة خارج باب زويلة ومن بلاد أفريقية قرية يقال لها حمزى ينسب إليها محمد بن حمد بن خلف القيسى الحمزى من أهل القرية وقاضيها . توفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، ولا يبعد أن تكون هذه الحارة نسبت إلى أهل قرية حمزة هذه لنزولهم بها كنزول بنو سوس وكتامة وغيرهم فى المواضع التى نسبت إليهم .

(**حارة بني سوس**) عرفت بطائفة من المصامدة يقال لهم بنوسوس كانوا يسكنون بها .

(**حارة اليانسية**) تعرف بطائفة من طوائف العسكرية يقال لها إليانسية منسوبة لخادم خصى من خدام العزيز بالله ، يقال له أبو الحسن يانس الصقلى خلفه على القاهرة فلما مات العزيز أقره ابنه الحاكم بأمر الله على خلافة القصور ، وخلع عليه وحمله على فرسين . فلما كان فى المحرم سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة سار لولاية برقة بعدما خلع عليه ، وأعطى خمسة آلاف دينار وعدة من الخيل والثياب قال ابن عبد الظاهر : اليانسية خارج باب زويلة أظنها منسوبة ليانس وزير الحافظ لدين الله الملقب بأمير الجيوش سيف الإسلام ويعرف بيانس الفاصد ، وكان أرمنى الجنس وسمى الفاصد لانه فصد الأمير حسن بن الحافظ وتركه محلولا فصاده حتى مات ، وله خبر غريب فى وفاته . كان الحافظ قد نقم عليه أشياء طلب قتله بها باطنا . فقال لطبيبه اكفنى أمره بمأكل أو مشرب فأبى الطبيب ذلك خوفا أن يصير عند الحافظ لهذه العين وربما قتله بها ، والحافظ يحثه على ذلك فاتفق ليانس الوزير المذكور أنه مرض بزحير ، وأن الحافظ خاطب الطبيب بذلك . فقال يامولاي : قد أمكنتك الفرصة

وبلغت مقصودك، ولو أن مولانا عاده فى هذه المرضة اكتسب حسن أحدوثة، وهذه المرضة ليس دواؤه منها إلا الدعة والسكون، ولا شيء أضر عليه من الانزعاج والحركة فبمجرد ماسمع بقصد مولانا له تحرك واهتم بلقاء مولانا وانزعج، وفى ذلك تلاف نفسه ففعل الخليفة ذلك وأطال الجلوس عنده فمات وهذا الخبر فيه أوهام، منها أنه جمل إليانسية منسوبة ليانس الوزير وقد كانت إليانسية قبل يانس هذا بمدة طويلة. ومنها انه ادعى أن حسن بن الحافظ مات من فصادة وليس كذلك، وانما مات مسموما، ومنها أنه زعم أن يانس تولى فصده وليس كذلك بل الذى تولى قتله بالسم أبو سعيد بن فرقة، ومنها أن الذى نقم عليه الحافظ من الامراء فخانه فى ابنه حسن إنما هو الأمير المعظم جلال الدين محمد المعروف بجلب راغب، وهذا نص الخبر فنشره بالك والله تعالى أعلم

ذكر وزارة أبى الفتح ناصر الجيوش يانس الأرمنى

وكان من خير ذلك أن الخليفة الآمر بأحكام الله أبا على منصورا لما قتله النزارية فى ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة أقام هزبر الملوك جوامرد العادل برغش الامير أبا الميمون عبد المجيد فى الخلافة كفيلا للحمل الذى تركه الامير، ولقب بالحافظ لدين الله ولبس هزبر الملوك خلع الوزارة فثار الجند وأقاموا أبا على أحمد الملقب بكتيفات ولد الافضل بن أمير الجيوش فى الوزارة، وقتل عزبر الملوك واستولى كتيفات على الآمر، وقبض على الحافظ وسجنه بالقصر مقيدا إلى أن قتل كتيفات فى المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة وبادر صبيان الخاص الذين تولوا قتله إلى القصر، ودخلوا ومعهم الامير يانس متولى الباب إلى الخزانة التى فيها الحافظ وأخرجوه إلى الشباك، وأجلسوه فى منصب الخلافة، وقالوا له: والله ماحركنا على هذا إلا الأمير يانس فجازاه الحافظ بأن فوض إليه الوزارة فى الحال وخلع عليه فباشرها مباشرة جيدة، وكان عاقلا مهابًا متمسكا متحفظًا لقوانين الدولة. فلم يحدث شيئًا ولاخرج عما يعينه الخليفة له. إلا أنه بلغه عن أستاذ من خواص الخليفة شيء يكرهه، فقبض عليه من القصر من غير مشاورة الخليفة، وضرب عنقه بخزانة البنود، فاستوحش منه الخليفة، وخشى من زيادة معناه، وكانت هذه الفعلة

غلطة منه ثم إنه خاف من صبيان الخاص أن يفتكوا به كما فتكوا بكتيفات فتنكر لهم، وتخوفوه أيضًا فركب في خاصته وأركب العسكر، وركب صبيان الخاص فكانت بينهما وقعة قبالة باب التبانين بين القصرين قوى فيها يانس وقتل من صبيان الخاص مايزيد على ثلاثمائة رجل من أعيانهم فيهم قتلة أبي على كتيفات، وكانوا نحو الخمسمائة فارس فانكسرت شوكتهم وضعف جانبهم، واشتد بأس يانس وعظم شأنه فنقل على الخليفة وتخيل منه فأحس بذلك فأخذ كل منهما في التدبير على الآخر. فأعجل يانس وقبض على حاشية الخليفة، ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح بن قادوس وقتلهما. فاشتد ذلك على الحافظ ودعا طبيبه وقال اكفني أمر يانس فيقال إنه سمه في ماء المستراح، فانفتح دبره واتسع حتى مابقى يقدر على الجلوس. فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين قد أمكنتك الفرصة وبلغت مقصودك، فلو أن مولانا عاده في هذه المرضة اكتسب حسن الأحدوثه. فإن هذا المرض ليس له دواء إلا الدعة والسكون ولاشيء عليه أضر من الحركة والانزعاج، وهو إذا سمع بقصد مولانا له تحرك واهتم للقاء وانزعج، وفي ذلك إتلاف نفسه فنهض لعيادته، وعندما بلغ ذلك يانس قام ليلقاه ونزل عن الفراش وجلس بين يدى الخليفة فأطال الخليفة جلوسه عنده وهو يحادثه فلم يقم حتى سقطت أمعاء يانس ومات من ليلته في سادس عشرى ذى الحجة سنة ست وعشرين وخمسمائة، وكانت وزارته تسعة أشهر وأيامًا، وترك ولدين كفلهما الحافظ وأحسن إليهما وكان يانس هذا مولى أرمنيا لباديس جد عباس الوزير فأهداه إلى الأفضل بن أمير الجيوش، وترقى في خدمته إلى أن تأمر، ثم ولى الباب، وهي أعظم رتب الامراء، وكنى بأبي الفتح ولقب بالامير السعيد، ثم لما ولى الوزارة نعت بناصر الجيوش سيف الإسلام وكان عظيم الهمة بعيد الغور كثير الشر شديد الهيبة.

ذكر الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ

ولما مات الوزير يانس تولى الخليفة الحافظ الأمور بنفسه ولم يستوزر أحدا، وأحسن السيرة. فلما كان في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة عهد إلى ولده سليمان، وكان أسن

أولاده وأحبهم إليه وأقامه مقام الوزير. فمات بعد شهرين من ولاية العهد. فجعل مكانه أخاه حيدرة فى ولاية العهد، ونصبه للنظر فى المظالم. فشق ذلك على أخيه الامير حسن، وكان كثير المال متسع الحال له عدة بلاد ومواش وحاشية وديوان مفرد. فسعى فى نقض ذلك بأن أوقع الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، وكانت الريحانية قوية الشوكة مهابة مخوفة الجانب فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، وصاح الجند ياحسن يا منصور. يا للحسينية والتقى الفريقان فقتل بينهما مايزيد على خمسة آلاف نفس فكانت هذه الوقعة أول مصائب الدولة الفاطمية من فقد رجالها ونقص عساكرها فلم يبق من الطائفة الريحانية إلا من نجا بنفسه من ناحية المقس، وألقى نفسه فى بحر النيل واستظهر الأمير حسن وقام بالأمر وانضم إليه أوباش الناس ودعارهم. ففرق فيهم الزرد وسماهم صبيان الزرد وجعلهم خاصته فاحتفوا به وصاروا لايفارقونه فإن ركب أحاطوا به وإن نزل لازموا داره فقامت قيامة الناس منهم، وشرع فى تتبع الاكابر فقبض على ابن العساف وقتله وقصد أباه الخليفة الحافظ وأخاه حيدرة بالضرر حتى حافظا منه وتغيبا. فجد فى طلب أخيه حيدرة وهتك بأوباشه الذين اختارهم حرمة القصر وخرق ناموسه وسلطهم يفتشون القصر فى طلب الخليفة الحافظ وابنه حيدرة، واشتد بأسهم وحسنوا له كل رذيلة وجروه على الأذي. فلم يجد الحافظ بدا من مداراة حسن وتلافى أمره عساه ينصلح، وكتب سجلا بولايته العهد وأرسله إليه فقرىء على الناس فما زاده ذلك الاجراءة عليه وإفسادا له وشدد فى التضييق على أبيه وأخذ بأنفاسه فبعث حينئذ الخليفة بالأستاذ ابن إسعاف إلى بلاد الصعيد ليجمع من يقدر عليه من الريحانية. فمضى واستصرخ الناس لنصرة الخليفة على ولده حسن، وجمع أمما لايحصيها إلا الله وسار بهم. فبلغ ذلك حسنا فزج عسكرا للقاء إسعاف فالتقيا وكانت بينهم وقعة هبت فيها ريح سوداء على عسكر إسعاف حتى هزمتهم وركبهم عسكر حسن فلم ينج منهم إلا القليل وغرق أكثرهم فى البحر وأخذ إسعاف أسيرا فحمل إلى القاهرة على جمل وفى رأسه طرطور لبد أحمر، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب حتى هلك ورمى من القصر الغربى بأستاذ آخر فقتل وقتل الأمير شرف الدين. فاشتد ذلك على الحافظ وخاف على نفسه فكتب ورقة وكاد ابنه، بأن ألقى إليه تلك الورقة وفيها: ياولدى انت على كل حال ولدي، ولو عمل كل منا لصاحبه مايكره الآخر ماأراد أن يصيبه

مكروه ولايحملني قلبي، وقد انتهى الأمر إلى أمراء الدولة، وهم فلان وفلان وقد شددت وطأتك عليهم وخافوك، وهم معولون على قتلك فخذ حذرك ياولدي. فعندما وقف حسن على الورقة غضب ولم يتأن وبعث إلى أولئك فلما صاروا إليه أمر صبيان الزرد بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وكانوا عدة من أعيان الأمراء وأحاط بدورهم وأخذ سائر مافيها فاشتدت المصيبة وعظمت الرزية وتخوف من بقى من الجند ونفروا منه فإنه كان جريًا مفسدا شديد الفحص عن أحوال الناس والاستقصاء لأخبارهم يريد إقلاب الدولة وتغييرها ليقدم أوباشه، وأكثر من مصادرة الناس وقتل قاضى القضاه أبا الثريا نجم لأنه كان من خواص أبيه، وقتل جماعة من الأعيان ورد القضاء لابن ميسر وتفاقم أمره وعظم خطبه واشتدت الوحشة بينه وبين الأمراء والأجناد، وهموا بخلع الحافظ ومحاربة ابنه حسن، وصاروا يدأ واحدة واجتمعوا بين القصرين وهم عشرة آلاف مابين فارس وراجل وسيروا إلى الحافظ يشكون ماهم فيه من البلاء مع ابنه حسن ويطلبون منه ان يزيله من ولاية العهد. فعجز حسن عن مقاومتهم فإنه لم يبق معه سوى الراجل من الطائفة الجيوشية ومن يقول بقولهم من الغز الغرباء. فتحير وخاف على نفسه فالتجأ إلى القصر وصار إلى أبيه الحافظ فما هو إلا أن تمكن منه أبوه فقبض عليه وقيده وبعث إلى الأمراء يخبرهم بذلك فأجمعوا على قتله فرد عليهم أنه قد صرفه عنهم ولايمكنه أبداً من التصرف ووعدهم بالزيادة فى الارزاق والإقطاعات، وأن يكفوا عن طلب قتله فألحوا فى قتله وقالوا إما نحن وإما هو، واشتد طلبهم إياه حتى أحضروا الأحطاب والنيران ليحرقوا القصر وبالغوا فى التجرى على الخليفة فلم يجد بدا من إجابتهم إلى قتله وسألهم أن يمهلوه ثلاثًا، فأناخوا بين القصرين وأقاموا على حالهم حتى تنقضى الثلاث فما وسع الحافظ إلا أن استدعى طبيبيه وهما أبو منصور اليهودى وابن قرفة النصرانى وبدأ بأبى منصور وفاوضه فى عمل سقية قاتلة فامتنع من ذلك وحلف بالتوراة أنه لايعرف عمل شيء من ذلك، فتركه وأحضر ابن قرفة وكلمه فى هذا فقال الساعة يتقطع منها جسده بل تفيض النفس لاغير. فأحضر السقية من يومه فبعثها إلى حسن مع عدة من الصقالبة ومازالوا يكرهونه على شربها حتى فعل ومات فى العشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة. فبعث الحافظ إلى القوم سراً يقول قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم فقالوا لابد أن يشاهده منا من نثق به، وندبوا منهم أميرا معروفا بالجراءة والشر يقال

له المعظم جلال الدين محمد، ويعرف بجلب راغب الآمري. فدخل إلى القصر وصار جنب حسن فإذا به قد سجى بثوب فكشف عن وجهه، وأخرج من وسطه آلة من حديد وغرزه بها فى عدة مواضع من بدنه إلى أن تيقن أنه قد مات. وعاد إلى القوم وأخبرهم فتفرقوا، وعندما سكنت الدهماء حقد الحافظ لابن قرفة وقتله بخزانة البنود وأنعم بجميع ماكان له على أبى منصور إليهودى وجعله رئيس الأطباء. فهذا ما كان من خير يانس وكيفية موته، وخبر حسن والخبر عن قتله.

(حارة المنتجبية) قال ابن عبد الظاهر: بلغنى أن رجلا كان يتحجب لشمس الدين قاضى زاده. كان يقول إن هذه الخطة منسوبة لجده منتجب الدولة.

(الحارة المنصورية) هذه الحارة كانت كبيرة متسعة جداً فيها عدة مساكن السودان، فلما كانت واقعتهم فى ذى القعدة سنة أربع وستين وخمسمائة كما تقدم فى ذكر حارة بهاء الدين. أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتعفية أثرها فخربها خطبا بن موسى الملقب صارم الدين، وعملها بستانا وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة فتبعهم صلاح الدين ببلاد الصعيد حتى أفناهم، بعد كان لهم بديار مصر فى كل قرية ومحلة وضيعة مكان مفرد لايدخله وال ولا غيره احتراما لهم. وقد كانوا يزيدون على خمسين ألفًا وإذا ثاروا على وزير قتلوه، وكان الضرر بهم عظيما لامتداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم. فلما كثر بغيهم، وزاد تعديهم أهلكهم الله بذنوبهم. وفى واقعة السودان وتخريب المنصورة وقتل مؤتمن الخلافة الذى تقدم ذكره. يقول العماد الإصفهانى الكاتب يخاطب بهاء الدين يوسف بن أيوب:

بالملك الناصر استنارت
فى عصرنا أوجه الفضائل
يوسف مصر الذى إليــه
تشــــد آمالنا الرواحل
رأيك فى الدهر عن رزايا
جيـل مهماته الجـلائل

أجريت نيلين فى ثـــراها

نيـــــل لمجيع ونيل نائل

كم كرم من نداك جـــار

وكم دم من عداك سائل

وكم معـــاد بلا معـــــاد

ومستطيل بغـــير طائل

وحاسد كاسد المســـاعي

وســائد نافق الوسائل

أقررت عين الإسلام حتي

لم يبـــق فيها قذى لباطل

وكيف يزهى بملك مصر

من يســــــتقل ذنبًا لنائل

وما نفيت السودان حتى

حكمت البيض فى المقاتل

صيرت رحب الفضا مضيقا

عليهم كفـــــه لجـــائل

وكل رأى منهـــم كرا

وأرض مصر كلام واصل

وقد خلت منهم المغاني

وأقفـــــرت منهم المنازل

وما أصيبوا إلا بطـــل

فكيف لو أمطـــروا بوابل

وقد تجلى بالحـــق ما بال

باطل فى مصر كان عاجل

والسود بالبيض قد تنحوا

فهى بواديهـــــــم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى

غالتـــه من شره الغوائل

عاملكم بالخنا فأضحى

ورأسه فوق رأس عامل

وحالف الذل بعـــد عز

والدهر أحواله حوائل

يا فخجل البحر بالأيادي

قد آن أن تفتح السواحل

تقدس القدس من خباث

أرجاس كفر غتم أراذل

وكان موضع المنصورة على يمنة من سلك فى الشارع خارج باب زويلة. قال ابن عبد الظاهر: كانت للسودان حارة تعرف بهم تسمى المنصورة خربها صلاح الدين وأخذها خطلبا فعمرها بستانا وحوضًا، وهى إلى جانب الباب الحديد يعنى الذى يعرف إليوم بالقوس عند رأس المنتجبية فيما بينها وبين الهلالية، وقد حكر هذا البستان فى الأيام الظاهرية وبعضها يعنى المنصورة من جهة بركة الفيل إلى جانب بستان سيف الإسلام، ويسمى الآن بحكر الغتمي. لان الغتمى هذا كان شرع بستان سيف الإسلام فحكر فى هذه الجهة، وهى الآن أحكار الديوان السلطاني، وحكر الغتمى الذى كان بستان سيف الإسلام يعرف إليوم بدرب ابن البابا تجاه السندقدارية بجوار حمام الفارقانى قريب من صليبة جامع ابن طولون.

(**حارة المصامدة**) هذه الحارة عرفت بطائفة المصامدة أحد طوائف عساكر الخلفاء الفاطميين، واختطت فى وزارة المأمون البطايحى وخلافة الآمر بأحكام الله بعد سنة خمس عشرة وخمسمائة. قال ابن عبد الظاهر: حارة المصامدة مقدمهم عبد الله المصمودي، وكان المأمون البطايحى وزير الخليفة الآمر بأحكام الله قدمه ونوه بذكره وسلم له أبوابه للمبيت عليها، وأضاف إليه جماعة من أصحابه فلما استخلص المصامدة وقربهم سير أبا بكر المصمودى ليختار لهم حارة فتوجه بالجماعة إلى اليانسية بالشارع فلم يجد بها مكانا ووجدها تضيق عنهم فسير المهندسين لاختيار حارة لهم، فاتفقوا على بناء حارة ظاهر باب الحديد على يمنة الخارج على شاطىء بركة الفيل. فقال: بل تكون على يسرة الخارج، والفسح قدامها إلى بركة الفيل. فبنيت الحارة على يسرة الخارج من الباب المذكور وبنى بجانبها مسجد على زلاقة الباب المذكور، وبنى أبو بكر المصمودى مسجداً أيضًا، وهذه فيما اعتقد هى الهلالية، وحذر من بناء شىء قبالتها فى القضاء الذى بينها وبين بركة الفيل لانتفاع الناس بها، وصار ساحل بركة الفيل من المسجد قبالة هذه الحارة إلى آخر حصن دورة مسعود إلى الباب الحديد، ولم يزل ذلك إلى بعض أيام الخليفة الحافظ لدين الله. قال وبنى فى صف هذه الحارة من قبليها عدة دور بحوانيت تحتها إلى أن اتصل البناء بالمساجد الثلاثة الحاكمية المعلقة القنطرة المعروفة بدار ابن طولون وبعدها بستان ذكر أنه كان فى جملة قاعات الدار المذكورة. قال: وأظن المساجد هى التى قبالة حوض الجاولي. قال وبنى المأمون ظاهره حوضًا وأجرى الماء له، وذلك قبالة مشهد محمد الأصغر ومشهد السيدة سكينة. قال: وأظن هذا البستان هو الذى بنته شجرة الدر بستانا ودارا وحمامات قريب من مشهدة السيدة نفيسة. قال: وأمر المأمون بالنداء فى القاهرة مع مصر ثلاثة أيام بأن من كانت له دار فى الخراب أو مكان يعمره، ومن عجز عن أن يعمره فليؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه، ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه، وأباح تعمير ذلك جميعه بغير طلب بحق فيه. فطلب الناس كافة ماهو جار فى الديوان السلطانى وغيره وعمروه حتى صار البلدان لايتخللهما داثر ولا دارس، وبنى فى الشارع - يعنى خارج باب زويلة من الباب الحديد إلى الجبل عرضًا وهو القلعة الآن. قال وكان الخراب استولى على تلك الأماكن فى زمن المستنصر فى أيام وزارة الباز. ورى حتى أنه كان بنى حائطًا يستر الخراب عن نظر الخليفة

إذا توجه من القاهرة إلى مصر، وبنى حائطًا آخر عند جامع ابن طولون. قال: وعمر ذلك حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الأخيرة بالقاهرة ويتوجهون إلى مساكنهم فى مصر لايزالون فى ضوء وسرة وسوق موقود إلى باب الصفا، وهو المعاصر الآن. وذلك أنه يخرج من الباب الحديد الحاكمى على يمنة بركة الفيل إلى بستان سيف الإسلام وعدة بساتين، وقبالة جميع ذلك حوانيت مسكونة عامرة بالمتعيشين إلى مصر، والمعاش مستمر الليل والنهار.

(**حارة الهلالية**) ذكر ابن عبد الظاهر أنها على يسرة الخارج من الباب الحديد الحاكمي.

(**حارة البيازورة**) هذه الحارة خارج باب القنطرة على شاطىء الخليج من شرقيه فيما للبياذرة بين زقاق الكحل وباب القنطرة حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناقق والكداشين، وإلى قريب من حارة بهاء الدين واختطت هذه الحارة فى الايام الآمرية، وذلك أن زمام البيازرة شكا ضيق دار الطيور بمصر وسأل أن يفسح للبيازرة فى عمارة على شاطىء الخليج بظاهر القاهرة لحاجة الطيور والوحوش إلى الماء. فأذن له فى ذلك فاختطوا هذه الحارة، وجعلوا منازلهم مناظر على الخليج، وفى كل دار باب سر ينزل منه إلى الخليج واتصل بناء هذه الحارة بزقاق الكحل فعرفت بهم، وسميت بحارة البيازورة وأحدهم بازيار، ثم إن المختار الصقلى زمام القصر أنشأ بجوارها بستانا، وبنى فيه منظرة عظيمة. وهذا البستان يعرف إليوم موضعه ببستان ابن صيرم خارج باب الفتوح. فلما كثرت العماير فى حارة البيازرة أمر الوزير المأمون بعمل الأقمنة لشى الطوب على شاطىء الخليج الكبير إلى حيث كان البستان الكبير الجيوشي، الذى تقدم ذكره فى ذكر مناظر الخلفاء ومنتزهاتهم.

(**حارة الحسينية**) عرفت بطائفة من عبيد الشراء يقال لهم الحسينية. قال المسبحى فى حوادث سنة خمس وتسعين وثلاثمائة: وأمر بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا فابتدى بعملها فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وثلاثمائة إلى شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين. فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد، وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عملت لهم ثم قويت الإشاعات، وتحدث العوام فى الطرقات أنها للكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم فاجتمع سائر

الكتاب، وخرجوا بأجمعهم فى خامس ربيع الأول ومعهم سائر المتصرفين فى الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ويضجون، ويسألون أن يعفى عنهم ولا يسمع فيهم قول ساع يسعى بهم وسلموا رقعتهم إلى قائد القواد الحسين بن جوهر. فأوصلها إلى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله فأجيبوا إلى ما سألوا، وخرج إليهم قائد القواد فأمرهم بالانصراف والبكور لقراءة سجل بالعفو عنهم، فانصرفوا بعد العصر وقرىء من الغد سجل كتب من نسخة للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود بأمان لهم والعفو عنهم. وقال فى ربيع الآخر واشتد خوف الناس من أمير المؤمنين من الحمدانية والكجورية والغلمان العرفاء والمماليك وصبيان الدار وأصحاب الإقطاعات والمرتزقة والغلمان الحاكمية القدم على اختلاف أصنافهم، وكتب أمان الجماعة من خدم القصر الموسومين بخدمة الحضرة بعدما تجمعوا وصاروا إلى تربة العزيز بالله وضجوا بالبكاء، وكشفوا رؤسهم، وكتبت سجلات عدة بأمانات للديلم والجبل والغلمان الشرابية والغلمان الريحانية والغلمان البشارية والغلمان المفرقة العجم وغيرهم، والنقباء والروم المرتزقة، وكتبت عدة أمانات للزويلين والبنادين والطبالين والبرقيين والعطوفيين وللعرافة الجوانية والجودرية وللمظفرية وللصنهاجيين ولعبيد الشراء الحسينية وللميمونية وللفرجية وأمان لمؤذنى أبواب القصر وأمانات لسائر البيازرة والفهادين والحجالين وأمانات أخر لعدة أقوام. كل ذلك بعد سؤالهم وتضرعهم. وقال فى جمادى الآخرة: وخرج أهل الأسواق على طبقاتهم كل يلتمس كتب أمان يكون لهم. فكتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق على طباقتهم نسخة واحدة، وكان يقرأ جميعها فى القصر أبو على أحمد بن عبد السميع العباسي، وتسلم أهل كل سوق ماكتب لهم، وهذه نسخة إحداها بعد البسملة (هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لاهل مسجد عبد الله: انكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبناء على خير الوصيين وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال لاخوف عليكم ولاتمد يد بسوء إليكم إلا فى حد يقام بواجبه

وحق يؤخذ بمستوجبه. فيوثق بذلك وليعول عليه إن شاء الله تعالى. وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليما كثيراً وقال ابن عبد الظاهر: فأما الحارات التى من باب الفتوح ميمنة وميسرة للخارج منه. فإليمنة إلى الهليجة والميسرة إلى بركة الأرمن برسم الريحانية، وهى الحسينية الآن، وكان برسم الريحانية الغزاوية والمولدة والعجمان، وعبيد الشراء، وكانت ثمانى حارات، وهى حارة حامد بين الحارتين المنشية الكبيرة. الحارة الكبيرة، الحارة الوسطي، سوق الكبير الوزيرية، وللأجناد بظاهر القاهرة حارات وهى حارة البيازرة والحسينية. جميع ذلك سكن الريحانية وسكن الجيوشية والعطوفية بالقاهرة وبظاهرها الهلالية والشوبك وحلب والحبانية والمأمونية وحارة الروم وحارة المصامدة والحارة الكبيرة والمنصورة الصغيرة وإليانسية وحارة أبى بكر والمقس ورأس التبان والشارع، ولم يكن للأجناد فى هذا الوجه غير حارة عتر للمؤمنين المترجلة، وكانت كل حارة من هذه بلدة كبيرة بالبزارين والعطارين والجزارين وغيرهم، والولاة يحكمون عليها، ولا يحكم فيها إلا الأزمة ونوابهم وأعظم الجميع الحارة الحسينية التى هى آخر صف الميمنة إلى الهليجية وهى الحسينية الآن. لأنها كانت سكن الأرمن فارسهم وراجلهم، وكان يجتمع بها قريب من سبعة آلاف نفس وأكثر من ذلك، وبها أسواق عدة وقال فى موضع آخر: الحسينية منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينية كانوا فى الأيا الكاملية قدموا من الحجاز. فنزلوا خارج باب النصر بهذه الأمكنة واستوطنوها وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المشبه بالطائفى فسميت بالحسينية، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك وابتنوا بها هذه الابنية العظيمة، وهذا وهم فإنه تقدم أن من جملة الطوائف فى الأيام الحاكمية الطائفة الحسينية، وتقدم فيما نقله ابن عبد الظاهر أيضًا أن الحسينية كانت عدة حارات والأيام الكاملية إنما كانت بعد الستمائة، وقد كانت الحسينية قبل ذلك بما ينيف عن مائتى سنة فتدبره، واعلم أن الحسينية شقتان إحداهما ماخرج عن باب الفتوح، وطولها من خارج باب الفتوح إلى الخندم، وهذه الشقة هى التى كانت مساكن الجند فى أيام الخلفاء الفاطميين، وبها كانت الحارات المذكورة، والشقة الأخرى وما خرج عن باب النصر، وامتد فى الطول إلى الريدانية، وهذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى

العيد تجاه باب النصر ومابين المصلى إلى الريدانية فضاء لابناء فيه وكانت القوافل إذا برزت تريد الحج تنزل هناك. فلما كان بعد الخمسين وأربعمائة وقدم بدر الجمالى أمير الجيوش، وقام بتدبير أمر الدولة الخليفة المنتصر بالله أنشأ بحرى مصلى العيد خارج باب النصر تربة عظيمة وفيها قبره هو وولده الأفضل بن أمير الجيوش، وأبو على كتيفات بن الأفضل وغيره، وهى باقية إلى يومنا هذا ثم تتابع الناس فى إنشاء التربة هناك حتى كثرت، ولم تزل هذه الشقة مواضع للترب ومقابر أهل الحسينية والقاهرة إلى بعد السبعمائة، ولقد حدثت عن المشيخة ممن أدرك بأن مابين مصلى الاموات التى خارج باب النصر وبين دار كهرداش التى تعرف إليوم بدار الحاجب مكانا يعرف بالمراغة معد لتمريغ الدواب به، وأن مافى صف المصلى من بحريها الترب فقط ولم تعمر هذه الشقة إلا فى الدولة التركية. لاسيما لما تغلب التتر على مماليك الشرق والعراق، وجفل الناس إلى مصر فنزلوا بهذه الشقة وبالشقة الأخرى وعمروا بها المساكن، ونزل بها أيضًا أمراء الدولة فصارت من أعظم عمائر مصر القاهرة واتخذ الأمراء بها من بحريها فيما بين الريدانية إلى الخندق مناخات الجمال سطبلات الخيل، ومن ورائها الأسواق والمساكن العظيمة فى الكثرة، وصار أهلها يوصفون بالحسن خصوصًا لما قدمت الاويراتية

ذكر قدوم الأويراتية

وكان من خبر هذه الطائفة أن بيدو بن طرغاى بن هولاكو لما قتل فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وسبعمائة وقام فى الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خربنده ابن إيفانى تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالاويرانية، وفروا عن بلاده إلى نواحى بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي، وجرت لهم خطوب آلت بهم إلى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هناك، وبعثوا إلى نائب حلب يستأذنوه فى قطع الفرات ليعبروا إلى ممإليك الشام فاذن لهم وعدوا الفرات إلى مدينة بهنسا. فاكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغى من العلوفات والضيافات وطولع الملك العادل زين الدين كتبغا، وهو يومئذ سلطان مصر والشام بأمرهم

فاستشار الأمراء فيما يعمل بهم فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم إلى الديار المصرية وتفريق باقيهم فى البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام ، وخرج إليهم الأمير علم الدين سنجر الدواداری والامير شمس الدين سنقر الأعسر إلى دمشق فجهزا من أكابر الاويرانية نحو الثلاثمائة للقدوم على السلطان وفرقا من بقى منهم بالبقاع العزيزة وبلاد الساحل ، ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الأمراء بالعكسر إلى لقائهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضا للنظر إليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم وصاروا إلى قلعة الجبل . فأنعم السلطان على طرغاى مقدمهم بأمره طبلخانه وعلى اللوص بأمرة عشرة وأعطى البقية تقاد مافى الحلقة وإقطاعات ، وأجرى عليهم الرواتب وأنزلوا بالحسينية ، وكانوا على غير الملة الإسلامية . فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم ، وكان إذ ذاك بالقاهرة ومصر غلاء كبير وفناء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الأمر على الناس . وقال فى ذلك الاديب شمس الدين محمد بن دينار :

ربنا اكشف عنا العذاب فإنا

قد تلفنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانصلقنا

وانطبخنا فى الدولة المغلية

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائة لم يصم أحد من الأويرانية وقيل للسلطان ذلك فابى أن يكرههم على الإسلام ، ومنع من معارضتهم ونهى أن ينوش عليهم أحد وأظهر العناية بهم ، وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم . فبالغ فى إكرامهم حتى أثر فى قلوب أمراء الدولة منه إحناوخشوا إيقاعه بهم فإن الاويرانية كانوا أهل جنس كتبغا ، وكانوا مع ذلك صوراً جميلة فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والاناث واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم ، فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ، ثم ماقنع الأمراء ماكان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية ، واستدعوا منهم طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم فى القاهرة ، واشتدت الرغبة

من الكافة فى أولادهم على اختلاف الآراء فى الإناث والذكور . فوقع التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم وباسباب أخر إلى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة . فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين قبض على طرغاى مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الإسكندرية فسجنهم بها، وقتلهم وفرق جميع الأويرانية على الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع ، وأدركنا من ذلك طرفا جيداً وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة ، ولآخرى شغف بأولادهم ، ولله در الشيخ تقى الدين السروجى إذ يقول من أبيات

ياساعى الشوق الذى مذ جري

جرت دموعى فهى أعوانه

خذ لى جوابًا عن كتابى الذي

إلى الحسينية عنوانه

فهى كما قد قيل وادى الحمي

وأهلها فى الحسن غزلانه

امشى قليلا وانعطف يسرة

يلقاك درب طال بنيانه

واقصد بصدر الدرب ذاك الذي

بحسنه تحسن جيرانه

سلم وقال يخشى من أى من

أشت حديثًا طال كتمانه

وسل لى الوصل فإن قال بق

فقل أوت قد طال هجرانه

وما برحوا يوصفون بالزعارة والشجاعة ، وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان ويعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ، ويؤثر عنهم حكايات كثيرة وأخبار جمة ، وكانت الحسينية قد أربت فى عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة حتى لقد قال لى ثقة ممن أدركت من المشيخة أنه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق والدور وسائر شوارعها حافلة بازدحام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والملعوب فيما بين الريدانية محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة ، وإلى باب الفتوج لايستطيع الإنسان أن يمر فى هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيرة الا بمشقة من الزحام . كما كنا نعرف شارع بين القصرين فيما أدركنا . ومازال أمر الحسينية متماسكا إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ثمانمائة ومابعدها فخربت حاراتها ونقضت مبانيها وبيع مافيها من الاخشاب وغيرها ، وباد أهلها ثم حدث بها بعد سنة عشرين وثمانمائة آية من آيات الله تعالى ، وذلك أن فى أعوام بضع وستين وسبعمائة بدا بناحية ، برج الزيات فيما بين المطرية وسر ياقوص فساد الأرض التى من شأنها العبث فى الكتب والثياب فأكلت لشخص نحو ألف وخمسمائة قتة دريس . فكنا لاتزال نتعجب من ذلك . ثم فشت هناك وشنع عبثها فى سقوف الدور وسرت حتى عانت فى أخشاب سقوف الحسينية وغلات أهلها وسائر أمتعتهم حتى أتلف شيئًا كثيراً وقويت حتى صارت تأكل الجدران فبادر أهل تلك الجهة إلى هدم ما قد بقى الدور خوفا عليها من الأرضة شيئًا بعد شىء حتى قاربوا باب الفتوح وباب النصر ، وقد بقى منها اليوم قليل من كثير يخاف إن استمرت أحوال الإقليم على ماهى عليه من الفساد أن تدثر وتمحى آثارها كما دثر سواها ولله در القائل

والله إن لم يداركها وقد رحلت

بلمحة أو بلطف من لديه خفي

ولم يجد بتلافيها على عجـــل

ما أمرها صـــائر إلا إلى تلف

(**حارة حلب**) هذه الحارة خارج باب زويلة . وتعرف إليوم بزقاق حلب ، وكانت قديمًا من جملة مساكن الأجناد . قال ياقوت فى باب حلب ، الأول حلب المدينة المشهورة بالشام وهى

قصبة نواحى فنسرين والعواصم إليوم، الثانى حلب الساجود من نواحى حلب أيضًا، الثالث كفر حلب من قراها أيضًا، الرابع محلة بظاهر القاهرة بالشارع من جهة الفسطاط والله تعإلى أعلم

ذكر أخطاط القاهرة وظواهرها

لقد تقدم ذكر مايطلق عليه حارة من الأخطاط، ونريد أن نذكر من الخطط مالا يطلق عليه اسم حارة ولادرب وهى كثيرة، وكل قليل تتغير أسماؤها ولابد من ايراد ماتيسر منها.

(**خط خان الوراقة**) هذا الخط فيما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش وفى شرقى سوق المرجلين، وهو يشتمل على عدة مساكن وبه طاحون، وكان موضعه قديمًا اصطبل الصبيان الحجرية لموقف خيولهم كما تقدم. فلما زالت الدولة الفاطمية احتط مواضع للسكنى وقد شمله الخراب.

(**خط باب القنطرة**) هذا الخط كان يعرف قديمًا بحارة المرتاحية وحارة الفرحية والرماحين، وكان مابين الرماحين الذى يعرف إليوم بباب القوس داخل باب القنطرة وبين الخليج فضاء لاعمارة فيه بطول مابين باب الرماحين إلى باب الخوخة، وإلى باب سعادة وإلى باب الفرج، ولم يكن إذ ذاك على حافة الخليج عمارة ألبتة، وإنما العمائر من جانب الكافوري، وهى مناظر اللؤلؤة وما جاورها من قبليها إلى باب الفرج، وتخرج العامة عصريات كل يوم إلى شاطىء الخليج الشرقى تحت المناظر للتفرج. فإن بر الخليج العربى كان فضاء مابين بساتين وبرك ـ كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى، قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وثمانين وخمسمائة: فى شوال قطع النيل الجور واقتلع الشجر وغرق النواحى وهدم المساكن، وأتلف كثيراً من النساء والأطفال، وكثر الرخاء بمصر فالقمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا، والخبز البايت ستة أرطال بربع درهم والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم والموز ستة أرصال بدرهم والرمان الجيد مائة حبة بدرهم والحمل الخيار بدرهمين،

والتين ثمانية أرطال بدرهم، والعنب ستة أرطال بدرهم فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين، والياسمين خمسة أرطال بدرهم، وآل أمر أصحاب البساتين إلى أن لايجمعوا الزهر لنقص ثمنه عن أجرة جمعه، وثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم والبسرة عشرة أرطال بدرهم من جيده، والمتوسط خمسة عشر رطلا بدرهم، ومافى مصر الا متسخط بهذه النعمة. قال: ولقد كنت فى خليج القاهرة من جهة المقس لانقطاع الطرق بالمياه فرأيت الماء مملوءا سمكا والزيادة قد طبقت الدنيا والنخل مملوءا تمرا، والمكشوف من الأرض مملوأ ريحانا وبقولا، ثم نزلت فوصلت إلى المقس فوجدت من القلعة التى بالمقس إلى منية السيرج غلالا قد ملأت صبرها الأرض. فلا يدرى الماشى أين يضع رجله متصلا عرض ذلك إلى باب القنطرة وعلى الخليج عند باب القنطرة. من مراكب الغلة ماقد ستر سواحله وأرضه. قال: ودخلت البلد فرأيت فى السوق من الأخباز واللحوم والألبان والفواكه ماقد ملأها، وهجمت منه العين على منظر مارأيت قبله مثله. قال: وفى البلد من البغى ومن المعاصى ومن الجهر بها، ومن الفسق بالزنا واللواط ومن شهادة الزور ومن مظالم الأمراء والفقهاء، ومن أستحلال الفطر فى نهار رمضان، وشرب الخمر فى ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام ومن عدم التكبر على ذلك جميعه ومالم يسمع ولم يعهد مثله. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وظفر بجماعة مجتمعين فى حارة الروم يتغدون فى قاعة فى نهار رمضان فما كلموا، وبقوم مسلمين ونصارى اجتمعوا على شرب خمر فى ليل رمضان فما أقيم فيهم حده، وخط باب القنطرة فيما بين حارة بهاء الدين وسويقة أمير الجيوش وينتهى من قبليه إلى خط بين السورين.

(**خط بين السورين**) هذا الخط من باب الكافورى فى الغرب إلى باب سعادة، وبه الآن صفان من الاملاك. أحدهما مشرف على الخليج، والآخر مشرف على الشارع المسلوك فيه من باب القنطرة إلى باب سعادة، ويقال لهذا الشارع بين السورين تسميه العامة بها. فاشتهر بذلك، وكان فى القديم بهذا الخط البستان الكافورى يشرف عليه بحده الغربى ثمة مناظر اللؤلؤة، وقد بقيت منها عقود مبنية بالآجر يمر السالك فى هذا الشارع من تحتها، ثم مناظر دار الذهب، وموضعها الآن دار تعرف بدار بها در الأعسر، وعلى بابها بئر يستقى منها الماء

فى حوض يشرب منه الدواب ، ويجاورها قبو معقود يعرف بقبو الذهب هو من بقية مناظر دار الذهب ، وبحد دار الذهب منظرة الغزالة وهى بجوار قنطرة الموسكي . وقد بنى فى مكانها ربع يعرف إلى إليوم بربع غزالة ، ودار ابن قرفة ، وقد صار موضعها جامع ابن المغربى ، وحمام ابن قرفة ، وبقى منها البئر التى يستقى منها إلى اليوم بحمام السلطان وعدة دور كلها فيما يلى القاهرة من صف باب الخوخة ، وكان مابين المناظر والخلية براحا ولم يكن شيء من هذه العمائر التى بحافة الخليج إليوم ألبتة ، وكان الحاكم بأمر الله فى سنة إحدى وأربعمائة منع من الركوب فى المراكب بالخليج وسد أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور التى هناك والطاقات المطلة عليه على ماحكاه المسيحي ، وقال ابن المأمون فى حوادث سنة ست عشرة وخمسمائة : ولما وقع الاهتمام بسكن اللؤلؤة والمقام بها مدة النيل على الحكم الاول - يعنى قبل أيام أمير الجيوش بدر وابنه الأفضل وإزالة ، لم تكن العادة جارية عليه من مضايقة اللؤلؤة بالبناء ، وأنها صارت حارات تعرف بالفرحية والسودان وغيرهما أمر حسام الملك متولى بابه باحضار عرفاء الفرحية والإنكار عليهم فى تجاسرهم على ما استجدوه وأقدموا عليه فاعتذروا بكثرة الرجال وضيق الأمكنة عليهم . فبنوا لهم قبابا يسيرة فتقدم - يعنى أمر الوزير المأمون إلى متولى الباب بالإنعام عليهم وعلى جميع من بنى فى هذه الحارة بثلاثة آلاف درهم ، وأن يقسم بينهم بالسوية ويأمرهم بنقل قسمهم ، وأن يبنوا لهم حارة قبالة بستان الوزير يعنى ابن المغربى خارج الباب الجديد من الشارع . خارج باب زويلة . قال : وتحول الخليفة إلى اللؤلؤة بحاشيته وأطلقت التوسعة فى كل يوم لما يخص الخاص والجهات والأستاذين من جميع الأصناف ، وانضاف إليها مايطلق كل ليلة عينا وورقا وأطعمة للبائتين بالنوبة برسم الحرس بالنهار والسهر فى طول الليل من باب قنطرة بهادر إلى مسجد الليمونة من البرين من صبيان الخاص والركاب والرهجية والسودان والحجاب كل طائفة بنقيبها ، والغرض من متولى الباب واقع بالعدة فى طرفى كل ليلة ، ولايمكن بعضهم بعضًا من المنام ، والرمحية تخدم على الدوام .

(خط الكافوري) هذا الخط كان بستانا من قبل بناء القاهرة ، وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر . أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الملقب بالإخشيد ، وكان بجانبه ميدان

فيه الخيول وله أبواب من حديد. فلما قدم جوهر القائد إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة، وعرف ببستان كافور، وقيل له فى الدولة الفاطمية البستان الكافري، ثم اختط مساكن بعد ذلك. قال ابن زولاق فى كتاب سيرة الإخشيد: ولست خلون من شوال سنة ثلاثين وثلاثمائة سار الإخشيد إلى الشام فى عساكره واستخلف أخاه أبا المظفر بن طغج قال: وكان يكره سفك الدماء وقد شرع فى الخروج إلى الشام فى آخر سفراته، وسار العسكر، وكان نازلا فى بستانه فى موضع القاهرة اليوم. فركب للسير. فساعة خرج من باب البستان اعترضه شيخ يعرف بمسعود الصابونى يتظلم إليه فنظر له فتطير به، وقال خذوه ابطحوه. فبطح وضرب خمس عشرة مقرعة وهو ساكت. فقال الإخشيد هو ذا يتشاطر. فقال له كافور: قد مات. فأزعج واستقال سفرته وعاد لبستانه، وأحضر أهل الرجل واستحلهم وأطلق لهم ثلاثمائة دينار، وحمل الرجل إلى منزله ميتا، وكانت جنازته عظيمة وسافر الإخشيد فلم يرجع إلى مصر ومات بدمشق.

وقال فى كتاب تتمة كتاب أمراء مصر للكندي: وكان كافور الإخشيدى أمير مصر يواصل الركوب إلى الميدان وإلى بستانه فى يوم الجمعة ويوم الاحد ويوم الثلاثاء. قال: وفى غد هذا اليوم يعنى يوم الثلاثاء مات الأستاذ كافور الاخشيدى لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ويوم مات الاستاذ كافور الإخشيدى خرج الغلمان والجند إلى المنظرة وخربوا بستان كافور، ونهبوا دوابه، وطلبوا مال البيعة. وقال ابن عبد الظاهر: البستان الكافورى هو الذى كان بستانا لكافور الإخشيدي. وكان كثيراً ما يتنزه به، وبنيت القاهرة عنده، ولم يزل إلى سنة إحدى وخمسين وستمائة. فاختطت البحرية والعزيزية به اصطبلات، وأزيلت أشجاره. قال: ولعمرى أن خرابه كان بحق فإنه كان عرف بالحشيشة التى يتناولها الفقراء والتى تطلع به يضرب بها المثل فى الحسن. قال شاعرهم نور الدين أبو الحسن على بن عبد الله بن على الينبعى لنفسه

رب ليـــــل قطعتـــــه ونديمي

شاهدى وهو مسمعى ومسيري

مجلسى مسجد وشربى من خضـ

ـــراء تزهو بحسن لون نضير

قال لى صـاحب وقد فاح منها

نشـــرها مزريًا بنشر العـــبير

أمن المسك قلت ليست من المسـ

ـك ولكنها من الكـــافوري

وقال الحـافظ جمـال الدين يوسف بن أحـمـد بن محمود بن أحمد بن مـحـمـد الاسدى الدمشقى المعروف بإليغموري : أنشدنى الإمام العالم المعروف بجموع الفضائل زين الدين أبو عبد الله بن أبى بكر بن عبد القادر الحنفى لنفسه ، وهو أول من عمل فيها

وخضراء كافورية بات فعلهـــا

بألبابنا فعــــل الرحيق المعتق

إذا نفحتنا من شـــــذاها بنفحة

تدب لنا فى كل عضو ومنطق

غنيت بها عن شرب خمر معتـق

وبالدلق عن لبس الجديد المزوق

وأنشدنى الحافظ جلال الدين أبو المعز بن أحمد بن الصائغ المغربى لنفسه

عاطنى خضراء كافـــورية

يكتب الخمر لها من جندها

أسكـــرتنا فوق ماتسـكرنا

وربحنا أنفســـا من حدها

وأنشدنى لنفسه :

قم عاطنى خضراء كافورية

قامت مقام سلافة الصهباء

يغدو الفقير إذا تنـــاول درهما

منهـــا له تيه على الأمراء

وترامعن أقوى الورى فإذا خلا

منها عددناه من الضعفاء

وأنشدنى من لفظه لنفسه أيضًا :

عاطيت من أهوى وقد زارني

كالبـــدر وافى ليلة البدر

والبحر قد مد على متنـــــه

شـــــعاعه جسرًا من التبر

خضراء كافورية رنحـــت

أعطـــافه من شدة السكر

يفعل منها درهم فـــوق ما

تفعـــل أرطال من الخمر

فراح نشوانًا بها غـــــافلا

لا يعـــرف الحلو من المر

قال وقد نال بهـــــا أمره

فبـــات مردودا إلى أمري

قتلتنى قلت نعم ســـيدي

فتلين بالســـكر وبالبحر

قـال : وأمر السلطان الملك الصالح يعنى نجم الدين أيوب الأمير جمال الدين أبا الفتح موسى بن يغمور أن يمنع من يزرع فى الكافورى من الحشيشة شيئاً فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئاً كثيرًا فأمر بأن يجمع ، فجمع وأحرق . فأنشدنى فى الواقعة الشيخ الأديب الفاضل

شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف لنفسه، وذلك فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

صرف الزمان وحادث المقدور
تركا نكير الخطـب غير نكير
ماسـالما حيـا ولا ميتًا ولا
طودا سما بل دكدكا بالطور
لهفى وهل يجدى التلهف فى ردي
طـرب الغنى وأنس كل فقير
أخت المذلة لارتكاب محـرم
قطـب السرور بأيسر الميسور
جمعت محاسن مااجتمعن لغيرها
من كل شىء كان فى المعمور
منها طعام والشراب كلاهمـا
والبقل والريحان وقت حضور
على روضة إن شئتها ورياضة
يغنى بهـا عن روضة وخمور
مافى المدامة كلها منها سـوى
أثم المـدام وصحبه المخمور
كلا ونكهة خمرة هى شـاهد
عـدل على حد وجلد ظهور
أسـفا لدهر غالهـا ولربما
ظـل الكريم بذلة المأسـور
جمعت له الأشهاد كرما أخضرا
كعروسـة تجلى بخضر حرير

زفوا لهـــا نارا فخلنا جنـــة

برزت لنـا قد زوجت بالنور

ثم اكتســت منها غـلالة صفرة

فى حضـــرة مقـــرونة بزفير

فكأنها طب اللظى فى خضـــرة

منهـا وطرف رمادها المنثور

جارى النضار على مذاب زمرد

تركا فتيت المسك فى الكافوري

لله درك حيـــــة أو ميتـــة

من منظـــر بهيج بغـــير نظير

أوذيت غير ذميمة فسقى الحيـا

تربا تضـــمن منك ذوب عبير

عندى لذكرى مابقيت مخـلدا

ســح الدموع ونفثه المصدور

ذكر كافور الإخشيدى

كان عبدا أسودا خصيا مثقوب الشفة السفلى بطينا قبيح القدمين ثقيل البدن جلب إلى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها فى سنة عشر وثلاثمائة فلما دخل إلى مصر تمنى أن يكون أميرها، فباعه الذى جلبه لمحمد بن هاشم أحد المتقبلين للضياع فباعه لابن عباس الكاتب فمر يوما بمصر على منجم. فنظر له فى نجومه وقال له: أنت تصير إلى رجل جليل القدر تبلغ معه مبلغا عظيما فدفع إليه درهمين لم يكن معه سواهما. فرمى بهما إليه وقال: أبشرك بهذه

البشارة وتعطيني درهمين ثم قال له وأزيدك : انت تملك هذه البلد وأكثر منه فاذكرني واتفق أن ابن عباس الكاتب أرسله بهدية يوما إلى الامير أبي بكر محمد بن طغج الإخشيد وهو يومئذ أحد قواد تكين أمير مصر . فأخذ كافوراً ورد الهدية فترقى عنده في الخدم حتى صار من أخص خدمه ، ولما مات الإخشيد بدمشق ضبط كافور الأمور وداري الناس ووعدهم إلى أن سكنت الدهماء بعد أن اضطرب الناس ، وجهز أستاذه وحمله إلى بيت المقدس وسار إلى مصر فدخلها وقد انعقد الأمر بعد الإخشيد لابنه أبي القاسم أونوجور فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من دمشق بأن سيف الدولة على بن حمدان أخذها وسار إلى الرملة فخرج كافور بالعساكر ، وضرب الدباديب وهي الطبول على باب مضربه في وقت كل صلاة ، وسار فظفر وغنم ثم قدم إلى مصر وقد عظم أمره فقام بخلافة أونوجور . فخاطبه القواد بالأستاذ ، وصار القواد يجتمعون في داره فيخلع عليهم ويعطيهم حتى أنه وقع لجانك أحد القواد الإخشيدية في يوم بأربعة عشر ألف دينار فما زال عبداً له حتى مات ، وانبسطت يده في الدولة فعزل وولى وأعطى وحرم ، ودعى له على المنابر كلها إلا منبر مصر والرملة وطبرية ثم دعى له بها في سنة أربعين وثلاثمائة وصار يجلس للمظالم في كل سبت ، ويحضر مجلسه القضاة والوزراء والشهود ووجوه البلد فوقع بينه وبين الامير أونوجور وتحرز كل منهما من الآخر ، وقويت الوحشة بينهما ، وافترق الجند فصار مع كل واحد طائفة ، واتفق موت أونوجور في ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ويقال إنه سمه . فأقام أخاه أبا الحسن على بن الإخشيدي من بعده ، واستبد بالأمر دونه وأطلق له في كل سنة أربعمائة ألف دينار ، واستقل بسائر أحوال مصر والشام فقد زاد ما بينه وبين الأمير أبي الحسن على . فضيق عليه كافور ومنع أن يدخل عليه أحد . فاعتل بعلة أخيه ومات . وقد طالت به في محرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فبقيت مصر بغير أمير أياما لا يدعى فيها سوى للخليفة المطيع فقط ، وكافور يدبر أمر مصر والشام في الخراج والرجال ، فلما كان لاربع بقين من المحرم المذكور أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع بتقليده بعد على بن الإخشيد فلم يغير لقبه بالاستاذ ودعى له على المنبر بعد الخليفة ، وكانت له في أيامه قصص عظام ، وقدم عسكر من المعز لدين الله ابى

تميم معد من المغرب إلى الواحات فجهز إليه حبيشا أخرجوا العسكر وقتلوا منهم، وصارت الطبول تضرب على بابه خمس مرات فى إليوم والليلة وعدتها مائة طبلة من نحاس، وقدمت عليه دعاة المعز لدين الله من بلاد المغرب يدعونه إلى طاعته فلاطفهم وكان أكثر الإخشيدية والكافورية وسائر الأولياء والكتاب قد اخذت عليهم البيعة للمعز، وقصر مد النيل فى أيامه فلم يبلغ تلك السنة سوى اثنى عشر ذراعا وأصابع فاشتد الغلاء وفحش الموت فى الناس حق عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم وارجف بمسير القرامطة إلى الشام وبدت غلمأنه تتنكر له، وكانوا ألفا وسبعين غلاما تركيا سوى الروم والمولدين فمات لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة عن ستين سنة، وترك من العين سبعمائة ألف دينار ومن الورق والحلى والجوهر والعنبر والطيب والثياب والآلات وألفرش والخيام والعبيد والجوارى والدواب ماقوم بستمائة ألف ألف دينار، وكانت مدة تدبيره أمر مصر والشام والحرمين إحدى وعشرين سنة وشهرين وعشرين يوما منها منفردا بالولاية بعد أولاد استاذة سنتان وأربعة أشهر وتسعة ايام، ومات عن غير وصية ولا صدقة ولا مأثرة يذكر بها، ودعى له على المنابر بالكنية التى كناه بها الخليفة وهى أبو الملك أربع عشرة جمعة، وبعده اختلت مصر وكادت تدمر حتى قدمت جيوش المعز على يد القائد جوهر. فصارت مصر دار خلافة ووجد على قبره مكتوب.

ما بال قبرك يا كافور منفردا.

بصائح الموت بعد العسكر اللجب.

يداس قبرك من ادنى الرجال وقد.

كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب.

ووجد ايضا مكتوب :

انظر إلى غبر الأيام ماصنعت

أفنت أناســـا بها كانوا وما فنيت

دنياهم أضحكت ايام دولتهم

حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت

(خط الخرشتف) هذا الخط فيما بين حارة برجوان والكافورى، ويتوصل إليه من بين القصرين فيدخل له من قبو يعرف بقبو الخرشتف، وهو الذى كان يعرف قديما بباب التبانين، ويسلك من الخرشتف إلى خط باب سر المارستان وإلى حارة زويلة، وكان موضع الخرشتف فى أيام الخلفاء ألفاطميين ميدانا بجوار القصر الغربى والبستان الكافورى. فلما زالت الدولة اختط وصار فيه عدة مساكن، وبه أيضا سوق، وإنما سمى بالخرشتف لأن المعز أول من بنى فيه الاصطبلات بالخرشتف وهو متحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيره قال ابن عبد الظاهر: الحارة المعروفة بالخرشتف كانت قديما ميدانا للخلفاء. فلما ورد المعز بنوا به اصطبلات. وكذلك القصر الغربى، وقد كان النساء اللاتى أخرجن من القصر يسكن بالقصر النافعى فامتدت الأيدى إلى طوبه واخشابه وبيعت وتلاشى حالة وبنى به وبالميدان اصطبلات ودويرات بالخرشتف فسمى بذلك ثم بنى به الآدر والطواحين وغيرها، وذلك بعد الستمائة وأكثر أراضى الميدان حكر الآدر.

(خط اصطبل القطبية) هذا الخط ايضا من جملة أراضى الميدان، ولما استقلت القاعة التى كانت سكن أخت الحاكم بأمر الله بعد زوال الدولة ألفاطمية صارت إلى الملك المفضل قطب الدين احمد بن المالك العادل ابى بكر بن أيوب فاستقر بها هو وذريته فصار يقال لها الدار القطبية، واتخذ هذا المكان اصطبلا لهذه القاعة فعرف باصطبل القطبية، ثم لما اخذ الملك المنصورى قلاوون القاعة القطبية من مونسج خاتون المعروفة بدار إقبال ابنة الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخت المفضل قطب الدين احمد المعروفة بخاتون القطبية وأمام المارستان المنصورى بنى فى هذا الاصطبل المساكن، وصارت من جملة الخطط المشهورة، ويتوصل إليه من وسط سوق الخرشتف ويسلك فيه من آخره إلى المدرسة الناصرية والمدرسة الظاهرية المستجدة وعمل على أوله دربا يغلق وهو خط عامر.

(خط باب سر المارستان) هذا الخط يسلك إليه من الخرشتف، ويصير السالك فيه إلى البندقانيين، وبعض هذا الخط، وهو جله ومعظمه من جملة اصطبل الجميزة الذى كان فيه خيول الدولة ألفاطمية، وقد تقدم ذكره، وموضع باب سر المارستان المنصورى هو باب الساباط. فلما زالت الدولة، واختط الكافورى والخرشتف واصطبل القطبية صار هذا الخط

واقعا بين هذه الأخطاط ونسب إلى باب سر المارستان. لأنه من هنالك، وأدركت بعض هذه الخطة وهى خراب ثم أنشأ فيه القاضى جمال الدين محمود القيصرى محتسب القاهرة فى أيام ولايته نظر المارستان فى سنة إحدى وثمانين وسبعمائة العظيمة ذات الاحجار والفرن والربع علوه فى المكان الخراب وجعل ذلك جاريا فى جملة أوقاف المارستان المنصورى.

(**خط بين القصرين**) هذا الخط أعمر أخطاط القاهرة وأنزهها، وقد كان فى الدولة الفاطمية فضاء كبيرا وبراحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس وراجل، ويكون به طرادهم ووقوفهم للخدمة كما هو الحال إليوم فى الرميلة تحت قلعة الجبل. فلما انقضت أيام الدولة ألفاطمية وخلت القصور من أهإليها ونزل بها أمراء الدولة الأيوبية، وغيروا معالمها. صار هذا الموضع سوقا مبتذلا بعد ما كان ملاذا مبجلا، وقعد فيه الباعة بأصناف المأكولات من اللحمان المتنوعة والحلاوات المصنعة وألفاكهة وغيرها. فصار منتزها تمر فيه أعيان الناس وإمائهم فى الليل مشاة لرؤية ما هناك من السرج والقناديل الخارجة عن الحد فى الكثرة، ولروية ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مما فيه لذة للحواس الخمس وكانت تعقد فيه عدة حلق لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار والتفنن فى أنواع اللعب واللهو. فيصير مجمعا لا يقدر قدره ولا يمكن حكاية وصفه. وسأتلو عليك من أنباء ذلك مالا تجده مجموعا فى كتاب قال المسبحى: فى حوادث جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وستمائة وفيه منع كل أحد ممن يركب مع المكاريين أن يدخل من باب القاهرة راكبا ولا المكارين أيضا بحميرهم. ولا يجلس أحد على باب الزهومة من التجار وغيرهم، ولا يمشى أحد ملاصق القصر من باب الزهومة إلى اقصى باب الزمرد، ثم عفى عن المكاريين بعد ذلك وكتب لهم أمان قرىء وقال ابن الطوير: ويبيت خارج باب القصر كل ليلة خمسون فارسا فإذا اذن بالعشاء الآخرة داخل القاعة وصلى الإمام الراتب بها بالمقيمين فيها من الأستاذين وغيرهم وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة ابن الكركندى فإذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب النوبات من الطبل والبوق وتوابعهما من عدة وافرة بطريق مستحسنة ساعة زمانية، ثم يخرج بعد ذلك أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول أمير المؤمنين يرد على بستان الدولة السلام. فيصقع ويغرس حربة على الباب ثم يرفعها بيده. فإذا رفعها أغلق الباب ودار حول

القصر سبع دورات فإذا انتهى ذلك جعل على الباب البياتين والفراشين المقدم ذكرهم، وأفضى المؤذنون إلى خزانتهم هناك ورميت السلسلة عند المضيق آخر بين القصرين من جانب السيوفيين فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب النوبة سحرا قريب ألفجر. فتنصرف الناس من هناك بارتفاع السلسلة. انتهى، وأخبرنى المشيخة أنه مازال الرسم إلى قريب أنه لا يمر بشارع بين القصرين حمل تبن ولا حمل حطب، ولا يستطيع أحد أن يسوق فرسا فيه فإن ساق أحد أنكر عليه وخرق به. وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب: والمكان الذى كان يعرف فى القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى لان هناك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين، ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية. وقال ياقوت: وبين القصرين كان ببغداد بباب الطاق يراد به قصر اسماء بنت المنصور وقصر عبد الله بن المهدى، وكان يقال لهما أيضا بين القصرين، وبين القصرين بمصر والقاهرة، وهما قصران متقابلان بينهما طريق العامة والسوق عمرهما ملوك مصر المغاربة المتعلونة الذين ادعوا أنهم علوية. وحدثنى ألفاضل الرئيس تقى الدين عبد الوهاب ناظر الخواص الشريفة ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله ابن أبى شاكر أنه كان يشترى فى كل ليلة من بين القصرين بعد العشاء الآخرة برسم الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن خصيب من الدجاج المطجن والقطا وفراخ الحمام والعصافير المقلاه بمبلغ مائتى درهم وخمسين درهما فضة يكون عنها يومئذ نحو من اثنى عشر مثقالا من الذهب، وأن هذا كان دأبه فى كل ليلة ولا يكاد مثل هذا مع كثرته لرخاء الأسعار يؤثر نقصه فيما كان هنالك من هذا الصنف لعظم ما كان يوضع فى بين القصرين من هذا النوع وغيره. ولقد أدركنا فى كل ليلة من بعد العصر يجلس الباعة بصنف لحمان الطيور التى تقلى صفا من باب المدرسة الكاملية إلى باب المدرسة الناصرية وذلك قبل بناء المدرسة الظاهرية المستجدة. فيباع لحم الدجاج المطجن ولحم الأوز المطجن كل رطل بدرهم، وتارة بدرهم وربع، وتباع العصافير المقلوة كل عصفور بفلس حسابا عن كل أربعة وعشرين بدرهم. والمشيخة تقول أنا حينئذ فى غلاء لكثرة ما تصف من سعة الأرزاق ورخاء الأسعار فى الزمن الذى أدركوه قبل ألفناء الكبير. ومع ذلك فلقد وقع فى سنة ست وثمانين شىء لا يكاد يصدقه إليوم من لم يدرك

ذلك الزمان . وهو أنه كان لنا من جيراننا بحارة برجوان شخص يعانى الجندية ويركب الخيل . فبلغنى عن غلامه أنه خرج فى ليلة وأنهما سرقا من شارع بين القصرين وما قرب منه بضعا وعشرين بطيخة خضراء وبضعا وثلاثين شقفة جبن والشقفة أبدا من نصف رطل إلى رطل فما منا إلا من تعجب من ذلك ، وكيف تهيأ لاثنين فعل هذا وحمل هذا القدر يحتاج إلى دابتين إلى أن قدر الله تعالى لى بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين وسألته عن ذلك فاعترف لى به . قلت صف لى كيف عملتما؟ فذكر أنهما كان يقفان على حانوت الجبان او مقعد البطيخى ، وكان إذا ذاك يعمل من البطيخ فى بين القصرين مرصات كثيرة جدا فى كل مرص ما شاء الله من البطيخ . قال : فإذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة وقلب الآخر أخرى . فلشدة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخة بخفة يد وصناعة ، ويقوم فلا يفطن به . أو يقلب أحدنا ورفيقه قائم من ورائه والبياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين ، وما فى ذلك الشارع من غزير الناس فيحذفها من تحته وهو جالس القرفصاء فإذا أحس بها رفيقه تناولها ومر ، وكذلك كان فعلهما مع الجبانين ، وكانوا كثيرا . فانظر أعزك الله إلى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر ولا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع ولعظم الخلق . ولقد حدثنى غير واحد ممن قدم مع قاضى القضاة عماد الدين أحمد الكركى أنه لما قدموا من الكرك فى سنة اثنين وتسعين وسبعمائة كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين . وقال لى ابنه محب الدين محمد : أول ما شاهدت بين القصرين حسبت أن زفة او جنازة كبيرة تمر من هنالك . فلما لم ينقطع المارة سألت ما بال الناس مجتمعين للمرور من هنا؟ فقيل لى : هذا دأب البلد دائما ، ولقد كنا نسمع أن من الناس من يقوم خلف الشاب أو المرأة عند التمشى بعد العشاء بين القصرين ويجامع حتى يقضى وطره ، وهما ماشيان من غير أن يدركهما أحد لشدة الزحام ، واشتغال كل أحد بلهوه ، وما برحت أجد من الازدحام مشقة حتى أفادنى بعض من أدركت أن من الرأى فى المشى ان يأخذ الإنسان فى مشيه نحو شماله . فإنه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام . فاعتبرت ذلك آلاف المرات فى عدة سنين . فما أخطأ معى . ولقد كنت أكثر من تأمل المارة بين القصرين فإذا هم صفان كل صف يمر عن صوب شماله كالسيل إذا اندفع ، وعلل هذا الذى أفادنى أن القلب من يسار كل أحد والناس تميل إلى جهة قلوبهم . فلذلك صار مشيهم من صوب شمائلهم . وكذا صح لى مع طول

الاعتياد، ولما حدثت هذه المحن بعد سنة ست وثمانين تلاشى أمر بين القصرين، وذهب ما هناك وما أخوفنى أن يكون أمر القاهرة كما قيل .

هـــذه بلدة قضى الله ياصـــا

ح عليها كمـا ترى بالخراب

فقف العيس وقفة وابك من كا

ن بها من شيوخها والشباب

واعتبر ان دخلت يوما إلـيهـا

فهى كانت منـازل الأحباب

(**خط الخشيبة**) هذا الخط يتوصل إليه من وسط سوق باب الزهومة ويسلك فيه إلى الحارة العدوية . حيث فندق الرخام برحبة بيبرس، وإلى درب شمس الدولة . وقيل له خط الخشيبة من أجل أن الخليلفة الظافر لما قتله نصر بن عباس، وبنى على مكانة الذى دفنه فيه المسجد الذى يعرف إليوم بمسجد الخلعيين ، ويعرف ايضا بمسجد الخلفاء نصبت هناك خشبة حتى لا يمر أحد من هذا الموضع راكبا فعرف بخشيبة تصغير خشبة، ومازالت هناك حتى زالت الدولة ألفاطمية وقام السلطان صلاح الدين بسلطنة مصر فازال الخشيبة، وعرف هذا الخط بها إلى إليوم ويقال له خط حمام خشيبة من أجل الحمام التى هناك ولمعتقل الظافر خبر يحسن ذكره هنا .

«ذكر مقتل الخليفة الظافر»

وكان من خبر الظافر أنه لما مات الخليفة الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر فى ليلة الخميس لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة بويع ابنه ابو المنصور إسماعيل ولقب بالطافر بأمر الله بوصية من

أبيه له بالخلافة، وقام بتدبير الوزارة الأمير نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال فلم يرض الأمير المظفر على بن السلار وإلى الإسكندرية والبحيرة يومئذ بوزارة ابن مصال، وحشد وسار إلى القاهرة فقر ابن مصال واستقر ابن السلار فى الوزارة، وتلقب بالعادل فجهز العساكر لمحاربة ابن مصال فحاربته وقتل، فقوى واستوحش منه الظافر وخاف منه ابن السلار، واحترز منه على نفسه وجعل له رجالا يمشون فى ركابه بالزرد والخود وعددهم ستمائة رجل بالنوبة، ونقل جلوس الظافر من القاعة إلى الايوان فى البراح والسعة حتى إذا دخل للخدمة يكون أصحاب الزرد معه ثم تأكدت النفرة بينهما. فقبض على صبيان الخاص وقتل أكثرهم وفرق باقيهم، وكانوا خمسمائة رجل، ومازال الأمر على ذلك إلى أن قتله ربيبه عباس بن تميم بيد ولده نصر، واستقر بعده فى وزارة الظافر، وكان بين ناصر الدين نصر بن عباس الوزير وبين الظافر مودة أكيدة ومخالطة. بحيث كان الظافر يشتغل به عن كل أحد، ويخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس التى هى إليوم المدرسة السيوفية. فخاف عباس من جراءة ابنه، وخشى أن يحمله الظافر على قتله، كما قتل الوزير على بن السلار زوج جدته أم عباس فنهاه عن ذلك وألحف فى تانيبه، وأفرط فى لومه لأن الأمراء كانوا مستوحشين من عباس وكارهين منه تقريبه أسامة بن منقد لما علموه من أنه هو الذى حسن لعباس قتل ابن اللار كما هو مذكور فى خبره، وهموا بقتله وتحدثوا مع الخليفة الظافر فى ذلك فلغ أسامة ما هم عليه، وكان غريبا من الدولة فأخذ يغرى الوزير عباس بن تميم بابنه نصر ويبالغ فى تقبيح مخالطته للظافر إلى أن قال له مرة: كيف تصبر على ما يقول الناس فى حق ولدك من أن الخليفة يفعل به ما يفعل بالنساء. فأثر ذلك فى قلب عباس، واتفق أن الظافر أنعم بمدينة قليوب على نصر بن عباس فلما حضر، إلى ابيه وأعلمه بذلك وأسامة حاضر. فقال له يا ناصر الدين ما هى بمهرك غالية - يعرض له بالفحش - فاخذ عباس من ذلك ما أخذه وتحدث مع أسامه لثقته به فى كيفية الخلاص من هذا فأشار عليه بقتل الظافر إذا جاء إلى دار نصر على عادته فى الليل. فأمره بمفاوضة ابنه نصر فى ذلك. فاغتنمها أسامة، ومازال بنصر يشنع عليه ويحرضه على قتل الظافر حتى وعده بذلك. فلما كان ليلة الخميس آخر المحرم من سنة تسع وأربعين وخمسمائة خرج الظافر من قصره متنكرا ومعه خادمان كما

هى عادته، ومشى إلى دار نصر بن عباس فإذا به قد أعد وله قوما. فعندما صار فى داخل داره وثبوا عليه وقتلوه هو وأحد الخادمين، وتوارى عنهم الخادم الآخر، ولحق بعد ذلك بالقصر، ثم دفنوا الظافر والخادم تحت الأرض فى الموضع الذى فيه الآن المسجد، وكان سنه يوم قتل إحدى وعشرين سنة وتسعة أشهر ونصف منها فى الخلافة بعد ابيه اربع سنين وثمانية أشهر تنقص خمسة أيام، وكان محكوما عليه فى خلافته، وفى أيامه ملك ألفرنج مدينة عقلان وظهر الوهن فى الدولة، وكان كثير اللهو واللعب وهو الذى انشأ الجامع المعروف بجامع ألفاكهيين، وبلغ أهل القصر ما عمله نصر أبن عباس من قتل الظافر فكاتبوا طلائع بن رزبك، وكان على الاسمونين وبعثوا إليه بشعور النساء يستصرخون به على عباس وابنه. فقدم بالجموع وفر عباس وأسامة ونصر، ودخل طلائع وعليه ثياب سود وأعلامه وبنوده كلها سود وشعور النساء التى أرسلت إليه من القصر على الرماح فألأعجيبا فأنه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد، واستبد صالح الدين. يملك ديار مصر، وكان أول مابدأ به طلائع أن مضى ماشيا إلى دار نصر وأخرج الظافر والخادم وغسلهما وكفنهما، وحمل الظافر فى تابوت مغشى، ومشى طلائع حافيا والناس كلهم حتى وصلوا إلى القصر فصلى عليه ابنه الخليفة الفائز، ودفن فى تربة القصر.

(**خط سقيفة العداس**) هذا الخط فيما بين درب شمس الدولة والبندقانيين كان يقال له أولا سقيفة العداس، ثم عرف بالصاغة القديمة ثم عرف بالأساكفة، ثم هو الآن يعرف بالحريريين الشراربيين، وبسوق الزجاجين، وفيه يباع الزجاج. وهو خط عامر وهذا العداس هو على بن عمر بن العداس ابو الحسن ضمن فى أيام المعز لدين الله كورة بوصير. فخلع عليه وجمله، وسار خلفه بالبنود والطبول فى جمادى الأولى سنة أربع وستين وثلاثمائة. فلما كان فى أول خلافة العزيز بالله بن المعز لدين الله ولاه الوساطة، وهى رتبة الوزارة بعد موت الوزير يعقوب بن كلس، ولم يلقبه بالوزير فجلس فى القصر لتسع عشرة خلت من ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وأمر ونهى ونظر فى الأموال ورتب العمال وأمر أن لا يطلق شىء إلا بتوقيعه، ولا ينفذ إلا ما أمر به وقرره، وأمره العزيز بالله أن لا يرتفق-اى يرتشى، ولا يرتزق. يعنى أنه لا يقبل هدية، ولا يضيع دينارا ولا درهما. فأقام سنةوصرف

فى أول المحرم من سنة ثلاث وثمانين فقرر فى ديوان الاستيفاء إلى أن كان جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة حسن لابى طاهر محمود النحوى الكاتب، وكان منقطعا إليه أن يلقى الحاكم بأمر الله ويبلغه ماتشكوه الناس من تظافر النصارى وغلبتهم على المملكة، وتوازرهم، وأن فهد بن إبراهيم هو الذى يقوى نفوسهم ويفوض أمر الأموال والدواوين إليهم وأنه آفة على المسلمين وعدة للنصارى. فوقف ابو طاهر للحاكم ليلا فى وقت طوافه فى الليل وبلغه ذلك، ثم قال يا مولانا. إن كنت تؤثر جمع الاموال وإعزاز الاسلام فأرنى رأس فهد بن إبراهيم فى طشت وإلا لم يتم من هذا شيء. فقال له الحاكم: ويحك، ومن يقوم بهذا الأمر الذى تذكره ويضمنه. فقال عبدك على بن عمر بن العداس، فقال: ويحك أو يفعل هذا. قال نعم يا أمير المؤمنين. قال: قل له يلقانى ههنا فى غد، ومضى الحاكم فجاء أبو طاهر إلى ابن العداس وأعلمه بما جرى، فقال: ويحك قتلتنى وقتلت نفسك. فقال معاذ الله. افنصبر لهذا الكلب الكافر على ما يفعل بالإسلام والمسلمين ويتحكم فيهم من اللعب بالأموال والله إن لم تسع فى قتله ليسعين فى قتلك. فلما كان فى الليلة القابلة وقف على بن عمر العداس للحاكم ووافقه على ما يحتاج إليه فوعده بإنجاز ما اتفقا عليه وأمره بالكتمان، وانصرف الحاكم، فلما أصبح ركب العداس إلى دار قائد القواد حسين بن جوهر القائد، فلقى فهد بن إبراهيم فقال له فهد: يا هذا كم تؤذينى وتقدح فى عند سلطانى. فقال العداس والله ما يقدح ولا يؤذينى عند سلطانى ويسعى على غيرك. فقال الفهد: سلط الله على من يؤذى صاحبه فينا، ويسعى به سيف هذا الإمام الحاكم بأمر الله. فقال العداس آمين وعجل ذلك ولا تمهله. فقتل فهد فى ثامن جمادى الآخرة، وضربت عنقه، وكان له منذ نظر فى الرياسة خمس سنين وتسعة اشهر واثنى عشر يوما، وقتل العداس بعدة بتسعة وعشرين يوما واستجيب دعاء كل منهما فى الاخر وذهبا جميعا ولا يظلم ربك أحدا، وذلك أن الحاكم خلع على العداس فى رابع عشرة وجعله مكان فهد، وخلع على ابنه محمد بن على فهناه الناس واستمر إلى خامس عشرى رجب منها فضربت رقبة ابى طاهر محمود بن النحوى وكان ينظر فى أعمال الشام لكثرة ما رفع عليه من التجبر والعسف، ثم قتل العداس فى سادس شعبان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وأحرق بالنار.

(**خط البندقانيين**) هذا الخط كان قديما اصطبل الجميزة أحد اصطبلات الخلفاء الفاطميين فلما زالت الدولة اختط وصارت فيه مساكن وسوق من جملته عدة دكاكين لعمل قسى

البندق فعرف الخط بالبندقانيين لذلك، ثم إنه احترق يوم الجمعة للنصف من صفر سنة إحدى وخمسين وسبعمائة والناس فى صلاة الجمعة. فما قضى الناس الصلاة إلا وقد عظم أمره فركب إليه والى القاهرة والنيران قد ارتفع لهبها واجتمع الناس فلم يعرف من أين كان ابتداء الحريق، واتفق هبوب رياح عاصفة فحملت شرر النار إلى أمد بعيد، ووصلت أشعتها إلى أن رؤيت من القلعة. فركب الوزير منجك بمماليك الأمراء وجمعت السقاؤون لطفى النار فعجزوا عن إطفائها واشتد الأمر فركب الأمير شيخو والأمير طاز والأمير مغلطاى أمير أخور وترجلوا عن خيولهم ومنعوا النهابة من التعرض إلى نهب البيوت التى احترقت، وعم الحريق دكاكين البندقانيين ودكاكين الرسامين وحوانيت ألفقاعين والفندق المجاور لها والربع علوه، وعملت إلى الجانب الذى يلى بيت بيبرس ركن الدين الملقب بالملك المظفر والربع المجاور لعالى زقاق الكنيسة. فمازال الأمير شيخو واقفا بنفسه ومماليكه ومعه الأمراء إلى أن هدم ما هنالك والنار تأكل ما تمر به إلى أن وصلت إلى بئر الدلاء التى كانت تعرف قديما ببئر زويلة، ومنها كان يستقى لاصطبل الجميزة فأحرقت ماجاور البئر من الأماكن إلى حوانيت الفكاه والطباخ وما يجاورهما من الحوانيت والربع المجاور لدار الجوكندار، وكادت ان تصل إلى دار القاضى علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر المجاورة لحمام الشيخ نجم الدين بن عبود، ولم يبق أحد فى ذلك الخط حتى حول متاعه خوفا من الحريق فكان أهل البيت بينما هم فى نقل ثيابهم وإذا بالنار قد أحاطت بهم. فيتركون ما فى الدار وينجون بأنفسهم، والأمر يعظم والهدم واقع فى الدور المجاورة لاماكن الحريق خشية من تعلق النار بها. فسرى إلى جميع البلد إلى أن أتى الهدم على سائر ما كان هنالك فأقام الأمر كذلك يومين وليلتين والأمراء وقوف. فلما خف انصرف الأمراء ووقف والى القاهرة، ومعه عدة من الأمراء لطفى ما بقى فاستمروا فى طفئة ثلاثة أيام أخر وكان المصاب بهذا الحريق عظيما. تلف فيه للناس من المال والثياب والمصاغ وغيره بالحريق والنهب مالا يعلم قدره إلا الله. هذا مع ما كان فيه الأمراء من منع النهابه وكفهم عن أموال الناس. إلا أن الأمر كان قد تجاوز الحد وعطب بالنار جماعة كثيرة، ووصل حريق النار إلى قيسارية طشتمر وربع بكتمر الساقى. فلما كفى الله أمر هذا الحريق وأعان على طفئه بعد أن هدمت عدة أماكن جليلة ما بين رباع وحوانيت وقع الحريق فى أماكن من داخل القاهرة وخارج باب زويلة، ووجد فى بعض المواضع التى بها الحريق كعكات بزيت وقطران فعلم

أن هذا من فعل النصارى كما وقع فى الحريق الذى كان فى أيام الملك الناصر، وقد ذكر فى خبر السيرة الناصرية. فنودى فى الناس أن يحترسوا على مساكنهم فلم يبق أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى أعد فى داره أوعية ملآنة بالماء ما بين أحواض وزيار وصاروا يتناوبون السهر فى الليل، ومع ذلك فلا يدرى أهل البيت إلا والنار قد وقعت فى بيتهم فيتداركون طفئها لئلا تشتعل ويصعب أمرها، وترك جماعة من الناس الطبخ فى الدور، وتمادى ذلك فى الناس من نصف صفر إلى عاشر ربيع الأول فأحضر الأمير سيف الدين تشتمر شاد الدواوين نشابة فى وسطها نفط قد وجدها فى سطح داره فأراها للأمراء وهى محروقة النصل. فصدر أمر الوزير منجك للأمير علاء الدين على بن الكورانى والى القاهرة بالقبض على الحرافيش وتقييدهم وسجنهم خوفا من غائلتهم ونهبهم الناس عند وقوع الحريق. فتتبعهم وقبض عليهم فى الليل من بيوتهم ومن الحوانيت حتى خلت السكك منهم. ثم إن الأمراء كلموا الوزير فى أمرهم فأمر بإطلاقهم ونودى فى البلد أن لا يقيم فيها غريب، وطلبوا الخفراء وولاة المراكز وأمروا بالاحتفاظ، وتتبع الناس وأخذ من تتوهم فيه ريبة أو يذكر بشىء من أمر هذا، والحريق أمره فى تزايد، وصار والى القاهرة من ذلك فى تعب كبير لاينام هو ولا أعوانه فى الليل ألبته لكثرة الضجات فى الليل، ووقع حريق فى شونة حلفاء بمصر مجاورة لمطابخ السكر السلطانية. فركب القاضى علم الدين بن زنبور ناظر الخاص فى جماعة، وخرج عامة أهل مصر وتكاثروا على الشونة حتى طفئت، ووقع الحريق فى عدة أماكن بمصر، واستمر الحريق بمصر والقاهرة مدة شهر من ابتدائه بالبندقانيين، ولم يعلم له سبب واستمر أكثر خط البندقانيين خرابا إلى أن عمر الأمير يونس النوروزى دوادار الملك الظاهر برقوق الربع فوق بئر الدلاء التى كانت تعرف ببئر زويلة، وأنشأ بجوار درب الأنجب الحوانيت والرباع والقيسارية فى سنة تسع وثمانين وسبعمائة، ثم أنشأ الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب ابن أخت الأمير جمال الدين يوسف الأستادار داره بجوار حمام ابن عبود. فاتصل ظهرها بدكاكين البندقانيين. فصار فيها ما كان من خراب الحريق هناك حيث الحوض الذى أنشأه تجاه دار بيبرس، ولقد أدركنا فى خط البندقانيين عدة كثيرة من الحوانيت التى يباع فيها الفقاع تبلغ نحو العشرين حانوتا، وكانت من أنزه ما يرى. فإنها كانت كلها مرخمة بأنواع الرخام الملون، وبها مصانع من ماء تجرى إلى فوارات تقذف بالماء على ذلك الرخام. حيث كيزان الفقاع مرصوصة فيستحسن منظرها إلى الغاية لأنها من الجانبين والناس يمرون

بينهما، وكان بهذا الخط عدة حوانيت لعمل قسى البندق وعدة حوانيت لرسم أشكال ما يطرز بالذهب والحرير، وقد بقيت من هذه الحوانيت بقايا يسيرة، وهو من أخطاط القاهرة الجسيمة.

(**خط دار الديباج**) هذا الخط هو فيما بين خط البندقانيين والوزيرية وكان أولا يعرف بخط دار الديباج، لأن دار الوزير يعقوب بن كلس التى من جملتها اليوم المدرسة الصاحبية ودرب الحريرى والمدرسة السيفية عملت دارا ينسج فيها الديباج والحرير برسم الخلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج. فنسب إليها الخط إلى أن سكن هناك الوزير صفى الدين عبد الله بن على ابن شكر فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب فصار يعرف بخط سويقة الصاحب، وهو خط جسيم به مساكن جليلة وسوق ومدرسة.

(**خط الملحيين**) هذا الخط فيما بين الوزيرية والبندقانيين من وراء دار الديباج، وتسميه العامة خط طواحين الملوحيين بواو بعد اللام وقبل الحاء المهملة وهو تحريف وإنما هو خط الملحيين عرف بطائفة من طوائف العسكر فى أيام الخليفة المستنصر بالله يقال لها الملحية وهم الذين قاموا بالفتنة فى أيام المستنصر إلى أن كان من الغلاء ما أوجب خراب البلاد ونهب خزائن الخليفة المستنصر. فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى القاهرة، وتقلد وزارة المستنصر وتجرد لإصلاح إقليم مصر وتتبع المفسدين وقتلهم، وسار فى سنة سبع وستين وأربعمائة إلى الوجه البحرى وقتل لواته، وقتل مقدمهم سليمان اللواتى وولده واستصفى أموالهم ثم توجه إلى دمياط وقتل فيها عدة من المفسدين. فلما أصلح جميع البر الشرقى عدى إلى البر الغربى، وقتل جماعة من الملحية وأتباعهم بثغر الإسكندرية، بعدما أقام أياما محاصراً البلد، وهم يمتنعون عليه ويقاتلونه، إلى أن أخذها عنوة، فقتل منهم عدة كثيرة، وكان بهذا الخط عدة من الطواحين تسمى بخط طواحين الملحيين، وبه إلى الآن يسير من الطواحين.

(**خط المسطاح**) هذا الخط فيما بين خط الملحيين وخط سويقة الصاحب، وفيه إليوم سوق الرقيق رالذى يعرف بسوق الجوار والمدرسة الحسامية، وما دار به، ويعرف بالمسطاح وبخارج باب القنطرة قريب من باب الشعرية أيضا خط يعرف بالمسطاح.

(**خط أمير سلاح**) هذا الخط تجاه حمام البيسرى بين القصرين يسلك فيه إلى مدرسة

الطواشى سابق الدين المعروفة بالسابقية، وكان يخرج منه إلى رحبة باب العيد من باب القصر. إلى أن هدمه الأمير جمال الدين يوسف الاستادار، وبنى فى مكانه القيسارية المستجدة بجوار مدرسته من رحبة باب العيد. فصار هذا الخط غير نافذ، وكان شارعا مسلوكا يمر فيه الناس والدواب بالأحمال فركب عليه جمال الدين المذكور دروبا لحفظ أمواله، وكان هذا الخط من أخص أماكن القصر الكبير الشرقى، فلمازالت الدولة ألفاطمية وتفرق أمراء صلاح الدين يوسف القصر عرف هذا المكان بقصر شيخ الشيوخ ابن حمويه لسكنه فيه، ثم عرف بعد ذلك بقصر أمير سلاح وبقصر سابق، وهو إلى الآن يعرف بذلك، وسبب شهرته بأمير سلاح أنه اتخذ به عمائر جليلة هى بيد ورثته إلى الآن. وأمير سلاح هذا هو (بكتاش ألفخرى) الأمير بدر الدين أمير سلاح الصالحى النجمى. كان اولا مملوكا لفخر الدين ابن الشيخ. فصار إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتقدم عنده من جملة من قدمه من المماليك البحرية الذين ملكوا الديار المصرية من بعد انقضاء الدولة الأيوبية وتأمر فى أيام الملك الصالح، وتقدم فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، واستمر أميرا ماينيف على الستين سنة لم ينكب فيها قط، وعظم فى أيام الملك المنصور قلاوون الألفى. بحيث إن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطة بديار مصر فى أيام قلاوون تجارى مرة مع السطان فى حديث الأمراء فقال له السلطان المنصور: أما اليوم فما بقى فى الأمراء غير أمير سلاح. إذا قلت فارس خيل شجاع ما يرد وجهه من عدوه، وإذا حلف مايخون وإذا قال صدق فقال طرنطاى: والله يا خوند له إقطاع عظيم ما كان يصلح إلا لى. فاحمر وجه السلطان وغضب، وقال له: ويلك. إياك أن تتكلم بهذا، والله ما كان يصل فيه سيف أمير سلاح مايصل نشابك ولا نشاب غيرك، وكان كريما شجاعا يسافر كل سنة مجردا بالعسكر فيصل إلى حلب للغارة ومحاصرة قلاع العدو، فاشتهر بذلك فى بلاد العدو، وعظم صيته واشتدت مهابته، وكانت له رغبة فى شراء المماليك والخيول بأغلى القيم، وكان يبعث للأمراء المجردين معه النفقة، ويقوم لهم بالشعير والأغنام، وبلغت مماليكه الغاية فى الحشمة، وكان إقطاع كل منهم فى السنة عشرين ألف درهم فضة عنها يومئذ ألف مثقال من الذهب، ولكل من جنده خبز مبلغه فى السنة عشرة آلاف درهم سوى كلفهم من الشعير واللحم، ومع ذلك فكان خيرا دينا له صدقات ومعروف وإحسان كثير.

ومات بعد ما ترك إمرته فى مرضه الذى مات فيه للنصف من ربيع الآخر سنة ست وسبعمائة رحمه الله . وبهذا الخط عدة دور جليلةيأتى ذكرها عند ذكر الدور من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

(اولاد شيخ الشيوخ) جماعة أصلهم الذين ينتسبون إليه حموية بن على . يقال إنه ولد رزم بن يونان أحد قواد كسرى أنو شروان ، وولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان ودبر دولته ، وهو جد شيخ الإسلام محمد وأخيه أبى سعد ابنى بنى حمويه بن محمد بن حمويه وكان محمد وأبو سعد من ملوك خراسان فتركا الدنيا وأقبلا على طريق الآخرة ، ومات ركن الإسلام أبو سعد بنجران من قرى جوين فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، ومات أخوه شيخ الإسلام محمد بها فى سنة ثلاثين وخمسمائة وترك أبو سعد زين الدين أحمد وبنات ، وترك شيخ الإسلام محمد ولدا واحدا وهو أبو الحسن على فتزوج على بن محمد بابنة عمه أبى سعد ورزق منها سعد الدين ومعين الدين حسنا وعماد الدين عمر ، وترك زين الدين أحمد بن أبى سعد ركن الدين أبا سعد وعزيز الدين وزين الدين القاسم ، فقدم عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه إلى دمشق وصار شيخ الشيوخ بها ، وقدم عليه ابنه شيخ الشيوخ صدر الدين على . فلما مات عمر فى رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة بدمشق أقر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده صدر الدين محمدا موضعه ، وصار شيخ الشيوخ بدمشق فتزوج بابنة القاضى شهاب الدين بن أبى عصرون ورزق منها عشرة بنين منهم عماد الدين عمر وفخر الدين يوسف وكمال الدين أحمد ومعين الدين حسن . فأوضعت امهم بنت أبى عصرون السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فصار أخا لأولاد صدر الدين شيخ الشيوخ من الرضاعة ، وقدم صدر الدين إلى القاهرة وولى تدريس الشافعى بالقرافة ومشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ثم سافر فمات بالموصل فى رابع عشرة جمادى الاولى سنة سبع عشر وستمائة ، واستبد الملك الكامل بمملكة مصر بعد أبيه فرقى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ محمد بن حمويه الأربعة ، وبعث عماد الدين عمر فى الرسالة إلى الخليفة ببغداد ، وجمع له بين رياسة العلم والقلم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه ، ومازال على ذلك إلى أن مات الملك الكامل وقام من بعده فى سلطنة مصر ابنه الملك العادل أبو بكر

الكامل . فخرج إلى دمشق ليحضر إليه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مردود بن العادل أبى بكر بن أيوب نائب السلطنة بدشق . فدس عليه من قتله على باب الجامع فى سادس عشرى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة .

واما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين فإن الملك الكامل جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء ونادمه وبعثه فى الرسالة عنه إلى ملك ألفرنج ثم إلى أخيه المعظم بدمشق ثم إلى الخليفة ببغداد وأقامه يتحدث بمصر فى تدبير المملكة وتحصيل الأموال ، ثم بعثه حتى تسلم حران والرها وجهزه إلى مكة على عسكر فقاتل الأمير راجح الدين بن قتادة وأخذها بالسيف وقتل عسكر اليمن ، ومازال مكرما محترما حتى مات الملك الكامل ، فقبض عليه العادل ابن الكامل واعتقله ، فلما خلع العادل بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب أطلقه وأمره وبالغ فى الإحسان إليه وبعثه على العساكر إلى الكرك . فأوقع بالخوارزمية وبدد شملهم ، وكانوا قد قدموا من المشرق إلى غزة ، وأقام الدعوة للصالح فى بلاد الشام وعاد ، ثم قدمه على العساكر فأخذ طبرية من ألفرنج وهدمها ، وأخذ عسقلان من الفرنج وهدم حصونها ، ونازل حمص حتى أشرف على أخذها ، ثم تقدم على العساكر لقتال الفرنج بدمياط فمات السلطان عند المنصورة ، وقام بتدبير الدولة بعده خمسة وسبعين يوما إلى ان استشهد فى رابع ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة ، فحمل من المنصورة إلى القرافة فدفن بها .

واما كمال الدين أحمد فإن الملك الكامل استنابه بحران والجزيرة ، وولى تدريس المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، وتدريس الشافعى بالقرافة ومشيخة الشيوخ بديار مصر ، وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على العساكر غير مرة ، ومات بغزة فى صفر سنة تسع وثلاثين وستمائة .

وأما معين الدين حسن فإنه ولى مشيخة الشيوخ بديار مصر ، وبعثه الملك الكامل فى الرسالة عنه إلى بغداد ثم أقامه نائب الوزارة إلى أن مات فاستوزره الملك الصالح نجم الدين أيوب فى ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة وجهزه على العساكر فى هيئة الملوك إلى دمشق فقاتل الصالح إسماعيل بن العادل حتى ملكها ، ومات بها فى ثانى عشرى رمضان سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وقد ذكرت أولاد شيخ الشيوخ فى كتاب تاريخ مصر الكبير ، واستقصيت فيه أخبارهم والله تعالى أعلم .

(خط قصر بشتاك) هذا الخط من جملة القصر الكبير، ويتوصل إليه من تجاه المدرسة الكاملية . حيث كان باب القصر المعروف بباب البحر وهدمه الملك الظاهر بيبرس كما تقدم فى ذكر أبواب القصر، وصار اليوم فى داخل هذا الباب حارة كبيرة فيها عدة دور جليلة . منها قصر الأمير بشتاك وبه عرف هذا الخط .

وبشتاك هذا هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى قربة الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعلى محله يسميه بعد موت الأمير بكتمر الساقى بالأمير فى غيبته، وكان زائد التيه لا يكلم استادراره وكاتبه إلابترجمان، ويعرف بالعربى ولا يتكلم به، وكان إقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من إقطاع قوصون، ولما مات بكتمر الساقى ورثه فى جميع أحواله واصطبله الذى على بركة ألفيل وفى امرأته أم أحمد واشترى جاريته خوبى بستة آلاف دينار ودخل معها ما قيمته عشرة آلاف دينار، وأخذ ابن بكتمر عنده وزاد أمره وعظم محله فثقل على السلطان وأراد ألفتك به فما تمكن، وتوجه إلى الحجاز وانفق فى الأمراء واهل الرتب وألفقراء والمجاورين بمكة والمدينة شيئا كثيرا إلى الغاية وأعطى من الألف دينار إلى المائة دينار إلى الدينار بحسب مراتب الناس وطبقاتهم. فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان إلا وقد حضر فى نفر قليل من مماليكه وقال : إن أردت إمساكى فها أنا قد جئت إليك برقبتى فغالطه السلطان وطيب خاطره، وكان يرمى بأوابد ودواهى من أمر الزنا، وجرده السلطان لإمساك تنكز نائب الشام فحضر إلى دمشق بعد إمساكه هو وعشرة من الأمراء فنزلوا القصر الأبلق، وحلف الأمراء كلهم للسلطان ولذريته، واستخرج ودائع تنكز وعرض حواصله ومماليكه وجواريه وخيله وسائر ما يتعلق به، ووسط طغاى وحفاى مملوكى تنكز فى سوق الخيل ووسط دران أيضا بحضوره يوم الموكب، واقام بدمشق خمسة عشر يوما وعاد إلى القلعة، وبقى فى نفسه من دمشق وماتجاسر يفاتح السلطان فى ذلك، ولما مرض السلطان وأشرف على الموت ألبس الأمير قوصون مماليكه. فدخل بشتاك فعرف السلطان ذلك . فجمع بينهما وتصالحا قدامه ونص السلطان على أن الملك بعده لولده أبى بكر فلم يوافق بشتاك، وقال لا أريد إلا سيدى أحمد. فلما مات السلطان قام قوصون إلى الشباك وطلب بشتاك، وقال له يا أمير المؤمنين أنا ما يجيىء منى سلطان لأنى كنت أبيع الطمسا والبرغالى والكشاتوين وانت اشتريت منى، واهل البلاد يعرفون ذلك، وأنت ما يجىء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا، وانا اشتريت منك وأهل البلاد يعرفون ذلك، وهذا استاذنا هو الذى

وصى لمن هو أخبر به من أولاده، وما يسعنا إلا امتثال أمره حيا وميتا، وأنا ما أخالفك إن اردت أحمد أو غيره ولو أردت أن تعمل كل يوم سلطانا ما خالفتك. فقال بشتاك: هذا كله صحيح والأمر أمرك، وأحضر المصحف وحلفا عليه وتعانقا ثم قاما إلى رجلى السلطان فقبلاهما ووضعا أبا بكر بن السلطان على الكرسى، وقبلا له الأرض وحلفا له وتلقب بالملك المنصور ثم إن بشتاكا طلب من السلطان الملك المنصور نيابة دمشق فأمر له بذلك، وكتب تقليده وبرز إلى ظاهر القاهرة وأقام يومين، ثم طلع فى اليوم الثالث إلى السلطان ليودعه فوثب عليه الأمير قطلوبنا ألفخرى وأمسك سيفه وتكاثروا عليه فأمسكوه وجهزوه إلى الإسكندرية. فاعتقل بها ثم قتل فى الخامس من ربيع الأول سنة اثنين وأربعين وسبعمائة لأول سلطنة الملك الاشرف كجك وكان شابا أبيض اللون ظريفا. مديد القامة نحيفا. خفيف اللحية كانها عذار على حركاته رشاقة. حسن العمة يتعمم الناس على مثالها، وكان يشبه بأبى سعيد ملك العراق. إلا أنه كان غير عفيف ألفرج. زائد الهرج والمرج، لم يعف عن مليحة ولا قبيحة ولم يدع أحدا يفوته حتى يمسك نساء ألفلاحين وزوجات الملاحين، واشتهر بذلك ورمى فيه بأوابد. وكان زائد البذخ منهمكا على مايقتضيه عنفوان الشبيبة. كثير الصلف والتيه لا يظهر الرأفة ولا الرحمة فى تأنيه ولما توجه بأولاد السلطان ليفرجهم فى دمياط كان يذبح لسماطه فى كل يوم خمسين رأسا من الغنم وفرسا لابد منه. خارجا عن الأوز والدجاج، وكان راتبه دائما كل يوم من الفحم برسم المشوى مبلغ عشرين درهما عنها مثقال ذهب، وذلك سوى الطوارىء وأطلق له السلطان كل يوم بقجة قماش من اللفافة إلى الخلف إلى القميص واللباس والملوطة والبغلطاق والقباء الفوقانى بوجه إسكندرانى على سنجاب طرى مطرز مزركش رقيق وكلوتة وشاش، ولم يزل يأخذ ذلك كل يوم إلى أن مات السلطان، وأطلق له فى كل يوم واحد عن ثمن قرية تبنى بساحل الرملة مبلغ ألف ألف درهم فضة عنها يومئذ خمسون ألف مثقال من الذهب، وهو أول من أمسك بعد موت الملك الناصر. وقال الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ومن كتابه نقلت ترجمة بشتاك.

قال الزمان وما سمعنا قوله

والناس فيه رهائن الأشراك

من ينصر المنصور من كيدى وقد

صاد الردى بشتاك لى بشراك

(**خط باب الزهومة**) هذا الخط عرف بباب الزهومة أحد أبواب القصر الكبير الشرقى الذى تقدم ذكره، فانه كان هناك، وقد صار الآن فى هذا الخط سوق وفندق وعدة آدر ياتى ذكر ذلك كله فى موضعه إن شاء الله تعالى .

(**خط الزراكشة العتيق**) هذا الخط فما بين خط باب الزهومة وخط السبع خوخ وبعضه من دار العلم الجديد وبعضه من جمله القصر النافعى، وبعضه من تربة الزعفران، وفيه اليوم فندق المهمندار الذى يدق فيه الذهب وخان الخليلى وخان منجك ودار خواجا ودرب الحبش وغير ذلك كما ستقف عليه إن شاء الله .

(**خط السبع خوخ العتيق**) هذا الخط فيما بين خط اصطبل الطارمة وخط الزراكشة العتيق كان فيه قديما أيام الخلفاء الفاطميين سبع خوخ يتوصل منها إلى الجامع الأزهر فلما انقضت أيامهم اختط مساكن وسوقا يباع فيه الإبر التى يخاط بها وغير ذلك فعرف بالأبارين .

(**خط اصطبل الطارمة**) هذا الخط كان اصطبلا لخاص الخليفة يشرف عليه قصر الشوك والقصر النافعى، وقد تقدم الكلام عليه، وكانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها فعرف بذلك . ثم هو الآن حارة كبيرة فيها عدة من المساكن وبه سوق وحمام ومساجد، وهذا الخط فيما ربين رحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى فى ذكر الرحاب (**خط الأكفانيين**) هذا الخط كان يعرف بخط الخرقيين جمع خرقة .

(**خط المناخ**) هذا الخط فيما بين البرقية والمطوفية، كان مواضع طواحين القصر، وقد تقدم ذكره ثم اختط بعد ذلك وصار حارة كبيرة. وهو الآن متداع للخراب .

(**خط سويقة أمير الجيوش**) كان حارة ألفرحية، وسيأتى ذكره ان شاء الله تعالى فى الأسواق، وهذا الخط فيما بين حارة برجوان وخط خان الوراقة .

(**خط دكة الحسبة**) هذا الخط يعرف اليوم بمكسر الحطب وفيه سوق الأبازرة وهو فيما بين البندقانيين والمحمودية وفيه عدة أسواق ودور .

(**خط الفهادين**) هذا الخط فيما بين الجوانية والمناخ.

(**خط خزانة البنود**) هذا الخط فيما بين رحبة باب العيد ورحبة المشهد الحسينى، وكان موضعه خزانة تعرف بخزانة البنود، وكان اولا يعمل فيها السلاح، ثم صارت سجنا لأمراء الدولة واعيانها، ثم اسكن فيها ألفرنج إلى أن هدمها الأمير الحاج ال ملك وحكر مكانها فبنى فيه الطاحون والمساكن كما تقدم.

(**خط السفينة**) هذا الخط فيما بين درب السلامى من رحبة باب العيد وبين خزانة البنود مكان يقف فيه المتظلمون للخليفة كما تقدم ذكره، ثم اختط فصار فيه مساكن وهو خط صغير.

(**خط خان السبيل**) هذا الخط خارج باب ألفتوح، وهو من جملة أخطاط الحسينية. قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين قراقوش وأرصده لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرةٍ وبه بئر ساقية وحوض. انتهى، وأدركنا هذا الخط فى غاية العمارة يعمل فيه عرصة تباع بها الغلال، وكان فيه سوق يباع فيه الخشب ويجتمع الناس هناك بكرة كل يوم جمعة، فيباع فيه من الأرز والدجاج مالا يقدر، وكانت فيه أيضا عدة مساكن ما بين دور وحوانيت وغيرها، وقد اختل هذا الخط.

(**خط بستان ابن صيرم**) هذا الخط أيضا خارج باب ألفتوح مما يلى الخليج وزقاق الكحل. كان من جملة حارة البيازرة فأنشأه زمام القصر المختار الصقلى بستانا وبنى فيه منظرة وعظيمة فلمازالت الدولة ألفاطمية استولى عليه الأمير جمال الدين سويح بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل فعرف به، ثم اختط وصار من أجل الأخطاط عمارة تسكنه الأمراء والأعيان من الجند. ثم هو الآن آيل إلى الدثور.

(**خط قصر ابن عمار**) هذا الخط من جملة حارة كتامة، وهو اليرم درب يعرف بالقماحين، وفيه حمام كرائى ودار خوند شقرا يسلك إليه من خط مدرسة الوزير كريم الدين غنام، ويسلك منه الي درب المنصورى، **وابن عمار**هذا هو أبو محمد الحسن بن عمار بن على بن أبى الحسن الكلبى من بنى ابى الحسين أحد أمراء صقلية وأحد شيوخ كتامة. وصاه العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله لما احتضر هو والقاضى محمد بن النعمان على ولده أبى

على منصور، فلما مات العزيز بالله واستخلف من بعده ابنه الحاكم بأمر الله اشترط الكتاميون، وهم يومئذ أهل الدولة أن لا ينظر فى أمورهم غير أبى محمد بن عمار بعد ماتجمعوا وخرج منهم طائفة نحو المصلى، وسألوا صرف عيسى بن مشطورس، وأن تكون الوساطة لابن عمار. فتدب لذلك وخلع عليه فى ثالث شوال سنة خمس وسبعين وثلاثمائة وقلد بسيف من سيوف العزيز بالله، وحمل عل فرس بسرج ذهب، ولقب بأمين الدولة، وهو أول من لقب فى الدولة ألفاطمية من رجال الدولة، وقيد بين يديه عدة دواب، وحمل معه خمسون ثوبا من سائر البر. الرفيع وانصرف إلى داره فى موكب عظيم، وقرىء سجله فتولى قراءته القاضى محمد بن النعمان بجلوسه للوساطة وتلقيبه بأمين الدولة، وألزم سائر الناس بالترجل إليه. فترجل الناس بأسرهم له من أهل الدولة، وصار يدخل القصر راكبا ويشق الدواوين، ويدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخليفة الخاصة. ثم يعدل إلى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الحاكم. فينزل على بابها ويركب من هناك، وكان الناس من الشيوخ والرؤساء علي طبقاتهم يبكرون إلى داره فيجلسون فى الدهاليز بغير ترتيب والباب مغلق، ثم يفتح فيدخل إليه جماعة من الوجوه ويجلسون فى قاعة الدار علي حصير وهو جالس فى مجلسه ولا يدخل له أحد ساعة. ثم يأذن لوجوه من حضر كالقاضى ووجوه شيوخ كتامة والقواد فتدخل أعيانهم، ثم يأذن لسائر الناس فيزدحمون عليه بحيث لا يقدر أحد أن يصل إليه فمنهم من يومى بتقبيل الارض، ولا يرد السلام على أحد ثم يخرج فلا يقدر أحد علي تقبيل يده سوى أناس بأعيانهم إلا أنهم يؤمثون إلى تقبل الأرض وشرف أكابر الناس بتقبيل ركابه وأجل الناس من يقبل ركبته، وقرب كتاكه وأنفق فيهم الأموال وأعطاهم الخيول، وباع ما كان بالاصطبلات من الخيل والبغال والنجب وغيرها، وكانت شيئا كثيرا وقطع أكثر الرسوم التي كانت تطلق لأولياء الدولة من الأتراك، وقطع أكثر ما كان فى المطابخ وقطع أرزاق جماعة وفرق كثيرا من جوارى القصر، وكان به من الجوارى والخدم عشرة آلاف جارية وخادم. فباع من اختار البيع واعتنق من سأل العتق طلبا للتوفير، واصطنع أحداث المغاربة فكثر عتيهم، وامتدت أيديهم إلى الحرام فى الطرقات وشلحوا الناس ثيابهم، فضج الناس منهم واستغاثوا إليه بشكايتهم فلم يبد منه

كبير نكير. فأفرط الأمر حتى تعرض جماعة منهم للغلمان الأتراك وارادوا اخذ ثيابهم فثار بسبب ذلك شر، قتل فيه غلام من الترك، وحدث من المغاربة، فتجمع شيوخ ألفريقين واقتتلوا يومين آخرهما يوم الأربعاء تاسع شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فلما كان يوم الخميس ركب ابن عمار لابسا آله الحرب وحوله المغاربة فاجتمع الأتراك واشتدت الحرب وقتل جماعة وجرح كثير فعاد إلى داره، وقام برجوان بنصرة الأتراك فامتدت الأيدى إلى دار ابن عمار واصطبلاته ودار رشا غلامه فنهبوا منها مالا يحصى كثرة فصار إلى داره بمصر فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من شعبان، واعتزل عن الأمر، فكانت مدة نظره أحد عشر شهرا إلا خمسة ايام. فاقام بداره فى مصر سبعة وعشرين يوما ثم خرج إليه الأمر بعوده إلى القاهرة فعاد إلى قصره هذا ليلة الجمعة الخامس والعشرين من رمضان فأقام به لا يركب ولا يدخل إليه أحد إلا اتباعه وخدمه وأطلقت له رسومه وجراياته التى كانت فى أيام العزيز بالله ومبلغها عن اللحم والتوابل وألفواكه خمسمائة دينار في كل شهر، وفى اليوم سلة فاكهة بدينار وعشرة أرطال شمع ونصف حمل ثلج فلم يزل بداره إلى يوم السبت الخامس من شوال سنة تسعين وثلاثمائة فأذن له الحاكم فى الركوب إلى القصر وأن ينزل موضع نزول الناس. فواصل الركوب إلى يوم الإثنين رابع عشرة فحضر عشية إلى القصر وجلس مع من حضر فخرج إليه الامر بالانصراف. فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك وقفوا له فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنوه مكانه، وحمل الرأس إلى الحاكم ثم نقل إلى تربته بالقرافة فدفن فيها، وكانت مدة حياته بعد عزله إلى أن قتل ثلاث سنين وشهرا وأحدا وثمانية وعشرين يوما، وهو من جملة وزراء الدولة المصرية، وولى بعده برجوان وقدمر ذكره.

ذكر الدروب والأزقة

قد اشتملت القاهرة وظواهرها من الدروب والأزقة على شيء كثير، والغرض ذكر ما يتيسر لى من ذلك.

(**درب الأتراك**) هذا الدرب أصله من خط حارة الديلم، وهو من الدروب القديمة وقد تقدم ذكره فى الحارات، ويتوصل إليه من خطة الجامع الأزهر، وقد كان فيما أدركناه من أعمر الأماكن. أخبرنى خادمنا محمد بن السعودى قال: كنت أسكن فى أعوام بضع وستين وسبعمائة بدرب الأتراك وكنت أعانى صناعة الخياطة. فجاءنى فى موسم عيد ألفطر من الجيران أطباق الكعك والخشكنانج عل عادة أهل مصر فى ذلك فملات زيرا كبيرا كان عندى مما جاءنى من الخشكنانج خاصة لكثرة ما جاءنى من ذلك. إذ كان هذا الخط خاصا بكثرة الأكابر والأعيان وقد خرب اليوم منه عدة مواضع.

(**درب الأسواني**) ينسب إلى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة الله الأسوانى المعروف بابن عتابك.

(**درب شمس الدولة**) هذا الدرب كان قديما يعرف بحارة الأمراء كما تقدم. فلما كان مجىء الغز إلى مصر، واستيلاء صلاح الدين يوسف على مملكة مصر سكن فى هذا المكان الملك المعظم شمس الدولة توران شاه ابن أيوب فعرف به، وسمى من حينئذ درب شمس الدولة، وبه يعرف إلى اليوم.

(**توران شاه**) الملقب بالملك المعظم شمس الدولة بن نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان قدم إلى القاهرة مع أهله من بلاد الشام فى سنة أربع وستين وخمسمائة عندما تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد موت عمه أسد الدين شيركوه، وكانت له أعمال فى واقعة السودان تولاها بنفسه، واقتحم الهول فكان أعظم الأسباب فى نصره أخيه صلاح الدين وهزيمة السودان، ثم خرج إليهم بعد انهزامهم إلى الجيزة فأفناهم بالسيف حتى أبادهم وأعطاه صلاح الدين قوص وأسوان وعيذاب، وجعلها له إقطاعا فكانت عبرتها فى تلك السنة ماتى ألف وستة وستين ألف دينار، ثم خرج إلى غزو بلاد النوبة فى سنة ثمان وستين وفتح قلعة إبريم وسبي وغنم ثم عاد بعد ما أقطع إبرايم بعض أصحابه وخرج إلى بلاد اليمن فى سنة تسع وستين، وكان بها عبد النبى أبو الحسن على ابن مهدى قد ملك زبيد وخطب لنفسه، وكان ألفقية عمارة قد انقطع إلى شمس الدولة وصار يصف له بلاد اليمن ويرغبه فى كثرة أموالها ويغربه بأهلها وقال فيه قصيدته المشهورة التى أولها.

العلم مذ كان محتاج إلى القلم * وشفرة تستغنى عن القلم .

فبعثه ذلك على المسير إلى بلاد اليمن فسار إليها فى مستهل رجب ، ودخل مكة معتمرا وسار منها فنزل على زبيد فى سابع شوال ، وفى نهار الإثنين ثامن شوال فتحها بالسيف ، وقبض على عليّ بن مهدى وإخوته وأقاربه واستولى علي ما كان فى خزائنه من مال ، وتسلم الحصون التى كانت بيده .

وفي مستهل ذى القعدة توجه قاصدا عدن وبذل لياسر بن بلال فى كل سنة ثلاثين ألف دينار وسلمها إليه فما رغب فى ذلك ، وكان قصده أن يقيم بها نائبا عن المجلس ألفخرى . فلما أبى ذلك نزل عليها فى يوم الجمعة تاسع عشرى ذى القعدة وملكها فى ساعة بالسيف ، وقبض علي ياسر وإخوته وولدى الداعى فاحتوى على ما فيها ، وقبض على عبد النبى واستولى أيضا علي تعز وتفكر وضعا وظفار وغيرها من مدن اليمن وحصونها ، وتلقب بالمالك المعظم ، وخطب لنفسه بعد الخليفة العباسى ومازال بها إلى سنة إحدى وسبعين . فسار منها إلى لقاء أخيه صلاح الدين ووصل رإليه وملكه دمشق فى شهر ربيع الأول سنة اثنين وسبعين فاقام بها إلى أن خرج السلطان صلاح الدين مرة من القاهرة إلى بلاد الشام فجهزه في ذى القعدة سنة اربع وسبعين إلى مصر ، وكان قد عمله نائبا ببعلبك فاستناب عنه فيها ، ودخل إلى القاهرة ، وأنعم عليه صلاح الدين بالإسكندرية فسار إليها وأقام بها إلى أن توفى فى مستهل صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة بالإسكندرية فدفن بها ، وكان كريما واسع العطاء كثير الإنفاق مات وعليه مائتا ألف دينار مصرية فقضاها عنه أخوه صلاح الدين ، وكان سبب خروجه من اليمن انه التاث بدنه بزبيد فارتجل له سيف الدولة مبارك بن منقذ .

وإذا اراد الله سوءا بامرىء

وأراد أن يحييه غير سعيد

أغراه بالترحال من مصر بلا

سبب وأسكنه بصقع زبيد

فخرج من اليمن كما تقدم . وحكى ألفاضل مهذب الدين أبو طالب محمد بن على الحلى المعروف بابن الخيمى قال : رأيت فى النوم المعظم شمس الدولة وقد مدحته وهو فى القبر ميت فلف كفنه ورماه إلى وأنشدنى .

لا تستقلن معروفا سمحت به

ميتا وأمسيت عنه عاريا بدنى

ولا تظنن جودى شابه بخل

من بعد بذلى بملك الشام واليمن

إنى خرجت عن الدنيا وليس معى

من كل ما ملكت كفى سوى كفنى

وهذا الدرب من أعمر أخطاط القاهرة به دار عباس الوزير وجماعة كما تراه إن شاء الله تعالى .

(**درب ملوخيا**) هذا الدرب كان يعرف بحارة قائد القواد كما تقدم، وعرف الآن بدرب ملوخيا وملوخيا كان صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر الله، ويعرف بملوخيا ألفراش، وقتله، الحاكم وباشر قتله وفى هذا الدرب مدرسة القاضى ألفاضل وقد اتصل له الآن الخراب .

(**درب السلسلة**) هذا الدرب تجاه باب الزهومة يعرف بالسلسلة التى كانت تمد كل ليلة بعد العشاء الآخرة كما تقدم وكان يعرف بدرب افتخار الدولة الأسعد، وعرف بسنان الدولة بن الكركندى، وهو الآن درب عامر .

(**درب الشمسي**) هذا الدرب بسوق المهامزين تجاه قيساوية العصفر عرف بالأمير علاء الدين كشتفدى الشمسى أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدراى، وقتل على عكافى سنة تسعين وستمائة بيد ألفرنج شهيدا، وكان هذا الدرب فى القديم موضعه دار الضرب، ثم صار من حقوق درب ابن طلائع بسوق ألفرايين، وقد هدم بعض هذا الدرب الأمير جمال الدين يوسف الأستادار لما اغتصب الحوانيت التى كانت على يمنه السالك من الخراطين إلى سوق الخيميين، وكانت فى وقف المعظم تمرتاش الحافظى كما سيأتى ذكره عند ذكر مدرسته إن شاء الله تعالى .

(**درب ابن طلائع**) هذا الدرب على يسرة من سلك من سوق ألفرايين الآن الذى كان

يعرف قديما بالخرقيين طالبا إلى الجامع الأزهر، ويسلك فى هذا الدرب إلى قيسارية السروج وباب سر حمام الخراطين، ودار الأمير ألدمر، وعرف هذا الدرب أولا بالأمير نور الدولة أبى الحسن على بن نجا بن راجح بن طلائع ثم عرف بدرب الجاولى الكبير، وهو الأمير عز الدين جاولى الأسدى مملوك أسد الدين شيركوه بن شادى، ثم عرف بدرب العماد سنيات، ثم عرف بدرب ألدمر، وبه يعرف إلى الآن.

(**الدمر أمير جان دار سيف الدين**) أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون خرج إلى الحج فى سنة ثلاثين وسبعمائة، وكان أمير حاج الركب العراقى تلك السنة. يقال له محمد الحويج من اهل توريز. بعثة أبو سعيد ملك العراق إلى مصر وخف على قلب الملك الناصر ثم بلغه عنه ما يكرهه فأخرجه من مصر، ولما بلغه أن حويج فى هذه السنة أمير الركب العراقى كتب إلى الشريف عطيفة أمير مكة ان يعمل الحيلة فى قتلة بكل ما يمكن، فاطلع علي ذلك ابنه مبارك وخواص قواده فاستعدوا لذلك. فلما وقف الناس بعرفة وعادوا يوم النحر إلى مكة قصد العبيد إثارة فتنة، وشرعوا فى النهب لينالوا غرضهم من قتل أمير الركب العراقى. فوقع الصارخ، وليس عند المصريين خبر مما كتبه السلطان. فنهض أمير الركب الأمير سيف الدين خاص ترك والأمير أحمد قريب السلطان، والأمير ألدمر أمير جان دار فى مماليكهم، وأخذ ألدمر يسب الشريف رميته، وأمسك بعض قواده وأحدق به فقام إليه الشريف عطيفة ولاطفه فلم يرجع، وكان حديد النفس شجاعا، فاقدم إليهم وقد اجتمع قواد مكة وأشرافها وهم ملبسون يريدون الركب العراقى، وضرب مبارك بن عطيفة بدبوس فأخطأه وضربه مبارك بحربة نفذت من صدره فسقط عن فرسه إلى الأرض فارتج الناس، ووقع القتال فخرج أمير الركب العراقى واحترس على نفسه فسلم وسقط فى يد أمير مكة إذ فات مقصوده، وحصل مالم يكن بإرادته ثم سكنت الفتنة ودفن ألدمر، وكان قلته يوم الجمعة رابع عشر ذى الحجة فكأنما نادى مناد فى القاهرة والقلعة والناس فى صلاة العيد بقتل الدمر ووقوع ألفتنة بمكة، ولم يبق أحد حتى تحدث بذلك، وبلغ اللطان فلم يكترت بالخبر وقال: اين مكة من مصر ومن اتى بهذا الخبر واستفيض هذا الخبر بقتل الدمر حتى انتشر فى إقليم مصر كله. فما هو إلا أن حضر مبشر الحاج في يوم الثلاثاء ثانى المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة فأخبروا بالخبر مثل ما أشيع. فكان هذا من أغرب ما سمع به، ولما

بلغ السلطان خبر قتل الدمر غضب غضبا شديدا وصار يقوم ويقعد، وابطل السماط وأمر فجرد من العسكر ألف فارس كل منهم بخودة وجوشن ومائة فردة نشاب وفاس برأسين أحدهما للقطع والآخر للهدم، ومع كل منهم جملان وفرسان وهجين ورسم لأمير هذا العسكر أنه إذا وصل إلي ينبع وعداه لا يرفع رأسه إلى السماء، بل ينظر إلى الأرض ويقتل كل من يلقاه من العربان إلا من علم أنه أمير عرب فإنه يقيده ويسجنه معه. وجرد من دمشق ستمائه فارس على هذا الحكم وطلب الأمير أيتمش أمير هذا الجيش ومن معه من الأمراء والمقدمين، وقال له: بادر العدل يوم الخدمة، وإذا وصلت إلى مكة لاندع أحدا من الأشراف ولا من القواد ولا من عبيدهم يسكن مكة وناد فيها من أقام بمكة حل دمه ولا تدع شيئا من النخل حتى تحرقه جميعه، ولا تترك بالحجاز دمنة عامرة وأخرب المساكن كلها وأقم فى مكة بمن معك حتى أبعث إليك بعسكر ثان، وكان القضاة حاضرين. فقال قاضى القضاة جلال الدين القزوينى: يامولانا السلطان هذا حرم قد أخبر الله عنه أن من دخله كان آمنا وشرفه فرد عليه جوابا فى غضب فقال الأمير أيتمش ياخوندفان حضر رميته للطاعة وسأل الأمان فقال أمنه ثم لما سكن عنه الغضب كتب باستقرار أهل مكة وتأمينهم وكتب أمانا (نسخته) هذا أمان الله سبحانه وتعالى وأمان رسوله ﷺ وأمان للمجلس العالى الأسدى دمنة بن الشريف نجم الدين محمد أبى تمر بأن يحضر إلى خدمة الصنجق الشريف صحبة الجناب العالى السيفى أيتمش الناصرى آمنا على نفسه وأهله وماله وولده وما يتعلق به لا يخشى حلول سطوة قاصمة. ولا يخاف مؤاخذة حاسمة. ولا يتوقع خديعة ولا مكرا، ولا يحذر سوءاً ولا ضرارا. ولا يستشعر مخافة ولا ضرارا ولا يتوقع وجلا. ولا يرهب بأسا وكيف يرهب من أحسن عملا. بل يحضر إلى خدمة الصنجق آمنا على نفسه وماله وآله. مطمئنا واثقا بالله ورسوله. وبهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب المبيض الوجه الكريم الأحساب. وكل ما يخطر بباله أنا نؤاخذ به فهو مغفور. ولله عاقبة الأمور. وله منا الإقبال والتقديم. وقد صفحنا الصفح الجميل وإن ربك هو الخلاق العليم فليثق بهذا الأمان الشريف ولا يسيء به الظنون. ولا يصغى إلى قول الذين لا يعملون. ولا يستشير فى هذا الأمر إلا نفسه فيومه عندنا ناسخ لأمسه، وقد قال ﷺ يقول الله تعالى أنا عندى ظن عبدى بى فليظن بى خيرا. فتمسك بعروة هذا الأمان فإنها وثقى. واعمل عمل من لا يضل ولا

يشقى. ونحن قد أمناك فلا تخف، ورعينا لك الطاعة والشرف. وعفا الله عما سلف. ومن أمناه فقد فاز فطب نفسا وقر عينا فانت أمير الحجاز والحمد لله وحده، وكان ألدمر فيه شهامة وشجاعة وله سعادة طائلة ضخمة ومتاجر وزراعات اقتنى بها أموالا جزيلة وزوج ابنه بابنة قاضى القضاة جلال الدين القزوينى.

(**درب قيطون**) هذا الدرب بين قيساوية جهاركس وقيسارية أمير على وهو ونافذ إلى خلف مستوقد حمام القاضى، وكان من حقوق درب الأسوانى.

(**درب السراج**) هذا الدرب على يسره من سلك من الجامع الأزهر طالبا درب الأسوانى وخط الأكفانيين وكان من جملة درب الأسوانى، ثم أفرد فصار من خط الجامع الأزهر، وكان يعرف أولا بدرب السراج، ثم عرف بدرب الشامى، وهو الآن يعرف بدرب ابن الصدر عمر.

(**درب القاضي**) هذا الدرب يقابل مستوقد حمام القاضى على يمنة من سلك من درب الأسوانى إلى الجامع الأزهر، وهو من حقوق درب الأسوانى كان يعرف أولا بزقاق عزاز غلام أمير الجيوش شاور السعدى وزير العاضد ثم عرف بالقاضى السعيد أبى المعالى هبة الله بن فارس، ثم عرف بزقاق ابن الإمام وعرف أخيرا بدرب ابن لؤلؤ، وهو شمس الدين محمد بن لؤلو التاجر بقيسارية جهاركس.

(**درب البيضاء**) هو من جملة خط الاكفانيين الآن المسلوك إليه من الجامع الأزهر وسوق ألفرايين. عرف بذلك لأنه كان به دار تعرف بالدار البيضاء.

(**درب المنقدي**) هذا الدرب بين سوق الخيميين وسوق الخراطين على يمنة من سلك من الخراطين إلى الجامع. كان يعرف قديما بزقاق غزال، وهو صنيعة الدولة أبو الظاهر إسماعيل بن مفضل بن غزال ثم عرف بدرب المنقدى، وهو الآن يعرف بدرب الأمير بكتمر استادار العلاى.

(**درب خرابة صالح**) هذا الدرب على يسرة من سلك من أول الخراطين إلى الجامع الأزهر. كان موضعه فى القديم مارستانا ثم صار مساكن، وعرف بخرابة صالح، وفيه الآن

دار الأمير طينال التى صارت بيد ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر وفيه أيضا باب سوق الصنادقيين .

(**درب الحسام**) هذا الدرب على يمنة من سلك من آخر سويقة الباطلية إلى الجامع الأزهر . عرف بحسام الدين لاجين الصفدى استادار الأمير منجك .

(**درب المنصوري**) هذا الدرب بأول الحارة الصالحية تجاه درب أمير حسين . عرف أولا بدرب الجوهرى وهو شهاب الدين أحمد بن منصور الجوهرى . كان حيا فى سنة ثمانين وستمائة ، وعرف أخيرا بدرب المنصورى وهو الأمير قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين .

(**درب أمير حسين**) هذا الدرب فى طريق من سلك من خط خان الدميرى طالبا إلى حارة الصالحية وحارة البرقية استجده الأمير حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ومات فى ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وسبعمائة ، وكان آخر من بقى من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو والد الملك الأشرف شعبان بن حسين .

(**درب القماحين**) هذا الدرب كان يعرف بخط قصر ابن عمار من جملة حارة كتامة قريبا من الحارة الصالحية ، وفيه اليوم دار خوند شقرا وحمام كراى وراء مدرسة ابن الغنام .

(**درب العسل**) هذا الدرب على يمنة من خرج من خط السبع خوخ يريد المشهد الحسينى . كان يعرف أولا بخوخة الأمير عقيل ابن الخليفة المعز لدين الله أبى تميم معد أول خلفاء ألفاطميين بالقاهرة ، ومات فى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة هو وأخوه الأمير تميم بن المعز بالقاهرة ودفنا بتربة القصر .

(**درب الجباسة**) هذا الدرب تجاه من يخرج من سوق الأبارين إلى المشهد الحسينى وهو من جملة القصر الكبير ، وبه دار خوخى التى تعرف اليوم بدار بهادر .

(**درب ابن عبد الظاهر**) هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخط الزراكشة العتيق وفى صفة ، وهو من حقوق دار العلم التى استجدت في خلافة الآمر ، ووزارة المأمون البطايحى . فلما زالت الدولة اختط مساكن وسكن هناك القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فعرف به .

(درب الخازن) هذا الدرب ملاصق لسور المدرسة الصالحية التى للحنابلة، ومجاور لباب سر قاعة مدرسة الحنابلة والسبيل الذى على باب فندق مسرور الصغير. استجده الأمير علم الدين سنجر الخازن الأشرفى والى القاهرة المنسوب إليه حكر الخازن بخط الصليبة، وسنجر هذا كانت فيه حشمة، وله ثروة زائدة ويحب أهل العلم. تنقل فى المباشرات إلى أن صار والى القاهرة فاشتهر بدقة ألفهم وصدق الحدس الذى لا يكاد يخطىء، مع عقل وسياسة وإحسان إلى الناس، وعزل بالأمير قديدار ومات عن تسعين سنة فى ثامن جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة.

(درب الحبيشي) هذا الدرب على يمنة من سلك من خط الزراكشة العتيق طالبا سوق الأبارين، وهو بجوار دار خواجا لخان منجك. أصله من جملة القصر النافعى، وكان يعرف بخط القصر النافعى، ثم عرف بخط سوق الوراقين. وهو الآن يعرف بدرب الحبيشى، وهو الأمير سيف الدين بلبان الحبيشى أحد الأمراء الظاهرية بيبرس.

(درب بقولا) الصفار بحارة الروم. كان يعرف بدرب الرومى الجزار.

(درب دغمش) هذا الدرب ينفذ إلى الخوخة التى تخرج قبالة حمام ألفاضل المرسوم لدخول النساء. كان يعرف بدرب دغمش، ويقال طغمش، ثم عرف بدرب كوز الزير، ويقال: كوز الزير، ويعرف بدرب القضاة بنى غشم من حقوق حارة الروم.

(درب أرقطاي) هذا الدرب بحارة الروم كان يعرف بدرب الشماع، ثم عرف بدرب شمخ، وهو تاج العرب شمخ الحلى، ثم عرف بدرب المعظم، وهو الأمير عز الملك المعظم ابن قوام الدولة جبر بجيم وباء موحدة، ثم عرف بدرب أرسل وهو والأمير عز الدين أرسل بن قرا رسلان المكاملى والد الأمير جاولى المعظمى المعروف بجاولى الصغير، ثم عرف بدرب الباسعردى، وهو الأمير علم الدين سنجر الباسعردى أحد أكابر المماليك البحرية الصالحية البخمية، وولى نيابة حلب ثم عرف إلى الآن بدرب ابن أرقطاى، والعامة تقول رقطاى بغير همز، وهو أرقطاى الأمير سيف الدين الحاج أرقطاى أحد مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وصار إلى أخيه الملك الناصر محمد، فجعله جمدارا، وكان هو والأمير أيتمش نائب الكرك بينهما أخوة ولهما معرفة بلسان الترك القبجاقى، ويرجع إليهما فى الياسة التى هى شريعة جنكرخان التى تقول العامة وأهل الجهل فى زماننا: هذا حكم

السياسة يريدون حكم الياسة، ثم إن الملك الناصر أخرجه مع الأمير تنكز إلي دمشق ثم استقر فى نيابة حمص لسبع مضين من رجب سنة عشر وسبعمائة فباشرها مدة ثم نقله إلى نيابة صفد فى سنة ثمان عشرة فأقام بها وعمر فيها أملاكا وتربة. فلما كان فى سنة ست وثلاثين طلب إلى مصر وجهز الأمير أيتمش أخوه مكانه وعمل أمير مائة بمصر. فأقام توجه العسكر إلى إياس خرج معهم وعاد فكان يعمل نيابة الغيبة إذا خرج السلطان للصعيد، ثم أخرج إلى نيابة طرابلس عوضا عن طينال فأقام بها إلى أن توجه الطنبغا إلى طشطمر نائب حلب، وكان معه بعسكر طرابلس. فلما جرى من هروب الطنبغا ما جرى كان أرقطاى معه فأمسك واعتقل بإسكندرية ثم أفرج عن أرقطاى فى أول سلطنته الملك الصالح إسماعيل بوساطة الأمير ملكتمر الحجازى، وجعل أميرا إلى أن مات الصالح وقام من بعده الملك الكامل شعبان ورسم له بنيابتة حلب عوضا عن الأمير يلبغا اليحياوى. فحضر إليها فلم يكن غير قليل حتى خلع الكامل وتسلطن المظفر حاجى وولاه نيابة السلطنة بمصر فباشرها إلى أن خلع المظفر وأقيم فى السلطنة الملك الناصر استعفى من النيابة وسأل نيابة حلب. فأجيب وولى نيابة حلب وخرج إليها، ومازال فيها إلى أن نقل منها إلى نيابة دمشق ففرح أهلها به وساروا إلي حلب فرحل عنها فنزل به مرض وسار وهو مريض فمات بعين مباركة ظاهر حلب يوم الاربعاء خامس جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة، وقد أناف عن السبعين فعاد أهل دمشق خائبين، وكان ذكيا فطنا محجاجا لسنا مع عجمة فى لسانه وله تشبيب مطبوع وميل إلى الصور الجميلة ما يكاد يملك نفسه إذا شاهدها مع كرم فى المأكول.

(**درب البنادين**) بحارة الروم يعرف بالبنادين من جملة طوائف العساكر فى الدولة ألفاطمية ثم عرف بدرب أمير جاندار وهو ينفذ الى حمام الفاضل المرسوم بدخول الرجال، وأمير جاندار هذا هو الأمير علم الدين سنجر الصالحى المعروف بأمير جندار.

(**درب المكرم**) بحارة الروم يعرف بالقاضى المكرم جلال الدين حسين بن ياقوت البزار نسيب ابن سناء الملك.

(**درب الضيف**) بحارة الديلم عرف بالقاضى ثقة الملك أبى منصور نصر ابن القاضى الموفق أمير الملك أبى الظاهر إسماعيل بن القاضى أمين الدولة أبى محمد الحسن بن على بن

نصر بن الضيف. كان موجودا فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبه أيضا رحبة تعرف برحبة الضيف منسوبة إليه.

(**درب الرصاصي**) بحارة الديلم. هذا الدرب كان يعرف بحكر الأمير سيف الدين حسين ابن أبى الهيجاء صهر بنى رزيك من وزراء الدولة الفاطمية، ثم عرف بحكر تاج الملك بدران بن الأمير سيف الدين المذكور، ثم عرف بالأمير عز الدين أيبك الرصاصي.

(**درب ابن المجاور**) هذا الدرب على يسرة من دخل من أول حارة الديلم. كان فيه دار الوزير نجم الدين بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان عرف به، وهو يوسف بن الحسين بن محمد بن الحسين أبو الفتح نجم الدين الفارسى الشيرازى المعروف بابن المجاور. كان والده صوفيا من أهل فارس، ثم من شيراز. قدم دمشق وأقام فى دور الصوفية بها. وكان من الزهد والدين بمكان، وأقام بمكة وبها مات فى رجب سنة ست وثمانين وخمسمائة، وكان أخوه أبو عبد الله قد سمع الحديث، وقدم إلى القاهرة، ومات بدمشق أول رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة.

(**درب الكهارية**) هذا الدرب فيه المدرسة الكهارية بجوار حارة الجودرية المسلوك إليه من القماحين، ويتوصل منه إلى المدرسة الشريفية.

(**درب الصفيرة**) بتشديد ألفاء هذا الدرب بجوار باب زويلة، وهو من حقوق حارة المحمودية، وكان نافذا إلى المحمودية، وهو الآن غير نافذ. وأصله درب الصفيراء تصغير صفراء. هكذا يوجد فى الكتب القديمة، وقد دخل بجميع ما كان فيه من الدور الجليلة بالجامع المؤيدى.

(**درب الأنجب**) هذا الدرب تجاه بئر زويلة التى من فوق فوهتها اليوم ربع يونس من خط البندقانيين يعرف بالقاضى الأنجب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن نصر بن على أحد الشهود فى أيام قاضى القضاة سناء الملك أبى عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر، وكان حيا فى سنة بضع وعشرين وخمسمائة، وينسب إلى الحسين بن الأنجب المقدسى أحد الشهود المعدلين، وكان موجودا فى سنة ستمائة، ثم عرف هذا الدرب بأولاد السيد الدمشقى فإنه كان مسكنهم ثم عرف بالبساطى، وهو قاضى القضاة جمال الدين يوسف.

(درب كنيسة جدة) بضم الجيم هذا الدرب بالبندقانيين . كان يعرف بدرب جدة، ثم عرف بدرب الشيخ السديد الموفق .

(درب ابن قطز) هذا الدرب بجوار مستوقد حمام الصاحب ورباط الصاحب من خط سويقة الصاحب عرف بناصر الدين بن بلغاق بن الأمير سيف الدين قطز المنصورى، ومات بعد سنة ثمان وتسعين وستمائة .

(درب الحريري) هذا الدرب من جملة دار الديباج هو ودرب ابن قطز المذكور قبله، ويتوصل إليه اليوم من أول سويقة الصاحب، وفيه المدرسة القطبية . عرف بالقاضى نجم الدين محمد بن محمد القاضى فتح الدين عمر المعروف بابن الحريري . فإنه كان ساكنا فيه .

(درب ابن عرب) هذا الدرب بخط سويقة الصاحب . كان يعرف بدرب بنى أسامة الكتاب أهل الإنشاء فى الدولة ألفاطمية، ثم عرف بدرب بنى الزبير الأكابر الروساء فى الدولة ألفاطمية، ثم سكنه القاضى علاء الدين على بن عرب محتسب القاهرة فى أيام الأمير بلغاق وكيل بيت المال فعرف به إلى اليوم، وابن عرب هذا هو علاء الدين أبو الحسن على بن عبد الوهاب بن عثمان بن على بن محمد عرف بابن عرب . ولى الحسبة بالقاهرة فى آخر صفر سنة خمس وستين وسبعمائة وولي وكالة بيت المال أيضا وتوفى .

(درب ابن مغش) هذا الدرب تجاه المدرسة الصاحبية عرف أخيرا بتاج الدين موسى كاتب السعدى وناظر الخاص فى الأيام الظاهرية برقوق، وله به دار مليحة، وكان ماجنا متهتكاً يرمى بالسوء، وأما الديانة فإنه قبطى، وعنه اخذ سعد الدين إبراهيم بن غراب وظيفة ناظر الخاص وعاقبه بين يديه، ثم صار يتردد بعد ذلك إلى مجلسه، هلك فى واقعة تيمورلنلك فى شعبان سنة ثلاث وثمانمائة بعد ما احترق بالنار لما احترقت دمشق وأكل الكلاب بعضه .

(درب مشترك) هذا الدرب يقرب من درب العداس تجاه الخط الذى كان يعرف بالمسطاح . وفيه الآن سوق الجوارى، وعرف أولا بدرب الأخناى قاضى القضاة برهان الدين المالكى فإنه كان يسكن فيه . ثم هو الآن يقال له درب مشترك، وهذه كلمة تركية أصلها بلسانهم أج ترك بضم الهمزة وإشمامها ثم جيم بين الجيم والشين، ومعنى ذلك ثلاث وترك بتاء مثناة من فوق ثم راء مهملة وكاف ومعناها النخل، ومعنى هذا الاسم ثلاث

نخيل، وعربته العامة فقالت مشترك، وهو مشترك السلاح دار الظاهر برقوق. فإنه سكن بها ومات بها.

(**درب العداس**) هذا الدرب فيما بين دار الديباج والوزيرية عرف بعلى بن عمر العداس صاحب سقيفة العداس.

(**درب كاتب سيدي**) هذا الدرب من جملة خط الملحيين كان يعرف بدرب تقى الدين الأطريانى أحد موقعى الحكم عند قاضى القضاة تقى الدين الإخناوى، ثم عرف بالوزير الصاحب علم الدين عبد الوهاب القبطى الشهير بكاتب سيدى.

(**الوزير كاتب سيدي**) تسمى لما أسلم بعبد الوهاب بن القسيس وتلقب علم الدين، وعرف بين الكتاب الأقباط بكاتب سيدى، وترقى فى الخدم الديوانية حتى ولى ديوان المرتجع، وتخصص بالوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم كاتب ارلان. فلما أشرف من مرضه على الموت عين للوزارة من بعده علم الدين هذا. فولاه الملك الظاهر وظيفة الوزراة بعد موت الوزير شمس الدين فى سادس عشرى شعبان سنة تسع وثمانين وسبعمائة فباشر الوزارة إلى يوم السبت رابع عشرى رمضان سنة تسعين وسبعمائة، ثم قبض عليه وأقيم فى منصب الوزارة بدله الوزير الصاحب كريم الدين بن الغنام وسلمه إليه وكان قد أراد مصادرة كريم الدين فأنفق استقراره فى الوزارة، وتمكنه منه فألزمه بحمل مال قرره عليه. فيقال أنه حمل فى هذا اليوم ثلاثمائة ألف درهم عنها إذ ذك نحو العشرة آلاف مثقال ذهبا، ومات بعد ذلك من هذه السنة، وكان كاتبا بليغا كتب بيده بضعا وأربعين رزمة من الورق، وكانت أيامه ساكنة، والأحوال متمشية، وفيه لين.

(**درب مخلص**) هذا الدرب بحارة زويلة عرف بمخلص الدولة أبي الحيا مطرف المستنصرى ثم عرف بدرب الرايض، وهو الأمير طراز الدولة الرايض باصطبل الخلافة.

(**درب كوكب**) هذا الدرب هو الآن زقاق شارع يسلك فيه من حارة زويلة إلى درب الصقالبة عرف أولا بالقائد الأعز مسعود المستنصر ثم عرف بكوكب الدولة ابن الخاكى.

(**درب الوشاقي**) بحارة زويلة عرف بالأمير حسام الدين سنقر الوشاقى المعروف بالأعسر السلاح دار أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(**درب الصقالية**) بحارة زويلة عرف بطائفة الصقالية أحد طوائف العساكر فى أيام الخلفاء ألفاطميين وهم جماعة .

(**درب الكنجي**) بحارة زويلة كان يعرف بدرب حليلة ثم عرف بالأمير شمس الدين سنقر شاه الكنجى الحاجب الظاهرى قتله قلاون أول سلطنته .

(**درب دومية**) هذا الدرب كان فى القديم فيما بين زقاق القابلة ودرب الزراق فزقاق القابلة فيه اليوم كنيسة إليهود بحارة زويلة ، ويتوصل منه إلى السبع سقايات ودار بيبرس التى عرفت بدار كاتب السر ابن فضل الله تجاه حمام ابن عبود ، ودرب الزراق هو اليوم من جملة خط سويقة الصاحب وبينهما الآن دور لا يوصل إليه إلا بعد قطع مسافة ، ودرب رومية كان يعرف أولا بزقاق حسين بن إدريس العزيزى أحد اتباع الخليفة العزيز بالله نزاز بن المعز لدين الله ، ثم عرف بدرب رومية ، وهو بجوار زقاق القابلة الذى عرف بزقاق العسل ، ثم عرف بزقاق المعصرة وعرف اليوم بزقاق الكنيسة .

(**درب الخضيري**) هذا الدرب يقابل باب الجامع الأقمر البحرى ، وهو من جملة حقوق القصر الصغير الغربى عرف بالأمير عز الدين أيدمر الخضيرى أحد أمراء الملك المنصور قلاوون .

(**درب شعلة**) هو الشارع المسلوك فيه من باب درب ملوخيا إلى خط ألفهادين والعطوفية ، وقد خرب .

(**درب نادر**) هذا الدرب بجوار المدرسة الجمالية فيما بين درب راشد ودرب ملوخيا عرف بسيف الدولة نادر الصقلى ، وتوفى لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنين وثمانين وثلاثمائة فبعث إليه الخليفة العزيز بالله لكفنه خمسين قطعة من ديباج مثقل وخلف ثلاثمائة ألف دينار عينا وآنيه من فضة وذهب وعبيدا وخيلا وغير ذلك مما بلغت قيمته نحو ثمانين ألف دينار ، وكان أحد الخدام ذكره المسبحى فى تاريخه ، وقد ذكر ابن عبد الظاهر أن

بالسويقة التي دون باب القنطرة دربا يعرف بدرب نادر فلعله نسب إليه درب كان فى القديم أيضا .

(**درب راشد**) هذا الدرب تجاه خزانة البنود . عرف بيمين الدولة راشد العزيزى .

(**درب النميري**) عرف بالأمير سيف المجاهدين محمد بن النميرى أحد أمراء الخليفة الحافظ لدين الله ، وولى عسقلان فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وكانت ولايتها أكبر من ولاية دمشق . وهذا الدرب كان ينفذ إلى درب راشد ، وهو الآن غير نافذ ، وفى داخله درب يعرف بأولاد الداية طاهر وقاسم الأفضلين أحد أتباع الأفضل ابن أمير الجيوش ، وعرف الآن بدرب الطفل ، وهو من جملة خطة قصر الشوك . فإنه قبالة باب قصر الشوك وبينهما سويقة رحبة الأيدمرى .

(**درب قراصيا**) هذا الدرب من جملة الدروب القديمة ، وكان تجاه باب قصر الزمرد . الذى فى مكانه اليوم المدرسة الحجازية ، وهذا الدرب اليوم من جملة خطة رحبة باب العيد بجوار سجن الرحبة ، وقد هدمه الأمير جمال الدين يوسف الاستادار ، وهدم كثيرا من دوره وعملها وكالة فمات ولم تكمل ، وهى إلى الآن بغير تكملة ، ثم كمله الملك المؤيد شيخ وجعله وقفا على جامعه ، وهو إلى الآن خان عامر .

(**درب السلامي**) هذا الدرب من جملة خط رحبة باب العيد ، وفيه إلى اليوم أحد أبواب القصر المسمى بباب العيد ، والعامة تسمية القاهرة ، وهذا الدرب يسلك منه إلى خط الشوك وإلى المارستان العتيق الصلاحى وإلى دار الضرب وغير ذلك .

(**ذكر خواجا مجد الدين السلامي**) إسماعيل بن محمد بن ياقوت الخواجا مجد الدين السلامى تاجر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يدخل إلى بلاد الططر ويتجر ، ويعود بالرقيق وغيره ، واجتهد مع جوبان إلى أن اتفق الصلح بين الملك الناصر وبين القان ابى سعيد ، فانتظم ذلك بسفارته وحسن سعيه فازدادت وجاهته عند الملكين . وكان الملك الناصر يسفره ، ويقرر معه أمورا فيتوجه ويقضيها على وفق مراده بزيادات فأحبه وقربه ورتب له الرواتب الوافرة فى كل يوم من الدراهم واللحم والعليق والسكر والحلواء والسكاج والرقاق مما يبلغ فى اليوم مائة وخمسين درهما . عنها يومئذ ثمانية مثاقيل من

الذهب. وأعطاه قرية أراك ببعلبك وأعطى مماليكه إقطاعات فى الحلقة، وكان يتوجه إلى الأردن ويقيم فيه الثلاث سنين والأربع والبريد لا ينقطع عنه، وتجهز إليه التحف والأقمشة ليفرقها على من يراه من خواص أبى سعيد وأعيان الأردن ثقة بمعرفته ودرايته، وكان النشو ناظر الخاص لا يفارقه ولا يصبر عنه، ومن أملاكه ببلاد المشرق السلامية والبادورة والمراوزة والمناصف، ولما مات الملك الناصر تغير عليه الأمير قوصون وأخذ منه مبلغا يسيرا، وكان ذا عقل وافر وفكر مصيب وخبرة بأخلاق الملوك وما يليق بخواطرها ودارية بما يتحفها به من الرقيق والجواهر ونطق سعيد وخلق رضى وشكالة حسنة وطلعة بهية، ومات فى داره من درب السلامى هذا يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، ودفن بتربته خارج باب النصر، ومولده فى سنة إحدى وسبعين وستمائة بالسلامية بلدة من أعمال الموصل على يوم منها بالجانب الشرقى، وهى بفتح السين المهملة وتشديد اللام وبعد الميم ياء مثناه من تحت مشددة ثم تاء التأنيث.

(**درب خاص ترك**) هذا الدرب برحبة باب العيد. عرف بالأمير الكبير ركن الدين بيبرس المعروف بخاص الترك الكبير أحد الأمراء الصالحية النجمية أو بالأمير عز الدين أيبك المعروف بخاص الترك الصغير. سلاح دار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البنداقدارى.

(**درب شاطي**) هذا الدرب يتوصل منه إلى قصر الشوك. عرف بالأمير شرف الدين شاطى السلاح دار فى أيام الملك المنصور قلاوون، وكان أميرا كبيرا مقدما بالديار المصرية، وأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الشام. فأقام بدمشق، وكلانت له حرمة وافرة وديانة، وفيه خير ومات بها فى الحادى والعشرين من شعبان سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة.

(**درب الرشيدي**) هذا الدرب مقابل باب الجوانية. عرف بالأمير عز الدين أيدمر الرشيدى مملوك الأمير بلبان الرشيدى خوش داش الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، وولى الأمير أيدمر هذا استادارا لأستاذة بلبان ثم ولى استادارا للأمير سلار، ومات فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وسبعمائة، وكان سكنه فى هذا الدرب وكان عاقلا ذا ثروة وجاه، وكان فى القديم موضع هذا الدرب براحا قدام الحجر.

(**درب الفريحية**) هذا الدرب على يمنه من خرج من الجملون الصغير طالبا درب الرشيدى المذكور، وهو من الدروب التى كانت فى أيام الخلفاء.

(**درب الاصفر**) هذا الدرب تجاه خانقاه الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وموضع هذا الدرب هو المنحر الذى تقدم ذكره.

(**درب الطاووس**) هذا الدرب فى الحدرة التى عند باب سر المارستان المنصورى على يمنة من ابتدأ الخروج منه، وكان موضعه بجوار باب الساباط أحد أبواب القصر الصغير، وقد تقدم ذكره ودرب الطاووس أيضا بالقرب من درب العداس. فيما بين باب الخوخة والوزيرية.

(**دربماينجار**) هذا الدرب بجوار جامع أمير حسين من حكر جوهر النوبى خارج القاهرة عرف بالأمير ماينجار الرومى الواقدى فى أيام الملك الظاهر بيبرس، وقد خربت تلك الديار فى سلطنة الملك المؤيد شيخ.

(**درب كوسا**) هو الآن يسلك فيه على شاطىء الخليج الكبير من قنطرة الأمير حسين إلى قنطرة الموسكى عرف بحسام الدين كوسا مقدم الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون مات بعد سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وهذا الموضع تجاه دار الذهب التى تعرف اليوم بدار الأمير الطظرى السلاح دار الناصرى، وقد خربت أيضا.

(**درب الجاكي**) هذا الدرب بالحكر عرف بالأمير شرف الدين إبراهيم بن على بن الجبيد الجاكى المهمندار المنصورى قد دثر فى أيام المؤيد على يد الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى الفرج الاستادرار لما خرب ما هناك.

(**درب الحرامي**) بالحكر عرف بسعد الدين حسين بن عمر ابن محمد الحرامى وابنه محيى الدين يوسف، وكانا من أجناد الحلقة.

(**درب الزراق**) بالحكر عرف بالأمير عز الدين أيدمر الزراق أحد الأمراء. ولاه الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون نيابة غزة فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة. فاقام بها مدة ثم استعفى بعد موت الملك الصالح، وعاد إلى القاهرة، ثم توجه إلى دمشق للحوطة على موجود الخاصكية يلبغا اليحياوى فى الأيام المظفرية وعاد. فلما ركب العسكر على الملك المظفر لم يكن

معه سوى الزراق وآق سنقر وأيدمر الشمسى . فنقم الخاصكية عليهم ذلك وأخرجوهم إلى الشام فوصلوا إليها فى أول شوال سنة ثمان وأربعين فأقام الزراق بدمشق ثم ورد مرسوم السلطان حسن بتوجيههم إلى حلب فتوجه إليها على إقطاع ، وبها مات ، وكان دينا لينا فيه خير ، وكان هذا الدرب عامرا ، وفيه دار الزراق الدار العظيمة ، وقد خرب هذا الدرب وما حوله منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة ، ثم نقضت الدار فى أيام المؤيد شيخ على يد ابن أبى الفرج .

(**زقاق طريف**) بالطاء المهملة . هذا الزقاق من أزقة البرقية عرف بالأمير فخر الدين طريف بن بكتوت ، وكان يعرف بزقاق منار بن ميمون بن منار . توفى فى ذى الحجة سنة إثنتين وثمانين وخمسمائة .

(**زقاق منعم**) بحارة الديلم . كان يعرف بمساطب الديلم والأتراك ثم عرف بالأمير منعم الدولة باتكين البوسحاقى ، ثم عرف بزقاق جمال الدولة ، ثم بزقاق الجلاطى ، ثم بزقاق الصهرجتى ، وهو القاضى المنتخب ثقة الدولة أبو الفضل محمد بن الحسين بن هبة الله بن وهيب الصهرجتى ، وكان حيا فى سنة ستين وخمسمائة .

(**زقاق الحمام**) بحارة الديلم عرف قديما بخوخة المنقدى ، ثم عرف بخوجة سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء صهر بنى رزيك ، ثم عرف بزقاق حمام الرصاصى ثم عرف بزقاق المزار .

(**زقاق الحرون**) بحارة الديلم عرف بالأمير الأوحد سلطان الجيوش زرى الحرون رفيق العادل بن السلار وزير مصر فى أيام الخليفة الظافر بأمر الله . ثم عرف بابن مسافر عين القضاة ثم عرف بزقاق بالقبة .

(**زقاق الغراب**) بالجودرية . كان يعرف بزقاق أبى العز ، ثم عرف بزقاق ابن أبى الحسن العقيلى ، ثم قيل له زقاق الغراب ، نسبة إلى أبى عبد الله محمد بن رضوان الملقب بغراب .

(**زقاق عامر**) بالوزيرية عرف بعامر القماح الأقانصة .

(**زقاق فرج**) بالجيم من جملة أزقة درب ملوخيا . عرف بفرج مهتار الطشتخاناه للملك المنصور قلاوون . كان حيا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

(**زقاق حدرة**) الزاهدى بحارة برجوان عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الزاهدى الرماح الأحدب أحد الأمراء وممن له عدة غزوات فى الفرنج ولما تمالأ الأمراء على الملك السعيد ابن الظاهر وسبقهم إلى القلعة كان قدامه بيبرس الزاهدى هذا. فسقط عن فرسه وخرجت له حدبة فى ظهره، ومات فى سنة ثلاث وتسعين، وكان مكان هذه الحدره أخصاصا، وهى الآن مساكن بينها زقاق يسلك فيه من رأس الحارة إلى رحبة الافيال.

ذكر الخوخ

والقصد إيراد ما هو مشهور من الخوخ او لذكره فائدة، والا فالخوخ والدروب والأزقة كثيرة جدا.

(**الخوخ السبع**) كانت سبع خوخ فيما يقال متصلة باصطبل الطارمة. يتوصل منها الخلفاء إذا أرادوا الجامع الأزهر فيخرجون من باب الديلم الذى هو اليوم باب المشهد الحسينى إلى الخوخ ويعبرون منها إلى الجامع الأزهر فإنه كان حينئذ فيما بين الخوخ والجامع رحبة كما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى، وكان هذا الخط يعرف أولا بخوخة الأمير عقيل، ولم يكن فيه مساكن، ثم عرف بعد انقضاء دولة الفاطميين بخط الخوخ السبع، وليس لهذا، الخوخ اليوم أثر ألبته. ويعرف اليوم بالأبارين.

(**باب الخوخة**) هو أحد أبواب القاهرة مما يلى الخليج فى حد القاهرة البحرى. يسلك إليه من سويقة الصاحب ومن سويقة المسعودى وكان هذا الباب يعرف أولا بخوخة ميمون دبه، ويخرج منه إلى الخليج الكبير، وميمون دبه يكنى بأبى سعيد أحد خدام العزيز بالله كان خصيا.

(**خوخة أيدغمش**) هذه الخوخة فى حكم أبواب القاهرة. يخرج منها إلى ظاهر القاهرة عند غلق الأبواب فى الليل وأوقات الفتن إذا غلقت الأبواب فينتهى الخارج منها إلى الدرب الأحمر واليانسية، ويسلك من هناك إلى باب زويلة، ويصار إليها من داخل القاهرة إما من

سوق الرقيق أو من حارة الروم من درب أرقطاى وهذه الخوخة بجوار حمام أيد غمش وهو ايد غـمش الناصـرى الأمـيـر عـلاء الدين . أصله من مماليك الأمـيـر سـيف الدولة بلبـان الصالحى ، ثم صار إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فلما قدم من الكرك جعله أميرا خور عوضا عن الأمير بيبرس الحاجب ولم يزل حتى مات الملك الناصر . فقام مع قوصون ووافقه على خلع الملك المنصور أبى بكر ابن الملك الناصر ، ثم لما هرب الطنبغا الفخرى أنفق الأمراء مع أيدغمش على الأمير قوصون فوافقهم على محاربته ، وقبض على قوصون وجماعته ، وجهزهم إلى الإسكندرية وجهز من أمسك الطنبغا ومن معه وأرسلهم أيضا إلى الإسكندرية ، وصار ايدغمش فى هذه النوبة هو المشار إليه فى الحل والعقد . فأرسل ابنه فى جماعة من الأمراء والمشايخ إلى الكرك بسبب إحضار أحمد ابن الملك الناصر محمد . فلما حضر أحمد من الكرك ، وتلقب بالملك الناصر واستقر أمره بمصر أخرج ايد غمش نائبا بحلب . فسار إلى عين جالوت وإذا بالفخرى قد صار إليه مستجيرا به ، فآمنه ، وأنزلة فى خيمة ، فلما ألقى عنه سلاحه وأطمان قبض عليه ، وجهزه إلى الملك الناصر احمد وتوجه إلى حلب فأقام بها إلى أن استقر الملك الصالح إسماعيل بن محمد فى السلطنة نقله عن نيابة حلب إلى نيابة دمشق فدخلها فى يوم العشرين من صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ومازال بها إلى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة منها . فعاد من مطعم طيوره ، وجلس بدار السعادة حتى انقضت الخدمة واكل الطارى ، وتحدث ثم دخل إلى داره فإذا جواريه يختصمن فضرب وأحدة منهن ضربتين ، وشرع فى الضربة الثالثة فسقط ميتا ، ودفن من الغد فى تربته خارج ميدان الحصى ظاهر دمشق ، وكان جوادا كريما ، وله مكانة عند الملك الناصر الكبير . بحيث إنه أمر أولاده الثلاثة وكان قد بعث الملك الصالح بالقبض عليه فبلغ القاصد موته فى قطيا فعاد .

(**خوخة الأرقي**) بحارة الباطلية يخرج منها إلى سوق الغنم وغيره ، وهى بجوار داره .

(**خوخة عسيلة**) هذه الخوخة من الخوخ القديمة الفاطمية ، وهى بحارة الباطلية مما يلى حارة الديلم فى ظهر الزقاق المعروف بخرابة العجيل بجوار دار الست حدق .

(**خوخة الصالحية**) هذه الخوخة حبس الديلم قريبة من دار الصالح طلائع بن رزيك التى هدمها ابن قايمار وعمرها، وكانت تعرف هذه الخوخة أولا بخوخة بحتكين وهو الأمير جمال الدولة بحتكين الظاهرى، ثم عرفت بخوخة الصالح طلائع بن رزيك لأن داره كانت هناك، وبها كان سكنه قبل أن يلى وزارة الظافر.

(**خوخة المطوع**) هذه الخوخة بحارة كتامة فى أولها مما يلى الجامع الأزهر عند اصطبل الحسام الصفدى، عرفت بالمطوع الشيرازيك.

(**خوخة حسين**) هذه الخوخة فى الزقاق الضيق المقابل لمن يخرج من درب الأسوانى، ويسلك فيه إلى حكر الرصاصى بحارة الديلم، ويعرف هذا الزقاق بزقاق المزار، وفيه قبر تزعم العامة ومن لاعلم عنده أنه قبر يحيى بن عقبة، وأنه كان مؤدبا للحسين بن على بن أبى طالب، وهو كذب مختلق مفترى كقولهم فى القبر الذى بحارة برجوان إنه قبر جعفر الصادق، وفى القبر الآخر إنه قبر أبى تراب النخشبى، وفى القبر الذى على يسرة من خرج من باب الحديد ظاهر زويلة أنه قبر زارع النوى وأنه صحانى، غير ذلك من أكاذيبهم التى اتخذها لهم شياطينهم أنصابا ليكونوا لهم عزا، وسيأتى الكلام على هذه المزارات فى مواضعها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى.

(**وحسين هذا**) هو الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء صهر بنى رزيك وزوج ابنة الصالح بن رزيك، وكان كرديا قدمه الصالح بن رزيك بن الصالح لما ولى الوزارة ونوه به. فلما مات وقام من بعده ابنه رزيك بن الصالح فى الوزارة كان حسين هذا هو مدبر أمره بوصية الصالح واستشار حسينا فى صرف شاور عن ولاية قوص فأشار علية بإبقائه فأبى وولى الأمير ابن الرفعة مكانه، وبلغ ذلك شاور فخرج من قوص إلى طريق الواحات فلما سمع رزيك بمسيرة رأى فى النوم مناما عجيبا فأخبر حسينا بأنه رأى مناما. فقال ان بمصر رجلا يقال له أبو الحسن على بن نصر الأرتاجى وهو حاذق فى التعبر فأحضره وقال: رأيت كان القمر قد أحاط به حنش وكأننى رواس فى حانوت فغالطه الأرتاجى فى تعبير الرؤيا. وظهر ذلك لحسين فأمسك حتى خرج وقال له: ما اعجبنى كلامك والله لابد ان تصدقنى ولا بأس عليك. فقال يا مولاى القمر عندنا هو الوزير كما ان الشمس الخليفة، والحنش

المستدير عليه حبس مصحف، وكونه رواس أقلبها تجده شاور مصحفا وما وقع لى غير هذا فقال حسين: اكتم هذا عن الناس، واخذ حسين فى الاهتمام بأمره، ووطأ أنه يريد التوجه إلى مدينة الرسول ﷺ وكان قد أحسن إلى أهلها وحمل إليها مالا وقماشا وأودعه عند من يثق به هذا، وأمر شاور يقوى ويتزايد ويصل الإرجاف به إلى قرب من القاهرة فصاح الصائح فى بنى رزيك وكانوا اكثر من ثلاثة آلاف فارس فأول من نجا بنفسه حسين وسار فسأل عنه رزيك. فقالوا خرج فانقطع قلبه لأن حسينا كان مذكورا بالشجاعة مشهورا بها، وله تقدم فى الدولة ومكانة وممارسة للحروب وخبرة بها، ولم يثبت بعد خروج حسين بل انهزم إلى ظاهر اطفيسح فقبض عليه ابن النيض مقدم العرب وأحضره إلى شاور فحبسه وصدقت رؤياه ومات حسين.

(**خوخة الحلبي**) هذه الخوخة فى آخر اصطبل الطارمة بجوار حمام الأمير علم الدين سنجر الحلبى وفى ظهر داره.

(**سنجر الحلبي**) أحد المماليك الصالحية ترقى فى الخدم إلى أن ولاه الملك المظفر سيف الدين قطز نيابة دمشق. فلما قتل قطز على عين جالوت وقام من بعده فى السلطنة بالديار المصرية الملك الظاهر بيبرس ثار سنجر بدمشق فى سنة ثمان وخمسين وستمائة، ودعا إلى نفسه وتلقب بالملك المجاهد، وبقى أشهرا والملك الظاهر يكاتب أمراء دمشق إلى أن خامروا على سنجر وحاصروه بقلعة دمشق أياما. فلما خشى أن يقبض عليه فر من القلعة إلى بعلبك فجهز إليه الظاهر الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى، ومازال يحاصره حتى أخذه أسيرا وبعث به إلى الديار المصرية فاعتقله الظاهر، ومازال فى الاعتقال من سنة تسع وخمسين إلى سنة تسع وثمانين وستمائة مدة تنيف على ثلاثين سنة مدة أيام الملك الظاهر وولديه وأيام الملك المنصور قلاوون. فلما ولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون أخرجه من السجن وخلع عليه، وجعله أحد الأمراء الأكابر على عادته فلم يزل أميرا بمصر إلى أن مات على فراشه فى سنة اثنين وتسعين وستمائة، وقد جاوز تسعين سنة وانحنى ظهره وتقوس.

(**خوخة الجوهرة**) هذه الخوخة بآخر حارة زويلة عرفت اليوم بخوخة الوالى لقربها من دار الأمير علاء الدين الكورانى والى القاهرة، وكان من خير الولاة يحفظ كتاب الحاوى فى

الفقه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه وأقام فى ولاية القاهرة من محرم سنة تسع وأربعين وسبعمائة بعد أستدمر القلنجى وإلى القاهرة .

(**خوخة مصطفى**) هذه الخوخة بآخر زقاق الكنيسة من حارة زويلة . يخرج منها إلى القبو الذى عند حمام طاب الزمان المسلوك منه إلى قبو منظرة اللؤلؤة على الخليج . عرفت بالأمير فارس المسلمين مصطفى أحد أمراء بنى أيوب الملوك ، وهو أيضا صاحب هذا الحمام .

(**خوخة ابن المأمون**) هذه الخوخة فى حارة زويلة بالدرب الذى بقرب حمام الكويك ، ويقال لهذه الخوخة اليوم باب حارة زويلة وأصلها خوخة فى درب ابن المأمون البطابحى .

(**خوخة كوتية آق سنقر**) هذه الخوخة فى الزقاق الذى بظهر المدرسة الفخرية بآخر سويقة الصاحب . كان يسلك منها إلى الخليج من جوار باب الذهب ، وموضعها بحذاء بيت القاضى أمين الدين ناظر الدولة ، ولم تزل إلى أن بنى المهتار عبد الرحمن البابادار بجوارها فى سنى بضع وتسعين وسبعمائة فسدها ، وعرفت هذه الخوخة أخيرا بخوخة المسيرى ، وهو قمر الدين بن السعيد المسيرى .

(**خوخة أمير حسين**) هذه الخوخة من جملة الوزيرية يخرج منها إلى تجاه قنطرة أمير حسين فتحها الأمير شرف الدين حسين بن أبى بكر بن إسماعيل بن حيدرة بيك الرومى حين بنى القنطرة على الخليج الكبير وأنشأ الجامع بحكر جوهر النوبى ، وجرى فى فتح هذه الخوخة أمر لا بأس بإيراده ، وهو أن الأمير حسين قصد أن يفتح فى السور خوخة لتمر الناس من أهل القاهرة فيها إلى شارع بين السورين ليعمر جامعه فمنعه الأمير علم الدين سنجر الخازن وإلى القاهرة من ذلك إلا بمشاورة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان للأمير حسين إقدام على السلطان وله به مؤانسة فعرفه أنه أنشأ جامعا ورسأله أن يفسح له فى فتح مكان من السور ليصير طريقا نافذا يمر فيه الناس من القاهرة ، ويخرجون إليه فأذن له فى ذلك ، وسمح به فنزل إلى السور وخرق منه قدر باب كبير ودهن عليه رنكه بعد ماركب هناك بابا ومر الناس منه ، واتفق أنه اجتمع بالخازن وإلى القاهرة وقال له على سبيل المداعبة : كم كنت تقول ما أخليك تفتح فى السور بابا حتى تشاور السلطان ها أنا قد شاورته وفتحت بابا على رغم أنفك فحنق الخازن من هذا القول ، وصعد إلى القلعة ودخل على السلطان وقال

ياخوند: أنت رسمت للأمير شرف الدين أن يفتح فى السور بابا وهو سور حصين على البلد؟ فقال السلطان إنما شاورنى أن يفتح خوخة لأجل حضور الناس للصلاة فى جامعه. فقال الخازن ياخوند ما فتح إلا بابا يعادل باب زويلة، وعمل عليه رنكه وقصد يعمل سلطانا على البارد، وما جرت عادة أحد بفتح سور البلد. فأثر هذا الكلام من الخازن فى نفس السلطان أثرا قبيحا وغضب غضبا شديدا، وبعث إلى النائب وقد اشتد حنقه بان يسفر حسين بن حيدر إلى دمشق بحيث لا يبيت فى المدينة. فخرج من يومه من البلد بسبب ما تقدم ذكره.

ذكر الرحاب

الرحبة بإسكان الحاء وفتحها: الموضع الواسع، وجمعها رحاب. اعلم أن الرحاب كثيرة لا تتغير إلا بأن يبنى فيها فتذهب ويبقى اسمها. أو يبنى فيها ويذهب اسمها ويجهل، وربما انهدم بنيان وصار موضعه رحبة أو دارا أو مسجدا، والغرض ذكر ما فيه فائدة.

(**رحبة باب العيد**) هذه الرحبة كان أولها من باب الريح أحد أبواب القصر الذى أدركنا هدمه على يد الأمير جمال الدين الاستادار فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة وإلى خزانة البنود، وكانت رحبة عظيمة فى الطول والعرض غاية فى الاتساع، يقف فيها العساكر فارسها وراجلها فى أيام مواكب الأعياد ينتظرون ركوب الخليفة وخروجه من باب العيد، ويذهبون فى خدمته لصلاة العيد بالمصلى خارج باب النصر ثم يعودون إلى أن يدخل من الباب المذكور إلى القصر، وقد تقدم ذكر ذلك، ولم تزل هذه الرحبة خالية من البناء إلى ما بعد الستمائة من الهجرة، فاختط فيها الناس وعمروا فيها الدور والمساجد وغيرها، فصارت خطة كبيرة من أجل أخطاط القاهرة، وبقى اسم رحبة باب العيد باقيا عليها لا تعرف إلا به.

(**رحبة قصر الشوك**) هذا الرحبة كانت قبلى القصر الكبير الشرقى فى غاية الاتساع كبيرة المقدار، وموضعها من حيث دار الأمير الحاج ال ملك بجوار المشهد الحسينى والمدرسة المالكية إلى باب قصر الشوك عند خزانة البنود، وبينها وبين رحبة باب العيد خزانة البنود والسفينة، وكان السالك من باب الديلم الذى هو اليوم المشهد الحسينى إلى خزانة البنود يمر

فى هذه الرحبة ويصير سور القصر على يساره، والمناخ ودار افتكين على يمينه، ولا يتصل بالقصر بنيان ألبته، ومازالت هذه الرحبة باقية إلى أن خرب القصر بفناء أهله. فاختط الناس فيها شيئاً بعد شيء حتى لم يبق منها سوى قطعة صغيرة تعرف برحبة الأيدمرى.

(**رحبة الجامع الأزهر**) هذه الرحبة كانت أمام الجامع الأزهر، وكانت كبيرة جدا تبتدىء من خط اصطبل الطارمة إلى الموضع الذى فيه مقعد الأكفانيين اليوم، ومن باب الجامع البحرى إلى حيث الخراطين. ليس بين هذه الرحبة ورحبة قصر الشرك سوى اصطبل الطارمة. فكان الخلفاء حين يصلون بالناس بالجامع الأزهر تترجل العساكر كلها، وتقف فى هذه الرحبة حتى يدخل الخليفة إلى الجامع، وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى عند ذكر الجوامع، ولم تزل هذه الرحبة باقية إلى أثناء الدولة الأيوبية فشرع الناس فى العمارة بها إلى ان بقى منها قدام باب الجامع البحرى هذا القدر اليسير.

(**رحبة الحلي**) هذه الرحبة الآن من خط الجامع الأزهر، ومن بقية رحبة الجامع التى تقدم ذكرها. عرفت بالقاضى نجم الدين أبى العباس أحمد بن شمس الدين على بن نصر الله بن مظفر الحلى التاجر العادل لأنها تجاه داره.

(**رحبة البانياسي**) هذه الرحبة بدرب الأتراك تجاه دار الأمير طيدر الجمدار الناصرى، وعرفت بالأمير نجم الدين محمود موسى البانياسى لأن داره كانت فيها ومسجده المعلق هناك، ومات بعد سنة خمسمائة.

(**رحبة الأيدمري**) هذه الرحبة من جملة رحبة باب قصر الشرك وعرفت بالايدمرى لأن داره هناك.

(**والأيدمري**) هذا مملوك عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر بيبرس. ترقى فى الخدم حتى تأمر فى أيام الملك الظاهر بيبرس، وعلت منزلته فى أيام الملك المنصور قلاوون، ومات سنة سبع وثمانين وستمائة، ودفن بتربته فى القرافة بجوار الشافعى رضى الله عنه.

(**رحبة البدري**) هذه الرحبة يدخل إليها من رحبة الأيدمرى من باب قصر الشوك، ومن جهة المارستان العتيق، وهى من جملة القصر الكبير عرفت بالأمير بيدمر البدرى صاحب

المدرسة البدرية . فإن داره هناك .

(**رحبة ضروط**) هذه الرحبة بجوار دار ال ملك وهى جملة رحبة قصر الشوك . عرفت بالأمير ضروط الحاجب فإنه كان يسكن هناك .

(**رحبة أقبغا**) هذه الرحبة هى الآن سوق الخيميين ، وهى من جملة رحبة الجامع الأزهر التى مر ذكرها . عرفت بالأمير أقبغا عبد الوأحد استادارا الملك الناصر وصاحب المدرسة الاقبغاوية .

(**رحبة مقبل**) هذه الرحبة كانت تعرف بخط بين المسجدين . لان هناك مسجدين . أحدهما يقابل الآخر ، ويسلك من هذه الرحبة إلى سويقة الباطلية ، وإلى زقاق تريده ، وعرفت أخيرا بالأمير زين الذين مقبل الرومى أمير جاندار الملك الظاهر برقوق .

(**رحبة ألدمر**) هذه الرحبة فى الدرب أول سوق رالفرايين مما يلى الأكفانيين . عرفت بالأمير سيف الدين الدمر الناصرى المقتول بمكة .

(**رحبة قردية**) هذه الرحبة بخط الأكفانيين تجاه دار الأمير قردية الجمدار الناصرى ، وكانت هذه الدار تعرف قديما بالأمير سنجر الشكارى ، وله أيضا مسجد معلق يدخل من تحته إلى الرحبة المذكورة ، وهناك اليوم قاعة الذهب التى فيها الذهب الشريط لعمل المزركش .

(**رحبة المنصوري**) قبالة دار المنصورى . عرفت بالأمير قطلوبغا المنصورى القمدم ذكره .

(**رحبة المشهد**) هذه الرحبة تجاه المشهد الحسينى . كانت رحبة فيما بين باب الديلم أحد أبواب القصر . الذى هو الآن المشهد الحسينى ، وبين اصطبل الطارمة .

(**رحبة أبي البقاء**) هذه الرحبة من جملة رحبة باب العيد تجاه باب كتيلة بخط السفينة . عرفت بقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى بن على بن تمام السبكى الشافعى ومولده فى سنة سبع وسبعمائة ، أحد العلماء الأكابر . تقلد قضاء القضاة ديار مصر والشام .

(**رحبة الحجازية**) هذه الرحبة تجاه المدرسة الحجازية تجاه قصر بشتاك ، وهى من جملة القضاء الذى بين القصرين .

(**رحبة سلار**) تجاه حمام البيسرى ودار الأمير سلار نائب السلطنة هى أيضا من جملة الفضاء الذى كان بين القصرين .

(**رحبة الفخري**) هذه الرحبة بخط السافورى تجاه دار الأمير سيف الدين قطلوبغا الطويل الفخرى السلاح دار الأشرفى أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون .

(**رحبة الاكز**) بخط الكافورى . هذه الرحبة تجاه دار الأمير سيف الدين الاكز الناصرى الوزير ، وتعرف أيضا برحبة الأبو بكرى النها تجاه دار الأمير سيف الدين الأبو بكرى السلاح دار الناصرى ، وهى شارعة فى الطريق . يسلك إليها من دار الأمير تنكز ، ويتوصل منها إلى دار الأمير مسعود وبقية الكافورى .

(**رحبة جعفر**) هذه الرحبة تجاه حارة برجوان يشرف عليها شباك مسجد تزعم العوام أن فيه قبر جعفر الصادق وهو كذب مختلق وافك مفترى . ما اختلف أحد من أهل العلم بالحديث والآثار والتاريخ والسير أن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مات قبل بناء القاهرة بدهر ، وذلك أنه مات سنة ثمان وأربعين ومائة ، والقاهرة بلا خلاف اختطت فى ثمان وخمسين وثلاثمائة بعد موت جعفر الصادق بنحو مائتى سنة رعشر سنين ، والذى أظنه أن هذا موضع قبر جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى المكنى بأبى محمد . الملقب بالمظفر ، ولما ولى أخوه الأفضل ابن أمير الجيوش الوزراة من بعد أبيه جعل أخاه المظفر جعفرا يلى العلاقة عنه ، ونعت بالأجل المظفر سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين أبى محمد جعفر بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وتوفى ليلة الخميس لسبع خلون من جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة مقتولا . يقال قلته خادمه جوهر بمباطنة من القائد أبى عبد الله محمد بن فاتك البطايحى ، ويقال بل كان يخرج فى الليل يشرب . فجاء ليلة وهو سكران فمازجه دراب حارة برجوان وتراميا بالحجارة . فوقعت ضربة فى جنبه آلت به إلى الموت ، والذى نقل أنه دفن بتربة أبيه أمير الجيوش . فإما أن يكون دفن هنا أولا ، ثم نقل أو لم لم يدفن هنا ، ولكنه من جملة ما ينسب إليه فإنه بجوار دار المظفر التى من جملتها دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسى وما قاربها . كما ستقف عليه إن تشاء الله تعالى عند ذكر دار المظفر .

(**رحبة الأفيال**) هذه الرحبة من جملة حارة برجوان. يتوصل إليها من رأس الحارة، ويسلك فى حدرة الزاهدى إليها وأدركتها ساحة كبيرة، والمشيخة تسميها رحبة الأفيال، وكذا يوجد فى مكاتب الدور القديمة. ويقال إن الفيلة فى أيام الخلفاء كانت تربط بهذه الرحبة أمام دار الضيافة، ولم تزل خربة إلى ما بعد سنة سبعين وسبعمائة. فعمر بها دويرات، ووجد فيها بئر متسعة ذات وجهين تشبه أن تكون البئر التى كانت سواس الفيلة يستقون منها، ثم طمت هذه البئر بالتراب.

(**رحبة مازن**) هذه الرحبة بحارة برجوان تجاه باب دار مازن التى خربت، وفيها المسجد المعروف بمسجد بنى الكويك.

(**رحبة أقوش**) هذه الرحبة بحارة برجوان تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى التى حل وقفها بهاء الدين محمد بن البرجى، ثم بيعت من بعده ومات أقوش سنة خمس وسبعمائة.

(**رحبة برلغي**) هذه الرحبة عند باب سر المدرسة القراسنقرية تجاه دار الأمير سيف الدين برلغى الصغير صهر الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وهذه الرحبة من جملة خط دار الوزارة.

(**رحبة لؤلؤ**) هذه الرحبة بحارة الديلم فى الدرب الذى بخط ابن الزلابى وهى تجاه دار الأمير بدر الدين لؤلؤ الزردكاش الناصرى، وهو من جملة من فر مع الأمير قراسنقر، وأقوش الأفرم إلى ملك التتربوسعيد.

(**رحبة كوكاي**) هذه الرحبة بحارة زويلة عرفتِ بالأمير سيف الدين كوكاى السلاح دار الناصرى، وفيها البئر القطبية الجديدة.

(**رحبة ابن أبي ذكري**) هذه الرحبة بحارة زويلة، وهى التى فيها البئر السائلة بالقرب من المدرسة العاشورية عرفت بالأمير ابن أبى ذكرى، وهى من الرحاب القديمة التى كانت أيام الخلفاء، وبها الآن سوق حارة اليهود القرايين.

(**رحبة بيبرس**) هذه الرحبة يتوصل إليها من سويقة المسعودى، ومن حمام ابن عبود. عرفت بالملك المظفر ركن الدين بيبرش الجاشنكير فان بصدرها داره التى كانت سكنه قبل أن يتقلد سلطنة ديار مصر، وقد حل وقفها وبيعت.

(**رحبة بيبرس الحاجب**) هذه الرحبة بخط حارة العدوية عند باب سر الصاغة عرفت بالأمير بيبرس الحاجب لان داره بها وبيبرس هو الذى ينسب إليه غيط الحاجب بجوار قنطرة الحاجب، وبهذه الرحبة الآن فندق الأمير الطواشى أمام الدور السلطانية زين الدين مقبل، وبه صار الآن هذا الخط يعرف بخط فندق الزمام بعد ما كنا نعرفه يعرف بخط رحبة بيببرس الحاجب.

(**رحبة الموفق**) تعرف هذه الرحبة بحارة زويلة تجاه دار الصاحب الوزير موفق الدين أبى البقاء هبة الله ابن إبراهيم المعروف بالموفق الكبير، وهى بالقرب من خوخة الموفق المتوصل منها إلى الكافورى من حارة زويلة.

(**رحبة أبي تراب**) هذه الرحبة فيما بين الخرشتف وحارة برجوان تشبة أن تكون من جملة الميدان أدركتها بها كيمان تراب، وسبب نسبتها إلى أبى تراب أن هناك مسجدا من مساجد الخلفاء الفاطميين تزعم العامة ومن لاخلاق له أن به قبر أبى تراب النخشبى، وهذا القول من أبطل الباطل وأقبح شىء فى الكذب، فإن أبا تراب النخشبى هوو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى صحب حاتما الأصم وغيره، وهو من مشايخ الرسالة ومات بالبادية نهشته السباع سنة خمس وأربعين ومائتين قبل بناء القاهرة بنحو مائة وثلاث سنين، وقد أخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطباء المخزومى خال أبى رحمه الله قبل أن يختلط قال: أخبرنى مؤدبى الذى قرأت عليه القرآن أن هذا المكان كان كوما وأن شخصا حفر فيه ليبنى عليه دارا فظهرت له شرافات فمازال يتبع الحفر حتى ظهر هذا المسجد. فقال الناس هذا أبو تراب من حينئذ، ويؤيد ما قال أنى أدركت هذا والمسجد محفوفا بالكيمان من جهاته وهو نازل فى الأرض ينزل إليه بنحو عشر درج وما برح كذلك إلى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة. فنقلت الكيمان التراب التى كانت حوله وعمر مكانها ما هنالك من دور، وعمل عليها درب من بعد سنة تسعين وسبعمائة وزالت الرحبة والمسجد على حاله، وأنا قرأت على بابه فى رخامة قد نقش عليها بالقلم الكوفى عدة أسطر تتضمن أن هذا قبر أبى تراب حيدرة بن المستنصر بالله أحد الخلفاء الفاطميين، وتاريخ ذلك فيما أظن بعد الأربعمائة، ثم لما كان فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة سولت نفس بعض

السفهاء من العامة له أن يتقرب بزعمه إلى الله تعالى بهدم هذا المسجد ويعيد بناءه فجبى الناس مالا شحذه منهم وهدم المسجد، وكان بناء حسنا وردمه بالتراب نحو سبعة أذرع حتى ساوى الأرض التى تسلك المارة منها، وبناه هذا البناء الموجود الآن. وبلغنى أن الرخامة التى كانت على الباب نصبوها على شكل قبر أحدثوه فى هذا المسجد، وبالله إن الفتنة بهذا المكان وبالمكان الآخر من حارة برجوان الذى يعرف بجعفر الصادق لعظيمة، فإنهما صارا كالأنصاب التى كانت تتخذها مشركوا العرب. يلجأ إليهما سفهاء العامة والنساء فى أوقات الشدائد، وينزلون بهذين الموضعين كربهم وشدائدهم التى لا ينزلها العبد إلا بالله ربه ويسألون فى هذين الموضعين مالا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده من وفاء الدين من غير جهة معينة وطلب الولد ونحو ذلك، ويحملون النذور من الزيت وغيره إليهما ظنا أن ذلك ينجيهم من النكارة ويجلب إليهم المنافع، ولعمرى إن هى إلا كرة خاسرة ولله الحمد على السلامة.

(**رحبة أرقطاي**) هذه الرحبة بحارة الروم قدام دار الأمير الحاج أرقطاى نائب السلطنة بالديار المصرية.

(**رحبة ابن الضيف**) هذه الرحبة بحارة الديلم وهى من الرحاب القديمة عرفت بالقاضى أمين الملك إسماعيل بن أمين الدولة الحسن بن على بن نصر بن الضيف، وفى هذه الرحبة الدار المعروفة بأولاد الأمير طنبغا الطويل بجوار حكر الرصاصى، وتعرف هذه الرحبة أيضا بحمدان البزاز وبابن المخزومى.

(**رحبة وزير بغداد**) هذه الرحبة بدرب ملوخيا. عرفت بالأمير الوزير نجم الدين محمود بن على بن شردين المعروف بوزير بغداد. قدم إلى مصر يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، هو وحسام الدين حسن بن محمد بن محمد الغورى الحنفى فارين من العراق بعد قتل موسى ملك التتر. فأنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون بإقطاع إمرة تقدمة ألف مكان الأمير طازبغا عند وفاته فى ليلة السبت عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة. فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون وقام فى الملك من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر بن محمد قلد الوزارة بالديار المصرية للأمير نجم الدين محمود وزير بغداد

فى يوم الإثنين ثالث عشر المحرم سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، وبنى له دار الوزارة بقلعة الجبل وأدركناها دار النيابة ، وعمل له فيها شباك يجلس فيه ، وكان هذا قد أبطله الملك الناصر محمد ، وخربت قاعة الصاحب فلم يزل إلى أن صرف فى أيام الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون عن الوزارة بالأمير ملكتمر السرجوانى فى مستهل رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، ثم أعيد فى آخر ذى الحجة بعد تمنع منه ، واشترط أن يكون جمال الكفاة ناظر الخاص معه بصفة مشير فأجيب إلى ذلك . فلما قبض على جمال الكفاة صرف وزير بغداد وولى بعده الوزارة الأمير سيف الدين أيتمش الناصرى فى يوم الأربعاء عشرى ربيع الآخر سنة خمس وأربعين بحكم استعفائه منها . فباشرها أيتمش قليلا وسأل أن يعفى من المباشرة فأعفي ، وذلك لقلة المتحصل وكثرة المصروف فى الإنعام على الجوارى والخدام وحواشيهم ، وكانت الكلف فى كل سنة ثلاثين ألف ألف دينار والمتحصل خمسة عشر ألف ألف نحو النصف ومرتب السكر فى شهر رمضان كان ألف قنطار فبلغ ثلاثة الأف قنطار .

(**رحبة الجامع الحاكمي**) هذه الرحبة من غير قاهرة المعز التى وضعها القائد جوهر ، وكانت من جملة الفضاء الذى كان بين باب النصر والمصلي ، فلما زاد أمير الجيوش بدر الجمالى فيه صارت من داخل باب النصر الآن ، وكانت كبيرة فيما بين الحجر والجامع الحاكمى ، وفيما بين باب النصر القديم وباب النصر الموجود الآن ثم بنى فيها المدرسة القاصدية التى هى تجاه الجامع وما فى صفها إلى حمام الجاولى ، وبنى فيها الشيخ قطب الدين الهرماس دارا ملاصقة لجدار الجامع ، ثم هدمت كما سيأتى فى خبرها إن شاء الله تعالي ، عند ذكر الدور ، وفى موضعها الآن الربع والحوانيت سفله والقاعة الجارى ذلك فى أملاك ابن الحاجب وأدركت إنشاءها فيما بعد سنة ثلاثين ، وهذه الرحبة تؤخذ أجرتها الجهة وقف الجامع .

(**رحبة كتبغا**) هذه الرحبة من جملة اصطبل الجميزة ، وهى الآن من خط الصيارف يسلك إليها من الجملون الكبير بسوق الشرابشيين ومن خط طواحين الملحيين وغيره . عرفت بالملك العادل زين الدين كتبغا فإنها تجاه داره التى كان يسكنها وهو أمير قبل ان يستقر فى السلطنة وسكنها بنوه من بعده فعرفت به ثم حل وقفها فى زمننا وبيعت .

(**رحبة خوند**) هذه الرحبة بآخر حارة زويلة فيما بينها وبين سويقة المسعودى . يتوصل إليها من درب الصقالبة ومن سويقة المسعودى، وهى من الرحاب القديمة . كانت تعرف فى أيام الخلفاء برحبة ياقوت . وهو الأمير ناصر الدولة ياقوت والى قوص أحد أجلاء الأمراء . ولما قام طلائع بن رزيك بالوزارة فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة هم ناصر الدولة ياقوت بالقيام عليه . فبلغ طلائع الملقب بالصالح ابن رزيك ذلك فقبض عليه وعلى أولاده واعتقلهم فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى ذى الحجة سنة اثنين وخمسن وخمسمائة . فلم يزل فى الاعتقال إلى أن مات فيه يوم السبت سابع عشر رجب سنة ثلاث وخمسين فأخرج الصالح أولاده من الاعتقال وأمرهم وأحسن إليهم، ثم عرفت هذه الرحبة من بعده بولده الأمير ربيع الإسلام محمد بن ياقوت ، ثم عرفت فى الدولة الأيوبية برحبة ابن منقذ وهو الأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، ثم عرفت برحبة الفلك المسيرى ، وهو الوزير فلك الدين عبد الرحمن المسيرى وزير الملك العادل أبى بكر بن المالك العادل بن أيوب ، ثم عرفت الآن برحبة خوند وهى الست الجليلة اردوتكين ابنة نوغيه السلاح دار زوج الملك الأشرف خليل بن قلاون وامرأة أخيه من بعده الملك الناصر محمد ، وهى صاحبة تربة الست خارج باب القرافة، وكانت خيرة وماتت أيما فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة .

(**رحبة قرا سنقر**) هذه الرحبة برأس حارة بهاء الدين تجاه دار الأمير قراسنقر ، وبها الآن حوض تشرب منه الدواب .

(**رحبة بيغرا**) بدرب ملوخيا عرفت بالأمير سيف الدين بيغرا لانها تجاه داره .

(**رحبة الفخري**) بدرب ملوخيا عرفت بالأمير منكلى بغا الفخرى صاحب التربة بظاهر باب النصر . لأنها تجاه داره .

(**رحبة سنجر**) هذه الرحبة بحارة الصالحية فى آخر درب المنصورى عرفت بالأمير سنجر الجمقدار علم الدين الناصرى لأنها تجاه داره، ثم عرفت برحبة ابن طرغاى، وهو الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير سيف الدين طرغاى الجاشنكير نائب طرابلس .

(**رحبة ابن علكان**) هذه الرحبة بالجودرية فى الدرب المجاور للمدرسة الشريفية . عرفت بالأمير شجاع الدين عثمان بن علكان الكردى زوج ابنه الأمير يازكوج الأسدى وبابنه منها الأمير ابو عبد الله سيف الدين محمد ابن عثمان ، وكان خيرا استشهد على غزة بيد الفرنج

فى غرة شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وكانت داره ودار أبيه بهذه الرحبة ثم عرفت بعد ذلك برحبة الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى .

(**رحبة أزدمر**) بالجودرية هذه الرحبة بالدرب المذكوز أعلاه عرفت بالأمير عز الدين أزدمر الأعمى الكاشف لأنها كانت أمام داره .

(**رحبة الأخناي**) هذه الرحبة فيما بين دار الديباج والوزيرية بالقرب من خوخة أمير حسين . عرفت بقاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن قاضى القضاة علم الدين محمد بن أبى بكر بن عيسى بن بدران الأخناى المالكى . لأنها تجاه داره ، وقد عمر عليها درب فى أعوام بضع وتسعين وسبعمائة .

(**رحبة باب اللوق**) رحاب باب اللوق خمس رحاب ينطلق عليها كلها الآن رحبة باب اللوق ، وبها تجتمع أصحاب الحلق وأرباب الملاعب والحرف كالمشعبذين والمخايلين والحواة والمتأفقين وغير ذلك فيحشر هنا لك من الخلائق للفرجة ولعمل الفساد مالا ينحصر كثرة ، وكان قبل ذلك فى حدود ما قبل الثمانين وسبعمائة من سنى الهجرة إنما تجتمع الناس لذلك فى الطريق الشارع المسلوك من جامع الطباخ بالخط المذكور إلى قنطرة قدادار .

(**رحبة التبن**) هذه الرحبة قريبة من رحبة باب اللوق فى بحرى منشأة الجوانية شارعة فى الطريق العظمى المسلوك فيها من رحبة باب اللوق إلى قنطرة الدكة ، ويتوصل إليها السالك من عدة جهات ، وكانت هذه الرحبة قديما تقف بها الجمال بأحمال التبن لتباع هناك ، ثم اختطت وعمرت بها سويقة كبيرة عامرة بأصناف المأكولات ، والخط إنما يعرف برحبة التبن ، وقد خرب بعد سنة ست وثمانمائة .

(**رحبة الناصرية**) هذه الرحبة كانت فيما بين الميدان السلطانى والبركة الناصرية أيام كانت تلك الخطة عامرة ، وكان يتفق فى ليالى أيام ركوب السلطان إلى الميدان فى كل سنة من الاجتماع والأنس ماستقف على بعض وصفه عند ذكر المتنزهات إن شاء الله تعالى ، وقد خربت الأماكن التى كانت هناك ، وجهلت هذه الرحبة إلاعند القليل من الناس .

(**رحبة أرغون أزكه**) والعامة تقول رحبة أزكى بياء ، وهى رحبة كبيرة بالقرب من البركة الناصرية وهذه الرحبة وما حولها من جملة بستان الزهرى الآتى ذكره إن شاء الله فى الأحكار ، وعرفت بالأمير أرغون أزكى .

ذكر الدور

قال ابن سيدة: الدار المحل يجمع البناء والعرصة التى هى من دار يدور لكثرة حركات الناس فيها، والجمع أدور وأدؤر وديار وديارات وديران ودور ودورات، والدارة لغة فى الدار والدار البلد والمبيت من الشعر مازاد على طريقة واحدة، وهو مذكر يقع على الصغير والكبير وقد يقال للمبنى من غير الأبنية التى هى الأخبية بيت، وجمع البيت أبيات وأنابيب وبيوت وبيوتات والبيت أخص من الدار. فكل دار بيت ولا ينعكس، ولم تكن العرب تعرف البيت إلا الخباء، ثم لما سكنوا القرى والأمصار وبنوا بالمدور اللبن سموا منازلهم التى سكونها دورا وبيوتا، وكانت الفرس لا تبيح شريف البنيان كما لا تبيح شريف الأسماء إلا لأهل البيوتات كصنيعهم فى النواويس والحمامات والقباب الخضر والشرف علىَ حيطان الدار وكالعقد على الدهليز.

(**دارالأحمدي**) هذه الدار من جملة حارة بهاء الدين، وبها مشترف عال فوق بدنه من بدنات سور القاهرة ينظر منه أرض الطبالة وخارج باب الفتوح، وهى إحدى الدور الشهيرة عرفت بالأمير بيبرس الأحمدى.

(**بيبرس الأحمدي**) ركن الدين أمير جاندار تنقل فى الخدم أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أن صار أمير جاندار أحد المقدمين. فلما مات الملك الناصر قوى عزم قوصون على إقامة الملك المنصور أبى بكر بعد أبيه، وخالف بشتاك. فلما نسب المنصور إلى اللعب حضر إلى باب القصر بقلعة الجبل وقال: أى شىء هذا اللعب؟ فلما ولى الناصر أحمد أخرجه لنيابة صفد فأقام بها مدة ثم أحس من الناضر أحمد بسوء فخرج من صفد بعسكره إلى دمشق وليس بها نائب فهم الأمراء بإمساكه ثم أخروا ذلك وأرسلوا إليه الإقامة فقدم البريد من الغد بإمساكه فكتب الأمراء من دمشق إلى السلطان يشفعون فيه فعاد الجواب بأنه لابد من القبض عليه ونهب ماله وقطع رأسه وإرساله فابوا من ذلك وخلعوا

الطاعة وشقوا العصا جميعا . فلم يكن بأسرع من ورود الخبر من مصر بخلع الناصر احمد وإقامه الصالح إسماعيل فى الملك بدله والأحمدى مقيم بقصر تنكز من دمشق فورد عليه مرسوم بنيابة طرابلس فتوجه إليها وأقام بها نحو الشهرين، ثم طلب إلى مصر فسار إليها وأخرج لمحاصرة احمد بالكرك فحصره مدة ولم ينل منه شيئا ، ثم عاد إلى القاهرة فأقام بها حتى مات فى يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم سنة ست وأربعين وسبعمائة وله من العمر نحو الثمانين سنة ، وكان أحد الابطال الموصوفين بقوة النفس وشدة العزم ومحبة الفقراء وإيثار الصالحين ، وله مماليك قد عرفوا بالشجاعة والنجدة ، وكان ممن يقتدى برأيه وتتبع آثاره لمعرفته بالأيام والوقائع وما برحت ذريته بهذه الدار إلى الآن وأظنها موقوفة .

(دار قراسنقر) هذه الدار برأس حارة بهاء الدين أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر ، وبها كان سكنه ، وهى إحدى الدور الجليلة ، ووجد بها فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة لما أحيط بها اثنان وثلاثون الف الف دينار ومائة الف وخمسون الف ذرهم فضة وسروج مذهبة وغير ذلك ، فحمل الجميع إلى بيت المال ، ولم تزل جارية فى أوقاف المدرسة القراسنقرية إلى أن اغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فيما اغتصب من الأوقاف ، وجعلها وقفا على مدرسته التى انشأها برحبة باب العيد . فلما قتله الملك الناصر فرج بن برقوق وارتجع ما خلفه وصار فى جملة السلطانية ، ثم أفرد من الأوقاف التى جعلها جمال الدين على مدرسته شيئاً وجعل باقيها لأولاده وعلى تربته التى أنشأها على قبر أبيه الظاهر برقوق بالصحراء تحت الجبل خارج باب النصر . فلما قتل الملك الناصر فرج صارت هذه الدار بيد الأمير طوغان الدوادار وكانوا كسارق من سارق وما من قتيل يقتل إلا وعلى ابن آدم الاول كفل منه . لانه أول من سن القتل .

(دار البلقيني) هذه الدار تجاه مدرسة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى من حارة بهاء الدين أنشأها قاضى قضاة العساكر بدر الدين محمد بن شيخ الاسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينى الشافعى ، ومات فى يوم الخميس لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة

إحدى وتسعين وسبعمائة، ولم تكمل فاشتراها أخوه قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام وكملها، وبها الآن سكنة، وهى من أجل دور القاهرة صورة ومعني، وقد ذكرت الأخوين وأباهما فى كتابى المنعوت بدرر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة فانظر هناك اخبارهم.

(دارمنكوتمر) هذه الدار بحارة بهاء الدين بجوار المدرسة المنكوتمرية أنشأها الأمير منكوتمر نائب السلطنة بجوار مدرسته الآتى ذكرها عند ذكر المدارس إن شاء الله تعالى وهى من الدور الجليلة، وبها إلى اليوم بعض ذريته وهى وقف.

(دارالمظفر) هذه الدار كانت بحارة برجوان أنشأها أمير الجيوش بدر الجمالى إلى أن مات. فلما ولى الوزارة من بعده ابنه الأفضل ابن أمير الجيوش وسكن دار القباب التى عرفت بدار الوزارة وقد تقدم ذكرها صار أخوه المظفر أبو محمد جعفر بن أمير الجيوش بهذه الدار فعرفت به، وقيل لها دار المظفر وصارت من بعده دار الضيافة كما مر فى هذا الكتاب، وآخر ما أعرفه أنها كانت ربعا وحماما وخرائب. فسقط الربع بعد سنة سبعين وسبعمائة، وكانت الحمام قد خرجت قبل ذلك، فلم تزل خرابا إلى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة فشرع قاضى القضاة شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى الحنفى فى عمارتها. فلما حفر اساس جداره القبلى ظهر تحت الردم عتبة عظيمة من حجر صوان مانع يشبه أن يكون عتبة دار المظفر، وكان الأمير جهاركس الخليلى إذ ذاك يتولى عمارة المدرسة التى أنشأها الملك الظاهر برقوق بخط بين القصرين. فبعث بالرجال لهذه العتبة وتكاثروا على جرها إلى العنارة فجعلها فى المزملة التى تشرب منها الناس الماء بدهليز المدرسة الظاهرية، وكمل قاضى القضاة شمس الدين بناء داره. حيث كانت دار المظفر فجاءت من أحسن دور القاهرة، وتحول إليها بأهله وما زال فيها حتى مات بها وهو متقلد وظيفة قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية فى ليلة السبت الثامن عشر من ذى الحجة سنة تسع وتسعين وسبعمائة وله من العمر سبعون سنة وأشهر، ومولده بطرابلس الشام، وأخذ الفقة على مذهب أبى حنيفة رحمه الله عن جماعة من أهل طرابلس ثم خرج منها

إلى دمشق فقرأ على صدر الدين محمد بن منصور الحنفى، ووصل إلى القاهرة وقاضى الحنفية بها قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركمانى فلازمه، وولاه العقود وأجلسه ببعض حوانيت الشهود فتكسب ممن تحمل الشهادة مدة، وقرأ على قاضى القضاة سراج الهدى ولازمه فولاه نيابة القضاء بالشارع. فباشرها مباشرة مشكورة وأجازه العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفى بالإفتاء والتدريس. فلما مات صدر الدين بن منصور قلده الملك الظافر برقوق قضاء القضاة مكانه فى يوم الإثنين ثانى عشرى شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين وسبعمائة. فباشر القضاء بعفة وصيانة وقوة فى الأحكام لها النهاية ومهابة وحرمة وصوله تذعن لها الخاصة والعامة إلى أن صرف فى سابع عشر رمضان سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بشيخنا قاضى القضاة مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم التركمانى. فلم يزل إلى ان عزل مجد الدين وولى من بعده قاضى القضاة وناظر الجيوش جمال الدين محمود القيصرى، وهو ملازم داره وما بيده من التدريس، وهو على حال حسنة وتجلد من الكافة إلى أن استدعاه السلطان فى يوم الثلاثاء تاسع شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وسبعمائة فقلده وظيفة القضاء عوضا عن محمود القيصرى فلم يزل حتى مات من عامة رحمة الله تعالى، وهذه الدار على يسرة من سلك من باب حارة برجوان طالبا المسجد المسمى بجعفر، وأما الحمام فإنها فى مكانها اليوم ساحة بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين، ومن جملة حقوق دار المظفر رحبة الأفيال وحدرة الزاهدى إلى الدار المعروفة بسكنى قريبا من حمام الرومى.

(**دار ابن عبد العزيز**) هذه الدار بحارة برجوان على يمنه من سلك من باب الحارة طالبا حمام الرومى هى أيضا من جملة دار المظفر كانت طاحونا ثم خربت. فابتدأ عمارتها فخر الدين أبو جعفر محمد بن عبد اللطيف ابن الكويك ناظر الأحباس، ومات ولم تكمل فصارت لامرأته وابنة عمه خديجة. فماتت فى رجب سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وقد تزوجت من بعده بالقاضى الرئيس بدر الدين حسن ابن عبد العزيز بن عبد الكريم بن أبى طالب بن على بن عبد الله بن سيدهم النجمى السيراونى فانتقلت إليه ومات فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة فى العشرين من جمادى الأولى وورثه من بعد موته كريم الدين ابن أخيه وهو عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد الكريم بن أبى طالب بن على بن عبد الله بن

سيدهم ومات آخر ربيع الاول سنة سبع وثمانمائة عن سبعين سنة، وولى نظر الجيوش بديار مصر للظاهر بوقوق فباعها لقريبه. شمس الدين محمد بن عبدالله بن عبد العزيز وكملها وسكنها مدة طويلة إلى أن باعها فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة بألفى دينار ذهبا لخوند فاطمة ابنة الأمير منجك فوقفتها على عتقائها، وهى إلى اليوم بيدهم، وتعرف ببيت ابن عبدالعزيز المذكور لطول سكنه بها، وكان خيرا عارفا يلى كتابة ديوان الجيش وعدة مباشرات ومات ليلة الثانى عشر من صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة.

(**دار الجمقدار**) هذه الدار على يسره. من سلك من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومى. عرفت بالأمير علن الدين سنجر الجمقدار من الأمراء البرجية، وقدمه الملك الناصر محمد تقدمه ألف بعد مجيئه من الكرك. فحضر معهم واستقر من الأمراء بالديار المصرية إلى أن مات يوم الجمعة تاسع رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وقد كبر وارتعش وكان روميا ألثغ، ثم صار لخالد بن الزواد المقدم، فلما قبض عليه ومات فى ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين وسبعمائة تحت المقارع ارتجعت عنه لديوان السلطان حسن. فصارت فى يد ورثته إلى أن باع بعض أولاده اسهما منها فاشتراها الأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة ثم تنقلت وبعضها وقف بيد أولاد السلطان حسن بن محمد بن قلاوون إلى أن ملك ما تملك منها بالشراء قاضى القضاة عماد الدين أحمد بن عيسى الكركى، وسكنها إلى أن سافر. فصارت من بعده لورثته فباعوها للشيخ زين الدين أبى بكر القمنى، وهى بيده الآن.

(**دار أقوش**) الرومى بحارة برجوان. هذه الدار من أجل دور القاهرة، وبابها من نحاس بديع الصنعة بشبه باب المارستان المنصورى، وكان تجاهها اصطبل كبير يعلوه ربع فيه عدة مساكن عرفت بالأمير جمال الدين أقوش الرومى السلاح دار الناصرى، وتوفى سنةسبع وسبعمائة، وهى مما وقفه على تربته بالقرافة، وقد خرب اصطبلها وعلوه وبيع نقض ذلك، وتداعت الدار أيضا للسقوط فبيعت أنقاضا، وصارت من جملة الأملاك.

(**دار بنت السعيدي**) هذه الدار بحارة برجوان عرفت بقاعة حنيفةبنت السعيدى إلى أن اشتراها شهاب الدين أحمد بن طوغان دوادار الأمير سودون الشيخونى نائب السلطان فى

سنة تسع وتسعين وسبعمائة، فأخذ عدة مساكن مما حولها وهدمها وصيرها ساحة بها فصارت من أعظم الدور اتساعا وزخرفة، وفيها آبار سبعة معينة وفسقية ينقل إليها الماء بساقية على فوهة بئر، ومازال صاحبها شهاب الدين فيها، إلى أن سافر إلى الإسكندرية فى محرم سنة ثمان وثمانمائة فمات رحمه الله، وانتقلت من بعده لغير واحد بالبيع.

(**دارالحاجب**) هذه الدار فيما بين الخرشتف وحارة برجوان. كان مكانها من جملة الميدان، وكان يسلك من حارة برجوان فى طريق شارعه إلى باب الكافورى فلما عمر الأمير بكتمر هذه الدار جعل اصطبلها حيث كانت الطريق، وركب باب بخوخة مما يلى حارة برجوان، واشترط عليه الناس أن لا يمنع المارة من سلوك هذا المكان فوفى بما اشترط، وما برح الناس يمرون من هذا الطريق فى وسط الاصطبل على باب داره سالكين من حارة برجوان إلى الكافورى والخرشتف، ومنها إلى حارة برجوان، وأنا سلكت من هذه الطريق غير مرة، وكان يقال لها خوخة الحاجب، ثم لما طال الأمد وذهبت المشيخة نسيت هذه الطريق، وقفل الباب وانقطع سلوك الناس منه، وصارت تلك الطريق من جملة حقوق الدار وما برحت هذه الدار ينصب على بابها الطوارق دائما ـ كما كانت عادة دور الأمراء فى الزمن القديم. فلما تغيرت الرسوم وبطل ذلك قلعت الطوارق من جانبى الباب وأعلى أسكفته، وباب هذه الدار تجاه الكافورى، وعرفت بالأمير سيف الدين بكتمر الحاجب صاحب الدار خارج باب النصر والمدرسة بجواره، ثم حل وقفها سنة ثمان وعشرين وثمانمائة، وبيعت كما بيع غيرها من الأوقاف وهناك ترى ترجمته.

(**دار تنكز**) هذه الدار بخط الكافورى. كانت للأمير أيبك البغدادى، وهى من أجل دور القاهرة وأعظمها. أنشأها الأمير تنكز نائب الشام، وأظنه اوقفها فى جملة ما أوقف، وكان بها ولده وسكنها قاضى القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة فأنفق فى زخرفتها على ما أشيع سبعة عشر ألف درهم. عنها يومئذ ما ينيف عن سبعمائة دينار مصرية، ولم تزل هذه الدار وقفا الى أن يبعت على أنها ملك فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة بدون ألف دينار لزين الدين عبد الباسط بن خليل فجدد بناءها، وبنى تجاهها جامعة.

(**تنكز الأشرفي**) سيف الدين أبو سعيد خليل جلبه إلى مصر وهو صغير الخواجا علاء الدين السوسى فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون فلما ملك السلطان الناصر

محمد بن قلاوون أمره عشرة قبل توجهه إلى الكرك، وسافر معه إلى الكرك وترسل عنه منها إلى الأفرم. فاتهمه أن معه كتبا إلى الأمراء بالشام، وعرض عليه العقوبة فأرجف منه وعاد إلى الناصر. فقال له: ان عدت إلى الملك فأنت نائب دمشق. فلما عاد إلى الملك جهزه إلى دمشق فوصلها في العشرين من ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وسبعمائة فباشر النيابة وتمكن فيها، وسار بالعساكر إلى ملطية، وافتتحها في محرم سنة خمس عشرة، وعظم شأنه وأمن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميا. فضلا عن ملسم خوفا من بطشة وشدة عقوبته، وكان السلطان لا يفعل شيئا بمصر إلا ويشاوره فيه وهو بالشام، وقدم غير مرة على السلطان فأكرمه وأجله. بحيث أنه أنعم عليه في قدومه إلى مصر سنة ثلاث وثلاثين بما مبلغه ألف ألف درهم وخمسون ألف درهم. عنها خمسون ألف دينار وتيف سوى الخيل، وزادات أملاكه وسعادته وأنشأ جامعا بدمشق بديع الوصف بهيج الزى، وعدة مواضع وكان الناس في أيامه قد أمنوا كل سوء. إلا أنه كان يتخيل خيالا فيحتد خلقه ويشتد غضبه فهلك بذلك كثير من الناس، ولا يقدر أحد أن يوضح له الصواب لشدة هيبته، وكان إذا غضب لا يرضى ألبته بوجه، وإذا بطش كان بطشه بطش الجبارين، ويكون الذنب صغيرا فلا يزال يكبره حتى يخرج في عقوبة فاعلة عن الحد، ولم يزل إلى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور إلى بلاد الططر. فبلغ ذلك السلطان فتنكر له وجهز إليه من قبض عليه من ثالث عشرى بذى الحجة سنة اربعين، وأحيط بماله وقدم الأمير بشتاك إلى دمشق لقبضه، وخرج إلى مصر ومعه من مال تنكز، وهو من الذهب العين ثلاثمائة ألف وستة وثلاثون ألف دينار، ومن الدراهم ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ومن الجوهر واللؤلؤ والزركش والقماش ثمانمائة حمل، ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله اربعون ألف دينار وألف ألف ومائة ألف درهم، فلما وصل تنكز إلى قلعة الجبل جهز إلى الإسكندرية، واعتقل فيها نحو الشهر، وقتل في محبسه ودفن بها في يوم الثلاثاء حادى عشرى المحرم سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ومن الغريب أنه امسك يوم الثلاثاء ودخل مصر يوم الثلاثاء ودخل الإسكندرية يوم الثلاثاء وقتل يوم الثلاثاء، ثم نقل إلى دمشق فدفن بتربته جوار جامعه ليلة الخامس من رجب سنة أربع وأربعين وسبعمائة بعد ثلاث سنين ونصف بشفاعة ابنته.

(**دار أمير مسعود**) هذه الدار باخر خط الكافورى عرفت بالأمير بدر الدين مسعود بن خطير الرومى أحد الأمراء بمصر أخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون في ذى الحجة سنة

أربعين وسبعمائة إلى نيابة غزة، ثم نقل منها إلى إمرة دمشق وولى نيابة طرابلس، ثم أعيد إلى دمشق، وأصله من أتباع الأمير تنكز، فشكره عند الملك الناصر وقدمه حتى صار أميرا حاجبا. فلما قتل تنكز أخرجه لنيابة غزة وتنقل فى نيابة طرابلس ثلاث مرات الى أن استعفى من النيابة فأنعم عليه بإمره فى دمشق وعلي ولديه بامرة طبلخاناه، ومازال مقيما بها حتى مات فى سابع شوال سنة أربع وخمسين وسبعمائة بدمشق، ومولده بها ليلة السبت سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

(**دار نائب الكرك**) هذه الدار فيما بين خط الخرشتف وخط باب سر المارستان المنصورى، وهى من جملة أرض الميدان عرفت بالأمير أقوش الأشرفى المعروف بنائب الكرك صاحب الجامع.

(**أقوش الأشرفي**) جمال الدين ولاه الملك الناصر محمد بن قلاون نيابة دمشق بعد مجيئه من الكرك، وعزله تنكز بعد قليل واعتقله إلى شهر رجب سنة خمس عشرة وسبعمائة، ثم أفرج عنه وجعله رأس الميمنة وصار يقوم له إذا قدم مميزا عن غيره من الأمراء. وكان لا يلبس مصقولا، ويمشى من داره هذه إلى الحمام، وهو حامل المئزر والطاسة وحده. فيدخل الحمام ويخرج عريانا فاتفق مرة أن رجلا رآه فعرفه وأخذ الحجر وحك رجله وغسله وهو لا يكلمه كلمة واحدة. فلما خرج وصار إلى داره طلب الرجل وضربه وقال له: أنا مالى مملوك. ما عندى غلام. مالى طاسة حتى تتجرأ على أنت، وكان يتوجه إلى معبد له فى الجبل الأحمر وينفرد فيه وحده إليومين والثلاثة، ويدخل منه إلى القاهرة وهو ماش وذيله على كتفه حتى يصل إلى داره، وباشر نظر المارستان المنصورى مباشرة جيدة، ثم أخرجه السلطان إلى نيابة طرابلس فى أول سنة أربع وثلاثين وسبعمائة فأقام بها، ثم طلب الإقالة فأعفى وقبض عليه واعتقل بقلعة دمشق، ثم نقل منها إلى صفد فحبس بها فى برج ثم اخرج منها إلى الإسكندرية فمات بها معتقلا فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة، وكان عسوفا جبارا فى بطشة مات عدة من الناس تحت الضرب قدامه، وكان كريما سمحا إلى الغاية، وعرف بنائب الكرك لأنه أقام فى نيابتها من سنة تسعين وستمائة إلى تسع وسبعمائة.

(**دار ابن صغير**) هذه الدار من جملة الميدان وهى إليوم من خط باب سر المارستان المنصورى أنشأها علاء الدين على بن نجم الدين عبد الواحد بن شرف الدين محمد بن صغير رئيس الأطباء ومات بحلب عندما توجه إليها فى خدمة الملك الظاهر برقوق فى يوم الجمعة تاسع عشر ذى الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة ودفن بها ثم نقلته ابنته إلى القاهرة ودفنته بظاهرها .

(**دار بيبرس الحاجب**) هذه الدار بخط حارة العدوية وهى الآن من خط باب سر المارستان عرفت بالأمير بيبرس الحاجب صاحب غيط الحاجب فيما بين جسر بركة الرطلى والجرف .

(**بيبرس الحاجب**) الأمير ركن الدين ترقى فى الخدم إلى أن صار أميرا خور فلما حضر الملك الناصر من الكرك عزله بالأمير أيدغمش وعمله حاجبا وناب فى الغيبة عن الأمير تنكز بدمشق لما حج ، ثم تجرد إلى إليمن وعاد فتنكر عليه السلطان وحبسه فى ذى القعدة سنة خمس وعشرين وسبعمائة وأفرج عنه فى رجب سنة خمس وثلاثين ، وجهزه من الإسكندرية إلى حلب ، فصار بها أميرا من أمرائها ثم تنقل منها إلى امرة دمشق بعد عزل تنكز فلم يزل بها إلى أن توجه ألفخرى وطشتمر إلى مصر فأقره على نيابة الغيبة بدمشق وكان قد اسن ومات فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وأدركنا له حفيدا يعرف بعلاء الدين أمير على بن شهاب الدين أحمد بن بيبرس الحاجب قرأ القراءات السبع على والده ، وكان حسن الأداء للقراءة ، مشهور بالعلاج بمائة وعشرة أرطال . مات وهو ساح فى سابع ربيع الآخر سنة إحدى وثمانمائة .

(**دار عباس**) هذه الدار كانت فى درب شمس الدولة . عرفت بالوزير عباس بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس اصله من المغرب ، وترقى فى الخدم حتى ولى الغربية ، ولقب بالأمير ركن الإسلام وكانت أمه تحت الأمير المظفر على بن السلار وإلى البحيراء والإسكندرية فلما رحل على بن السلار إلى القاهرة وإزال الوزير نجم الدين سليمان بن مصال من الوزارة ، واستقر مكانه فى وزارة الخليفة الظافر بأمر الله وتلقب بالعادل قدمه لمحاربة بن مصال ، فلم ينل غرضا فخرج إليه عباس حتى ظفر به ، وولى ناصر الدين نصير بن عباس ولاية مصر بشفاعة جدته أم عباس . فاختص به الخليفة الظافر واشتغل بع عمن سواه ، وكان جريا

مقداما فخرج إليه أبو عباس بالعسكر لحفظ عسقلان من الفرنج ومعه من الأمراء ملهم والضرغام وأسامة بن منقذ، وكان أسامة خصيصا بعباس، فلما نزلوا بلبيس تذاكر عباس وأسامة مصر وطيبها وما هم خارجون إليه من مقاساة الغربة ولقاء العدو فتأوه عباس أسفا على مفارقة لذاته بمصر وأخذ يثرب على العادل بن السلار. فقال له أسامة لو أردت كنت أنت سلطان مصر. فقال كيف لى بذلك؟ قال هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع زوج أمك. فانه يحبك ويكرهه فإذا أجابك فاقتله وصر فى منزلته فأعجب ذلك وجهز ابنه لتقرير ما أشار به أسامة فسار إلى القاهرة ودخلها على حين غفلة من العادل، واجتمع بالخليفة وفاوضه فيما تقرر فأجابه إليه ونزل إلى دار جدته، وكان من قتله للعادل على بن سلار ما كان فماج الناس وسرح الطائر من القصر إلى عباس وهو علي بلبيس فى الانتظار فقام من فوره ودخل القاهرة سحر يوم الأحد ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فوجد عدة من الأتراك قد نفروا وخرجوا يدا واحدة إلى الشام فصار إلى القصر وخلع عليه خلع الوزارة. فباشر الأمور وضبط الأحوال وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد، وازدادت مخالطة ولده للخليفة فخاف أن يقتله كما قتل ابن السلار فمازال به حتى قتل الخليفة الظافر كما تقدم ذكره وصار إلى القصر على العادة فلما جلس فى مقطع الوزارة سأل الاجتماع على الخليفة فدخل الزمام إلى دور الحرم فلم يجد الخليفة فلما عاد إليه أحضر أخوى الظافر واتهمها بقتله وقتلهما قدامه، واستدعى بولد الظافر عيسى، ولقبه بالفائز بنصر الله، وكثرت النياحة على الظافر وبحث أهل القصر على كيفية قتله، فكتبوا إلى طلائع بن رزيك وهو وإلى الأشمونين يستدعونه. فحشد وسار فاضطرب عباس وكثرت مناكدة أهل القاهرة له حتى أنه مر يوما فرمى من طاقة تشرف على شارع بقدر مملوء طعاما حارا فعول على ألفرار، وخرج ومعه ابنه واسامه ابن منقذ وجميع مالهم من أتباع ومال وسلاح ودخل طلائع إلى القاهرة واستقر فى وزارة الخليفة ألفائز فسير أهل القصر إلى ألفرنج البريد بطلب عباس فخرجوا إليه، وكانت بينهم وبينه وقعة فر فيها أسامة فى جماعة إلى الشام فظفر به الفرنج وقتلوه وأخذوا ابنه فى قفص من حديد وجهزوه إلى القاهرة، وذلك فى شهر ربيع الاول سنة تسع

واربعين وخمسمائة . فلما وصل ابنه إلى القصر قتل وصلب على باب زويلة وأحرق بعد ذلك ، ثم عرفت هذه الدار بعد ذلك بدار تقى الدين صاحب حماه ، ثم خربت وحكر مكانها، فصار يعرف بحكر صاحب حماه ، وبنى فيه عدة دور وموضعها الآن بداخل درب شمس الدولة بالقرب من حمام عباس التى تعرف إليوم بحمام الكويك .

(**دار ابن فضل الله**) هذه الدار فيما بين حارة زويلة والبندقانيين . كان موضعها من جملة اصطبل الجميزة . عرفت بابن فضل الله . وبنو فضل الله جماعة أولهم بمصر .

(**شرف الدين**) عبد الوهاب بن الصاحب جمال الدين أبى الماثر فضل الله ابن الأمير عز الدين الحلى بن دعجان العمرى ، ولى كتابة السر للملك الناصر محمد بن قلاوون ثم صرف عنها ، وولاه كتابة السر بدمشق ، فلم يزل بها حتى مات فى ثالث شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة ، وقد عمر وبلغ أربعا وتسعين سنة ، وخلف أمولا جمة ورثاه الشهاب محمود وقد ولى بعده وارثاه علاء الدين علي بن غانم والجمال بن نباتة ، وكان فاضلا بارعا أديبا عاقلا وقورا ناهضا ثقة أمينا مشكورا مليح الخط جيد الإنشاء حدث عن الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وغيره .

ومنهم (**يحيي الدين**) يحيى بن الصاحب جمال الدين أبى الماثر فضل الله بن مجلى بن دعجان بن خلف بن نصر بن منصور بن عبد الله بن على بن محمد بن أبى بكر عبد الله عبيد الله بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى العمرى ، ولى كتابة السر بالديار المصرية عن الملك الناصر . نقل إليها من كتابة سر دمشق لما مرض علاء الدين باستدعائه إلى مصر وأقيم بدله فى كتابة سر دمشق شرف الدين أبو بكر ابن الشهاب محمود ، وكان استقراره فى محرم سنة ثلاثين وسبعمائة . فباشرها إلى ثانى عشر شعبان سنة اثنتين وثلاثين ، ونقل منها إلى كتابة السر بدمشق ، وطلب شرف الدين ابن الشهاب محمود فاستقر فى كتابه السر بمصر إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث ، وطلب محيى الدين من دمشق هو وابنه شهاب الدين أحمد فوصلا ، إلى القاهرة غزة جمادى الأولى وخلع عليهما ، ورسم لهما بكتابة السر ، ونقل ابن الشهاب محمود إلى كتابة السر بدمشق . فلم يزل محيى الدين يباشر كتابه السر هو وابنه الى

أن كان من تنكر السلطان لولده شهاب الدين ما كان، وذلك أنه كان استعفى من الوظيفة لثقل سمعه وكبر سنه فأذن له أن يقيم ابنه القاضى شهاب الدين يباشر عنه فصار الاسم لمحيى الدين والمباشر شهاب الدين إلى أن حضر الأمير تنكز نائب الشام إلى القلعة وسأل السلطان فى علم الدين محمد بن قطب الدين أحمد ابن مفضل المعروف بابن القطب أن يوليه كتابه السر بدمشق، وكان السلطان لا يمنع تنكز شيئاً يسأله فخلع عليه وأقره فى ذلك عوضا عن جمال الدين عبد الله ابن الأثير فأخذ شهاب الدين ينقصه عند السلطان بأنه نصرانى الأصل، وليس من أهل صناعة الإنشاء ونحو ذلك والسلطان مغض عنه غير ملتفت إلى ما يرمى به رعاية لتنكز، فلما كتب توقيع ابن القطب أراد تكثير الألقاب والزيادة له فى المعلوم، فامتنع شهاب الدين من كتابه ذلك، وكان حاد المزاج قوى النفس شرس الأخلاق. ففاجأ السلطان بغلظه ومخاشنة فى القول، وكان من كلامه: كيف تعمل قبطيا أسلميا كاتب السر وتزيد فى معلومه، وبالغ فى الجراءة حتى قال ما يفلح من يخدمك وخدمتك على حرام، ونهض قائما لشدة حنقه، وكان هذا منه بحضرة الأمراء فغضبوا لذلك، وهموا بضرب عنقه فأغضى السلطان عنه، وبلغ محيى الدين ما كان من ابنه. فبادر إلى السلطان وقبل الأرض واعترف بخطأ ابنه عن تأخره بثقل سمعه. فرسم له أن يكون ابنه علاء الدين على يدخل ويقرأ البريد. فاعتذر بانه صغير لا يقوم بالوظيفة فقال السلطان أنا أربيه مثل ما أعرف فصار يخلف أباه كما كان شهاب الدين، وانقطع شهاب الدين فى منزله مدة سنتين إلى أن مات أبوه محيى الدين فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة عن ثلاث وتسعين وهو متمتع بحواسه. فدفن ظاهر القاهرة ثم نقل إلى تربتهم من سفح قاسيون بدمشق وكان صدرامعظما رزينا كامل السؤدد، حركا كاتبا بارعا دبر لأقاليم بكفايته وحسن سياسته، ووفور عقله وأمانته وشدة تحرزه، وله النظم والنثر البديع الرايق فمن شعره.

تضاحكنى ليلي فأحسب ثغرها

سنا البرق لكن أين منه البرق

وأخفت نجوم الصبح حين تبسمت

فقمت بفرعها أشد على الشرق

وقلت سواء جنح ليل وشعرها

ولم أدر أن الصبح من جهة الفرق

(**علاء الدين**) على بن يحيى بن فضل الله العمرى استقل بوظيفة كتابه السر قبل موت ابيه محيي الدين، وخلع عليه يوم الإثنين رابع شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، وله من العمر أربع وعشرون سنة. فخرج وفى خدمته الحاجب والدوادار، وتقدم أمر السلطان للموقعين بامتثال ما يأمرهم به عن السلطان. فشق ذلك على أخيه شهاب الدين وحسده، وربما قيل إنه سمه فكان يعتربه دم منه إلى أن مات ثم انه كتب قصة يسأل فيها السفر إلى الشام وشكا كثرة الكلفة، وكان قبل ذلك جرى ذكره في مجلس السلطان فذمه وتهدده، فعند ما قرئت عليه قصته تحرك ما كان ساكنا من غضبه ورسم بإيقاع الحوطة عليه فحمل من داره إلى قاعة الصاحب من قلعة الجبل في رابع عشرى شعبان سنة تسع وثلاثين، وخرج إليه الأمير طاجار الدوادار وأمر به فعرى من ثيابه ليضرب بالمقارع فرفق به ولم يضربه واستكتبه خطه بحمل عشرة آلاف فأحيط بداره وأخرج سائر ما وجد له وبيع عليه، وأرسل مملوكه إلى بلاد الشام فباع كل ما له فيها واقترض خمسين ألف درهم حتي حمل من ذلك كله مائة وأربعين ألف درهم عنها سبعة آلاف دينار فسكن أمره وخف الطلب عنه، وأقام إلى ثالث عشر ربيع الآخر سنة أربعين مدة سبعة أشهر وثمانية عشر يوما ففرج الله عنه بأمر عجيب. وهو انه لما كان يباشر عن أبيه وقع شخص من الكتاب بشيء زور. فرسم السلطان بقطع يده، فلم يزل شهاب الدين يتلطف فى أمره حتى عفا السلطان عنه من قطع يده وأمر به فسجن طول هذه السنين إلى أن قدر الله سبحانه أنه رفع قصة يسأل فيها العفو، فلما قرئت على السلطان لم يعرفه. فسأل عن خبره وشأنه فقيل له: لا يعرف خبر هذا إلا شهاب الدين بن فضل الله. فبعث إليه بقاعة الصاحب يستخبره عنه فطالعه بقصته وما كان منه فألان الله له قلب السلطان ورسم بالإفراج عن الرجل وعن شهاب الدين وعن مملوكه، ففرج الله عن الثلاثة ونزل شيهاب الدين إلى داره وأقام إلى أن قبض السلطان على الأمير

تنكز نائب الشام . فاستدعي شيهاب الدين إلى حضرته وحلفه وولاه كتابة السر بدمشق عوضا عن شرف الدين خالد بن عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن محمد بن خالد بن نصر المخزومي المعروف بابن القيسراني . فباشرها حتى مات بدمشق ، وانفرد أخوه علاء الدين بكتابة السر إلى أن مات ليلة الجمعة التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة بمنزله من القاهرة عن سبع وخمسين سنة وترك ستة بنين وأربع بنات .

(بدر الدين) محمد بن على بن يحيى بن فضل الله ولاه الملك الأشرف شعبان بن حسين كتابه السر وأبوه فى مرض موته يوم الخميس ثامن عشرى شهر رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة وله من العمر تسع عشرة سنة ، وجعل أخاه عز الدين حمزة نائبا فباشر إلى شوال سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، فصرف بأوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل بن يس ، ولزم داره فلم يره أحد ألبتة إلى أن مات أوحد الدين فنزل إليه الأمير يونس الدوادار واستدعاه . فركب ثياب جلوسه من غير خف ولا فرجية ولاشاش ، وصعد إلى القلعة . فخلع عليه فى إليوم الرابع من ذى الحجة سنة ست وثمانين . فلما ثار الأمير يلبغا الناصرى على الملك الظاهر وخلعه من الملك وأقام الملك الصالح حاجى بن الأشرف شعبان بن حسين ، ولقبه بالملك المنصور ، ثم خرج الملك الظاهر برقوق من محبسه بالكرك وسار إلى محاربة الأمير تمربغا منطاش ومعه المنصور حاجى . فخرج ابن فضل الله فلما انهزم منطاش على شقحب واستولى برقوق على المنصور والخليفة والقضاة والخزائن ، وكان ابن فضل الله واخوه عز الدين فى من فر مع منطاش إلى دمشق فأقام بها ، واستولى برقوق على تخت الملك بقلعة الجبل ، فولى علاء الدين على بن عيسى الكركى كتابة السر ، وأخذ ابن فضل الله يتحيل فى الخروج من دمشق ، وسير إلى السلطان مطالعة فيها من شعره .

يقبل الارض عبد بعد خدمتكم

قد مسه ضرر ما مثله ضرر

حصر وحبس وترسيم أقام به

وفرقة الأهل والأولاد والفكر

لكنـــــه والورى مستبشرون بكم

يرجو بكم فرجا يأتى وينتظر

والشغل يقضى لأن الناس قد ندموا

إذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر

جوزوا كمافرطوا فى حقكم ورأوا

ظلما عظيما به الأكباد تنقطر

والله ينصركم طول المـــــدى أبدا

يا من زمانهم من دهرنا غرر

قدم إلى القاهرة ومعه أخوه عز الدين حمزة وجمال الدين محمود القيصرى ناظر الجيش وتاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر وشمس الدين محمد بن الصاحب، فمازال فى داره إلى أن سافر الملك الظاهر إلى بلاد الشام فى سنة ثلاث وتسعين. فتقدم أمره إليه بالمسير مع العسكر فسار بطالا، وقدر الله تعالى ضعف علاء الدين الكركى. فولاه كتابة السر وصرف الكركى فى شوال، وكانت هذه ولاية ثالثة فباشر وتمكن هذه المرة من سلطانه تمكنا زائدا الى أن سافر السلطان إلى البلاد الشامية فى سنة ست وتسعين. فمات بدمشق يوم الثلاثاء لعشرين من شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ودفن بتربتهم بسفح قاسيون ومات أخوه حمزة بدمشق أيضا في أوائل المحرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة ودفن بها، وانقطع بموتهما هذا البيت. فلم يبق من بعدهما إلا كما قال الله سبحانه: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فوق يلقون غيا**﴾(*).

ومن شعر البدر محمد بن فضل الله ما كتبه عنوانا لكتاب الملك الظاهر برقوق جوابا عن كتاب تمرلنك الوارد إلى مصر فى سنة ست وتسعين وسبعمائة وعنوانه.

(*) سورة مريم - آية ٥٩ - ك ١٩.

سلام وإهداء السلام من البعد

دليل على حفظ المودة والعهد

فافتتح البدر العنوان بقوله :

طويل حياة المرء كاليوم فى العد

فخبرته أن لا يزيد على العد

فلابد من نقص لكل زيادة

لأن شديد البطش يقتص للعبد

وكتب فيه من شعره أيضا جوابا عن كثرة تهديد تمرلنك وافتخاره

السيف والرمح والنشاب قد علمت

منا الحروب فسل منها تلبيكا

إذا التقينا تجد هذا مشاهدة

فى الحرب فأثبت فأمر الله آتيكا

بخدمة الحرمين الله شرفنا

فضلا وملكنا الامصار تمليكا

وبالجميل وحلو النصر عودنا

خذ التواريخ واقرأها فتنبيكا

والأنبياء لنا الركن الشديد وكم

بجاههم من عدو راح مفكوكا

ومن يكن ربه الفتاح ناصره

ممن يخاف وهذا القول يكفيكا

(وقـــال) :

إذا المرء لم يعرف قبيح خطيئة
ولا الذنـب منه مع عظيم بليته
فذلك عين الجهل منه مع الخطا
وســوف يرى عقباه عند منيته
وليس يجازى المرء إلا بفعـله
وما يرجــع الصـياد إلا بنيته

وهذه الدار كانت موجودة قبل بنى فضل الله، وتعرف بدار بيبرس فعمر فيها محيى الدين وابنه علاء الدين وكانت من أبهج دور القاهرة وأعظمها ومازالت بيد أولاد بدر الدين وأخيه عز الدين حمزة إلى أن تغلب الأمير جمال الدين على أموال الخلق : فأخذ ابن أخيه الأمير شهاب الدين أحمد الحاجب المعروف بسيدى أحمد ابن أخت جمال الدين دار بنى فضل الله منهم . كما أخذ خاله دور الناس وأوقافهم، وعوض أولاد ابن فضل الله عنها، وغير كثيرا من معالمها، وشرع فى الازدياد من العمارة اقتداء بخاله . فأخذ دورا كانت بجوار مستوقد حمام ابن عبود المقابلة لدار ابن فضل الله، واغتصب لها الرخام والأحجار والأخشاب، وهدم عدة دور وكثيرا من الترب بالقرافة منها تربة الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكانت عجيبة البناء، وادخل ذلك فى عمارة المذكورة، ووسع فيها من جهة البندقانيين ما كان خرابا منذ الحريق الذى تقدم ذكره، وأنشأ من هناك حوض ماء يشرب منه الدواب، فلما قارب إكمالها قبض الملك الناصر فرج على خاله جمال الدين يوسف استادار وقتله، وكان أحمد هذا ممن قبض عليه معه، فوضع تغرى بردى، وهو يومئذ أجل أمراء الناصر يده على هذه الدار وما رضي بأخذها حتى كتابها . فإذا به قد تضمن أن أحمد قد وقف هذه الدار، فلم يزل بقضاة العصر حتى حكموا له بهذه الدار وجعلوها له بطريق من طرقهم . فأقام فيها حتى أخرجه الناصر لنيابة دمشق فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة . فنزل بها الأمير دمرداش . فلما قتل الناصر وقام من بعده الملك المويد شيخ، وقبض على الأمير دمرداش ثارت ابنة جمال الدين، وهى امرأة أحمد المذكور، ولها منه أولاد وأرادت استرجاع الدار كما فعلت فى مدرسة أبيها، وكان لها ولورثة تغرى بردى مخاصمات

واستقرت لبنى تغرى بردى.

(**داربيبرس**) هذه الدار فيما بين دار ابن فضل الله والسبع قاعات فى ظهر حارة زويلة، وقريبة من سويقة المسعودى. تشبه أن تكون من جملة اصطبل الجميزة. كانت دار الشريف بن تغلب صاحب المدرسة الشريفية برأس حارة الجودرية، ثم عرفت بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير. فإنه كان يسكنها وهو أمير قبل أن يلى السلطنة، وجدد رخامها من الرخام الذى دل عليه الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح بالقصر الذى عرف بقصر أمير سلام من جملة قصر الخلفاء كما سيأتى خبر ذلك عند ذكر الخانقاة الركنية بيبرس. فإن بيبرس هذا هو الذى أنشأها، ولم تزل إلى أن هدمها ناصر الدين محمد بن البارزى الحموى كاتب السربعد ما اشتراها نقضا كما اشترى غيرها من الأوقاف. وذلك فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة.

(**السبع قاعات**) هذه الدار عرفت بالسبع قاعات، وهى يتوصل إليها من جوار دار بيبرس المذكورة ومن سويقة الصاحب. وقد صارت عدة مساكن جليلة ومكانها من جملة اصطبل الجميزة. أنشأها الوزير الصاحب علم الدين بن زنبور ووقفها من جملة ما وقف فلما قبض عليه الأمير صرغتمش حل أوقافه، ووعد بالسبع قاعات خوند قطلوبنك ابنة الأمير تنكز الحسامى نائب الشام أم السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون ولقنه الشريفان شرف الدين على بن حسين بن محمد نقيب الأشراف وأبو العباس الصفراو ان الناصر لما قبض على كريم الدين الكبير بعث إلى كريم الدين من شهد عليه أن جميع ما صار بيده من الأملاك وقفها وطلقها إنما هو من مال السلطان دون ماله، وشهد بذلك عند قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة فأثبت بهذه الشهادة أن أملاك كريم الدين جارية فى أملاك السلطان فأقر السلطان ما وقفه كريم الدين منها على حالة وسماه الوقف الناصرى. فلما جلس السلطان الملك الصالح بدار العدل، وحضر قاضى القضاة والأمراء وغيرهم من أهل الدولة على العادة تكلم الأمير صرغتمش مع قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن جماعة فى حل أوقاف ابن زنبور. فإنها ملك السلطان ومن ماله اشتراها، وذكر قضية كريم الدين فأجابه بان تلك القضية كانت صحتها مشهورة، وذلك أن خزائن

السلطان وحواصله وأمواله كلها كانت بيد كريم الدين وفى داره يتصرف فيها على ما يختاره جعل له السلطان بتوكيله والإذن له فى التصرف. بخلاف ابن زنبور فإنه كان يتصرف فى ماله الذي اكتسبه من المتجر وغيره فمما وقفه وثبت وقفه، وحكم قضاة الإسلام بصحته لا سبيل إلى حله، وساعده فى ذلك القاضى موفق الدين عبد الله الحنبلي، وتردد الكلام بينهما فى ذلك. فاحتج عليهما الأمير صرغتمش بمالقناه الشريفان من مشاطرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عماله وأخذه من كل عامل نصف ماله، وأن مال الوزير جميعه من مال السلطان. فقال له ابن جماعة: يا أمير إن كنت تبحث معنا فى هذه المسألة بحثنا معك، وإن كان أحد قد ذكرها لك فليحضر حتى نبحث معه فيها، فإن الذى ذكر لك هذه المسألة إنما قصد أن تصادر الناس وتأخذ أموالهم فوافقه رفقته الثلاثة قضاة على قوله، وأراد ابن جماعة بقوله هذا التعريض بالشريفين وكان اختصاصهما بالأمير صرغتمش وقيامهما على ابن زنبور مشهورا فشق هذا الأمير صرغتمش، وانفض المجلس، وقد اشتد حنقه لما رد عليه من كلامه، وعورض فيه من مراده، فبعثت خوند أم السلطان إلى ابن جماعة تعرفه ما وعدت به من مصير السبع قاعات إليها، وأكدت عليه فى أن لا يعارضها فى حل أوقاف ابن زنبور فأجابها بتقبيح هذا، وخوفها سوء عاقبته فكفت عنه، ولقوة غيظ الأمير صرغتمش مرض مرضا شديدا من انفتاح صدره ونفثه الدم، حتى خيف عليه الموت، ثم عوفى بعد ذلك بأيام، وذلك كله فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة، واستمرت السبع قاعات وقفا بيد ذريةابن زنبور إلى يومنا هذا. إلا أن الأمير صرغتمش المذكور أخذ رخامها، ووجد فيها شيئا كثيرا من صينى ونحاس وقماش وغير ذلك قد أخفى فى زواياها.

(**علم الدين**) عبد الله بن تاج الدين أحمد ابن إبراهيم المعروف بابن زنبور أول ما باشره استيفاء الوجه القبلى شريك الوهب بن سنجر، وطلع صحبته الأمير علم الدين عبد الرازق كاشف الوجه القبلى ونهض فيه، فلما كانت مصادرة ابن الجيعان كاتب الاصطبل طلب السلطان الملك الناصر محمود وحكم الأمير إيدغمش فباشر استيفاء الصحبة. فلما قبض على حمال الكفاة ناظر الخاص وناظر الجيش وعلى الموفق ناظر الدولة وعلى الصفى ناظر اليوت المعروف بكاتب قوصون فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة ومات حمال الكفاة فى العقوبة يوم الاحد سادس شهر ربيع الأول عين ابن زنبور لوظيفة نظر الخاص، ثم قرر فيها

القاضى موفق الدين هبة الله إبراهيم ناظر الدولة، وكان ابن زنبور وهو مستوفى الصحبة قد سيره حمال الكفاة قبل القبض عليه لكشف القلاع الشامية ومعه جارا كتمر الحاجب إبعادا له، وكان الأمير أرغون العلائى يعنى به. فلما قبض على حمال الكفاة تحدث له العلائى مع السلطان الملك الصالح إسماعيل بن نجم الدين محمود بن على المعروف بوزير بغداد مع السلطان فى ولاية الموفق نظر الخاص. فخلع عليه، وحضر ابن زنبور من الشام فباشر نظر الدولة علم والدين بن سهلوك وابن زنبور على ما هى عادته فى استيفاء الصحبة، ونهض فى المباشرة وحصل الأموال، ودخل هو والوزير نجم الدين وشكيا توقف الدولة من كثرة الإنعامات والإطلاقات للخدم والجوارى ومن يلوذبهم. فتقرر الحال مع الأمراء على كتابة أوراق بكلفة الدولة. فلما قرئت بمحضر من الأمراء بلغت الكلف ثلاثين ألف ألف درهم والمتحصل خمسة عشر ألف درهم. فأبطل ما استجد بعد موت الملك الناصر بأسرة. فلم يستمر غير شهر واحد حتى عاد الأمر على ما كان عليه بحيث بلغ مصروف الحوائج خاناه فى كل يوم اثنين وعشرين ألف درهم بعد ما كانت فى أيام الناصر محمد ثلاثة عشر ألف درهم.
فلما مات الملك الصالح إسماعيل وأقيم فى الملك من بعده أخوه الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد صرف الموفق عن نظر الخاص، ونقل ابن زنبور من استيفاء الصحبة إليها، واستقر فخر الدين السعيد فى استيفاء الصحبة، وذلك فى ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة فباشر ذلك، إلى أخريات رجب نيفا وثمانين يوما. فولى الملك الكامل نظر الخاص لفخر الدين ابن السعيد مستوفى الدولة، وأعاد ابن زنبور من نظر الخاص إلى استيفاء الدولة. فلما كان فى المحرم سنة سبع وأربعين أعيد نجم الدين وزير بغداد إلى الوزارة وقرر ابن زنبور فى نظر الدولة فاستمر الى ان قتل الكامل شعبان وأقيم فى الملك من بعده أخوه الملك المظفر حاجى فى مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين. فطلب ابن زنبور وأعيد إلى نظر الخاص وقبض على فخر الدين بن السعيد وطولب بالحمل، وأضيف إليه نظر الجيش فباشر ذلك إلى سنة إحدى وخمسين. فاضيف إليه الوزارة فى يوم الخميس سابع عشرى ذى القعدةوخلع عليه، وكان له يوم عظيم جد. فلما كان يوم السبت جلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة في دست الوزارة واستدعى جميع المباشرين وطلب المقدم ابن يوسف وشد وسطه على ما كان عليه، وطلب المعاملين وسفلهم على اللحم وغيره، واستكتب المباشرين أنه لم يكن فى بيت المال ولا الأهراء من الدراهم والغلال شئ البتة،

ودخل بها وقرأها على السلطان والأمراء، وشرع فى عرض أرباب الوظائف كلهم وطلب حساب الأقاليم بأسرها، وولى صهره فخر الدين ماجد فرويتة نظر البيوت وأنفق جامكية شهر وحمل الرواتب إلى الدور السلطانية، والأسمطة من السكر والزيت والقلوبات وغير ذلك وأقام بكتمر المومنى فى وظيفة شد الدواوين، وألزم نفسه فى المجلس السلطانى بحضرة الأمراء أنه يباشر الوزارة بغير معلوم، وقرر ابنه فى ديوان المماليك، والتزم أنه إلا يتناول معلوما. بل يوفر المعلومين للسلطان، وأبطل رمى الشعير والبرسيم من بلاد مصر، وكان يحصل برميها ضرر كبير فإن ذلك كان يحصل من سائر البلاد. فيعزم على كل إردب أكثر من ثمنه، والتزم بتكفية بيت المال من الشعير والبرسيم بغير ذلك فبطل على يديه وكتب به مرسوم، وكتب نقشا على حجر فى جانب باب القلة من قلعة الجبل وأمر بقياس أراضى الجيزة فجاء زيادتها عن الارتفاع الذى مضى ثلثمائة ألف درهم، وعنها خمسة عشر ألف دينار. فلم يزل إلى سابع عشرى شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة فأحيط به وقبض عليه حسدا له على ما صار إليه ولم يجتمع لغيره فى الدولة التركية، وتولى القيام عليه الأمير طاز، ومازال يدأب فى ذلك إلى أن عاد السلطان الملك الصالح من دمشق. فى يوم الاثنين خامس عشرى شوال سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة إلى قلعة الجبل، وعمل يوم الخميس سماطا مهما فى القلعة، ولما انفض السماط خلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء وعلى الوزير وسائر المباشرين. فاتفق لما قدره الله تعالى أنه حضر إلى الأمير صرغتمش وهو يومئذ رأس نوبة عشر تشريف غير تشريفه ودون رتبته. فأخذه ودخل إلى الأمير شيخو والقى البقجة قدامة وقال: انظر فعل الوزير معى وكشف الخلعة. فقال شيخو هذا غلط فقام وقد أخذه من الغضب شبه الجنون، وقال: هذا شغل الوزير وأنا أصبر على أن أهان لهذا الحد، ولابد لى من القبض عليه، ومهما شئت أنت افعل بى، وخرج فإذا الوزير داخل لشيخو وعليه خلعة فصاح فى مماليكه خذوه فكشفوا الخلعة عنه وسحبوه إلى بيت صرغتمش، وسرح مماليكه فى القبض على جميع حاشية الوزير. فقبض على سائر من يلوذ به لأنهم كانوا قد اجتمعوا بالقلعة وخالطت العامة المماليك فى القبض على الكتاب، واخذوا منهم فى ذلك اليوم شيئا كثيرا حتى أن بعض الغلمان صار إليه فى ذلك اليوم ستة عشر دواة من دوى الكتاب، فلم يكن منها

أربابها إلا بمال يأخذه على كل دواة ما بين عشرين إلى خمسين درهما، وأماما سلبوه من العمائم والثياب والمهاميز ألفضة فشيء كثير، وخرج الأمير قشتمر الحاجب وغيره فى جماعة إلى دوره التى بالصوصه من مصر فأوقعوا الحوطة على حريمه وأولاده، وختموا سائر بيوته وبيوت حواشيه، وكانوا قد اجتمعوا وتزينوا لقدوم رجالهم من السفر، وأنزل الوزير فى مكان مظلم من بيت صرغتمش. فلما أصبح طلب ولد الوزير وصار به صرغتمش إلى بيت أبيه وأحضر أمه ليعاقبه وهى تنظره حتى يدلوه على المال. ففتحوا له خزانة وجد فيها خمسة عشر ألف دينار وخمسين ألف درهم فضة، وأخرج من بئر صندوق فيه ستة آلاف دينار وشيء من المصالح، وحضرت أحماله من السفر فوجد فيها ستة آلاف دينار ومائة وخمسون ألف درهم فضة، وغير ذلك من تحف وثياب وأصناف. وألزم وإلى مصر بإحضار بناته فنودى عليهم فى مصر والقاهرة، وهجمت عدة دور بسببهن ونال الناس من نكاية أعدائهم فى هذه الكائنة كل غرض. فإنه كان الرجل يتوجه إلى أحد من جهة صرغتمش ويرمى عدوه بأن عنده بعض حواشى ابن زنبور فيؤخذ بمجرد التهمة، ولقى الناس من ذلك بلاء عظيما، ثم حمل إلى داره وعرى ليضرب فدل على مكان استخرج منه نحو من خمسة وستين ألف دينار فضرب بعد ذلك وعريت زوجته وضرب ولده، فوجد له شيء كثير إلى الغاية. قال الصفدى خليل بن أيبك الملقب صلاح الدين فى كتاب أعيان العصر: واما ما أخذ منه فى المصادرة فى حال حياته فنقلت من خط الشيخ بدر الدين الحمصى فى ورقة بخطه على ما أملاه القاضى شمس الدين محمد البهنسى: أوانى ذهب وفضة ستون قنطارا. جوهر ستون رطلا. لؤلؤ إردبان ذهب مصكوك مائتا ألف وأربعة آلاف دينار ضمن صندوق ستة آلاف حياصة. ضمن صناديق زركش ستة آلاف كلوته. ذخائر عدة قماش بدنه ألفان وستمائة فرجية. بسط ثلاثة الاف صنجة. دراهم خمسون ألف درهم. شاشات ثلاثمائة شاش. دواب عاملة سبعة آلاف. حلابة ستة آلاف. خيل وبغال ألف دراهم ثلاثة أرادب معاصر سكر خمسة وعشرون معصرة. اقطاعات سبعمائة. كل إقطاع خمسة وعشرون ألف درهم. عبيد مائة. خدام ستون. جوارى سبعمائة. أملاك القيمة عنها ثلاثمائة ألف دينار. مراكب سبعمائة. رخام القيمة عنه مائتا ألف درهم. نحاس قيمته أربعة آلاف دينار. سروج وبدلات خمسمائة. مخازن ومتاجر أربعمائة ألف دينار.

نطوع سبعة آلاف . دواب خمسمائة . بساتين مائتان . سواقى ألف وأربعمائة . وكان فى وقت القبض عليه أشد الناس قياما فى إفساد صورته الشريف شرف الدين على بن الحسين نقيب الأشراف ، والشريف أبو العباس الصفراوى ، وبدر الدين ناظر الخاص ، وأمين الدين والطواف واستادار الأمير صرغتمش . فأول مافتحوه من أبواب المكايد أن حسنوا لصرغتمش أن يأمره بالإشهاد عليه أن جميع ماله من الأملاك والبساتين والأراضى الوقف والطلق جميعها من مال السلطان دون ماله . فصير إليه ابن الصدر عمر وشهود الخزانة ، فأشهد عليه بذلك ، ثم كتبوا فتوى فى رجل يدعى الإسلام ويوجد فى بيته كنيسة وصلبان وشخوص من تصاوير النصارى ولحم الخنزير ، وزوجته نصرانية وقد أرضى لها بالكفر ، وكذلك بناته وجواريه ، وأنه لا يصلى ولا يصوم ونحو ذلك ، وبالغوا فى تحسين قتله حتى قالوا لصرغتمش : والله لو فتحت جزيرة قبرص ما كتب لك أجر من الله بقدر ما يؤجرك الله على ما فعلته مع هدا فأخرج فى باشا وزنجير وضرب فى رحبة قاعة الصاحب من القلعة بالمقارع ، وتوالت عقوبته ، وأسلم لشاد الدواوين ليعاقبه حتى يموت . فقام الأمير شيخو فى أمره فرده صرغتمش إلى داره وأكرمه ، وأقام عنده إلى سابع عشرى المحرم سنة أربع وخمسين فأخرجه من داره إلى القلعة وابن زنبور يعاقب فغضب من ذلك ، ووقف ومنع من ضربه وبلغ الخبر صرغتمش . فصعد إلى القلعة وجرى له مع شيخو عدة مفاوضات كادت تفضى إلى فتنة وآل الأمر فيها إلى تسفير ابن زنبور إلى قوص . فأخرج من ليتله ، وكانت مدة شدته ثلاثة أشهر ، وأقام بمدينة قوص إلى أن عرض له مرض أقام به أحد عشر يوما ، ومات يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، وله بالقاهرة السبيل الذى على يسره من دخل من باب زويلة بجوار خزانة شمائل ، وقد دخل فى الجامع المؤيدى .

(**دار الدوادار**) هذه الدار فيما بين حارة زويلة واصطبل الجميزة . وهى اليوم من جملة خط السبع قاعات .

(**دار فتح الله**) هذه الدار اليوم بخط سويقة المسعودى . كان موضعها زقاقا يعرف بزقاق البنادة ، وفيه باب قاعة أنشأها سعد الدين إبراهيم بن عبد الوهاب بن النجيب أبى الفضائل الميمونى . أحد مباشرى ديوان الجيش ، وهى قاعة فى غاية الملاحة من جودة وكثرة دهان وحسن ترتيب ، ومات الميمونى فى ثانى ذى الحجة سنة خمس وتسعين وسبعمائة . فسكنها

فتح الله بن معتصم، وهو يومئذ رئيس الأطباء. فلما ولى كتابة السر شره الى العمارة فأخذ ما فى الزقاق المذكور من الدور شيئا بعد شيء، وأخرج منها سكانها وهدمها، وابتنى قاعة تجاه قاعة الميمونى، وجعل فيها بئرا وفسقية ماء وبنى بها حماما، ثم أنشأ اصطبلا كبيرا لخيوله، ولم يقنع بذلك حتى حمل القضاة على الحكم له باستبدال دار الميمونى وكانت وقفا على اولاد الميمونى ومن بعدهم على الحرمين. فعمل له طرق فى جواز الاستبدال بها على ما صار القضاة يعتمدونه منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة، فلما تم حكم القضاة له بتملكها غير بابها وزاد فى سعتها وأضاف إليها عدة مواضع مما كان بجوارها، وغرس فى جانبها عدة أشجار، وزرع كثيرا من الأزهار التى حملت إليه من بلاد الشام، وبالغ فى تحسين رخام هذه الدار، وانشأ دهيشة كيسه إلى الغاية بوسطها فسقية ماء ينخرط إليها الماء من شاذروان عجيب الصنعة بهج الزى وتشرف هذه الدهيشة على هذه الجنينة التى أبدع فيها كل الإبداع، وركب علو هذه القاعة الأروقة العظيمة، وبنى بجوارها عدة مساكن لمماليكه ومسجدا معلقا كان يصلى فيه وراء إمام راتب قرره له بمعلوم جار. فجاءت هذه الدار من أجل دور القاهرة وأبهجها ووقف ذلك كله مع أشياء غيرها على تربته التى أنشأها خارج باب البرقية، وعلى عدة جهات من البر. فلما نكب أكره حتى رجع عن وقف هذه الدار على ما عينه فى كتاب وقفه وجعلها وقفا على أولاد السلطان الملك المؤيد شيخ. فلما مات عاد ذلك إلى وقف فتح الله.

(**فتح الله**) ابن معتصم بن نفيس الإسرائيلى الداودى العنانى التبريزى رئيس الأطباء وكاتب السر. ولد بتبريز فى سنة تسع وخمسين وسبعمائة وكان قد قدم جده نفيس إلى القاهرة فى سنة أربع وخمسين فأسلم وعظم بين الناس، ثم قدم فتح الله مع أبيه فنشأ بالقاهرة فى كفالة عمه، ونظر فى الطب، وعاشر ألفقهاء، واتصل ببعض الأمراء فعرف منه أحد مماليكه، وكان يسمى بشيخ. فلما تأمر شيخ قربه وأنحكه أمه وفوض اليه أمر ديوانه، ثم مات عمه بديع بن نفيس فأقره الملك الظاهر برقوق مكانه فى رياسة الأطباء. فباشرها مباشرة مشكورة، واختص بالملك الظاهر برقوق اختصاصا كبيرا. فلما مات بدر الدين محمود الكلسانى قلده وظيفة كتابه السر، وخلع عليه فى يوم الإثنين حادى عشر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة، ومات الظاهر وقد جعله أحد اوصيائه. فمازال إلى أوائل ربيع

الأول سنة ثمان وثمانمائة فقبض عليه، واستقر بدله فى كتابه السر سعد الدين إبراهيم بن غراب، وضرب حتى حمل مالا ثم أفرج عنه فلزم داره إلى شهر رمضان فحمل إلى دار الوزير فخر الدين ماجد بن غراب، وألزم بمال آخر فحمله وأطلق فقام الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فى أمره، ومازال بالملك الناصر فرج إلى أن أعاده إلى كتابه السر فى أوائل ذى الحجة، فاستقر فيها وتمكن من أعدائه وأراه الله مصارعهم واتسعت أحواله وانفرد بسلطانه، وانيط به جل الأمور فأصبح عظيم المصير نافذ الأمر. قائما بتدبير الدولة. لا يجد أحد من عظماء الدولة وأبدى من حسن سفارته وأبدى للناس دينا وخيرا وتواضعا وحسن وساطة بين الناس وبين السلطان. فلما كان من أمر الناصر وهزيمته على اللجون ما كان وقع فتح الله مع الخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد المتوكل على الله وعدة من كتاب الدولة فى قبضة الأمير بن شيخ ونوروز ومازال عندهما حتى قتل الناصر وأقيم من بعده امير المؤمنين المستعين بالله. وهو على حاله من نفوذ الكلمة وتدبير الامور. فلما استبد الأمير شيخ بمملكة الديار المصرية، واعتقل الخليفة، وتلقب بالملك المؤيد شيخ فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة أقر فتح الله على رتبته، ثم قبض عليه يوم الخميس تاسع شوال وعوقب غير مرة وأحيط بجميع أمواله وأسبابه وحواشيه وبيع عليه بعض ما وجد له وحمل ما تحصل منه فبلغ ما ينيف عن أربعين ألف دينار سوى ما اخذ مما لم يبع سنة ست عشرة وثمانمائة، وحمل من الغد إلى تربته فدفن بها، وكان رحمه الله من خير أهل زمانه رياضة وديانة وطيب مقال وتأله وتنسك ومحبة لسنة رسول الله ﷺ، وحسن قيام مع السلطان فى أمر الناس وبه كفى الله عن الناس من شر الناصر فرج شيئا كثيرا، وقد ذكرته بأبسط من هذا فى كتابى درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، وفى كتابى خلاصة التبر فى أخبار كتاب السر.

(**دار ابن قرقة**) هذه الدار من الدور القديمة وهى بخط سويقة المسعودى إلى خط بين السورين، وقد تغيرت معالمها. قال ابن عبد الظاهر: دار ابن قرقة هى الآن سكن الأمير صارم الدين المسعودى وإلى القاهرة بأول حارة زويلة من جهة باب الخوخة على يسرة السالك إلى داخل الحارة، وهى معروفة اليوم وإلى جانبها الحمام المعروفة بابن قرقة أيضا، وهذه الدار والحمام انشأهما أبو سعيد بن قرقة الحكيم وباعهما فى حال مصادرته مما خرج

عليه، فابتاعهما منه علم السعداء، ثم سكنها الكامل بن شاووهما من جهة الخليج. انتهى، وهذه الدار والحمام قد هدمتا، وصار موضع الدار الجامع المعروف بجامع ابن المغربى برأس سويقة الصاحب وما يجاوره من دور ابن أبى شاكر، وآخر ما بقى منها شيء هدمه الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله تاج الدين موسى بن أبى شاكر فى رمضان سنة أربع وتسعين وسبعمائة.

(**وابن قرقة**) هذا كان يتولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح، وكان ماهرا فى علم الطب والهندسة ونحو ذلك من علوم الأوائل وقتله الخليفة الحافظ لدين الله من أجل أنه دبر السم لابنه حسن بن الحافظ عندما ثار الجند وطلبوا من الخليفة قتل ابنه حسن كما تقدم ذكره. فلما سكنت الدهماء قبض عليه الخليفة واعتقله بخزانة البنود وقتله فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة.

(**دار خوند**) هذه الدار من حقوق حارة زويلة عرفت بالست الجليلة خونداردوتكين ابنة نوغية السلاح دار الططرى. تزوج بها الملك الأشرف خليل بن قلاوون ومات عنها فتزوجها من بعده أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون، وولدت منه ولدين ماتا، ثم طلقها ونزلت من القلعة فسكنت هذه الدار، وانشأت لها تربة بالقرافة تعرف الآن بتربة الست، وجعلت لها عدة أوقاف، وكانت من الخير على جانب عظيم. لها معروف وصدقات وإحسان عميم، وماتت ولها ما ينيف على الألف ما بين جارية وخادم اعتقتهم كلهم، وخلفت أموالا تخرج عن الحد فى الكثرة، وكانت وفاتها فى ليلة السبت ثالث عشرى المحرم سنة أربع وعشرين وسبعمائة، ودفنت بتربتها فتقدم أمر السلطان للأمراء والقضاة لشهود جنازتها، وحمل ما تركته من الأموال والجواهر وطلب أخوها جمال الدين خضر بن نوغية وصوح على إرثه منها بمائة وعشرين ألف درهم. عنها يومئذ سبعة آلاف دينار، ولم تزل هذه الدار إلى أن هدمت فأخذها الأمير صلاح الدين محمد أستادار السلطان ابن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وأدخلها فى داره التى أنشأها، فجاءت من أجل دور القاهرة.

(**دار الذهب**) هذه الدار خارج القاهرة فيما بين باب الخوخة وباب سعادة. بناها الافضل أبو القاسم شاهنشاه ابن امير الجيوش بدر الجمالى، وكان فيما بين باب القنطرة وباب

الخوخة منظرة اللؤلؤ التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء ويجاورها من حيز باب الخوخة دار ألفلك. وبناها فلك الملك أحد الأستاذين الحاكمية، ويلاصقها دار الذهب هذه، ويجاور دار الذهب دار الشابورة، ودار الذهب عرفت اخيرا بدار الأمير بهادر الأعسر شاد الدواوين، ثم الآن عرفت بدار الأمير الوزير المشير الأستادار فخر الدين عبد ألفنى ابن الأمير الوزير المشير الاستادار فخر الدين عبد ألفنى ابن الأمير الوزير الاستادار تاج الدين عبد الرازق بن أبى ألفرج الأرمنى الأصل، وعنى بها، وهدم كثيرا من الدور التى كانت تجاهها على بر الخليج الشرقى، وأنشأ هناك دارا يتطرق إليها من هذه الدار بساباط، وأنشأ بجوارها جامعه الآتى ذكره وحمامه ثم هدم كثيرا من الدور التى كانت على الخليج وما وراءها بتلك الأحكار التى فى الجانب الغربى من الخليج، وغرس فى أراضى تلك الدور الأشجار وجعلها بستانا تجاه داره. فمات قبل أن تكمل وصار أكثر مواضع الدور التى خربها هناك كيمانا.

(**دارالحاجب**) خارج باب النصر تجاه مصلى الأموت. هذه الدار أنشأها الأمير سيف الدين كهرداش المنصورى أحد المماليك الرزاقين، وهو الذى فتح جزيرة أرواد فى المراكب المتوجهة إلى بلاد الفرنج، وتولى عمارة مئذنة المدرسة المنصورية لما تهدمت فى الزلزلة وتقدم، وكثرت أمواله، ومات بدمشق فى سنة أربع عشرة وسبعمائة. فاشترى هذه الدار الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب، ولم تزل بها ذريته من بعد الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر والأمير ناصر الدين محمد بن عبد الله، وبها الآن ولدا الأمير ناصر الدين وهما الأمير على وعبد الرحمن، وما برح هذا البيت فيه الإمرة والسعادة.

(**بكتمر الحاجب**) الأمير سيف الدين كان أميرا خور ثم ولى شد الدواوين بدمشق فى نيابة الأفرم، ولم يكن لأحد معه كلام فى عزل ولا ولاية، ثم ولى الحجوبية وتوجه إلى صفد كاشفا على الأمير ناهض الدين عمر بن أبى الخير والى الولاة وشاد الدواوين بها ومعه معين الدين بن حشيش. فحرر الكشف ورفعه حتى قال فيه زين الدين عمر بن حلاوات موقع صفد :

يا قاصدا صفدا فعد عن بلدة

من جور بكتمر الأمير خراب

لا شافع تغنى شـــفاعته ولا

جـان ممـــا جنـــاه متـاب

حشر وميزان ونشر صحائف

وجـرائد معروضة وحساب

وبها زبانية تحث على الورى

وسلاسل ومقامع وعقاب

ما فاتهم من كل ما وعدوا به

فى الحشر إلا راحم وهاب

ولما قدم الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى دمشق ولاه الحجوبية، ودخل فى خدمته إلى مصر وهو حاجب، ثم أخرجه ثانيا نائبا إلى غزة فى سنة عشر وسبعمائة. فأقام بها قليلا رطلبه وولاه الوزارة بالديار المصرية عوضا عن الصاحب فخر الدين بن الخليلى فى رمضان سنة عشر. فباشر الوزارة إلى أن قبض عليه مستهل ربيع الأول سنة خمس عشرة واعتقل مدة سنة ونصف، وأخذ كثير من ماله ثم أفرج عنه وأخرج إلى صفقد نائبا فى سنة ست عشرة وأنعم عليه بمائة ألف درهم. عنها يومئذ خمسة آلاف دينار فأقام بها عشرة أشهر وطلب إلى مصر فصار من الأمراء المشهورة. فإذا تكلم السلطان فى المشورة لا يرد عليه غيره لما عنده من المعرفة والخبرة وتزوج بابنة الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك وأولاده الذين ذكرنا منها، وسرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار. ادعى أنه مبلغ مائة ألف درهم، وكان فى الباطن على ما قيل سبعمائة ألف درهم فما جسر يتفوه خوفا من السلطان، وكان إذ ذاك وإلى القاهرة الأمير سيف الدين قدادار المنسوب اليه القنطرة على الخليج. فتقدم أمر السلطان إليه بتتبع من سرق المال فدس إليه الأمير بكتمر الساقى والوزير مغلطاى الجمالى والقاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السر أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر، وأخذوا يحتجون لكل من اتهم ويقولون للسلطان: لعن الله ساعة هذه العملة. كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدة وإلى متى يقتل المتهم الذى لا ذنب له. فلما طال الأمر شكا بكتمر إلى السلطان فى دار العدل فأحضر الوالى وسبه السلطان.

فقال يا خوند: للصوص الذين أمسكتهم وعاقبتهم أقروا أن سيف الدين بخشى خزنداره اتفق معهم على أخذ المال وجماعة من إلزامه الذين فى بابه. فقال السلطان للجمالى الوزير أحضر هؤلاء المذكورين أعاقبهم فأخذ بخشى وعشره وكان عزيزا عند بكتمر. قد زوجه بابنته وهو يثق بعقله ودينه وأمانته فشق ذلك عليه واغتم غما شديدا مات منه فجأة فيما بين الظهر إلى العصر من يومه سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وكان خبيرا بالأمور بصيرا بالحوادث طويل الروح فى الكلام. لا يمل من تطويله، ولو قعد فى الحكم الواحد بين الأمير واليهودى ثلاثة أيام ولا يلحقه من ذلك سآمة ألبتة مع معرفة تامة وخبرة بالسياسة لم ير مثله فى حق أصحابه لكثرة تذكرهم فى غيبهم والفكر فى مصالحهم، وتفقد أحوالهم ومن جفاه منهم عتب عليه، وكان سمحا بجاهه بخيلا بماله إلى الغاية ساقط الهمة فى ذلك، وله متاجر وأملاك وسعادة لا تكاد تنحصر، ومع ذلك فله قدور يكريها لصلاقى ألفول والحمص وغير ذلك من العدد والآلات، ويماحك على أجرها مماحكة يستحى من ذكرها، وأنشأ عدة دور واقتنى كثيرا من البساتين وولى من بعده ابنه الأمير جمال الدين عبد الله الإمرة وكان حاجبا، ولابيه فى سيره البخل والحرص الشديد تابعا ومقلدا، وتولى إمره الحاج غير مرة، وخرج فى سنة ست وثمانين وسبعمائة من القاهرة لولاية كشف الجسور بالغربية فورد عليه كتاب السلطان الظاهر برقوق بالإنكار، وفيه تهديد مهول. فداخله الخوف ومرض فحمل فى محفه إلى القاهرة فدخلها يوم الأربعاء النصف من جمادى الأولى من تلك السنة فمات من يومه، وأخذ إقطاعه الأمير يودى، وصار ابنه ناصر الدين أحد الأمراء العشراوات سالكا طريق أبيه وجده فى الإمساك إلى أن مات خامس عشرى شهر ربيع الآخر سنة اثنين وثمانمائة، ودفن بتربتهم خارج باب النصر.

(**دار الجاولي**) هذه الدار من جملة الحجر التى تقدم ذكرها، وهى تجاه الخان المجاور لوكالة قوصون. أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولى، وجعلها وقفا على المدرسة المعروفة بالجاولية بخط الكبش جوار الجامع الطولونى، وعرفت فى زماننا بقاعة البغادة لكسنى عبد الصمد الجوهرى البغدادى بها هو وأولاده فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة إلى بعد سنة ست عشرة وثمانمائة، وهى من الدور الجليلة. إلا أنها قد تشعثت لطول الزمن.

(**دار أمير أحمد**) هذه الدار بجوار دار الجاولى من غربها. عرفت بأمير أحمد قريب الملك

الناصر محمد بن قلاوون، وعرفت فى زماننا بسكن أبو ذقن ناظر المواريث، وهى من جملة ما اغتصبه جمال الدين يوسف الاستادار من الدور الوقف، وجعلها لأخيه شمس الدين محمد البيرى قاضى حلب، وشيخ الخانقاه البيبرسية فغير بابها وشرع فى عمارتها. فقبض عليه عند القبض على أخيه وهو بها.

(**دار اليوسفي**) هذه الدار بجوار باب بالجوانية فيما بينها وبين الحوض المعد لشرب الدواب. أنشأها هى والحوض الأمير سيف الدين بهادر اليوسفى السلاح دار الناصرى.

(**دار ابن البقري**) هذه الدار أنشأها الوزير الصاحب سعد الدين سعد الله بن البقرى ابن اخت القاضى شمس الدين شاكر بن غزيل البقرى صاحب المدرسة البقرية. أظهر الإسلام، وباشر فى الخدم الديوانية إلى أن ولاه الملك الظاهر برقوق وظيفة الديوان المفرد ونظر الخاص عوضا عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس فى ثالث شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. فباشر ذلك إلى تاسع شهر رمضان سنة خمس وثمانين. فقبض عليه ونزل الأمير يونس الدوادار والأمير قرقماس الخازندار إلى داره هذه. وأحاط بها، وأخذ جميع ما فيها من المال والثياب والأوانى والحلى والجوارى وغير ذلك. وحمل إلى القلعة فبلغ قيمة ما وجد بداره فى هذه النوبة مائتى ألف دينار وسلم ابن البقرى لشاد الدواوين بقاعة الصاحب من القلعة. فضرب بالمقارع نيفا وثلاثين شيبا، وولى موفق الدين أبو ألفرج نظر الخاص ثم إن الملك الظاهر لما عاد إلى المملكة بعد ثورة الأمير يلبغا الناصرى والأمير تمربغا منطاش عليه وخلعه من الملك وسجنه بالكرك، ثم قيامه بأهل الكرك ودخوله إلى القاهرة وعوده إلى المملكة ولى ابن البقرى الوزارة فى يوم الإثنين سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنين وتسعين وسبعمائة عوضا عن موفق الدين أبى ألفرج، ثم صرف فى يوم الخميس لعشرين من شهر رمضان وأعيد الوزير أبو ألفرج، وأحيط بدور ابن البقرى وأسلم هو وابنه تاج الدين عبد الله إلى الأمير ناصر الدين محمد بن اقبغا آض، فلما استقر الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى فى الوزارة يوم الثلاثاء سابع عشرى ذى الحجة منها عوضا عن الوزير أبى الفرج اشترط على السلطان أموراً منها استخدام الوزراء المعزولين، فجلس بشباك قاعة الصاحب من القلعة وبعث إلى من بالقاهرة من الوزراء المعزولين وهم شمس الدين عبدالله المقسى وعلم الدين عبدالوهاب بن الطنساوى المعروف بسن ابرة

وسعد الدين سعدالله بن البقرى وموفق الدين أبو الفرج وفخر الدين عبدالرحمن بن عبدالرزاق بن إبراهيم بن مكانس فأقر المقسى وسن إبرة معاً فى نظر الدولة وأقر ابن البقرى ناظر البيوت ومستوفى الدولة، وقرر أبا الفرج فى استيفاء الصحبة وابن مكانس فى استيفاء الدولة شريكاً لابن البقرى فكانوا يركبون فى خدمته دائماً ويجلسون بين يديه وربما وقف ابن البقرى على قدميه بحضرته بعد أن كان ابن الحسام دواداره ولايزال قائماً بين يده فعد الناس هذا من أعظم المحن التى لم يشاهد فى الدولة التركية مثلها، وهو أن يصير الرجل خادماً لمن كان فى خدمته فنعوذ بالله من المحن ثم إن الوزير ابن الحسام قبض على ابن البقرى وألزمه بحمل سبعين ألف درهم ثم أعيد إلى الوزارة بعد القبض على الصاحب تاج الدين عبدالرحيم بن عبدالله الله بن موسى بن أبى بكر بن أبى شاكر فى ذى القعدة سنة خمس وتسعين، وقبض عليه وعلى ولده فى حادى عشرى شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسلما مع عدة من الكتاب لشاد الدواوين، ثم أفرج عنهما على حمل مال. فلما ولى الأمير ناصر الدين محمد بن رجب ابن كلفت الوزارة بعد الوزير أبى الفرج قرر ابن البقرى فى نظر الدولة عوضاً عن بدر الدين الاقفهسى واستخدم بقية الوزراء كما فعل الوزير ابن الحسام. فلما خلع السلطان على الامير ناصر الدين محمد بن تنكز وجعله استادار الأملاك فى رجب سنة سبع وتسعين قرر ابن البقرى ناظر الأملاك وخلع عليه فصار يتحدث فى نظر الدولة ونظر الأملاك. فلما كان يوم الخميس رابع رجب سنة ثمان وتسعين أعيد إلى الوزارة وصرف عنها الأمير مبارك شاه ناظر الظاهرى واستقر بدر الدين محمد بن محمد الطوخى فى نظر الدولة ثم قبض عليه فى يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة تسع وتسعين وأحيط بسائر ما قدر عليه من موجوده، وولى الوزارة بعده ابن الطوخى وغوقب عقاباً شديداً فى دار الأمير علاء الدين على بن الطبلاوي، ثم أخرج نهاراً وهو عار مكشوف الرأس وبيده حبل يجر به وثيابه مضمومة بيده الأخرى والناس تراه من درب قراصياً برحبه باب العيد فى السوق إلى دار ابن الطبلاوي، وقد انتهك بدنه من شدة الضرب فسجن بدار هناك ثم خنق فى ليلة الإثنين رابع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وكان أحد كتاب الدنيا الذين انتهت إليهم السيادة فى كتابة الرسوم الديوانية مع عفة الفرج وجودة الرأى وحسن التدبير إلا أنه لم يؤت سعداً فى وزارته، ومابرح ينكب كل قليل، وكان يظهر

الإسلام ويكتب بخطه كتب الحديث وغيرها ويهم فى باطن الأمر بالتشدد فى النصرانية، وولى ابنه تاج الدين عبدالله الوزارة ونظر الخاص ومات قتيلاً تحت العقوبة عند الأمير جمال الدين يوسف الاستدار فى سنة ثمان وثمانمائة ودار أبن البقرى هذه من أعظم دور القاهرة وهى من جملة خط حارة الجوانية فى أولها.

(دار طولباى) هذه الدار بجوار حمام الأعسر برأس حارة الجوانية تجاه درب الرشيد أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الوزير ثم عرفت بخوند طولباى الناصرية جهة الملك الناصر.

(طلنباى) ويقال دلبية ويقال طلوبية ابنة طغاجى بن هندر بن بكر ابن دوشى خان ابن جنكز خان ذات الستر الرفيع الخاتونى كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد جهز الامير أيدغدى الخوارزمى فى سنة ست عشرة وسبعمائة يخطب إلى أزبك ملك التتار بنتا من الذرية الجنكزية فجمع أزبك أمراء التومانات وهم سبعون أميراً وكلمهم الرسول فى ذلك فنفروا منه ثم اجتمعوا ثانياً بعدما وصلت إليهم هداياهم وأجابوا ثم قالوا إلا أن يكون هذا لايكون إلا بعد أربع سنين سنة سلام وسنة خطبة وسنة مهاداة وسنة زواج واشتطوا فى طلب المهر فرجع السلطان عن الخطبة ثم توجه سيف الدين طوخى بهدية وخلعة لأزبك فلبسها وقال لطوخى قد جهزت لأخى الملك الناصر ما كان طلب وعينت له بنتاً من بيت جنكزخان من نسل الملك ياطر خان. فقال طوخى لم يرسلنى السلطان فى هذا. فقال أزبك أنا أرسلها إليه من جهتى وأمر طوخى بحمل مهرها فاعتذر بعدم المال فقال نحن نقترض من التجار فاقترض عشرين ألف دينار وحملها ثم قال لابد من عمل فرح تجتمع فيه الخواتين فاقترض مالاً آخر نحو سبعة آلاف دينار، وعمل الفرح وجهزت الخاتون طلنباى ومعها جماعة من الرسل وهم بانجاز من كبار المغل وطقبغا ومنعوش وطرحى وعثمان ويكتمر وقرطبا والشيخ برهان الدين إمام الملك أزبك وقاضى حراى فساروا فى زمن الخريف وأقاموا فلم يجدوا ريحاً تسير بهم فأقاموا فى بر الروم على مينا ابن مشتا خمسة أشهر وقام بخدمتهم هو والأشكرى ملك قسطنطينية وأنفق عليهم الأشكرى ستين ألف دينار فوصلوا إلى الإسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وسبعمائة فلما طلعت الخاتون من المراكب حملت فى خركاة من الذهب على العجل وجرها المماليك إلى دار السلطنة بالإسكندرية

وبعث السلطان إلى خدمتها عدة من الحجاب وثمانى عشرة من الحرم، ونزلت فى الحراقة فوصلت إلى القلعة يوم الإثنين خامس عشرى ربيع الأول المذكور وفرش لها بالمناظر فى الميدان دهليز أطلس معدني، ومد لهم سماط وفى يوم الخميس ثانى عشريه أحضر السلطان رسل أزبك ووصل رسل ملك الكرج ورسل الأشكرى بتقادمهم ثم بعث إلى الميدان الأمير سيف الدين أرغون النائب والأمير بكتمر الساقى والقاضى كريم الدين ناصر الخاص. فمشوا فى خدمة الخاتون إلى القلعة وهى فى عز ثم عقد عليها يوم الإثنين سادس ربيع الآخر على ثلاثين ألف دينار حالة المعجل منها عشرون ألفاً، وعقد العقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وقبل عن السلطان النائب أرغون، وبنى عليها وأعاد الرسل بعد أن شملهم من الإنعام ما أربى على أملهم ومعهم هدية جليلة. فساروا فى شعبان وتأخر قاضى حراى حتى حج وعاد فى سنة إحدى وعشرين وماتت فى رابع عشرى ربيع الآخر سنة خمس وستين وسبعمائة، ودفنت بتربتها خارج باب البرقية بجوار تربة خوند طغاى أم أنوك.

(**دار حارس الطير**) هذه الدار بداخل درب قراصيا بخط رحبة باب العيد. عرفت بالأمير سيف الدين سنبغا حارس الطير، ترقى فى الخدم إلى أن صار نائب السلطنة بديار مصر فى أيام السلطان حسن بن محمد بن قلاون بعد يلبغاروس ثم عزل بالأمير قبلاى، وجهز إلى نيابة غزة فأقام بها شهرا، وقبض عليه وحضر مقيدا إلى الإسكندرية فى شعبان سنة اثنين وخمسين فسجن بها مدة ثم أخرج إلى القدس فأقام بطالا مدة، ثم نقل إلى نيابة غزة فى شعبان سنة ست وخمسين وسبعمائة.

(**الدار القردمية**) هذه الدار خارج باب زويلة بخط الموازيين من الشارع المسلوك فيه إلى رأس المنجبية. بناها الأمير الجاى الناصرى مملوك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان من أمره أنه ترقى فى الخدم السلطانية حتى صار دوادار السلطان بغير إمرة رفيقا للامير بهاء الدين أرسلان الدوادار. فلما مات بهاء الدين استقر مكانه بإمره عشرة مدة ثلاث سنين ثم أعطى إمرة طبلخاناه وكان فقيها حنفيا. يكتب الخط المليح، ونسخ بخطه القرآن الكريم فى ربعة، وكان عفيفا عن الفواحش. حليما لا يكاد يغضب. مكبا على الاشتغال بالعلم. محبا لاقتناء الكتب مواظبا على مجالسه أهل العلم وبالغ فى إتقان عمارة هذه الدار بحيث إنه أنفق على بوابتها خاصة مائة ألف درهم فضة. عنها يومئذ نحو الخمسة آلاف مثقال من

الذهب . فلما تم بناؤها لم يتمتع بها غير قليل ومرض فمات فى أوائل شهر رجب ، وقيل فى رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة وهو كهل . فدفن بقرافة مصر . فسكنها من بعده خوند عائشة خاتون المعروفة بالقردمية ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون زمانا . فعرفت بها ، وكانت هذه المرأة ممن يضرب بغناها وسعادتها المثل . إلا أنها عمرت طويلا وتصرفت فى مالها تصرفا غير مرضٍ فتلف فى اللهو حتى صارت تعد من جملة المساكين ، وماتت فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ومخدتها من ليف . ثم سكن هذه الدار الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار مدة . وأنشأ تجاهها مدرسة .

(**دار الصالح**) هذه الدار بحارة الديلم قريبا من السجن وكانت دار الصالح طلائع بن رزيك . يسكنها وهو أمير قبل أن يلى الوزارة . بناها فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ومازالت باقية إلى أن خربها الأمير الوزير ركن الدين عمر بن محمد بن قايماز فى سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وبناها على ما هى عليه الآن .

(**دار بهادر**) هذه الدار بالقاهرة جوار المشهد الحسينى فى درب جرجى المقابل للأبارين المسلوك منه إلى دار الضرب وغيره . أنشأها الأمير بهادر رأس نوبة أحد مماليك الملك المنصور قلاوون ، واتفق أنه كان ممن مالأ الأمير بدر الدين بيدر على قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون . فلما قدر الله بانتقاض أمر بيدر أو قتله وإقامة الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد أخيه الأشرف خليل قبض على جماعة ممن وافق على قتل الملك الأشرف خليل وقد تجمعت المماليك الأشرفية مع الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وهو يومئذ وزير الديار المصرية فى دار النيابة من قلعة الجبل عند الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وإذا بالأمير بهادر المذكور قد حضر هو والأمير جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب المعروف بنميلة ، وكانا قد اختفيا فرقا من سطوة الأشرفية حتى أمر دير أمرها النائب ، وأذن لهما فى طلوع القلعة ، فما هو إلا أن أبصرهما الأشرفيه سلوا سيوفهم وضربوا رقبيتهما فى أسرع وقت فدهش الحاضرون وما استطاعوا أن يتكلموا خوفا من الأشرفية ، واتفق فى بناء هذه الدار ما فيه عبرة لمن اعتبر ، وذلك أن بهادر هذا لما حفر أساسها وجد هناك قبورا كثيرة . فأخرج تلك العظام ورماها . فبلغ ذلك قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد فبعث إليه ينهاه عن نبش القبور ورمى العظام ويخوفه عاقبة ذلك . فقال إذا مت يجروا رجلى ويرمونى . فقال القاضى لما أعيد عليه

هذا الجواب . وقد يكون ذلك . فقدر الله انه لما ضربت رقبته ورقبة أقوش ربط فى رجليهما حبل وجرا من دار النيابة بالقلعة إلى المجاير بالكيمان نعوذ بالله من سوء عاقبة القضاء . ثم عرفت هذه الدار ببيت الأمير جركتمر بن بهادر المذكور، وكان خصيصا بالأمير قوصون . فبعثه لقتل السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما نفاه إلى مدينة قوص بعد خلعه . فتولى قتله ، فلما قبض على قوصون قبض على جركتمر فى ثانى شعبان سنة اثنين وأربعين وسبعمائة وقتل بالإسكندرية هو وقوصون فى ليلة الثلاثاء ثامن عشر شوال . تولى قتلهما الأمير ابن طشتمر طلبة وأحمد بن صبيح ، وكان جركتمر هذا فيه أدب وحشمة ، وأول أمره كان من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكيرى . فقدمه وأعطاه إمرة عشرة ، ثم اتصل بالأمير أرغون النائب فأعطاه إمرة طبلخاناه ، وكان يلعب بالأكره ويجيد فى لعبها إلى الغاية ، ثم عرفت هذه الدار بالأمير سيف الدين بهادر المنجكى استادار الملك الظاهر برقوق لسكنه بها ، وتجديد عمارتها ، وأنشأ بجوارها حماما وكانت وفاته يوم الإثنين الثانى من جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة . وهذه الدار باقية إلى اليوم تسكنها الأمراء .

(**دار البقر**) هذه الدار خارج القاهرة فيما بين قلعة الجبل وبركة ألفيل بالخط الذى يقال له اليوم حدرة البقر . كانت دارا للابقار التى برسم السواقى السلطانية ومنشرا للزبل ، وفيه ساقية ، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون أنشأها دارا واصطبلا ، وغرس بها عدة أشجار وتولى عمارتها القاضى كريم الدين عبدالكريم الكبير ، فبلغ المصروف على عمارتها ألف ألف درهم ، وعرفت بالأمير طقتمر الدمشقى ، ثم عرفت بدار الأمير طاش تمر حمص أخضر ، وهذه الدار باقية إلى وقتنا هذا ينزلها أمراء الدولة .

(**قصر بكتمر بالساقي**) هذا القصر من أعظم مساكن مصر وأجلها قدرا . وأحسنها بنيانا . وموضعه تجاه الكبش على بركة ألفيل أنشأه الملك الناصر محمد ابن قلاوون لسكن اجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساقى ، وأدخل فيه أرض الميدان التى أنشأها الملك العادل كتبغا ، وقصد أن يأخذ قطعة من بركة ألفيل ليتسع بها الاصطبل الذى للأمير بكتمر بجوار هذا القصر فبعث إلى قاضى القضاة شمس الدين الحريرى الحنفى ليحكم باستبدالها على قاعدة مذهبه فامتنع من ذلك تنزها وتورعا ، واجتمع بالسلطان وحدثه فى ذلك . فلما رأى كثرة

ميل السلطان إلى أخذ الأرض نهض من المجلس مغضبا وصار إلى منزله فأرسل القاضى كريم الدين الكبير ناظر الخواص إلى سراج الدين الحنفى عن أمر السلطان وقلده قضاء مصر منفردا عن القاهرة. فحكم باستبدال الأرض فى غزة رجب سنة سبع عشرة وسبعمائة. فلم يلبث سوى مدة شهرين ومات فى أول شهر رمضان. فاستدعى السلطان قاضى القضاة شمس الدين الحريرى وأعاده إلى ولايته، وكمل القصر والاصطبل على هيئة قل ما رأت الأعين مثلها. بلغت النفقة على العمارة فى كل يوم مبلغ ألف وخمسمائة درهم فضة مع جاه العمل. لأن العجل التى تحمل الحجارة من عند السلطان، والحجارة أيضا من عند السلطان، والفعلة فى العمارة أهل السجون المقيدون من المحابيس، وقدر لو لم يكن فى هذه العمارة جاه ولا سخرة لكان مصروفها فى كل يوم مبلغ ثلاثة آلاف درهم فضة. وأقاموا فى عمارته مدة عشرة أشهر فتجاوزت النفقة على عمارته مبلغ ألف ألف درهم فضة. عنها زيادة على خمسين ألف دينار، سوى ما حمل وسوى من سخر فى العمل. وهو بنحو ذلك فلما تمت عمارته سكنه الأمير بكتمر الساقى، وكان له فى اصطبله هذا مائة سطل نحاس لمائة سائس كل سائس على ستة أرؤس خيل سوى ما كان له فى الحشارات والنواحى من الخيل، وكان من المغرب يغلق باب اصطبله فلا يصير لأحد به حس ولما تزوج أنوك بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بابنة الأمير بكتمر الساقى فى سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة خرج شوارها من هذا القصر، وكان عدة الحمالين ثمانمائة حمال. المساند الزركش على أربعين حمالا عدتها عشرة مساند، والمدورات ستة عشر حمالا، والكراسى اثنا عشر حمالا، وكراسى لطاف أربعة حمالين، وفضيات تسعة وعشرون حمالا، وسلم الدكك أربعة حمالين، والدكك والتخوت الأبنوس المفضضة والموشقة مائة واثنين وستين حمالا، والنحاس الكفت ثمانية وأربعين حمالا، والصينى ثلاثة وثلاثين حمالا، والزجاج المذهب اثنى عشر حمالا، والنحاس الشامى اثنين وعشرين حمالا، وصناديق الحوائج خاناه ستة حمالين، وغير ذلك تتمه العدة، والبغال المحملة ألفرش واللحف والبسط والصناديق التى فيها المصانع تسعة وتسعين بغلا. قال العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى: قال المهذب الكاتب: الزركش والمصاغ ثمانون قنطارا بالمصرى ذهب، ولما مات بكتمر هذا صار هذا الوقف من بعده من جملة أوقافه. فتولى أمره وأمر سائر أوقافه. أولاده حتى انقرض

أولاده وأولاد أولاده. فصار أمر الأوقاف إلى ابن ابنته وهو أحمد بن محمد بن قرطاى المعروف بأحمد بن بنت بكتمر، وهذا القصر فى غاية من الحسن ولا ينزله إلا أعيان الأمراء. إلى أن كانت سنة سبع عشرة وثمانمائة، وكان العسكر غائبا عن مصر مع الملك المؤيد فى محاربة الأمير نوروز الحافظى بدمشق عمد هذا المذكور القصر فأخذ رخامه وشبابيكه وكثيراً من سقوفه وأبوابه وغير ذلك وباع الجميع، وعمل بدل الرخام البلاط وبدل الشبابيك الحديد بالخشب، وفطن به أعيان الناس فقصدوه، واخذوا منه أصنافا عظيمة بثمن وبغير ثمن وهو الآن قائم البناء يسكنه الأمراء.

(**الدار البيسرية**) هذه الدار بخط بين القصرين من القاهرة. كانت فى آخر الدولة ألفاطمية لما قويت شوكة الفرنج قد أعدت لمن يجلس فيها من قصاد الفرنج. عند ما تقرر الأمر معهم على أن يكون نصف ما يحصل من مال البلد للفرنج. فصار يجلس فى هذه الدار قاصد معتبر عند ألفرنج يقبض المال فلما زالت الدولة بالغز، ثم زالت دولة بنى أيوب، وولى سلطنة مصر الملوك من الترك إلى أن كانت أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى شرع الأمير ركن الدين بيبرس الشمسى الصالحى النجمى فى عمارتها فى سنة تسعه وخمسين وستمائة وتأنق فى عمارتها، وبالغ فى كثرة المصروف عليها، فأنكر الملك الظاهر ذلك من فعله. وقال له: ياأمير بدر الدين أى شىء خليت للغزاة والترك فقال صدقات السلطان والله ياخوند مابنيت هذه الدار إلا حتى يصل خبرها إلى بلاد العدو، ويقال بعض مماليك السلطان عمر دارا غرم عليها مالا عظيماً فأعجب من قوله ذلك السلطان وأنعم عليه بألف دينار عينا، وعد هذا من أعظم إنعام السلطان فجاء سعة هذه الدار باصطبلها وبستانها والحمام بجانبها نحو فدانين، ورخامها من أبهج رخام عمل فى القاهرة وأحسنه صنعة. فكثر تعجب الناس إذ ذاك من عظمها. لما كان فيه أمراء الدولة ورجالها حينئذ من الاقتصاد. حتى أن الوأحد منهم إذا صار أميراً لايتغير عن داره التى كان يسكنها وهو من الأجناد، وعندما كملت عمارة هذه الدار وقفها وأشهد عليه بوقفها اثنين وتسعين عدلا من جملتهم قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد وقاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز وقاضى القضاة تقى الدين بن رزين قبل ولايتهم القضاء فى حال تحملهم الشهادة، ومازالت بيد ورثة بيسرى إلى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة. فشرهت نفس الأمير قوصون إلى أخذها وسأل السلطان الملك الناصر محمد بن

قلاوون فى ذلك فأذن له فى التحدث مع ورثة بيسري . فأرسل إليهم ووعدهم ومناهم وأرضاهم حتى أذعنوا له فبعث السلطان إلى قاضى القضاة شرف الدين الحرانى الحنبلى يلتمس منه الحكم باستبدالها كما حكم باستبدال بيت قتال السبع وحمامه الذى أنشأ جامعه بخط خارج الباب الجديد من الشارع . فأجاب إلى ذلك ونزل إليها علاء الدين بن هلال الدولة شاد الدواوين ومعه شهود القيمة . فقومت بمائة ألف درهم وتسعين ألف درهم نقرة، وتكون الغبطة للأيتام عشرة آلاف درهم نقرة. لتتم الجملة مائتى ألف درهم نقرة، وحكم قاضى القضاة شرف الدين الحرانى ببيعها ، وكان هذا الحكم مما شنع عليه فيه ، ثم اختلفت الأيدى فى الاستيلاء على هذه الدار ، واقتدى القضاة بعضهم ببعض فى الحكم باستبدالها وآخر ماحكم به من استبدالها فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة فصارت من جملة الأوقاف الظاهرية برقوق. وهى الآن بيد ابنة بيرم، وكان لها باب بوابته من أعظم ماعمل من البوابات بالقاهرة ويتوصل إلى هذه الدار من هذا الباب ، وهو بجوار حمام بيسرى من شارع بين القصرين ، وقد بنى تجاه هذا الباب حوانيت حتى خفي ، وصار يدخل إلى هذه الدار من باب آخر بخط الخرشتف .

(بيسرى) الأمير شمس الدين الشمسى الصالحى النجمى أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية . تنقل فى الخدم حتى صار من أجل الأمراء فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، واشتهر بالشجاعة والكرم وعلو الهمة ، وكانت له عدة مماليك راتب كل واحد منهم مائة رطل لحم وفيهم من له عليه فى اليوم مبلغ ستين عليقة لخيله ، وبلغ عليق خيله وخيل مماليكه فى كل يوم ثلاثة آلاف عليقة سوى علف الجمال ، وكان ينعم بالألف دينار وبالخمسمائة غير مرة ، ولما فرق الملك العادل كتبغا المماليك على الأمراء بعث إليه بستين مملوكاً. فأخرج إليهم فى يومهم لكل واحد فرسين وبغلا ، وشكا إليه استاداره كثرة خرجه وحسن له الاقتصاد فى النفقة فحنق عليه وعزله ، وأقام غيره وقال لايرنى وجهه أبداً، ولم يعرف عنه أنه شرب الماء فى كوز واحد مرتين ، وإنما يشرب كل مرة فى كوز جديد ثم لايعاود الشرب منه ، وتنكر عليه الملك المنصور قلاوون فسجنه فى سنة ثمانين وستمائة ومازال فى سجنه إلى أن مات الملك المنصور ، وقام من بعده ابنه الملك الأشرف خليل فأفرج عنه فى سنة اثنين وتسعين وستمائة بعد عوده من دمشق بشفاعة الأمير بيدرا والأمير سنجر

الشجاعي ، وأمر أن يحمل إليه تشريف كامل ، ويكتب له منشور بإمرة مائة فارس وإنه يلبس التشريف من السجن . فجهز التشريف وحمل إليه المنشور فى كيس حرير أطلس وعظم فيه تعظيماً زائداً ، وأثنى عليه ثناء جما وسار إليه بيدر والجشاعى والدوادار والأفرم إلى السجن ليمشوا فى خدمته إلى أن يقف بين يدى السلطان فامتنع من لبس التشريف والتزم بأيمان مغلظة أنه لايدخل على السلطان إلا بقيده ولباسه الذى كان عليه فى السجن ، وتسامعت الأمراء وأهل القلعة بخروجه فهرعوا إليه ، كان لخروجه نهار عظيم ، ودخل على السلطان بقيده فأمر به ففك بين يديه وأفيض عليه التشريف . فقبل الأرض وأكرمه السلطان وأمره فنزل إلى داره وخرج الناس إلى رؤيته وسروا بخلاصه . فبعث إليه السلطان عشرين فرساً وعشرين اكديشا وعشرين بغلا ، وأمر جميع الأمراء أن يبعثوا إليه . فلم يبق أحد حتى سير إليه مايقدر عليه من التحف والسلاح ، وبعث إليه أمير سلاح ألفى دينار عينا ، وكانت مدة سجنه أحدى عشرة سنة وأشهر فصار يكتب بعد خروجه من السجن بيسرى الأشرفى بعد ما كان يكتب بيسرى الشمسي ، ومازال إلى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فأخذ الأمير منكو تمر يغريه بالأمير بيسرى ويخوفه منه ، وإنه قد تعين للسلطنة . فعمله كاشف الجيزه وأمره أن يحضر الخدمة يومى الأثنين والخميس بالقلعة ويجلس رأس الميمنة تحت الطواشى حسام الدين بلال المغيثى لأجل كبره وتقدمه ثم زاد منكوتمر فى الإغراء به والسلطة تستمهله إلى أن قبض عليه وسجنه فى سنة سبع وتسعين وستمائة ، وأحاط بسائر موجوده ، وحبس عدة من مماليكه فسر منكوتمر بمسكه سروراً عظيما واستمر فى السجن إلى أن مات فى تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وستمائة وعليه ديون كثيرة ودفن بتربته خارج باب النصر رحمة الله تعالى .

(**قصر بشتاك**) هذا القصر هو الآن تجاه الدار البيسرية ، وهو من جملة القصر الكبير الشرقى الذى كان مسكنا للخلفاء ألفاطميين ، ويسلك إليه من الباب الذى كان يعرف فى أيام عمارة القصر الكبير فى زمن الخلفاء بباب البحر ، وهو يعرف اليوم بباب قصر بشتاك تجاه المدرسة الكاملية ، ومازال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش ألفخرى المعروف بأمير سلاح ، وأنشأ دورا واصطبلات ومساكن له ولحواشيه ، وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الخدمة السلطانية بقلعة الجبل فى موكب عظيم زائد

الحشمة، ويدخل كل منهما إلى داره، وكان موضع هذا القصر عدة مساجد فلم يتعرض لهدمها وأبقاها على ماهى عليه. فلما مات أمير سلاح، وأخذ الأمير قوصون الدار البيسرية كما تقدم ذكره أحب الأمير بشتاك أن يكون له أيضاً دار بالقاهرة، وذلك أن قوصون وبشتاك كانا يتناظران فى الأمور، ويتضادان فى سائر الأحوال، ويقصد كل منهما أن يسامى الآخر، ويزيد عليه فى التجمل. فأخذ بشتاك يعمل فى الإستيلاء على قصر أمير سلاح حتى اشتراه من ورثته. فأخذ من السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قطعة أرض كانت داخل هذا القصر من حقوق بيت المال، وهدم دارا كانت قد أنشئت هناك، عرفت بدار قطوان الساقي، وهدم أحد عشر مسجداً وأربعة معابد كانت من آثار الخلفاء يسكنها جماعة الفقراء، وأدخل ذلك فى البناء إلا مسجداً منها فإنه عمره، ويعرف اليوم بمسجد الفجل. فجاء هذا القصر من أعظم مبانى القاهرة فإن ارتفاعه فى الهواء أربعون ذراعاً، ونزول أساسه فى الأرض مثل ذلك والماء يجرى بأعلاه، وله شبابيك من حديد تشرف على شارع القاهرة، وينظر من أعلاه عامة القاهرة والقلعة والنيل والبساتين، وهو مشرق جليل مع حسن بنائه وتأنق زخرفته والمبالغة فى تزويقه وترخيمه، وأنشأ أيضاً فى أسفله حوانيت كان يباع فيها الحلوى وغيرها. فصار الأمر أخيراً كما كان أولاً بتسمية الشارع بين القصرين. فإنه كان أولاً كما تقدم بالقاهرة القصر الكبير الشرقى الذى قصر بشتاك من جملته، وتجاهه القصر الغربى الذى الخرشتف من جملته. فصار قصر بشتاك وقصر بيسرى وما بينهما من الشارع يقال له بين القصرين. ومن لا علم له يظن إنما قيل لهذا الشارع بين القصرين لأجل قصر بيسرى وقصر بشتاك. وليس هذا بصحيح، وإنما قيل له بين القصرين قبل ذلك من حين بنيت القاهرة. فإنه كان بين القصرين القصر الكبير الشرقى والقصر الصغير الغربي، وقد تقدم ذلك مشروحاً مبيناً، ولما أكمل بشتاك بناء هذا القصر والحوانيت التى فى أسفله والخان المجاور له فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة لم يبارك له فيه، ولاتمتع به، وكان إذا نزل إليه ينقبض صدره ولا تنبسط نفسه مادام فيه حتى يخرج منه. فترك المجيء إليه فصار يتعاهده أحياناً فيعتريه ماتقدم ذكره فكرهه وباعه لزوجة بكتمر الساقي، وتداوله ورثتها إلى أن أخذه السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، فاستقر بيد أولاده إلى أن تحكم الأمير الوزير المشير جمال الدين الأستادار فى مصر أقام من شهد عند قاضى القضاة كمال الدين

عمر بن العديم الحنفى بأن هذا القصر يضر بالجار والمار وأنه مستحق للإزالة والهدم. كما عمل ذلك فى غير موضع بالقاهرة. فحكم له باستبداله وصار من جمة أملاكه فلما قتله الملك الناصر. فرج بن برقوق استولى على سائر ماتركه وجعل هذا القصر فيما عينه للتربة التى أنشاها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر فاستمر فى جملة أوقاف التربة المذكورة إلى أن قتل الملك الناصر بدمشق فى حرب الأمير شيخ والأمير نوروز، وقدم الأمير شيخ إلى مصر هو والخليفة المستعين بالله العباسى ابن محمد وقف له من بقى من أولاد جمال الدين وأقاربه، وكان لأهل الدولة يومئذ بهم عناية. فحكم قاضى القضاة صدر الدين على بن الأدمى الحنفى بارتجاع أملاك جمال الدين التى وقفها على ماكانت عليه. فتسلمها أخوه وصار هذا القصر إليهم، وهو الآن بيدهم.

(**قصر الحجازية**) هذا القصر بخط رحبة باب العيد بجوار المدرسة الحجازية. كان يعرف أولا بقصر الزمرد فى أيام الخلفاء الفاطميين من أجل أن باب القصر الذى كان يعرف بباب الزمرد كان هناك كما تقدم ذكره فى هذا الكتاب عند ذكر القصور. فلما زالت الدولة الفاطمية صار من جملة ماصار بيد ملوك بنى أيوب واختلفت عليه الأيدى إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين أمير مسعود بن خطير الحاجب من أولاد الملوك بنى أيوب، واستمر بيده إلى أن رسم بتسفيره من مصر إلى مدينة غزة واستقر نائب السلطنة بها فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. وكاتب الأمير سيف الدين قوصون عليه وملكه أياه فشرع فى عمارة سبع قاعات. لكل قاعة اصطبل ومنافع ومرافق، وكانت مساحة ذلك عشرة أفدنة فمات قوصون قبل أن يتم بناء ما أراد من ذلك فصار يعرف بقصر قوصون إلى أن اشترته خوندتتر الحجازية ابنة لملك الناصر محمد بن قلاوون وزوج الأمير ملكتمر الحجازى فعمرتة عمارة ملوكية وتأنقت فيه تألقا زائدا، وأجرت الماء إلى أعلاه وعملت تحت القصر اصطبلا كبيراً لخيول خدامها، وساحة كبيرة يشرف عليها من شبابيك حديد. فجاء شيئاً عجيباً حسنه، وأنشأت بجواره مدرستها التى تعرف إلى اليوم بالمدرسة الحجازية وجعلت هذا القصر من جملة ماهو موقوف عليها. فلما ماتت سكنه الأمراء بالأجرة. إلى أن عمر الأمير جمال الدين يوسف الاستادار داره المجاورة للمدرسة السابقية وتولى استادارية الملك الناصر فرج صار يجلس برحبة هذا القصر والمقعد الذى كان بها، وعمل القصر سجنا يحبس فيه من

يعاقبه من الوزراء والأعيان فصار موحشاً يروع النفوس ذكره لما قتل فيه من الناس خنقا وتحت العقوبة، من بعد ماأقام دهراً وهو مغنى صبابات وملعب أتراب وموطن أفراح ودار عز ومنزل لهو ومحل أمانى النفوس ولذاتها، ثم لما فحش كلب جمال الدين وشنع شرهه فى اغتصاب الأوقاف أخذ هذا القصر يتشعث شىء من زخارفه، وحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم الحنفى باستبداله كما تقدم الحكم فى نظائره. فقلع رخامه فلما قتل صار معطلا مدة وهم الملك الناصر فرج ببنائه رباطا ثم انثنى عزمه عن ذلك. فلما عزم على المسير إلى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز فى سنة أربع عشرة وثمانمائة نزل إليه الوزير الصاحب سعد الدين إبراهيم بن البشيرى وقلع شبابيكه الحديد لتعمل آلات حرب وهو الآن بغير رخام ولا شبابيك قائم على أصوله لايكاد ينتفع به إلا أن الأمير المشير بدر الدين حسن بن محمد الاستادار لما سكن فى بيت الأمير جمال الدين جعل ساحة هذا القصر اصطبلا لخيوله، وصار يحبس فى هذا القصر من يصادره أحياناً، وفى رمضان سنة عشرين وثمانمائة ذكر الأمير فخر الدين عبد الغنى بن أبى ألفرج الاستادار ما يجده المسجونون فى السجن المستجد عند باب الفتوح بعد هدم خزانة شمائل من شدة الضيق وكثرة الغم. فعين هذا القصر ليكون سجنا لأرباب الجرائم، وأنعم على جهة وقف جمال الدين بعشرة آلاف درهم فلوساً عن أجرة سنتين فشرعوا فى عمله سجنا وأزالوا كثيرا من معالمه ثم ترك على مابقى فيه ولم يتخذ سجنا.

(**قصر يلبغا اليحياوى**) هذا القصر موضعه الآن مدرسة السلطان حسن المطلة على الرميلة تحت قلعة الجبل كان قصرا عظيماً أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ببنائه. لكن الأمير يلبغا اليحياوى رأى أن يبنى أيضاً قصرا يقابله برسم سكنى الأمير الطنبغا الماردينى لتزايد رغبته فيهما وعظيم محبته لهما حتى يكونا تجاهه وينظر إليهما من قلعة الجبل. فركب بنفسه إلى حيث سوق الخيل من الرميلة تحت القلعة وسار إلى حمام الملك السعيد وعين اصطبل الأمير أيدغمش أميرا خور، وكان تجاهها ليعمره هو وما يقابله قصرين متقابلين، ويضاف إليه اصطبل الأمير طاشتمر الساقى واصطبل الجوق، وأمر الأمير قوصون أن يشترى مايجاور اصطبله من الأملاك ويوسع فى اصطبله وجعل أمر هذه العمارة إلى الأمير أقبغا عبد الواحد فوقع الهدم فيما كان بجوار بيت الأمير قوصون وزيد فى

الاصطبل وجـعل باب هذا الاصطبل من تجـاه باب القلعـة المعـروف بيـاب السلسلة ، وأمـر السلطان بالنفقة على العمارة من مال السلطان على يد النشو ، وكان لذلك الناصر رغبة كبيرة فى العمـارة بحيث أنه أفرد لها ديوانا وبلغ مصروفها في كل يوم اثنا عشر ألف درهم نقرة ، وأقل ما كـان يصرف من ديوان العمارة في اليوم برسم العمارة مبلغ ثمانية آلاف درهم . فلما كثر الاهتمام فى بناء القصرين المذكورين وعظم الاجتهاد في عمارتهما ، وصار السلطان ينزل من القلعـة لكشف العمل ويستحث على فراغهما ، وأول مـابدئ به قصر يلبغا اليحياوى فعمل أساسه حضيرة وأحدة انصرف عليها وحدها مبلغ أربعمائة ألف درهـم نقرة ، ولـم يبق فى القاهرة ومصر صانع له تعلق فى العمارة إلا وعمل فيها حتى كمل القصر فجاء فى غاية الحسن وبلغت النفـقة عليـه مبلغ أربعـمائة ألف وستين ألف درهم نقـرة منهـا ثمن لازورد خاصة مائة ألف درهم . فلما كملت العمارة نزل السلطان لرؤيتها ، وحضر يومئذ من عند الأمير سيف الدين طرغاى نائب حلب تقدمة من جملتها عشرة أزواج بسط . أحدها حرير ، وعدة أوانى من بلور ونحوه وخيل وبخاتي . فأنعم بالجميع على الأمير يلبغا اليحياوي ، وأمر الأمير أقبغا عبد الواحد أن ينزل إلى هذا القصر ومعه أخوان سلار برفقته وسائر أرباب الوظائف لعمل مهم . فبات النشو ناظر الخاص هناك لتعبية مايحتاج إليه من اللحوم والتوابل ونحوها ، فلما تهيأ ذلك حضر سائر أمراء الدولة من أول النهار وأقاموا بقصر يلبغا اليحياوى فى أكل وشرب ولهو وفى آخر النهار حضرت إليهم التشاريف السلطانية وعدتها أحد عشر تشريفاً برسم أرباب الوظائف ، وهم الأمير أقبغا عبد الوأحد والاستادار والأمير قوصون الساقى والأمير بشتاك والأمير طفوزدمر أمير مجلس فى آخرين ، وحضر لبقية الأمراء خلع وأقبية على قدرمراتبهم فلبس الجميع التشاريف والخلع والأقبية ، وأركبوا الخيول المحضرة إليهم من الاصطبل السلطانى بسروج وكنابيش مابين ذهب وفضة بحسب مراتبهم ، وساروا إلى منازلهم وذبح فى هذا المهم ستمائة رأس غنم وأربعون بقرة وعشرون فرساً ، وعمل فيه ثلاثمائة قنطار سكر برسم المشروب فإن القوم يومئذ لم يكونوا يتظاهرون بشرب الخمر ولاشىء من المسكرات البتة ، ولايجسر أحد على عمله فى مهم ألبتة ، ومازالت هذه الدار باقية إلى أن هدمها السلطان الملك الناصر حسن وأنشأ موضعها مدرسته الموجودة الآن .

(**اصطبل قوصون**) هذا الاصطبل بجوار مدرسة السلطان حسن وله بابان باب من الشارع بجوار حدرة البقر وبابه الآخر تجاه باب السلسلة الذى يتوصل منه إلى الاصطبل السلطانى وقلعة الجبل. أنشأه الأميرعلم الدين سنجر الجمقدار، فأخذه منه الأمير سيف الدين قوصون وصرف له ثمنه من يت المال. فزاد فيه قوصون اصطبل الأمير سنقر الطويل، وأمره الملك الناصر محمد بن قلاوون بعمارة هذا الاصطبل. فبنى فيه كثيرا وادخل فيه عدة عمائر ما بين دور واصطبلات. فجاء قصرا عظيما إلى الغاية، وسكنه الأمير قوصون مدة حياة الملك الناصر فلما مات السلطان وقام من بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر عمل عليه قوصون وخلعه، واقام بعده بدله الملك الأشرف كجك بن الملك الناصر محمد. فلما كان فى سنة اثنين واربعين وسبعمائة حدث فى شهر رجب منها فتنة بين الأمير قوصون وبين الأمراء وكبيرهم ايدغمش اميراخور فنادى ايدغمش فى العامة يا كسابة عليكم باصطبل قوصون. انهبوه. هذا وقوصون محصور بقلعة الجبل فاقبلت العامة من السؤال والغلمان والجند إلى اصطبل قوصون فمنعهم المماليك الذين كانوا فيه، ورموهم بالنشاب واتلفوا منهم عدة. فثارت مماليك الأمير يلبغا اليحياوى من أعلى قصر يلبغا، وكان بجوار قصر قوصون حيث مدرسة السلطان حسن، ورموا مماليك قوصون وأنهبوا مكا كان بركاب خاناته وحواصله وكروا باب القصر بألفوس وصعدوا إليه بعد ما تسلقوا إلى القصر من خارجه فخرجت مماليك قوصون من الاصطبل يدا وأحدة بالسلاح وشقوا القاهرة وخرجوا إلى ظاهر باب النصر يريدون الأمراء الواصلين من الشام فأتت النهاية على جميع ما فى اصطبل قوصون من الخيل والسروج وحواصل المال التى كانت بالقصر، وكانت تشتمل من أنواع المال والقماش والاوانى الذهب وألفضة على مالا يحد ولا يعد كثرة وعندما خرجت العامة بما نهبته وجدت مماليك الأمراء والاجناد قد وقفوا على باب الاصطبل فى الرميلة لانتظار من يخرج، وكان إذا خرج أحد بشىء من النهب اخذه منه أوقى منه، فإن امتنع من إعطائه قتل واحتمل النهاية أكياس الذهب ونثروها فى الدهاليز والطرق وظفروا بجواهر نفسية وذخائر ملوكية وامتعة جليلة القدر وأسلحة عظيمة وأقمشة مثمنة وجروا البسط الرومية والآمدية وما هو من عمل الشريف، وتقابلوا عليها وقطعوها قطعا بالسكاكين وتقاسموها، وكسروا اوانى البلور والصينى، وقطعوا سلاسل الخيل الفضة والسروج الذهب وألفضة، وفككوا

اللجم وقطعوا الخيم، وكسروا الخركاوات واتلفوا سترها وأغشيتها الاطلس والزركفت وذكر عن كاتب قوصون أنه قال: أما الذهب المكيس والفضة كان ينيف على أربعمائة ألف دينار والبلور والمصاغ المعمول برسم النساء فإنه لا يحصر، وكان هناك ثلاثة أكياس اطلس فيها جوهر قد جمعه فى طول أيامه لكثرة شغفه بالجوهر لم يجمع مثله كان ثمنه نحو المائة ألف دينار، وكان فى حاصله عدة مائة وثمانين زوج بسط منها ما طوله من أربعين ذراعا إلى ثلاثين ذراعا عمل البلاد، وستة عشر زوجا من عمل الشريف بمصر ثمن كل زوج اثنا عشر ألف درهم نقره. منها اربعة ازواج بسط من حرير، وكان من جملة الخام نوبة خام جميعها أطلس قصب. جميع ذلك نهب وكسر وقطع وانحط سعر الذهب بديار مصر عقيب هذه النهبة من دار قوصون حتى بيع المثقال بأحد عشر درهما لكثرته فى أيدى الناس بعد ما كان سعر المثقال عشرين درهما، ومن حينئذ تلاشى أمر هذا القصر لزوال رخامه فى النهب وما برح مسكنا لأكابر الأمراء. وقد اشتهر أنه من الدور المشئومة، وقد أدركت فى فى عمرى غير واحد من الأمراء سكنه وآل أمره إلى مالا خير فيه، وممن سكنه الأمير بركة الزيينى، ونهب نهبة فاحشة، وأقام عدة أعوام خرابا لا يسكنه أحد، ثم أصلح وهو الآن من أجل دور القاهرة.

(**دار أرغون الكامل**) هذه الدار بالجسر الأعظم على بركة ألفيل. انشأها الأمير أرغون الكاملى فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وأدخل فيها من أرض بركة ألفيل عشرين ذراعا.

(**أرغون الكاملي**) الأمير سيف الدين نائب حلب ودمشق تبناه الملك الصالح إسماعيل بن محمد قلاوون، وزوجه أخته من أمه بنت الأمير أرغون العلائى فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وكان يعرف اولا بأرغون الصغير فلما مات الملك الصالح وقام من بعده فى مملكة مصر اخوه الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون إعطاه مائة وتقدمه ألف، ونهى أن يدعى أرغون الصغير، وتسمى أرغون الكاملى. فلمامات الأمير قطليجا الحموى فى نيابة حلب رسم له الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بنيابة حلب فوصل إليها يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رجب سنة خمسين وسبعمائة، وعمل النيابة بها على أحسن ما يكون من الحرمة والمهابة، وهابه التركمان والعرب ومشت الاحوال به، ثم جرت له فتنة مع أمراء حلب فخرج فى نفر يسير إلى دمشق فوصلها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة إحدى

وخمسين فأكرمه ايتمش الناصرى نائب دمشق وجهزه إلى مصر . فأنعم عليه السلطان وأعاده إلى نيابة حلب . فاقام بها إلى أن عزل ايتمش من نيابة دمشق فى أول سلطنة الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون . فنقل من نيابة إلى نيابة دمشق فدخلها فى حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وأقام بها . فلم يصف له بها عيش فاستعفى فلم يجب ، ومازال بها إلى أن خرج يلبغاروس وحضر إلى دمشق فخرج إلى لد واستولى يلبغا روس على دمشق فلما خرج الملك الصالح من مصر وسار إلى بلاد الشام بسبب حركة يلبغاروس تلقاه أرغون وسار بالعساكر إلى دمشق ودخل السلطان بعده وقد فر يلبغا روس فقلده نيابة حلب فى خامس عشرى شهر رمضان وعاد السلطان إلى مصر ، فلم يزل الأمير أرغون بحلب ، وخرج منها إلى الابلستين فى طلب ابن دلغادر ، وحرقها وحرق قراها ودخل إلى قيصرية وعاد إلى حلب فى رجب سنة أربع وخمسين . فلما خلع الملك الصالح بأخيه الملك الناصر حسن فى شوال سنة خمس وخمسين طلب الأمير أرغون من حلب فى آخر شوال فحضر إلى مصر ، وعمل امير مائة مقدم ألف إلى تاسع صفر سنة ست وخمسين فامسك وحمل إلى الإسكندرية واعتقل فيها وعنده زوجته ثم نقل من الإسكندرية إلى القدس . فاقام بها بطالا ، وبنى هناك تربة ومات بها يوم الخميس لخمس بقين من شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة .

(دار طاز) هذه الدار بجوار المدرسة البندقدارية تجاه حمام ألفارقانى على يمنه من سلك من الصليبة يريد حدرة البقر وباب زويلة . انشأها الأمير سيف الدين طاز فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وكان موضعها عدة مساكن هدمها برضا أربابها وبغير رضاهم ، وتولى الأمير منجك عمارتها وصار يقف عليها بنفسه حتى كملت فجاءت قصرا مشيدا واصطبلا كبيرا ، وهى باقية إلى يومنا هذا يسكنها الأمراء ، وفى يوم السبت سابع عشرى جمادى الاخرة سنة اربع وخمسين عمل الأمير طاز فى هذه الدار وليمة عظيمة حضرها السلطان الملك الصالح صالح وجميع الأمراء . فلما كان وقت انصرافهم قدم الأمير طاز للسلطان اربعة افراس بسروج ذهب وكنابيش ذهب ، وقدم للامير سنجر قرسين كذلك ، وللامير صرغتمش فرسين ولكل وأحد من أمراء الألوف فرسا كذلك ، ولم يعهد قبل هذا أن أحدا من ملوك الأتراك نزل إلى بيت أمير قبل الصالح هذا ، وكان يوما مذكورا .

(طاز) الأمير سيف الدين أمير مجلس اشتهر ذكره فى أيام الملك الصالح إسماعيل، ولم يزل أميرا إلى أن خلع الملك الكامل شعبان، وأقيم المظفر حاجى وهو أحد الأمراء الستة ارباب الحل والعقد. فلما خلع الملك المظفر وأقيم الملك الناصر حسن زادت وجاهته وحرمته، وهو الذى أمسك الأمير يلبغا روس فى طريق الحجاز وأمسك أيضا الملك المجاهد سيف الإسلام على ابن المؤيد صاحب بلاد اليمن بمكة وأحضره إلى مصر، وهو الذى قام فى نوبة السلطان حسن لما خلع، وأجلس الملك الصالح صالح على كرسى الملك، وكان يلبس فى درب الحجاز عباءة وسر قولا، ويخفى نفسه ليجسس على أخبار يلبغا روس، ولم يزل على حالة إلى ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة فخلع الصالح، وأعيد الناصر حسن فأخرج طاز إلى نيابة حلب وأقام بها.

(**دار صرغتمش**) هذه الدار بخط بئر الوطاويط بالقرب من المدرسة الصرغتمشية المجاورة لجامع احمد بن طولون من شارع الصليبة كان موضعها مساكن فاشتراها الأمير صرغتمش وبناها قصرا واصطبلا فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وحمل إليه الوزراء والكتاب والأعيان من الرخام وغيره شيئا كثيرا، وقد ذكر التعريف به عند ذكر المدرسة الصرغتمشية من هذا الكتاب فى ذكر المدارس، وهذه الدار عامرة إلى يومنا هذا يسكنها الأمراء ووقع الهدم فى القصر خاصة فى شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وثمانمائة.

(**دار الماس**) هذه الدار بخط حوض ابن هنس فيما بينه وبين حدرة البقر بجوار جامع الماس. أنشأها الأمير الماس الحاجب، واعتنى برخامها عناية كبيرة، واستدعى به من البلاد فلما قتل فى صفر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة أمر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بقلع ما فى هذه الدار من الرخام فقلع جميعه، ونقل إلى القلعة، وهذه الدار باقية إلى يومنا هذا ينزلها الأمراء.

(**دار بهادر المقدم**) هذه الدار بخط الباطلية من القاهرة أنشأها الأمير الطواشى سيف الدين بهادر مقدم المماليك السلطانية فى أيام الملك الظاهر برقوق، وبهادر هذا من مماليك الأمير يلبغا وأقام فى تقدمه المماليك جميع الأيام الظاهرية وكثر ماله وطال عمره حتى هرم ومات فى أيام الملك الناصر فرج وهو على إمرته وفى وظيفته تقدمة المماليك السلطانية يوم

الأحد سابع عشر رجب سنة اثنتين وثمانمائة، وموضع هذه الدار من جملة ما كان احترق من الباطلية فى أيام الملك الظاهر بيبرس كما تقدم فى ذكر حارة الباطلية عند ذكر الحارات من هذا الكتاب، ولما مات المقدم بهادر استقرت من بعده منزلا لأمراء الدولة، وهى باقية على ذلك إلى يومنا هذا.

(**دار الست شقراء**) هذه الدار من جملة كتامة وهى اليوم بالقرب من مدرسة الوزير الصاحب كريم الدين بن غنام بجوار حمام كراى، وهى من الدور الجليلة. عرفت بخوند الست شقراء ابنة السلطان الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاوون وتزوجها الأمير روس، ثم انحط قدرها واتضعت فى نفسها إلى أن ماتت فى يوم الثلاثاء ثامن عشرى جمادى الأولى سنة أحدى وتسعين وسبعمائة.

(**دار ابن عنان**) هذه الدار بخط الجامع الأزهر أنشأها نور الدين على بن عنان التاجر بقيسارية جهاركس من القاهرة وتاجر الخاص الشريف السلطانى فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون. كان ذا ثروة ونعمة كبيرة ومال متسع فلما زالت دولة الأشرف أجمع وداخله وهم واظهر فاقة، وتذكر أنه دفن مبلغا كبيرا من الألف مثقال ذهب فى هذه الدار، ولم يعلم به أحد سوى زوجته أم اولاده فأتفق أنه مرض وخرس، ومرضت زوجته أيضا فمات يوم الجمعة ثامن شوال سنة تسع وثمانين وسبعمائة، وماتت زوجته ايضا فأسف اولاده على فقد ماله وحفروا مواضع من هذه الدار فلم يظفروا بشىء ألبته، واقامت مدة بايديهم وهى من وقف أبيهم ومات ولده شمس الدين محمد بن على بن عنان يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث وثمانمائة ثم باعوها سنة سبع عشر وثمانمائة كما بيع غيرها من الأوقاف.

(**دار بهادر الأعسر**) هذا الدار بخط بين السورين فيما بين سويقة المسعودى من القاهرة وبين الخليج الكبير الذى يعرف اليوم بخليج اللؤلؤة. كان مكأنها من جملة دار الذهب التى تقدم ذكرها فى ذكر مناظر الخلفاء من هذا الكتاب، وإلى يومنا هذا بجوار هذه الدار قبو فيما بينها وبين الخليج يعرف بقبو الذهب من جملة أقباء دار الذهب، ويمر الناس من تحت هذا القبو.

بهادرهذا هو الأمير سيف الدين بهادر الأعسر اليحياوى كان مشرفا بمطبخ الأمير سيف الدين. فجاء الأمير شكار، ثم صار زردكاش الأمير الكبير يلبغا الخاصكى، وولى بعد ذلك مهمندار السلطان بدار الضيافة، وولى وظيفة شد الدواوين أن قدم الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب بعساكر الشام إلى مصر وأزال دولة الملك الظاهر برقوق فى جمادى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة قبض عليه ونفاه من القاهرة إلى غزة، ثم عاد بعد ذلك إلى القاهرة وأقام بها إلى أن مات بهذه الدار فى يوم عيد ألفطر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وحصرت تركته وكان فيها عدة كتب فى أنواع من العلوم، وهذه الدار باقية الى يومنا هذا وعلى بابها بئر بجانبها حوض يملأ لشرب الدواب منه.

(**دار ابن رجب**) هذه الدار من جملة أراضى البستان الذى يقال له اليوم الكافورى. كان اصطبلا للأمير علاء الدين على بن كلفت التركمانى شاد الدواوين فيما بين داره ودار الأمير تنكز نائب الشام. فلما استقر ناصر الدين محمد بن رجب فى الوزارة أنشأ هذا الاصطبل مقعدا صار يجلس فيه، وقصرا كبيرا واستولى بعده على ذلك كله أولاده فلما عمر الأمير جمال الدين يوسف الاستادار مدرسته بخط رحبة باب العيد أخذ هذا القصر والاصطبل فى جملة ما أخذ من أملاك الناس وأوقافهم، فلما قتله الناصر فرج واستولى على جميع ما خلفه أفرد هذا القصر والاصطبل فيما أفرده للمدرسة المذكورة فلم يزل من جملة أوقافها إلى أن قتل الملك الناصر فرج، وقدم الأمير شيخ نائب الشام إلى مصر فلما جلس على تخت الملك وتلقب بالملك المؤيد فى غرة شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة وقف إليه من بقى من أولاد علاء الدين على بن كلفت، وهما أمرأتان كانت إحداهما تحت الملك المؤيد قبل ان يلى نيابة طرابلس، وهو من جملة أمراء مصر فى ايام الملك الظاهر برقوق، وذكرتا أن الأمير جمال الدين الاستادار أخذ وقف أبيهما بغير حق وأخرجتا كتاب وقف أبيهما، ففوض أمر ذلك لقاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقينى الشافعى. فلم يجد بيد أولاد جمال الدين مستندا فقضى بهذا المكان لورثة ابن كلفت وبقائه على ما وقفه حسبما تضمنه كتاب وقفه. فتلسم مستحقوا وقف ابن كلفت القصر والاصطبل، وهو الآن بأيديهم، وبينهم وبين أولاد ابن رجب نزاع فى القصر فقط.

(محمد بن رجب) ابن محمد بن كلفت الأمير الوزير ناصر الدين نشأ بالقاهرة على طريقة مشكورة. فلما استقر ناصر الدين محمد بن الحسام الصفدى شاد الدواوين بعد انتقال الأمير جمال الدين محمود بن على من شاد الدواوين إلى استادارية السلطان فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة سنة تسعين وسبعمائة أقام ابن رجب هذا استادارا عند الأمير سودون باق وكانت أول مباشراته، ثم ولى شد الدواوين بعد الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص فى ثامن شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين. فباشر ذلك إلى أن صرف بابن أقبغا آص فى سابع عشرى ذى الحجة، وعوض فى شد الدواوين بشد دواليب الخاص عوضا عن خاله الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام عند انتقاله إلى الوزارة. فلم يزل إلى ان توجه الملك الظاهر برقوق إلى الشام وأقام الأمير محمود الاستادار. فقدم عليه ابن رجب بكتاب السلطان وهو مختوم. فإذا فيه أن يقبض على ابن رجب، ويلزمه بحمل مبلغ مائة وستين ألف درهم نقرة. فقبض عليه فى رابع شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وأخذ منه مبلغ سبعين ألف درهم نقره. فلما كان فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين صرف السلطان عن الوزارة الصاحب موفق الدين أبا الفرج، واستقر بابن رجب فى منصب الوزارة وخلع عليه. فلم يغير زى الأمراء وباشر الوزارة على قالب ضخم وناموس مهاب، وصار أميرا ووزيرا مدبر الممالك، وسلك سيرة خاله الوزير ناصر الدين محمد بن الحسام فى استخدام كل من باشر الوزارة فأقام الصاحب سعد الدين بن نصر الله بن البقرى ناظر الدولة والصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الغنام ناظر البيوت والصاحب علم الدين عبد الوهاب سن إبرة مستوفى الدولة والصاحب تاج الدين عبد الرحيم بن أبى شاكر رفيقا له فى استيفاء الدولة وأنعم عليه بأمره عشرين فارسا فى سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين فلم يزل على ذلك إلى أن مات من مرض طويل فى يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وهو وزير من غير نكبة. فكانت جنازته من الجنائز المذكورة وقدذكرته فى كتاب درر العقود ألفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة.

(دار القليجي) هذه الدار من جملة خط قصر بشتاك. كانت أولا من بعض دور القصر الكبير الشرقى. الذى تقدم ذكره عند ذكر قصور الخلفاء ثم عرفت بدار حمال الكفاة، وهو

القاضى جمال الدين إبراهيم المعروف بجمال الكفاة ابن خالة النشو ناظر الخاص كان أولا من جملة الكتاب النصارى فأسلم وخدم فى بستان الملك الناصر محمد بن قلاوون ـ الذى كان ميدانا للملك الظاهر بيبرس بأرض اللوق، ثم خدم فى ديوان الأمير بيدمر البدرى. فلما عرض السلطان دواوين الأمراء واختار منهم جماعة كان من جملة من اختاره السلطان جمال الكفاة هذا، فجلعه مستوفيا إلى أن مات المهذب كاتب الأمير بكتمر الساقى فولاه السلطان مكأنه فى ديوان الأمير بكتمر. فخدمه إلى أن مات فخدم بديوان بشتاك إلى أن قبض الملك الناصر على النشو ناظر الخاص ولاه وظيفة نظر الخاص بعد النشو ثم أضاف إليه وظيفة نظر الجيش بعد المكين بن قزوينة عند غضبه عليه ومصادرته فباشر الوظيفتين إلى أن مات الملك الناصر. فاستمر فى أيام الملك المنصور أبى بكر والملك الأشرف كجك والملك الناصر أحمد. فلما ولى الملك الصالح إسماعيل جعله مشير الدولة مع مابيده من نظر الخاص والجيش، وكان الوزير إذ ذاك الأمير نجم الدين محمود وزير بغداد وكتب له توقيعا باستقراره فى وظيفة الإشارة فعظم أمره وكثر حساده إلي أن قبض عليه وضرب بالمقارع وخنق ليلة الأحد سادس ربيع الأول سنة خمس وأربعين وسبعمائة، ودفن بجوار زواية ابن عبود من القرافة، وكانت مذة نظره فى الخاص خمس سنين وشهرين تنقص أياما، وكان مليح الوجه حسن العبارة كثير التصرف يعرف باللسان التركى، ويتكلم به ويعرف باللسان النوبى والتكرورى، ولم تزل هذه الدار بغير تكملة إلى أن ترأس القاضى شمس الدين محمد بن أحمد القليجى الحنفى. كان أولا يكتب على مبيضة الغزل وهى يومئذ مضمنه لديوان السلطان، ثم اتصل بقاضى القضاة سراج الدين عمر بن اسحاق الهندى يومئذ فرفع من شنه واستنابه فى الحكم فعيب ذلك على الهندى، وقال فيه شمس الدين محمد بن محمد الصائغ الحنفى.

ولما رأينا كاتب المكس قاضيا

علمنا بأن الدهر عاد إلى ورا

فقلت لصحبى ليس هذا تعجبا

وهل يجلب الهندى شيئا سوى الخمرا

وولى إفتاء دار العلم، وناب عن القضاة فى الحكم بعد مباشرة توقيع الحكم عدة سنين. فعظم ذكره وبعد صيته، وصار يتوسط بين القضاة والأمراء فى حوائجهم، ويخدم أهل الدولة فيما يعن لهم من الأمور الشرعية. فصار كثير من أمور القضاة لا يقوم به غيره حتى لقد كان شيخنا الأستاذ قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون يسميه دريد بن الصمة. يعنى أنه صاحب رأى القضاة كما أن دريد بن الصمة كان صاحب رأى هوازن يوم حنين. فلما فخم أمره أخذ هذه الدار، وقد تم بناء جدرأنها فرخمها وزخرفها وبيضها. فجاءت فى أعظم قالب وأحسن هندام وأبهج زى. وسكنها إلى أن مات يوم الثلاثاء لعشرين من شهر رجب سنة سبع وتسعين وسبعمائة بعد ما وقفها فاستمرت فى يد أولاده مدة إلى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار كما أخذ غيرها من الدور.

(دار بهادر المعزي) هذه الدار بدرب راشد المجاور لخزانة البنود من القاهرة. عمرها الأمير سيف الدين بهادر المعزى. كان أصله من اولاد مدينة حلب من أبناء التركمان واشتراه الملك المنصور لاجين قبل أن يلى سلطنه مصر، وهو فى نيابة السلطنة بدمشق فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف إلى أن مات فى يوم الجمعة تاسع شعبان سنة تسع وثلاثين وسبعمائة عن ابنتين. إحداهما تحت الأمير أسدمر المعزى والأخرى تحت مملوكة أقتمر وترك كثيرا منه ثلاثة عشر ألف دينار وستمائة ألف درهم نقرة وأربعمائة فرس وثلاثمائة جمل ومبلغ خمسين ألف إردب غلة، وثمان جوايص ذهب، وثلاث كلوتات زركش واثنى عشر طراز زركش، وعقارا كثيرا. فأخذ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون جميع ما خلفه، وكان جميل الصورة معروفا بالفروسية، ورمى فى القبق النشاب بيمينه ويساره، ولعب الرمح لعبا جيدا، وكان لين الجانب حلو الكلام جميل العشرة إلا أنه كان مقترا على نفسه فى مأكله وسائر أحواله لكثرة شحه. بحيث إنه اعتقل مرة فجمع من راتبه الذى كان يجرى عليه وهو فى السجن مبلغ اثنى عشر ألف درهم نقرة أخرجها معه من الاعتقال.

(دار طينال) هذه الدار بخط الخراطين فى داخل الدرب الذى كان يعرف بخربة صالح. كان موضعها وما حولها فى الدولة ألفاطمية مارستانا، وأنشأ هذه الدار الأمير طينال أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون. اقامه ساقيا ثم عمله حاجبا صغيرا، ثم أعطاه إمره دكتمر

وجعله أمير مائة مقدم ألف فباشر ذلك مدة ثم أخرجه لنيابة طرابلس فأقام بها زمانا، ثم نقله إلى نيابة صفد فمات بها في ثالث شهر ربع سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وكان تترى الجنس. قصيرا إلى الغاية مليح الوجه مشكورا فى أحكامه. محبا لجمع المال شحيحا. وهذه الدار تشتمل على قائمتين متجاورتين، وهى من الدور الجليلة، ولطينال أيضا قيسارية بسويقة أمير الجيوش.

(**دار الهرماس**) هذه الدار كانت بجوار الجامع الحاكمى من قبلية شارعة فى رحبة الجامع على يسرة من يمر الى باب النصر. عمرها الشيخ قطب الدين محمد بن المقدسى المعروف بالهرماس، وسكنها مدة، وكان أثيرا عند السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون له فيه اعتقاد كبير. فعظم عند الناس قدره، واشتهر فيما بينهم ذكره إلى أن دبت بينه وبين الشيخ شمس الدين محمد بن النقاش عقارب الحسد. فسعى به عند السلطان إلى أن تغير عليه وأبعده، ثم ركب فى يوم سنة أحدى وستين وسبعمائة من قلعة الجبل بعساكره إلى باب زويلة فعندما وصل إليه ترجل الأمراء كلهم عن خيولهم ودخلوا مشاة من باب زويلة كما هى العادة وصار السلطان راكبا بمفرده وابن النقاش أيضا راكب بجانبه وسائر الأمراء والمماليك مشاة فى ركابه على ترتيبهم إلى أن وصل السلطان إلى المارستان المنصورى بين القصرين فنزل إليه ودخل القبة وزار قبر أبيه وجده وإخوته، وجلس وقد حضر هناك مشايخ العلم والقضاة فتذاكروا بين يديه مسائل علمية، ثم قام إلى النظر فى امور المرضى بالمارستان فدار عليهم حتى انتهى غرضه من ذلك، وخرج فركب وسار نحو باب النصر والناس مشاة فى ركابه إلا ابن النقاش فإنه راكب بجانبه إلى أن وصل إلى رحبة الجامع الحاكمى. فوقف تجاه دار الهرماس وأمر بهدمها. فهدمت وهو واقف وقبض على الهرماس وابنه وضرب بالمقارع عدة شيوب، ونفى من القاهرة إلى مصياف فقال الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى فى ذلك.

قد ذاق هرماس الخسارة
من بعد عز وجساره
حسب البهتان يبقى
اخرب الله دياره

فلما قتل السلطان فى سنة اثنين وستين عاد الهرماس إلى القاهرة، وأعاد بعض داره. فلما كانت سنة ثمانين وسبعمائة صارت هذه الدار إلى الأمير جمال الدين عبد الله بن بكتمر الحاجب فأنشأها قاعة وعدة حوانيت وربعا علو ذلك، وانتقل من بعده إلى أولاده وهو بأيديهم إلى اليوم.

(**دار أوحد الدين**) هذه الدار بداخل درب السلامى فى رحبة باب العيد مقابل قصر الشوك وإلى جانب المارستان العتيق الصلاحى. كان موضعها من حقوق القصر الكبير وصار أخيرا طاحونا. فهدمها القاضى أوحد الدين عبد الواحد أيام كان يباشر توقيع الأمير الكبير برقوق بعد سنة ثمانين وسبعمائة. فلما حفر أساس هذه الدار وجد فيه هيئة معقودة من لبن وفى داخلها إنسان ميت قد بليت أكفانه وصار عظما نخرا، وهو فى غاية طول القامة يكون قدر خمسة أذرع، وعظام ساقيه خلاف ما عهد من الكبر، ودماغه عظيم جدا، فلما كملت هذه الدار سكنها أيام مباشرته وظيفة كتابة السر إلى ان مات بها وقد حبسها على أولاده. فاستمرت بأيديهم إلى أن أخذها منهم الأمير جمال الدين يوسف الاستادار كما أخذ غيرها من الأوقاف فاستمرت فى جملة ما بيده إلى أن قتله الملك الناصر فرج فقبضها فيما قبض مما خلفه جمال الدين. فلما قتل الملك الناصر فرج، واستقل الملك المؤيد شيخ بمملكة مصر، واسترجع اولاد جمال الدين ما كان أخذه الناصر من أملاك جمال الدين، وصارت بايديهم إلى أن وقف له أولاد أوحد الدين فى طلب دار أبيهم فعقد لذلك مجلسا اجتمع فيه القضاة فتبين أن الحق بيد أولاد أوحد الدين فقضى بإعادة الدار إلى ما وقفها عليه أوحد الدين. فتسلمها أولاد أوحد الدين من ورثة جمال الدين وهي الآن بأيديهم.

(**عبد الواحد**) بن إسماعيل ابن ياسين الحنفى اوحد الدين كاتب السر. ولد بالقاهرة ونشأ بها فى كنف قاضى القضاة جمال الدين عبد الله بن على التركمانى الحنفى لصهارة كانت بين ابيه وبين التركمانية، وباشر توقيع الحكم مدة، واتفق أن أميرا من أمراء الملك الأشرف شعبان بن حسين يعرف بيونس الرماح مات فادعى برقوق العثمانى أحد المماليك اليلبغاوية أنه ابن عم يونس هذا وأنه يستحق إرثه لموته عن غير ولد، وحضر إلى المدرسة الصالحية بين القصرين حيث يجلس القضاة للحكم بين الناس حتى يثبت ما ادعاه. فلما أراد الله من إسعاد جد أوحد الدين لم يقف برقوق على أحد من موقعى الحكم إلا عليه وأخبره بما يريد فبادر إلى توريق سؤال باسم برقوق وإنهائه انه ابن عم يونس الرماح وأن عنده بينه تشهد

بذلك ، ودخل بهذا السؤال إلى قاضى القضاة وأنهى العمل حتى ثبت أن برقوق ابن عم يونس يستحق إرثه فلما فرغ من ذلك دفع برقوق إلى أوحد الدين مبلغ دراهم أجرة توريقه كما هى عادة أهل مصر فى هذا فامتنع من أخذها ، وألحف برقوق فى سؤاله وهو يمتنع . فتقلد له برقوق المنة بذلك ، واعتقد أمانته وخيره وصار لكثرة ركونه إليه إذا قدم فلاحو إقطاعه يبعثهم إليه حتى يحاسبهم عما حملوه من الخراج . فلما قتل الملك الأشرف وثارت المماليك وكان من أمرهم ماكان إلى أن تغلب برقوق وصار من جملة الأمراء ، واستولى على الاصطبل السلطانى فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وسبعمائة ، وصار أميرا خور أقام اوحد الدين موقعا عنده ، ومازال أمر برقوق يزداد قوة حتى انيطت به أمور المملكة كلها فصار أوحد الدين صاحب الحل والعقد ، وكاتب السربدر الدين محمد بن على بن فضل الله اسما لا معنى له إلى أن جلس الأمير برقوق على تخت المملكة فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . فقرر القاضى أوحد الدين فى وظيفة كتابة السر عوضا عن ابن فضل الله ، وخلع عليه فى يوم السبت ثانى عشر شوال من السنة المذكورة . فباشر كتابة السر على القالب الجائز ، وضبط الأمور أحسن وعكف سائر الناس على بابه لتمكنه من سلطانه ، وكان الأمير يونس الدوادار يرى أنه أكثر الناس من الأمراء تمكينا من السلطان ، وجرت العادة بانتماء كاتب السر إلى الدوادار فأحب أوحد الدين الاستبداد على الأمير يونس الدوادار . فقال للسلطان سرا فى غيبة يونس : إن السلطان يرسم بكتابة مهمات الدولة وأسرار المملكة إلى البلاد الشامية وغيرها ، والأمير الدوادار يريد من المملوك أن يطلع على ذلك ، فلم يقدر المملوك على مخالفته ولا أمكنه إعلامه إلا بإذن فأنف السلطان من ذلك ، وقال الحذر أن يطلع على شىء من مهمات السلطان أو أسراره فقال أخاف منه إن سأل ولم أعلمه لأسراره . فقال السلطان : ما عيلك منه فرأى أنه قد تمكن حينئذ فأمسك أياما ثم أراد الازدياد من الاستبداد فقال للسلطان سرا : قد رسم السلطان أن لا يطلع أحد على سر السلطان ، ولا يعرف بما يكتب من المهمات وطائفة البريدية كلهم يمشون فى خدمة الأمير الدوادار فإذا اقتضت آراء السلطان تسفير أحد منهم فى مهم يحتاج المملوك إلى استدعائه من خدمة الأمير الدوادار ، فإذا التمس منى أنى أخبره بالمعنى الذى توجه فيه البريدى لا أقدر على إعلامه بذلك ولا آمن أن كتمته وانصرف . فلما كان من الغد وطلع الأمراء إلى الخدمة على العادة قال السلطان للامير يونس الدوادار أرسل البريدية كلهم إلى كاتب السر ليمشوا ويركبوا معه . فلم يجد بدا من إرسالهم وحصل عنده من إرسالهم المقيم المقعد . فصار

البريدية يركبون نوبا فى خدمة أوحد الدين، ويتصرف فى أمور الدولة وحده مع سلطانه. فانفرد بالكلمة، وخضع له الخاص والعام. إلا أنه نغص عليه فى نفسه ومرض مرضا طويلا سقطت معه شهوة الطعام بحيث إنه لم يكن يشتهى شيئا من الغذاء، وتنوع له المآكل بين يديه لكى تميل نفسه إلى شىء منها، ومتى تناول غذاء تقيأه فى الحال، ومازال على ذلك إلى أن مات عن سبع وثلاثين سنة فى يوم السبت ثانى ذى الحجة سنة ست وثمانين وسبعمائة ودفن خارج باب النصر. فلم يتأخر أحد من الأمراء والاعيان عن جنازته، وكان حسن السياسة رضى الخلق كثير السكون. جيد السيرة. جميل الصورة. حسن الهيئة. عارفا بأمر دنياه محبا للمداراة. صاحب باطن. قليل العلم. رحمه الله.

(**ربع الزيتي**) هذا الربع كان بجوار قنطرة الحاجب التى على الخليج الناصرى، وكان يشتمل على عدة مسالك ينزلها أهل الخلاعة للقصف. فإنه كان يشرف من جهاته الاربع على رياض وبساتين. ففى شرقية غيط الزيتى، وقد خرب، وموضعه اليوم بركة ماء، وفى غربية غيط الحاجب بيبرس، وأدركته عامرا. وهو اليوم مزارع بعد ما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل، وعليه سياج من طين دائر به، ومن قبلى هذا الربع الخليج وقنطرة الحاجب والجنينة التى بأرض الطبالة، ومن بحرية بساتين تتصل بالبعل وكوم الريش. ومازال هذا الربع معمورا باللذات. آهلا بكثرة المسرات إلى أن كانت سنة الغرقة وهى سنة خمس وخمسين وسبعمائة. فخربت دور كوم الريش وغيرها، ووصل ماء النيل إلى قنطرة الحاجب فخرب ربع الزيتى. وأهمل أمره حتى صار كوما عظيما تجاه قنطرة الحاجب وغيط الحاجب، وسمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاذ التى كانت فيه، وكانت العامة تقول فى هزلها ستى اين كنتى واين رحتى واين جيتى قالت من ربع الزيتى.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنهـــــا احـــــلام

(**الدار التي في اول البرقية من القاهرة التي حيطانها حجارة بيض منحوتة**) هذه الدار بقى منها جدار على يمين من سلك من المشهد الحسينى يريد باب البرقية، وبقى منها أيضا جدار على يمين من سلك من رحبة الايدمرى الى باب البرقية، وهى دار الأمير صبيح بن شاهنشاه أحد أمراء الدولة ألفاطمية فى أيام الصالح طلائع بن رزيك، وكانت فى غاية الكبر

والتحسين. قال بعض أصحاب الصالح: يا مولانا أبقاك الله حتى تتم دار ابن شاهنشاه، وكان الضرغام قبل أن يلى وزارة مصر قد فرس العادل أبا شجاع رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك فظهر منه فارسا فى غاية ألفروسية. بحيث أنه قد حضر فى يوم عيد الحلقة، وأخذ رمحا وحربة وقوسا وسهما فأخذ الحلقة بالرمح ورمى بالسهم فأصاب الغرض وحذف بالحربة فأثبتها فى المرمى ولعب بالرمح فى غاية الحسن ثم دخل صبيح بن شاهنشاه فعمل مثل ذلك فتحرك الضرغام، وكان يلبس عمامة بعذبة وأكمام واسعة على زى المصريين يومئذ فتلثم بعذبته ولف أكمامه وأخذ رمحه ولعب به فى غاية الحسن وطرد ذلك، ودخل فى الحلقة وأخذها فعجب منه كل من فى العسكر. فأخذ عند ذلك الأمير صبيح بن شاهنشاه المبخرة وأتى إليه وقال يامولاي: كفاك الله أمر العين فإن هذا شئ ما يقدم عليه أحد، وجعل يدور حول فرسه ويبخره والضرغام يتبسم ويعجبه ذلك، وبعد هذا كان قتل ابن شاهنشاه على يده فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ولم تكمل هذه الدار.

(دار ألتمر) هذه الدار بمدينة مصر من خارجها فيما انحسر عنه ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، وتعرف اليوم بصناعة ألتمر تجاه الصاغة بخط سوق المعاريج ومن جملتها بيت برهان الدين إبراهيم الحلى ومدرسته، وهذه الدار وقفها القاضى عبد الرحيم بن على البيسانى على فكاك الأسرى من المسلمين ببلاد ألفرنج قال القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى كتاب الدر النظيم فى أوصاف القاضى ألفاضل عبد الرحيم: ومن جملة بنائه دار ألتمر بمصر المحروسة ولها دخل عظيم يجمع ويشترى به الأسرى من بلاد ألفرنج، وذلك مستمر إلى هذا الوقت، وفى كل وقت يحضر بالأسارى فيلبسون ويطوفون ويدعون له. وسمعتهم مراراً يقولون يا الله يا رحمن يا رحيم. ارحم القاضى ألفاضل عبد الرحيم. وقال القاضى جمال الدين بن شيث: كان للقاضى ألفاضل ربع عظيم يؤجر بمبلغ كبير. فلما عزم على الحج ركب ومر به ووقف عليه وقال أللهم إنك تعلم أن هذا الخان ليس شئ أحب الى منه. أو قال أعز على منه. أللهم فاشهد أنى وقفته على فكاك الأسرى من بلاد ألفرنج. وقال ابن المتوج: ومن جملة الأوقاف الوقف ألفاضلى وهو الدار المشهورة بصناعة ألتمر الوقف على فكاك الأسرى من يد العدو المشتملة على مخازن وأخصاص وشون ومنازل علوية وحوانيت بمجازها وظاهرها. وهى اثنا عشر حانوتاً وخمسة مقاعد وثمانية وخمسون مخزناً

وخمسة عشر خصاً وست قاعات وساحة وست شون وخمسة وسبعون منزلا وخمسة مقاعد علوية. الأجرة عن ذلك جميعه إلى آخر شعبان سنة تسع وثمانين وستمائه فى كل شهر ألف ومائة وست وثلاثون درهما نقرة، واستجد بها القاضى جمال الدين الوجيزى خليفة الحكم بمصر حين كان ينظر فى الأوقاف دارا من ربع الوقف فأكلها البحر فأمر ببناء زريبة أمامها من مال الوقف.

(**عمارة أم السلطان**) هذه العمارة من جملة المنحر. كانت دارا تعرف بالأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى ولها باب من الدرب الأصفر الذى هو الأن تجاه خانقاه بيبرس وباب من المحايريين تجاه الجامع الأقمر. عرفت هذه الدار بالأمير مظفر الدين موسى الصالح على بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، ثم خربت فأنشأتها خوند أم الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، وجعلت منها قيسارية بخط الركن المخلق يباع بها الجلود، ويعلوها ربع جليل لسكن العامة يشتمل على عدة طباق، ووقفت ذلك على مدرستها بخط التبانة خارج باب زويلة. فلم تزل جارية فى وقفها إلى أن أغتصبها الوزير الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فيما أخذ من الأوقاف وجعلها وقفاً على مدرسته بخط رحبة باب العيد من القاهرة، وجعلت خوند بركة من جملة هذه الدار قاعة لم يعمر فيها سوى بوابتها لا غير، وهى أجل بوابات الدور، وقد دخلت أيضا فيما أخذه جمال الدين وصارت بيد مباشرى مدرسته إلى أن أخذها السلطان الملك الأشرف أبو العزيزى برسباى الدقماقى الظاهري، وابتدأ بعملها وكالة فى شوال سنة خمس وعشرين وثمانمائة فكملت فى رجب سنة ست وعشرين، وغير من الطراز المنقوش فى الحجارة بجانبى باب الدخول اسم شعبان بن حسين وكتب برسباى فجاءت من أحسن المباني، ويعلوها طباق للسكني، ولم يسخر فى عمارتها أحد من الناس كما أحدثه ولاة السوء فى عمائرهم. بل كان العمال من البنايين والفعلة ونحوهم يوفون أجورهم من غير عنف ولا عسف. فإنه كان القائم على عمارتها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيش وهذه عادته فى أعماله. أن لا يكلف فيها العمال غير طاقتهم ويدفع إليهم أجورهم. والله أعلم.

ذكر الحمامات

قال أبن سيده : الحمام والحميم والحميمة جميعا الماء الحار، والحميمة أيضا المخض إذا سخن وقد أحمه وحمه، وكلما سخن فقد حم. قال ابن الأعرابي : والحمائم جميع الحميم الذى هو الماء الحار وهذا خطأ لأن فعيلا لا يجمع على فعائل وإنما هو جميع الحميمة الذى هو الماء الحار لغة فى الحميم مذكر، وهو أحد ما جاء من الأسماء على فعال نحو القذاف والجبان والجمع حمامات قال سيبويه : جمعوه بالالف والتاء وإن كان مذكراً حيث لم يكسر. جعلوا ذلك عوضا من التكسير والاستحمام والاغتسال بالماء الحار وقيل هو الاغتسال بأى ماء كان، والحميم العرق واستحم الرجل عرق. وأما قولهم لداخل الحمام إذا خرج طاب حميمك فقد يعنى به العرق أى طاب عرقك، وإذا دعى له بطيب العرق فقد دعى له بالصحة لان الصحيح يطيب عرقه، ورى عن سفيان الثورى أنه قال ما درهم ينفقه المؤمن هو فيه أعظم أجراً من درهم يعطيه صاحب الحمام ليخليه له، وقال محمد بن إسحاق فى كتاب المبتدي : إن أول من اتخذ الحمامات والطلاء بالنورة سليمان بن داود عليهما السلام، وأنه لما دخل ووجد حميمه قال : «أواه من عذاب الله أواه» وذكر المسيحى فى تاريخه أن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أول من بنى الحمامات بالقاهرة. وذكر الشريف أسعد الجوانى عن القاضى القضاعى أنه كان فى مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً. وقال أبن المتوج : إن عدة حمامات مصر فى زمنه بضع وسبعون حماماً. وذكر أبن عبد الظاهر أن عدة حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستمائة تقرب من ثمانين حماماً. وأقل ما كانت الحمامات ببغداد فى أيام الخليفة الناصر أحمد أبن المستنصر نحو الالفى حمام.

حمامى السيدة العمة

قال أبن عبد الظاهر حمامى الكافى يعرفان بحمامى السيدة العمة وانتقلتا إلى الكامل بن شاور، ثم إلى ورثة الشريف بن ثعلب، وهما الآن بأيديهم ولا تدور إلا الواحدة وهاتان

الحمامان كانتا على يمنة من يدخل من أول حارة الروم تجاه ربع الحاجب لؤلؤ المعروف الآن بربع الزياتين علو الفندق الذى بابه بسوق الشوايين ، وكانت إحداهما برسم الرجال والآخرى برسم النساء ، وقد خربتا ولم يبق لها أثر البته .

حمام الساباط

قال أبن عبد الظاهر كان فى القصر الصغير باب يعرف بباب الساباط كان الخليفة فى العيد يخرج منه إلى الميدان ، وهو الخرشتف الآن إلى المنحر لينحر فيه الضحايا . قلت حمام الساباط هذا يعرف فى زمننا بحمام المارستان المنصوري ، وهو برسم دخول النساء عند باب سر المارستان المنصوري . وهذا الحمام هو حمام القصر الصغير الغربي ، ويعرف أيضا بحمام الصنيمة . فلما زالت دولة الخلفاء الفاطميين من القاهرة باعها القاضي مؤيد الدين أبو المنصور محمد بن المنذر بن محمد العدل الأنصارى الشافعى وكيل بيت المال فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب للأمير عز الدين أيبك العزيزي ، هى وساحات تجاذبها بألف ومائتى دينار فى ذى الحجة سنة تسعين وخمسمائة ، ثم باعها الأمير عز الدين أيبك للشيخ أمين الدين قيمار بن عبد الله الحموى التاجر بألف وستمائة دينار ، فورثها من بعده من استحق إرثه ، ثم اشترى من الورثة نصفها الأمير الفارس صارم الدين خطلبا الكامى العادلى فى سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وأنتقلت أيضا منها حصة إلى ملك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى الصالحى النجمى استادار الملك الظاهر بيبرس فى سنة ثمان وسبعين وستمائة . فلما تملك الملك المنصور قلاوون الألفى وأنشأ المارستان الكبير المنصورى صارت فيما هو موقوف عليه . وهى الآن فى أوقافه ولها شهرة فى حمامات القاهرة .

حمام لؤلؤ

هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار السناني . أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب فى أيام . . .

حمام الصنيمة

هذه الحمام كانت بالقرب من خزانة البنود، على يسرة من سلك فى رحبة باب العيد إلى قصر الشوك، وقد خربت وعمل فى موضعها مبيضة للغزل بالقرب من الجمالية .

حمام تتر

هذه الحمام كانت بخط دار الوزارة الكبري، وقد خربت وصار مكانها دار عفرت بالأمير الشيخ علي، وهى الدار المجاورة للمدرسة النابلسية فى الزقاق المقابل للخانقاه الصلاحية سعيد السعداء .

(وتتر هذا) بتاءين مفتوحين كل منهما منقوط بنقطتين من فوق أحد مماليك أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . . استولى على هذه الحمام وكانت معدة لدار الوزارة فى مدة الدولة الفاطمية . فعرفت به وما حولها وإلى الآن يعرف ذلك الخط بخط خرائب تتر، والعامة تقول خرائب التتر بالتعريف وهو خطأ .

حمام كرجي

هذه الحمام كانت بخط خرائب تتر أيضاً فى جوار المدرسة النابلسية تجاه باب الخانقاه الصلاحية عرفت بالأمير علم الدين كرجى الأسدى أحد الأمراء الأسدية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد خربت هذه الحمام، وبنى فى مكانها هذا البناء الذى تجاه باب الخانقاه بأول الزقاق.

حمام كتيلة

هذه الحمام كانت داخل باب الخوخة برأس سويقة الصاحب. عرفت أخيراً بالأمير صارم الدين ساروج شاد الدواوين، ثم خربت فى أيام ومكانها الآن مسمط يذبح فيه الغنم وتسمط.

حمام ابن أبى الدم

هذه الحمام كانت فيما بين سويقه المسعودى وباب الخوخة أنشأها أبن أبى الدم اليهودى أحد كتاب الانشاء فى أيام الخليفة الحاكم، وتولى ابن خيران الديوان، ونقل عنه أنه وسع بين السطور فى كتابه كتبه إلى الخليفة، وهذه مكاتبة الأعلى إلى الأدنى فلما حضر وأنكر عليه الحق بين السطر والسطر سطرا مناسباً لسلفظ والمعنى من غيره أن يظهر ذلك. فعفا عنه، وقد خربت وصار مكانها درب فيه دور يعرف بسكن القاضى بدر الدين حسن البردينى أحد خلفاء الحاكم العزيزى الشافعي، وأدركت بعض آثار هذه الحمام.

حمام الحصينية

هذه الحمام كانت فى سويقة الصاحب من داخل درب الحصينية الذى يعرف اليوم بدرب أبن عرب . . وقد خربت .

حمام الذهب

هذه الحمام كانت بدار الذهب أحد مناظر الخلفاء الفاطميين التى ذكرت فى المناظر من هذا الكتاب ، وقد خربت هذه الحمام ولم يبق لها أثر .

حمام ابن قرقة

هذه الحمام كانت بخط سويقة المسعودى من حارة زويلة . أنشأها أبو سعيد بن قرقه الحكيم متولى الاستعمالات بدار الديباج وخزائن السلاح فى الدولة الفاطمية بجوار داره التى تقدمت فى الدور من هذا الكتاب ، ثم عرفت هذه الحمام فى الدولة الأيوبية بالأمير صارم الدين المسعودى وإلى القاهرة المنسوب إليه سويقة المسعودى المذكورة فى الاسواق من هذا الكتاب ، ، ثم خربت هذه الحمام وعمل فى موضعها فندق عرف أخيراً بفندق عمار الحمامى بجوار جامع أبن المغربى من جانبه الغربي ، وأخذت بئر هذه الحمام فعملت للحمام التى تعرف اليوم بحمام السلطان .

حمام السلطان

هذه الحمام بيتوصل إليها الآن من سويقة المسعودى ومن قنطرة الموسكي ، وهى من الحمامات القديمة . عرفت فى الدولة الفاطمية بحمام الأوحد ، ثم عرفت بحمام الطيبرسي ، ثم هى الآن تعرف بحمام السلطان .

حمام خوند

هذه الحمام بجوار رحبة خوند المذكورة فى الرحاب من هذا الكتاب ، وكانت برسم الدار التى تعرف الآن بدار خوند أردتكين ثم أفردت وصارت إلى الآن حماما يدخله عامة الرجال فى أوائل النهار ، ثم تعقبهم النساء من بعد . إلى أن هدمها الأمير صلاح الدين محمد استادار السلطان أبن الأمير الوزير الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله فى شهر رجب سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وعمل موضعها من جملة داره التى هناك .

حمام ابن عبود

هذه الحمام موضعها فيما بين اصطبل الجميزة المذكورة فى اصطبلات الخلفاء من هذا الكتاب وبين رأس حارة زويلة . وهى من الحمامات القديمة عرفت بحمام الفلك ، وهو القاضى فلك الملك العادل . ثم عرفت بالأمير على بن أبى الفوارس ، ثم عرفت بأبن عبود ، وهو الشيخ نجم الدين أبو الحسين بن محمد بن إسماعيل بن عبود القرشى الصوفي . مات فى يوم الجمعة ثالث عشرى شوال سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة بعد ما عظم قدره ، ونفذ فى أرباب الدولة نهيه وأمره . وهو صاحب الزاوية المعروفة بزاوية أبن عبود بلحف الجبل

قريباً من الدينورى من القرافة . فانظرها فى الزوايا من هذا الكتاب ، ولم تزل هذه الحمام جارية فى أوقاف التربة المذكورة إلى أن تسلط الأمير جمال الدين على أموال أهل مصر فاغتصب أبن أخته الأمير شهاب الدين أحمد المعروف بسيد أحمد أبن أخت جمال الدين هذه الحمام ، واغتصب دار أبن فضل الله التى تجاه هذه الحمام ، واغتصب دارا أخرى بجوارها وعمر هناك دارا عظيمة كما قد ذكر فى الدور من هذا الكتاب .

حمام الصاحب

هذه الحمام بسويقة الصاحب عرفت بالصاحب . الوزير صفى الدين عبدالله بن شكر الدمري . صاحب المدرسة الصاحية التى بسويقة الصاحب ، ثم تعطلت مدة سنين . فلما ولى الأمير تاج الدين الشوبكى ولاية القاهرة فى أيام الملك المؤيد شيخ جددها وأدار بها الماء فى سنة سبع عشرة وثمانمائة .

حمام السلطان

هذه الحمام كان موضعها قديماً من جملة دار الديباج . وهى الآن بخط بين العواميد من البندقانيين بجوار خوخة سوق الجوار ومدرسة سيف الإسلام . أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل استادار السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وتنقلت إلى أن صارت فى أوقاف الملك الناصر محمد بن قلاوون .

حمام طغريك

هاتان الحمامان بجوار فندق فخر الدين بالقرب من سويقة حارة الوزيرية أنشأهما الأمير حسام الدين طغريك المهراني أحد الأمراء الأيوبية.

حمام السوباشي

هذه الحمام كانت بدرب طلائع بخط الخروقيين. الذى يعرف اليوم بسوق الفرايين. عرفت بالأمير الفارس همام الدين أبو سعيد برغش السوباشي، واسمه عمرو بن كحت بن شيرك العزيزى والى القاهرة.

حمام عجينة

هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين. أنشأها الأمير فخر الدين أخو الأمير عز الدين موسك في الدولة الأيوبية، وتنقلت حتى صارت بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى مما أوقف عليهم، وعرفت أخيرا بحمام عجينة، ثم خربت بعد سنة أربعين وسبعمائة، وموضعها الآن خربة بجوار الفندق الكبير المعد لديوان المواريث.

حمام درى

هذه الحمام كانت بخط الأكفانيين الآن. عرفت بشهاب الدولة درى الصغير غلام المظفر بن أمير الجيوش. قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب النقط. لمعجم ما أشكل

من الخطط : شهاب الدولة درى المعروف بالصغير المظفرى غلام المظفر أمير الجيوش . كان أرمنيا وأسلم، وكان من المشددين فى مذهب الإمامية وقرأ الجمل فى النحو للزجاجى وكتاب اللمع لأبن جني، وكان له خرائط من القطن الابيض فى يديه ورجليه وكان يتولى خزائن الكسوة، ولا يدخل على بسط السلطان ولا بسط الخليفة الحافظ لدين الله ولا يدخل مجلسه إلا بتلك الخرائط فى رجليه ولا يأخذ من أحد شيئا إلا وفى يديه خريطة يظن أن كل من لمسه نحسه وسوسة منه. فإذا اتفق أنه صافح أحدا أو مس رقعة بيده من غير خريطة لا يمس ثوبه بها أبدا حتى يغسلها فإن لمس ثوبه بها غسل الثوب، وكان الاستاذون المحنكون يرمون له فى بساط الخليفة الحافظ العنب فإذا مشى عليه وانفجر ووصل ماؤه إلى رجليه سهم وحرد، فيعجب الخليفة من ذلك ويضحك، ولا يؤاخذه بما صدر منه ومات بعد سنة وثلاث وثلاثين وخمسمائة، وقد خربت هذه الحمام ولم يبق لها أثر يعرف .

حمام الرصاصي

هذه الحمام كانت بحارة الديلم. أنشأها الأمير سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء المروانى حامل السيف المنصور وأوقفها هى وجميع الآدر المجاورة لها على أولاده وذريته. فلما زالت الدولة الفاطمية عرفت بالأمير عز الدين أيبك الرصاصي، ولم تزل باقية إلى بعد سنة أربعين وسبعمائة ثم خربت .

حمام الجيوشي

هذه الحمام كانت بحارة برجوان على يمنة من دخل من رأس الحارة، وكانت من حقوق دار المظفر أبن أمير الجيوش، ثم صارت بعد زوال الدولة الفاطمية من جملة ما أوقفه الملك العادل أبو بكر أبن أيوب على رباطه الذى كان بخط النخالين من فسطاط مصر، ثم وضع

بنو الكويك أصهار قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة أيديهم عليها فى جملة ما وضعوا أيديهم عليه من الأوقاف بحارة أبن جماعة وانتفعوا بربعها مدة سنين، ثم خربوها بعد سنة أربعين وسبعمائة، وموضعها الآن بجوار دار قاضى القضاة شمس الدين محمد الطرابلسي، وبعضها داخل فى الدار المذكورة، وبئرها بجوار القبو الذى يسلك من تحته إلى حمام الرومى داخل حارة برجوان. يعلو هذا العقد حاصل الماء الذى للحمام، ويمر على مجراه من حجرة مركبة على جدار بجوار القبو إلى الحمام المذكورة، وآثار هذا الجدار باقية إلى اليوم، وكان قد استأجر هذه البئر والقبو بعد تعطل الحمام القاضى أبو الفداء تاج الدين إسماعيل بن أحمد أبن الخطباء المخزومى من مباشرى أوقاف رباط العادل، وبنى على البئر وبجوارها دارا سكنها مدة أعوام، وأنشأ بأعلى حاصل الماء المركب على القبو مشرفا عليا تأنق فى ترخيمه ودهانه وكتب بدائره.

مشترف كم شبهوه الأدبا

لحسنه إذ جاء شيئا عجبا

فقال قــــوم قلعة مبنية

وآخــرون شبهوه مرقبا

وشــاعر أعجبه ترخيمه

فقال تلك روضة فوق الربا

وقائل ماذا ترى تشـبيهه

فقلت هذا منبر ابن الخطبا

ثم خربت هذا الدارب بعد موت أبن الخطباء واحترقت فى سنة تسع وثمانمائه وآثارها باقية. وما زال أبن الخطباء يدفع حكر هذه البئر وهذا القبو لجهة الرباط العادلى حتى خرب وعفى أثره وجهل مكانه، وقد رأيته فى سنة أربع وتسعين وسبعمائه عامرا.

حمام الرومي

هذه الحمام بجوار حارة برجوان عرفت بالأمير سنقر الرومى الصالحى أحد الأمراء فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. أنشأها بجوار اسطبله الذى يعرف إليوم باسطبل أبن الكويك، وذلك تجاه رحبة داره. التى عرفت بدار مازان، ووقف هذه الدار والاسطبل والحمام المذكورة فى سنة اثنتين وستين وستمائة. فأما الدار فإنها صارت خربة فابتاعها بعض الناس من ورثة المذكور، وشرع فى عمارة شيء منها. وأما الاصطبل والحمام فوضع بنو الكويك أيديهم عليهما مدة أعوام حتى صارا ملكا لهم يورثان. وهما الآن بيد شرف الدين محمد بن محمد بن الكويك، وجعل ما يخصه من الحمام وقفا على نفسه ثم على أناس من بعده، وفى هذه الحمام حصة أيضا وقفها شيخنا برهان الدين إبراهيم الشامى الضرير على أمته وهى بيدها.

(سنقر الرومى) الصالحى النجمى أحمد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية، ترقى عنده فى الخدم حتى صار جمدار وكان من خوشداشية بيبرس البندقدارى وأصدقائه. فلما قتل الفارس أقطاى فى أيام الملك المعز أيبك التركماني، وخرج البحرية من القاهرة إلى بلاد الشام كان سنقر ممن خرج ورافق بيبرس، وارتفق بصحبته، ونال منه مالا وثيابا وغير ذلك، وتنقل معه فى الكرك إلى أن كان من أمره فى الصيد مع صاحب الكرك فطلب سنقر من بيبرس شيئا يحبه وامتنع عن إعطائه فحنق وفارقه إلى مصر فأقام بها، ثم إن بيبرس قدم إلى مصر بعد ذلك وقد صار أميرا فلم يعبأ سنقر به، ولا قدم إليه شيئا كعادة الخوشداشية. فلما صار الأمر إلى بيبرس وملك بعد قطز قدم سنقر وأعطاه الإقطاعات الجليلة ونوه بقدره فلم يرض فصار إذا ورد عليه الإنعام السلطانى لايأخذه بقبول، ويخلو كل وقت بجماعة بعد جماعة، ويفرق فيهم المال فيبلغ ذلك السلطان ويغضى عنه، وربما بعث إليه وحذره مع الأمير قلاوون وغيره فلم ينته ثم أنه قتل مملوكين من مماليكه بغير ذنب فعز قتلهما على السلطان فطلبه فى رابع شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستين وستمائة واعتقله. فقال: أريد أعرف ذنبي! فبعث إليه السطان يعدد ذنوبه. فتحسر وقال: أواه لو كنت حاضرا قتل الملك

المظفر قطز حتى أعاند فى الذى جري، وكان كثيرا ما يقول ذلك، وبلغ هذا القول منه السلطان فى حال إمرته فقال: انت أخى وتتحسر لكونك ما قدرت أن تعين علي.

حماما سويد

هاتان الحامان بآخر سويقه أمير الجيوش عرفنا بالأمير عز الدين معالى بن سويد وقد خربت إحداهما. ويقال إنها غارت فى الأرض وهلك فيها جماعة وبقيت الأخري، وهى الآن بيد الخليفة أبى الفضل العباسى بن محمد المتوكل.

حمام طغلق

هذه الحمام بجوار درب المنصورى من خط حارة الصالحية. صارت أخيرا بيد ورثة الأمير قطلوبغا المنصورى حاجب الحجاب فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين، وكانت معدة لدخول الرجال. ثم تعطلت بعد سنة تسعين وسبعمائة، وأخذ حاصلها وعهدى بها بعد سنة ثمانمائة أطلالا واهية.

حمام ابن علكان

هذه الحمام كانت بحارة الجودرية. أنشأها الأمير شجاع الدين عثمان بن علكان. صهر الأمير الكبير فخر الدين عثمان بن قزل، ثم انتقلت إلى الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الصالحى النجمي، ومازالت إلى أن خربت بعد سنة أربعين وسبعمائة. فعمر مكانها الأمير أزدمر الكاشف اسطبلا بعد سنة خمسين وسبعمائة.

حمام الصاحب

هذه الحمام بخط طواحين الملحيين .

حمام كتبغا الأسدي

هذه الحمام موضعها الآن المدرسة الناصرية بخط بين القصرين .

حمام التطمش خان

هذه الحمام كانت بجوار ميضاة الملك ركن الدين الظاهر بيبرس المجاورة للمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين . أنشأتها الخاتون التطمش خان زوجة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، ثم خربت وصار موضعها زقاق فلما ولى كمال الدين عمر بن العديم قضاء القضاة الحنفية بالديار المصرية فى سلطنة الملك الناصر فرج شرع فى عمارة هذا الزقاق فمات ولم يكمله . فوضع الأمير جمال الدين يده فى العمارة وأنشأها فندقا جعله وقفا فيما وقف على مدرسته التى أنشأها برحبة باب العيد . فلما قتله الملك الناصر فرج واستولى على جميع ما تركه جعل هذا الفندق من جملة ما أرصده للتربة التى أنشأها على قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر .

حمام القاضي

هذه الحمام من جملة خط درب الأسواني . وهى من الحمامات القديمة . كانت تعرف بإنشاء شهاب الدولة بدر الخاص أحد رجال الدولة الفاطمية ، ثم انتقلت إلى ملك القاضى

رضى الدين عبد الناصر بن تقى الدين . فعرفت به . ثم صارت إلى ملك القاضى السعيد أبى المعالى هبة الله بن فارس، وصارت بعده إلى ملك القاضى كمال الدين أبى حامد محمد أبن قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى فعرتف بحمام القاضى إلى اليوم . ثم باع ورثة أبى حامد منها حصة للأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وصارت منها حصة إلى الأميرعلاء الدين طيبرس الخازندارى فجعلها وقفا على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر .

حمام الخراطين

هذه الحمام أنشأها الأمير نور الدين أبو الحسن على بن نجا بن راجح أبن طلائع . فعرفت بحمام أبن طلائع، وكان بجوارها ثم حمام أخرى تعرف بحمام السوباشى فخربت ومستوقد حمام ابن طلائع هذه إلى الآن من درب ابن طلائع الشارع بسوق الفرايين الآن، ولها منه أيضا باب، وصارت أخيرا فى وقف الأمير علم الدين سنجر السرورى المعروف بالخياط والى القاهرة، وتوفى فى سنة ثمان وتسعين وستمائة فاغتصبها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فى جملة ما اغتصب من الأوقاف والأملاك وغيرها، وجعلها وقفا على مدرسته برحبة باب العيد، وهى الآن موقوفة عليها .

حمام الخشيبة

هذه الحمام بجوار درب السلسلة كانت تعرف بحمام قوام الدولة خير، ثم صارت حماما لدار الوزير المأمون بن البطائحى فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله، وعملت خشيبة تمنع الراكب أن يمر من تجاه المشهد الذى بنى هناك عرفت هذه الحمام بخشيبة تصغير خشبة، وقد تقدم ذلك مبسوطا عند ذكر الاخطاط من هذا الكتاب . قال ابن عبد الظاهر : مدرسة

السيوفيين وقفها الأمير عز الدين فرج شاه على الحنفية، وكانت هذه الدار قديماً تعرف بدار المأمون بن البطائحى وحمام الخشيبة كانت لها فبيعت. وهذه الحمام هى الآن فى أوقاف خوند طغاى أم أنوك ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على تربتها التى فى الصحراء خارج باب البرقية.

حمام الكويك

هذه الحمام فيما بين حارة زويلة ودرب شمس الدولة. أنشأها الوزير عباس أحد وزراء الدولة، الفاطمية لداره التى موضعها الآن درب شمس الدولة ثم جددها شخص من التجار يعرف بنور الدين على بن محمد بن أحمد بن محمود بن الكويك الربعى التكريتى فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة. فعرفت به إلى اليوم.

حمام الجويني

هذه الحمام بجوار حمام أبن الكويك فيما بينها وبين البندقانيين عرفت بالأمير عز الدين إبراهيم بن محمد بن الجوينى وإلى القاهرة فى أيام الملك العادل أبى بكر بن أيوب. توفى سلخ جمادى الأولى سنة إحدى وستمائة فإنه أنشأها بجوار داره والعامة تقول حمام الجهينى بهاء وهو خطأ، وتنقلت إلى أن اشتراها القاضى أوحد الدين عبد الواحد بن ياسين كاتب السر الشريف فى أيام الملك الظاهر برقوق بطريق الوكالة عن الملك الظاهر، وجعلها وقفا على مدرسته العظمى بخط بين القصرين. وهى الآن فى جملة الموقوف عليها.

حمام القفاصين

هذه الحمام بالقرب من رأس حارة الديلم أنشأها نجم الدين يوسف بن المجاور وزير الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

حمام الصغيرة

هذه الحمام على يمنة من سلك من رأس حارة بهاء الدين ، وهى تجاه دار قرا سنقر . أنشأها الأمير فخر الدين بن رسول التركماني ، ورسول هذا جد ملوك اليمن الآن ، وقد تعطلت هذه الحمام منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة .

حمام الأعسر

هذه الحمام موضعها من جملة دار الوزارة ، وهى الآن بجوار باب الجوانية . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر المعزى الظاهرى المنصوري .

سنقر الأعسر

كان أحد مماليك الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام ، وجعله دواداره . فباشر الدوادارية لاستاذه بدمشق ونفسه تكبر عنها فلما عزل أيدمر من نيابة الشام فى أيام الملك المنصور قلاوون وحضر إلى قلعة الجبل اختار السلطان عدة من مماليكه منهم سنقر الأعسر

هذا. فاشتراه وولاه نيابة الاستادارية، ثم سيره فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة إلى دمشق وأعطاه إمرة، وولاه شد الدواوين بها واستادارا. فصارت له بالشام سمعة زائدة إلى أن مات قلاوون، وقام من بعده الأشرف خليل واستوزر الوزير شمس الدين السلعوس طلب سنقر إلى القاهرة وعاقبة وصادره فتوصل حتى تزوج بابنة الوزير على صداق مبلغه ألف وخمسمائة دينار فأعاده إلى حالته ولم يزل إلى أن تسلطن الملك العادل كتبغا، واستوزر الصاحب فخر الدين بن خليل، وقبض على سنقر وعلى سيف الدين استدمر وصادرهما، وأخذ من سنقر خمسمائة ألف درهم، وعزله عن شد الدواوين وأحضره إلى القاهرة. فلما وثب الأمير حسام الدين لاجين على كتبغا وتسلطن ولى سنقر الوزارة عوضاً عن أبن خليل فى جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة ثم قبض عليه فى ذى الحجة منها وذلك أنه تعاظم فى وزارته، وقام بحق المنصب يريد أن يتشبه بالشجاعي، وصار لايقبل شفاعة أحد من الأمراء، ويخرق بنوابهم وكان فى نفسه متعاظما وعنده شمم إلى الغاية مع سكون فى كلامه. بحيث إنه إذا فاوض السلطان فى مهمات الدولة كما هى عادة الوزارة لايجيب السلطان بجواب شاف، وصار يتبين منه للسلطان قلة الاكتراث به، فأخذ فى ذمه وعيبه بما عنده من الكبر وصادفه الغرض من الأمراء وشرعوا فى الحط عليه حتى صرف وقيد. فأرسل يسأل السلطان عن الذنب الذى أوجب هذه العقوبة. فقال: ماله عندى ذنب غير كبره فإنى كنت إذا دخل إلى أحسب أنه هو السلطان وأنا الأعسر. فصدره منقام وحديثى معه كأنى أحدث أستاذي، وقرر من بعده فى الوزارة ابن الخليلي. فلما قتل لاجين وأعيد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك ثانيا أفرج عن سنقر الاعسر، وعين جماعة من الأمراء، وأعاد الاعسر إلى الوزارة فى جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة، وفى وزارته هذه كانت هزيمة الملك الناصر بعساكره من غازان فتولى ناصر الدين الشيخى وإلى القاهرة جباية الأموال من التجار وأرباب الأموال لأجل النفقة على العساكر، وقرر فى وزارته على كل إردب غلة خروبة إذا طلع إلى الطحان، وقرر أيضا نصف الشمسرة ومعناها انه كان للمنادى على الثياب أجر دلالته على كل ما مبلغه مائة درهم درهمين. فيؤخذ منه درهم منهما ويفضل له درهم، واستخدم على هاتين الجهتين نحو مائتين من الأجناد

البطالين، وتحصل فى بيت المال من أموال المصادرات مبلغ عظيم، ثم خرج الوزير بمائة من مماليك السلطان وتوجه إلى بلاد الصعيد، وقد وقعت له فى النفوس مهابة عظيمة فكبس البلاد وأتلف كثيراً من المفسدين، من أجل أنه لما حصلت وقعة غازان كثر طمع العربان فى المغل، ومنعوا كثيراً من الخراج، وعصوا الولاة وقطعوا الطريق وما زال يسير إلى الأعمال القوصية فلم يدع فرسا لفلاح ولا قاض ولا متعمم حتى أخذه، وتتبع السلاح ثم حضر بألف وستين فرسا وثمانمائة وسبعين جملا وألف وستمائة رمح وألف ومائتى سيف وتسعمائة درقة وستة آلاف رأس غنم، وقتل عدة من الناس فتمهدت البلاد، وقبض الناس مغلهم بتمامه واتفقت واقعة النصارى التى ذكرت عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب فى أيامه. فأمر بالتاج أبن سعيد الدولة أحد مستوفى الدولة، وكان فيه زهو وحمق عظيم، وله اختصاص بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشكنيري. فعرى وضرب بالمقارع ضرباً مبرحاً فأظهر الإسلام وهو فى العقوبة. فأمسك عنه وألزمه بحمل مال فالتجأ إلى زاوية الشيخ نصر المنيحى وترامى على الشيخ. فقام فى أمره حتى عفى عنه فكره الأمراء الأعسر لكثرة شممه وتعاظمه. فكلموا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى وإليه أمر الدولة فى ولاية الأمير عز الدين أيبك البغدادى الوزارة، وساعدهم على ذلك الأمير سلار فولى الأعسر كشف القلاع الشامية وإصلاح أمورها وترتيب رجالها وسائر مايحتاج إليه، وخلع على الأمير أيبك خلع الوزارة فى آخر سنة سبعمائة، فلما عاد استقر أحد أمراء الالوف وحج فى صحبة الأمير سلار ومات بالقاهرة بعد أمراض فى سنة تسع وسبعمائة، وكان عارفا خيرا مهاباً له سعادات طائلة ومكارم مشهورة، ولحاشيته ثروة متسعة. وغالب مماليكه تأمروا بعده وممن مدحه الوداعى وابن الوكيل.

حمام الحسام

هذه الحمام بداخل باب الجوانية.

حمام الصوفية

هذه الحمام بجوار الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء. أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لصوفية الخانقاه وهى إلى الآن جارية فى أوقافهم، ولا يدخلها يهودى ولا نصراني.

حمام بهادر

هذه الحمام موضعها من جملة القصر، وهى بجوار دار جرجي. أنشأها الأمير بهادر استادار الملك الظاهر برقوق وقد تعطلت.

حمام الدود

هذه الحمام خارج باب زويلة فى الشارع تجاه زقاق خان حلب بجوار حوض سعد الدين مسعود بن هنس. عرفت بالأمير سيف الدين الدود الجاشنكيري. أحد أمراء الملك المعز أيبك التركماني، وخال ولده الملك المنصور نور الدين على أبن الملك المعز أيبك. فلما وثب الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بديار مصر على الملك المنصورعلى أبن الملك المعز أيبك واعتقله وجلس على سرير الملكة قبض على الأمير الدود فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة واعتقله، وهذه الحمام إلى إليوم بيد ذرية الدود من قبل بناته موقوفة عليهم.

حمام ابن أبى الحوافر

هذه الحمام خارج مدينة مصر بجوار الجامع الجديد الناصري. كان موضعها وما حولها عامراً بماء النيل، ثم انحسر عنه الماء وصار جزيرة فبنى الناس عليها بعد الخمسمائة من سنى الهجرة كما ذكر عند ذكر ساحل مصر من هذا الكتاب، وعرفت هذه الحمام بالقاضى فتح الدين أبى العباس أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبى عمر وعثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل بن محمد بن أبى الحوافر رئيس الأطباء بديار مصر، ومات ليلة الخميس الرابع عشر من شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة ودفن بالقرافة.

حمام قتال السبع

هذه الحمام خارج باب القوس من ظاهر القاهرة فى الشارع المسلوك فيه من باب زويلة إلى صليبة جامع ابن طولون، وموضعها اليوم بجوار جامع قوصون عمرها الأمير جمال الدين أقوش المنصورى المعروف بقتال السبع الموصلي، بجانب داره التى هى اليوم جامع قوصون. فلما أخذ قوصون الدار المذكورة وهدمها وعمر مكانها هذا الجامع أراد أخذ الحمام، وكانت وقفاً فبعث إلى قاضى القضاة شرف الدين الحنبلى الحرانى يلتمس منه حل وقفها، فأخرب منها جانباً وأحضر شهود القيمة فكتبوا محضراً يتضمن أن الحمام المذكورة خراب، وكان فيهم شاهد امتنع من الكتابة فى المحضر، وقال: ما يسعنى من الله أن أدخل بكرة النهار فى هذا الحمام وأطهر فيها، ثم أخرج منها وهى عامرة وأشهد بعد ضحوة نهار من ذلك اليوم أنها خراب. فشهد غيره وأثبت قاضى القضاة الحنبلى المحضر المذكور، وحكم ببيعها فاشتراها الأمير قوصون من ورثة قتال السبع وهى اليوم عامرة بعمارة ما حولها.

حمام لؤلؤ

هذه الحمام برأس رحبة الأيدمرى ملاصقة لدار السنانى من القاهرة. أنشأها الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب.

لؤلؤ الحاجب

كان أرمنى الأصل من جملة أجناد مصر فى أيام الخلفاء الفاطميين. فلما استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر خدم تقدمة الأسطول، وكان حيثما توجه فتح وانتصر وغنم ثم ترك الجندية وزوج بناته وكن أربعاً بجهاز كاف، وأعطى أبنيه ما يكفيهما، ثم شرع يتصدق بما بقى معه على الفقراء بترتيب لا خلل فيه، ودواماً لاسآمة معه، وكان يفرق فى كل يوم اثنى عشر ألف رغيف مع قدور الطعام، وإذا دخل شهر رمضان أضعف ذلك وتبتل للتفرقة من الظهر فى كل يوم إلى نحو صلاة العشاء الآخرة ويضع ثلاثة مراكب طول كل مركب أحد وعشرون ذراعاً مملوءة طعاماً، ويدخل الفقراء أفواجاً وهو قائم مشدود الوسط كأنه راعى غنم، وفى يده مغرفة وفى الأخرى جرة سمن وهو يصلح صفوف الفقراء ويقرب إليهم الطعام والودك ويبدأ بالرجال ثم بالنساء ثم بالصبيان، وكان الفقراء مع كثرتهم لايزدحمون لعلمهم أن المعروف يعمهم. فإذا انتهت حاجة الفقراء بسط سماطاً للأغنياء تعجز الملوك عن مثله، وكان له مع ذلك على الإسلام منة توجب أن يترحم عليه المسلمون كلهم، وهى أن فرنج الشوبك والكرك توجهوا نحو مدينة رسول الله ﷺ لينبشوا قبره ﷺ وينقلوا جسده الشريف المقدس إلى بلادهم ويدفنوه عندهم، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل. فأنشأ البرنس أرباط صاحب الكرك سفناً حملها على البر إلى بحر القلزم وأركب فيها الرجال، وأوقف مركبين على جزيرة قلعة القلزم تمنع أهلها من استقاء الماء. فسارت الفرنج نحو عيذاب فقتلوا وأسروا، ومضوا يريدون المدينة النبوية على

ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، وذلك فى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على حران. فلما بلغه ذلك بعث إلى سيف الدولة أبن منقذ على مصر يأمره بتجهيز الحاجب لؤلؤ خلف العدو. فاستعد لذلك، وأخذ معه قيوداً وسار فى طلبهم إلى القلزم وعمر هناك مراكب وسار إلى ايلة فوجد مراكب للفرنج فحرقها وأسر من فيها، وسار إلى عيذاب وتبع الفرنج حتى أدركهم ولم يبق بينهم وبين المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم إلا مسافة يوم، وكانوا ثلاثمائة ونيفاً وقد انضم إليهم عدة من العربان المرتدة. فعندما لحقهم لؤلؤ فرت العربان فرقا من سطوته ورغبة فى عطيته. فإنه كان قد بذل الأموال حتى انه علق اكياس الفضة على رءوس الرمال. فلما فرت العربان التجأ الفرنج إلى رأس جبل صعب المرتقى فصعد إليهم فى عشرة أنفس وضايقهم فيه فخارت قواهم بعد ما كانوا معدودين من الشجان واستسلموا، فقبض عليهم وقيدهم وحملهم إلى القاهرة. فكان لدخولهم يوم مشهود، وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة بعد ما ساق رجلين من أعيان الفرنج إلى منى ونحرهما هناك كما تنحر البدن التى تساق هديا إلى الكعبة، ولم يزل على فعل المعروف إلى أن مات رحمة الله فى صميم الفلا وقد قرب منتهاه فى إليوم التاسع من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وخمسمائة ودفن بتربته من القرافة، وهى التى حفر فيها البئر ووجد فى قعرها عند الماء اسطام مركب، وهذه الحمام تفتح تارة وتغلق كثيراً، وهى باقية إلى يومنا هذا من جملة أوقاف الملك، والله تعإلى أعلم بالصواب.

ذكر القياسر

ذكر ابن المتوج قياسر مصر. وهى قيسارية المحلى وقيسارية الضيافة وقف المارستان المنصوري، وقيسارية شبل الدولة وقيسارية أبن الأرسوفى وقيسارية ورثة الملك الظاهر بيبرس وقيساريتا أبن ميسر وقد خربت كلها.

قيسارية ابن قريش

هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير بجوار باب سوق الوراقين ويسلك إليها من الجملون ومن سوق الاخفافين المسلوك إليه من البندقانيين ، وبعضها الآن سكن الأرمنيين وبعضها سكن البزازين . قال أبن عبد الظاهر : استجدها القاضى المرتضى أبن قريش فى الأيام الناصرية الصلاحية ، وكان مكانها اسطبلا انتهي .

وهو القاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قتل شهيداً على عكا فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ودفن بالقدس ومولده فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسمع السلفى وغيره .

قيسارية الشرب

هذه القيساوية بشارع القاهرة تجاه قيساوية جهاركس . قال أبن عبد الظاهر : وقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجماعة الصوفية . يعنى بخانقاه سعيد السعداء وكانت اسطبلا انتهى ، وما برحت هذه القيساوية مرعية الجانب إكراما للصوفية الى أن كانت ايام الملك الناصر فرج ، وحدثت الفتن وكثرت مصادرات التجار انخرق ذاك السياج وعومل سكانها بانواع من العسف ، وهى اليوم من اعمر أسواق القاهرة .

قيسارية ابن أبى أسامة

هذه القيساوية بجوار الجملون الكبير على يسرة من سلك الى بين القصرين . يسكنها الان الخردفوشية . وقفها الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أحمد بن الحسن بن أبى اسامة صاحب ديوان الإنشاء فى ايام الخليفة الآمر بأحكام الله ، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة وينعت بالشيخ الاجل كاتب الدست الشريف ، ولم يكن أحد يشاركه فى هذا النعت بديار مصر فى زمانه ، وكان وقف هذه القيساوية فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة ، وتوفى فى شوال سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة .

قيسارية سنقر الأشقر

هذه القيساوية على يسرة من يدخل من باب زويلة فيما بين خزانة شمائل ودرب الصغيرة تجاه قيسارية الفاضل . أنشأها الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الصالحى النجمى أحد المماليك البحرية ، ولم تزل الى أن هدمت وأدخلت فى الجامع المؤيدى لأيام من جمادى الأولى ، سنة ثمان عشرة وثمانمائة .

قيسارية أمير على

هذه القيساوية بشارع القاهرة تجاه الجملون الكبير بجوار قيساوية جهاركس . يفصل بينهما درب قيطون . عرفت بالأمير على أبن الملك المنصور قلاوون . الذى عهد له بالملك ولقبه بالملك الصالح ومات فى حياة أبيه كما قد ذكر فى فندق الملك الصالح .

قيسارية رسلان

هذه القيساوية فيما بين درب الصغيرة والحجارين أنشأها الأمير بهاء الدين رسلان الدوادار، وجعلها وقفا على خانقاه له بمنشأة المهرانى، وكانت من أحسن القياسر. فلما عزم الملك المويد شيخ على بناء مدرسته هدمها فى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وثمانمائة، وعوض أهل الخانقاه خمسمائة دينار.

قيسارية جهاركس

قال أبن عبد الظاهر: بناها الأمير فخر الدين جهاركس فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ، ولم تزل فى يد ورثته وانتقل الى الأمير علم الدين أيتمش منها جزء بالميراث عن زوجته والى بنت شومان من أهل دمشق ثم اشتريت لوالدة خليل المسماة بشجرة الدر الصالحية فى سنة خمس وخمسين وستمائة، وهى مع حسنها وإتقان بنائها كلها تجرد من الغصب جميع ما فيها، وذكر بعض المؤرخين أن صاحبها جهاركس نادى عليها حين فرغت فبلغت خمسة وتسعين ألف دينار على الشريف فخر الدين إسماعيل بن ثعلب، وقال لصاحبها: أنا أنقدك ثمنها أى نقد شئت، إن شئت ذهبا، وإن شئت فضة وإن شئت عروض تجارة، وقيسارية جهاركس تجرى الآن فى وقف الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بعد سلار على ورثته، وقال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان.

جهاركـــــس

ابن عبد الله فخر الدين أبو المنصور الناصرى الصلاحى. كان من أكبر أمراء الدولة الصلاحية، وكان كريما نبيل القدر على الهمة بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه،

رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها، وبنى بأعلاها مسجدا كبيرا وربعا معلقا، وتوفى فى بعض شهور سنة ثمان وستمائة بدمشق، ودفن فى جبل الصالحية، وتربته مشهورة هناك - رحمه الله - وجهاركس بفتح الجيم والهاء وبعد الالف راء ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة ومعناه بالعربى أربعة أنفس وهو لفظ عجمى، وقال الحافظ جمال الدين يوسف أبن أحمد بن محمود اليغمورى: سمعت الأمير الكبير الفاضل شرف الدين أبا الفتح عيسى أبن الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم ابن محمد بن أحمد الهكارى البحترى الطائى المقدسى بالقاهرة، ومولده سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالبيت المقدس شرفه الله تعالى وتوفى بدمشق فى ليلة الأحد تاسع عشرى ربيع الآخر سنة تسع وستمائة، ودفن بسفح جبل قاسيون رحمه الله. قال: حدثنى الأمير صارم الدين خطلبا التبنينى صاحب الأمير فخر الدين أبى المنصور جهاركس بن عبد الله الناصرى الصلاحى رحمه الله قال: بلغ الأمير فخر الدين أن بعض الأجناد عنده فرس قد دفع له فيه ألف دينار، ولم يسمح ببيعه وهو فى غاية الحسن. فقال لى الأمير ياخطلبا إذا ركبنا ورأيت فى الموكب هذا الفرس نبهنى عليه حتى أبصره. فقلت السمع والطاعة، فلما ركبنا فى الموكب مع الملك العزيز عثمان أبن الملك الناصر رحمه الله رأيت الجندى على فرسه. فتقدمت الى الأمير فخر الدين وقلت له هذا الجندى، وهذا الفرس راكبه. فنظر إليه وقال إذا خرجنا من سماط السلطان فانظر أين الفرس وعرفنى به. فلما دخلنا إلى سماط الملك العزيز عجل الأمير فخر الدين وخرج قبل الناس فلما بلغ الى الباب قال لى أين الفرس؟ قلت ها هو مع الركاب دار. فقال لى ادعه فدعوته إليه فلما وقف بين يديه والفرس معه أمره الأمير باخذ الغاشية ووضع الأمير رجله فى ركابه وركبه ومضى به إلى داره واخذ الفرس. فلما خرج صاحبه عرفه الركاب دار بما فعله الأمير فخر الدين فسكت ومضى إلى بيته وبقى أياما ولم يطلب الفرس. فقال لى الأمير فخر الدين: يا خطلبا ما جاء صاحب الفرس ولا طلبه. اطلب لى صاحبه قال فاجتمعت به وأخبرته بأن الأمير يطلب الاجتماع به فسارع إلى الحضور فلما دخل عليه أكرمه الأمير ورفع مكانه وحدثه وآنسه وبسطه وحضر سماطة فقربه وخصصه من طعامه. فلما فرغ من الاكل قال له الأمير يا فلان ما بالك ما طلبت فرسك وله عندنا مدة؟ فقال يا خوند. وما عسى أن يكون من هذا الفرس وما ركبه الأمير إلا وهو قد صلح له وكل ما صلح للمولى

فهو على العبد حرام. ولقد شرفنى مولانا بأن جعلنى أهلا أن يتصرف فى عبده والمملوك يحسب أن هذا الفرس قد أصابه مرض فمات وأما الآن فقد وقع فى محله وعند أهله ومولانا أحق به وما أسعد المملوك إذا صلح لمولانا عنده شيء. فقال له الأمير بلغنى أنك أعطيت فيه ألف دينار. قال كذلك كان. قال: فلم لم تبعه؟ فقال: يا مولانا هذا الفرس جعلته للجهاد وأحسن ما جاهد الإنسان على فرس يعرفه ويثق به، وما مقدار هذا الفرس له اسوة برأسى فاستحسن الأمير همته وشكره. ثم أشار إلى فتقدمت إليه فقال لى فى أذنى إذا خرج هذا الرجل فاخلع عليه الخلعة الفلانية فى أفخر ملبوس الأمير واعطه ألف دينار وفرسه. فلما نهض الرجل أخذته إلى الفرش خاناه، وخلعت عليه الخلعة، ودفعت إليه الكيس وفيه ألف دينـــار فخدم وشكر وخرج فقدم إليه فرسه وعليه سرج خاص من سروج الأمير وعدة فى غاية الجودة فقيل اركب فرسك فقال: كيف أركبه وقد أخذت ثمنه؟ وهذه الخلعة زيادة على ثمنه. ثم رجع إلى الأمير فقبل الأرض وقال: يا خوند تشريف مولانا لا يرد، وهذا ثمن الفـــرس قد أحضره المـــــلوك. فقـــال له الأمير فخر الدين: يا هـــذا نحن جربناك فوجدناك رجلا ولك همة، وأنت أحق بفرســك. خذ هـــذا ثمنه ولا تبعه لأحد، فخدمه وشكره ودعا له، وأخذ ألفرس والخلعة والألف دينار وانصرف.

وأخبرنى أيضا الأمير شرف الدين بن أبى القاسم قال: أخبرنى صارم الدين التبنينى أيضا أن الأمير فخر الدين خدم عنده بعض الأجناد فعرض عليه فأعجبه شكله. وقال لديوانه: استخدموا هذا الرجل فتكملوا. معه، وقدروا له فى السنة اثنى عشر ألف درهم. فرضى الرجل وانتقل إلى حلقة الأمير قوصون وضرب خيمته، واحضر بركه. فلما كان بعض الأيام رجع الأمير من الخدمة فعبر فى جنب خيمة هذا الرجل. فرأى خيمة حسنة وخيلا جيادا وجمالا وبركا فى غاية الجودة. فقال هذا البرك لمن؟ فقيل: هذا برك فلان الذى خـــدم عند الأمير فى هذه الأيام. فقال قولوا له مالك عندنا شغل تمضى فى حال سبيلك.

فلما قيل للرجـــل ذلك أمر بان تحط خيمته وأتى إلى وقال: ياموﻻنا أنا رائح وها انا قد حملت بركى، ولكن اشتهى منك أن تسأل الأمير ما ذنبى. قال فدخلت إلى الأمـــير وأخبرته بما قال الرجـــــل. فقال: والله مالك عندى ذنب إلا أن هـــذا البرك وهذه الهمة يستحق بها أضعاف ما أعطى فانكرت عليه كيف رضى بهذا القـــدر اليســير وهو يستحق أن تكون أربعـــين ألف درهم وتكون قليلة فى حـــقــــه. فـــإذا خـــدم بثـــلاثين ألف درهم يكون

قد ترك لنا عشرة آلاف درهم . فهذا ذنبة عندى . فرجعت إلى الرجل فأعلمته بما قال الأمير . فقال إنما خدمت عند الأمير . ورضيت بهذا القدر لعملى أن الأمير إذا عرف حالى فيما بعد لا يقنع لى بهذا الجارى . فكنت على ثقة من إحسان الأمير إبقاه الله . وأما الآن فلا أرضى أن أخدم إلا بثلاثين ألف درهم كما قال الأمير فرجعت إلى الأمير وأخبرته بما قال الرجل . فقال : يجرى له ما طلب ، وخلع عليه وأحسن إليه ، وكان الأمير فخر الدين جهاركس مقدم الناصرية والحاكم بديار مصر فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى أن مات العزيز فمال الأمير فخر الدين جهاركس إلى ولاية ابن الملك العزيز وفاوض فى ذلك الأمير سيف الدين يازكوج الأسدى . وهو يومئذ مقدم الطائفة الأسدية ، وكان الملك العزيز قد أوصى بالملك لولده محمد وأن يكون الأمير الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى مدبر أمره فأشار باز كوج باقامة الملك الافضل على بن صلاح الدين فى تدبير امر ابن العزيز فكره جهاركس ذلك ، ثم إنهم أقاموا ابن العزيز ولقبوه بالملك المنصور وعمره نحو تسع سنين ونصبوا قراقوش اتابكا ، وهم فى الباطن مختلفون عليه ، ومازالوا يسعون عليه فى إبطال أمر قراقوش حتى اتفقوا على مكاتبة الأفضل المتقدم ذكره وحضوره إلى مصر ويعمل أتابكية المنصور مدة سبع سنين حتى يتأهل بالاستبداد بالملك بشرط أن لا يرفع فوق رأسه سنجق الملك ، ولا يذكر اسمه فى خطبة ولاسكة .

فلما سار القاصد إلى الافضل بكتب الأمراء بعث جهاركس فى الباطن قاصدا على لسانه ولسان الطائفة الصلاحية بكتبهم إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكتب إلى الأمير ميمون القصرى صاحب نابلس يأمره بان لا يطيع الملك الأفضل ، ولا يحلف له ، فاتفق خروج الملك الأفضل من صرخد ، ولقاه قاصد فخر الدين جهاركس فأخذ منه الكتب وقال له : ارجع فقد فضيت الحاجة ، وسار إلى القاهرة ومعه القاصد فلما خرج الأمراء من القاهرة إلى لقائه ببلبيس عمل له فخر الدين سماطا احتفل فيه احتفالا زائدا لينزل عنده فنزل عند أخيه الملك المؤيد نجم الدين مسعود . فشق ذلك على جهاركس وجاء إلى خدمته . فلما فرغ من طعام أخيه صار إلى خمية جهاركس وقعد ليأكل فرأى جهاركس قاصده الذى سيره فى خدمة الأفضل فدهش وأيقن بالشر فللحال استأذن الافضل أن يتوجه إلى العرب

المختلفين بأرض مصر ليصلح بينهم فاذن له، وقام من فوره واجتمع بالأمير زين الدين قراجا والأمير أسد الدين قراسنقر وحسن لهما مفارقة الافضل فسارا معه إلى القدس، وغلبوا عليه ووافقهم الأمير عز الدين أسامه والأمير ميمون القصرى فقدم عليهم فى سبعمائة فارس ولما صاروا كلمة وأحدة كتبوا إلى الملك العادل يستدعونه للقيام بأتابكية الملك المنصور محمد بن العزيز بمصر، وأما الأفضل فإنه لما دخل من بلبيس إلى القاهرة قام بتدبير الدولة وأمر الملك. بحيث لم يبق للمنصور معه سوى منجرد الاسم فقط، وشرع فى القبض على الطائفة الصلاحية أصحاب جهاركس. ففروا منه إلى جهاركس بالقدس فقبض على من قدر عليه منهم ونهب أموالهم. فلما زالت دولة الافضل من مصر بقدوم الملك العادل أبى بكر بن أيوب استولى فخر الدين جهاركس على بانياس بأمر العادل ثم انحرف عنه وكانت له انباء إلى أن مات فانقضى أمر الطائفة الصلاحية بموته وموت الأمير قراجا وموت الأمير أسامة كما انقضى أمر غيرهم.

قيسارية الفاضل

هذه القيسارية على يمنة من يدخل من باب زويلة عرفت بالقاضى ألفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى، وهى الآن فى أوقاف المارستان المنصورى أخبرنى شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد العزيز العذرى البشبيشى رحمه الله قال: أخبرنى القاضى بدر الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن القاضى صدر الدين أبى البركات أحمد بن فخر الدين أبى الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن المعروف بابن الخشاب أن قيسارية ألفاضل وقف بضع عشرة مرة منها مرتين أو أكثر زف كتب وقفها بالأغانى فى شارع القاهرة، وهى الآن تشتمل على قيسارية ذات بحرة ماء للوضوء بوسطها وأخرى بجانبها يباع فيها جهاز النساء وشوارهن، ويعلوها ربع فيه عدة مساكن.

قيسارية بيبرس

هذه القيسارية على رأس الجودرية من القاهرة. موضعها دار تعرف بدار الأنماط اشتراها وما حولها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل ولايته السلطنة، وهدمها وعمر موضعها هذه القيسارية والربع فوقها، وتولى عمارة ذلك مجد الدين بن سالم الموقع فلما كملت طلب سائر تجار قيسارية جهاركس وقيسارية ألفاضل وألزمهم بإخلاء حوانيتهم من القيساريتين وسكناهم بهذه القيسارية، واكرمهم على ذلك، وجعل أجرة كل حانوت منها مائة وعشرين درهما نقرة. فلم يسع التجار إلا استئجار حوانيتها، وصار كثير منهم يقوم بأجرة الحانوت الذى ألزم به فى هذه القيسارية من غير ان يترك حانوته الذى هو معه بإحدى القيساربتين المذكورتين، ونقل أيضا صناع الأخفاف وأسكنهم فى الحوانيت إلى خارجها فعمرت من داخلها وخارجها بالناس فى يومين، وجاء الى مخدومه الأمير بيبرس، وكان قد ولى السلطنة وتلقب بالملك المظفر وقال: بسعادة السلطان أسكنت القيسارية فى يوم واحد. فنظر إليه طويلا. وقال: يا قاضى إن كنت أسكنتها فى يوم واحد، فهى تخلو فى ساعة واحدة. فجاء الامر كما قال، وذلك انه لما فر بيبرس من قلعة الجبل لم يبت فى هذه القيسارية لأحد من سكانها قطعة قماش. بل نقلوا كل ما كان لهم فيها، وخلت حوانيتها مدة طويلة، ثم سكنها صناع الاخفاف. كل حانوت بعشرة دراهم. وفى حوانيتها ما أجرته ثمانية دراهم. وهى الآن جارية فى أوقاف الخانقاه الركنية بيبرس، ويسكنها صناع الأخفاف وأكثر حوانيتها غير مسكون لخرابها، ولقلة الأخفافيين. ويعرف الخط الذدى هى فيه اليوم بالاخفافيين رأس الجودرية.

القيسارية الطويلة

هذه القيسارية فى شارع القاهرة بسوق الخردفوشيين فيما بين المهامزيين وسوق الجوخيين، ولها باب آخر عند باب سر حمام الخراطين. كانت تعرف قديما بقيسارية السروج بناها.

قيســــارية ٣

هذه القيسارية تجاه قيسارية السروج المعروفة الآن بالقيسارية الطويلة . بعضها وقفه القاضى الأشرف ابن القاضى ألفاضل بعد الرحيم بن على البيسانى على ملء الصهريج بدرب ملوخيا ، وبعضها وقف الصالح طلائع بن رزيك الوزير ، وقد هدمت هذه القيسارية وبناها الأمير جانى بك دوادار السلطان الملك الأشرف برسباى الدقماقى الظاهرى فى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة تربيعة تتصل بالوراقين ، ولها باب من الشارع ، وجعل علوها طباقا ، وعلى بابها حوانيت . فجاءت من أحسن المبانى .

قيسارية العصفر

هذه القيسارية بشارع القاهرة لها باب من سوق المهامزيين وباب من سوق الوراقين . عرفت بذلك من اجل ان العصفر كان يدف بها أنشأها الأمير علم الدين سنجر المسرورى . المعروف بالخياط والى القاهرة ، ووقفها فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، ولم تزل بيد ورثته إلى أن ولى القاضى ناصر الدين محمد بن البارزى الحموى كتابة السر فى أيام المؤيد شيخ فاستأجرها مدة أعوام من مستحقها ، ونقل إليها العنبريين . فصارت قيسارية عنبر ، وذلك فى سنة ست عشرة وثمانمائة ، ثم انتقل منها اهل العنبر إلى سوقهم فى سنة ثمانى عشرة وثمانمائة .

قيسارية العنبر

قد تقدم فى ذكر الأسواق أنها كانت سجنا ، وأن الملك المنصور قلاون عمرها فى سنة ثمانين وستمائة ، وجعلها سوق عنبر .

قيسارية الفائزى

هذه القيسارية كانت بأول الخراطين مما يلى المهامزيين . لها باب من المهامزيين ، وباب من الخراطين . أنشأها الوزير الأسعد شرف الدين ابو القاسم هبة الله بن صاعد بن وهيب ألفارسى . كان من جملة نصارى صعيد مصر وكتب على مبايض ناحية سيوط بدرهم وثلث فى كل يوم . ثم قدم إلى القاهرة وأسلم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب وخدم عند الملك ألفائز ابراهيم ابن الملك العادل . فنسب إليه ، وتولى نظر الديوان فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب مدة يسيرة ، ثم ولى بعض أعمال ديار مصر فنقل عنه ما أوجب الكشف عليه . فندب موفق الدين الآمدى لذلك . فاستقر عوضه وسجنه مدة ، ثم افرج عنه وسافر إلى دمشق ، وخدم بها الأمير جمال الدين يغمور نائب السلطنة بدمشق . فلما قدم الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب من حصن كتبغا إلى دمشق بعد موت أبيه ليأخذ مملكة مصر سار معه إلى مصر فى شوال سنة سبع وأربعين وستمائة فلما قامت شجرة الدر بتدبير المملكة بعد قتل المعظم تعلق بخدمة الأمير عز الدين أيبك التركمانى مقدم العساكر إلى ان تسلطن وتلقب بالملك المعز . فولاه الوزارة فى سنة ثمان وأربعين وستمائة . فأحدث مظالم كثيرة . وقرر على التجار وذوى اليسار أموالا تجبى منهم ، وأحدث التقويم والتصقيع على سائر الاملاك وجبى منها مالا جزيلا ، ورتب مكوسا على الدواب من الخيل والجمال والحمير وغيرها ، وعلى الرقيق من العبيد والجوارى ، وعلى سائر المبيعات ، وضمن المنكرات من الخمر والمزر والحشيش وبيوت الزوانى بأموال وسمى هذه الجهات بالحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية ، وتمكن من الدولة تمكنا زائدا إلى الغاية بحيث أنه سار إلى بلاد الصعيد بعساكر لمحاربة بعض الأمراء ، وكان الملك المعز ايبك يكاتبه بالمملوك ، وكثر ماله وعقاره حتى أنه لم يبلغ صاحب قلم فى هذه الدول ما بلغه من ذلك ، واقتنى عدة مماليك منهم من بلغ ثمنه ألف دينار مصرية ، وكان يركب فى سبعين مملوكا من مماليكه سوى أرباب الأقلام والأتباع ، وخرج بنفسه إلى اعمال مصر ، واستخرج اموالها ، وكان ينوب عنه فى الوزارة زين الدين يعقوب بن الزبير ، وكان فاضلا يعرف

اللسان التركى فصار يضبط له مجالس الأمراء ويعرفه ما يدور بينهم من الكلام . فلم يزل على تمكنه ، وبسط يده وعظم شأنه إلى أن قتل الملك المعز ، وقام من بعده ابنه الملك المنصور نور الدين على وهو صغير . فاستقر على عادته . حتى شهد عليه الأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى والأمير ناصر الدين محمد بن الأطروش الكردى أمير جاندار أنه قال : المملكة لا تقوم بالصبيان الصغار ، والرأى ان يكون الملك الناصر صاحب الشام ملك مصر ، وأنه قد عزم على أن يسير إليه يستدعيه إلى مصر ويساعده على أخذ المملكة . فخافت أم السلطان منه ، وقبضت عليه وحبسته عندها بقلعة الجبل ، ووكلت بعذابه الصارم أحمر . عينه العمادى الصالحى فعاقبه عقوبة عظيمة ووقعت الحوطة على سائر أمواله وأسبابه وحواشيه ، وأخذ خطة بمائة ألف دينار ، ثم خنق لليال مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخسمين وستمائة ولف فى نخ ودفن بالقرافة ، واستقر من بعده فى الوزارة قاصى القضاة بدر الدين السنجارى مع مأبيده من قضاء القضاة ، ولم تزل هذه القيبسارية باقية ، وكانت تعرف بقيسارية النشاب إلى أن أخذها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار هى والحوانيت على يمنة من سلك من الخراطين يريد الجامع الأزهر وفيما بينهما كان باب هذه القيسارية ، وكانت هذه الحوانيت تعرف بوقف تمرتاش وهدم الجميع وشرع فى بنائه . فقتل قبل ان يكمل ، وأخذه الملك الناصر فرج . فبنيت الحوانيت التى هى على الشارع بسوق المهامزيين ، وصار ما بقى ساحة عمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيش- قيسارية يعلوها ربع وبنى أيضا على حوانيت جمال الدين ربعا ، وذلك فى سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، وقال الإمام عفيف الدين أبو الحسن على بن عدلان يمدح الأسعد ألفائزيرحمه الله ابن صاعد وابنه المرتضى .

مذ تـــولى أمـــورنا

لـــم ازل منـــه ذاهـــبه

وهـــو إن دام أمـره

شـــدة العيـــش ذاهبـــة

قيسارية بكتمر

هذه القيسارية بسوق الحريريين بالقرب من سوق الوراقين. كانت تعرف قديما بالصاغة. ثم صارت فندقا يقال له فندق حكم، وأصلها من جملة الدار العظمى التى تعرف بدار المأمون بن البطائحى وبعضها المدرسة السيوفية *أنشأ هذه القيسارية الأمير بكتمر الساقى فى أيام الناصر محمد بن قلاوون.

قيسارية ابن يحيى

هذه القيسارية كانت تجاه قيسارية جهاركس حيث سوق الطيور وقاعات الحلوى أنشأها القاضى المفضل هبة الله بن يحيى التميمى المعدل. كان موثقا كاتبا فى الشروط الحكمية فى حدود سنة أربعين وخمسمائة فى الدولة ألفاطمية، ثم صار من جملة العدول، ونفى إلى سنة ثمانين، وله ابن يقال له كمال الدين عبد المجيد ابن القاضى المفضل هبة الله بن يحيى. مات فى آخر سنة ستين وسبعمائة، وقد خربت هذه القيسارية ولم يبق لها اثر.

قيسارية طاشتمر

هذه القيسارية بجوار الوراقين لها باب كبير من سوق الحريريين على يسرة من سلك إلى الزجاجين وباب من الوراقين أنشأها الأمير طاشتمر فى أعوام بضع وثلاثين وسبعمائة، وسكهنا عقادوا لاازرار حتى غصت بهم مع كبرها وكثرة حوانيتها، وكان لهم منظر بهيج فإن أكثرهم من بياض الناس، وتحت يد كل معلم منهم عدة صبيان من أولاد الأتراك وغيرهم، فطال ما مررت منها إلى سوق الوراقين وداخلنى حياء من كثرة أمر به هناك. ثم لما حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة تلاشى أمرها وخرب الربع الذى كان علوها، وبيعت أنقاضه وبقيت فيها اليوم بقية يسيرة.

قيسارية الصفراء

هذه القيسارية خارج باب زويلة بخط تحت الربع . . .

قيسارية بشتاك

خارج باب زويلة بخط تحت الربع أنشأها الأمير الناصرى وهى الآن. . .

قيسارية المحسنى

خارج باب زويلة تحت الربع أنشأها الأمير بدر الدين بيلبك المسحنى والى الإسكندرية، ثم والى القاهرة. كان شجاعا مقداما فأخرجه الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الشام، وبها مات فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، فأخذ ابنه الأمير ناصر الدين محمد بن بيلبك المسحنى إمرته فلما مات الملك الناصر قدم الى القاهرة وولاه الأمير قوصون ولاية القاهرة، فى سابع عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. فلما قبض على قوصون فى يوم الثلاثاء آخر شهر رجب منها، امسك ابن المحسنى وأعيد نجم الدين إلى ولاية القاهرة، ثم عزل من يومه، وولى الأمير جمال الدين يوسف والى الجيزة فأقام اربعة وعزل بطلب العامة عزل ورجمه فاعيد نجم الدين.

قيسارية الجامع الطولونى

هذه القيسارية كان موضعها فى القديم من جملة قصر الإمارة الذى بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون، وكان يخرج منه إلى الجامع من باب فى جداره القبلى. فلما خرب صار ساحة أرض. فعمر فيها القاضى تاج الدين المناوى خليفة الحكم عن قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن جماعة قيسارية فى سنة خمسين وسبعمائة من فائض مال الجامع الطولونى. فكمل فيها ثلاثون حانوتا. فلما كانت ليلة النصف من شهر رمضان من هذه السنة رأى شخص من أهل الخير رسول الله ﷺ فى منامه، وقد وقف على باب هذه القيسارية، وهو يقول: بارك الله لمن يسكن هذه القيسارية، وكرر هذا القول ثلاث مرات. فلما قص هذه الرؤيا رغب الناس فى سكناها، وصارت إلى اليوم هى وجميع ذلك السوق فى غاية العمارة، وفى سنة ثمان عشرة وثمانمائة أنشأها قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينى من مال الجامع المذكور قيسارية أخرى فرغب الناس فى سكناها لوفور العمارة بذلك الخط.

قيسارية ابن ميسر الكبرى

هذه القيسارية أدركتها بمدينة مصر فى خط سويقة وردان وهى عامرة. يباع بها القماش الجديد من الكتان الأبيض والأزرق والطرح، وتمضى تجار القاهرة إليها فى يو مى الأحد والأربعاء لشراء الأصناف المذكورة، وذكر ابن المتوج أن لها خمسة أبواب وأنها وقف، ثم وقعت الحوطة عليها فجرت فى الديوان السلطانى وقصدوا بيعها مرارا فلم يقدر أحد على شرائها، وكان بها عمد رخام. فأخذها الديوان وعوضت بعمد كدان، وأنه شاهدها مسكونة. جميعها عامرة. انتهى، وقد خرب ما حولها بعد سنة ستين وسبعمائة وتزايد الخراب حتى لم يبق حولها سوى كيمان. فعمل لها باب وأحد وتردد الناس إليها فى اليومين

المذكورين لاغير فلما كانت الحوادث منذ سنة ست وثمانمائة، واستولى الخراب على إقليم مصر تعطلت هذه القيسارية، ثم هدمت فى سنة ست عشرة وثمانمائة.

قيسارية عبد الباسط

هذه القيسارية برأس الخراطين من القاهرة كان موضعها يعرف قديما بعقبة الصباغين ثم عرف بالقشاشين ثم عرف بالخراطين، وكان هناك مارستان ووكالة فى الدولة ألفاطمية وأدركنا بها حوانيت تعرف بوقف تمرتاش المعظمى فأخذها الأمير جمال الدين الاستادار فيما أخذ من الأوقاف. فلما قتل أخذ الناصر فرج جانبا منها وجدد عمارتها، ووقفها على تربة أبيه الظاهر برقوق، ثم أخذها زين الدين عبد الباسط بن خليل فى أيام المؤيد شيخ. وعمل فى بعضها هذه القيسارية وعلوها، ووقفها على مدرسته وجامعة، ثم أخذ السلطان الملك الاشرف برسباى بقية الحوانيت من وقف جمال الدين، وجدد عمارتها فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة.

ذكر الخانات والفنادق

خان مسرور

خان مسرور مكانان أحدهما كبير، والآخر صغير. فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين كان موضعه خزانة الدرق التى تقدم ذكرها فى خزائن القصر الصغير على يمنه من سلك من سوق باب الزهومة الى الجامع الأزهر. كان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية هو سوق الرقيق. قال ابن الطوير: خزانة الدرق كانت فى المكان الذى هو خان مسرور، وهى برسم استعمالات الاساطيل من الكبورة الخرجية والخود الجلودية وغير ذلك، وقال ابن عبد الظاهر: فندق مسرور. مسرور هذا من

خدام الدولة المصرية ، واختص بالسلطان صلاح الدين رحمه الله ، وقدمه على حلقته ، ولم يزل مقدما فى كل وقت ، وله بر واحسان ومعروف ويقصد فى كل حسنة أجر وبرا ، وبطل الخدمة فى الأيام الكاملية وانقطع إلى الله تعالى ، ولزم داره ، ثم بنى ألفندق الصغير الى جانبه ، وكان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق . اشترى ثلثها من والدى رحمه الله والثلثين من ورثة ابن عنتر ، وكان قد ملك ألفندق الكبير لغلامه ريحان وحبسه عليه ثم من بعده على الأسرى وألفقراء بالحرمين ، وهو مائة بيت إلا بيتا ، وبه مسجد تقام فيه الجماعة والجمع ، ولمسرور المذكور بر كثير بالشام وبمصر ، وكان قد وصى أن تعمل داره ـ وهى بخط حارة الأمراء مدرسة ، ويوقف ألفندق الصغير عليها وكانت له ضيعة بالشام بيعت للأمير سيف الدين أبى الحسن القيمرى بجملة كبيرة ، وعمرت المدرسة المذكورة بعد وفاته . انتهى ، وقد ادركت فندق مسرور الكبير فى غاية العمارة تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم ، وكان فيه أيضا مودع الحكم الذى فيه أموال اليتامى والغياب ، وكان من أجل الخانات وأعظمها : فلما كثرت المحن بخراب بلاد الشام منذ سنة تيمورلنك ، وتلاشت أحوال إقليم مصر قل التجار وبطل مودع الحكم فقلت مهابة هذا الخان ، وزالت حرمته ، وتهدمت عدة اماكن منه . وهو الآن بيد القضاة .

فندق بلال المغيثى

هذا ألفندق فيما بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية . أنشأه الأمير الطواشى أبو المناقب حسام الدين بلال المغيثى أحد خدام الملك المغيث صاحب الكرك . كان حبشيا حالك السواد . خدم عدة من الملوك ، واستقر للملك الصالح على ابن الملك المنصور قلاوون ، وكان معظما إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة ، وكان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول : رحم الله استاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب : انا كنت أحمل شارموزة هذا الطواشى حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها

له، وكان كثير البر والصدقات، وله أموال جزيلة، ومدحه عدة من الشعراء، وأجاز على المديح، وتجاوز عمره ثمانين سنة فلما خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون لقتال التتر فى سنة تسع وتسعين وستمائة سافر معه فمات بالسوادة ودفن بها، ثم نقل منها بعد وقعة شقحب إلى تربته بالقرافة فدفن هناك، وما يرح هذا ألفندق يودع فيه التجار وارباب الأموال صناديق المال، ولقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير لا يفضل عنها من ألفندق غير ساحة صغيرة بوسطه، وتشتمل هذه الصناديق من الذهب وألفضة على ما يجل وصفة. فلما انشأ الأمير الطواشى زين الدين مقبل الزمام ألفندق بالقرب منه، وأنشأ الأمير قلمطاى ألفندق بالزجاجين، وأخذ الأمير بلبغا السالمى أموال الناس فى واقعة تيمور لنلك فى سنة ثلاث وثمانمائة تلاشى أمر هذا ألفندق، وفيه إلى الآن بقية.

فندق الصالح

هذا ألفندق بجوار باب القوس الذى كان أحد بأبى زويلة. فمن سلك اليوم من المسجد المعروف بسام بن نوح يريد باب زويلة صار هذا ألفندق على يساره، وأنشأه هو وما يعلوه من الربع الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان الملك المنصور قلاوون، وكان أبوه لما عزم على المسير إلى محاربة التتر ببلاد الشام سلطنه وأركبه بشعار السلطنة من قلعة الجبل فى شهر رجب سنة تسع وسبعين وستمائة وشق به شارع القاهرة من باب النصر إلى أن عاد إلى قلعة الجبل وأجلسه على مرتبته، وجلس إلى جانبه فمرض عقيب ذلك ومات ليلة الجمعة الرابع من شعبان فأظهر السلطان لموته جزعا مفرطا وحزنا زائدا، وصرخ باعلى صوته: واولداه ورمى كلوتته عن رأسه إلى الأرض، وبقى مكشوف الرأس إلى أن دخل الأمراء إليه وهو مكشوف الرأس يصرخ. واولداه. فعند ما عاينوه كذلك ألقوا كلوتاتهم عن رءوسهم وبكوا ساعة ثم أخذ الأمير طرنطاى النائب شاش السلطان من الأرض وناوله للأمير سنقر فأخذه ومشى وهو مكشوف الرأس وباس الأرض وناول الشاش للسلطان.

فدفعه وقال: ايش اعمل بالملك بعد ولدى، وامتنع من لبسه. فقبل الأمراء الأرض يسألون السلطان فى لبس شاشة ويخضعون له فى السؤال ساعة حتى أجابهم وغطى رأسه. فلما أصبح خرجت جنازته من القلعة، ومعها الأمراء من غير السلطان وساروا بها إلى تربة أمه المعروفة بتربة خاتون قريبا من المشهد النفيسى فواروه وانصرفوا. فلما كان يوم السبت ثانية نزل السلطان من القلعة وعليه البياض تحزنا على ولده، وسار ومعه الأمراء بثياب الحزن إلى قبر ابنه وأقيم العزاء لموته عدة أيام.

خان السبيل

هذا الخان خارج باب ألفتوح قال ابن عبد الظاهر: خان السبيل بناه الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش ابن عبد الله الأسدى خادم أسد الدين شيركوه وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجرة وبه بئر ساقية وحوض، وقراقوش هذا الذى بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام، وعمر بالمقس رباطا وأسره ألفريج فى عكا وهو واليها فافتكه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بعشرة آلاف دينار، وتوفى مستهل رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ودفن بسفح الجبل المقطم من القرافة.

خان منكورش

هذا الخان بخط سوق الخيميين بالقرب من الجامع الأزهر. قال ابن عبد الظاهر: خان منكورش بناه الأمير ركن الدين منكورش زوج أم الأوحد بن العادل، ثم انتقل إلى ورثته، ثم انتقل إلى الأمير صلاح الدين أحمد بن شعبان الاربلى فوقفه، ثم تحيل ولده فى ابطال وقفه. فاشتراه منه الملك الصالح بعشرة آلاف دينار مصرية، وجعله مرصدا لوالدة خليل،

ثم انتقل عنها انتهى. قال مؤلفه: ومنكورش هذا كان أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتقدم حتى صار أحد الأمراء الصالحية، وعرف بالشجاعة والنجدة وإصابة الرأى وجودة الرمى وثبات الجأش. فلما مات فى شوال سنة سبع وسبعين وخمسمائة أخذ إقطاعه الأمير ياركوج الأسدى. وهذا الخان الآن يعرف بخان النشارين على يسرة من سلك من الخراطين إلى الخيميين، وهو وقف على جهات بر.

فندق ابن قريش

هذا ألفندق قال ابن عبد الظاهر: فندق ابن قريش استجده القاضى شرف الدين إبراهيم بن قريش كاتب الإنشاء، وانتقل إلى ورثته. انتهى (إبراهيم بن عبد الرحمن على بن عبد العزيز بن على بن قريش) أبو إسحاق القرشى المخزومى المصرى الكاتب شرف الدين أحد الكتاب المجيدين خطا وإنشاء خدم فى دولة الملك العادل أبى بكر بن ايوب وفى دولة ابنه الملك الكامل محمد بديوان الإنشاء وسمع الحديث بمكة ومصر، وحدث، وكانت ولادته بالقاهرة فى أول يوم من ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وقرأ القرآن وحفظ كثيرا من كتاب المهذب فى ألفقة على مذهب الإمام الشافعى، وبرع فى الأدب، وكتب بخطه ما يزيد على أربعمائة مجلد، ومات فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

وكالة قوصون

هذه الوكالة فى معنى ألفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس وألفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك. وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء. كانت أخيرا دارا تعرف بدار تعويل

البوعانى. فأخربها وما جاورها الأمير قوصون، وجعلها فندقا كبيرا إلى الغاية وبدائره عدة مخازن، وشرط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك، ولا يخرج أحد من مخزنه. فصارت هذه المخازن تتوراث لقلة أجرتها وكثرة فوائدها. وقد أدركنا هذه الوكالة وان رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش. لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع وثقلها لمن يبتاعها ثم تلاشى أمرها منذ خربت الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة على يد تيمورلنك. وفيها إلى الآن بقية، ويعلو هذه الوكالة رباع تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتا أدركناها عامرة كلها ويحزر أنها تحوى نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة، وصغير وكبير. فلما كانت هذه المحن فى سنة ست وثمانمائة خرب كثير من هذه البيوت، وكثير منها عامر آهل.

فندق دار التفاح

هذه الدار هى فندق تجاه باب زويلة يرد إليه ألفواكه على إختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية إنما يباع فى وكالة قوصون إذا قدم، ومنها يتقل إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيهما، وكان موضع دار التفاح هذه فى القديم من جملة حارة السودان التى عملت بستانا فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأنشأ هذه الدار الأمير طقوزدمر بعد سنة أربعين وسبعمائة، ووقفها على خانقاه بالقرافة، وبظاهر هذه الدار عدة حوانيت تباع فيها ألفاكهة تذكر رؤيتها وشم عرفها الجنة. لطيبها وحسن منظرها وتأنق الباعة فى تنضدها واحتفافها بالرياحين والأزهار، وما بين الحوانيت مسقوف حتى لا يصل إلى الفواكه حر الشمس. ولا يزال ذلك الموضع غضا طريا. إلا انه قد اختل منذ سنة ست وثمانمائة، وفيه بقية ليست بذاك. ولم تزل إلى ان هدم علو ألفندق وما بظاهرة من الحوانيت فى يوم السبت سادس عشر شعبان سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وذلك أن الجامع المؤيدى جاءت شبأبيكه الغربية

من جهة دار التفاح فعمل فيها كما صار يعمل فى الأوقاف وحكم باستبدالها ودفع فى ثمن نقضها ألف دينار أفريقية. عنها مبلغ ثلاثين ألف مؤيدى فضة، ويتحصل من اجرتها إلى أن ابتدىء بهدمها فى كل شهر سبعة آلاف درهم فلوسا. عنها ألف مؤيدى فاستشنع هذا الفعل، ومات الملك المؤيد، ولم تكمل عمارة الفندق.

وكالة باب الجوانية

هذه الوكالة تجاه باب الجوانية من القاهرة فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون. كان موضعها عدة مساكن. فابتدا الأمير جمال الدين محمود بن على الاستادار بهدمها فى يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وبناها فندقا وربعا باعلاه. فلما كملت رسم الملك الظاهر برقوق ان تكون دار وكالة يرد إليها ما يصل إلى القاهرة، وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والرب والدبس، ويصير ما يرد فى البر يدخل به على عادته الى وكالة قوصون، وجعلها وقفا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين. فاستمر الأمر على ذلك اليوم.

خان الخليلى

هذا الخان بخط الزراكشة العتيق. كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء ألفاطميين المعروفة بتربة الزعفران، وقد تقدم ذكرها عند ذكر القصر من هذا الكتاب أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أميراخور الملك الظاهر برقوق، وأخرج منها عظام الأموات فى المزابل على الحمير، والقاها بكيمان البرقية هوانا بها فإنه كان يلوذ به شمس الدين محمد بن أحمد القليجى. الذى تقدم ذكره فى ذكر الدور من هذا الكتاب. وقال له: ان هذا عظام الفاطميين وكانوا كفارا رفضة، فاتفق للخليلى فى موته أمر فيه عبرة لأولى الالباب وهو أنه

لما ورد الخبر بخروج الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب ومجىء الأمير منطاش نائب ملطية إليه ومسيرهما بالعساكر إلى دمشق أخرج الملك الظاهر برقوق خمسمائة من المماليك وتقدم لعدة من الأمراء بالمسير بهم فخرج الأمير الكبير أيتمش الناصرى والأمير جهاركس الخليلى هذا والأمير يونس الدوادار والأمير أحمد يلبغا الخاصكى والأمير ندكار الحاجب، وساروا إلى دمشق فلقيهم الناصرى ظاهر دمشق فانكسر عسكر السلطان لمخامرة ابن يلبغا وندكار وفر أيتمش إلى قلعة دمشق وقتل فى يوم الإثنين حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وترك على الأرض عاريا وسوأته مكشوفة وقد انتفخ، وكان طويلا عريضا إلى أن تمزق وبلى عقوبة من الله تعالى بما هتك من رم الأئمة وأبنائهم، ولقد كان - عفا الله عنه - عارفا خبيرا بأمر دنياه كثير الصدقة، ووقف هذا الخان وغيره على عمل خبز يفرق بمكة على كل فقير منه فى اليوم رغيفان. فعمل ذلك مدة سنين، ثم لما عظمت الأسعار بمصر وتغيرت نقودها من سنة ست وثمانمائة صار يحمل إلى مكة مال، ويفرق بها على ألفقراء.

فندق طرنطاى

هذا ألفندق كان بخارج باب البحر ظاهر المقس، وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام، وكان فيه ستة عشر عمودا من رخام طول كل عمود ستة أذرع بذراع العمل فى دور ذراعين، ويعلوه ربع كبير. فلما كان فى واقعة هدم الكنائس وحريق القاهرة ومصر فى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة قدم تاجر بعد العصر بزيت وزن فى مكة عشرين ألف درهم نقرة سوى أصناف أخر قيمتها مبلغ تسعين ألف درهم نقرة. فلم يتهيأ له ألفراغ من نقل الزيت إلى داخل هذا ألفندق إلا بعد العشاء الآخرة. فلما كان نصف الليل وقع الحريق بهذا ألفندق فى ليلة من شهر ربيع الآخر منها كما كان يقع فى غير موضع من فعل النصارى فأصبح وقد احترق جميعه حتى الحجارة التى كان مبنيا بها وحتى الأعمدة المذكورة، وصارت كلها جيرا، واحترق علوه وأصبح التاجر يستعطى الناس. وموضع هذا ألفندق . . .

ذكر الأسواق

قال ابن سيدة، والسوق التى يتعامل فيها تذكر وتؤنث والجمع أسواق وفى التزيل ﴿إلا إنهم ليأكلوا الطعام ويمشون في الأسواق﴾[١].

والسوقة لغة فيها، والسوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان. الذكر والانثى فى ذلك سواء، وقد كان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شيء كثير جدا قد باد أكثرها. وكفاك دليلا على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمقس اثنان وخمسون سوقا. أدركناها عامرة فيها ما يبلغ حوانيته نحو الستين حانوتا. وهذه الخطة من جملة ظاهر القاهرة الغربى. فكيف ببقية الجهات الثلاث مع القاهرة ومصر. وساذكر من أخبار الأسواق ما أجد سبيلا الى ذكره إن شاء الله تعالى.

القصبة

قال ابن سيدة: قصبة البلد مدينته وقيل معظمه. والقصبة هى أعظم أسواق مصر، وسمعت غير وأحد ممن أدركته من المعمرين يقول: إن القصبة تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت. كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسى، ومن اعتبر هذه المسافة اعتبارا جيدا. لا يكاد أن ينكر هذا الخبر، وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة تبهج رؤيتها، ويعجب الناظر هيئتها ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الأنواع. فضلا عن إحصاء ما فيها من الأشخاص، وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد، ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل. يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن، والتى يوضع فيها الجبن، والتى تأكل فيها الفقراء

(١) سورة الفرقان ـ الآية ٢٠ ـ ٢٥ ك.

الطعام بحوانيت الطباخين، وما يستعمله يباعوا الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق ألقوى، والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والافاويه وغيرها. فإن هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق، وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل، ومن أدرك الناس قبل هذه المحن وأمعن النظر فيما كانوا عليه من أنواع الحضارة والترف لم يستكثر ماذكرناه، وقد اختل حال القصبة وخرب وتعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت بعد ما كانت مع سعتها تضيق بالباعة. فيجلسون على الأرض فى طول القصبة بأطباق الخبز، وأصناف المعايش. ويقال لهم أصحاب المقاعد وقلة بيع أرباب الحوانيت. وقد ذهب والله ما هناك، ولم يبق إلا القليل، وفى القصبة عدة أسواق. منها ما خرب، ومنها ما هو باق، وسأذكر منها ما يتيسر إن شاء الله تعالى.

سوق باب الفتوح

هذا السوق فى داخل باب ألفتوح من حد باب ألفتوح الآن إلى رأس حارة بهاء الدين معمور الجانبين بجوانيت اللحامين والخضريين وألفاميين والشرايحية وغيرهم، وهو من أجل اسواق القاهرة واعمرها. يقصده الناس من أقطار البلاد لشراء أنواع اللحمان الضأن والبقر والمعز، ولشراء أصناف الخضراوات، وليس هو من الأسواق القديمة، وإنما حدث بعد زوال الدولة ألفاطمية عند ما سكن قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين، وقد تناقص عما كان فيه منذ عهد الحوادث وفيه إلى الآن بقية صالحة.

سوق المرحلين

هذا السوق أدركته من رأس حارة بهاء الدين الى بحرى المدرسة الصيرمية معمورة الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال وأقتابها وسائر ما تحتاج إليه. يقصد من سائر إقليم مصر. خصوصا فى مواسم الحج. فلو أراد الإنسان تجهيز مائة جمل وأكثر فى يوم لما شق عليه وجودما يطلبه من ذلك لكثرة ذلك عند التجار فى الحوانيت بهذا السوق وفى المخازن. فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة، وكثر سفر الملك الناصر فرج بن برقوق إلى محاربة الأمير شيخ والأمير نوروز بالبلاد الشامية صار الوزراء يستدعون ما يحتاج إليه الجمال من الرحال والأقتاب وغيرها. فاما لا يدفع ثمنها أو يدفع فيها الشىء اليسير من الثمن. فاختل من ذلك حال المرحلين. وقلت أموالهم، بعد بما كانوا مشتهرين بالغناء الوافر والسعادة الطائلة وخرب معظم حوانيت هذا السوق، وتعطل أكثر ما بقى منها، ولم يتأخر فيه سوى القليل.

سوق خان الرواسين

هذا السوق على رأس سويقة أمير الجيوش. قيل له ذلك من أجل أن هناك خانا تعمل فيه الرءوس المغمومة، وكان من أحسن أسواق القاهرة، فيه عدة من البياعين، ويشتمل على نحو العشرين حانوتا مملوءة بأصناف المآكل، وقد اختل وتلاشى أمره.

سوق حارة برجوان

هذا السوق من الاسواق القديمة، وكان يعرف فى القديم أيام الخلفاء ألفاطميين بسوق أمير الجيوش، وذلك أن أمير الجيوش بدر الجمالى لما قدم إلى مصر فى زمن الخليفة

المستنصر، وقد كانت الشدة العظمى بنى بحارة برجوان الدار التى عرفت بدار المظفر، وأقام هذا السوق برأس حارة برجوان. قال ابن عبد الظاهر: والسويقة المعروفة بأمير الجيوش معروفة بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر، وهى من باب حارة برجوان إلى قريب الجامع الحاكم، وهكذا نشهد مكاتيب دور حارة برجوان القديمة فإن فيها الحد القبلى ينتهى إلى سويقة أمير الجيوش، وسوق حارة برجوان وأدركت سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة، ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة. فتقول بحارة برجوان حمامات يعنى حمامى الرومى وحمام سويد. فإنه كان يدخل إليها من داخل الحارة، وبها فرنان، ولها السوق الذى لا يحتاج ساكنها إلى غيره، وكان هذا السوق من سوق خان الرواسين إلى سوق الشماعين معمور الجانبين بالعدة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ، وبياعى السميط وبياعى اللحم البقرى، وبه عدة كثيرة من الزياتين، وكثير من الجبانين والخبازين واللبانين والطباخين والشوايين والبواردية والعطارين والخضريين، وكثير من بياعى الأمتعة. حتى إنه كان به حانوت لايباع فيه إلا حوائج المائدة، وهى البقل والكرات والشمار والنعناع، وحانوت لا يباع فيه إلا الشيرج والقطن فقط برسم تعمير القناديل التى تسرج فى الليل، وسمعت من أدركت أنه كان يشترى من هذا الحانوت فى كل ليلة شيرجا مما يوضع فى القناديل بثلاثين درهما فضة. عنها يومئذ دينار ونصف، وكان يوجد بهذا السوق لحم الضأن النىء والمطبوخ إلى ثلث الليل الأول، ومن قبل طلوع ألفجر بساعة، وقد خرب أكثر حوانيت هذا السوق، ولم يبق لها أثر وتعطل بأسره بعد سنة ست وثمانمائة، وصار أوحش من وتد فى قاع. بعد أن كان الإنسان لا يستطيع أن يمر فيه من ازدحام الناس ليلا ونهارا إلا بمشقة، وكان فيه قبانى برسم وزن الأمتعة والمال والبضائع لا يتفرغ من الوزن، ولا يزال مشغولا به ومعه من يستحثه ليزن له. فلما كان بعد سنة عشر وثمانمائة أنشأ الأمير طوغان الدوادار بهذا السوق مدرسة وعمر ربعا وحوانيت فتحايى بعض الشىء، وقبض على طوغان فى سنة ست عشرة وثمانمائة، ولم تكمل عمارة السوق، وفيه الآن بقية يسيرة.

سوق الشماعين

هذا السوق من الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين . كان يعرف فى الدولة ألفاطمية بسوق القماحين ، وعنده بنى المأمون ابن البطائحى الجامع الاقمر باسم الخليفة الآمر بأحكام الله ، وبنى تحت الجامع دكاكين ، ومخازن من جهة باب ألفتوح ، وادركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية وألفانوسية والطوافات ، لاتزال حوانيته مفتحة إلى نصف الليل ، وكان يجلس به فى الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين . لهن سيما يعرفن بها ، وزى يتميزن به ، وهو لبس الملاءات الطرح وفى أرجلهن سراويل من أديم أحمر يعانين الزعارة ، ويقفن مع الرجال المشالقين في وقت لعبهم ، وفيهن من تحمل الحديد معها ، وكان يباع فى هذا السوق فى كل ليلة من الشمع بمال جزيل ، وقد خرب ولم يبق به إلا نحو الخمس حوانيت بعدما أدركتها تزيد على عشرين حانوتا ، وذلك لقلة ترف الناس وتركهم استعمال الشمع ، وكان يعلق بهذا السوق ألفوانيس فى موسم الغطاس . فتصير رؤيته فى الليل من أنزه الأشياء ، وكان به فى شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يشترى ويكترى من الشموع الموكبية التى تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها ، ومن المزهرات العجيبة الزى . المليحة الصنعة ، ومن الشمع الذى يحمل على العجل ، ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه . كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح فيمر فى ليالى شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه . وقد تلاشى الحال فى جميع ما قلنا لفقر الناس وعجزهم .

سوق الدجاجين

هذا السوق كان مما يلى سوق الشماعين إلى سوق قبو الخرشتف . كان يباع فيه من الدجاج والاوز شيء كثير جليل إلى الغاية ، وفيه حانوت فيه العصافير التى يبتاعها ولدان الناس

ليعتقوها. فيباع منها فى كل يوم عدد كثير جدا. ويباع العصفور منها بفلس، ويخدع الصبى بأنه يسبح فمن أعتقه دخل الجنة، ولكل واحد حينئذ رغبة فى فعل الخير، وكان يوجد فى كل وقت بهذه الحوانيت من الأقفاص التى بها هذه العصافير آلاف، ويباع بهذا السوق عدة أنواع من الطير وفى كل يوم جمعة يباع فيه بكرة أصناف القمارى والهزارات والشحارير والببغا والسمان، وكنا نسمع أن من السمان ما يبلغ ثمنه المئات من الدراهم، وكذلك بقية طيور المسموع يبلغ الواحد منها نحو الألف. لتنافس الناس فيها، وتوفر عدد المعتنين بها، وكان يقال لهم غواة طيور المسموع. سيما الطواشية. فأنه كان يبلغ بهم الترف أن يقتنوا السمان ويتأنقوا فى أقفاصه، ويتغالوا فى أثمانه. حتى بلغنا أنه بيع طائر من السمان بألف درهم فضة. عنها يومئذ نحو الخمسين دينارا من الذهب. كل ذلك لإعجابهم بصوته، وكان صوته على وزن قول القائل: طقطق وعوع، وكلما كثر صياحه كانت المغالاة فى ثمنه بما قصصته عليك حال الترف الذى كان فيه أهل مصر، ولا تتخذ حكاية ذلك هزؤا تسخر به. فتكون ممن لا تنفعه المواعظ، بل يمر بالآيات معرضا غافلا، فتحرم الخير، وكان بهذا السوق قيسارية عملت مرة سوقا للكتبيين، ولها باب من وسط سوق الدجاجين، وباب من الشارع الذى يسلك فيه من بين القصرين إلى الركن المخلق. فاتفق أن ولى نيابة النظر فى المارستان المنصورى عن الأمير الكبير أيتمش النحاسى الظاهرى أمير يعرف بالأمير خضر بن التنكزية فهدم هذا السوق والقيسارية وما يعلوها، وأنشأ هذه الحوانيت والرباع التى فوقها تجاه ربع الكامل الذى يعلو ما بنى درب الخضيرى وقبو الخرشتف: فلما كمل أسكن فى الحوانيت عدة من الزياتين وغيرهم، وبقى من الدجاجين بهذا السوق بقية قليلة.

سوق بين القصرين

هذا السوق أعظم أسواق الدنيا. فيما بلغنا، وكان فى الدولة الفاطمية براحا واسعا يقف فيه عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ثم لمازالت الدولة ابتذل، وصار سوقا يعجز الواصف عن حكاية ما كان فيه، وقد تقدم ذكره فى الخطط من هذا الكتاب، وفيه إلى الآن بقية تحزننى رؤيتها إذ صارت إلى هذه القلة.

سوق السلاح

هذا السوق فيما بين المدرسة الظاهرية بيبرس وبين باب قصر بشتاك. استجد فيما بعد الدولة الفاطمية فى خط بين القصرين، وجعل لبيع القسى والنشاب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح، وكان تجاهه خان يقابل الخان الذى هو الآن بوسط سوق السلاح، وعلى بابه من الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار. فإذا كان عصريات كل يوم جلس أرباب المقاعد تجاه حوانيت الصيارف لبيع أنواع من المآكل، ويقابلهم تجاه حوانيت سوق السلاح أرباب المقاعد أيضا. فإذا اقبل الليل اشعلت السرج من الجانبين، واخذ الناس فى التمشى بينهما على سبيل الاسترواح والتنزه. فيمر هنالك من الخلاعات والمجون مالا يعبر عنه بوصف. فلما أنشأ الملك الظاهر برقوق المدرسة الظاهرية المستجدة صارت فى موضع الخان وحوانيت الصرف تجاه سوق السلاح، وقل ما كان هناك من المقاعد، وبقى منها شيء يسير.

سوق القفيصات

بصيغة الجمع والتصغير. هكذا يعرف كأنه جمع قفيص. فإنه كله معد لجلوس أناس على تخوت تجاه شبابيك القبة المنصورية، وفوق تلك التخوت إقفاص صغار من حديد مشبك فيها الطرائف من الخواتيم والفصوص، وأساور النسوان وخلاخليهن وغير ذلك. وهذه الأقفاص يأخذ أجرة الأرض التى هى عليها مباشر المارستان المنصوري، وأصل هذه الأرض كانت من حقوق أرض موقوفة على جامع المقس فدخل بعضها فى القبة المنصورية، وصار بعضها كما ذكرنا. وإلى إليوم يدفع من وقف المارستان حكر هذه الأرض لجامع المقس، ولما ولى نظر المارستان الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك فى سنة ست وعشرين وسبعمائة عمل فيه أشياء من ماله. منها خيمة ذرعها مائة ذراع. نشرها من اول جدار القبة المنصورية بحذاء المدرسة الناصرية إلى آخر حد المدرسة المنصورية بجوار الصاغة. فصارت

فوق مقاعد الأقفاص تظلهم من حر الشمس، وعمل لها حبالا تمد بها عند الحر وتجمع بها إذا امتد الظل، وجعلها مرتفعه فى الجو حتى ينحرف الهواء، ثم لما كان شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة نقلت الأقفاص إلى القيسارية التى استجدت تجاه الصاغة.

سوق باب الزهومة

هذا السوق عرف بذلك من أجل أنه كان هناك فى الأيام ألفاطمية باب من أبواب القصر يقال له باب الزهومة تقدم ذكره فى ذكر أبواب القصر من هذا الكتاب، وكان موضع هذا السوق فى الدولة ألفاطمية سوق الصيارف، ويقابله سوق السيوفيين من حيث الخشيبة إلى نحو رأس سوق الحريريين اليوم، وسوق العنبر الذى كان اذ ذاك سجنا يعرف بالمعونة، ويقابل السيوفيين إذ ذاك سوق الزجاجين، وينتهى إلى سوق القشاشين. الذى يعرف اليوم بالخراطين. فلمازالت الدولة ألفاطمية تغير ذلك كله. فصار سوق السيوفيين من جوار الصاغة إلى درب السلسلة، وبنى فيما بين المدرسة الصالحية وبين الصاغة سوق فيه حوانيت مما يلى المدرسة الصالحية. يباع فيها الامشاط بسوق الأمشاطيين، وفيه حوانيت فيما بين الحوانيت التى يباع فيها الأمشاط. وبين الصاغة بعضها سكن الصيارف وبعضها سكن النقليين، وهم الذين يبيعون ألفستق واللوز والزبيب ونحوه، وفى وسط هذا البناء سوق الكتبيين يحيط به سوق الأمشاطيين وسوق النقليين، وجميع ذلك جار فى أوقاف المارستان المنصورى، وكان سوق باب الزهومة من أجل أسواق القاهرة وأفخرها موصوفا يحسن المآكل وطيبها، واتفق فى هذا السوق أمر يستحسن ذكره لغرابته فى زمننا، وهو أنه عبر متولى الحسبة بالقاهرة فى يوم السبت سادس عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة على رجل بواردى بهذا السوق. يقال له محمد بن خلف. عنده مخزن فيه حمام وزرازير متغيرة الرائحة لها نحو خمسين يوما فكشف عنها فبلغت عدتها أربعة وثلاثين ألف ومائة وستة وتسعين طائرا. من ذلك حمام ألف ومائة وستة وتسعون، وزرازير ثلاثة وثلاثون ألفا. كلها متغيرة اللون والريح فأدبه وشهره، وفيه إلى الآن بقايا.

سوق المهامزيين

هذا السوق مما استجد بعد زوال الدولة ألفاطمية ، وكان بأوله حبس المعونة الذى عمله الملك المنصور قلاوون سوق العنبر ، ويقابله المارستان والوكالة ودار الضرب فى الموضع الذى يعرف إليوم بدرب الشمسى وما بحذائه ، من الحوانيت إلى حمام الخراطين ، وما تجاه ذلك وهذا السوق معد لبيع المهاميز وأدركت الناس وهم يتخذون المهماز كله قالبه وسقطه من الذهب الخالص ، ومن ألفضة الخالصة ، ولا يترك ذلك إلا من يتورع ويتدين . فيتخذ القالب من الحديد ويطليه بالذهب أو ألفضة ويتخذ السقط من ألفضة وقد اضطر الناس إلى ترك هذا . فقل من بقى سقط مهمازه فضة ، ولا يكاد يوجد إليوم مهماز من ذهب ، وكان يباع بهذا السوق البدلات ألفضة التى كانت برسم لجم الخيل ، وتعمل تارة من ألفضة المجراة بالمنيا ، وتارة بألفصة المطلية بالذهب . فيبلغ زنه مافى البدلة من خمسمائة درهم فضة إلى مادونها . وقد بطل ذلك ، وكان يباع به أيضا سلاسل ألفضة ومخاطم ألفضة المطلية تجعل لجم الحجور من الخيل خاصة . فيركب بها أعيان الموقعين وأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار ، وقد بطل ذلك أيضا ، ويباع فيه أيضا الدوى والطرف التى فيها ألفضة والذهب كسكاكين الأقلام ونحوها ، وكانت تجار هذا السوق تعد من بياض العامة ، ويتصل بسوق المهامزيين هذا .

سوق اللجميين

ويباع فيه آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد ، وفى هذا السوق أيضا عدة وافرة من الطلائين وصناع الكفت برسم اللجم والركب والمهاميز ونحو ذلك ، وعدة من صناع مياتر السروج وقرابيسها . تعمل ملونة ما بين أصفر وأزرق ، ومنها ما يعمل من الدبل ، ومنها ما يعمل سيورا من الجلد البلغارى الأسود ، ويركب بهذه السروج السود القضاة ومشايخ العلم اقتداء بعادة بنى العباس فى استعمال السواد على ما جدده بديار مصر السلطان صلاح الدين

يوسف بن أيوب بعد زوال الدولة وألفاطمية، وادركت السروج التى تركب بها الأجناد والكتاب يعمل للسرج فى قربوسه ستة أطواق من فضة مقبلة مطلية ومعقربات، ولا يكاد أحد يركب فرسا بسرج ساذج إلا أن يكون من القضاة ومشايخ العلم وأهل الورع. فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق اتخذ سائر الأجناد السروج المغرقة، وهى التى جميع قرابيسها من ذهب أو فضة، إما مطلية أو سادجة، وكثر عمل ذلك حتى لم يبق من العسكر فارس إلا وسرجه كما ذكرنا، وبطل السرج المسقط، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة غلب على الناس ألفقر، وكثرت ألفتن فقلت سروج الذهب وألفضة، وبقى منها إلى إليوم بقايا يركب بها أعيان الأمراء وأماثل المماليك.

سوق الجوخبيين

هذا السوق يلى سوق اللجميين. وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد ألفرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيها. وأدركت الناش وقلما تجد فيهم من يلبس الجوخ وإنما يكون من جملة ثياب الأكابر جوخ لا يلبس إلا فى يوم المطر، وانما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب وألفرنج وأهل الإسكندرية وبعض عوام مصر. فأما الرؤساء والأكابر والأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه إلا فى وقت المطر. فإذا ارتفع المطر نزع الجوخ، وأخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل بن أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطبا المخزومى خال أبى رحمه الله قال: كنت أنوب فى حسبه القاهرة عن القاضى ضياء الدين المحتسب. فدخلت عليه يوما وأنا لابس جوخة لها وجه صوف مربع. فقال لى: وكيف ترضى أن تلبس الجوخ؟ وهل الجوخ إلا لأجل البغلة؟ ثم أقسم على أن اخلعها. ومازال بى حتى عرفته أنى اشتريتها من بعض تجار قيسارية الفاضل، فاستدعاه فى الحال، وأمره باحضار ثمنها. ثم قال لى: لا تعد إلى لبس الجوخ استهجانا له. فلما كانت هذه الحوادث وغلت الملابس دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترفة، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ فنجد الأمير والوزير والقاضى ومن دونهم ممن ذكرنا لباسهم الجوخ. ولقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحيانا إلى الاصطبل، وعليه قمجون من جوخ. وهو ثوب

قصير الكمين والبدن . يخاط من الجوخ بغير بطانه من تحته ولاغشاء من فوقه . فتداول الناس لبسه ، واجتلب ألفرنج منه شيئا كثيرا لا توصف كثرته ، ومحل بيعه بهذا السوق ، ويلى سوق الجوخيين هذا .

سوق الشرابشيين

وهذا السوق مما أحدث بعد الدولة ألفاطمية ، ويباع فيها الخلع التى يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم ، وإنما قيل له سوق الشرابشيين لأنه كان من الرسم فى الدولة التركية أن السلطان والأمراء وسائر العساكر إنما يلبسون على رءوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريبا عريضا ، ولها كلاليب بغير عمامة ، وتكون شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقة ، وهى فى كيس حرير . إما أحمر أو أصفر ، وأوساطهم مشدودة ببنود من قطن بعلبكى مصبوغ عوضا عن الحوائص ، وعليهم أقبية . إما بيض أو مشجرة أحمر وأزرق ، وهى ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم ، وأخفافهم من جلد بلغارى أسود ، وفى أرجلهم من فوق الخف سقمان ، وهو خف ثان ، ومن فوق القباء كمران بحلق وأبزيم وصوالق بلغارى كبار . يسع الواحد منها أكثر من نصف ويبه غلة . مغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع . فلم يزل هذا زيهم منذ استولوا بديار مصر على الملك من سنة ثمان وأربعين وستمائة إلى أن قام فى المملكة الملك المنصور قلاوون فغير هذا الزى بأحسن منه ، ولبسوا الشاشات وأبطلوا لبس الكم الضيق ، واقترح كل احد من المنصورية ملابس حسنة . فلما ملك ابنه الأشرف خليل جمع خاصكيته ومماليكه وتخير لهم الملابس الحسنة ، وبدل الكلوتات الجوخ والصفر ، ورسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش والطرازات الزركش والكنابيش الزركش والأقبية الأطلس المعدنى حتى يميز الأمير بلبسه عن غيره ، وكذلك فى الملبوس الأبيض أن يكون رفيعا ، واتخذ السروج المرصعة والأكوار المرصعة . فعرفت بالأشرفية ، وكانت قبل ذلك سروجهم بقرابيس كبار شنعة ، وركب كبار بشعة . فلما ملك ديار مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون استجد العمائم الناصرية ، وهى صغار . فلما قام الأمير يلبغا العمرى الخاصكى عمل الكلوتات اليلبغاوية ، وكانت كبارا

واستجد الأمير سلار فى أيام الملك الناصر محمد القباء الذى يعرف بالسلارى، وكان قبل ذلك يعرف ببغلوطاق. فلما تملك الملك الظاهر برقوق عمل هذه الكلوتات الجركسية، وهى اكبر من اليلبغاوية، وفيها، عوج وأما الخلع فإن السلطان كان إذا أمر أحدا من الاتراك ألبسه الشربوش، وهو شىء يشبه التاج كأنه شكل مثلث يجعل على الرأس بغير عمامة، ويلبس معه على قدر رتبته إما ثوب نحج، أو طرد وحش أو غيره. فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبة إلى الشرابيش المذكورة، وقد بطل الشربوش فى الدولة الجركسية، وكان بهذا السوق عدة تجار لشراء التشاريف والخلع وبيعها على السلطان فى ديوان الخاص، وعلى الأمراء. وينال الناس من ذلك فوائد جليلة، ويقتنون بالمتجر فى هذا الصنف سعادات طائلة. فلما كانت هذه الحوادث منع الناس من بيع هذا الصنف إلا للسلطان، وصار يجلس به قوم من عمال ناظر الخاص لشراء سائر ما يحتاج إليه، ومن اشترى من ذلك شيئا سوى عمال السلطان فله من العقاب ما قدر عليه. والأمر على هذا إلى يومنا الذى نحن فيه وأول من علمته خلع عليه من أهل الدول جعفر بن يحيى البرمكى، وذلك أن أمير المؤمنين هارون الرشيد قال فى إليوم الذى انعقد له فيه الملك: يا اخى يا جعفر قد أمرت لك بمقصورة فى دارى وما يصلح لها من ألفراش وعشر جوار تكن فيها ليلة مبيتك عندنا. فقال يا امير المؤمنين ما من نعمة متواتراة ولا فضل متظاهر إلا ورأى أمير المؤمنين أجمل وأتم. ثم انصرف وقد خلع عليه الرشيد وحمل بين يديه مائة بدرة دراهم ودنانير وأمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه، واعطاه خاتم الملك ليختم به على ما يريد. فبلغ بذلك صيته أقطار الأرض ووصل إلى مالم يصل إليه كاتب بعده. فاقتدى بالرشيد من بعده، وخلعوا على أولياء دولتهم وولاة أعمالهم واستمر ذلك إلى اليوم، واول ما عرف شد السيوف فى أوساط الجند أن سيف الدين غازى ابن عماد الدين أتابك زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل أمر الأجناد أن لا يركبوا إلا بالسيوف فى أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف، وهو أيضا أول من حمل على رأسه الصنجق فى ركوبه، وغازى هذا هو أخو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى، ومات فى آخر جمادى الاخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وولى الموصل بعده أخوه قطب الدين مودود.

سوق الحوائصيين

هذا السوق يتصل بسوق الشرابشيين، وتباع فيه الحوائض، وهى التى كانت تعرف بالمنطقة فى القديم. فكانت حوائص الأجناد أولا أربعمائة درهم فضة ونحوها، ثم عمل المنصور قلاوون حوائص الأمراء الكبار ثلاثمائة دينار وأمراء الطبلخانات مائتى دينار، ومقدمى الحلقة من مائة وسبعين إلى مائة وخمسين دينارا، ثم صار الأمراء والخاصكية فى الأيام الناصرية وما بعدها يتخذون الحياصة من الذهب، ومنها ما هو مرصع بالجوهر، ويفرق السلطان فى كل سنة على المماليك من حوائص الذهب وألفضة شيئا كثيرا، ومازال الأمر على ذلك إلى أن ولى الناصر فرج. فلما كان فى أيام الملك المؤيد شيخ قل ذلك، ووجد فى تركة الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور لما قبض عليه ستة آلاف حياصة وستة آلاف كلوته جهاركس، وما برح تجار هذا السوق من بياض العامة، وقد قل تجار هذا السوق فى زمننا، وصار أكثر حوانيته يباع فيها الطواقى التى يلبسها الصبيان، وصارت الآن من ملابس الأجناد.

سوق الحلاويين

هذا السوق معد لبيع ما يتخذ من السكر حلوى، وإنما يعرف إليوم بحلاوة منوعة، وكان من أبهج الأسواق لما يشاهد فى الحوانيت التى بها من الأوانى وآلات النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة ذات القيم الكبيرة، ومن الحلاوات المصنعة عدة ألوان، وتسمى المجمعة، وشاهدت بهذا السوق السكر ينادى عليه كل قنطار بمائة وسبعين درهما. فلما حدثت المحن وغلا السكر لخراب الدواليب التى كانت بالوجه القبلى، وخراب مطابخ السكر التى كانت بمدينة مصر قل عمل الحلوى، ومات أكثر صناعها. ولقد رأيت مرة طبقا فيه نقل وعدة شقاف من خزف أحمر. فى بعضها لبن وفى بعضها أنواع الأجبان وفيما بين الشقاف الخيار والموز، وكل ذلك من السكر المعمول بالصناعة، وكانت أيضا لهم عدة أعمال من هذا النوع

يحير الناظر حسنها، وكان هذا السوق فى موسم شهر رجب من أحسن الأشياء منظرا فإنه كان يصنع فيه من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها. تسمى العلاليق واحدها علاقة ترفع بخيوط على الحوانيت. فمنها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل. تشترى للأطفال فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده، وتمتلىء أسواق البلدين. مصر والقاهرة وأريافهما من هذا الصنف. كذلك يعمل فى موسم نصف شعبان، وقد بقى من ذلك إلى اليوم بقية غير طائلة. وكذلك كانت تروق رؤية هذا السوق فى موسم عيد ألفطر لكثرة ما يوضع فيه من حب الخشكنانج وقطع البسندود والمشاش، ويشرع فى عمل ذلك من نصف شهر رمضان فتمتلئ منه أسواق القاهرة ومصر والأرياف. ولم ير فى موسم سنة سبع عشرة وثمانمائة من ذلك شىء بالأسواق ألبته. فسبحان محيل الأحوال. لا اله إلا هو.

سوق الشوايين

هذا السوق أول سوق وضع بالقاهرة، وكان يعرف بسوق الشرايحيين. وهو من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين. وما زال يعرف بسوق الشرايحيين إلى أن سكن فيه عدة من بياعى الشواء فى حدود السبعمائة من سنى الهجرة. فزالت عنه النسبة إلى الشرايحيين، وعرف بالشوايين. وهو الآن سكن المتعيشين، وانتقل سوق الشرايحيين فى زماننا إلى خارج باب زويلة، وعرف بالبسطيين كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى. قال ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز: وفى شهر صفر من سنة خمس وستين وثلاثمائة أنشىء باب زويلة الذى وضعه القائد جوهر عند رأس حارة الروم. حيث العقد المجاور الآن للمسجد الذى عرف اليوم بسام بن نوح، وكان بجواره باب آخر موضعه الآن سوق الملطيين. فلما نقل أمير الجيوش باب زويلة إلى حيث هو الآن اتسع ما بين سوق الشرايحيين المذكور وبين باب زويلة الكبير، وصار الآن فيه سوق الغرابليين، وفيه عدة حوانيت تعمل مناخل الدقيق والغرابيل، ويقابلهم عدة حوانيت يصنع فيها الأغلاق المعروفة بالضبب، وما بعد ذلك إلى باب زويلة فيه كثير من الحوانيت يجلس ببعضها عدة من الجبانين لبيع أنواع الجبن المجلوب

من البلاد الشامية ، وأدركنا هناك - إلى أن حدثت المحن - من ذلك شيئا كثيرا يتجاوز الحد فى الكثرة ، وفى بعض تلك الحوانيت قوم يجلسون لعلاج من عساه يتصدع له عظم أو ينكسر أو يصيبه جرح يعرفون بالمجبرين ، وهناك منهم إلى يومنا هذا . وبقية الحوانيت ما بين صيارفة وبياعى طرف ومتعيشين فى المآكل وغيرها . فهذه قصبة القاهرة ، وما فى ظاهر باب زويلة . فإنه خارج القاهرة . والله تعالى أعلم .

الشارع خارج باب زويلة

هذا الشارع هو تجاه من خرج من باب زويلة ، ويمتد فيما بين الطريق السالك ذات اليمين إلى الخليج ، وبين الطريق المسلوك فيه ذات إليسار إلى قلعة الجبل ، ولم يكن هذا الشارع موجودا على ما هو عليه الآن عند وضع القاهرة ، وإنما حدث بعد وضعها بعدة أعوام على غير هذه الهيئة . فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة من سنى الهجرة صار على ما هو عليه الآن . فأما أول أمره فإن الخليفة الحاكم بأمر الله أنشأ الباب الجديد على يسرة الخارج من باب زويلة على شاطىء بركة ألفيل ، وهذا الباب أدركت عقده عند رأس المنجبية بجوار سوق الطيور ، ثم لما اختطت حارة اليانسية وحارة الهلالية صار ساحل بركة ألفيل قبالتها ، واتصلت العمائر من الباب الجديد إلى ألفضاء الذى هو الآن خارج المشهد النفيسى . فلما كانت الشدة العظمى فى خلافة المستنصر ، وخربت القطائع والعسكر صارت مواضعها خرابا إلى خلافة الآمر بأحكام الله . فعمر الناس حتى صارت والقاهرة لا يتخللهما خراب ، وبنى الناس فى الشارع من الباب الجديد إلى الجبل عرضا حيث قلعة الجبل الآن ، وبنى حائط يستر خراب القطائع والعسكر . فعمر من الباب الجديد طولا إلى باب الصفا بمدينة مصر حتى صار المتعيشون بالقاهرة والمستخدمون يصلون العشاء الآخرة بالقاهرة ويتوجهون إلى سكنهم فى مصر ، ولا يزالون فى ضوء وسرج وسوق موقود من الباب الجديد خارج باب زويلة إلى باب الصفا حيث الآن كوم الجارح ، والمعاش مستمر فى

الليل والنهار، ووقف القاضى الرئيس المختار العدل زكى الدين أبو العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل ان يوقف حصه من البستان الكبير المعروف يومئذ بالمخاريق الكبرى الكائن فيما بين القاهرة ومصر بعدوة الخليج على القربات، وشرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء من قماش الكتان الخام أو القطن مايراه، ويعمل ذلك جبابا ويغالطيقا محشوة قطنا، وتفرق على الأيتام الذكور والإناث ألفقراء غير البالغين بالشارع الاعظم خارج باب زويلة. فيدفع لكل واحد جبة واحدة أو بغلطاقا. فإن تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفات المذكورة بالقاهرة ومصر وقرافتيهما، وكان هذا الوقف فى سنة ستين وسبعمائة. فلما كثرت العمائر خارج باب زويلة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد سنة سبعمائة صار هذا الشارع أوله تجاه باب زويلة وآخره فى الطول الصليبة التى تنتهى إلى جامع ابن طولون وغيره. لكنهم لا يريدون بالشارع سوى إلى باب القوس الذى بسوق الطيوريين، وهو الباب الجديد، وبعد باب القوس سوف الطيوريين ثم سوق جامع قوصون، وسوق حوض ابن هنس وسوق ربع طفجى، وهذه أسواق بها عدة حوانيت لكنها لا تنتهى إلى عظم أسواق القاهرة. بل تكون أبدا دونها بكثير. فهذا حال القصبة والشارع خارج باب زويلة، وقد بقيت عدة أسواق فى جانبى القصبة، ولها أبواب شارعة، وفيها أسواق أخر فى نواحى القاهرة ومسالكها. سيأتى ذكرها بحسب القدرة إن شاء الله تعالى.

سويقة أمير الجيوش

هذه السويقة الآن فيما بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين. كانت تعرف بسوق الخروقيين فيما بعد زوال الدولة ألفاطمية، وفى هذا السوق عمر الأمير مازكوج الاسدى مدرسته المعروفة الآن بالأزكجية، وأدركت الناس إلى هذا الزمن الذى نحن فيه لا يعرفون هذا السوق إلا بسوق أمير الجيوش، ويعبرون عنه بضيغة التصغير، ولا اعرف لهم مستندا فى ذلك، والذى تشهد به الأخبار أن سوق أمير الجيوش هو السوق الذى برأس حارة

برجوان ، ويمتد إلى رأس سويقة أمير الجيوش الآن ، وهذه السويقة من أكبر أسواق القاهرة بها عدة حوانيت فيها الرفاءون والحباكون وعدة حوانيت للرسامين ، وعدة حوانيت للفرايين ، وعدة حوانيت للخياطين ، ومعظمها لسكن البزازين والخلعيين ، وفيها عدة من بياعى الأقباع ، ويباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من ألفرش ونحوها . وهو شارع من شوارع القاهرة يسلك فيه من باب ألفتوح وبين القصرين وباب النصر إلى باب القنطرة وشاطىء النيل وغيره ، وكان ما بعد هذا السوق إلى باب القنطرة معمور الجانبيين بالحوانيت المعدة لبيع الطرائف والمغازل والكتان والأنواع من المأكل والعطر وغيره ، وقد خرب أكثر هذه الحوانيت فى سنى المحنة وما بعدها ، ولسويقه أمير الجيوش عدة قياسر وفنادق والله اعلم .

سوق الجملون الصغير

هذا السوق يسلك فيه من رأس سويقة أمير الجيوش إلى باب الجوانية وباب النصر ورحبة باب العيد ، وهو مجاور لدرب ألفرحية ، وفيه المدرسة الصيرمية وباب زيادة الجامع الحاكمى ، وكان أولا يعرف بالأمراء القرشيين بنى النورى ثم عرف بالجملون الصغير ، وبجملون ابن صيرم وهو الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم أحد الأمراء فى أيام الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب وإليه تنسب المدرسة الصيرمية والخط المعروف خارج باب ألفتوح ببستان ابن صيرم ، وادركت هذا الجملون معمور الجانبين من أوله إلى آخره بالحوانيت ففى أوله كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتاب من الخام والأزرق وأنواع الطرح وأصناف ثياب القطن ، وينادى فيه على الثياب بحراج حراج ، وفيه عدة من الخياطين ، وعدة من البابية المعدين لغسل الثياب ، وبآخره كثير من الضببين . بحيث لو أراد أحد أن يشترى منه ألف ضبة فى يوم لما عسر عليه ذلك . فلما حدثت المحن خرب هذا السوق بخلو حوانيته ، وصار مقفرا من ساكنيه . ثم إنه عمر بعد سنة عشر وثمانمائة ، وفيه الآن نفر من البزازين وقليل ممن سواهم .

سوق المحابريين

هذا السوق فيما بين الجامع الأقمر وبين جملون ابن صيرم. يسلك فيه من سوق حارة برجوان، ومن سوق الشماعين إلى الركن المخلق ورحبة باب العيد، وهو من شوارع القاهرة المسلوكة، وفيه عدة حوانيت لعمل المحاير التى يسافر فيها إلى الحجاز وغيره، وكان فيه تاجران قد تراضيا على ما يشتريأنه من المحاير المعرضة للبيع، ولهذا السوق موسم عظيم عند سفر الحاج، وعند سفر الناس إلى القدس، وبلغنى عن شيخ كان بهذا السوق أنه أوصى بعض صبيأنه فقال له: يا بنى لا تراع أحدا فى بيع. فإنه لا يحتاج إليك إلا مرة فى عمره، فخذ عدلك فى ثمن المحارة، فانك لا تخشى من عوده مرة أخرى إليك، وسوف إذا عاد من سفره إما إلى الحجاز أو القدس فإنه يحتاج إلى بيعها فتراقد عليه فى ثمنها، واشترها بالرخيص، وكذلك يفعل أهل هذا السوق إلى اليوم فإنهم لا يراعون بائعا، ولا مشتريا إلا أن سوقهم لم يبق كما أدركناه. فإنه حدث سوق آخر يباع فيه المحاير بسوق الجامع الطولونى، وصار بسوق الخيميين أيضا صناع للمحاير. وبلغنى أن بالمحايريين هذه أوقف أهل مصر أمرأة من جريد مؤتزرة بيدها ورقة فيها سب الخليفة الحاكم بأمر الله ولعنه، عند مامنع النساء من الخروج فى الطرقات، فعندما مر من هناك حسبها أمرأة تسأله حاجة فأمر بأخذ الورقة منها. فإذا فيها من السب ما أغضبه فأمر بها أن تؤخذ فإذا هى من جريد قد ألبس ثيابا وعمل كهيئة أمرأة. فاشتد عند ذلك غضبه وأمر العبيد بإحراق مدينة مصر فأضرموا فيها النار. ولم اقف على هذا الخبر مسطورا، وقد ذكر المسيحى حريق الحاكم بأمر الله لمصر، ولم يذكر قصة المرأة.

الصاغة

هذا المكان تجاه المدارس الصالحية بخط بين القصرين. قال ابن عبدالظاهر: الصاغة بالقاهرة كانت مطبخاً للقصر، يخرج اليه من باب الزهومة، وهو الباب الذى هدم وبنى مكانه قاعة شيخ الحنابلة من المدارس الصالحية، وكان يخرج من المطبخ المذكور مدة شهر رمضان ألف ومائتا قدر من جميع الألوان فى كل يوم تفرق على أرباب الرسوم والضعفاء، وسمى باب الزهومة أى باب الزفر لأنه لا يدخل باللحم وغيره إلا منه. فاختص بذلك. انتهى. والصاغة الآن وقف على المدارس الصالحية. وقفها الملك السعيد بركة خان المسمى بناصر الدين محمد ولد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى على ألفقهاء المقررين بالمدارس الصالحية.

سوق الكتبيين

هذا السوق فيما بين الصاغة والمدرسة الصالحية أحدث فيما أظن بعد سنة سبعمائة وهو جار فى أوقاف المارستان المنصورى، وكان سوق الكتب قبل ذلك بمدينة مصر تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص فى أول زقاق القناديل، بجوار دار عمرو وأدركته وفيه بقية بعد سنة ثمانين وسبعمائة، وقد دثر الآن فلا يعرف موضعه، وكان قد نقل سوق الكتبيين من موضعه الآن بالقاهرة إلى قيسارية كانت فيما بين سوق الدجاجين المجاور للجامع الأقمر وبين سوق الحصريين المجاور للركن، وكان يعلو هذه القيسارية ربع فيه عدة مساكن فتضررت الكتب من نداوة أقبية البيوت، وفسد بعضها. فعادوا إلى سوق الكتب الأول حيث هو الآن. وما برح هذا السوق مجمعا لأهل العلم يترددون إليه وقد أنشدت قديما لبعضهم.

مجالسة السـوق مذمومة

ومنهـا مجالس قد تحتسب

فلا تقربن غير سوق الجياد

وسوق السلاح وسوق الكتب

فهاتيك آلة أهـل الوغى

وهاتيك آلة أهـل الأدب

سوق الصنادقيين

هذا السوق تجاه المدرسة السيوفية . كان موضعه فى القديم من جملة المارستان ، ثم عرف بفندق الدبابليين ، وقيل له الآن «سوق الصنادقيين» وفيه تباع الصناديق والخزائن والأسرة مما يعمل من الخشب ، وكان ما بظاهرها قديما يعرف بسكن الدجاجين ، وأدركناه يعرف بسوق السيوفيين ، وكان فيه عدة طباخين لايزال دخان كوانينهم منعقدا لكثرته . حتى قال لى شيخنا قاضى القضاة مجدالدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفى إن قاضى القضاة جلال الدين جاد الله قال لى : هذا السوق قطب دائرة الدخان ، وفى سوق الصنادقيين إلى الآن بقية .

سوق الحريريين

هذا السوق من باب قيسارية العنبر إلى خط البندقانيين . كان يعرف قديما بسقيفة العداس . ثم عمل صاغة القاهرة ، ثم سكن هناك الأساكفة . قال ابن عبد الظاهر : وكانت الصاغة قديما فيما تقدم مكان الأساكفة الآن ، وهو إلى الآن معروف بالصاغة القديمة ، وكان يعرف بسقيفة العداس . كذا رأيت فى كتب الأملاك ، وعرف هذا السوق فى زماننا

بالحريريين الشرابريين، وعرف بعضه بسوق الزجاجين، وكان يسكن فيه أيضا الأساكفة. فلما انشأ الأمير يونس الدوادار القيسارية على بئر زويلة بخط البندقانيين فى أعوام بضع وثمانين وسبعمائة نقل الأساكفة من هذا الخط، ونقل منه أيضا بياعى أخفاف النساء إلى قيساريته وحوانيته المذكورة.

سوق العنبريين

هذا السوق فيما بين سوق الحريريين الشرابيين وبين قيسارية العصفر، وهو تجاه الخراطين. كان فى الدولة ألفاطمية مكأنه سجنا لأرباب الجرائم يعرف بحبس المعونة، وكان شنيع المنظر ضيقا لايزال من يجتاز عليه يجد منه رائحة منكرة. فلما كان فى الدولة التركية وصار قلاوون من جملة الأمراء الظاهرية بيبرس صار يمر من داره إلى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا فيشم منه رائحة رديئة، ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعرى والقمل. فجعل على نفسه إن الله تعإلى جعل له من الأمر شيئا أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا. فلما صار إليه ملك ديار مصر والشام هذم حبس المعونة، وبناه سوقا أسكنه بياعى العنبر. وكان للعنبر إذا ذاك بديار مصرنفاق، وللناس فى رغبتم زائدة. لا يكاد يوجد بأرض مصر أمرأة - وإن سلفت - إلا ولها قلادة من عنبر، وكان يتخذ منه المخاد والكلل والستور وغيرها. وتجار العنبر يعدون من بياض الناس، ولهم أموال جزيلة، وفيهم رؤساء واجلاء. فلما صار الملك إلى الملك الناصر محمد بن قالوون جعل هذا السوق وما فوقه من المساكن وقفا على الجامع الذى أنشأه بظاهر مصر جوار موردة الخلفاء المعروف بالجامع الجديد الناصرى، وهو جار فى أوقافه إلى يومنا هذا. إلا أن العنبر من بعد سنة سبعين وسبعمائة كثر فيه الغش حتى صار اسما لا معنى له وقت رغبة الناس فى استعماله. فتلاشى أمر هذا السوق بالنسبة لما كان ثم لما حدثت المحن بعد سنة ست وثمانمائة قل ترفة أهل مصر عن استعمال الكثير من العنبر. فطرق هذا السوق ما طرق غيره من أسواق البلد، وبقيت فيه بقية يسيرة إلى أن خلع الخليفة المستعين بالله العباسى بن محمد فى سنة خمس عشرة وثمانمائة،

وكان نظر الجامع الجديد بيده وبيد أبيه الخليفة المتوكل على الله محمد فقصد بعض سفهاء العامة يكاتبه بتعطيل هذا السوق. فاستأجر فيسارية العصفر، ونقل سوق العنبر إليها وصار معطلا نحو سنتين، ثم عاد أهل العنبر إلى هذا السوق على عادتهم فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة.

سوق الخراطين

هذا السوق يسلك فيه من سوق المهامزيين إلى الجامع الأزهر وغيره، وكان قديما يعرف بعقبة الصباغين، ثم عرف بسوق القشاشين، وكان فيما بين دار الضرب والوكالة الآمرية وبين المارستان، ثم عرف الآن بسوق الخراطين، وكان سوقا كبيرا معمور الجانبين بالحوانيت المعدة لبيع المهد الذى يربى فيه الأطفال، وحوانيت الخواطين وحوانيت صناع السكاكين وصناع الدوى يشتمل على نحو الخمسين حانوتا فلما حدثت المحن تلاشى هذا السوق، واغتصب الأمير جمال الدين يوسف الاستادار منه عدة حوانيت من أوله، إلى الحمام التى تعرف بحمام الخراطين، وشرع فى عمارتها فعوجل بالقتل قبل إتمامها، وقبض عليها الملك الناصر فرج فيما أحاط به من أمواله، وأدخلها فى الديوان. فقام بعمارة الحوانيت التى تجاه قيسارية العصفر من درب الشمسى إلى أول الخراطين القاضى الرئيس تقى الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر. فلما كملت جعلها الملك الناصر فيما هو موقوف على تربته التى أنشأها فى قبر أبيه الملك الظاهر برقوق خارج باب النصر، وأفرد الحمام وبعض الحوانيت القديمة للمدرسة التى أنشأها الأمير جمال الدين يوسف الاستادار برحبة باب العيد، وما يقابل هذه الحوانيت هو وما فوقه وقف على المدرسة ألفراسنقرية وغيرها، وهو متخرب متهدم.

سوق الجملون الكبير

هذا السوق بوسط سوق الشرابشيين. يتوصل منه إلى البندقانيين وإلى حارة الجودرية وغيرها أنشيء فيه حوانيت سكنها البزازون. وقفه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على تربة مملوكه يلبغا التركمانى عندما مات فى سنة تسعين وسبعمائة فصارت تغلق فى الليل، وكان فيما أردكناه شارعا مسلوكا طول الليل. يجلس تجاهه صاحب العسس الذى عرفته العامة فى زماننا بوالى الطوف من بعد صلاة العشاء فى كل ليلة، وينصب قدامه مشعل يشعل بالنار طول الليل حوله عدة من الاعوان وكثير من السقائين والنجاريين والقصارين والهدادين بنوب مقررة لهم، خوفا من أن يحدث بالقاهرة فى الليل حريق فيتداركون إطفاءه، ومن حدث منه فى الليل خصومه أو وجد سكران أو قبض عليه من السراق تولى أمره والى الطوف، وحكم فيه بما يقتضيه الحال. فلما كانت الحوادث بطل هذا السوق الآن جار فى وقف(٣)...

سوق الفرايين

هذا السوق يسلك فيه من سوق الشرابشيين إلى الاكفانيين والجامع الأزهر وغير ذلك. كان قديما يعرف بسوق الخروقيين، ثم سكن فيه صناع الفراء وتجاره فعرف بهم، وصار بهذا السوق فى أيام الملك الظاهر برقوق من أنواع ألفراء ما يجل أثمانها وتتضاعف قيمها لكثرة استعمال رجال الدولة من الأمراء والمماليك لبس السمور والوشق والقماقم والسنجاب بعد ما كان ذلك فى الدولة التركية من أعز الأشياء التى لا يستطيع أحد أن يلبسها، ولقد اخبرنى الطواشى الفقية الكاتب الحاسب الصوفى زين الدين مقبل الرومى الجنس المعروف بالشامى عتيق السلطان الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاوون أنه وجد فى تركة بعض أمراء السلطان حسن قباء بفروقاقم فاستكثر ذلك عليه وتعجب منه، وصار يحكى ذلك مدة لعزة هذا الصنف واحترامه لكونه من ملابس السلطان وملابس نسائه، ثم تبذلت الأصناف

المذكورة حتى صار يلبس السمور آحاد الأجناد وآحاد الكتاب وكثير من العوام، ولا تكاد أمرأة من نساء بياض الناس تخلو من لبس السمور ونحوه، وإلى الآن عند الناس من هذا الصنف وغيره من الفرو شيء كثير.

سوق البخانقيين

هذا السوق فيما بين سوق الجملون الكبير وبين قيسارية الشرب الآتى ذكرها إن شاء الله تعالى عند ذكر القياسر، وباب هذا السوق شارع من القصبة ويعرف بسوق الخشيبة تصغير خشبة فإنه عمل على بابه المذكور خشبة تمنع الراكب من التوصل إليه، ويسلك من هذا السوق إلى قيسارية الشرب وغيرها، وهو معمور الجانبيين بالحوانيت المعدة لبيع الكوافى والطواقى التى تلبسها الصبيان والبنات، وبظاهر هذا السوق أيضا فى القصبة عدة حوانيت لبيع الطواقى وعملها، وقد كثر لبس رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأجناد، من يتشبه بهم للطواقى فى الدولة الجركسية، وصاروا يلبسون الطاقية على رؤوسهم بغير عمامة، ويمرون كذلك فى الشوارع والأسواق والجوامع والمواكب. لا يرون بذلك بأسا بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة، ونوعوا هذه الطواقى ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان، وكانت أولا ترتفع نحو سدس ذراع ويعمل أعلاها مدورا مسطحا. فحدث فى أيام الملك الناصر فرج منها شيء عرف بالطواقى الجركسية، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثى ذراع وأعلاها مدور مقبب، وبالغوا فى تبطين الطاقيةبالورق والكتبرة فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس، وجعلوا من اسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس فى عرض نحو ثمن ذراع يصير دائرا بجبهة الرجل وأعلى عنقه، وهم على استعمال هذا الزى إلى اليوم، وهو من أسمج ماعانوه، ويشبه الرجال فى لبس ذلك بالنساء لمعنيين. أحدهما: أنه فشا فى أهل الدولة محبة الذكران، فقصد نساؤهم التشبة بالذكران ليستملن قلوب رجالهن، فاقتدى بفعلهن فى ذلك عامة نساء البلدة. وثانيهما: ما حدث بالناس من الفقر ونزل بهم من ألفاقة. فاضطر حال نساء أهل مصر إلى ترك ما أدركنا فيه النساء من لبس الذهب والفضة

والجواهر ولبس الحرير حتى لبسن هذه الطواقى، وبالغن فى عملها من الذهب والحرير وغيره، وتواصين على لبسها . ومن تأمل أحوال الوجود عرف كيف تنشأ أمور الناس فى عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم .

سوق الخلعيين

هذا السوق فيما بين قيسارية ألفاضل الآتى ذكرها إن شاء الله تعالى وبين باب زويلة الكبير، وكان يعرف قديما بالخشابين، وعرف إليوم بالزقيق تصغير زقاق، وعرف أيضا بسوق الخلعيين كأنه جمع خلعى، والخلعى فى زماننا هو الذى يتعاطى بيع الثياب الخليع وهى التى قد لبست، وهذا السوق اليوم من أعمر أسواق القاهرة لكثرة ما يباع فيه من ملابس أهل الدولة وغيرهم، وأكثر ما يباع فيه الثياب المخيطة، وهو معمور الجوانب بالحوانيت، ويسلك من القصبة ليلاونهارا إلى حارة الباطلية وخوخة أيدغمش وغير ذلك . وفى داخل القاهرة أيضا عدة أسواق، وقد خرب الآن أكثرها .

سويقة الصاحب

هذه السويقة يسلك إليها من خط البندقانيين، ومن باب الخوخة وغير ذلك، وهى من الأسواق القديمة . كانت فى الدولة ألفاطمية تعرف بسويقة الوزير يعنى أبا ألفرج يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز الذى تنسب إليه حارة الوزيرية . فإنها كانت على باب داره التى عرفت بعده فى الدولة ألفاطمية بدار الديباج، وصار موضعها الآن المدرسة الصاحبية، ثم صارت تعرف بسويقة دار الديباج يعنى دار الطراز ينسج فيها الديباج . الذى هو الحرير، وقيل لذلك الموضع كله خط دار الديباج، ثم عرف هذا السوق بالسوق الكبير فى أخريات الدولة ألفاطمية . فلما ولى صفى الدين عبد اللـه بن شكر الدميرى وزارة

الملك العادل أبى بكر بن أيوب سكن فى هذا الخط، وأنشأ به مدرسته التى تعرف إلى اليوم بالمدرسة الصاحبية، وأنشأ به أيضا رباطه وحمامه المجاورين للمدرسة المذكورة عرفت من حينئذ هذه السويقة بسويقة الصاحب المذكور، واستمرت تعرف بذلك إلى يومنا هذا ولم تزل من الأسواق المعتبرة. يوجد فيها أكثر ما يحتاج إليه من المأكل لوفور نعم من يسلك هنالك من الوزراء وأعيان الكتاب، فلما حدثت المحن طرقها ما طرق غيرها من أسواق القاهرة فاختلت عما كانت، وفيها بقية.

سوق البندقانيين

هذا السوق يسلك إليه من سوق الزجاجين ومن سويقة الصاحب ومن سوق الابزاريين وعيره، وكان يعرف قديما بسوق بئر زويلة، وكان هناك بئر قديمة تعرف ببئر زويلة برسم اصطبل الجميزة. الذى كان فيه خيول الخلفاء ألفاطميين وصار موضعه خط البندقانيين بعد ذلك. كما ذكر عند اصطبلات الخلفاء ألفاطميين من هذا الكتاب. وموضع هذه البئر إليوم قيساوية يونس والربع الذى يعلوها، وبقى منها موضع ركب عليه حجر وأعدت لملء السقائين منها. فلما زالت الدولة، واختط موضع اصطبل الجميزة الدور وغيرها وعرف موضع الاصطبل بالبندقانيين. قيل لهذا السوق سوق البندقانيين، وأدركته سوقا كبيرا معمور الجانبين بالحوانيت التى قد تهدم أعلاها منذ كان الحريق بالنبدقانيين فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة كما ذكر فى خط البندقانيين عند ذكر الأخطاط من هذا الكتاب، وفى هذا السوق كثير من أرباب المعاش المعدين لبيع المأكولات من الشواء والطعام المطبوخ وأنواع الأجبان وألبان والبوارد والخبز وألفواكه، وعدة كثيرة من صناع قسى البندق، وكثير من الرسامين، وكثير من بياعى ألفقاع. فلما حدثت المحن بعد سنة ست وثمانمائة اختل هذا السوق خللا كبيرا وتلاشى أمره.

سوق الأخفافيين

هذا السوق بجوار سوق البندقانيين . يباع فيه الآن أخفاف النسوان ونعالهن ، وهو سوق مستجد أنشأه الأمير يونس النوروزى داوادار الملك الظاهر برقوق فى سنة بضع وثمانين وسبعمائة ، ونقل إليه الأخفافيين بياعى اخفاف النساء من خط الحريريين والزجاجين ، وكان مكانه مما خرب فى حريق البندقانيين . فركب بعض القيسارية على بئر زويلة ، وجعل بابها تجاه درب الأنجب ، وبنى فوقها أيضا عدة مساكن . فعمر ذلك الخذ بعمارة هذه الأماكن . وبه إلى الآن بياعى أخفاف النساء ونعالهن التى يقال للنعل منها سرموزه ، وهو لفظ فارسى معناه رأس الخف فإن سر رأس ، وموزه خف .

سوق الكفتيين

هذا السوق يسلك إليه من البندقانيين ومن حارة الجودرية ومن الجملون الكبير وغيره ، ويشتمل على عدة حواينت لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة ، وكان لهذا الضيف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس فى النحاس المكفت رغبة عظيمة أدركنا من ذلك شيئا لا يبلغ وصفه واصف لكثرته . فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت ، ولابد أن يكرن فى شورة العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض . تبلغ كبراها ما يسع نحو الإردب من القمح . وطول الإكفات التى نقشت بظاهرها من الفضة نحو الثلث ذراع فى عرض إصبعين ومثل ذلك دست أطباق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ، ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر ، وغير ذلك من المنابر والسرج وأحقاق الاشنان والطشت والابريق والمبخرة . فتبلغ قيمة

الدكة من النحاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا، وكانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو أعيان الكتاب أو أماثل التجار تجهز فى شورتها عند بناء الزوج عليها سبع دكك. دكة من فضة ودكة من كفت ودكة من نحاس ابيض ودكة من خشب مدهون ودكة من صينى ودكة من بللور، ودكة كداهى، وهى آلات من ورق مدهون تحمل من الصين أدركنا منها فى الدور شيئا كثيرا، وقد عدم هذا الصنف من مصر إلا شيئا يسيرا.

حدثنى القاضى الفاضل الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل أحمد بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومى رحمه الله. قال: تزوج القاضى علاء الدين بن عرب محتسب القاهرة بامرأة من بنات التجار تعرف بست العمائم. فلما قارب البناء عليها والدخول بها حضر إليه فى يوم وكيلها وانا عنده فبلغه سلامها عليه وأخبره انها بعثت إليه بمائة ألف درهم فضة خالصة ليصلح بها لها ما عساه اختل من الدكة الفضة فأجابه إلى ما سأل وأمره بإحضار الفضة فاستدعى الخدم من الباب فدخلوا بالفضة فى الحال، وبالوقت أمر المحتسب بصناع الفضة وطلائها فأحضروا وشرعوا فى إصلاح ما أرسلته ست العمائم من أوانى الفضة وإعادة طلائها بالذهب. فشاهدنا من ذلك منظرا بديعا.

واخبرنى من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قلاوون وقد حمل فى القاهرة عند مازفت على بعض الأمراء فى دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون فكان شيئا عظيما من جملته دكة بللور تشتمل عجائب. منها زير من بللور قد نقش بظاهرة صور ثابتة على شبه الوحوش والطيور، وقدر هذا الزير ما يسع قربة ماء، وقد قل استعمال الناس فى زمننا هذا للنحاس المكفت وعز وجوده، فإن قوما لهم عدة سنين قد تصدوا لشراء ما يباع منه وتنحية الكفت عنه طلبا للفائدة، وبقى بهذا السوق إلى يومنا هذا بقية من صناع الكفت قليلة.

سوق الأقباعيين

بخط تحت الربع خارج باب زويلة مما يلى الشارع المسلوك فيه إلى قنطرة الخرق ما كان منه على يمنة السالك إلى قنطرة الخرق فإنه جار فى وقف الملك الظاهر بيبرس، وهو وما فوقه على المدرسة الظاهرية بخط بين القصرين وعلى أولاده. ولم يزل إلى يوم السبت خامس شهر رمضان سنة عشرين وثمانمائة، فوقع الهدم فيه ليضاف إلى عمارة الملك المؤيد شيخ المجاورة لباب زويلة، وما كان من هذا السوق على يسرة من سلك إلى القنطرة فإنه جار فى وقف أقبغا عبد الواحد على مدرسته المجاورة للجامع الأزهر وبعضه وقف امرأة تعرف بدنيا.

سوق السقطيين

هذا السوق خارج باب زويلة بجوار دار التفاح أنشأه الأمير أقبغا عبد الواحد. وهو جار فى وقفه.

سويقة خزانة البنود

هذه السويقة على باب درب راشد، وتمتد إلى خزانة البنود، وكانت تعرف أولا بسويقة ريدان الصقلى المنسوب إليه الريدانية خارج باب النصر.

سويقة المسعودى

هذه السويقة من حقوق حارة زويلة بالقاهرة. تنسب إلى الأمير صارم الدين قايماز المسعودى مملوك الملك المسعود اقسيس ابن الملك الكامل، وولى المسعودى هذا ولاية القاهرة، وكان ظالما غاشما جبارا من أجل أنه كان فى دار ابن فرقة التى من جملتها جامع ابن المغربى وبيت الوزير ابن أبى شاكر، ثم إن فتح الدين بن معتصم الداودى التبريزى كاتب

السر جددها فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة . لانه كان يسكن هناك ومات المسعودى فى يوم الإثنين النصف من ذى الحجة سنة أربع وستين وستمائة ضربه شخص فى دار العدل بسكين كان يريد أن يقتل بها الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة فوقعت فى فؤاد المسعودى فمات لوقته .

سويقة طغلق

هذه السويقة على رأس الحارة الصالحية مما يلى الجامع الأزهر . عرفت بالأمير سيف الدين طغلق السلاح دار صاحب حمام طغلق التى بالقرب من الجامع الأزهر على باب درب المنصورى وصاحب دار طغلق التى عرفت بدار المنصورى فى الدرب المذكور ، وأول ما عمرت هذه السويقة لم يكن فيها غير أربع حواينت ، ثم عمرت عمارة كبيرة لما خربت سويقة الصالحية التى كانت مما يلى باب البرقية فى حدود سنة ثمانين وسبعمائة ، ثم تلاشت من سنة ست وثمانمائة كما تلاشى غيرها من الأسواق ، وبقى فيها يسير جدا .

سويقة الصوانى

هذه السويقة خارج باب النصر وباب الفتوح بخط بستان ابن صيرم . عرفت بالأمير علاء الدين أبى الحسن على بن مسعود الصوانى مشد الدواوين فى أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وقيل بل قراجا الصوانى أحد مقدمى الحلقة فى أيام الملك المنصور قلاوون وكان فى حدود سنة إحدى وثمانين وستمائة موجودا ، وكانت داره هناك ، وكان أيضا فى أيام الملك المنصور قلاوون الأمير زين الدين أبو المعالى أحمد بن شرف الدين أبى المفاخر محمد الصوانى شاد الدواوين ، وكان يسكن بمدينة مصر ، والأمير علم الدين سنجر الصوانى أحد الأمراء المقدمين الألوف فى ايام الملك الناصر محمد بن قلاوون والملك المظفر بيبرس ، وهو صاحب البئر التى بالباطلية المعروفة ببئر الدرابزين وعز الدين أيبك الصوانى .

سويقة البلشون

هذه السويقة خارج باب الفتوح . عرفت بسابق الدين سنقر البلشون أحد مماليك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وسلاح درايته، وكان له أيضا بستان بالمقس خارج القاهرة من جوار الدكة يعرف ببستان البلشون .

سويقة اللفت

هذه السويقة خارج باب النصر من ظاهر القاهرة . حيث البئر التى فى شمال مصلى الأموات المعروف ببئر اللفت تجاه دار ابن الحاجب . كانت تشتمل على عدة حوانيت يباع فيها اللفت والكرنب ويحمل منها إلى سائر أسواق القاهرة، ويباع إليوم فى بعض هذه الحوانيت الدريس لعلف الدواب .

سويقة زاوية الخدام

هذه السويقة خارج باب النصر بحرى سويقة اللفت . كان فيها عدة حوانيت يباع فيها انواع المآكل . فلما كانت سنة ست وثمانمائة خربت ولم يبق فيها سوى حوانيت لا طائل بها .

سويقة الرملة

هذه السويقة كانت فيما بين سويقة زاوية الخدام وجامع آل ملك حيث مصلى الأموات التى هناك . كان فيها عدة حوانيت مملوءة بأصناف المآكل قد خرب سائرها ولم يبق لها أثر البتة .

سويقة جامع آل ملك

أدركتها إلى سنة ست وثمانمائة، وهى من الأسواق الكبار فيها غالب ما يحتاج إليه من الأدام، وقد خربت لخراب ما يجاورها.

سويقة أبى ظهير

كانت تلى سويقة جامع آل ملك أدركتها عامرة.

سويقة السنابطة

كانت هناك. عرفت بقوم من أهل سنباط سكنوا بها. أدركتها أيضا عامرة.

سويقة العرب

هذه السويقة كانت تتصل بالريدانية خربت فى الغلاء الكائن فى سنة ست وسبعين وسبعمائة، وأدركت حوانيت هذه السويقة وهى خالية من السكان إلا يسيرا، وعقودها من اللبن، ويقال له وما وراءه: خراب الحسينية، وكانت فى غاية العمارة وكان بأولها مما يلى الحسينية فرن أدركته عامرا إلى ما بعد سنة تسعين وسبعمائة، بلغنى أنه كان قبل ذلك فى أعوام ستين وسبعمائة يخبز فيه كل يوم نحو سبعة آلاف رغيف لكثرة من حوله من السكان، وتلك الأماكن اليوم لاساكن فيها إلا البوم، ولا يسمع بها إلا الصدى.

سويقة العزى

هذه السويقة خارج باب زويلة قريبا من قلعة الجبل . كانت من جملة المقابر التى خارج القاهرة فيما بين الباب الجديد والحارات وبركة الفيل وبين الجبل الذى عليه الآن قلعة الجبل . فلما اختطت هذه الجهة كما تقدم ذكره عند ذكر ظواهر القاهرة عرفت هذه السويقة بالأمير عز الدين ايبك العزى نقيب الجيوش ، واستشهد على عكا عندما فتحها الأشرف خليل بن قلاوون فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة . وهذه السويقة عامرة بعمارة ما حولها .

سويقة العياطين

هذه السويقة بخط المقس بالقرب من باب البحر . عرفت بالفقير المعتقد مسعود بن محمد بن سالم العياط لسكنه بالقرب منها ، وله هناك مسجد بناه فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر الشهر زورى وكيل أبى ـ رحمه الله ـ أن النشو ناظر الخاص فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون طرح على أهل هذه السويقة عدة أمطار عسل قصب ، وألزمهم فى ثمن كل قنطار بعشرين درهما . فوقفوا إلى السلطان وعيطوا حتى أعفاهم من ذلك فقيل لها من حينئذ سويقة العياطين ، ولفظة عياط عند أهل مصر بمعنى صياح ، والعياط الصياح ، وأصل ذلك فى اللغة أن العطعطة تتابع الأصوات واختلافها فى الحرب ، وهى أيضا حكاية أصوات المجان . إذا قالوا عيط عيط ، وذلك إذا غلبوا قوما ، وقد عطعطوا وعطعط بالذئب إذا قال له عاط عاط . فحرف عامة مصر ذلك وجعلوا العياط الصياح ، واشتقوا منه الفعل فاعرف ذلك .

سويقة العراقيين

هذه السويقة بمدينة مصر الفسطاط، وإنما عرفت بذلك لأن قريبا الأزدى وزحافا الطائى، وكانا من الخوارج خرجا على زياد بن أميه بالبصرة، فاتهم زياد بهما من الازد، وكتب إلى معاوية بن أبى سفيان يستأذنه فى قتلهم. فأمر بتغريبهم عن أوطانهم. فسيرهم إلى مصر وأميرها مسلمة بن مخلد، وذلك فى سنة ثلاث وخمسين، وكان عددهم نحوا من مائتين وثلاثين. فانزلوا بالظاهر أحد خطط مصر، وكأن إذ ذاك طرقا. أراد أن بسد بهم ذلك الموضع. فنزلوا فى الموضع المعروف بكوم سراج، وكان فضاء فبنوا لهم مسجدا، واتخذوا سوقا لأنفسهم فسمى سويقة العراقيين.

ذكر العوايد التى كانت بقصبة القاهرة

اعلم أن قصبة القاهرة ما برحت محترمة بحيث إنه كان فى الدولة الفاطمية إذا قدم رسول متملك الروم ينزل من باب الفتوح، ويقبل الارض وهو ماش إلى أن يصل إلى القصر، وكذلك كان يفعل كل من غضب عليه الخليفة. فإنه يخرج إلى باب الفتوح ويكشف رأسه، ويستغيث بعفو أمير المؤمنين حتى يؤذن له بالمسير إلى القصر، وكان لها عوايد. منها: أن السلطان من ملوك بنى أيوب أو من قام بعدهم من ملوك الترك لا بد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة، ويدخل إليها راكبا والوزير بين يديه على فرس، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه، وقد أمسكه بيديه وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر إلى ان يخرج من باب زويلة. فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العسكر، ومنها أنه لا يمر بقصبة القاهرة حمل تبن ولا حمل حطب، ولا يسوق أحد فرسا بها، ولا يمر بها سقاء إلا وراويته مغطاه، ومن رسم ارباب الحوانيت ان

يعدوا عند كل حانوت زيرا مملوء بالماء مخافة أن يحدق الحريق فى مكان فيطفأ بسرعة ، ويلزم صاحب كل حانوت أن يعلق على حانوته قنديلا طول الليل يسرج إلى الصباح ، ويقام فى القصبة قوم يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها ، ويرشون كل يوم ، ويجعل فى القصبة طول الليل عدة من الخفراء يوطفون بها لحراسة الحوانيت وغيرها ، ويتعاهد كل قليل بقطع ما عساه تربى من الأوساخ فى الطرقات حتى لاتعلو الشوارع .

أول من ركب بخلع الخليفة فى القاهرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة تاسع شهر رجب : وصلت الخلع التى كانت نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من الخليفة ببغداد وهى جبة سوداء وطوق ذهب . فلبسها نور الدين بدمشق إظهارا لشعارها ، وسيرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها ، وكانت أنفذت له خلعة ذكر أنه استقصرها واستزراها واستصغرها دون قدرة ، واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك برأس الطابية . فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة ، وهو من الأصحاب النجمية ، وزينت البلد ابتهاجا بها ، وفيه ضربت النوب الثلاث بالباب الناصرى على الرسم النووى فى كل يوم . فأما دمشق فالنوب المضروبة بها خمس على رسم قديم . لأن الاتابكية لها قواعد ورسوم مستقرة بينهم فى بلادهم .

وفى حادى عشره ركب السلطان بالخلع وشق بين القصرين والقاهرة ، ولما بلغ باب زويلة نزع الخلع وأعادها إلى داره ثم شمر للعب الأكرة ، ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب حتى انقضت أيامهم وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك . فجروا فى ذلك على عادة ملوك بنى أيوب إلى أن قام فى مملكة مصر السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى وقتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، وهو آخر خلفاء بنى العباس ببغداد ، وقدم على الملك الظاهر أبو العباس أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله ابن الخليفة الناصر فى

شهر رجب سنة تسع وخمسين وستمائة فتلقاه وأكرمه وبايعه ولقبه بالخليفة المستنصر بالله وخطب باسمه على المنابر، وتفش السكة باسمه. فلما كان فى يوم الإثنين الرابع من شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير من ظاهر القاهرة، ولبس خلعة الخليفة، وهى جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وسيف بداوى، وجلس مجلسا عاما فيه الخليفة والوزير والقضاة والأمراء والشهود، وصعد القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب السر منبرا نصب له، وقرأ تقليد السلطان الذى عهد به إليه الخليفة، وكان بخط ابن لقمان كاتب السر ومن إنشائه. ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق ودخل من باب النصر وشق القاهرة - وقد زينت له - وحمل الوزير الصاحب بهاء الدين محمد بن على بن حنا التقليد على رأسه قدام السلطان، والأمراء ومن دونهم مشاة بين يديه حتى خرج من باب زويلة إلى قلعة الجبل فكان يوما مشهودا.

وفى ثالث شوال سنة اثنتين وستين وستمائة سلطن الملك الظاهر بيبرس ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان، وأركبه بشعار السلطنة، ومشى قدامه وشق القاهرة كما تقدم وسائر الأمراء مشاة من باب النصر إلى قلعة الجبل، وقد زينت القاهرة، وآخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخلافة والتقليد السلطان الناصر محمد بن قلاوون عند دخوله إلى القاهرة من البلاد الشامية بعد قتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين واستيلائه على المملكة فى ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة، وقال المسبحى فى حوادث سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة: نودى فى السقائين أن يغطوا روايا الجمال والبغال لئلا تصيب ثياب الناس.

وقال فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة أمر العزيز بالله أمير المؤمنين بنصب أزيار الماء مملوءة ماء على الحوانيت، ووقود المصابيح على الدور وفى الأسواق.

وفى ثالث ذى الحجة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة أمر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله الناس بان يوقدوا القناديل فى سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال

والسكك الشارعة وغير الشارعة ففعل ذلك، ولازم الحاكم بأمر الله الركوب فى اليل، وكان ينزل كل ليلة إلى موضع موضع وإلى شارع شارع وإلى زقاق زقاق، وكان قد ألزم الناس بالوقيد فتناظروا فيه واستكثروا منه فى الشوارع والأزقة وزينت القياسر والأسواق بانواع الزينة، وصار الناس فى القاهرة ومصر طول الليل فى بيع وشراء، وأكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة، وانفقوا فى ذلك أموالا عظيمة جليلة لأجل التلاهى، وتبسطوا فى المآكل والمشارب وسماع الأغانى، ومنع الحاكم الرجال المشاة بين يديه من المشى بقربه وزجرهم وانتهرهم وقال: لا تمنعوا أحدا منى فأحدق الناس به، وأكثروا من الدعاء له، وزينت الصاغة وخرج سائر الناس بالليل للتفرج، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل، وعظم الازدحام فى الشوارع والطرقات، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات فى الحوانيت وبالشوارع من اول المحرم سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، وكان معظم ذلك من ليلة الأربعاء تاسع عشرة إلى ليلة الإثنين رابع عشريه فلما تزايد الأمر وشنع أمر الحاكم بأمر الله أن لا تخرج امرأة من العشاء، ومتى ظهرت امرأة بعد العشاء نكل بها، ثم منع الناس من الجلوس فى الحوانيت، فامتنعوا ولم يزل الحاكم على الركوب فى الليل إلى آخر شهر رجب، ثم نودى فى شهر رجب سنة خمس وتسعين وثلاثمائة أن لا يخرج أحد بعد العشاء الآخرة ولا يظهر لبيع ولا شراء فامتنع الناس.

وفى سنة خمس وأربعمائة تزايد فى المحرم منها وقوع النار فى البلد، وكثر الحريق فى عدة أماكن فأمر الحاكم بأمر الله الناس باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة ماء، ويطرح السقائف التى على أبواب الحوانيت والرواشن التى تظل الباعة فأزيل جميع ذلك من مصر والقاهرة.

ذكر ظواهر القاهرة المعزية

اعلم أن القاهرة المعزية يحصرها أربع جهات . وهى الجهة الشرقية والجهة الغربية والجهة الشمالية التى تسميها أهل مصر البحرية والجهة الجنوبية التى تعرف فى ارض مصر بالقبلية .

فأما الجهة الشرقية فانه من سور القاهرة الذى فيه الآن باب البرقية والباب الجديد والباب المحروق وتنتهى هذه الجهة إلى الجبل المقطم .

وأما الجهة الغربية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب القنطرة وباب الخوخة وباب سعادة ، وتنتهى هذه الجهة إلى شاطىء النيل .

وأما الجهة القبلية فإنها من سور القاهرة الذى فيه باب زويلة ، وتنتهى هذه الجهة إلى حد مدينة مصر .

وأما الجهة البحرية فإنها من سور القاهرة الذى فية باب النصر وباب الفتوح ، وتنتهى الجهة إلى بركة الجب التى تعرف إليوم ببركة الحاج ، وقد كانت هذه الجهة الشرقية عند ما وضعت القاهرة فضاء فيما بين السور وبين الجبل لابنيان فيه البتة . ومازال على هذا إلى أن كانت الدولة التركية . فقيل لهذا الفضاء الميدان الأسود وميدان القبق ، وسيرد ذكر هذا الميدان إن شاء الله تعالى . فلما كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون عمل هذا المَيْدان مقبرة لأموات المسلمين ، وبنيت فيه الترب الموجودة الآن ـ كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب .

وكانت الجهة الغربية تنقسم قسمين . أحدهما بر الخليج الشرقى ، والآخر بر الخليج الغربى . فأما بر الخليج الشرقى فكان عليه بستان الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد وميدانه . وعرف هذا البستان بالكافورى . فلما اختط القائد جوهر القاهرة أدخل هذا البستان فى سور القاهرة ، وجعل بجانبه الميدان الذى يعرف إليوم بالخرشتف . فصارت القاهرة تشرف من غربها على الخليج ، وبنيت على هذا الخليج مناظر . وهى منظرة اللؤلؤة ومنظرة دار الذهب ومنظرة غزالة . كما ذكر عند ذكر المناظر من هذا الكتاب وكان فيما بين

البستان الكافورى والمناظر المذكورة وبين الخليج شارع تجلس فيه عامة الناس للتفرج على الخليج وما وراءه من البساتين والبرك، ويقال لهذا الشارع إليوم بين السورين، ويتصل بالبستان الكافورى وميدان الإخشيد بركة الفيل وبركة قارون، ويشرف على بركة قارون الدور التى كانت متصلة بالعسكر ظاهر مدينة فسطاط مصر كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكرن البرك وعند ذكر العسكر، وأما بر الخليج الغربى فإن أوله الآن من موردة الخلفاء فيما بين خط الجامع الجديد خارج مصر وبين منشاة المهرانى وآخر أرض التاج والخمس وجوه وما بعدها من بحرى القاهرة.

وكان أول هذا الخليج عند وضع القاهرة بجانب خط السبع سقايات، وكان ما بين خط السبع سقايات وبين المعاريج بمدينة مصر غامرا بماء النيل. كما ذكر فى ساحل مصر من هذا الكتاب وكانت القنطرة التى يفتح سدها عند وفاء النيل ست عشرة ذراعا خلف السبع سقايات كما ذكر عند ذكر القناطر من هذا الكتاب، وكان هناك قنطرة السكرة التى يجلس فيها الخليفة يوم فتح الخليج، ولها بستان عظيم، ويعرف موضعه اليوم بالمريس ويتصل ببستان منظرة السكرة جنان الزهرى وهى من خط قناطر السباع الموجودة الآن بحذاء السبع سقايات إلى أراضى اللوق، ويتصل بالزهرى عدة بساتين إلى المقس، وقد صار الزهرى، وما كان بجوره على بر الخليج من البساتين يعرف بالحكورة من أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى وقتنا هذا. كما ذكر عند ذكر الأحكار من هذا الكتاب.

وكان الزهرى وما بجواره من البساتين التى على بر الخليج الغربى والمقس. كل ذلك مطل على النيل، وليس لبر الخليج الغربى كبير عرض، وإنما يمر النيل فى غربى البساتين على الموضع الذى يعرف إليوم باللوق إلى المقس. فيصير المقس هو ساحل القاهرة.

وتنتهى المراكب إلى موضع الذى يعرف إليوم باللوق إلى المقس. فيصير المقس هو ساحل القاهرة، وتنتهى المراكب إلى موضع جامع المقس الذى يعرف إليوم بجامع المقس. فكان ما بين الجامع المذكور ومنية عقبة التى ببر الجيزة بحر الينل، ولم يزل الأمر على ذلك إلى ما بعد سنة سبعمائة. إلا أنه كان قد انحسر ماء النيل بعد الخمسمائة من سنى الهجرة عن أرض بالقرب من الزهرى. عرفت بمنشاة الفاضل وبستان الخشاب، وهذه المنشاة اليوم يعرف

بعضها بالمريس مما يلى منشأة المهرانى، وانحسر أيضا عن أرض تجاه البعل الذى فى بحرى القاهرة. عرفت هذه الأرض بجزيرة الفيل، وما برح ماء النيل ينحسر عن شيء بعد شيء إلى ما بعد سنة سبعمائة. فبقيت عدة رمال فيما بين منشأة المهرانى وبين جزيرة الفيل، وفيما بين المقس وساحل النيل عمر الناس فيها الأملاك والمناظر والبساتين من بعد سنة اثنتى عشرة وسبعمائة.

وحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون فيها الخليج المعروف اليوم بالخليج الناصرى. فصار بر الخليج الغربى بعد ذلك أضعاف ما كان أولا من أجل انطراد ماء النيل عن بر مصر الشرقى، وعرف هذا البر إليوم بعدة مواضع، وهى فى الجملة خط منشأة المهرانى وخط المريس وخط منشأة الكتبة، وخط قناطر السباع وخط ميدان السلطان وخط البركة الناصرية، وخط الحكورة وخط الجامع الطيبرسى وربع بكتمر وزريبة السلطان وخط باب اللوق وقنطرة الخرق وخط بستان العدة وخط زريبة قوصون وخط حكر ابن الأثير وفم الخور وخط الخليج الناصرى وخط بولاق وخط جزيرة الفيل وخط الدكة وخط المقس وخط بركة قرموط وخط أرض الطبالة وخط الجرف وأرض البعل وكوم الريش وميدان القمح وخط باب القنطرة وخط باب الشعرية وخط باب البحر وغير ذلك، وسيأتى من ذكر هذه المواضع ما يكفى ويشفى إن شاء رالله تعالي.

وكانت جهة القاهرة القبلية من ظاهر ليس فيها سوى بركة الفيل وبركة قارون وهى فضاء يرى من خرج من باب زويلة عن يمينه الخليج وموردة السقائين وكانت باب الفتوح ويرى عن يساره الجبل، ويرى تجاهه قطائع ابن طولون التى تتصل بالعسكر، ويرى جامع ابن طولو وساحل الحمراء الذى يشرف عليه جنان الزهرى، ويرى بركة الفيل التى كان يشرف عليها الشرف الذى قوقه قبة الهواء، ويعرف إليوم هذا الشرف بقلعة الجبل. وكان من خرج من مصلى العيد بظاهر مصر يرى بركتى الفيل وقارون والنيل. فلما كانت أيام الخليفة الحاكم بأمر الله أبى على منصور بن العزيز بالله أبى منصور نزاز ابن الامام المعز لدين الله أبى تميم معد عمل خارج باب زويلة بابا عرف بالباب الجديد، واختط إليانسية والمنجبية وغيرهما. كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب. فلما كانت الشدة العظمى فى خلافة المستنصر بالله

اختلت أحوال مصر، وخربت خرابا شنيعا. ثم عمر خارج باب زويلة فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة المأمون محمد بن فاتك بن البطائحى بعد سنة خمسمائة. فلما زالت الدولة الفاطمية هدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حارة المنصورة التى كانت سكن العبيد خارج باب زويلة، وعملها بستانا فصار ما خرج عن باب زويلة بساتين إلى المشهد النفيسى، وبجانب البساتين طريق يسلك منها إلى قلعة الجبل التى أنشأها السلطان صلاح الدين المذكور على يد الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، وصار من يقف على باب جامع ابن طولون يرى باب زويلة، ثم حدثت العمائر التى هى الآن خارج باب زويلة بعد سنة سبعمائة، وصار خارج باب زويلة الآن ثلاثة شوارع. أحدها ذات اليمين والآخر ذات الشمال والشارع الثالث تجاه من خرج من باب زويلة وهذه الشوارع الثلاثة تشتمل على عدة أخطاط.

فاما ذات اليمين فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يمينه شارعا سالكا ينتهى به فى العرض إلى الخليج. حيث القنطرة التى تعرف بقنطرة الخرق، وينتهى به فى الطول من باب زويلة إلى خط الجامع الطولونى، وجميع ما فى هذا الطول والعرض من الأماكن كان بساتين إلى ما بعد السبعمائة، وفى هذه الجهة اليمنى خط دار التفاح وسوق السقطيين، وخط تحت الربع وخط القشاشين، وخط قنطرة الخرق وخط شق الثعبان وخط قنطرة آق سنقر، وخط الحبانية وبركة الفيل، وخط الكومانى وخط قنطرة طقزدمر والمسجد المعلق وخط قنطرة عمر شاه وخط قناطر السباع وخط الجسر الأعظم وخط الكبش والجامع الطولونى، وخط الصليبة، وخط الشارع وما هناك من الحارات التى ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب.

وأما ذات اليسار فإن من خرج من باب زويلة الآن يجد عن يساره شارعا ينتهى به فى العرض إلى الجبل، وينتهى به فى الطول إلى القرافة. وجميع ما فى هذه الجهة اليسرى كان فضاء لا عمارة فيه ألبتة. إلى ما بعد سنة خمسمائة من الهجرة. فلما عمر الوزير الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح الموجود الآن خارج باب زويلة صار ماوراءه إلى نحو قطائع ابن طولون مقبرة لأهل القاهرة إلى أن زالت دولة الخلفاء الفاطميين، وأنشأ السلطان

صلاح الدين يوسف ابن أيوب قلعة الجبل على رأس الشرف المطل على القطائع، وصار يسلك إلى القلعة من هذه الجهة اليسرى فيما بين المقابر والجبل، ثم حدثت بعد المحن هذه العمائر الموجودة هناك شيئاً بعد شيء من سنة سبعمائة، وصار فى هذه الشقة خط سوق البسطيين، وخط الدرب الأحمر وخط جامع الماردينى وخط سوق الغنم وخط التبانة وخط باب الوزير وقلعة الجبل والرميلة وخط القبيبات وخط باب القرافة.

وأما ما هو تجاه من خرج من باب زويلة فيعرف بالشارع، وقد تقدم ذكره عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب. وهو ينتهى بالسالك إلى خط الصليبة المذكور آنفا وإلى خط الجامع الطولونى وخط المشهد النفيسى وإلى العسكر وكوم الجارح وغير ذلك من بقية خطط ظواهر القاهرة ومصر، وكانت جهة القاهرة البحرية من ظاهرها فضاء ينتهى إلى بركة الجب وإلى منية الأصبع التى عرفت بالخندق وإلى مدينة مطر التى تعرف بالمطرية، وإلى عين شمس وما وراء ذلك إلا أنه كان تجاه القاهرة بستان ريدان ويعرف اليوم بالريدانية، وعند مصلى العيد خارج باب النصر حيث يصلى الآن على الاموات، كان ينزل هناك من يسافر إلى الشام. فلما كان قبل سنة خمسمائة ومات أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة بنى خارج باب النصر له تربة دفن فيها وبنى أيضا خارج باب الفتوح منظرة قد ذكر خبرها عند ذكر المناظر من هذا الكتاب، وصار أيضا فيما بين باب الفتوح والمطرية بساتين قد تقدم خبرها، ثم عمرت الطائفة الحسينية بعد سنة خمسمائة خارج باب الفتوح عدة منازل اتصلت بالخندق، وصار خارج باب النصر مقبرة إلى ما بعد سنة سبعمائة. فعمر الناس به حتى اتصلت العمائر من باب النصر إلى الريدانية، وبلغت الغاية من العمارة، ثم تناقصت من بعد سنة تسع وأربعين وسبعمائة إلى أن فحش خرابها من حين حدثت المحن فى سنة ست وثمانمائة. فهذا حال ظواهر القاهرة منذ اختطت وإلى يومنا هذا ويحتاج ما ذكر إلى مزيد بيان والله اعلم.

ذكر ميدان القبق

هذا الموضع خارج القاهرة من شرقيها فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر التى تحت الجبل الأحمر. ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الاخضر وميدان السباق وهو ميدان السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى بنى به مصطبة فى المحرم من سنة ست وستين وستمائة ونحو ذلك، وصار ينزل كل يوم إلى هذه المصطبة من الظهر. فلا يركب منها إلى العشاء الآخرة، وهو يرمى ويحرض الناس على الرمى والنضال والرهان. فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله، وتوفر الناس على لعب الرمح ورمى النشاب، وما برح من بعده من أولاده والملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى النجمى والملك الأشرف خليل بن قلاوون يركبون فى الموكب لهذا الميدان وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدامهم، وتنزل العساكر فيه لرمى القبق، والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك. تمرينا لهم على إحكام الرمى، ويعبر عن هذا بالقبق فى لغة الترك.

قال جامع السيرة الظاهرية: وفى سابع عشر المحرم من سنة سبع وستين وستمائة حث السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى جميع الناس على رمى النشاب ولعب الرمح. خصوصا خواصه ومماليكه، ونزل إلى الفضاء بباب النصر ظاهر القاهرة، ويعرف بميدان العيد، وبنى مصطبة هناك وأقام ينزل فى كل يوم من الظهر، ويركب منها عشاء الاخرة وهو واقف فى الشمس يرمى ويحرض الناس على الرمى والرهان. فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله واستمر الحال فى كل يوم على ذلك حتى صارت تلك الأمكنة لاتسع الناس، وما بقى لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمى النشاب.

وفى شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وستمائة تقدم السلطان الملك الظاهر إلى عساكره بالتأهب للركوب واللعب بالقبق ورمى النشاب، واتفقت نادرة غريبة وهو أنه أمر برش الميدان الاسود تحت القلعة لأجل اللعب. فشرع الناس فى ذلك، وكان يوما شديد الحر. فأمر السلطان بتبطيل الرش رحمه للناس وقال: الناس صيام، وهذا يوم شديد الحر. فبطل

الرش وأرسل الله تعالى مطرا جودا استمر ليلتين ويوما حتى كثر الوحل، وتلبدت الارض، وسكن العجاج وبرد الجو ولطف الهواء. فوكل السلطان من يحفظه من السوق فيه يوم اللعب، وهو يوم الخميس السادس والعشرون من شهر رمضان وأمر بركوب جماعة لطيفة من كل عشرة اثنان، وكذلك من كل أمير ومن كل مقدم لئلا تضيق الدنيا فركبوا فى أحسن زى وأجمل لباس وأكمل شكل وأبهى منظر، وركب السلطان ومعه من خواصه ومماليكه ألوف، ودخلوا فى الطعان بالرماح. فكل من أصاب خلع عليه السلطان، ثم ساق فى مماليكه الخواص خاصة، ورتبهم أجمل ترتيب، واندفق بهم اندفاق البحر. فشاهد الناس أبهة عظيمة، ثم أقيم القبق، ودخل الناس لرمى النشاب، وجعل لمن أصاب من المغاردة رجل الحلقة والبحرية الصالحية وغيرهم بغلطاقا بسنجاب، وللأمراء فرسا من خيله الخاص بتشاهيره ومراواته الفضية والذهبية ومزاخمة، ومازال فى هذه الأيام على هذه الصورة يتنوع فى دخوله وخروجه تارة بالرماح وتارة بالنشاب وتارة بالدبابيس وتارة بالسيوف مسلولة، وذلك أنه ساق على عادته فى اللعب، وسل سيفه وسل مماليكه سيوفهم وحمل هو ومماليكه حملة رجل واحد فرأى الناس منظرا عجيبا، وأقام على ذلك كل يوم من بكرة النهار إلى قريب المغرب.

وقد ضربت الخيام للنزول للوضوء والصلاة وتنوع الناس فى تبديل العدد والآلات، وتفاخروا وتكاثروا فكانت هذه الأيام من الأيام المشهودة، ولم يبق أحد من ابناء الملوك ولا وزير ولا أمير كبير ولا صغير ولا مفردى ولا مقدم من مقدمى الحلقة ومقدمى البحرية الصالحية ومقدمى المماليك الطاهرية البحرية ولا صاحب شغل ولا حامل عصا فى خدمة السلطان على بابه، ولا حامل طير فى ركاب السلطان، ولا أحد من خواص كتاب السلطان إلا وشرف بما يليق به على قدر منصبه ثم تعدى إحسان السلطان لقضاة الإسلام والأئمة وشهود رمضان لابسين الخلع جميعهم فى أحسن صورة وأبهج زى وأبهى شكل وأجمل زينة بالكلوتات الزركش بالذهب والملابس التى ما سمع بأن أحدا جاد بمثلها، وهى ألوف، وخدم الناس جميعهم وقبلوا الأرض، وعليهم الخلع، وركبوا، ولعبوا نهارهم على العادة، والأموال تفرق، والأسمطة تصف، والصدقات تنفق، والرقاب تعتق، ومازال إلى أن أهل هلال شوال فقام الناس وطلعوا للهناء. فجلس لهم وعليهم خلعة، ثم ركب يوم العيد إلى مصلاه فى خيمة بشعار السلطنة وأبهة الملك. فصلى ثم طلع قلعة الجبل وجلس

على الأسمطة، وكان الاحفتال بها كبيرا وأكل الناس، ثم انتهبه الفقراء، وقام إلى مقر سلطانه بالقبة السعيدة، وقد غلقت وفرشت بأنواع الستور والكلل والفرش.

وكان قد تقدم إلى الأمراء بإحضار أولادهم فأحضروا، وخلع عليهم الخلع المفصلة على قدرهم. فلما كان هذا اليوم أحضروا وختنوا بأجمعهم بين يدى السلطان، وأخرجوا فى المحفات إلى بيوتهم، وعم الهناء كل دار، ثم أحضر الأمير نجم الدين خضر ولد السلطان فختن ورمى للناس جملة من الأموال اجتمع منها خزانة ملك كبير فرقت على من باشر الختان من الحكماء والمزينين وغيرهم، وانقضت هذه الأيام وجرى السلطان فيها على عادته كما كان من كونه لم يكلف احدا من خلق الله تعالى بهدية يهديها، ولا تحفة يتحفه بها من مثل هذه المسرة كما جرت عادة من تقدمه من الملوك. ولم يبق من لا شمله إحسانه غير أرباب الملا هى والأغانى فإنه كان فى أيامه لم ينفق لهم مبلغ ألبتة.

وممن لعب بهذا الميدان القبق السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وعمل فيه المهم الذى لم يعمل فى دولة ملوك الترك بمصر مثله، وذلك أن خوندار دوتكين ابنة نوكية ويقال نوغية السلحدار اشتملت من السلطان الملك الأشرف على حمل فظن انها تلد ابنا ذكرا يرث الملك من بعده فأخذ عند ما قاربت الوضع فى الاحتفال، ورسم لوزيره الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس أن يكتب إلى دمشق بعمل مائة شمعدان نحاس مكفت بالقاب السلطان، ومائة شمعدان آخر منها خمسون من ذهب وخمسون من فضة وخمسين سرجا من سروج الزركش، ومائة وخمسين سرجا من المخيش، وألف شمعة وأشياء كثيرة غير ذلك. فقدر الله تعالى أنها ولدت بتنا. فانقبض لذلك، وكرة إبطال ما قد اشتهر عنه عمله. فاظهر أنه يريد ختان أخيه محمد وابن أخيه مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح على بن قلاوون. فرسم لنقيب الجيش والحجاب بإعلام الأمراء والعسكر أن يلبسوا كلهم آلة الحرب من السلاح الكامل هم وخيولهم ويصيروا بأجمعهم كذلك فى الميدان الأسود خارج باب النصر. فاهتم الأمراء والعسكر اهتماما كبيرا لذلك، وأخذوا فى تحسين العدد وبالغوا فى التأنق وتنافسوا فى إظهار التجمل الزائد، وخرج فى اليوم الرابع من إعلام الأمراء السوقة، ونصبوا عدة صواوين فيها سائر البقول والمآكل فصار بالميدان سوق عظيم، ونزل السلطان من قلعة الجبل بعساكره وعليهم لامة الحرب، وقد خرج سائر من فى القاهرة ومصر من الرجال والنساء إلا من خلفه العذر لرؤية السلطان، وقد استعد العسكر بأجمعه

لرمى القبق، ورسم للحجاب بأن لا يمنعوا أحدا من الجند ولا من المماليك ولا من غيرهم من الرمى، ورسم للأمير بيسرى والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح أن يتقدما الناس فى الرمى. فاستقبل الأمير بيسرى القبق، وتحته سرج قد صنع قربوسه الذى من خلفه وطيا، فصار مستلقيا على قفاه وهو يرمى ويصيب يمنة ويسرة والناس بأسرهم قد اجتمعوا للنظر حتى ضاق بهم الفضاء، فلما فرغ دخل أمير سلاح من بعده وتلاه الأمراء على قدر منازلهم واحدا واحدا، فرموا ثم دخل بعد الأمراء مقدموا الحلقة ثم الأجناد، والسلطان يعجب برميهم، وتزايد سروره حتى فرغ الرمى فعاد إلى مخيمه ودار السقاة على الأمراء بأوانى الذهب والفضة والبللور يسقون السكر المذاب، وشرب الأجناد من أحواض قد ملئت من ذلك، وكانت عدتها مائة حوض فشربوا ولهوا، واستمروا على ذلك يومين، وفى اليوم الثالث ركب السلطان واستدعى الأمير بيسرى وأمره بالرمي. فسأل السلطان أن يعفيه من الرمى ويمن عليه بالتفرج فى رمى النشاب من الأمراء وغيرهم. فأعفاء ووقف مع السلطان فى منزلته، وتقدم طفج وعين الغزال وأمير عمرو كيلكدى وقشتمر العجمى وبرلغى وأعناق الحسامى وبكتوت ونحو الخمسين من أمراء السلطان الشبان الذين أنشأهم من خاصكيته وعليهم تتريات حرير أطلس بطرازات زركش وكلوتات زركش وحوائص ذهب، وكانوا من الجمال البارع بحيث يذهل حسنهم النظار ويدهش جمالهم الخاطر، فتعاظمت مسرة السلطان برؤيتهم وكثر إعجابة وداخله العجب واستخفه الطرب وارتجت الدنيا بكثرة من حضر هناك من أرباب الملاهى والأغانى وأصحاب الملعوب.

فلما انقضى اللعب عاد السلطان إلى دهليزه فى زينته ومرح فى مشيته تيها وصلفا فما هو إلا أن عبر الدهليز والناس من الطرب والسرور فى أحسن شىء يقع فى العالم وإذا بالجو قد أظلم وثار ريح عاصف أسود إلى أن طبق الأرض والسماء، وقلع سائر تلك الخيم وألقى الدهليز السلطاني، وتزايد حتى أن الرجل لايرى من بجانبه. فاختلط الناس وماجوا، ولم يعرف الأمير من الحقير، وأقبلت السوقة والعامة تنهب وركب السلطان يريد النجاة بنفسه إلى القلعة وتلاحق العسكرية واختلفوا فى الطرق لشدة الهول. فلم يعبر إلى القلعة حتى أشرف على التلف، وحصل فى هذا إليوم من نهب الأموال وانتهاك الحرم والنساء مالا يمكن وصفه، وما ظن كل أحد إلا أن الساعة قد قامت فتنغص سرور الناس وذهب ماكان هناك، وما استقر السلطان بالقلعة حتى سكن الريح، وظهرت الشمس وكأن ما كان لم يكن.

فأصبح السلطان، وطلب أرباب الملاهى بأجمعهم وحضر الأمراء لختان أخيه وابن أخيه، وعمل مهم عظيم فى القاعة التى أنشأها بالقلعة وعرفت بالأشرفية، وقد ذكر خبر هذا المهم عند ذكر القلعة من هذا الكتاب.

وما برح هذا الميدان قضاء من قلعة الجبل إلى قبة النصر ليس فيه بنيان، وللملوك فيه من الأعمال ماتقدم ذكره إلى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون. فترك النزول إليه وبنى مسطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش، وصار ينزل هنالك، ثم ترك تلك المسطبة فى سنة عشرين وسبعمائة وعاد إلى ميدان القبق هذا، وركب إليه على عادة من تقدمه من الملوك إلى أن بنيت فيه الترب شيئاً بعد شيء حتى انسدت طريقه واتصلت المبانى من ميدان القبق إلى تربة الروضة خارج باب البرقية، وبطل السباق منه، ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون كما ذكر عند ذكر المقابر من هذا الكتاب، وأنا أدركت عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء تعرف بين الناس بعواميد السباق. بين كل عمودين مسافة بعيدة، وما برحت قائمة هنا لك إلى مابعد سنة ثمانين وسبعمائة. فهدمت عند ماعمر الأمير يونس الدوادار الظاهرى تربته تجاه قبة النصر، ثم عمر أيضاً الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق تربة هنالك، وتتابع الناس فى البنيان إلى أن صار كما هو الآن والله أعلم.

ذكر بر الخليج الغربي

قد تقدم أن هذا الخليج حفر قبل الإسلام بدهر وأن عمرو بن العاص رضى الله عنه جدد حفره فى عام الرمادة بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى صب ماء النيل فى بحر القلزم، وجرت فيه السفن بالغلال وغيرها حتى عبرت منه إلى البحر الملح، وانه مابرح على ذلك إلى سنة خمسن ومائة فطم ولم يبق منه إلا ماهو موجود الآن. إلا أن فم هذا الخليج الذى يصب فيه الماء من بحر النيل لم يكن عند حفره هذا الفم الموجود الآن، ولست أدرى أين كان فمه عند ابتداء حفره فى الجاهلية. فإن مصر فتحت وماء النيل عند الموضع الذى فيه الآن جامع عمرو بن العاص بمصر، وجميع مابين الجامع وساحل النيل الآن انحسر عنه الماء بعد الفتح وآخر ماكان ساحل مصر من عند سوق المعاريج الذى هو

الآن بمصر إلى تجاه الكبش من غربيه وجميع ماهو الأن موجود من الأرض التى فيما بين خط السبع سقايات إلى سوق المعاريج انحسر عنه الماء شيئاً بعد شىء وغرس بساتين. فعمل عبد العزيز بن مروان أمير مصر قنطرة على فم هذا الخليج فى سنة تسع وستين من الهجرة بأوله عند ساحل الحمراء. ليتوصل من فوق هذه القنطرة إلى جنان الزهرى الآتى ذكرها إن شاء الله تعالى. وموضع هذه القنطرة بداخل حكر أقبغا المجاور لخط السبع سقايات. ومابرحت هذه القنطرة عندها السد الذى يفتح عند الوفاء إلى مابعد الخمسمائة من الهجرة. فانحسر ماء النيل عن الأرض، وغرست بساتين. فعمل الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى هذه القنطرة التى تعرف اليوم بقنطرة السد خارج مصر ليتوصل من فوقها إلى بستان الخشاب، وزيد فى طول الخليج ما بين قنطرة السباع الآن وبين قنطرة السد المذكورة، وصار مافى شرقيه مما انحسر عنه الماء بستانا عرف ببستان الحارة، ومافى غربية يعرف ببستان المحلى، وكان بطرف خط السبع سقايات كنيسة الحراء وعدة كنائس أخرى. بعضها الآن بحكر أقبغا تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى لسكناه بها عند ماهدمت بعد سنة عشرين وسبعمائة، ومابرحت هذه البساتين موجودة إلى أن استولى عليها الأمير أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقلع أخشابها، وأذن للناس فى عمارتها. فحكرها الناس وبنوا فيها الآدر وغيرها. فعرفت بحكر أقبغا، وبأول هذا الخليج الآن من غربية منشأة المهرانى، وقد تقدم خبرها فى هذا الكتاب، عند ذكر مدينة مصر ويجاور منشأة المهرانى بستان الخشاب، وبعضه الآن يعرف بالريس، وبعضه عمله الملك الناصر محمد بن قلاوون. ؟ ميداناً يشرف عليه النيل من غربية، ويعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس. كما ذكر عند ذكر الميادين من هذا الكتاب، ويجاور بستان الخشاب جنان الزهرى، وهذه المواضع التى ذكرت كلها مما انحسر عنه النيل ماخلا جنان الزهرى فإنها من قبل ذلك وستقف على خبرها وخبر ما يجاورها من الأحكار إن شاء الله تعالى.

ذكر الأحكار التى فى غربى الخليج

قال ابن سيده: الاحتكار جمع الطعام ونحوه مما يؤكل، واحتباسه انتظار وقت الغلاء به، والحكرة والحكر جميعاً ما احتكر، وحكره يحكره حكرا ظلمه وتنقصه وأساء

فالتحكير على هذا المنع . فقول أهل مصر : حكر فلان أرض فلان يعنون منع غيره من النباء عليها .

حكر الزهرى

هذا الحكر يدخل فيه جميع بر ابن التبان الآتى ذكره إن شاء الله تعالى . وشق الثعبان وبطن البقرة وسويقة القيمرى وسويقة صفية وبركة الشقاق وبركة السباعين وقنطرة الخرق وحدرة المرادئيين وحكر الحلبى وحكر البواشقى وحكر كرجى ومابجانبة إلى قناطر السباع ، وميدان المهارى إلى الميدان الكبير السلطانى بموردة الجبس .

وكان هذا قديماً يعرف بجنان الزهرى ثم عرف ببستان الزهرى . قال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ الغرباء عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى يكنى أبا العباس ، وأمه أم عثمان بنت عثمان بن العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان مدنى . قدم مصر وولى الشرط بفسطاط مصر ، وحدث يروى عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة . روى عنه من أهل مصر أصبغ بن الفرج وسعيد بن أبى مريم وعثمان ابن صالح وسعيد بن عفير وغيرهم ، وهو صاحب الجنان التى بالقنطرة . قنطرة عبد العزيز بن مروان تعرف بجنان الزهرى ، وهو حبس على ولده إلى اليوم ، وكان كتاب حبس الجنان عند جدى يونس بن عبد الأعلى وديعة عليه . مكتوب : وديعة لولد ابن العباس الزهرى لايدفع لأحد إلا أن يغرى به سلطان ، والكتاب عندى إلى الآن . توفى عبد الوهاب بن موسى بمصر فى رمضان سنة عشرة ومائتين .

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى فى كتاب معرفة الخطط والآثار : حبس الزهرى هو الجنان التى عند القنطرة بالحمراء ، وهو عبد الوهاب بن موسى بن عبد العزيز الزهرى . قدم مصر وولى الشرط بها ، والجنان حبس على ولده ، وقال القاضى تاج الدين محم بن عبد الوهاب بن المتوج فى كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل : حبس الزهرى فذكره ثم قال : وهذا الحبس أكثره الآن أحكار ما بين بركة الشقاف وخليج

شق الثعبان، وقد استولى وكيل بيت المال على بعضه وباع من أرضه وأجر منها، واجتمع هو ومحبسه بين يدى الله عز وجل. انتهى. ولما طال الأمد صار للزهرى عدة بساتين منها بستان أبى اليمان وبستان السراج وبستان الحبانية وبستان عزاز وبستان تاج الدولة قيماز وبستان الفرغانى وبستان أرض الطيلسان وبستان البطرك وغيط الكردى وغيط الصفار، ثم عرف ببر ابن الثبان بعد ذلك. قال القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر فى كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة: شاطىء الخليج المعروف ببر التبان.

ابن التبان المذكور

هو رئيس المراكب فى الدولة المصرية، وكان له قدر وأبهة فى الأيام الآمرية وغيرها. ولما كان فى الأيام الأمرية تقدم إلى الناس بالعمارة قبالة الخرق غربى الخليج. فأول من ابتدأ وعمر الرئيس ابن التبان، فإنه أنشأ مسجداً وبستانا وداراً. فعرفت تلك الخطة به إلى الآن، ثم بنى سعد الدولة وإلى القاهرة وناهض الدولة على وعدى الدلة أبو البركات محمد بن عثمان وجماعة من فراشى الخاس، واتصلت العمارة بالآجر والسقوف النقية والأبواب المنظومة من باب البستان المعروف بالعدة على شاطئ الخليج الغربى إلى البستان المعروف بأبى اليمن، ثم ابتنى جماعة غيرهم ممن يرغب فى الأجرة والفرجة على التراع التى تتصرف من الخليج إلى الزهرى والبساتين من المنازل والدكاكين شيئاً كثيراً، وهى الناحية المعروفة الآن بشق الثعبان وسويقة القيمرى إلى أن وصل البناء إلى قبالة البستان المعروف بنور الدولة الربعى. وهذا البستان معروف فى هذا الوقت بالخطة المذكورة وهو متلاشى الحال بسبب ملوحة بئره، وبستان نور الدولة هو الآن الميدان الظاهرى والمناظر به، وتفرقت الشوارع والطرق، وسكنت الدكاكين والدور وكثر المترددون إليه والمعاش فيه إلى أن استناب والى القاهرة بها نائباً عنه. ثم تلاشت تلك الأحوال وتغيرت إلى أن صارت أطلالا، وعفت تلك الآثار. ثم بعد ذلك حكر أدرا وبساتين، وبنى على غير تلك الصفة المقدم ذكرها، وبنى على ماهو عليه. ثم حكر بستان الزهرى آدرا، ولم يبق منه إلا قطعة كبيرة بستاناً، وهو الآن

أحكار تعرف بالزهرى. ويعرف البر جميعه ببر ابن التبان إلى هذا الوقت، وولايته تعرف بولاية الحكر وبنى به حمام الشيخ نجم الدين بن الرقمة وحمام تعرف بالقيمرى وحمام تعرف بحمام الدابة على شاطىء الخليج انتهى.

وبستان أبى اليمان يعرف اليوم مكانه بحكر أقبغا، وفيه جامع الست مسكة وسويقة السباعين.

وبستان السراج فى أرض باب اللوق يعرف موضعه الآن بحكر الخليلى. ويأتى ذكرهما أن شاء الله وقيماز هوتاج الدولة، صهر الأمير بهرام الأرمنى، وزير الخليفة الحافظ لدين الله وقتل عند دخول الصالح طلائع بن رزيك إلى القاهرة فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة. وعزاز هو غلام الوزير شاور بن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد لدين الله.

حكر الخليلى

هذا الحكر هو الخط الذى بقرب سويقة السباعين وجامع الست مسكة، وهو بجوار حكر الزهرى، وكان بستانا يعرف ببستان أبى اليمانى، ومنهم من يكتب بستان أبى اليمن بغير ألف بعد الميم، ثم عرف ببستان ابن جن حلوان، وهو الجمال محمد بن الزكى يحيى بن عبد المنعم بن منصور التاجر فى ثمرة البساتين. عرف بابن جن حلوان. مات فى سنة إحدى وتسعين وستمائة.

وحد هذا البستان القبلى إلى الخليج، وكان فيه بابه والهماليا، والحد البحرى ينتهى إلى غيط قيماز، والشرقى إلى الآدر المحتكرة، والغربى ينتهى إلى قطعة تعرف قديماً بابن أبى التاج، ثم عرف ببستان ابن السراج، واستأجره ابن جن حلوان من الشيخ نجم الدين بن الرفعة الفقية المشهور فى سنة ثمان وثمانين وستمائة فعرف به. ثم إن هذا البستان حكر بعد ذلك. فعرف بحكر الخليلى.

حكر قوصون

هذا الحكر مجاور لقناطر السباع كان بستانين . أحدهما يعرف بالمخاريق الكبرى ، والأخر يعرف بالمخاريق الصغرى . فأما المخاريق الكبرى فإن القاضى الرئيس الأجل المختار العدل الأمين زكى الدين أبا العباس أحمد بن مرتضى بن سيد الأهل بن يوسف وقف حصة من جميع البستان المذكور الكبير المعروف بالمخاريق الكبرى ، الذى بين القاهرة ومصر بعدوة الخليج فيما بين البستانين . المعروف أحدهما بالمخاريق الصغرى . ويعرف قديما بالشيخ الأجل ابن أبى اسامة ، ثم عرف بغيره ، والبستان الذى يعرف بدويرة دينار يفصل بينهما الطريق بخط بستان الزهرى وبستان أبى اليمن وكائس النصارى قبالة جماميز السعدية والسبع سقايات .

ولهذا البستان حدود أربعة . القبلى ينتهى إلى الخليج الفاصل بينه وبين المواضع المعروفة بجماميز السعدية والسبع سقايات ، والحد الشرقى ينتهى إلى البستان المعروف بالمخاريق الصغرى المقابل للمجنونة ، والبحرى ينتهى إلى البستان المعروف قديماً بابن أبى أسامه الفاصل بينه وبين بستان أبى اليمن المجاور للزهرى ، والحد الغربى ينتهى إلى الطريق ، وجعل هذا البستان على القربات بعد عمارته ، وشرط أن الناظر يشترى فى كل فصل من فصول الشتاء مايراه من قماش الكتان الخام أو القطن ويصنع ذلك جبايا وبغالطيق محشوة قطنا ، ويفرقها على الأيتام الذكور والإناث الفقراء غير البالغين بالشارع الأعظم خارج باب زويلة . لكل واحد جبة أو بغلطاق . فإن تعذر ذلك كان على الأيتام المتصفين بالصفة المذكورة بالقاهرة ومصر وقرافتيهما . فإن تعذر ذلك كان للفقراء والمساكين إينما وجدوا .

وتاريخ كتاب هذا الوقف فى ذى الحجة سنة ستين وستمائة . وأما المخاريق الصغرى فإنه بعدوة الخليج قبالة المجنونة بالقرب من بستان أبى اليمن ، ثم عرف أخيراً ببستان بهادر رأس نوبة ومساحته خمسة عشر فدانا . فاشتراه الأمير قوصون وقلع غروسه ، وأذن للناس فى البناء عليه . فحكروه وبنوا فيه الآدر وغيرها ، وعرف بحكر قوصون .

حكر الحلبي

هذا الحكر الآن يعرف بحكر بيبرس الحاجب، وهو مجاور للزهرى ولبركة الشقاف من غربيها، وأصله من جملة أراضى الزهرى اقتطع منه، وباعه القاضى مجد الدين بن الخشاب وكيل بيت المال لابنتى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة أربع وتسعين وستمائة، وكان يعرف حين هذا البيع ببستان الجمال بن جن حلوان، ويغيط الكردى وببستان الطيلسان وببستان الفرغانى. وحد هذه القطعة القبلى إلى بركة الطوابين وإلى الهدير الصغير، والحد البحرى ينتهى إلى بستان الفرغانى وإلى بستان البواشقى، والحد الشرقى إلى بركة الشقاف وإلى الطريق الموصلة إلى الهدير الصغير، والحد الغربى إلى بستان الفرغانى، ثم انتقل هذا البستان إلى الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وحكره فعرف به.

حكر البواشقى

عرف بالأمير أزدمر البواشقى مملوك الرشيدى الكبير أحد المماليك البحرية الصالحية، وممن قام على الملك المعز أيبك عند ماقتل الأمير فارس الدين اقطاى فى ذى القعدة سنة إحدى وخمسين وستمائة وخرج إلى بلاد الروم ثم عرف الآن بحكر كرجى، وهو بجوار حكر الحلبى المعروف بحكر بيبرس.

حكر اقبغا

هذا الحكر بجوار السبع سقايات. بعضه بجانب الخليج الغربى، وبعضه بجانب الخليج الشرقى. كان بستاناً يعرف قديماً بجنان الحارة، ويسلك إليه من خط قناطر السباع على يمنة

السالك طالبا السبع سقايات بالقرب من كنيسة الحمراء، وكان بعضه بستاناً يعرف ببستان المحلى، وهو الذى فى غربى الخليج، وكان بستان جنان الحارة بجوار بركة قارون، وينتهى إلى حوض الدمياطى الموجود الآن على يمنة من سلك من خط السبع سقايات إلى قنطرة السد. فاستولى عليه الأمير أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأذن للناس فى تحكيره فحكر وبنى فيه عدة مساكن وإلى يومنا هذا يجبى حكره ويصرف فى مصارف المدرسة الأقبغاوية المجاورة للجامع الأزهر بالقاهرة، وأول من عمر فى حكر أقبغا هذا استادار الأمير جنكل بن البابا، فتبعه الناس، وفى موضع هذا الحكر كانت كنيسة الحمراء التى هدمها العامة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون كما ذكر عند ذكر الكنائس من هذا الكتاب، وهى اليوم زاوية تعرف بزاوية الشيخ يوسف العجمى وقد ذكرت فى الزوايا أيضاً.

وهذا الحكر لما بنى الناس فى عرف بالآدر لكثرة من سكن فيه من التتر والوافدية من أصحاب الأمير جنكل بن البابا، وعمر تجاه هذا الحكر الأمير جنكل حمامين هما هنالك إلى اليوم وانتشأ بعمارة هذا الحكر بظاهره سوق وجامع، وعمر ماعلى البركة أيضاً، واتصلت العمارة منه فى الجانبين إلى مدينة مصر، واتصلت به عمائر أيضاً ظاهر القاهرة بعد ما كان موضع هذا الحكر مخوفا يقطع فيه الزعار الطريق على المارة من القاهرة إلى مصر. وكان والى مصر يحتاج إلى أن يركز جماعة من أعوانه بهذا المكان لحفظ من يمر من المفسدين. فصار لما حكر كأنه مدينة كبيرة. وهو إلى الآن عامر، وأكثر من يسكنه الأمراء والأجناد.

وهذا الحكر كان يعرف قديماً بالحمراء الدنيا، وقد ذكر خبر الحمراوات الثلاث عند ذكر خطط مدينة فسطاط مصر من هذا الكتاب. وفى هذا الحكر أيضا كانت قنطرة عبد العزيز بن مروان التى بناها على الخليج ليتوصل منها إلى جنان الزهرى، وبعض هذا الحكر مما انحسر عنه النيل، وهى القطعة التى تلى قنطرة السد.

حكر الست حدق

هذا الحكر يعرف اليوم بالمريس . وكان بساتين من بعضها بستان الخشاب . فعرفت بالست حدق من أجل أنها أنشأت هناك جامعا كان موضعه منظرة السكرة . فبنى الناس حوله ، وأكثر من كان يسكن هناك السودان ، وبه يتخذ المزر ومأوى أهل الفواحش والقاذورات ، وصار به عدة مساكن وسوق كبير يحتاج محتسب القاهرة أن يقيم به نائباً عنه للكشف عما يباع فيه من المعايش ، وقد أدركنا المريس على غاية من العمارة الا أنه قد اختل منذ حدثت الحوادث من سنة ست وثمانمائة ، وبه إلى الآن بقية من فساد كبير .

حكر الست مسكة

هذا الحكر بسويقة السباعين بقرب جوار حكر الست حدق . عرف بالست مسكة لأنها أنشأت به جامعاً ، وهذا الحكر كان من جملة الزهرى ، ثم أفرد وصار بستانا تنقل إلى جماعة كثيرة . فلما عمرت الست مسكة فى هذا الحكر الجامع بنى الناس حوله حتى صار متصلا بالعمارة من سائر جهاته ، وسكنه الأمراء والأعيان وأنشأوا به الحمامات والأسواق وغير ذلك .

وكانت حدق ومسكة من جوارى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون . نشأتا فى داره وصار قهرمانتين لبيت السلطان . يقتدى برأيهما فى عمل الأعراس السلطانية والمهمات الجليلة التى تعمل فى الأعياد والمواسم ، وترتيب شؤون الحريم السلطانى ، وتربية أولاد السلطان ، وطال عمرهما ، وصار لهما من الأموال الكثيرة والسعادات العظيمة ما يجل وصفه ، وصنعا براً ومعروفا كبيرا ، واشتهرا وبعد صيتهما ، وانتشر ذكرهما .

حكر طقزدمر

هذا الحكر كان بستاناً مساحته نحو الثلاثين فداناً فاشتراه الأمير طقزدمر الحموى نائب السلطنة بديار مصر ودمشق، وقلع أخشابه وأذن للناس فى البناء عليه. فحكروه وأنشأوا به الدور الجليلة، واتصلت عمارة الناس فيه بسائر العمائر من جهاته، وأنشأ الأمير طقزدمر فيه أيضا على الخليج قنطرة ليمر عليها من خط المسجد المعلق إلى هذا الحكر، وصار هذا الحكر مسكن الأمراء والاجناد، وبه السوق والحمامات والمساجد وغيرها، وهو مما عمر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومات طقزدمر فى ليلة الخميس مستهل جمادى الأخرة سنة ست وأربعين وسبعمائة.

اللــــــوق

يقال لاق الشئ يلوقه لوقا ولوقه: لينه. وفى الحديث الشريف لا آكل إلا ما لوق لى، ولواق أرض معروفة. قاله ابن سيده. فكأن هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينة، وإلى الآن فى أراضى مصر ما إذا نزل عنها ماء النيل لاتحتاج إلى الحراث للينها بل تلاق لوقا. فصواب هذا المكان أن يقال فيه أراضى اللوق بفتح اللام. إلا أن الناس إنما عهدناهم يقولون قديما: باب اللوق، وأراضى باب اللوق بضم اللام، ويجوز أن يكون من اللق بضم اللام وتشديد القاف. قال ابن سيده: واللق كل أرض ضيقة مستطيلة، واللق الأرض المرتفعة، ومنه كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: لا تدع خقا ولا لقا إلا زرعته. حكاه الهروى فى الغريبين. انتهى. والخق بضم الخاء المعجمة وتشديد القاف الغدير إذا جف، وقيل الخق ما اطمأن من الأرض، واللق ما ارتفع منها.

وأراضى اللوق هذه كانت بساتين ومزروعات، ولم يكن بها فى القديم بناء ألبته. ثم لما انحسر الماء عن منشأة الفاضل عمر فيها كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب، ويطلق اللوق

فى زمننا على المكان الذى يعرف اليوم بباب اللوق المجاور لجامع الطباخ المطل على بركة الشقاف وما يسامته إلى الخليج الذى يعرف اليوم بخليج فم الخور، وينتهى اللوق من الجانب الغربى إلى منشأة المهرانى، ومن الجانب الشرقى إلى الدكة بجوار المقس، وكان القاضى الفاضل قد اشترى قطعة كبيرة من أراضى اللوق هذه من بيت المال وغيره بجملة كبيرة من المال، وقفها على العين الزرقاء بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، وعرفت هذه الأرض ببستان ابن قريش وبعضها دخل فى الميدان الظاهرى وعوض عنها أراض باكثر من قيمتها، وكان متحصل هذا الوقف يحمل فى كل سنة إلى المدينة لتنظيف العين وتنظيف مجاريها، وأما الجانب الغربى من خليج فم الخور المعروف اليوم بحكر ابن الأثير وبسويقه الموفق وموردة الملح وساحل بولاق كله. فإنه محدث. عمر بعد سنة سبعمائة كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى قريبا. فإن النيل كان يمر من ساحل الحمراء بغربى الزهرى على الأراضى التى لما انحسر عنها عرفت بأراضى اللوق إلى أن ينتهى ساحل المقس، وكانت طاقات المناظر التى بالدكة تشرف على النيل الأعظم، ولا يحول بينها وبين رؤية بر الجيزة شئ. ويمر النيل من الدكة إلى المقس، ويمتد إلى زريبة جامع المقس، وصارت عدة أماكن تعرف بظاهر اللوق، وهى بستان ابن ثعلب ومنشأة ابن ثعلب وباب اللوق وحكر قردميه وحكر كريم الدين ورحبة التبن وبستان السعيدى وبركة قرموط وخور الصعبى، وصار بين اللوق وبين منشأة المهرانى التى هى بأول بر الخليج الغربى منشأة الفاضل والمنشأة المستجدة وحكر الخليلى وحكر الساباط. ويعرف بحكر بستان القاصد وحكر كريم الدين الصغير وحكر المطوع وحكر العين الزرقاء. وفى غربى هذه المواضع على شاطئ النيل زريبة قوصون وموردة البلاط وموردة الجبس وخط الجامع الطيبرسى وزريبة السطان وربع بكتمر.

وأول ما بنيت الدور للسكن فى اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى، وذلك أنه جهز كشافه من خواصة مع الأمير جمال الدين الرومى السلاح دار والأمير علاء الدين أق سنقر الناصرى ليعرف أخبار هولاكو ومعهم عدة من العربان. فوجدوا طائفه من التتر مستأمنين، وقد عزموا على قصد السلطان بمصر، وذلك أن الملك بركة خان ملك التتر

كان قد بعثهم نجدة لهولاكو . فلما وقع بينهما كتب إليهم بركة يأمرهم بمفارقة هولاكو والمصير إليه فإن تعذر عليهم ذلك صاروا إلى عسكر مصر فإنه كان قد ركن إلى الملك الظاهر، وترددت القصاد بينهم بعد واقعة بغداد ورحيل هولاكو عن حلب فاختلف هولاكو مع ابن عمه بركة خان وتواقعا . فقتل ولد هولاكو فى المصاف وانهزم عسكره، وفر إلى قلعة فى بحيرة أذربيجان .

فلما وردت الأخبار بذلك إلى مصر كتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم وتجهيز الإقامات لهم، وبعث إليهم بالخلع والإنعامات . فوصلوا إلى ظاهر القاهرة وهم نيف على مائتى فارس بنسائهم وأولادهم فى يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة سنة ستين وستمائة . فخرج السلطان يوم السبت سادس عشريه إلى لقائهم بنفسه ومعه العساكر . فلم يبق أحد حتى خرج لمشاهدتهم . فاجتمع عالم عظيم تبهر رؤيتهم العقول، وكان يوما مشهودا فأنزلهم السلطان فى دور كان قد أمر بعمارتها من أجلهم فى أراضى اللوق، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك وحمل إليهم الخلع والخيول والأموال، وركب السلطان إلى الميدان وأركبهم معه للعب الاكرة وأعطى كبراءهم أمريات . فمنهم من عمله أمير مائة، ومنهم دون ذلك، ونزل بقيتهم من جملة البحرية، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الاجناد والغلمان، وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم، وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام .

فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة بعد جماعة وهو يقابلهم بمزيد الإحسان . فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر فى اللوق وما حوله، وصار هناك عدة أحكار عامرة آهلة . إلى أن خربت شيئا بعد شئ وصارت كيماناً، وفيها ما هو عامر إلى يومنا هذا، ولما قدمت رسل القان بركة فى سنة إحدى وستين وسبعمائة أنزلهم السلطان الملك الظاهر باللوق، وعمل لهم فيه مهما، وصار يركب فى كل سبت وثلاثاء للعب الاكرة باللوق فى الميدان .

وفى سادس ذى الحجة من سنة إحدى وستين قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلاثمائة فارس، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم، وفى شهر

رجب سنة إحدى وستين وسبعمائة قدمت رسل الملك بركة ورسل الأشكرى فعملت لهم دعوة عظيمة باللوق .

فأما بستان ابن ثعلب فإنه كان بستانا عظيم القدر مساحته خمسة وسبعون فداناً فيه سائر الفواكة بأسرها ، وجميع ما يزدرع من الأشجار والنخل والكروم والنرجس والهليون والورد والنسرين والياسمين والخوخ والكمثرى والنارنج والليمون التفاحى والليمون الراكب والمختن والجميز والقراصيا والرمان والزيتون والتوت الشامى والمصرى والمرسين والتامر حنا والبان وغير ذلك ، وبه الآبار المعينة وله الهماليات وفيه منظرة عظيمة وعدة دور .

ومن حقوق هذا البستان الأرض التى تعرف اليوم ببركة قرموط والأرض التى تعرف اليوم بالخور قبالة الأرض المعروفة بالبيضاء بجوار بستان السراج وبستان الزهرى وبستان البورجى . فيما بين هذه البساتين وبين خليج الذكة والمقس .

وكان على بستان ابن ثعلب سور مبنى ، وله باب جليل وحده القبلى إلى منشأة ابن ثعلب ، وحده البحرى إلى الأرض المجاورة للميدان السلطانى الصالحى والى أرض الجزائر ، وفى هذا الحد أرض الخور ، وهى من حقوقه ووحده الشرقى إلى بستان الذكة وبستان الأمير قراقوش ، وحده الغربى إلى الطريق المسلوك فيها إلى موردة السقائين قبالة بستان السراج ، وموردة السقائين هذه موضع قنطرة الخرق الآن .

وابن ثعلب هذا هو الشريف الأمير الكبير فخر الدين إسماعيل بن ثعلب الجعفرى الزينبى . أحد أمراء مصر فى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب وغيره ، وصاحب المدرسة الشريفية بجوار درب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة ، وانتقل من بعده إلى ابنه الأمير حصن الدين ثعلب . فاشتراه منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بثلاثة آلاف دينار مصرية فى شهر رجب سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

وكان باب هذا البستان فى الموضع الذى يقال له اليوم باب اللوق ، وكان هذا البستان ينتهى إلى خليج الخور ، وآخره من المشرق ينتهى إلى الذكة بجوار المقس . ثم انقسم بعد ذلك قطعا ، وحكرت أكثر أرضه ، وبنى الناس عليها الدور وغيرها . وبقيت منه إلى الآن

قطعة عرفت ببستان الأمير أرغون النائب بديار مصر أيام الملك الناصر، ثم عرف بعد ذلك ببستان ابن غراب، وهو الآن على شاطئ الخليج الناصرى على يمنة من سلك من قنطرة قدادار بشاطئ الخليج من جانبه الشرقى إلى بركة قرموط. وبقى من بستان ابن ثعلب أيضا الموضع الذى يعرف ببركة قرموط والموضع المعروف بفم الخور.

(**وأما منشأة ابن ثعلب**) فإنها بالقرب من باب اللوق وحكرت فى أيام الشريف فخر الدين بن ثعلب المذكور فعرفت به، وهى تعرف اليوم بمنشأة الجوانية. لأن جوانية الفم كانوا يسكنون فيها. فعرفت بهم، وأدركتها فى غاية العمارة بالناس والمساكن والحوانيت وغيرها، وقد اختلت بعد سنة ست وثمانمائة. وأكثرها الآن زرائب للبقر.

(**وأما باب اللوق**) فإنه كان هناك إلى ما بعد سنة أربعين وسبعمائة بمدة باب كبير عليه طوارق حربية مدهونة على ما كانت العادة فى أبواب القاهرة وأبواب القلعة وأبواب بيوت الأمراء. وكان يقال لها باب اللوق. فلما أنشأ القاضى صلاح الدين بن المغربى قيساريته إلى باب اللوق، وجعلها لبيع غزل الكتان هدم هذا الباب، وجعله فى الركن من جدار القيسارية القبلى مما يلى الغربى، وهذا هو باب الميدان أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لما اشترى بستان ابن ثعلب، وقد ذكر خبر هذا الميدان عند ذكر الميادين من هذا الكتاب.

(**وأما حكر قردمية**) فإنه على يمنة من سلك من باب اللوق المذكور إلى قنطرة قدادار، وكان من جملة بستان ابن ثعلب. فحكر وصار أخيرا بيد ورثة الأمير قرصون، وكان حكراً عامراً إلى ما بعد سنة تسع وأربعين وسبعمائة. فخرب عند وقوع الوباء الكبير بمصر، وحفرت أراضيه وأخذ طينها. فصارت بركة ماء عليها كيمان خلف الدور التى على الشارع المسلوك فيه إلى قنطره قدادار.

(**وأما حكر كريم الدين**) فإنه على يسره من سلك من باب اللوق إلى رحبه التبن وإلى الدكة، وكان يعرف قبل كريم الدين بحكر الصهيونى. وهذا الحكر الآن آيل إلى الدثور.

(**وأما رحبه التبن**) فإنها فى بحرى منشأة الجوانية شارعة فى الطريق العظمى التى يسلك فيها إلى قنطرة الدكة من رحبة باب اللوق. عرفت بذلك لأنه كانت أحمال التبن تقف بها لتباع هناك. فان القاهرة كانت توقر من مرور أحمال التبن والحطب ونحوهما بها، ثم

اختطت من جملة ما اختط فى غربى الخليج ، وصار بها عدة مساكن وسوق كبير وقد أدركته غاصاً بالعمارة ، وانما اختل حال هذا الخط من سنة ست وثمانمائة .

(**وأما بستان السعيدي**) فإنه يشرف على الخليج الناصرى فى هذا الوقت ، وأدركنا ما حوله عامراً ، وقد خربت الدور التى كانت هناك من جهة الطريق الشارع من باب اللوق إلى الدكة ، وبها بقية آيلة إلى الدثور .

(**وأما بركة قرموط**) فإنها من حقوق بستان ابن ثعلب ، ولما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرى رمى فيها ما خرج عند حفره من الطين ، وأدركناها من أعمر بقعة فى أرض مصر . وهى الآن خراب كما ذكر عند ذكر البرك من هذا الكتاب .

(**وأما الخور**) فإن الخور فى اللغة مصب الماء ، وهو هنا اسم للأرض التى ما بين الخليج الناصرى والخليج الذى يعرف بفم الخور ، وجميع هذه الأرض من جملة بستان ابن ثعلب ، وكان يعرف بالخور لأنه كانت به مناظر تعرف بمناظر الصعى تشرف على النيل ، وكان على شاطئ الخليج الكبير فى هذا الجانب الغربى الذى نحن فى ذكره بجوار بستان الخشاب . الذى كان يتوصل إليه من قنطرة السد ، وبعضه الآن الميدان السلطانى بستان يعرف بالجزيرة- يعنى بستان الجزيرة المعروف بالصعى وكان من البساتين الجليلة .

(**وهذا الصعي**) هو الشيخ كريم الدولة عبدالواحد ابن محمد بن على الصعى مات فى شهر رمضان سنة ثلاث وستمائة بمصر .

وكان له أخ يعرف بعبدالعظيم بن محمد الصعى .

ولما انحسر ماء النيل عن الرملة التى قيل لها منيه بولاق تجاه المقس ، وعمرت هناك الدور اتصلت من قبلها بالخور ، وأنشئ بشاطئ النيل الذى بالخور دور تجل عن الوصف ، وانتظمت صفاً واحداً من بولاق إلى منشأة المهرانى وموردة الحلفاء ومن موردة الحلفاء ، على ساحل مصر الجديد إلى دير الطين غربى بركة الحبش - لو أحصى ما أنفق على بناء هذه الدور لقام بخراج مصر أيام كانت عامره . وقد خرب معظمها من سنة ست وثمانمائة ، وقد تقدم ذكره منشأة الفاضل .

(**وأما حكر الساباط**) وحكر كريم الدين الصغير وحكر المطوع وحكر العين الزرقاء. فإنها بالقرب من الميدان الكبير السلطانى، وقد خربت بعد ما كانت عامرة بالدور والمنتزهات.

بستان العدة

هذا المكان من جملة الأحكار التى فى غربى الخليج، وهو بجوار قنطرة الخرق، وبجوار حكر النوبى قريب من باب اللوق تجاه الدور المطلة على الخليج من شرقيه المقابلة لباب سعادة وحارة الوزيرية. كان بستاناً جليلاً. وقفه الأمير فارس المسلمين بدر بن رزيك أخو الصالح طلائع بن زريك صاحب جامع الصالح خارج باب زويلة. ثم إنه خرب فحكر وبنى عليه عدة مساكن، وحكره يتعاطاه ورثة فارس المسلمين.

حكر جوهر النوبى

هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من بر الخليج الغربى فى شرقى بستان العدة، ويسلك منه إلى قنطرة أمير حسين من طريق تجاه باب جامع أمير حسين الذى تعلوه المئذنة، ومازال بستاناً إلى نحو ستة ستين وستمائة. فحكر وبنى فيه الدور فى أيام الظاهر بيبرس، وعرف بجوهر النوبى أحد الأمراء فى الأيام الكاملية، وقد تقدم بديار مصر تقدماً زائداً، وكان خصياً، وهو ممن ثار على الملك العادل أبى بكر بن الكامل وخلعه. فلما ملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بعد أخيه العادل قبض على جوهر فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

حكر خزائن السلاح

هذا الحكر كان يعرف قديماً بحكر الأوسية، وهو فيما بين الدكة وقنطرة الموسكى. وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزائن السلاح هو وعده أماكن

بمدينة مصر مع مدينة قليوب وأراضيها فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وستمائة، وظهر كتاب الوقف المذكور من الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمائة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد خرب أكثر هذا الحكر وصار كيمانا.

حكر تكان

هذا الحكر بجوار سويقة العجمى الفاصلة بينه وبين حكر خزائن السلاح، وكان يعرف قديماً بحكر كوبج، وحده القبلى ينتهى إلى حكر ابن الأسد جفريل، والحد البحرى ينتهى إلى حكر العلائى، والحد الشرقى ينتهى إلى حكر البغدادية، والحد الغربى ينتهى إلى حكر خزائن السلاح وسويقة العجمى.

وتكان هو الأمير سيف الدين تكان. ويقال تكام بالميم عوضاً عن النون، وهذا الحكر استقر أخيراً فى أوقاف خوندارد وتكين أبنه نوكيه السلاح دار زوجة الملك الأشرف خليل بن قلاوون على ترتبها التى أنشأتها خارج باب القرافة. التى تعرف اليوم بتربة الست، وقد خرب هذا الحكر، وبيعت أنقاضه فى أعوام بضع وتسعين وسبعمائة، وجعل بعضه بستاناً فى سنة ست وتسعين وسبعمائة.

حكر ابن الأسد جفريل

هذا الحكر فى قبلى حكر تكان. كان بستاناً. فحكر وعرف بالأمير شمس الدين موسى ابن الأمير أسد الدين جفريل أحد أمراء الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب بمصر.

حكر البغدادية

هذا الحكر بجوار خليج الذكر كان من أعظم البساتين فى الدولة الفاطمية . فأزال الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب أشجاره ونخله وجعله ميداناً، ثم حكر وصارت فيه عدة مساكن ، وهو الآن خراب يباب لا يأويه إلا اليوم والرخم .

حكر خطلباً

هذا الحكر حده القبلى إلى الخليج ، وحده البحرى إلى الكوم الفاصل بينه وبين حكر الأوسية المعروف بالجاولى وحده الشرقى إلى بستان الجليس . الذى عرف بابن منقذ ، والحد الغربى إلى زقاق هناك ، وكان هذا الحكر بستاناً اشتراه جمال الدين الطواشى من جمال الدين عمر بن ناصح الدين داود بن إسماعيل الملكى الكاملى فى سنة ست عشرة وستمائة ، ثم ابتاعه منه الطواشى محيى الدين صندل الكاملى فى سنة عشرين وستمائة ، وباعه للأمير الفارس صارم الدين خطلباً الكاملى فى سنة إحدى وعشرين وستمائة فعرف به .

وهو خطلباً بن موسى الأمير صارم الدين الفارسى التبتى الموصلى الكاملى . استقر فى ولاية القاهرة سنة أثنتين وسبعين وخمسمائة فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم أضيفت له ولاية الفيوم فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ثم صرف عنها وسار متسلمه إلى اليمن ليتسلمها . فتسلمها فى جمادى الأولى ، وسار هو فى سادس شوال منها واليا على مدينة زبيد باليمن ، ومعه خمسمائة رجل ورفيقه الأمير باخل . فبلغت النفقة عليه عشرين ألف دينار ، وكتب للطواشيه بنفقه عشرة دنانير لكل منهم على اليمن . فأقام باليمن مدة ثم قدم إلى القاهرة ، وصار من أصحاب الأمير فخر الدين جهاركس ، وتأخر إلى أيام الملك الكامل ، وصار من أمرائه بالقاهره إلى أن مات فى ثالث شعبان سنة خمس وثلاثين وستمائة .

حكر ابن منقذ

هذا الحكر خارج باب القنطرة بعدوه خليج الذكر، وكان بستاناً يعرف ببستان الشريف الجليس، ويعرف أيضاً بالبطائحى، ثم عرف بالأمير سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ نائب الملك المعز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى على مملكة اليمن، وانتقل بعد ابن منقذ إلى الشيخ عبدالمحسن بن عبدالعزيز بن على المخزومى المعروف بابن الصيرفى. فوقفه على جهات تؤول أخيراً إلى الفقراء والمساكين المقيمين بمشهد السيدة نفيسة، والفقراء والمساكين المعتقلين فى حبوس القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة. ثم أزيلت أنشاب هذا البستان وحكرت أرضه وبنيت الدور والمساكن عليها. وهو الآن خراب.

حكر فارس المسلمين بدر بن رزيك

هذا الحكر تجاه منظره اللؤلؤة. كان من جملة البركة المعروفة ببطن البقرة، ثم حكر وبنى فيه، وأكثره الآن خراب.

حكر شمس الخواص مسرور

هذا الحكر فيما بين خليج الذكر وحكر ابن منقذ. كان بستاناً لشمس الخواص مسرور الطواشى. أحد الخدام الصالحية. مات فى نصف شوال سنة سبع وأربعين وستمائة بالقاهرة، ثم حكر وبنى فيه الدور، وموضعه الآن كيمان.

حكر العلائى

هذا الحكر يجاور حكرتكان من بحريه، وكان بستاناً جليل القدر، ثم حكر وصار بعضه وقف تذكار بى خاتون ابنه الملك الظاهر بيبرس. وقفته فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة على نفسها، ثم من بعدها على الرباط الذى أنشأته داخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه بيبرس. وهو الرباط المعروف برواق البغدادية، وعلى المسجد الذ بحكر سيف الإسلام خارج باب زويلة، وعلى تربتها التى بجوار جامع ابن عبدالظاهر بالقرافة، وصار بعض هذا الحكر فى وقف الأمير سيف الدين بهادر العلائى متولى البهنساء، وكان وقفه فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة فعرف بالحكر العلائى المذكور.

وأدركت هذا الحكر وهو من أعمر الأحكار، وفيه درب الأمير عز الدين أيدمر الزراق أمير جاندار ووالى القاهرة وداره العظيمة ومساكنه الكثيرة. فلما حدثت المحن منذ سنة ست وثمانمائة خرب هذا الحكر، وأخذت أنقاضه، وبقيت دار الزراق إلى سنة سبع عشرة وثمانمائة فشرع فى الهدم فيها لأجل أنقاضها الجليلة.

حكر الحريرى

هذا الحكر بجوار حكر العلائى المذكور من حده البحرى، وهو من جملة الأرض المعروفة بالأرض البيضاء، وكان بستاناً ثم حكر وصار فى وقف خزائن السلاح، وأدركناه عامراً، وفيه سوق يعرف بالسويقة البيضاء، كانت بها عدة حوانيت وقد خرب هذا الحكر، وهذا الحريرى هو الصاحب محيى الدين.

حكر المساح

عرف بالأمير شمس الدين سنقر المساح أحد أمراء الظاهر بيبرس. قبض عليه فى عدة من الأمراء فى ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة.

الدكة

هذا المكان كان بستاناً من أعظم بساتين القاهرة فيما بين أراضى اللوق والمقس، وبه منظره للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على بحر النيل الأعظم، ولايحول بينها وبين بر الجيزة شىء. فلما زالت الدولة الفاطمية تلاشى أمر هذا البستان وخرب. فحكر موضعه، وبنى الناس فيه. فصار خطة كبيرة كأنه بلد جليل، وصار به سوق عظيم، وسكنه الكتاب وغيرهم من الناس، وأدركته عامراً. ثم إنه خرب منذ سنة ست وثمانمائة، وبه الآن بقية عما قليل تدثر كما دثر ما هنالك وصار كيمانا.

ذكر المقس وفيه الكلام على المكس وكيف كان أصله فى أول الإسلام

أعلم أن المقس قديم، وكان فى الجاهلية قرية تعرف بأم دنين، وهى الآن محلة بظاهر القاهرة فى بر الخليج الغربى، وكان عند وضع القاهرة هو ساحل النيل، وبه أنشأ الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد الصناعة التى ذكرت عند ذكر الصناعات من هذا الكتاب، وبه أيضاً أنشأ الإمام الحاكم بأمر الله أبو على منصور جامع المقس. الذى تسميه عامة أهل مصر فى زمننا بجامع المقسى، وهو الآن بيل على الخليج الناصرى. قال أبو القاسم عبدالرحمن بن

عبدالله بن عبدالحكم فى كتاب فتوح مصر : وقد ذكر مسير عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى فتح مصر ، فتقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه لايدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله سبحانه وتعالى عليه ، ثم مضى لايدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح . فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فقاتلهم. وذكر تمام الخبر.

وقال القاضى أبو عبدالله القضاعى : المقس كانت ضيعة تعرف بأم دنين ، وأنما سميت المقس لأن العاشر كان يقعد بها وصاحب المكس فقيل المكس. فقلب فقيل المقس. قال المؤلف رحمه الله : الماكس هو العشار ، وأصل المكس فى اللغة الجباية . قال ابن سيدة فى كتاب المحكم : المكس الجباية مكسه يمسكه مكسا ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية ، ويقال للعشار صاحب مكس ، والمكس انتقاص الثمن فى البياعة قال الشاعر :

أفى كل أسواق العراق إتاوه

وفى كل ما باع أمرؤمكس درهم

ألا ينتهى عنا رجال وتتقى

محارمنا لا يدرأ لدم بالدم

الإتاوة الخراج ، ومكس درهم. أى نقص درهم فى بيع ونحوه. قال : وعشر القوم يعشرهم عشرا وعشورا وعشرهم : أخذ عشر أموالهم وعشر المال نفسه وعشره كذلك ، والعشار قابض العشر ومنه قول عيسى بن عمرو لابن هبيرة وهو يضرب بين يديه بالسياط تالله إن كانت الأثيابا فى أسفاط قبضها عشاروك ، وقال الجاحظ : ترك الناس ما كان مستعملاً فى الجاهلية أموراً كثيرة. فمن ذلك تسميتهم للإتاوة بالخراج ، وتسميتهم لما يأخذه السلطان من الحلوان والمكس بالرشوة ، وقال الخارجى :

أفى كل أسواق العراق إتاوة . . .

البيت وكما قال العبدى فى الجارود .

أكابن المعلى خلتنا أم حسبتنا

سوارى نعطى الماكسين مكوسا

الصوارى : الملاحون والمكس ما يأخذه العشار . أنتهى . ويقال إن قوم شعيب عليه السلام كانوا مساكين لايدعون شيئاً إلا مكسوه ، ومنه قيل للمكس البخس لقوله تعالى : ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾(١) .

وذكر أحمد بن يحيى البلاذرى عن سفيان الثورى عن إبراهيم بن مهاجر قال : سمعت زياد بن جرير يقول : أنا أول من عشر فى الإسلام وعن سفيان عن عبدالله ابن خالد عن عبدالرحمن بن معقل قال : سألت زياد بن جرير : من كنتم تعشرون؟ فقال ما كنا نعشر مسلماً ولا معاهداً . بل كنا نعشر تجار أهل الحرب ، كما كانوا يعشروننا إذا أتيناهم ، وقال عبدالملك بن حبيب السلمى فى كتاب سيرة الإمام العدل فى مال الله عن السائب بن يزيد أنه قال : كنت على سوق المدينة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فكنا نأخذ من القبط العشر ، وقال ابن شهاب كان ذلك يؤخذ منهم فى الجاهلية فألزمهم ذلك عمر بن الخطاب .

وعن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يأخذ بالمدينة من القبط من الحنطة والزبيب نصف العشر . يريد بذلك أن يكثر الحمل إلى المدينة من الحنطة والزبيب ، وكان يأخذ من القطنية العشر ، وقال مالك رحمه الله : والسنة أن ما أقام الذمة فى بلادهم التى صالحوا عليها فليس عليها إلا الجزية ، إلا أن يتجروا فى بلاد المسلمين ويختلفوا فيها فيؤخذ منهم العشر فيما يدبرون من التجارة ، وان اختلفوا فى العالم الواحد مرارا إلى بلاد المسلمين فعليهم كلما اختلفوا العشر ، وإذا أتجر الذمى فى بلاده من أعلاها إلى أسفلها ، ولم يخرج منها إلى غيرها فليس عليه شئ مثل أن يتجر الذمى الشامى فى جميع الشام ، أو الذمى المصرى فى جميع مصر ، أو الذمى العراقى فى جميع

(١) سورة هود - آية ٨٥ ، ١١ ك .

العراق، وليس العمل عندنا على قول عمر بن عبدالعزيز لزريق بن حيان: وأكتب لهم بما يؤخذ منهم كتاباً إلى مثله من الحول، ومن مر بك من أهل الذمة فخذ مما يديرون من التنجارات من كل عشرين ديناراً ديناراً فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير فإن نقص منها ثلث دينار فدعها ولا تأخذ منها شيئاً.

والعمل على أن يؤخذ منهم العشر وإن خرجوا في السنة مرارا من كل ما أتجروا به قل أو كثر، وهذا قول ربيعة وابن هرمز. وقال القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمي أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في كتاب الرسالة إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد وهو كتاب جليل القدر حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المهاجر قال سمعت أبي يذكر قال: سمعت زياد بن جرير قال: أول من بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه منا على العشور أنا. فأمرني أن لا أفتش أحداً، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهماً درهماً من المسلمين، وأخذت من أهل الذمة من عشرين واحداً، وممن لاذمة له العشر، وأمرني أن أغلظ على نصارى بني تغلب. قال انهم قوم من العرب وليسوا من أهل الكتاب فلعلهم يسلمون.

قال وكان عمر رضي الله عنه قد أشترط على نصارى بني تغلب أن لاينصروا أولادهم. وحدثنا أبو حنيفة على الهيم عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العشور، وكتب لي عهدا أن آخذ من المسلمين وحدثنا عاصم بن سليمان الأحول عن الحسن قال: كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أهل الحرب فيأخذون منهم العشر. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: فخذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً، وليس فيما دون المائتين شيء. فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم. فما زاد فبحسابه.

وحدثنا عبدالملك بن جريج عن عمرو بن شعيب قال: إن أهل منبج قوم من أهل الشرك وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا. قال: فشاور عمر رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ في ذلك فأشاور عليه به، فكانوا أول من

عشره من أهل الحرب، وحدثنا السدى بن إسماعيل عن عامر الشعبى عن زياد بن جرير الأسدى قال: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعثه على عشور العراق والشام، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ومن أهل الذمة نصف العشر ومن أهل الحرب العشر. فمر عليه رجل من بنى تغلب من نصارى العرب، ومعه فرس فقومها بعشرين ألفاً فقال أمسك الفرس وأعطنى ألفاً أو خذ منى تسعة عشر ألفاً وأعطنى الفرس قال فأعطاه ألفاً وأمسك الفرس. قال: ثم مر عليه راجعاً فى سنته فقال أعطنى ألفاً أخرى فقال له التغلبى: كلما مررت بك تأخذ منى ألفاً؟ قال نعم فرجع التغلى إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوافاه بمكة وهو فى بيت له. فأستأذن عليه. فقال من أنت؟ فقال أنا رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته فقال له عمر رضى الله عنه: كفيت. ولم يزده على ذلك. قال فرجع الرجل إلى زياد بن جرير، وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً فوجد كتاب عمر رضى الله عنه قد سبق إليه. من مر عليك فأخذت منه صدقه. فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً. قال: فقال الرجل قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفاً، وأنى أشهد الله تعالى أنى برئ من النصرانية وأنى على دين الرجل الذى كتب إليك هذا الكتاب.

وحدثنى يحيى بن سعيد عن زريق بن حيان، وكان على مكس مصر. فذكر أن عمر بن عبدالعزيز كتب إليه أن انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم، وما ظهر لك من التجارات من كل أربعين ديناراً ديناراً فما نقص فبحسابه حتى تبلغ عشرين ديناراً. فإن نقصت فدعها ولا تأخذ منها، وإذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجاراتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً. فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنانير ثم دعها لا تأخذ منها شيئاً، وأكتب لهم كتاباً بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول.

وحدثنى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم أنه قال إذا مر أهل الذمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمها نصف العشر، ولايقبل قول الذمى فى قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الذمة يقوماتها عليه فيؤخذ نصف العشر من الذمى. وحدثنا قيس بن الربيع عن أبى فزاره عن يزيد بن الأصم عن عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما أنه قال: إن هذه المعاصر والقناطر سحت لايحل أخذها، فبعث عمالاً إلى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من عاصر أو قنطرة أو طريق شيئاً،

فقدموا فاستقل المال فقال: نهيتنا فقالوا خذوا كما كنتم تأخذون.

وحدثنا محمد بن عبيد الله عن أنس بن سيرين قال: أرادوا أن يستعملونى على عشور الأبلة فأبيت. فلقينى أنس بن مالك رضى الله عنه فقال. ما يمنعك؟ قلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس. قال فقال لى: لم لا تفعل؟ عمر بن الخطاب رضى الله عنه صنعه. فجعل على أهل الإسلام ربع العشر، وعلى أهل الذمة نصف العشر، وعلى أهل المنزل ممن ليس له ذمة العشر. وقال أبو الحسن المسعودى. إن كيقباذ أحد ملوك الفرس أول من أخذ العشر من الأرض وعمر بلاد بابل، ومملكة الفرس.

ورأيت فى التوراه التى فى يد اليهود أن أول من أخرج العشر من مواشيه وزروعه وجميع ماله خليل الله إبراهيم عليه السلام، وكان يدفع ذلك إلى ملك أورشليم التى هى أرض القدس، واسمه ملكى صادق. فلما مات الخليل إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه أقتدى به بنوه فى ذلك من بعده وصاروا يدفعون العشر من من أموالهم إلى أن بعث الله تعالى موسى عليه السلام فأوجب على بنى اسرائيل إخراج العشر فى كل ماملكت أيمانهم من جميع أموالهم بأنواعها، وجعل ذلك حقاً لبسط لأوى الذين هم قرابة موسى عليه السلام.

وقال ابن يونس فى تاريخ مصر: كان ربيعة بن شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه أحد من شهد فتح مصر من أصحاب رسول الله ﷺ والياً لعمرو بن العاص رضى الله عنه على المكس، وكان زريق بن حيان على مكس أبلة فى خلافه عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه. قال مؤلفه رحمه الله: ومع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل. روى ابن قتيبة فى كتاب الغريب أن النبى ﷺ قال: لعن الله سهيلاً كان عشاراً[1] باليمن فمنحه الله شهاباً وروى ابن لهيعة عن عبدالرحمن بن ميمون عن أبى إبراهيم المعافرى عن خالد بن ثابت أن كعباً أوصاه وتقدم إليه حين مخرجه مع عمرو بن العاص أن لايقرب المكس.

فهذا أعزك الله معنى المكس عند أهل الإسلام لا ما أحدثه الظالم هبه الله بن صاعد الفائزى، وزير الملك المعز أيبك التركمانى، أول من أقام من ملوك الترك بقلعة الجبل من

(١) (قوله كان عشاراً باليمن) ينافى ما تقدم عن يحيى بن سعيد من أنه كان على مكس مصر فلعله ولى المحلين فليحرر. اهـ.

المظالم، التى سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وتعرف اليوم بالمكوس، فذلك الرجس النجس الذى هو أقبح المعاصى والذنوب الموبقات لكثرة مطالبات الناس له وظلاماتهم عنده، وتكرر ذلك منه، وإنهاكه للناس وأخذ أموالهم بغسير حقها، وصرفها فى غير وجهها، وذلك الذى لا يقربه متق، وعلى آخذه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ولنرجع إلى الكلام فى المقس فنقول من الناس من يسميه المقسم بالميم بعد السين. قال ابن عبدالظاهر فى كتاب خطط القاهرة: وسمعت من يقول إنه المقسم. قيل لأنه قمة الغنائم عند الفتوح كانت به، ولم أره مسطوراً. وقال العماد محمد بن أبى الفرج محمد ابن حامد الكاتب الأصفهانى فى كتاب سنا البرق الشامى: وجلس الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى البرج الذى بجوار جامع المقسم فى السابع والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة. وهذا المقسم على شاطئ النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار. وهو المكان الذى قسمت فيه الغنائم عند استيلاء الصحابة رضى الله عنهم على مصر.

فلما أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بإدارة السور على مصر والقاهرة، تولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش وجعل نهايته التى تلى القاهرة عند المقسم، وبنى فيه برجاً مشرفاً على النيل وبنى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منه إلى البلد، وجامعه تقام فيه الجمعة والجماعات، وهذا البرج عرف بقلعة قراقوش، وما برح هنالك إلى أن هدمه الصاحب الوزير شمس الدين عبدالله المقسى وزير الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون فى سنة بضع وسبعين وسبعمائة، عندما جدد جامع المقس الذى أنشأه الخليفة الحاكم بأمر الله. فصار يعرف بجامع المقسى هذا إلى اليوم، وما برح جامع المقس هذا يشرف على النيل الأعظم إلى ما بعد سنة سبعمائة بعدة أعوام.

قال جامع السيرة الطولونية، وركب أحمد بن طولون فى غداة باردة إلى المقس. فأصاب بشاطئ النيل صياداً عليه خلق لا يواريه منه شئ، ومعه صبى له فى مثل حاله وقد ألقى شبكته فى البحر. فلما رآه رق لحاله، وقال يا نسيم: أدفع إلى هذا عشرين ديناراً. فدفعها إليه ولحق ابن طولون فسار أحمد بن طولون، ولم يبعد، ورجع فوجد الصياد ميتاً، والصبى يبكى ويصيح. فظن ابن طولون أن بعض سودانه قتله، وأخذ الدنانير منه، فوقف

بنفسه عليه، وسأل الصبى عن أبيه. فقال له: هذا الغلام. وأشار إلى نسيم الخادم - دفع إلى أبى شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً. فقال: فتشه يا نسيم فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها. فحرض الصبى أن يأخذها فأبى، وقال: هذه قتلت أبى وأن أخذتها قتلتنى. فأحضر ابن طون قاضى المقس وشيوخه وأمرهم أن يشتروا للصبى داراً بخمسمائة دينار تكون لها غلة، وأن تحبس عليه، وكتب اسمه فى أصحاب الجرايات، وقال: أنا قتلت أباه. لأن الغنى يحتاج إلى تدريج، وإلا قتل صاحبه. هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر فى عينه.

وقال القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى رحمه الله فى تعليق المتجددات لسنة سبع وسبعين وخمسمائة: وفيه يعنى يوم الثلاثاء لست بقين من المحرم: ركب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أعز الله نصره لمشاهدة ساحل النيل، وكان قد انحسر وتشمر عن المقس وما يليه، وبعد عن السور والقلعة المستجدين بالمقس، وأحضر أرباب الخبرة واستشارهم. فأشير عليه بإقامة الجراريف لرفع الرمال التى قد عارضت جزائرها طريق الماء وسدته ووقفت فيه، وكان الأفضل بن أمير الجيوش لما تربى قدام دار الملك جزيرة رمل، كما هى اليوم. أراد أن يقرب البحر، وينقل الجزيرة. فأشير عليه بأن يبنى مما يلى الجزيرة أنفا خارجا فى البحر ليلقى التيار وينقل الرمل. فعسر هذا وعظمت غرامته فأشار عليه ابن سيد بأن يأخذ قصارى فخار وتثقب، ويعمل تحتها رؤس برابخ وتلطخ بالزفت وتكب القصارى عليها، وتدفن فى الرمل. فإذا زاد النيل وركبها نزل من خروق القصارى إلى الرؤس فأدارها الماء ومنعها القصارى أن تنحدر، ودامت حركة الرمل بتحريك الماء للرؤس. فانتقل الرمل وذكر أن للزفت خاصية فى تحويل الرمل.

قال: وفى هذا الوقت احترق النيل وصار البحر مخايض يقطعها الراجل، وتوحل فيه المراكب، وتشمر الماء عن ساحل المقس ومصر، وربى جزائر رملية أشفق منها على المقياس لئلا يتقلص النيل عنه ويحتاج إلى عمل غيره، وخشى منها أيضاً على ساحل المقس لكون بنيان السور كان اتصل بالماء، وقد تباعد الآن عن السور وصار المدقوته من بر الغرب، ووقع النظر فى إقامة جراريف لقطع الجزائر التى رباها البحر، وعمل أنوف خارجة فى بر الجيزة ليميل بها الماء إلى هذا الجانب. ولم يتم شئ من ذلك.

وقال ابن المتوج فى سنة خمسين وستمائة انتهى النيل فى احتراقه إلى أربعة أذرع وسبعة عشر أصبعا، وانتهى فى زيادته إلى ثمانية عشر ذراعاً، وكان مثل ذلك فى دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون وكان نيلاً عظيماً سد فيه باب المقس. يعنى الباب الذى يعرف اليوم بباب البحر عند المقس، وفى سنة أثنتين وستين وستمائة أحضر إلى الملك الظاهر بيبرس طفل وجد ميتاً بساحل المقس له رأسان وأربعة أعين وأربعة أرجل وأربعة أيد.

وأخبرنى وكيل أبى الشيخ المعمر حسام الدين حسن بن عمر السهروردى رحمه الله. ومولده سنة اثنتين وسبعمائة بالمقس أنه يعرف باب البحر هذا. إذا خرج منه الإنسان فإنه يرى بر الجيزة. لايحول بينه وبينها حائل. فإذا زاد ماء النيل صار الماء عند الوكالة التى هى الآن خارج باب البحر المعروفة بوكالة الجبن، وإذا كان أيام احتراق النيل بقيت الرمال تجاه باب البحر، وذلك قبل أن يحفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى. فلما حفر الخليج المذكور أنشأ الناس البساتين والدور كما يجئ أن شاء الله تعالى ذكره.

وأدركنا المقس خطة فى غاية العمارة. بها عدة أسواق، ويسكنها أمم من الأكراد والأجناد والكتاب وغيرهم، وقد تلاشت من بعد سنة سبع وسبعين وسبعمائة عند حدوث الغلاء بمصر فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين. فلما كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة خربت الأحكار والمقس وغيره، وفيه إلى الآن بقية صالحة، وبه خمسة جوامع تقام بها الجمعة، وعدة أسواق، ومعظمه خراب.

ذكر ميدان القمح

هذا المكان خارج باب القنطرة. يتصل من شرقيه بعدوة الخليج، ومن غربيه بالمقس، وبعضهم يسميه ميدان الغلة، وكان موضعاً للغلال أيام كان المقس ساحل القاهرة، وكانت صبر القمح وغيره من الغلال توضع من جانب المقس إلى باب القنطرة عرضاً، وتقف المراكب من جامع المقس إلى منيه الشيرج طولاً، ويصير عند باب القنطرة فى أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله.

قال ابن عبدالظاهر: المكان المعروف بميدان الغلة وما جاوره إلى ما وراء الخليج لما ضعف أمر الخلافة وهجرت الرسوم القديمة من التفرج فى اللؤلؤة وغيرها، بنت الطائفة الفرحية الساكنون . بالمقس لأنهم ضاق بهم المقس قبالة اللؤلؤة حارة سميت بحارة اللصوص . بسبب تعديهم فيها مع غيرهم . إلى أن غيروا تلك المعالم .

وقد كان ذلك قديماً بستاناً سلطانياً يسمى بالمقسى . أمر الظاهر بن الحاكم بنقل أنشابه وحفره، وجعله بركة قدام اللؤلؤة مختلطة بالخليج، وكان للبستان المقدم ذكره ترعة من البحر . يدخل منها الماء إليه، وهو خليج الذكر الآن . فامر بإبقائها على حالها مسلطة على البركة والخليج يستنقع الماء فيها . فلما نسى ذلك على ما ذكرناه عمد المذكورون وغيرهم إلى اقتطاع البركة من الخليج، وجعلوا بينها وبين الخليج جسراً، وصار الماء يصل إليها من الترعة دون الخليج، وصارت منتزها للسودان المذكورين فى أيام النيل والربيع .

ولما كانت الأيام الآمرية أحب إعادة النزهة فتقدم وزيره المأمون بن البطائحى بإحضار عرفاء السودان المذكورين وأنكر عليهم ذلك . فاعتذروا بكثرة الرمال . فامر بنقل ذلك، وأعطاهم إنعاما فبنوا حارة بالقرب من دار كافور التى أسكنت بها الطائفة المأمونية قبالة بستان الوزير، ومن المساجد الثلاثة المعلقة فى شرقيها، ثم أحضر الأبقار من البساتين والعدد والآلات، ونقض الجسر الذى بين البركة والخليج، وعمق البركة إلى أن صار الخليج مسلطاً عليها .

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: هذه البركة عرفت ببطن البقرة، وقد ذكر خبرها عند ذكر البرك من هذا الكتاب، وقد صار هذا الميدان اليوم سوقاً تباع فيه القشة من النحاس العتيق والحصر وغير ذلك، وفى بعضه سوق الغزل، وبه جامع يشرف على الخليج، وسكن هناك طائفة من المشارقة الحياك، وفيه سوق عامر بالمعايش .

ذكر أرض الطبالة

هذه الأرض على جانب الخليج الغربى بجوار المقس. كانت من أحسن متنزهات القاهرة. يمر النيل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس حيث جامع المقس الآن إلى أن ينتهى إلى الموضع الذى يعرف بالجرف على جانب الخليج الناصرى بالقرب من بركة الرطلى، ويمر من الجرف إلى غربى البعل. فتصير أرض الطبالة نقطة وسط من غربيها النيل الأعظم، ومن شرقيها الخليج، ومن قبليها البركة المعروفة ببطن البقرة والبساتين التى آخرها. حيث الآن باب مصر بجوار الكبارة، وحيث المشهد النفيسى ومن بحريها أرض البعل ومنظرة البعل ومنظرة التاج والخمس وجوه وقبة الهواء. فكانت رؤية هذه الأرض شيئاً عجيباً فى أيام الربيع، وفيها يقول سيف الدين على بن قزل المشد :

إلى طبالة يعــــزون أرضــا

لها من سندس الريحان بسط

وقد كتب الشقيق بها سطورا

وأحســن شكلها للطل نقط

رياض كالعرائس حين تجلى

بزين وجههــا تــاج وقرط

وإنما قيل لها أرض الطبالة. لأن الأمير أبا الحارث أرسلان البساسيرى لما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسى، وخرج من بغداد يريد الانتماء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة. أمده الخليفة المستنصر بالله ووزيره الناصر لدين الله عبدالرحمن البازورى حتى استولى على بغداد، وأخذ قصر الخلافة، وأزال دولة بنى العباس منها، وأقام الدولة الفاطمية هناك، وسير عمامة القائم وثيابه وشبّاكه. الذى كان إذا جلس يستند إليه وغير ذلك من الأموال والتحف إلى القاهرة فى سنة خمسين وأربعمائة. فلما وصل ذلك إلى القاهرة سر الخليفة المستنصر سروراً عظيماً، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة، فوقفت نسب طبالة المستنصر، وكانت امرأة مرجلة تقف تحت القصر فى المواسم والأعياد وتسير أيام الموكب وحولها طائفتها، وهى تضرب بالطبل وتنشد فأنشدت وهى واقفة تحت القصر.

يا بنى العبـاس ردوا

ملك الأمـــر معـــد

ملككم ملك معـــار

والعـــوارى تســترد

فأعجب المستنصر ذلك منها، وقال لها: تمنى. فسألت أن تقطع الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض، وقيل لها من حينئذ أرض الطبالة، وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى تعرف بتربة نسب.

قال ابن عبدالظاهر: أرض الطبالة منسوبة إلى امرأة مغنية تعرف بنسب، وقيل: بطرب - مغنية المستنصر - قال فوهبها هذه الأرض المعروفة بأرض الطبالة، وحكرت وبنيت آدرا وبيوتاً وكانت من ملح القاهرة وبهجتها. أنتهى.

ثم إن أرض الطبالة خربت فى سنة ست وتسعين وستمائة عند حدوث الغلاء والوباء فى سلطنة الملك العادل كتبغا حتى لم يبق فيها إنسان يلوح. وبقيت خراباً إلى ما بعد سنة إحدى عشر وسبعمائة. فشرع الناس فى سكناها قليلا قليلا. فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب. فمازال بالمهندسين حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوابين التى تعرف اليوم ببركة الحاجب. وببركة الرطلى. فمروا به من هناك حتى صب فى الخليج الكبير من آخر أرض الطبالة فعمر الأمير بكتمر المذكور هناك القنطرة التى تعرف بقنطرة الحاجب على الخليج الناصرى، وأقام جسراً من القنطرة المذكورة إلى قريب من الجرف. فصار هذا الجسر فاصلاً بين بركة الحاجب والخليج الناصرى.

وأذن للناس فى تحكيره فبنوا عليه وعلى البركة الدور، وعمرت بسبب ذلك أرض الطبالة، وصار بها عدة حارات. منها: حارة العرب وحارة الأكراد وحارة البزازرة وحارة العياطين وغير ذلك، وبقى فيها عدة أسواق وحمام وجوامع تقام بها الجمعة، وأقبل الناس على التنزه بها أيام النيل والربيع، وكثرت الرغبات فيها لقربها من القاهرة.

وما برحت على غاية من العمارة إلى أن حدث الغلاء فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة أيام الأشرف شعبان بن حسين فخرب كثير من حارات أرض الطبالة، وبقيت منها بقية إلى أن دثرت منذ سنة ست وثمانمائة، وصارت كيماناً، وبقى فيها من العامر الآن الأملاك المطلة على البركة التى ذكرت عند ذكر البرك من هذا الكتاب.

وفيها بقعة تعرف بالجنينة تصغير جنة من أخبث بقاع الأرض، يعمل فيها بمعاصى الله عز وجل، وتعرف ببيع الحشيشة التى يبتلعها أراذل الناس، وقد فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا زائداً، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيراً، وتظاهروا بها من غير احتشام بعد ما أدركناها تعد من أرذل الخبائث وأقبح القاذورات، وما شئ فى الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ولاشتهارها فى وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم تعين ذكرها والله تعالى أعلم.

ذكر حشيشة الفقراء

قال الحسن بن محمد فى كتاب السوانح الأدبية فى مدائح القنبية: سألت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازى الحيدرى ببلدة تستر فى سنة ثمان وخمسين وستمائة عن السبب فى الوقوف على هذا العقار ووصوله إلى الفقراء. خاصة وتعديه إلى العوام عامة. فذكر لى أن شيخه شيخ الشيوخ حيدراً رحمه الله كان كثير الرياضة والمجاهدة. قليل الاستعمال للغذاء. قد فاق فى الزهادة وبرز فى العبادة، وكان مولده بنشاور من بلاد خراسان، ومقامه بجبل بين نشاور ومارماه، وكان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية، وفى صحبته جماعة من الفقراء وانقطع فى موضع منها، ومكث بها أكثر من عشر سنين لايخرج منها ولايدخل عليه أحد غيرى للقيام بخدمته. قال: ثم إن الشيخ طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفرداً بنفسه إلى الصحراء، ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ماكنا نعهده من حاله قبل، وأذن لأصحابه فى الدخول عليه، وأخذ يحادثهم.

فلمـا رأينا الشـيخ على هذه الحـالة من المؤانسـة بعـد إقـامـتـه تلك المدة الطويلة فى الخلوة والعـزلة سـألناه عن ذلك فـقـال : بينمـا أنا فى خلوتى إذ خطر بيـالى الخروج إلى الصحـراء منفـرداً. فـخـرجت فـوجدت كل شئ من النبـات سـاكناً لايتـحـرك لعـدم الريح وشـدة القيظ ومررت بنبـات له ورق. فرأيته فى تلك الحال يميس بلطف ويتحـرك من غير عنف كـالنمل النشـوان. فـجـعلت أقطف منه أوراقـاً وآكلهـا فـحـدث عندى من الأرتيـاح مـا شـاهد تموه، وقوموا بنا حتى أوقفكم عليه لتعـرفوا شكله. قـال: فـخـرجنا إلى الصـحـراء فـأوقفنا على النبات. فلما رأيناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب. فأمرنا أن نأخذ من ورقة ونأكله ففعلنا ثم عدنا إلى الزاوية فوجدنا فى قلوبنا من السرور والفرج ما عجزنا عن كتمانه.

فلم رآنا الشيخ على الحالة التى وصفنا أمرنا بصيانة هذا العقار، وأخذ علينا الأيمان أن لانعلم به أحدا من عوام الناس، وأوصانا أن لا نخفيه عن الفقراء. وقـال إن الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب بأكله همومكم الكثيفة، ويجلو بفعله أفكاركم الشريفة. فراقبوه فيما أودعكم، وراعوه فيما استرعاكم.

قال الشيخ جعفر فزرعتها بزاوية الشيخ حيدر بعد أن وقفنا على هذا السر فى حياته، وأمرنا بزرعها حول ضريحة بعد وفاته، وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشر سنين وأنا فى خدمته لم أره يقطع أكلها فى كل يوم، وكان يأمرنا بتقليل الغذاء وأكل هذه الحشيشة وتوفى الشيخ حيدر سنة ثمان عشرة بزاويته فى الجبل، وعمل على ضريحة قبة عظيمة، وأتته النذور الوافرة من أهل خراسان، وعظموا قدره وزاروا قبره، واحترموا أصحابه.

وكان قد أرصى أصحابه عند وفاته أن يوقفوا ظرفاء أهل خراسان وكبراءهم على هذا العقار وسره، فاستعملوه. قال: ولم تزل الحشيشة شائعة ذائعة فى بلاد خراسان ومعاملات فارس، ولم يكن يعرف أكلها أهل العراق حتى ورد إليها صاحب هرمز، ومحمد بن محمد صاحب البحرين، وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس فى أيام الملك الإمام المستنصر بالله، وذلك فى سنة ثمان وعشرين وستمائة فحملها أصحابهما معهم وأظهروا للناس أكلها. فأشهرت بالعراق، ووصل خبرها إلى أهل الشام ومصر والروم فاستعملوها.

قال وفى هذه السنة ظهرت الدراهم ببغداد وكان الناس ينفقون القراضة، وقد نسب إظهار الحشيشة إلى الشيخ حيدر الأديب محمد بن على بن الأعمى الدمشقى فى أبيات وهى :

دع الخمر وأشرب من مدامة حيدر

معنبرة خضراء مثـــل الزبرجد

يعاطيكها ظبى من الترك أغيـــد

يميس على غصن من البان أملد

فتحسبها فى كفـــه إذ يديرها

كرقم عـــذار فوق خد مورد

يرنحها أدنى نسيـــم تنسـمت

فتهفوا إلى برد النســيم المردد

وتشدو على أغصانها الورق فى الضحى

فيطـــربها سجع الحمام المغرد

وفيها معان ليس فى الخمر مثلها

فلا تستمع فيها مقـــال مفند

هى البكر لم تنكح بماء سحابة

ولا عصرت يوماً برجل ولا يد

ولاعبث القسيس يوماً بكأسها

ولاقربوا من دنهـــا كل مقعد

ولا نص فى تحريمها عند مالك

ولا حـد عند الشافعى وأحمد

ولا أثبت النعمـــان تنجيس عينها

فخـــذها بحد المشرفى المهند

وكف أكف الهم بالكتف واسترح

ولا تطرح يوم السرور إلى غد

وكذلك نسب إظهارها إلى الشيخ حيدر الأديب أحمد بن محمد بن الرسام الحلبى فقال

ومهفهف بادى النفــار عهدته

لا ألتقيــــــه قط غير معبس

فرأيته بعض الليــالى ضاحكاً

سهل العريكة ريضا فى المجلس

فقضيت منه مآربى وشــكرته

إذ صـــار من بعد التنافر مؤنسى

فأجابنى لاتشكرن خــلائقى

وأشكر شفيعك فهو خمر المفلس

فحشيشة الأفراح تشفع عندنا

للعاشــــــقين ببسطها للأنفس

وإذا هممت بصـــيد ظبى نافر

فاجهد بأن يـرى حشيش القنبس

وأشكر عصابة حيدر إذ أظهروا

لذوى الخلاعة مذهب المتخمس

ودع المعطل للسرور وخلنى

من حسن ظن الناس بالمتنمس

وقد حدثنى الشيخ محمد الشيرازى القلندرى أن الشيخ حيدرا لم يأكل الحشيشة فى عمره ألبتة، وإنما عامة أهل خراسان نسبوها إليه لاشتهار أصحابه بها، وأن اظهارها كان قبل وجوده بزمان طويل، وذلك أنه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن هو أول من أظهر لأهل الهند أكلها، ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن، ثم فشا إلى أهل فارس، ثم ورد خبرها إلى أهل العراق والروم والشام ومصر فى السنة التى قدمت ذكرها.

قال وكان بيررطن فى زمن الأكاسرة وأدرك الإسلام وأسلم، وإن الناس من ذلك الوقت يستعملونها وقد نسب إظهارها إلى أهل الهند على بن مكى فى أبيات أنشدنيها من لفظه وهى:

ألا فاكفف الأحزان عنى مع الضر

لعذراء زفت فى ملاحفها الخضر

تجلت لنا لمــــا تحلت بسندس

فجلت عن التشبية فى النظم والنثر

بدت تملأ الأبصار نوراً بحسنها

فأخجل نور الروض والزهر بالزهر

عروس يسر النفس مكنون سرها

وتصبح فى كل الحواس إذا تسرى

فللذوق منها مطعم الشهد رائقا

وللشم منها فائق المسك بالنشر

وفى لونها للطرف أحسن نزهة

يميل إلى رؤياه من سائر الزهر

تركب من قان وأبيض فانشـــنت

تتيـــه على الأزهار عالية القدر

فيكسف نور الشمس حمرة لونها

وتخجل من مبيضة طلعة البدر

علت رتبة فى حســـــنها وكأنها

زبرجد روض جاده وابل القطر

تبدت فأبدت ما أجن من الهوى

وجاءت فولت جند همى والفكر

جميلة أوصاف جليلة رتبـــــة

تغالت فغالى فى مدائحها شعرى

فقم فانف جيش الهم واكفف يدالعنا

بهندية أمض من البيض والسمر

بهندية فى أصل إظهار أكلهـــا

إلى الناس لاهندية اللون كالسمر

تزيل لهيب الهـــم عنا بأكلهـــا

وتهدى لنا الأفراح فى السر والجهر

قـال : وأنا أقـول إنه قـديم مـعـروف منذ أوجـد الله تعـالى الدنيـا ، وقـد كـان على عـهـد اليونانيين ، والدليل على ذلك ما نقله الأطباء فى كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذا العقار وخواصه ومنافعه ومضاره. قال ابن جزلة فى كتاب منهاج البيان : القنب الذى هو ورق الشهدانج. منه بستانى ومنه برى ، والبستانى أجوده وهو حار يابس فى الدرجة الثالثة

وقبل حرارته فى الدرجة الأولى ويقال إنه بارد يابس فى الدرجة الأولى. والبرى منه حار يابس فى الدرجة الرابعة. قال: ويسمى بالكف.

أنشدنى تقى الدين الموصلى:

كف كف الهموم بالكف فالكف

شـــفاء للعاشـــق المهموم

بابنـــة القنب الكريمـــة لا بابنة

كرم بعـــد البنـــت الكروم

قال: والفقراء إنما يقصدون استعماله مع ما يجدون من اللذة تجفيفاً للمنى، وفى إبطاله قطع لشهوة الجماع كى لاتميل نفوسهم إلى ما يوقع فى الزنا.

وقال بعد الأطباء: ينبغى لمن يأكل الشهدانج أو ورقه أن يأكله مع اللوز أو الفستق أو السكر أو العسل أو الخشخاش، ويشرب بعده السكنجين ليدفع ضرره، وإذا قلى كان أقل لضرره. لذلك جرت العادة قبل أكله أن يقلى، وإذا أكل غير مقلى كان كثير الضرر، وأمزجة الناس تختلف فى أكله فمنهم من لايقدر أن يأكله مضافاً إلى غيره، ومنهم من يضيف إليه السكر أو العسل أو غيره من الحلاوات.

وقرأت فى بعض الكتب أن جالينوس قال: انها تبرئ من التخمة، وهى جيدة للهضم وذكر ابن جزلة فى كتاب المنهاج أن بزر شجر القنب البستانى هو الشهدانج، وثمره يشبه حسب السمنة، وهو حب يعصر منه الدهن.

وحكى عن حنين بن اسحاق أن شجرة البرى تخرج فى القفار المتقطعة على قدر ذراع، وورقة يغلب عليه البياض. وقال يحيى بن ماسويه فى كتاب تدبير أبدان الأصحاء: إن من غلب على بدنه البلغم ينبغى أن تكون أغذيته مسخنة مجففة كالزبيب والشهدانج، وقال صاحب كتاب إصلاح الأدوية: إن الشهدانج يدر البول، وهو عسر الانهضام ردئ الخلط للمعدة.

قال. ولم أجد لإزالة الزفر من اليد أبلغ من غسلها بالحشيشة.

ورأيت من خواصها أن كثيراً من ذوات السموم كالحية ونحوها إذا شمت ريحها هربت ورأيت أن الإنسان إذا أكلها ووجد فعلها فى نفسه، وأحب أن يفارقه فعلها قطر فى منخريه شيئاً من الزيت، وأكل من اللبن الحامض. ومما يكسر قوة فعلها ويضعفه السباحة فى الماء الجارى والنوم يبطلة.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: دع نزاهة القوم فما بلى الناس بأفسد من هذه الشجرة لأخلاقهم، ولقد حدثنى القاضى الرئبس تاج الدين بن نفيس أنه سئل عن هذه الحشيشة فقال: اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة والرذالة، وكذلك جربنا فى طول عمرنا من عاناها، فإنه ينحط فى سائر أخلافه إلى مالا يكاد أن يبقى له من الإنسانية شئ ألبته.

وقد قال ابن البيطار فى كتاب المفردات: ومن القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندى، ولم أره بغير مصر ويزرع فى البساتين، ويقال له الحشيشة، عندهم أيضاً وهو يسكر جداً إذا تناول منه الإنسان قدر درهم أو درهمين. حتى أن من أكثر منه يخرجه إلى حد الرعونة، وقد استعمله قوم فاختلت عقولهم، وأدى بهم الحال إلى الجنون، وربما قتلت. ورأيت الفقراء يستعملونها على أنحاء شتى. فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً، ويدعكه باليد دعكاً جيداً حتى يتعجن ويعمل منه أقراصاً، ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمصه، ويفركه باليد ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه. فانهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً، وربما أسكرهم فيخرجون به إلى الجنون أو قريب منه، وهذا ما شاهدته من فعلها.

وإذا خيف من الإكثار منه فليبادر إلى القئ بسمن وماء سخن حتى تنقى منه المعدة، وشراب الحماض لهم فى غاية النقع فانظر كلام العارف فيها، وأحذر من إفساد بشريتك وتلاف أخلاقك باستعمالها، ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها إلا أراذل الناس. ومع ذلك فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة، وكان قد تتبع الأمير سودون الشيخونى رحمه الله الموضع الذى يعرف بالجنينة من أرض الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق، وأتلف ماهنا لك من هذه الشجرة المعلونة، وقبض على من كان يبتلعها من أطراف الناس ورذلائهم، وعاقب على فعلها بقلع الأضراس. فقلع أضراس كثير من العامة فى نحو سنة ثمانين وسبعمائة، وما برحت هذه الخبيثة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد أحمد بن أويس فاراً من تيمورلنك إلى القاهرة فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة. فتظاهر أصحابه

بأكلها، وشنع الناس عليهم، واستقبحوا ذلك من فعلهم وعابوه عليهم. فلما سافر من القاهرة إلى بغداد وخرج منها ثانيا، وأقام بدمشق مدة تعلم أهل دمشق من أصحابه التظاهر بها.

وقدم إلى القاهرة شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل خلط فيها عدة أجزاء مجففة كعرق اللفاح ونحوه، وسماها العقدة وباعها بخفية. فشاع أكلها وفشا فى كثير من الناس مدة أعوام. فلما كان فى سنة خمس عشرة وثمانمائة شنع التجاهر بالشجرة المعلونة. فظهر أمرها وأشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام من الكلام بها. حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعايب، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلة. فلولا الشكل لم نقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس لما حكمت عليهم الحيوانية، وقد بدا المسخ فى الشمائل والأخلاق المنذر بظهوره على الصور والذوات. عافانا الله تبارك وتعالى من بلائه، وأرض الطبالة الآن بيد ورثه الحاجب.

ذكر أرض البعل والتاج

قال ابن سيده: البعل الأرض المرتفعة التى لايصيبها المطر إلا مرة واحدة فى السنة، وقيل البعل كل شجرة أو درع لايسقى، وقيل البعل ما سقته السماء، وقد استبعل الموضع، والبعل من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى ولاماء سماء، وقيل هو ما أكتفى بماء السماء. والبعل ما أعطى من الأتاوة على سقى النخل، واستبعل الموضع والنخل صار بعلا، وأرض البعل هذه بجانب الخليج تتصل بأرض الطبالة. كانت بستاناً يعرف بالبعل وفيه منظرة.

أنشأة الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى، وجعل على هذا البستان سورا، وإلى جانب بستان البعل هذا بستان التاج وبستان الخمس وجوه، وقد ذكرت مناظر هذه البساتين وما كان فيها للخلفاء الفاطميين من الرسوم عند ذكر المناظر من هذا الكتاب،

وأرض البعل فى هذا الوقت مزرعة تجاه قنطرة الأوز التى على الخليج. يخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل، وأيام الربيع وكذلك أرض التاج فإنها اليوم قد زالت منها الأشجار، واستقرت من أراضى المنية الخراجية، وفى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين، له ساق طويل وزهره شبه اللينوفر، وإذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظراً أنيقاً، وإذا غربت الشمس أنضم. ويذكر أن من العصافير نوعاً صغيراً يجلس العصفور منه فى داخل البشنينة فإذا أقبل الليل انضمت عليه وغطست فى الماء. فبات فى جوفها آمنا إلى أن تشرق الشمس فتعمد البشنينة وتنفتح فيطير العصور، وهو شئ ما برحنا نسمعه، وهذا البشنين يصنع من زهره دهن يعالج به فى البرسام وترطيب الدماغ فينجع، وأصله يعرف بالبيارون. يجمعه الأعراب ويأكلونه نياً ومطبوخاً، وهو يميل إلى الحرارة يسيراً، ويزيد فى الباء، ويسخن المعدة ويقويها، ويقطع الزحير، ذكر ذلك ابن البيطار فى كتاب المفردات.

وفى أيام الربيع تزرع هذه الأراضى فتذكر بحسنها ونضارتها جنة الخلد التى وعد المتقون، وأدركت بهذه الأرض بقايا نخل وأشجار، وقد تلفت.

ذكر ضواحى القاهرة

قال ابن سيده: ضواحى كل شئ نواحيه البارزة للشمس، والضواحى من النخل ما كان خارج السور على صفة عالية. لأنها تضحى للشمس، وفى كتاب النبى ﷺ لأهل بدر: لكم الصامتة من النخل، ولنا الضاحية من البعل. يعنى بالصامتة ما أطاف به سور المدينة. وضواحى الروم ما ظهر من بلادهم وبرز، ويقال فى زماننا لما خرج عن القاهرة مما هو جنبتى الخليج من القرى ضواحى القاهرة وقد عرفت أصل ذلك من اللغة وتعرف البلاد التى من الضواحى فى غربى الخليج بالحبس الجيوشى، وهى بهتين والأميرية والمنية، وكان أيضاً بناحية الجيزة من جملة الحبس الجيوشى ناحية سفط ونهيا ووسيم. حبس هذه البلاد أمير الجيوش بدر الجمالى على عقبة.

فلما زالت الدولة الفاطمية جعل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الأسطول لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب، وسلمه له فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وأفرد لديوان الأسطول من الأبواب الديوانية الزكاة التى كان تجبى من الناس بمصر، والحبس الجيوشى بالبرين والنطرون والخراج وما معه من ثمن القرظ وساحل السنط والمراكب الديوانية واشناوطنتدى، وأحيل ورثة أمير الجيوش على غير الحبس الذى لهم، ثم أفتى الفقهاء ببطلان الحبس، وقبضت النواحى، وصارت من جملة أموال الخراج. فعرفت ببلاد الملك، وهذه الضواحى الآن منها ما هو الديوان السلطانى وخراجها يتميز على غيرها من النواحى، ويزرع أكثرها من الكتان والمقائى وغيرها.

ذكر منيه الأمراء

قال ياقوت فى كتاب المشترك: المنيه ثلاثة وأربعون موضعاً وجميعها بمصر غير واحدة، وبمصر من القرى المسماه بهذا الأسم ما يقارب المائتين. قال: ومنيه الشيرج ويقال لها منيه الأمير ومنيه الأمراء بليدة فيها أسواق على فرسخ من القاهرة فى طريق الإسكندرية، وذكر الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة: أن قتلى أهل الشام الذين قتلوا فى وقعه الخندق بين مروان بن الحكم وعبدالرحمن بن جحدم أمير مصر فى سنة خمس وستين من الهجرة دفنوا حيث موضع منية الشبرج هذه وكانوا نحوا من الثمانمائة.

وقال ابن عبدالظاهر: منيه الأمراء من الحبس الجيوشى الشرقى الذى كان حبسه أمير الجيوش ثم ارتجع، وفى كل سنة يأكل البحر منها جانباً ويجدد جامعها ودررها حتى صار جامعها القديم ودورها فى بر الجيزة، وغلب البحر عليها، وهذه المنية من محاسن منتزهات القاهرة، وكانت قد كثرت العمائر بها واتخذها الساس منزل قصف، ودار لعب ولهو، ومغنى صبابات وبها كان يعمل عيدالشهيد الذى تقدم ذكره عند ذكر النيل من هذا الكتاب لقربها من ناحية شبرا، وبها سوق فى كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال، وهو من أسواق مصر المشهورة، وأكثر من كان يسكن بها النصارى، وكانت تعرف بعصر الخمر

وبيعه. حتى أنه لما عظمت زيادة ماء النيل فى ثمان عشرة وسبعمائة، وكانت الغرقة المشهورة، وغرقت شبرا والمنية تلف فيها من جرار الخمر ما نيف على ثمانين ألف جرة مملوأة بالخمر، وباع نصرانى واحد مرة فى يوم عيدالشهيد بها خمراً باثنى عشر ألف درهم فضة. عنها يومئذ نحو الستمائة دينار وكسر منها الأمير يلبغا السالمى فى صفر سنة ثلاث وثمانمائة ما ينيف على أربعين ألف جره مملوأة بالخمر.

وما برحت تغرق فى الأنيال العالية إلى أن عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة الجسر من بولاق إلى المنيه كما ذكر عند ذكر الجسور من هذا الكتاب. فأمن أهلها من الغرق، وأدركناها عامرة بكثرة المساكن والناس والأسواق والمناظر، وتقصد للنزهة بها أيام النيل والربيع. لاسيما فى يومى الجمعة والأحد فإنه كان للناس بها فى هذين اليومين مجتمع ينفق فيه مال كثير.

ثم لما حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة ألح المناسر بالهجوم عليها فى الليل وقتلوا من أهلها عدة. فارتحل الناس منها، وخلت أكثر دورها وتعطلت. حتى لم يبق بها سوى طاحون واحدة لطحن القمح. بعد ما كان بها ما ينيف على ثمانين طاحونة، وبها الآن بقية، وهى جارية فى الديوان السلطانى المعروف بالمفرد.

ذكر كوم الريش

هذا اسم لبلد فيما بين أرض البعل ومنيه الشيرج. كان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل، وأدركت آثار الجروف باقية من غربى البعل وغربى كوم الريش إلى أطراف المنية حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست وثمانمائة. ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة ونزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطبالة إلى المنية فانقطع هذا الدرب، وترك الناس سلوكه.

كان كوم الريش من أجل منتزهات القاهرة ورغب أعيان الناس فى سكناها للتنزه بها وأخبرنى شيخنا قاضى القضاه مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفى وخال أبى تاج الدين

إسماعيل بن أحمد بن الخطباء أنهما أدركا بكوم الريش عدة أمـراء يسكنون فيها دائما ، وأنه كان من جملة من يسكن فيها دائماً نحو الثمانمائة من الجند السلطانى ، وأنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعايش بأنواعها من المآكل . لا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة المآكل ، وأدركت بها حماماً وجامعين تقام بهما الجمعة ، وموقف مكارية ومنارة لايقدر الوصف أن يعبر عن حسنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق بهج ، وما برحت على ذلك إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع ، وجهلت طرقها وتغيرت معاهدها ، ونزل بها من الوحشة ما أبكانى وأنشدت فى رؤيتها عندما شاهدتها خرابا :

قفرا كأنك لم تكن تلهو بها

فى نعمة وأوانس أتراب

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة أن أخذه أليم شديد﴾(١)

ذكر بولاق

لقد تقدم فى غير موضع من هذا الكتاب أن ساحل النيل كان بالمقس ، وأن الماء انحسر بعد سنة سبعين وخمسمائة عن جزيرة عرفت بجزيرة الفيل ، وتقلص ماء النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس ، وصارت هناك رمال وجزائر ما من سنة إلا وهى تكثر حتى بقى ماء النيل لايمر بها إلا أيام الزيادة فقط ، وفى طول السنة ينبت هناك البوص والحلفاء وتنزل المماليك السلطانية لرمى النشاب فى تلك التلال .

الرمل فلما كان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة رغب الناس فى العمارة بديار مصر لشغف السلطان الملك الناصر بها ومواظبته عليها ، فكانما نودى فى القاهرة ومصر أن لايتأخر أحد من الناس عن إنشاء عمارة ، وجدَّ الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء .

---

(١) هود-آية ١٠٢-ك ١١ .

وصارت بولاق حينئذ تجاه بولاق التكرور يزرع فيها القصب والقلقاس على ساقيه تنقل الماء من النيل حيث جامع الخطيرى الآن فعمر هناك رجل من التجار منظرة، وأحاط جداراً على قطعة أرض غرس فيها عدة أشجار، وتردد إليها للنزهة.

فلما مات انتقلت إلى ناصر الدين محمد بن الجوكندار. فعمر الناس بجانبها دوراً على النيل، وسكنوا ورغبوا فى السكنى هناك. فامتدت المناظر على النيل من الدار المذكورة إلى جزيرة الفيل وتفاخروا فى انشاء القصور العظيمة، وغرسوا من ورائها البساتين، وأنشأ القاضى ابن المغربى رئيس الأطباء بستاناً اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو مائة ألف درهم فضة، وكثر التنافس بين الناس فى هذه الناحية، وعمروها حتى أنتظمت العمارة فى الطول على حافة النيل من منية الشيرج إلى موردة الحلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر، وعمر فى العرض على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق بحرى القاهرة إلى منشأة المهرانى، وبقيت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين وأحكاراً عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع وغيرها، وبلغت بساتين جزيرة الفيل خاصة ماينيف على مائة وخمسين بستاناً بعد ما كانت فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة نحو العشرين بستاناً.

وأنشأ القاضى الفاضل جلال الدين القزوينى وولده عبدالله دارا عظيمة على شاطئ النيل بجزيرة الفيل عند بستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب، وأنشأ الأمير عزالدين الخطيرى جامعه ببولاق على النيل، وأنشأ بجواره ربعين، وأنشأ القاضى شرف الدين بن زنبور بستاناً، وأنشأ القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ناظر الجيش بستاناً، وحكر الناس حول هذه البساتين، وسكنوا هناك ثم حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى ستة خمس وعشرين وسبعمائة فعمر الناس على جانبى هذا الخليج، وكان أول من عمر بعد حفر الخليج الناصرى المهاميزى أنشأ بستاناً ومسجداً هما موجودان إلى اليوم، وتبعه الناس فى العمارة حتى لم يبق فى جميع هذه المواضع مكان بغير عمارة، وبقى من يمر بها بتعجب إذ ما بالعهد من قدم بينا هى تلال رمل وحلافى إذ صارت بساتين ومناظر وقصوراً ومساجد وأسواقاً وحمامات وأزقة وشوارع.

وفى ناحية بولاق هذه كان خص الكيالة الذى يؤخذ فيه مكس الغلة إلى أن أبطله الملك الناصر محمد بن قلاوون. كما ذكر فى الروك الناصرى من هذا الكتاب، ولما كانت سنة ست وثمانمائة انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق، ولم يزل يبعد حتى صار على ما هو عليه الآن، وناحية بولاق الآن عامرة وتزايدت العمائر بها، وتجدد فيها عدة جوامع وحمامات ورباع وغيرها.

ذكر ما بين بولاق ومنشأة المهرانى

وكان فيما بين بولاق ومنشأة المهرانى خط فم الخور، وخط حكر ابن الأثير، وخط زريبة قوصون، وخط الميدان السلطانى بموردة الملح، وخط منشأة السكنية.

فأما فم الخور فكان فيه من المناظر الجليلة الوصف عدة تشرف على النيل ومن ورائها البساتين، ويفصل بين البساتين والدور المطلة على النيل شارع مسلوك، وأنشئ هناك حمام وجامع وسوق، وقد تقدم ذكر الخور، وأنشأ هناك القاضى علاء الدين بن الأثير دارا على النيل، وكان إذ ذاك كاتب السر، وبنى الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير، واتصلت العمارة من بولاق إلى فم الخور ومن فم الخود إلى حكر ابن الأثير ومابرح فيه من مساكن الأكابر من الوزراء والأعيان ومن الدور العظيمة ما يتجاوز الوصف.

وأما الزريبة فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما وهب البستان الذى كان بالميدان الظاهرى للأمير قوصون أنشأ قدامه على النيل زريبة ووقفها. فعمر الناس هناك حتى انتظمت العمارة من حكر ابن الأثير الى الزريبة، وعمر هناك حمام وسوق كبير وطواحين وعدة مساكن اتصلت باللوق.

وأما زريبة السلطان فإن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما عمر ميدان المهارى المجاور لقناطر السباع الآن أنشأ زريبه فى قبلى الجامع الطيبرسى، وحفر لأجل بناء هذه الزريبة البركة المعروفة الآن بالبركة الناصرية، حتى استعمل طينها فى البناء، وأنشأ فوق هذه الزريبة

دارا، وكالة وربعين عظيمين جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس، وأنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى. فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمامين إحداهما برسم الرجال والأخرى برسم النساء. فكثر بناء الناس فيما هنالك حتى اتصلت العمارة من بحرى الجامع الطيبرسى بزريبة قوصون، وصار هناك أزقة وشوارع ودروب ومساكن من وراء المناظر المطلة على النيل تتصل بالخليج.

وأكثر الناس من البناء فى طريق الميدان السلطانى فصارت العمائر منتظمة من قناطر السباع إلى الميدان من جهاته كلها، وتنافس الناس فى تلك الأماكن وتغالوا فى أجرها وعمر المسكين إبراهيم بن قزوينة ناظر الجيش فى قبلى زريبة السلطان. حيث كان بستان الخشاب دارا جليلة، وعمر أيضاً صلاح الدين الكحال والصاحب أمين الدين عبدالله بن الغنام وعدة من الكتاب. فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب، وأنشأ فيها الصاحب أمين الدين خانقاه بجوار داره، وعمر أيضاً كريم الدين الصغير حتى اتصلت العمارة بمنشأة المهرانى. فصار ساحل النيل من خط دير الطين قبلى مدينة مصر إلى منية الشيرج بحرى القاهرة مسافة لاتقصر عن أزيد من نصف بريد بكثير. كلها منتظمة بالمناظر العظيمة والمساكن الجليلة والجوامع والمساجد والخوانك والحمامات وغيرها من البساتين. لاتجد فيما بين ذلك خرابا ألبتة.

وأنتظمت العمارة من وراء الدور المطلة على النيل حتى أشرفت على الخليج، فبلغ هذا البر الغربى من وفور العمارة وكثرة الناس وتنافسهم فى الإقبال على اللذات، وتأنقهم فى الانهماك فى المسرات مالا يمكن وصفه، ولايتأتى شرحه حتى إذا بلغ الكتاب أجله وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة، وتقلص ماء النيل عن البر الشرقى، وكثرت حاجات الناس وضروراتهم، وتساهل قضاة المسلمين فى الاستبدال فى الأوقاف وبيع نقضها. اشترى شخص الربعين والحمامين ودار الوكالة التى ذكرت على زريبة السلطان بجوار الجامع الطيبرسى فى سنة سبع وثمانمائة، وهدم ذلك كله، وباع أنقاضه وحفر الأساسات واستخرج ما فيها من الحجر وعمله جيراً، فنال من ذلك ربحاً كثيراً.

وتتابع الهدم فى شاطئ النيل، وباع الناس أنقاض الدور. فرغب فى شرائها الأمراء والأعيان وطلاب الفوائد من العامة، حتى زال جميع ماهنالك من الدور العظيمة والمناظر

الجليلة، وصار الساحل من منشأة المهرانى إلى قريب من بولاق كيمانا موحشة وخرائب مقفرة كأن لم تكن مغنى صبابات وموطن أفراح وملعب أتراب ومرتع غزلان تفتن النساك هناك، وتعيد الحليم سفيها سنة الله فى الذين خلوا من قبل وإنى إذا تذكرت ماصارت إليه أنشد قول عبدالله بن المعتز.

سلام على تلك المعاهد والربا

سلام وداع لاسلام قدوم

وصار بهذا العهد ما بين أول بولاق من قبليه إلى أطراف جزيرة الفيل عامرا أمن غربيه المفضى إلى النيل، ومن شرقيه الذى ينتهى إلى الخليج. إلا أن النيل قد نشأت فيه جزائر ورمال بعد بها الماء عن البر الشرقى، وكثير العناء لبعده، وفى كل عام تكثر الرمال، ويبعد الماء عن البر ولله عاقبه الأمور. فهذا حال الجهة الغربية من ظواهر القاهرة فى ابتداء وضعها وإلى وقتنا هذا. وبقى من ظواهر القاهرة الجهة القبلية والجهة البحرية، وفيهما أيضاً عدة أخطاط تحتاج إلى شرح وتبيان، والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر خارج باب زويلة

أعلم أن خارج باب زويلة جهتان. جهة تلى الخليج، وجهة تلى الجبل. فأما الجهة التى تلى الخليج فقد كانت عند وضع القاهرة بساتين كلها فيما بين القاهرة إلى مصر. وعندى فيما ظهرلى أن هذه الجهة كانت فى القديم غامرة بماء النيل، وذلك أن لاخلاف بين أهل مصر قاطبة أن الأراضى التى هى من طين أبليز لاتكون إلا من أرض ماء النيل. فإن أرض مصر تربة رملة سبخة وما فيها من الطين طرح. . يعلوها عند زيادة ماء النيل مما يحمله من البلاد الجنوبية من مسيل الأودية. فلذلك يكون لون الماء عند الزيادة متغير. فإذا مكث على الأرض قعد ما كان فى الماء من الطين على الأرض. فسماء أهل مصر ابليزا، وعليه تزرع الغلال وغيرها.

ومالا يشمله ماء النيل من الأرض لايوجد فيه هذا الطين ألبتة، وأنت إن عرفت أخبار مصر بتأملك ما تضمنه هذا الكتاب ظهر لك أن موضع جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه كان كروماً مشرفة على النيل، وأن النيل انحسر بعد الفتح عما كان تجاه الحصن الذى يقال له قصر الشمع، وعما هو الآن تجاه الجامع. ومازال ينحسر شيئاً بعد شئ حتى صار الساحل بمصر من عند سوق المعاريج الآن إلى قريب من السبع سقايات، وما يقابل ذلك من بر الخليج الغربى كان غامراً بالماء كما تقدم.

وكان فى الموضع الذى تجاه المشهد المعروف بزيد، وتسميه العامة الآن مشهد زين العابدين بساتين شرقيها عند المشهد النفيسى، وغربها عند السبع سقايات. منها بساتين عرفت بجنان بنى مسكين، وعندها بنى كافور الأخشيدى داره على البركة التى تجاه الكبش، وتعرف اليوم ببركة قارون، ومنها بستان يعرف ببستان ابن كيسان، ثم صار صاغة، وهو الآن يعرف ببستان الطواشى.

ومنها بستان عرف آخراً بجنان الحارة. وهو من حوض الدمياطى الذى بقرب قنطرة السد الآن إلى السبع سقايات، وبقرب السبع سقايات بركة الفيل، ويشرف على بركة الفيل بساتين من دائرها وإلى وقتنا هذا عليها بستان يعرف بالحبانية وهم بطن من درما بن عمرو بن عوف بن ثعلبة بن سلامان بن بعل بن عمرو بن الغوث بن طى. فدرما فخذ من طى، والحبانيون بطن من درما، وبستان الحبانية فصل الناس بينه وبين البركة بطريق تسلك فيها المارة وكان من شرقى بركة الفيل أيضاً بساتين. منها بستان سيف الإسلام فيما بين البركة والجبل، الذى عليه الآن قلعة الجبل وموضعه الآن المساكن التى من جملها درب ابن الباب إلى زقاق حلب وحوض ابن هنس وعدة بساتين أخر إلى باب زويلة.

وكذلك شقة القاهرة الغربية كانت أيضاً بساتين فموضع حارة الوزيرية إلى الكافورى كان ميدان الإخشيد وجانب الميدان بستانه الذى يقال له اليوم الكافورى، وماخرج عن باب الفتوح إلى منيه الأصبغ الذى يعرف اليوم بالخندق كان ذلك كله بساتين على حافة الخليج الشرقية، وقد ذكرت هذه المواضع فى هذا الكتاب مبينة.

وعند التأمل يظهر أن الخليج الكبير عند ابتداء حفره كان أوله إما عند مدينة عين شمس، أو من بحريها لأجل أن القلعة التى بجانب هذا الخليج من غربيه، والقطعة التى هى بشرقيه

فيما بين عين شمس وموردة الحلفاء خارج مدينة فسطاط مصر جميعها طين إبليز، والطين المذكور لايكون إلا من حيث يمر ماء النيل. فتعين أن ماء النيل كان فى القديم على هذه الأرض التى يجانبى الخليج فينتج أن أول الخليج. كان عند آخر النيل من الجهة البحرية رملاً لاطين فيه، وهذا بين لمن تأمله وتدبره، وفى هذه الجهة التى تلى الخليج خارج باب زويلة حارات قد ذكرت عند ذكر الحارات من هذا الكتاب وبقيت هناك أشياء نحتاج أن نعرف بها وهى.

حوض ابن هنس

وهو حوض ترده الدواب، وينقل إليه الماء من بئر، وبه صارت تلك الخطة تعرف، وهى تلى حارة حلب، ويسلك إليها من جانبه. وهو وقف الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير بدر الدين هنس بن عبدالله أحد الحجاب الخاص فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سلخ شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة، وعمل بأعلاه مسجداً مرتفعاً وساقية ماء على بئر معين، ومات يوم البت عاشر شوال سنة سبع وأربعين وستمائة، ودفن بجوار الحوض.

وكان هذا الحوض قد تعطل فى عصرنا فجدده الأمير تتر أحد الأمراء الكبار فى الدولة المؤيدية فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة ومات هنس أمير جندار السلطان الملك العزيز عثمان فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.

مناظر الكبش

هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى. مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون عند الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون. أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع وأربعين وستمائة، وكان حينئذ ليس على بركة الفيل بناء ولا فى المواضع التى فى بر الخليج الغربى من قنطرة السباع إلى المقس سوى البساتين.

وكانت الأرض التى من صليبة جامع ابن طولون إلى باب زويلة بساتين، وكذلك الأرض التى من قناطر السباع إلى باب مصر بجوار الكبارة ليس فيها إلا البساتين. وهذه المناظر تشرف على ذلك كله من أعلى جبل يشكر، وترى باب زويلة والقاهرة، وترى باب مصر ومدينة مصر، وترى قلعة الروضة، وجزيرة الروضة، وترى بحر النيل الأعظم وبر الجيزة، فكانت من أجل منتزهات مصر، وتأنق فى بنائها، وسماها الكبش فعرفت بذلك إلى اليوم.

ومازالت بعد الملك الصالح من المنازل الملوكية، وبها أنزل الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى لما وصل من بغداد إلى قلعة الجبل، وبايعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بالخلافة. فأقام بها مدة، ثم تحول منها إلى قلعة الجبل، وسكن بمناظر الكبش أيضاً الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان فى أول خلافته وفيها أيضاً كانت ملوك حماه من بنى أيوب تنزل عند قدومهم إلى الديار المصرية.

وأول من نزل منهم فيها الملك المنصور لما قدم على الملك الظاهر بيبرس فى المحرم سنة ثلاث وسبعين وستمائة، ومعه ابنه الملك الأفضل نور الدين على، وابنه الملك المظفر تقى الدين محمود. فعند ما حل بالكبش أتاه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى بالسماط. فمده بين يديه، ووقف كما يفعل بين يدى الملك الظاهر. فامتنع الملك المنصور من الرضا بقيامه على السماط، ومازال به حتى جلس ثم وصلت الخلع والمواهب إليه وإلى ولده وخواصه.

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة أنزل بهذه المناظر نحو ثلاثمائة من مماليك الأشرف خليل بن قلاوون عند ماقبض عليهم بعد قتل الأشرف المذكور، ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون هدم هذه المناظر المذكورة فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وبناها بناء آخر، وأجرى الماء إليها، وجدد بها عدة مواضع، وزاد فى سعتها وأنشأ بها اصطبلاً تربط فيه الخيول، وعمل زفاف ابنته على ولد الأمير أرغون نائب السلطنة بديار مصر بعد ماجهزها جهازاً عظيماً منه بشخاناه وداير بيت وستارات. طرز ذلك ثمانين ألف مثقال ذهب مصرى. سوى ما فيه من الحرير وأجره الصناع، وعمل سائر الأوانى من ذهب وفضة. فبلغت زنة

الأوانى المذكورة ماينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب. وتناهى فى هذا الجهاز وبالغ فى الإنفاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة. فإنها كانت أول بناته.

ولما نصب جهازها بالكبش نزل من قلعة الجبل وصعد إلى الكبش وعاينه ورتبه بنفسه واهتم فى عمل العرس اهتماماً ملوكياً، وألزم الأمراء بحضوره فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور، ونقط الأمراء الأغانى عن مراتبهم من أربعمائة دينار كل أمير إلى مائتى سوى الشقق الحرير، واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها. فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه حتى حصل لكل جوق من جوق الأغانى اللاتى كن فيه خمسمائة دينار مصرية، ومائة وخمسون شقة حرير، وكان عدة جوق الأغانى التى قسم عليهن ثمان جوق من أغانى القاهرة، سوى جوق الأغانى السلطانية، وأغانى الأمراء وعدتهن عشرون جوقة. لم يعرف ما حصل لهذه العشرين جوقة من كثرة ما حصل.

ولما أنقضت أيام العرس أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بتعبية قماش على مقدارها وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والكتاب وغيرهم. فكان مهما عظيماً تجاوز المصروف فيه حد الكثرة، وسكن هذه المناظر أيضاً الأمير صرغتمش فى أيام السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وعمر الباب الذى هو موجود الآن، وبدنتى الحجر اللتين بجانبى باب الكبش بالحدرة.

ثم إن الأمير يلبغا العمرى المعروف بالخاصكى سكنه إلى أن قتل فى سنة ثمان وستين وسبعمائة، فسكنه من بعده الأمير استدمر إلى أن قبض عليه الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، وأمر بهدم الكبش فهدم وأقام خراباً. لا ساكن فيه إلى سنة خمس وسبعين وسبعمائة. فحكره الناس وبنوافيه مساكن. وهو على ذلك إلى اليوم.

خط درب ابن البابا

هذا الخط يتوصل إليه من تجاه المدرسة البندقدارية بجوار حمام الفارقانى ، ويسلك فيه إلى خط واسع يشتمل على عدة مساكن جليلة ، وبتوصل منه إلى الجامع الطولونى وقناطر السباع وغير ذلك ، وكان هذا الخط بستاناً يعرف ببستان أبى الحسين بن مرشد الطائى ، ثم عرف ببستان نامش ، ثم عرف أخيراً ببستان سيف الإسلام طفتكين بن أيوب ، وكان يشرف على بركة الفيل وله دهاليز واسعة عليها جواسق تنظر إلى الجهات الأربع ، ويقابله حيث الدرب الآن المدرسة البندقدارية وما فى صفها إلى الصليبة بستان يعرف ببستان الوزير ابن المغربى .

وفيه حمام مليحه ، ويتصل ببستان ابن المغربى بستان عرف أخيراً ببستان شجرة الدر ، وهو حيث الآن سكن الخلفاء بالقرب من المشهد النفيسى ، ويتصل ببستان شجرة الدر بساتين إلى حيث الموضع المعروف اليوم بالكبارة من مصر ، ثم إن بستان سيف الإسلام . حكره أمير يعرف بعلم الدين الغتمى فبنى الناس فيه الدور فى الدولة التركية ، وصار يعرف بحكر الغتمى .

وهو الآن يعرف بدرب ابن البابا ، وهو الأمير الجليل الكبير جنكلى بن محمد بن البابا بن جنكلى بن خليل بن عبدالله بدر الدين العجلى رأس الميمنة ، وكبير الأمراء الناصرية محمد بن قلاوون بعد الأمير جمال الدين نائب الكرك . قدم إلى مصر فى أوائل سنة أربع وسبعمائة بعدما طلبه الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، ورغبة فى الحضور إلى الديار المصرية وكتب له منشوراً بإقطاع جيد ، وجهز إليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان مقامة بالقرب من آمد ، فأكرمه وعظمه ، وأعطاه إمرة ، ولم يزل مكرما معظماً ، وفى آخر وقته بعد خروج الأمير أرغون النائب من مصر كان السلطان يبعث إليه الذهب مع الأمير بكتمر الساقى وغيره ، ويقول له لاتبس الأرض على هذا ، ولاتنزله فى ديوانك ، وكان أولاً يجلس رأس الميمنة ثانى نائب الكرك . فلما سار نائب الكرك لنيابة طرابلس جلس الأمير جنكلى رأس الميمنة ، وزوج السلطان ابنه إبراهيم بن محمد بن قلاوون بابنه الأمير بدر الدين .

ومازال معظماً فى كل دولة بحيث إن الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون كتب له عنه الأتابكى الوالدى البدرى وزادت وجاهته فى أيامه، إلى أن مات يوم الأثنين سابع عشر ذى الحجة سنة ست وأربعين وسبعمائة، وكان شكلاً مليحاً حليماً كثير المعروف والجود. عفيفاً لايستخدم مملوكاً أمرد ألبته واقتصر من النساء على أمراته التى قدمت معه إلى مصر، ومنها أولاده، وكان يحب العلم وأهله ويطارح بمسائل علمية، ويعرف ربع العبادات ويجيده، ويتكلم على الخلاف فيه، ويميل إلى الشيخ تقى الدين أحمد بن تيمية، ويعادى من يعاديه ويكرم أصحابه ويكتب كلامه. مع كثرة الإحسان إلى الناس بماله وجاهه، وكان ينتسب إلى إبراهيم ابن أدهم، وهو من محاسن الدولة التركية رحمه الله.

حكر الخازن

هذا المكان فيما بين بركة الفيل وخط الجامع الطولونى. كان من جملة البساتين ثم صار اصطبلاً للجوق الذى فيه خيول المماليك السلطانية. فلما تسلطن الملك العادل كتبغا أخرج منه الخيول، وعمله ميداناً يشرف على بركة الفيل فى سنة خمس وتسعين وستمائة، ونزل إليه ولعب فيه بالأكره أيام سلطنته كلها، إلى أن خلعه الملك المنصور لاجين، وقام فى الملك من بعده. فأهمل أمره وعمر فيه الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة بيتاً. فعرف من حينئذ بحكر الخازن، وتبعه الناس فى البناء هناك، وأنشأوا فيه الدور الجليلة. فصار من أجل الأخطاط وأعمرها، وأكثر من يسكن به الأمراء والمماليك.

سنجر الخازن

الأمير علم الدين الأشرفى أحد مماللك الملك المنصور قلاوون، وتنقل فى أيام ابنه الملك الأشرف خليل، وصار أحد الخزان. فعرف بالخازن، ثم ولى شد الدواوين مع الصاحب أمين الدين، وانتقل منها إلى ولاية البهنسا، ثم إلى ولاية القاهرة وشد الجهات. فباشر ذلك

بعقل وسياسة وحسن خلق وقلة ظلم ومحبة للستر . وتغافل عن مساوى الناس وإقالة عثرات ذوى الهيآت مع العصبية والمعرفة وكثرة المال وسعة الحال ، واقتناء الأملاك الكثيرة ، ثم إنه صرف عن ولاية القاهرة بالأمير قدادار فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة فوجد الناس من عزله بقدادار شدة ، ومازال بالقاهرة إلى أن مات ليلة السبت ثامن جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة فوجد له أربعة عشر ألف إردب غلة عتيقة ، وأموال كثيرة ، وله من الآثار مسجد بناء فوق درب استجده بحكر الخازن وخانقاه بالقرافة دفن فيها عفا الله عنه .

ربع البزادرة

هذا الربع تحت قلعة الجبل بسوق الخيل عمر بعد سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وكان مكانه لاعمارة فيه . فبنى الأجناد بجواره عدة مساكن ، واستجدوا حكرين من جواره . فامتدت العمائر إلى تربة شجرة الدر . حيث كان البستان المعروف بشجرة الدر . وهناك الآن سكن الخلفاء ، وامتدت العمائر من تربة شجرة الدر إلى المشهد النفيسى ، ومروراً من تجاه المشهد بالعمائر إلى أن اتصلت بعمائر مضر وباب القرافة .

خط قناطر السباع

كان هذا الخط فى أول الإسلام يعرف بالحمراء . نزل فيه طائفة تعرف ببنى الأزرق وبنى روبيل ، ثم دثرت هذه الخطة وبقيت صحراء فيها ديارات وكنائس للنصارى تعرف بكنائس الحمراء . فلما زالت دولة بنى أمية ، ودخل أصحاب بنى العباس إلى مصر فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة نزلوا فى هذه الخطة وعمروابها . فصارت تتصل بالعسكر ، وقد تقدم خبر العسكر فى هذا الكتاب .

فلما خرب العسكر وصار هذا المكان بساتين وغيرها إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية وأنشأ ميدان المهارى والزريبة والربعين بجوار الجامع الطيبرسى على شاطئ النيل بنى الناس فى حكر أقبغا، واتصلت. وذلك كله من بعد سنة عشرين وسبعمائة.

بئر الوطاويط

هذه البئر أنشأها الوزير أبوالفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات المعروف بأبن خترابه. لينقل منها الماء إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين التى كانت بخط الحمراء وكتب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم. لله الأمر من قبل ومن بعد وله الشكر وله الحمد، ومنه المن على عبده جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات وما وفقه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين، وحبسه وسبله وقفاً مؤبداً لايحل تغييره ولا العدول بشئ من مائة، ولاينقل ولايبطل، ولايساق إلا إلى حيث مجراه إلى السقايات المسبلة. فمن بدله بعد ماسمعه فإنما أثمة على الذين يبدلونه أن الله سميع عليم، وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وصلى الله على نبيه محمد وآله وسلم.

فلما طال الأمر خربت السقايات. وإلى اليوم يعرف موضعها بخط السبع سقايات وبنى فوق البر المذكور وتولد فيها كثير من الوطاويط. فعرفت ببئر الوطاويط، ولما أكثر الناس من بناء الأماكن فى أيام الناصر محمد بن قلاوون عمر هذا المكان، وعرف إلى اليوم بخط بئر الوطاويط، وهو خط عامر فهذا ما فى جهة الخليج، مما خرج عن باب زويلة.

وأما جهة الجبل فإنها كانت عند وضع القاهرة صحراء، وأول من أعلم أنه عمر خارج باب زويلة من هذه الجهة الصالح طلائع بن رزيك. فإنه أنشأ الجامع الذى يقال له جامع الصالح، ولم يكن بين هذا الجامع وبين هذا الشرف الذى عليه الآن قلعة الجبل بناء البتة. إلا أن هذا الموضع الآن عمل الناس فيه مقبرة فيما بينه جامع الصالح وبين هذا الشرف، من حين بنيت الحارات خارج باب زويلة. فلما عمرت قلعة الجبل عمر الناس بهذه الجهة شيئاً بعد شئ، وما برح من بنى هناك يجد عند الحفر رم الأموات.

وقد صارت هذه الجهة فى الدولة التركية . لاسيما بعد سنة ثلاث عشرة وسبعمائة من أعمر الأخطاط ، وأنشأ فيها الأمراء الجوامع والدور الملوكية وتجددت هناك عدة أسواق ، وصار الشارع خارج باب زويلة يفصل بين هذه الجهة وبين الجهة التى من حد الخليج . وكلتا هاتين الجهتين الآن عامرة ، وفى جهة الجبل خط البسطيين وخط الدرب الأحمر وخط سوق الغنم وخط جامع الماردينى وخط التبانة وخط باب الوزير ، وخط المصنع وخط سويقة العزى ، وخط مدرسة الجابى ، وخط الرميلة وخط القيبات ، وخط باب القرافة .

ذكر خارج باب الفتوح

أعلم أن خارج باب الفتوح إلى الخندق كان كله بساتين ، وتمتد البساتين من الخندق بحافتى الخليج إلى عين شمس . فيقابل باب الفتوح من خارجه المنظره المقدم ذكرها عند ذكر المناظر التى كانت للخلفاء من هذا الكتاب ، ويلى هذه المنظرة بستان كبير عرف بالبستان الجيوشى أوله من عند زقاق الكحل إلى المطرية ويقابله فى بر الخليج الغربى بستان آخر يتوصل إليه من باب القنطرة وينتهى إلى الخدنق .

وقد ذكر خبر هذين البستانين عند مناظر الخلفاء وكان بين هذين البستانين بستان الخندق ، وكان على حافة الخليج من شرقيه فيما بين زقاق الكحل وباب القنطرة حيث المواضع التى تعرف اليوم ببركة جناق وبالكداسين إلى قريب من حارة بهاء الدين حارة تعرف بحارة البيازرة . اختطت فى نحو من سنة عشرين وخمسمائة .

وكانت مناظرها تشرف على الخليج وبجوارها بستان مختار الصقلى ، وعرف بعد ذلك ببستان أبن صيرم . الذى حكر وبنيت فيه المساكن الكثيرة بعد ذلك ، وكان أيضاً خارج باب الفتوح حارة الحسينية وهم الريحانية . أحدى طوائف عسكر الخلفاء الفاطميين ، وهذه الحارة اختطت بعد الشدة العظمى التى كانت بمصر فى خلافه المستنصر . فصارت على يمين من خرج من باب الفتوح إلى صحراء الهليلج ، ويقابلها حارة أخرى تنتهى إلى بركة الأرمن التى عند الخندق ، وتعرف اليوم ببركة قراجا ، وقد ذكرت هذه الحارات عند ذكر حارات القاهرة وظواهرها من هذا الكتاب .

ذكر الخندق

هذه الموضع قرية خارج باب الفتوح . كانت تعرف أولاً بمنيه الأصبغ ، ثم لما اختط القائد جوهر القاهرة أمر المغاربة أن يحفروا خندقاً من جهة الشام من الجبل إلى الأبلبز عرضه عشرة أذرع فى عمق مثلها . فبدئ به يوم السبت حادى عشرى شعبان سنة ستين وثلاثمائة وفرغ فى أيام يسيرة ، وحفر خندقاً آخر قدامه ، وعمقه ونصب عليه بابا يدخل منه ، وهو الباب الذى كان على ميدان البستان الذى للأخشيد ، وقصد أن يقاتل القرامطة من وراء هذا الخندق . فقيل له من حينئذ الخندق ، وخندق العبيد والحفره ، ثم صار بستاناً جليلاً من جملة البساتين السلطانية فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وأدركناها من منتزهات القاهرة البهجة إلى أن خربت .

قال ابن عبدالحكم : وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أقطع ابن سندر منيه الأصبغ فحاز لنفسه منها ألف فدان كما حدثنا يحيى بن خالد عن الليث ابن سعد رضى الله عنه ، ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقطع أحداً من الناس شيئاً من أرض مصر إلا ابن سندر . فإنه أقطعه منيه الأصبغ . فلم تزل له حتى مات فاشتراها الأصبغ بن عبدالعزيز من ورثته . فليس بمصر قطعية أقدم منها ولا أفضل .

وكان سبب إقطاع عمر رضى الله عنه ما أقطعه من ذلك كما حدثنا عبدالملك بن مسلمة عن أبن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه كان لزنباع بن روح الجذامى غلام يقال له سندر فوجده يقبل جارية له . فجبه وجدع أنفه وأذنه فأتى سندر رسول الله ﷺ فأرسل إلى زنباع . فقال لا تحملوهم من العمل مالا يطيقون ، وأطعموهم مما تأكلون ، والبسوهم مما تلبسون ، فإن رضيتم فأمسكوا ، وأن كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله ، ومن مثل به أو أحرق بالنار فهو حر ، وهو مولى الله ورسوله . فأعتق سندر . فقال : أوص بى يارسول الله . قال رسول الله ﷺ أوصى بك كل مسلم .

فلما توفى رسول الله ﷺ أتى سندر أبا بكر رضى الله عنه فقال: أحفظ فى وصية رسول الله ﷺ فعاله أبو بكر رضى الله عنه حتى توفى ثم أتى عمر رضى الله عنه فقال: احفظ فى وصية رصول الله ﷺ فقال عمر رضى الله عنه نعم أن رضيت أن تقيم عندى أجريت عليك ما كان يجرى عليك أبوبكر رضى الله عنه، وإلا فأنظر أى موضع أكتب لك. فقال سندر: مصر لأنها أرض ريف. فكتب له إلى عمرو بن العاص: أحفظ فيه وصية رسول الله ﷺ فلما قدم إلى عمرو رضى الله عنه أقطع له أرضاً واسعة وداراً. فجعل سندر يعيش فيها فلماً مات قبضت فى مال الله تعالى قال عمرو بن شعيب: ثم أقطعها عبدالعزيز بن مروان الأصبغ بعد. فهى من خير أموالهم.

قال ويقال سندر وابن سندر وقال ابن يونس مسروح بن سندر الخصى، مولى زنباع بن روح بن سلامة الجذامى. يكنى أبا الأسود له صحبه قدم مصر بعد الفتح بكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالوصاة. فأقطع منية الأصبغ بن عبدالعزيز. روى عنه أهل مصر حديثين. روى عنه مزيد بن عبدالله البرنى وربيعة بن لقيط التجيبى، ويقال سندر الخصى وابن سندر أثبت، توفى بمصر فى أيام عبدالعزيز بن مروان، ويقال كان مولاه وجده يقبل جارية، فجبه وجدع أنفه وأذنيه. فأتى إلى رسول الله ﷺ فشكا ذلك إليه. فأرسل رسول الله ﷺ إلى زنباع. فقال: لاتحملوهم يعنى العبيد مالا يطيقون، وأطعموهم مما تأكلون. فذكر الحديث بطوله.

وذكر عن عثمان بن سويد بن سندر أنه أدرك مسروح بن سندر الذى جدعه زنباع بن روح، وكان جده لأمه. فقال كان ربما تغذى معى بموضع من قرية عثمان، واسمها سمسم، وكان لابن سندر إلى جانبها قرية يقال لها قاون قطيعة، وكان له مال كثير من رقيق وغير ذلك، وكان ذا دهاء منكراً جسيماً، وعمر حتى أدرك زمان عبدالملك بن مروان وكان لروح بن سلامة أبى زنباع فورثة أهل التعدد بروح يوم مات.

وقال القضاعى: مسروح بن سندر الخصى، ويكنى أبا الأسود له صحبة، ويقال له سندر. دخل مصر بعد الفتح سنة اثنتين وعشرين. وقال الكندى فى كتاب الموالى قال: أقبل عمرو بن العاص رضى الله عنه يوماً يسير وابن سندر معه، فكان ابن سندر ونفر معه

يسيرون بين يدى عمرو بن العاص رضى الله عنه وأثاروا الغبار. فجعل عمرو عمامته على طرف أنفه ثم قال: أتقوا الغبار فإنه أوشك شئ دخولا وأبعده خروجا، وإذا وقع على الرئه صار نسمة. فقال بعضهم لاولئك النفر: تنحوا. ففعلوا إلا ابن سندر. فقيل له ألا تتنحى يا ابن سندر؟ فقال عمرو: دعوه. فإن غبار الخصى لايضر فسمعها ابن سندر فغضب. وقال: أما والله لو كنت من المؤمنين ما آذيتنى. فقال عمر: يغفر الله لك. أنا بحمد الله من المؤمنين. فقال ابن سندر: لقد علمت أنى سألت رسول الله ﷺ أن يوصى بى فقال: أوصى بك كل مؤمن.

وقال ابن يونس أصبغ بن عبدالعزيز بن مروان ابن الحكم يكنى أبا ريان حكى عنه أبو حبره عبدالله بن عباد المغافرى، وعون بن عبدالله وغيره. توفى ليلة الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثمانين قبل أبيه. وقال أبوالفرج على بن الحسين الأصبهانى فى كتاب الأغانى الكبير عن الرياشى أنه قال عن سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام أن أبا عذرتها عبدالله بن الحسن بن على، ثم خلفه عليها العثمانى، ثم مصعب بن الزبير، ثم الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان قال: وكان يتولى مصر فكتبت إليه سكينة إن مصر. أرض وخمة. فبنى لها مدينة تسمى بمدينة الأصبغ، وبلغ عبدالملك تزوجه أياها فنفس بها عليه، وكتب إليه: أختر مصر أو سكينة فبعث إليه بطلاقها، ولم يدخل بها ومتعها بعشرين ألف دينار. قلت فى هذا لاخبر أوهام. منها أن الأصبغ لم يل مصر، وإنما كان مع أبيه عبدالعزيز بن مروان، ومنها أن الذى بناه الأصبغ لسكينه منية الأصبغ هذه، وليست مدينة، ومنها أن الأصبغ لم يطلق سكينة وإنما مات عنها قبل أن يدخل عليها.

وقال ابن زولاق فى كتاب إتمام كتاب الكندى فى أخبار أمراء مصر: وفى شوال - يعنى من سنة ستين وثلاثمائة كثر الإرجاف بوصول القراطمة إلى الشام ورئيسهم الحسن ابن محمد الأعسم، وفى هذا الوقت ورد الخبر بقتل جعفر بن فلاح. قتله القرامطة بدمشق. ولما قتل ملكت القرامطة دمشق، وصاروا إلى الرملة فانحاز معاذ بن حيان إلى يافا متحصناً بها.

وفى هذا الوقت تأهب جوهر القائد لقتال القرامطة وحفر خندقاً وعمل عليه باباً ونصب عليه بابى الحديد اللذين كانا على ميدان الإخشيد، وبنى القنطرة على الخليج وحفر خندق

السرى بن الحكم، وفرق السلاح على رجال المغاربة والمصريين، ووكل بأبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات خادماً يبيت معه فى داره، ويركب معه حيث كان. وأنفذ إلى ناحية الحجاز فتعرف خبر القرامطة.

وفى ذى الحجة كبس القرامطة القلزم، وأخذوا واليها، ثم دخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة. وفى المحرم بلغت القرامطة عين شمس. فاستعد جوهر للقتال لعشر بقين من صفر، وغلق أبواب الطابة، وضبط الداخل والخارج وأمر الناس بالخروج إليه، وأن يخرج الأشراف كلهم. فخرج إليه أبو جعفر مسلم وغيره بالمضارب.

وفى مستهل ربيع الأول التحم القتال مع القرامطة على باب القاهرة، وكان يوم جمعة، فقتل من الفريقين جماعة وأسر جماعة وأصبحوا يوم السبت متكافئين، ثم غدوا يوم الأحد للقتال وسار الحسن الأعسم بجميع عساكره، ومشى للقتال على الخندق والباب مغلق. فلما زالت الشمس فتح جوهر الباب واقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل خلق كثير ثم ولى الأعسم منهزماً، ولم يتبعه القائد جوهر ونهب سواد الأعسم بالجب، ووجدت صناديقه وكتبه، وانصرف فى الليل على طريق القلزم ونهب بنو عقيل وبنو طى كثيراً من سواده وهو مشغول بالقتال.

وكان جميع ما جرى على القرمطى بتدبير جوهر وجوائز أنفذها. ولو أراد أخذ الأعسم فى أنهزامه لأخذه، ولكن الليل حجز. فكره جوهر اتباعه خوفاً من الحيلة والمكيدة، وحضر القتال خلق من رعية مصر، وأمر جوهر بالنداء فى المدينة من جاء بالقرمطى أو برأسه فله ثلاثمائة ألف درهم وخمسون خلعة وخمسون سرجاً محلى على دوابها، وثلاث جوائز. ومدح بعضهم القائد جوهراً بأبيات منها.

كأن طراز النصر فوق جبينه

يلوح وأرواح الورى بيمينه

ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة. ومنها فارقهم من كان قد اجتمع اليهم من الكافورية والأخشيدية. فقبض جوهر على نحو الألف منهم وسجنهم مقيدين.

وقال ابن زولاق فى كتاب سيرة الإمام المعز لدين الله، ومن خطه نقلت: وفى هذا الشهر يعنى المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة تبسطت المغاربة فى نواحى القرافة والمغابر وما قاربها. فنزلوا فى الدور، وأخرجوا الناس من دورهم، ونقلوا السكان، وشرعوا فى السكنى فى المدينة، وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة. فخرج الناس وأستغاثوا بالمعز. فأمرهم أن يسكنوا نواحى عين شمس، وركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع التى ينزلون فيها، وأمر لهم بمال يبنون به.

وهو الموضع الذى يعرف اليوم بالخندق والحفرة وخندق العبيد، وجعل لهم والياً وقاضياً، ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر. ولم يكن القائد جوهر يبيحهم سكنى المدينة ولا المبيت بها، وحظر ذلك عليهم، وكان منادية ينادى كل عشية: لايبيتن أحد فى المدينة من المغاربة. وقال ياقوت: منيه الأصبغ تنسب إلى الأصبغ ابن عبدالعزيز بن مروان، ولايعرف اليوم بمصر موضع يعرف بهذا الأسم، وزعموا أنها القرية المعروفة بالخندق قريباً من شرقى القاهرة. وقال ابن عبدالظاهر: الخندق هو منية الأصبغ وهو الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان.

قال مؤلفه رحمه الله: وقد وهم ابن عبدالظاهر فجعل أن الخندق احتفره العزيز بالله، وانما احتفره جوهر كما تقدم. وأدركت الخندق قرية لطيفة يبرز الناس من القاهرة إليها ليتنزهوا بها فى أيام النيل والربيع، ويسكنها طائفة كبيرة، وفيها بساتين عامرة بالنخيل الفخر والثمار وبها سوق وجامع تقام به الجمعة وعليه قطعة أرض من أرض الخندق يتولاها خطيبة.

فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة خربت قرية الخندق، ورحل أهلها منها، ونقلت الخطبة من جامعه إلى جامع بالحسينية، وبقى معطلاً من ذكر الله تعالى وأقامة الصلاة مدة. ثم فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة هدمه الأمير طوغان الدوادار، وأخذ عمده وخشبه فلم يبق إلا بقية أطلاله، وكانت قرية الخندق كأنها من حسنها ضرة لكوم الريش، وكانت تجاهها من شرقيها فخربتا جمعياً.

صحراء الإهليلج

هذه البقعة شرقى الخندق فى الرمل. وإليها كانت تنتهى عمارة الحسينية من جهة باب الفتوح، وكان بها شجر الإهليلج الهندى. فعرفت بذلك، وأظن أن هذا الإهليلج كان من جملة بستان ريدان الذى يعرف اليوم موضعاً بالريدانية.

ذكر خارج باب النصر

أما خارج القاهرة من جهة باب النصر فإنه عند ماوضع القائد جوهر القاهرة كان فضاء ليس فيه سوى مصلى العيد الذى بناه جوهر. وهذا المصلى اليوم يصلى على من مات فيه وما برح ما بين هذا المصلى وبستان ريدان الذى يعرف اليوم بالريدانية لاعمارة فيه، إلى أن مات أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة سبع وثمانين وأربعمائة فدفن خارج باب النصر بحرى المصلى، وبنى على قبره تربة جليلة وهى باقية إلى اليوم هناك فتتابع بناء الترب من حينئذ خارج باب النصر فيما بين التربة الجيوشية والريدانية، وقبر الناس موتاهم هناك. لاسيما أهل الحارات التى عرفت خارج باب الفتوح بالحسينية، وهى الريدانية وحارة البزادرة وغيرها.

ولم تزل هذه الجهة مقبرة إلى ما بعد السبعمائة بمدة. فرغب الأمير سيف الدين الحاج آل ملك فى البناء هناك وأنشأ الجامع المعروف به فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وعمر دارا وحماما فاقتدى الناس به وعمروا هناك، وكان قد بنى تجاه المصلى قبل ذلك الأمير سيف الدين كهرداس المنصورى دارا تعرف اليوم بدار الحاجب. فسكن فى هذه الجهة أمراء الدولة وعملوا فيما بين الريدانية والخندق مناخات الجمال، وهى باقية هناك. فصارت هذه الجهة فى غاية العمارة، وفيها من باب النصر إلى الريدانية سبعة أسواق جليلة يشتمل كل سوق منها على عدة حوانيت كثيرة. فمنها سوق اللفت، وهو تجاه باب بيت الحاجب الآن عند

البئر . وكان فيه من جانبيه حوانيت يباع فيها اللفت ، ومن هذا السوق يشترى أهل القاهرة هذا الصنف والكرنب ، وتعرف هذه البئر إلى اليوم ببئر اللفت ، ويليها سويقة زاوية الخدام .

وأدركت بهذه السويقة بقية صالحة . ويلى ذلك سوق جامع آل ملك ، وكان سوقاً عامراً فيه غالب ما يحتاج إليه من المآكل والأدوية والفواكة والخضر وغيرها ، وأدركته عامراً ، ويليه سويقة السنابطة عرفت بقوم من أهل ناحية سنباط سكنوا بها ، وكانت سوقاً كبيراً وأدركته عامراً ، ويليها سويقة أبى ظهير وأدركتها عامرة ، ويليها سويقة العرب ، وكانت تتصل بالريدانية ، وتشتمل على حوانيت كثيرة جداً أدركتها عامرة ، وليس فيها سكان وكانت كلها من لبن معقود عقوداً .

وكان بأول سويقة العرب هذه فرن أدركته عامراً آهلاً بلغنى أنه كان يخبز فيه أيام عمارة هذه السوق وما حوله كل يوم نحو السبعة آلاف رغيف وكان من وراء هذا السوق أحواش فيها قباب معقودة من لبن أدركتها قائمة وليس فيها سكان وكان من جملة هذه الأحواش حوش فيه أربعمائة قبة يسكن فيها البزادرة والمكارية . أجرة كل قبة درهمان فى كل شهر فيتحصل من هذا الحوش فى كل شهر مبلغ ثمانمائة درهم فضة وكان يعرف بحوش الأحمدى فلما كان الغلاء فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين سنة سبع وسبعين وسبعمائة خرب كثير مما كان بالقرب من الريدانية واختلت أحوال هذه الجهة إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وهدمت دورها وبيعت أنقاضها وفيها بقية آيلة إلى الدثور .

الريدانية

كانت بستاناً لريدان الصقلى أحد خدام العزيز بالله نزاز بن المعز كان يحمل المظلة على رأس الخليفة واختص بالحاكم ثم قتله فى يوم الثلاثاء لعشر بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وريدان وإن كان اسماً عربياً فإنه من قولهم ريح ريدة ورادة وريدانية أى لينة الهبوب وقيل ريح ريدة كثيرة الهبوب .

ذكر الخلجان التى بظاهر القاهرة

اعلم أن الخليج جمعه خلجان. وهو نهر صغير يختلج من نهر كبير أو من بحر وأصل الخلج الإنتزاع خلجت الشئ من الشئ وإذا انتزعته وبأرض مصر عدة خلجان منها بظاهر القاهرة خليج مصر وخليج فم الخور، وخليج الذكر والخليج الناصرى وخليج قنطرة الفخر وسترى من أخبارها ما فيه كفاية إن شاء الله تعالي.

ذكر خليج مصر

هذا الخليج بظاهر مدينة فسطاط مصر ويمر من غربى القاهرة وهو خليج قديم احتفره بعض قدماء ملوك مصر بسبب هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليهما. حين أسكنها وابنها إسماعيل خليل الله إبراهيم عليهما الصلاة والسلام بمكة ثم تمادت الدهور والأعوام، فجدد حفره ثانياً بعض من ملك مصر من ملوك الروم بعد الإسكندر فلما جاء الله سبحانه بالإسلام وله الحمد والمنة، وفتحت أرض مصر على يد عمرو بن العاص جدد حفره بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام الرمادة وكان يصب فى بحر القلزم فتسير فيه السفن إلى البحر الملح وتمر فى البحر إلى الحجاز واليمن والهند.

ولم يزل على ذلك إلى أن قدم محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب بالمدينة النبوية والخليفة حينئذ بالعراق أبوجعفر عبدالله بن محمد المنصور فكتب إلى عامله على مصر يأمره بطم خليج القلزم حتى لاتحمل الميرة من مصر إلى المدينة قطمه وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم وصار على ما هو عليه الآن وكان هذا الخليج أولاً يعرف بخليج مصر فلما أنشأ جوهر القائد القاهرة بجانب هذا الخليج من شرقيه صار يعرف بخليج القاهرة.

وكان يقال له أيضاً خليج أمير المؤمنين يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأنه الذى أشار بتجديد حفره والآن تسمية العامة بالخليج الحاكمى وتزعم أن الحاكم بأمر الله أبا على منصورا احتفره. وليس هذا بصحيح فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة ومن العامة من يسمية خليج اللؤلؤة أيضاً وسأقص عليك من أخبار هذا الخليج ما وقفت عليه من الأنباء.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى أخبار طيطوس بن ماليا ابن كلكن بن خربتا بن ماليق بن تدراس بن صابن مرقونس بن صابن قبطين بن مصر ابن بصر بن حام بن نوح وجلس على سرير الملك بعد أبيه ماليا وكان جباراً جرياً شديد البأس مهاباً فدخل عليه الأشراف وهنوه ودعوا له فأمرهم بالأقبال على مصالحهم وما يعنيهم. ووعدهم بالإحسان والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر وهو فرعون إبراهيم عليه السلام وأن الفراعنة سبعة هو أولهم وأنه استخلف بأمر الهياكل والكهنة.

وكان من خبر إبراهيم عليه السلام معه أن إبراهيم لما فارق قومه اشفق من المقام بالشام لئلا يتبعه قومه ويردوه إلى النمورد لأنه كان من أهل كونا من سواد العراق فخرج الى مصر ومعه سارة أمرأته وترك لوطا بالشام وسار إلى مصر وكانت سارة أحسن نساء وقتها ويقال إن يوسف عليه السلام ورث جزأ من جمالها.

فلما سار إلى مصر رأى الحرس المقيمون على أبواب المدينة سارة. فعجبوا من حسنها ورفعوا خبرها إلى طيطوس الملك وقالوا دخل إلى البلد رجل من أهل الشرق معه أمرأة لم ير أحسن منها ولا أجمل. فوجه الملك إلى وزيره فأحضر إبراهيم صلوات الله عليه وسأله عن بلده فأخبره وقال ما هذه المرأة منك؟ فقال: أختى فعرف الملك بذلك فقال مره أن يجئنى بالمرأة حتى أراها.

فعرفه ذلك فامتغص منه ولم تمكنه مخالفته وعلم أن الله تعالى لايسوءه فى أهله فقال لسارة قومى إلى الملك فإنه قد طلبك منى قالت وما يصنع بى الملك وما رآنى قبل قال أرجو أن يكون لخير فقامت معه حتى أتوا قصر الملك.

فأدخلت عليه فنظر منها منظراً راعة وفتنته فأمر بإخراج ابراهليم عليه السلام. فأخرج وندم على قوله إنها أخته وإنما أراد أنها أخته فى الدين ووقع فى قلب ابراهيم عليه السلام ما يقع فى قلب الرجل على أهله وتمنى أنه لم يدخل مصر فقال: اللهم لاتفضح نبيك فى أهله فراودها الملك عن نفسها فامتنعت عليه فذهب ليمد يده إليها فقالت: إنك إن وضعت يدك على أهلكت نفسك لأن لى ربا يمنعنى منك فلم يلتفت إلى قولها ومد يده إليها فجفت يده وبقى حائراً.

فقال لها أزيلى عنى ما قد أصابنى فقالت على أن لاتعاود مثل ما أتيت قال: نعم فدعت الله سبحانه وتعالى فزال عنه ورجعت يده إلى حالها فلما وثق بالصحة راودها ومناها ووعدها بالإحسان فامتنعت وقال قد عرفت ما جرى ثم مد يده إليها فجفت وضربت عليه أعضاؤه وعصبه فاستغاث بها وأقسم بالآلهة إنها إن أزالت عنه ذلك فإنه لايعاودها فسألت الله تعالى فزال عنه ذلك ورجع إلى حاله فقال: إن لك لربا عظيماً لايضيعك.

فأعظم قدرها وسألها عن إبراهيم فقالت هو قريبى وزوجى قال: فإنه قد ذكر أنك أخته قالت صدق أنا أخته فى الدين وكل من كان على ديننا فهو أخ لنا قال: نعم الدين دينكم ووجه بها إلى أبنته جوريا وكانت من الكمال والعقل بمكان كبير فألقى الله تعالى محبة سارة فى قلبها فكانت تعظمها وأضافتها أحسن ضايفة ووهبت لها جوهراً ومالاً فأتت به إبراهيم عليه السلام فقال لها ردية فلاحاجة لنا به. فردته وذكرت ذلك جوريا لأبيها فعجب منهما وقال: هذا كريم من أهل بيت الطهارة فتحيلى فى برها بكل حيلة فوهبت لها جارية قبطية من أحسن الجوارى يقال لها آجر وهى هاجر أم إسماعيل عليه السلام وجعلت لها سلالا من الجلود وجعلت فيها زاداً وحلوى وقالت يكون هذا الزاد معك وجعلت تحت الحلوى جوهراً نفيساً وحلياً مكللاً فقالت سارة أشاور صاحبي.

فأتت إبراهيم عليه السلام وأستأذنته فقال: إذا كان مأكولاً فخذيه فقبلته منها وُخرج إبراهيم فلما مضى وأمعنوا فى السير أخرجت سارة بعض تلك السلال فأصابت الجوهر والحلى فعرفت ابراهيم عليه السلام ذلك فباع بعضه وحفر من ثمنة البئر التى جعلها للسبيل وفرق بعضه فى وجوه البر وكان يضيف كل من مر به.

وعاش طيطوس الى أن وجهت هاجر من مكة تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه فأمر بحفر نهر في شرقى مصر بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرقى السفن فى البحر الملح فكان يحمل اليها الحنطة وأصناف الغلات فتصل إلى جدة وتحمل من هناك على المطايا فأحيا بلد الحجاز مدة .

ويقال انما حليت الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر وقيل أنه لكثرة ما كان يحمله طوطيس إلى الحجاز سمته العرب وجرهم الصادوق ويقال انه سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له فى بلده فدعا بالبركة لمصر وعرفه أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليهم قرنا بعد قرن .

وطوطيس أول فرعورن كان بمصر وذلك أنه أكثر من القتل حتى قتل قراباته وأهل بيته وبنى عمه وخدمه ونساءه وكثيراً من الكهنة والحكماء .

وكان حريصاً على الولد فلم يرزق ولداً غير أبنته جوريا أو جورياق وكانت حكيمة عاقلة تأخذ على يده كثيراً وتمنعه من سفك الدماء ، فأبغضته ابنته وأبغضه جميع الخاصة والعامة فلما رأت أمره يزيد خافت على ذهاب ملكهم فسمته وهلك ، وكان ملكه سبعين سنة واختلفوا فيمن يملك بعده وأرادوا أن يقيموا واحداً من ولد أتريب فقام بعض الوزراء ودعا لجورياق فتم لها الأمر وملكت فهذا كان أول أمر هذا الخليج .

ثم حفره مرة ثانية أدريان قيصر أحد ملوك الروم ومن الناس من يسميه أندرويانوس ، ومنهم من يقول هوريانوس قال فى تاريخ مدينة رومة وولى الملك أدريان قيصر أحد ملوك الروم ، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وهو الذى درس اليهود مرة ثانية إذ كانوا راموا النفاق عليه وهو الذى جدد مدينة بروشالم يعنى مدينة القدس وأخربه فى الثانية من ملكه .

وكان ملكه فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة من سنى الأسكندر وقتل عامة أهل القدس ينى على باب مدينة القدس مناراً ، وكتب عليها هذه مدينة ايليا ويسمى موضع هذا العمود الآن محراب داود ثم سار من القدس إلى بابل فحارب ملكها وهزمه وعاد إلى مصر فحفر لبجاً من النيل إلى بحر القلزم ، وسارت فيه السفن وبقى رسمه عند الفتح الإسلامى

فحفره عمرو بن العاص وأصاب أهل مصر منه شدائد وألزمهم بعبادة الأصنام ثم عاد إلى بلاده بممالك الروم فابتلى بمرض أعيا الأطباء فخرج يسير فى البلاد يبتغى من يداويه فمر على بيت المقدس وكان خراباً لبس فيه غير كنيسة للنصارى فأمر ببناء المدينة وحصنها وأعاد إليها اليهود فأقاموا بها وملكوا عليهم رجلاً منهم .

فبلغ ذلك أدريان قيصر فبعث إليهم جيشاً لم يزل يحاصرهم حتى مات أكثرهم جوعاً وعطشاً وأخذها عنوة فقتل من اليهود مالا يحصى كثرة وأخرب المدينة حتى صارت تلالاً لا عامر فيها ألبته وتتبع اليهود يريد أن لايدع منهم على وجه الأرض أحداً ثم أمر طائفة من اليونانيين فتحولوا إلى مدينة القدس وسكنوا فيها فكان بين خراب القدس الخراب الثانى على يد طيطوس وبين هذا الخراب ثلاث وخمسون سنة فعمرت القدس باليونان ولم يزل قيصر هذا ملكاً حتى مات فهذا خبر حفر هذا الخليج فى المرة الثانية فلما جاء الإسلام جدد عمرو بن العاص حفرة .

قال ابن عبدالحكم : ذكر حفر خليج أمير المؤمنين رضى الله عنه حدثنا عبدالله بن صالح عن الليث بن سعد قال ان الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سنة الرمادة فكتب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو بمصر من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاصى سلام أما بعد . فلعمرى يا عمرو ما تبالى إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معى فياغوناه ثم ياغوناه يردد ذلك .

فكتب إليه عمرو من عبدالله عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين أما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت إليك يعبر أولها عندك وآخرها عندى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته فبعث إليه بعير عظيمة فكان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً فلما قدمت على عمر رضى الله عنه وسع بها على الناس ودفع إلى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعيرا بما عليه من الطعام ويعث عبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص يقسمونها على الناس فدفعوا إلى أهل كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام ليأكلوا ويأتدموا بلحمه ويحتذوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذى كان فيه الطعام فيما أرادوا من لحاف أو غيره فوسع الله بذلك على الناس .

فلما رأى ذلك عمر رضى الله عنه حمد الله وكتب إلى عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر معه فقدموا عليه فقال يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطعام، وقد ألقى فى روعى ما أحببت من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا فى ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم.

فانطلق عمرو فأخبر من كان معه من أهل مصر فثقل ذلك عليهم وقالوا نتخوف أن يدخل من هذا ضرر على مصر. فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له إن هذا أمر لايعتدل ولايكون ولا نجد إليه سبيلا فرجع عمرو بذلك إلى عمر فضحك عمر رضى الله عنه حين رآه. وقال والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إليك يا عمرو وإلى أصحابك حين أخبرتهم بما أمرنا به من حفر الخليج فثقل ذلك عليهم وقالوا يدخل من هذا ضرر على أهل مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له: إن هذا أمر لايعتدل ولايكون ولانجد إليه سبيلا فعجب عمرو من قول عمر وقال صدقت والله يا أمير المؤمنين لقد كان الأمر على ماذكرت.

فقال له عمر رضى الله عنه انطلق بعزيمة منى حتى تجد فى ذلك ولا يأتى عليك الحول حتى تفرغ منه إن شاء الله تعالى فانصرف عمرو وجمع لذلك من الفعلة ما بلغ منه ما أراد، ثم احتفر الخليج فى حاشية الفسطاط، الذى يقال له: «خليج أمير المؤمنين فساقه من النيل إلى القلزم. فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة فنفع الله بذلك أهل الحرمين وسمى خليج أمير المؤمنين.

ثم لم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد عمر بن عبدالعزيز ثم ضيعه الولاة بعد ذلك. فترك وغلب عليه الرمل فأنقطع فصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم قال ويقال أن عمر رضى الله عنه قال لعمرو حين قدم عليه ياعمرو إن العرب قد تشاءمت بى وكادت أن تغلب على رحلى وقد عرفت الذى أصابها وليس جند من الأجناد أرجى عندى أن يغيث الله بهم أهل الحجاز من جندك فإن استطعت أن تحتال لهم حيلة حتى

يغيثهم الله تعالى فقال عمرو ماشئت يا أمير المؤمنين قد عرفت أنه كانت تأتينا سفن فيها تجار من أهل مصر قبل الإسلام فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجاره فإن شئت أن نحفره فننشئ فيه سفناً يحمل فيها الطعام إلى الحجاز فعلته فقال عمر رضى الله عنه : نعم فافعل .

فلما خرج عمرو من عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذكر ذلك لرؤساء أهل أرضه من قبط مصر فقالوا له ماذا جئت به أصلح الله الأمير تريد أن تخرج طعام أرضك وخصبها إلى الحجاز وتخرب هذه فإن استطعت فاستقل من ذلك فلما ودع عمر رضى الله عنه قال له : ياعمرو أنظر إلى ذلك الخليج ولاتنسين حفره فقال له : يا أمير المؤمنين أنه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظيمة فقال له : أما والذى نفسى بيده إنى لاظنك حين خرجت من عندى حدثت بذلك أهل أرضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك أعزم عليك إلا ما حفرته وجعلت فيه سفناً فقال عمرو يا أمير المؤمنين أنه متى ما يجد أهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحه الحجاز لايخفوا إلى الجهاد قال : فإننى سأجعل من ذلك أمراً لايحمل فى هذا البحر الأزرق أهل المدينة وأهل مكة فحفره عمرو وعالجه وجعل فيه السفن .

قال ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى عمرو بن العاص إلى العاصى بن العاصى فإنك لعمرى لاتبالى إذا سمنت أنت ومن معك أن أعجف أنا ومن معى فياغوثاه وياغوثاه فكتب إليه عمرو أما بعد : فيالبيك ثم يالبيك أتتك عير أولها عندك وآخرها عندى مع إنى أرجو أن أجد السبيل إلى أن أحل إليك فى البحر ثم أن عمرا ندم على كتابه فى الحمل إلى المدينة فى البحر وقال : إن أمكنت عمر من هذا خرب مصر ونقلها إلى المدينة فكتب إليه أنى نظرت فى أمر البحر فإذا هو عسر ولايلتام ولايستطاع فكتب إليه عمر رضى الله عنه إلى العاصى بن العاصى قد بلغنى كتابك تعتل فى الذى كنت كتبت إلى به من أمر البحر وايم الله لتفعلن أو لأقلعن بإذنك ولابعثن من يفعل ذلك فعرف عمرو أنه الجد من عمر رضى الله عنه ففعل .

فبعث إليه عمر رضى الله عنه أن لاتدع بمصر شيئاً من طعامها وكسوتها وبصلها وعدسها وخلها إلا بعثت إلينا منه قال ويقال إن الذى دل عمرو بن العاص على الخليج رجل من

القبط. فقال لعمرو: أرأيت إن دللتك على مكان تجرى فيه السفن حتى تنتهى إلى مكة والمدينة اتضع عنى الجزيةوعن أهل بيتي؟ قال: نعم فكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب الية أن أفعل.

فلما قدمت السفن خرج عمر رضى الله عنه حاجاً أو معتمراً فقال للناس: سيروا بنا ننظر إلى السفن التى سيرها الله تعالى إلينا من أرض فرعون حتى أتتنا فأتى الجار وقال: اغتسلوا من ماء البحر فإنه مبارك فلما قدمت السفن الجار وفيها الطعام صك عمر رضى الله عنه للناس بذلك الطعام صكوكا فتبايع التجار الصكوك بينهم قبل أن يقبضوها فلقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه العلاء بن الأسود رضى الله عنه فقال: كم ربح حكيم بن حزام؟ فقال ابتاع من صكوك الجار بمائة ألف درهم وربح عليها مائة ألف فلقيه عمر رضى الله عنه فقال له: يا حكيم كم ربحت؟ فأخبره بمثل خبر العلاء. قال عمر رضى الله عنه: فبعته قبل أن تقبضه قال: نعم قال عمر رضى الله عنه: فان هذا البيع لايصح فاردده فقال حكيم: ما علمت أن هذا بيع لايصح وما أقدر على رده. فقال عمر رضى الله عنه لابد فقال حكيم: والله ما أقدر على ذلك وقد تفرق وذهب ولكن رأس مالى وربحى صدقة.

وقال القضاعى فى ذكر الخليج أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص عام الرمادة بحفر الخليج الذى بحاشية الفسطاط الذى يقال له خليج أمير المؤمنين فساقة من النيل إلى القلزم فلم يأت عليه الحول حتى جرت فيه السفن وحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة فنفع الله تعالى بذلك أهل الحرمين فسمى خليج أمير المؤمنين.

وذكر الكندى فى كتاب الجند العربى أن عمرا حفره فى سنة ثلاث وعشرين وفرغ منه فى ستة أشهر، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع ثم بنى عليه عبدالعزيز بن مروان قنطرة فى ولايتة على مصر قال ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبدالعزيز ثم أضاعته الولاة بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانقطع وصار منتهاه إلى ذنب التمساح من ناحية بطحاء القلزم.

وقال ابن قديد: أمر أبوجعفر المنصور بسد الخليج حين خرج عليه محمد بن عبدالله بن حسن بالمدينة ليقطع عنه الطعام فسد إلى الآن وذكر البلاذرى أن أبا جعفر المنصور لما ورد

عليه قيام محمد بن عبدالله قال : يكتب الساعة إلى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين فإنهم فى مثل الحرجة إذا لم تأتهم الميرة من مصر .

وقال : أبن الطوير وقد ذكر ركوب الخليفة لفتح الخليج وهذا الخليج هو الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من بحر فسطاط مصر الحلو وألحقه بالقلزم بشاطئ البحر الملح فكانت مسافته خمسة أيام لتقرب معونة الحجاز من ديار مصر فى أيام النيل . فالمراكب النيلية تفرغ ما تحمله من ديار مصر بالقلزم . فإذا فرغت حملت مافى القلزم مما وصل من الحجاز وغيره إلى مصر وكان مسلكاً للتجار وغيرهم فى وقته المعلوم .

وكان أول هذا الخليج من مصر يشق الطريق الشارع المسلوك منه اليوم إلى القاهرة حافاً بالقريوص الذى على البستان المعروف بابن كبسان مادا وآثاره اليوم مادة باقية إلى الحوض المعروف بسيف الدين حسين صهر ابن رزيك والبستان المعروف بالمشتهى وفيه آثار المنظرة التى كانت معدة لجلوس الخليفة لفتح الخليج من هذا الطريق .

ولم تكن الآدر المبينة على الخليج ولاشئ منها هناك وما برح هذا الخليج منتزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف الآن بالخليج الناصري .

قال المسبحي : وفى هذا الشهر يعنى المحرم سنة أحدى وأبعمائة منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى الخليج وشدد فى المنع وسدت أبواب القاهرة التى يتطرق منها إلى الخليج ، وأبواب الطاقات من الدور التى تشرف على الخليج ، وكذلك أبواب الدور والخوخ التى على الخليج .

قال القاضى الفاضل فى متجددات حوادث سنة أربع وتسعين وخمسمائة : ونهى عن ركوب المتفرجين فى المراكب فى الخليج وعن اظهار المنكر وعن ركوب النساء مع الرجال وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم قال : وفى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان ظهر فى هذه المدة من المنكرات مالم يعهد فى مصر فى وقت من الأوقات ومن الفواحش ما خرج من

الدور إلى الطرقات وجرى الماء فى الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة فى الذراع السادس عشر. فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة فى مراكب فى نهار شهر رمضان، ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن المزاهر يضربن بها وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة وحرفاؤهن من الرجال معهن فى المراكب لايمنعون عنهن الأيدى ولا الأبصار ولايخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار وتوقع أهل المراقبة مايتلو هذا الخطب من المعاقبة.

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون وفى سنة ست وسبعمائة رسم الأميران بيبرس وسلار يمنع الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكمى والتفرج فيه بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات اللاتى تجمع الخمر وآلات الملاهى والنساء المشكوفات الوجوه المتزينات بأفخر زينة من كوافى الزركش والقنابيز والحلى العظيم ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ويقتل فيه جماعة عديدة.

ورسم الأميران المذكوران لمتولى الصناعة بمصر أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلا ما كان فيه غلة أو متجراً. وما ناسب ذلك فكان هذا معدوداً من حسناتهما ومسطوراً فى صحائفهما قال مؤلفه رحمه الله تعالى أخبرنى شيخ معمر ولد بعد سنة سبعمائة يعرف بمحمد المسعودى أنه أدرك هذا الخليج والمراكب تمر فيه بالناس للنزهة وإنها كانت تعبر من تحت باب القنطرة غادية ورائحة.

والآن لايمر بهذا الخليج من المراكب إلا ما يحمل متاعاً من متجر أو نحوه، وصارت مراكب النزهة والتفرج إنما تمر فى الخليج الناصرى فقط وعلى هذا الخليج الكبير فى زماننا هذا أربع عشرة قنطرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى فى القناطر وحافتا هذا الخليج الآن معمورتان بالدور وسيأتى إن شاء الله ذكر ذلك فى مواضعه من هذا الكتاب وقال ابن سعد: وفيها خليج لايزال يضعف بين حضرتها حتى يصير كما قال الرصافى :

مازالت الأنحاء تأخذه

حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نور الكتان الذى على جانبى هذا الخليج :

أنظر إلى النهر والكتان يرمقــه

من جـانبيه يا جفان لها حدق

قد سل سيفاً عليه لصبا شطب

فقـــــابلته بأحداق بها أرق

وأصبحت في يد الأرواح تنسجها

حتى غدت حلقاً من فوقها حلق

فقم نزرها ووجه الأرض متضح

أو عند صفرته أن كنت تعتبق

قـال وقـد ذكـر مـصـر ولاينكر فيـهـا اظهـار أواني الخـمـر ولا آلات الطرب ذوات الأوتار ولاتبـرج النسـاء العـواهر ولاغـيـر ذلك مما ينكر في غـيـرها وقـد دخلت في الخليج الذي بين القـاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلي القـاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك في بعض الأحيان، وهو ضيق وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والهكم والمجانة. حتى ان المحتشمين والرؤساء لايجيزون العبور به في مركب واللسرج في جانبيه بالليل منظرفتان وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر. وفي ذلك أقول :

لا تركبن في خليج مصر

إلا إذا يسدل الظلام

فقد علمت الذي عليــه

من عالم كلهم طغام

صفان للحرب قد أظـلا

سلاح ما بينهم كلام

يا سيدى لاتســـــر إليه

إلا إذا هـوم النـيام

والليل ستر على التصابي

عليـه من فضله لثام

والسرج قد بددت عليه

منهــا دنانير لاترام

وهو قد أمتد والمبـــاني

عليه فى خدمة قيام

لله كم دوحـــة جنينا

هناك أثمارها الأثام

وقال ابن عبدالظاهر عن مختصر تاريخ ابن المأمون : إن أول من رتب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحي ، وكذلك على أصحاب البساتين فى دولة الأفضل ، وجعل والياً بمفرده ولله در الأسعد بن خطير المماتى حيث يقول :

خليج كالحسام له صقال

ولكن فيه للرائى مسره

رأيت به الملاح تجيد عوما

كأنهم نجوم فى مجره

وقال بهاء الدين أبو الحسن على بن الساعاتى فى يوم كسر الخليج :

إن يوم الخليج يوم من الحسن

بديع المـــرئى والمسموع

كم لديه من ليث غاب صؤول

ومهاة مثل الغزال المروع

وعلى الدعزة قبـــل أن تملكة

ذلة الحـــب الخضـوع

كسروا جسره هناك فحاكي

كسر قلب يتلوه فيض دموع

ذكر خليج فم الخور وخليج الذكر

قال ابن سيده فى كتاب المحكم فى اللغة : الخور مصب الماء فى البحر وقيل هو خليج من البحر والخور المطمئن من الأرض وخليج فم الخور يخرج الآن من بحر النيل ويصب فى الخليج الناصرى ليقوى جرى الماء فيه ويغززه، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصرى يمد خليج الذكر وكان أصله ترعة يدخل منها ماء النيل للبستان . الذى عرف بالمقسي، ثم وسع .

قال ابن عبدالظاهر وكان يخرج من البحر للمقسى الماء فى البرانخ . فوسعه الملك الكامل وهو خليج الذكر ويقال ان خليج الذكر حفره كافور الأخشيدي . فلما زال البستان المقسى فى أيام الخليفة الظاهر بن الحاكم وجعله بركة قدام المنظرة المعروفة باللؤلؤة صار يدخل الماء إليها من هذا الخليج وكان يفتح هذا الخليج قبل الخليج الكبير ولم يزل حتى أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة بحفره فحفر وأوصل بالخليج الكبير وشرع الأمراء والجند فى حفره من أخريات جمادى الآخرة فلما فتح كادت القاهرة أن تغرق فسدت القنطرة التى عليه فهدمها الماء ومن حينئذ عزم السلطان على حفر الخليج الناصري، وأنا أدركت آثاره وفيه ينبت القصب المسمى بالفارسي .

وأخبرنى الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر الشهرزورى أنه يعرف خليج الذكر هذا وفيه الماء وسبح فيه غير مرة وأرانى آثاره وكان الماء يدخل إليه من تحت قنطرة الدكة الآتى ذكره فى القناطر أن شاء الله تعالى .

وعلى خليج فم الخور الآن قنطرة، وعلى خليج الذكر قنطرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى عند ذكر القناطر، وإنما قيل له خليج الذكر لأن بعض أمراء الملك الظاهر ركن الدين بيبرس كان يعرف بشمس الدين الذكر الكركي، كان له فيه أثر من حفره فعرف به، وكان للناس عند هذا الخليج مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم .

قال المسبحي : وفى يوم الثلاثاء لخمس بقين منه يعنى المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة كان ثالث الفتح فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين فى الخيام

المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم وركب أمير المؤمنين يعنى الظاهر لإعزاز دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله فى مركبه إلى المقس، وعليه عمامة شرب مقوطة بسواد وثوب ديبقى من شكل العمامة ودار هناك طويلاً وعاد إلى قصر سالماً وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن فى قفاف الحمالين سكاري، واجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره.

ذكر الخليج الناصري

هذا الخليج يخرج من بحر النيل ويصب فى الخليج الكبير وكان سبب حفره أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما أنشأ القصور والخانقاه بناحية سرياقوس وجعل هناك ميداناً يسرح إليه وأبطل ميدان القبق. المعروف بالميدان الأسود ظاهر باب النصر من القاهرة وترك المسطبة التى بناها بالقرب من بركة الحبش لمطعم الطيور والجوارح اختار أن يحفر خليجاً من بحر النيل لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس، لحمل مايحتاج إليه من الغلال وغيرها فتقدم إلى الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة بديار مصر بالكشف عن عمل ذلك.

فنزل من قلعة الجبل بالمهندسين وأرباب الخبرة إلى شاطئ النيل، وركب النيل فلم يزل القوم فى فحص وتفتيش إلى أن وصلوا بالمراكب إلى موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب فوجدوا ذلك الموضع أوطأ مكان يمكن أن يحفر. إلا أن فيه عدة دور فاعتبروا فم الخليج من موردة البلاط وقدروا أنه إذا حفر مرّ الماء فيه من موردة البلاط إلى الميدان الظاهري. الذى أنشأ الملك الناصر بستاناً ويمر من البستان إلى بركة قرموط حتى ينتهى إلى ظاهر باب البحر، ويمر من هناك على أرض الطبالة فيصب فى الخليج الكبير.

فلما تعين لهم ذلك عاد النائب إلى القلعة وطالعه بما تقرر فبرز أمره لسائر أمراء الدولة باحضار الفلاحين من البلاد الجارية فى إقطاعاتهم وكتب إلى ولاة الأعمال بجميع الرجال لحفر الخليج فلم يمض سوى أيام قلائل حتى حضر الرجال من الأعمال، وتقدم إلى النائب بالنزول للحفر ومعه الحجاب فنزل لعمل ذلك، وقاس المهندسون طول الحفر من موردة

البلاط حيث تعين فم الخليج إلى أن يصب فى الخليج الكبير وألزم كل أمير من الأمراء بعمل أقصاب فرضت له .

فلما أهل شهر جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة وقع الشروع فى العمل فبدأوا بهدم ما كان هناك من الأملاك التى من جهة باب اللوق إلى بركة قرموط ، وحصل الحفر فى البستان الذى كان للنائب فأخذوا منه قطعة ورسم أن يعطى أرباب الأملاك أثمانها فمنهم من باع ملكه وأخذ ثمنة من مال السلطان ، ومنهم من هدم داره ونقل أنقاضها فهدمت عدة دور ومساكن جليلة وحفر فى عدة بساتين .

فانتهى العمل فى سلخ جمادى الآخرة على رأس شهرين وجرى الماء فيه عند زيادة النيل فأنشأ الناس عدة سواق وجرت فيه السفن بالغلال وغيرها فسر السلطان بذلك وحصل للناس رفق وقويت رغبتهم فيه فاشتروا العمارة على حافتى الخليج فعمر ما بين المقس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمائر على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب فى الخليج الكبير بأرض الطبالة وصارت البساتين من وراء الأملاك المطلة على الخليج .

وتنافس الناس فى السكنى هناك ، وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج مواطن أفراح ومنازل لهو ومغنى صبابات وملعب أتراب ومحل تيه وقصف فيما يمر فيه من المراكب وفيما عليه من الدور وما برحت مراكب النزهة تمر فيه بأنواع الناس على سبيل اللهو إلى أن منعت المراكب منه بعد قتل الأشراف كما يرد عند ذكر القناطر إن شاء الله تعالى .

ذكر خليج قنطرة الفخر

هذا الخليج يبتدئ من الموضع الذى كان ساحل النيل ببولاق ، وينتهى إلى حيث يصب فى الخليج الناصري ، ويصب أيضاً فى خليج لطيف تسقى منه عدة بساتين وكل من هذين

الخليجين معمور الجانبين بالأملاك المطلة عليه والبساتين وجميع المواضع التى يمر فيها الخليج الناصرى وأرض هذين الخليجين كانت غامرة بالماء، ثم انحسر عنها الماء شيئاً بعد شئ كما ذكر فى ظواهر القاهرة، وهذا الخليج حفر بعد الخليج الناصري.

ذكر القناطر

أعلم أن قناطر الخليج الكبير عدتها الآن أربع عشرة قنطرة، وعلى خليج فم الخور قنطرة واحدة وعلى خليج الذكر قنطرة واحدة، وعلى الخليج الناصرى خمس قناطر، وعلى بحر أبى المنجا قنطرة عظيمة، وبالجيزة عدة قناطر.

ذكر قناطر الخليج الكبير

قال القضاعي: القنطرتان اللتان على هذا الخليج يعنى خليج مصر الكبير. أما التى فى طرف الفسطاط بالحمراء القصوي، فإن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بناها فى سنة تسع وستين وكتب عليها اسمه وابتنى قناطر غيرها وكتب على هذه القنطرة المذكورة: «هذه القنطرة أمر بها عبدالعزيز بن مروان الأمير اللهم بارك له فى أمره كله وثبت سلطانه على ما ترضى وأقر عينه فى نفسه وحشمه آمين.

وقام ببنائها سعد أبو عثمان، وكتب عبدالرحمن فى صفر سنة تسع وستين ثم زاد فيها تكبن أمير مصر فى سنة ثمان عشرة وثلاثمائة ورفع سمكها ثم زاد عليها الإخشيد فى سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة ثم عمرت فى أيام العزيز بالله.

وقال ابن عبدالظاهر: وهذه القنطر هى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء فلما أنحسر النيل عن ساحل مصر اليوم أهملت هذه القنطرة وعملت قنطرة السد عند فم

بحر النيل فإن النيل كان قد ربى الجرف حيث غيط الجرف الذى على يمنه من سلك من المراغة إلى باب مصر بجوار الكبارة .

قنطرة السد

هذه القنطرة موضعها مما كان غامراً بماء النيل قديماً : وهى الآن يتوصل من فوقها إلى منشأة المهرانى وغيرها من بر الخليج الغربى وكان النيل عند إنشائها يصل إلى الكوم الأحمر . الذى هو جانب الخليج الغربى الآن تجاه خط بين الزقاقين .

فإن النيل كان قد ربى جرفاً قدام الساحل القديم كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب . فأهلمت القنطرة الأولى لبعد النيل ، وقدمت هذه القنطرة إلى حيث كان النيل ينتهي ، وصار تتوصل منها إلى بستان الخشاب الذى موضعه اليوم يعرف بالمريس وما حوله وكان الذى أنشأه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع وأربعين وستمائة .

ولها قوسان ، وعرفت الآن بقنطرة السد من أجل أن النيل لما أنحسر عن الجانب الشرقي ، وأنكشفت الأراضى التى عليها الآن خط بين الزقاقين إلى موردة الحلفاء وموضع الجامع الجديد إلى دار النحاس وما وراء هذه الأماكن إلى المراغة وباب مصر بجوار الكبارة وانكشف من أراضى النيل أيضاً الموضع الذى يعرف اليوم بمنشأة المهرانى صار ماء النيل إذا بدت زيادته يجعل عند هذه القنطرة سد من التراب حتى يسند الماء إليه إلى أن تنتهى الزيادة إلى ست عشرة ذراعا . فيفتح السد حينئذ ، ويمر الماء فى الخليج الكبير كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب والأمر على هذا اليوم .

قناطر السباع

هذه القناطر جانبها الذى يلى خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوي، وجانبها الآخر من جهة جنان الزهرى وأول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، ونصب عليها سباعاً من الحجارة فإن رنكة كان على شكل سبع فقيل لها قناطر السباع من أجل ذلك وكانت عالية مرتفعة فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى فى موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط وتردد إليه كثيراً صار لا يمر إليه من قلعة الجبل حتى يركب قناطر السباع فتضرر من علوها وقال للأمراء: إن هذه القنطرة حين أركب إلى الميدان وأركب عليها يتألم ظهرى من علوها.

ويقال إنه أشاع هذا والقصد إنما هو كراهته لنظر أثر أحد من الملوك قبله وبغضه أن يذكر لأحد غيره شئ يعرف به وهو كلما يمر بها يرى السباع التى هى رنك الملك الظاهر فأحسب أن يزيلها لتبقى القنطرة منسوبة إليه ومعروفة به كما كان يفعل دائماً فى محو آثار من تقدمه وتخليد ذكره ومعرفة الآثار به ونسبتها له فاستدعى الأمير علاء الدين على بن حسن المروانى والى القاهرة وشاد الجهات وأمره بهدم قناطر السباع وعمارتها أوسع مما كانت بعشرة أذرع، وأقصر من ارتفاعها الأول فنزل ابن المروانى وأحضر الصناع ووقف بنفسه حتى انتهت فى جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة فى أحسن قالب على ما هى عليه الآن ولم يضع سباع الحجر عليها.

وكان الأمير الطنبغا الماردينى قد مرض ونزل إلى الميدان السلطانى فأقام به ونزل إليه السلطان مراراً فبلغ الماردينى ما يتحدث به العامة من أن السلطان لم يخرب قناطر السباع إلا حتى تبقى باسمه وأنه رسم لأبن المروانى أن يكسر سباع الحجر ويرميها فى البحر فأتفق أنه عوفى عقيب الفراغ من بناء القنطرة وركب إلى القلعة فسر به السلطان وكان قد شغفه حباً فسأله عن حالة وحادثه إلى أن جرى ذكر القنطرة.

فقال له السلطان أعجبتك عمارتها؟ فقال: والله يا خوند لم يعمل مثلها ولكن ما كملت. فقال: كيف قال: السباع التى كانت عليها لم توضع مكانها والناس يتحدثون أن السلطان له غرض فى ازالتها لكونها رنك سلطان غيره فامتغص لذلك وأمر فى الحال باحضار ابن المروانى وألزمه بإعادة السباع على ما كانت عليه فبادر إلى تركيبها فى أماكنها.

وهى باقية هناك إلى يومنا هذا إلا أن الشيخ محمداً المعروف بصائم الدهر شوه صورها كما فعل بوجه أبى الهول ظناً منه أن هذا الفعل من جملة القربات ولله در القائل:

وإنما غاية كل من وصل

صيدبنى الدنيا بأنواع الحيل

قنطرة عمر شاه

هذه القنطر على الخليج الكبير يتوصل منها إلى بر الخليج الغربي.

قنطرة طقزدمر

هذه القنطرة على الخليج الكبير بخط المسجد المعلق يتوصل منها إلى بر الخليج الغربى وحكر قوصون وغيره.

قنطرة آق سنقر

هذه القنطرة على الخليج الكبير يتوصل إليها من خط قبو الكرمانى ومن حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالحبابة ويمر من فوقها إلى بر الخليج الغربى وعرفت بالأمير آق سنقرشاد

العمائر السلطانية فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون عمرها لما أنشأ الجامع بالبركة الناصرية، ومات بدمشق سنة أربعين وسبعمائة.

قنطرة باب الخرق

يقال للأرض البعيدة التى تخرقها الريح لاستوائها الخرق، وهذه القنطرة على الخليج الكبير. كان موضعها ساحلاً، ومورودة للسقائين فى أيام الخلفاء الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب الميدان السلطانى بأرض اللوق وعمر به المناظر فى سنة تسع وثلاثين وستمائة أنشأ هذه القناطر ليمر عليها إلى الميدان المذكور، وقيل لها قنطرة باب الخرق.

قنطرة الموسكي

هذه القنطرة على الخليج الكبير يتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى بر الخليج الغربي. أنشأها الأمير عزالدين موسك قريب السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان خيراً يحفظ القرآن الكريم ويواظب على تلاوته، ويحب أهل العلم والصلاح ويؤثرهم ومات بدمشق يوم الأربعاء ثامن عشرى شعبان سنة أربع وثمانين وخمسمائة.

قنطرة الأمير حسين

هذه القنطرة على الخليج الكبير ويتوصل منها إلى بر الخليج الغربى فلما أنشأ الأمير سيف الدين حسين بن أبى بكر بن اسماعيل بن حيدر بك الرومى الجامع المعروف بجامع الأمير

حسين فى حكر جوهر النوبى أنشأ هذه القنطرة ليصل من فوقها إلى الجامع المذكور وكان يتوصل إليها من باب القنطرة فثقل عليه ذلك واحتاج إلى أن فتح فى السور الخوخة المعروفة بخوخة الأمير حسين من الوزيرية فصارت تجاه هذه القنطرة وقد ذكر خبرها عند ذكر الخوخ من هذا الكتاب والله تعالى أعلم .

قنطرة باب القنطرة

هذه القنطرة علي الخليج الكبير يتوصل إليها من القاهرة ويمر فوقها إلى المقس وأرض الطبالة وأول من بناها القائد جوهر لما نزل بمناخة وأدار السور عليه وبنى القاهرة ثم قدم عليه القرمطى فاحتاج إلى الاستعداد لمحاربته فحفر الخندق وبنى هذه القنطرة على الخليج عند باب جنان أبى المسك كافور الإخشيدي. الملاصق للميدان والبستان الذى للأمير أبى بكر محمد الإخشيد ليتوصل من القاهرة إلى المقس، وذلك فى سنة ثنتين وستين وثلاثمائة وبها تسمى باب القنطرة، وكانت مرتفعة بحيث تمر المراكب من تحتها وقد صارت فى هذا الوقت قريبة من أرض الخليج لايمكن المراكب العبور من تحتها وتسد بأبواب خوفاً من دخول الزعار إلى القاهرة .

قنطرة باب الشعرية

هذه القنطرة على الخليج الكبير يسلك إليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها إلى أرض الطبالة وتعرف اليوم بقنطرة الخروبى .

القنطرة الجديدة

هذه القنطرة على الخليج الكبيـر يتـوصل إليـهـا من زقـاق الكحل وخط جـامع الظاهر ويتوصل منها أرض أرض الطبالة وإلى منية الشيرج وغير ذلك أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة عندما أنتهى حفر الخليج الناصرى وكان ما على جانبى الخليج من القنطرة الجديدة هذه إلى قناطر الأوز عامراً بالأملاك ثم خربت شيئاً بعد شئ من حين حدث فصل البـاردة بعد سنة ستين وسبعمائة ، وفحش الخـراب هنـاك منذ كـانت سنة الشـراقى فى زمن الملك الأشرف شعبـان بن حسين فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، فلما غرقت الحسينية بعد سنة الشراقى خربت المســـاكن التى كانت فى شرق الخليج مــا بين القنطرة الجـديدة وقناطر الأوز وأخـذت أنقـاضـهـا وصـارت هــذه البرك الموجــودة الآن .

قناطر الأوز

هذه القناطر على الخليج الكبير يتوصل إليها من الحسينية ، ويسلك من فوقها إلى أراضى البعل وغيرها وهى أيضاً مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة خمس وعشرين وسبعـمـائة وأدركت هناك أمـلاكـاً مطلة على الخليج لما يصير فيـه من الماء ولما على حـافته الشرقية من البساتين الأنيقة إلا أنها الآن قد خربت .

وتجاه هذه القنطرة منظرة البعل التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء وبقيت آثارها إلى الآن أدركناها يعطن فيها الكتان وبها عرفت الأرض التى هناك فسميت إلى الآن بأرض البعل وكان هناك صف من شجر السنط قد أمتد من تجاه قناطر الأوز إلى منظرة البعل وصار فاصلاً بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الأحد والجمعة للنزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم مالا يقع عليه حصر .

ويباع هناك مآكل كثيرة وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالاً من الذهب. على أنه لايباع فيها السمك إلا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك ولم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة فقطع والى اليوم تجتمع الناس هناك ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن وقيل لها قناطر الأوز.

قناطر بنى وائل

هذه القناطر على الخليج الكبير تجاه التاج أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وعرفت بقناطر بنى وائل من أجل أنه كان بجانبها عدة منازل يسكنها عرب ضعاف بالجانب الشرقى يقال لهم بنو وائل ولم يزالوا هناك إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة وكان بجانب هذه القنطرة من الجانب الغربى مقعد أحدثه الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى لأخذ المكوس واستمر مدة ثم خرب ولم ير أحسن منظراً من هذه القنطرة فى أيام النيل وزمن الربيع.

قنطرة الأميرية

هذه القنطرة هى آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحى القاهرة وهى تجاه الناحية المعروفة بالأميرية فيما بينها وبين المطرية أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة وعند هذه القنطرة بنسد ماء النيل إلى فتح الخليج عند وفاء زيادة النيل ست عشرة ذراعاً فلايزال الماء عند سد الأميرية هذا إلى يوم النوروز. فيخرج والى القاهرة إليه ويشهد على مشايخ أهل الضواحى بتغليق أراضى نواحيهم بالريّ.

ثم يفتح هذا السد فيمر الماء إلى جسر شيبين القصر ويسد عليه حتى يربو ما على جانبى الخليج من البلاد فلايزال الماء واقفاً عند سد شيبين إلى يوم عيد الصليب وهو اليوم السابع عشر من النوروز فيفتح حينئذ بعد شمول الرى جميع تلك الأراضى وليس بعد قنطرة الأميرية هذه قنطرة سوى قنطرة ناحية سرياقوس وهى أيضاً انشاء الملك الناصر محمد بن قلاوون وبعد قنطرة سرياقوس جسر شيبين القصر وسيأتى ذكره إن شاء الله تعالى عند ذكر الجسور من هذا الكتاب.

قنطرة الفخر

هذه القنطرة بجوار موردة البلاط من أراضى بستان الخشاب برأس الميدان وهى أول قنطرة عمرت على الخليج الناصرى على فمه أنشأها القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله بن خروف القبطى المعروف بالفخر ناظر الجيش فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة عند انتهاء حفر الخليج الناصرى ومات فى رجب سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وقد أناف على السبعين سنة وتمكن فى الرياسة تمكناً كبيراً.

قنطرة قدادار

هذه القنطرة على الخليج الناصرى يتوصل إليها من اللوق ويمشى فوقها إلى بر الخليج الناصري، مما يلى الفيل، وأول ما وضعت كانت تجاه البستان الذى كان ميداناً فى زمن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس إلى أن أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان الموجود الآن بموردة البلاط من جملة أراضى بستان الخشاب فغرس فى الميدان الظاهرى الأشجار، وصار بستاناً عظيماً كما ذكر ذلك فى موضعه من هذا الكتاب.

وعرفت هذه القنطرة بالأمير سيف الدين قدادار مملوك الأمير برلغي، وكان من خبره أنه تنقل فى الخدم حتى ولى الغربية من أراضى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة فلقى أهل البلاد منه شراً كثيراً ثم انتقل إلى ولاية البحيرة فلما كان فى سنة أربع وعشرين كثرت الشناعة فى القاهرة بسبب الفلوس وتعنت الناس فيها وامتنعوا من أخذها حتى وقف الحال، وتحسن السعر وكان حينئذ يتقلد الوزارة الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى ويتقلد ولاية القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن.

فلما توجه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من قلعة الجبل إلى السرحة بناحية سرياقوس بلغة توقف الحال وطموع السوقة فى الناس وأن متولى القاهرة فيه لين وأنه قليل الحرمة على السوقة وكان السلطان كثير النفور من العامة شديد البغض لهم ويريد كل وقت من الخازن أن يبطش بالحرافيش ويؤثر فيهم آثاراً قبيحة ويشهر منهم جماعة فلم يبلغ من ذلك غرضه فكرهه واستدعى الأمير أرغون نائب السلطنة وتقدم إليه بالإغلاظ فى القول على الخازن بسبب فساد حال الناس وهم بيروز أمره بالقبض عليه وأخذ ماله. فما زال به النائب حتى عفا عنه وقال السلطان بعزله ويولى من ينفع فى مثل هذا الأمر.

فاختار ولاية قدادار عوضه لمايعرف من يقظته وشهامته وجراءته على سفك الدماء فاستدعاء من البحيرة وولاه ولاية القاهرة فى أول شهر رمضان من السنة المذكورة فأول ما بدأ به أن أحضر الخبازين والباعة وضرب كثيراً منهم بالمقارع ضرباً مبرحاً وسمر عدة منهم فى دراريب حوانيتهم ونادى فى البلد من رد فلساسمر ثم عرض أهل السجن ووسط جماعة من المفسدين عند باب زويلة فهابته العامة وذعروا منه.

وأخذ يتبع من عصر خمرا وأحضر عريف الحمالين وألزمه باحضار من كان يحمل العنب فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب ومواضع مساكنهم ثم أحضر خفراء الحارات والأخطاط ولم يزل بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمر فاشتهر ذلك بين الناس وخافوه فحول أهل حارة زويلة وأهل حارتى الروم والديلم وغير ذلك من الأماكن ما عندهم من الخمر وصبوها فى البلاليع والأفنية، وألقوها فى الأزقة وبذلوا المال لمن يأخذها منهم فحصل لكثير من العامة والأطراف منها شئ كثير. حتى صارت تباع كل جرة خمر

بدرهم ويمر الناس بأبواب الدور والأزقة فترى من جرار الخر شيئاً كثيراً ولا يقدر أحد أن يتعرض لشيء منها . ثم ركب ، وكبس خط باب اللوق ، وأخذ منها شيئاً كثيراً من الحشيش وأحرقه عند باب زويلة واستمر الحال مدة شهرين مامن يوم إلا ويهرق فيه خمر عند باب زويلة ، ويحرق حشيش فطهر الله به البلد من ذلك جميعه وتتبع الزعار وأهل الفساد فخافوه وفروا من البلد فسار السلطان يشكره ويثنى عليه لما يبلغه من ذلك .

وأما العامة فإنه ثقل عليها . كرهته حتى أنه لما تأمر أبن الأمير بكتمر الساقى وركب إلى القبة المنصورية على العادة ومعه أبوه والنائب وسائر الأمراء صاحت العامة للأمير بكتمر الساقى يا أمير بكتمر بحياه ولدك أعزل هذا الظالم ورد علينا والينا يعنون الخازن فلما عرف بكتمر السلطان ذلك أعجبه وقال : يا أمير ما تخشى العامة والسوقة إلا ظالماً مثل هذا ما يخاف الله تعالى وزاد اعجاب السلطان به حتى قال له لاتشاور فى أمر المفسدين فلم يغتر بذلك ورفع إليه جميع ما يتفق له وشاوره فى كل جليل وحقير وقال له : إن جماعة من الكتاب والتجار قد عصروا الخمر وأستأذنه فى طلبهم ومصادرتهم فتدقم له بمشاورة النائب فى ذلك وإعلامه أن السلطان قد رسم بالكشف عمن عصر من الكتاب والتجار الخمر .

فلما صار إلى النائب وعرفه الخبر أهانه وقال ان السلطان لايرضى بكبس بيوت الناس وهتك حرمهم وسترهم وأقامة الشناعات وقام من فوره إلى السلطان وعرفه ما يكون فى فعل ذلك من الفساد الكبير ، ومازال به حتى صرف رأيه عما أشار به قدادار من كبس الدور وأخذ الناس فى مماقتته والأخراق به فى كل وقت فإنه كان يعنى بالخازن ولم يعجبه عزله عن الولاية فكثر جور قدادار وزاد تتبعه للناس ونادى أن لايعمل أحد حلقة فيما بين القصرين ولايسمر هناك وأمر أن لايخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة وأقام عنه نائباً من بطالى الحسينية ضمن المسطبة منه فى كل يوم بثلاثمائة درهم وانحصر الناس منه وضاقوا به ذرعاً لكثرة ماهتك استارهم وخرق بكثير من المستورين وتسلطت المستصنعة وأرباب المظالم على الناس .

وكانوا إذا رأوا سكران أو شموا منه رائحة خمر أحضروه إليه فتوقى الناس شره وشكاه الأمراء غير مرة إلى السلطان فلم يلتفت لما يقال فيه والنائب مستمر عن الإخراق به إلى أن

قبض عليه السلطان فخلا الجو لقدادار وأكثر من سفك الدماء واتلاف النفوس والتسلط على العامة لبغضهم اياه والسطان يعجبه منه ذلك بحيث أن أبرز مرسوماً لسائر عماله وولاته أن أحداً منهم لايقتص ممن وجب عليه القصاص فى النفس أو القطع إلا أن يشاور فيه ويطالع بأمره ما خلا قدادار مستولى القاهرة. فإنه لايشاور على مفسد ولاغيره ويده مطلقة فى سائر الناس.

فدهى الناس منه بعظائم وشرع فى كبس بيوت السعداء ومشت جماعة من المستصنعين فى البلد، وكتبوا الأوراق ورموها فى بيوت الناس بالتهديد فكثرت أسباب الضرر وكثر بلاء الناس به وتعنت على الباعة ونادى أن لايفتح أحد حانوته بعد عشاء الآخرة فامتنع الناس من الخروج بالليل حتى كانت المدينة فى الليل موحشة.

وأستجد على كل حارة درباً وألزم الناس بعمل ذلك فجبيت بهذا السبب دراهم كثيرة وصار الخفراء فى الليل يدورون ومعهم الطبول فى كل خط فظفر بإنسان قد سرق شيئاً من بيت فى الليل وتزيابزى النساء فسمره على باب زويلة ومازال على ذلك حتى كثرت الشناعة فعزله السلطان فى سنة تسع وعشرين بناصر الدين ابن المحسنى فأقام الى أيام الحج وسافر إلى الحجاز ورجع وهو ضعيف فمات فى سادس عشر صفر سنة ثلاثين وسبعمائة.

قنطرة الكتبة

هذه القنطرة على الخليج الناصرى بخط بركة قرموط عرفت بذلك لكثرة من كان يسكن هناك من الكتاب أنشأها القاضى شمس الدين عبدالله بن أبى سعيد بن أبى السرور الشهير بغبريال بن سعيد ناصر الدولة وولى نظر الدواوين بدمشق فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة نقل إليها من نظر البيوت بديار مصر، ثم أستدعى من دمشق وقرر فى وظيفة ناظر النظار شريكاً للقاضى شهاب الدين الأقفهى واستقر كريم الدين الصغير مكانه ناظراً بدمشق وذلك فى شهر رمضان سنة أربع وعشرين وسبعمائة.

ثم صرف غبريال من النظر بديار مصر وسافر إلى دمشق فى ثامن عشر صفر سنة ست وعشرين ، وطلب كريم الدين الصغير من دمشق ثم قرر فى مكان غبريال فى وظيفة النظر بديار مصر الخطير كاتب أرغون أخو الموفق وأعيد غبريال إلى نظر دمشق ومات بدمشق بعدما صودر وأخذ منه نحو ألفى ألف درهم فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة .

وأدركنا الأملاك منتظمة بجانبى هذا الخليج من المناظر البهجة والمساكن الجليلة ، وبيعت أنقاضها ، حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من أوله بموردة البلاط إلى هذه القنطرة ومن هذه القنطرة إلى حيث يصب فى الخليج الكبير . فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة شرع الناس فى هدم ما على هذا الخليج المناظر البهجة ، والمساكن الجليلة ، وبيعت انقاضها ، حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من المنازل ما بين قنطرة الفخر التى تقدم ذكرها وآخر خط بركة قرموط وأصبحت موحشة قفراء بعدما كانت مواطن أفراح ومغنى صبابات لا يأويها إلا الغربان والبوم سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

قنطرة المقسي

هذه القنطرة على خليج فم الخور وهو الذى يخرج من بحر النيل ، ويلتقى مع الخليج الناصرى عند الدكة فيصيرا خليجاً واحداً يصب فى الخليج الكبير كان موضعها جسراً يستند عليه الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربعة عشر ذدراعاً فيفتح ويمر الماء فيه إلى الخليج الناصرى وبركة الرطلي ، ويتأخر فتح الخليج الكبير حتى يرقى الماء ستة عشر ذراعاً .

فلما أنطرد ماء النيل عن البر الشرقى بقى تجاه هذا الخليج فى أيام احتراق النيل رملة لايصل إليها الماء إلا عند الزيادة وصار يتأخر دخول الماء فى الخليج مدة وإذا كسر سد الخليج الكبير عند الوفاء مر الماء بهذا الخليج مروراً قليلاً ومازال موضع هذه القنطرة سداً إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبى الفرج عبدالله المقسى فى أيام السلطان الملك الشرف شعبان بن حسين فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به وأتصلت العمائر أيضاً بجانبى هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أن يلتقى مع الخلج الناصري .

ثم خرب أكثر ما عليه من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصرى فى أيام النيل مرور فى المراكب للنزهة يخرجون فيه عن الحد بكثرة التهتك والتمتع بكل ما يلهى إلى أن ولى أمر الدولة بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حسين الأميران برقوق وبركة فقام الشيخ محمد المعروف بصائم الدهر فى منع المراكب من المرور بالمتفرجين فى الخليج واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني . فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك فى المراكب من الحرمات ويتجاهر به من الفواحش والمنكرات فبرز مرسوم الأميرين المذكورين بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج وركبت سلسلة على قنطرة المقسى هذه فى شهر ربيع الأول سنة أحدى وثمانين وسبعمائة . فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلا أن يكون فيها غلة أومتاع فقلق الناس لذلك وشق عليهم وقال الشهاب أحمد بن العطار الدنيسرى فى ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه

بقنطرة المقسى قد سار فى الخلق

ألا فاعجبوا من مطلق ومسلسل

يقول لقد أوقفتم الماء فى حلقي

وقال :

تسلسلت قنطرة المقسي

مماقد جرى والمنع أضحى شاملاً

وقال أهل طبنة فى مجنهم

قوموا بنا نقطع السلاسلا

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق فى سنة أحدى وتسعين وسبعمائة فأذن فى دخولها وهى مستمرة إلى وقتنا هذا .

قنطرة باب البحر

هذه القنطرة على الخليج الناصرى يتوصل إليها من باب البحر، ويمر الناس من فوقها إلى بولاق وغيره وهى مما أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصرى فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

وقد كان موضعها فى القديم غامراً بالماء عندما كان جامع المقس مطلاً على النيل . فلما أنحسر الماء عن بر القاهرة صار ما قدام باب البحر رملة فإذا وقف الإنسان عند باب البحر رأى البر المغربى لايحول بينه وبين رؤيته بنيان ولاغيره فإذا كان أوان زيادة ماء النيل صار الماء إلى باب البحر .

وربما جلفط فى بعض السنين خوفاً من غرق المقس ثم لما طال المدى غرق خارج باب البحر بأرض باطن اللوق وغرس فيه الأشجار فصار بساتين ومزارع وبقى موضع هذه القنطرة جرفاً ورمى الناس عليه التراب فصار كوماً يشنق عليه أرباب الجرائم ثم نقل ما هنالك من التراب وأنشئت هذه القنطرة ونؤدى فى الناس بالمعمارة فأول ما بنى فى غربى هذه القنطرة مسجد المهامزى وبستانه .

ثم تتابع الناس فى العمارة حتى انتظم ما بين شاطئ النيل ببولاق وباب البحر عرضاً، وما بين منشأة المهرانى ومنية الشيرج طولاً وصار ما يجانبى الخليج معموراً بالدور ومن ورائها البساتين والأسواق والحمامات والمساجد وتقسمت الطرق وتعددت الشوارع، وصار خارج القاهرة من الجهة الغربية عدة مدائن .

قنطرة الحاجب

هذه القنطرة على الخليج النصارى يتوصل إليها من أرض الطبالة ويسير الناس عليها إلى منية الشيرج وغيرها أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة ست وعشرين وسبعمائة وذلك أنه كانت أرض الطبالة بيده فلما شرع السلطان الملك الناصر محمد بن

قلاوون فى حفر الخليج الناصرى التمس بكتمر من المهندسين إذا وصلوا بالحفر إلى حيث الجرف أن يمروا به على بركة الطوابين التى تعرف اليوم ببركة الرطلى وينتهوا من هناك إلى الخليج الكبير ففعلوا ذلك .

وكان قصدهم أولاً أنه إذا إنتهى الحفر إلى الجرف مرواً فيه إلى الخليج الكبير من طرف البعل فلما تهيأ ليكتمر ذلك عمرت له أراضى الطبالة كما يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى عند ذكر البرك فعمرت هذه القنطرة فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة وأسند إليها جسراً عمله حاجزاً بين بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلى وبين الخليج الناصرى وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى عند ذكر الجسور .

ولما عمرت هذه القنطرة اتصلت العمائر فيما بينها وبين كوم الريش وعمر قبالتها ربع عرف بربع الزيتى وكان على ظهر القنطرة صفان من حوانيت وعليها سقيفة تقى حر الشمس وغيره فلما غرق كوم الريش فى سنة بضع وستين وسبعمائة صار هذا الكوم الذى خارج القنطرة ومن تحت هذه القنطرة يصب الخليج الناصرى فى الخليج الكبير ويمر إلى حيث القنطرة الجديدة وقناطر الأوز وغيرها كما تقدم ذكره .

قنطرة الدكة

هذه القنطرة كانت تعرف بقنطرة الدكة ثم عرفت بقنطرة التركمانى من أجل أن الأمير بدر الدين التركمانى عمرها وهذه القنطرة كانت على خليج الذكر ، وقد أنطم ماتحتها وصارت معقودة على التراب لتلاف خليج الذكر ولله در ابراهيم المعمار حيث يقول :

يا طالب الدكة نلت المني

وفـزت منها ببلوغ الوطر

قنطرة من فوقها دكـة

من تحتها تلقى خليج الذكر

قناطر بحر أبى المنجا

هذه القناطر من أعظم قناطر مصر وأكبرها. أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى فى سنة خمس وستين وستمائة وتولى عمارتها الأمير عزالدين أيبك الأفرم.

قناطر الجيزة

قال فى كتاب عجائب البنيان إن القناطر الموجودة اليوم فى الجيزة من الأبنية العجيبة، ومن أعمال الجبارين وهى نيف وأربعون قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدى وكان على العمائر فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التى كانت بالجيزة وأخذ حجرها فبنى منه هذه القناطر وبنى سور القاهرة ومصر وما بينهما وبنى قلعة الجبل.

وكان خصياروميا سامى الهمة وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات المذكورة وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالفاشوش فى احكام قراقوش وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة تولى أمر هذه القناطر من لابصيرة عنده فسدها رجاء أن يحبس الماء فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وأنشقت، ومع ذلك فما روى مارج أن يروى وفى سنة ثمان وسبعمائة رسم الملك المظفر بيبرس الجاشنكيز برمها فعمر ما خرب منها وأصلح ما فسد فيها فحصل النفع بها وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من حجارة ابتدأ به من حيز النيل بازاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر.

ذكر البرك

قال ابن سيده : البركة مستنقع الماء والبركة شبه حوض بحفر فى الأرض انتهى وقد رأيت بخط معتبر ما مثاله وملئوا البركة ماء فنصب الباء وكسر الراء وفتح الكاف والتاء.

بركة الحبش

هذه البركة كانت تعرف ببركة المغافر، وتعرف ببركة حمير وتعرف أيضاً باصطبل قورة وعزفت أيضاً باصطبل قامش وهى من أشهر برك مصر وهى فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل وكانت من الموات فاستنبطها قرة بن شريك العنبسى أمير مصر وأحياها وغرسها قصباً وعرفت أيضاً باصطبل قامش وتنقلت حتى صارت تعرف ببركة الحبش ودخلت فى ملك أبى بكر الماردانى فجعلها وقفاً ثم أرصدت لبنى حسن وبنى حسين أبنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم، فلم تزل جارية فى الأوقاف عليهم إلى وقتنا هذا.

قال أبو بكر الكندى فى كتاب الأمراء وقدم قرة بن شريك من وفادته فى سنة ثلاث وتسعين فاستنبط الأسطبل لنفسه من الموات وأحياه وغرسه قصباً فكان يسمى اصطبل قر ويسمى أيضاً اصطبل القامش يعنون القصب كما يقولون قامش مروان.

وقال أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم فى كتاب فتوح مصر وكان الأصطبل للأزد فأشتراه منهم الحكم بن أبى بكر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم فبناء وكان يجرى على الذى يقرأ فى المصحف الذى وضعوه فى المسجد الذى يقال له مصحف أسماء من كراه فى كل شهر ثلاثة دنانير فلما حيزت أموالهم يعنى أموال بنى أمية وضمت إلى مال الله حيز الأصطبل فيما حيز وكتب بأمر المصحف إلى أمير المؤمنين أبى العباس السفاح فكتب أن أقروا مصحفهم فى مسجدهم على حاله وأجروا على الذى يقرأ فيه ثلاثة دنانير فى كل شهر من مال الله تعالى.

وقال القضاعى بركة الحبش كانت تعرف ببركة المغافر وحمير وتعرف باصطبل قامش وكانت فى ملك أبى بكر محمد بن على الماردانى بجميع ماتشتمل عليه من المزارع والجنان خلا الجنان التى فى شرقيها وأظنها الجنان المنسوبة إلى وهب بن صدقة وتعرف بالحبش فإنى رأيت فى شرط هذه البركة أن الحد الشرقى ينتهى إلى الفضاء الفاصا [illegible] الجنان المعروفة بالحبش فدل على أن الجنان خارجة عنها .

وذكر ابن يونس فى تاريخه أن فى قبلى بركة الحبش جنانا تعرف بقتادة بن قيس بن حبشى الصدفى شهد فتح مصر والجنان تعرف بالحبش وبه تعرف بركة الحبش وذكر بعد هذا الشرط أن الحد البحرى ينتهى إلى البئر الطولونية وإلى البئر المعروفة بموسى بن أبى خليد . وهذه البئر هى البئر المعروفة بالنعش، ورأيت فى كتاب شرط هذه البركة أنها محبسة عيل البئرين اللتين أستنبطهما أبو بكر الماردانى فى بنى وائل بحضره الخليج والقنطرة المعروفة احداهما بالفندق والأخرى بالعتيق، وعلى السرب الذى يدخل منه الماء الى البئر الحجارة المعروفة بالروا التى فى بنى وائل ذات القناطر التى يجرى فيها الماء إلى المصنعة التى بحضرة العقبة التى يصار منها إلى يحصب وهى المصنعة المعروفة بدليله وعلى القنوات المتصلة بها التى تصب الى المصنعة ذات العمد الرخام القائمة فيها المعروفة بسمينة وهى التى فى وسط يحصب .

ويقال إن هناك كانت سوق ليحصب وذكر فى هذا الشرط دارا له فى موضع السقاية المعروفة بسقاية زوف وشرط أن تنشأ هذه الدار مصنعة على مثل هذه المصنعة المقدم ذكرها المعروفة بسمينة، وهى سقاية زوف اليوم وعلى القناة التى يجرى فيها الماء إلى مصنعه ذكر أنه كان أنشأها عند البئر المعروفة اليوم ببئر القبة والحوض الذى هناك بحضرة المسجد المعروف بمسجد القبة .

وكانت هذه المصنعة تسمى ريا وجعل هذا الحبس أيضاً على البئر التى له بالحبانية بحضرة الخندق وذكر أنها تعرف بالقبانية وأن ماءها يجرى إلى المصنعة المقابلة للميدان من دار الإمارة فى طريق المصلى القديم ثم إلى المصنعة التى تحت مسجده المقابل لدار عبدالعزيز ثم إلى المصنعة المقابلة لمسجد التربة المجاورة لمسجد الأخضر وتاريخ هذا الشرط شهر رمضان سنة

سبع وثلاثمائة وجعل ما يفضل عن جميع ذلك مصروفاً فى ابتياع بقر وكباش تذبح ويطبخ لحمها ويبتاع أيضاً معها خنزير ودراهم وأكسية وأعبية ويتصدق بذلك على الفقراء والمساكين بالمغافر وغيرها من القبائل بمصر.

وكان بناؤه السقايتين اللتين بالموقف والسقايات التى بالمغافر وبزوف ويحصب وبنى وائل وعمل المجارى فى سنة أربع وقيل فى سنة ثلاث وثلاثمائة وقد حبس أبو بكر على الحرمين ضياعاً كان ارتفاعها نحو مائة ألف دينار منها سيوط وأعمالها وغيرها إنتهي.

وفى تواريخ النصارى أن الأمير أحمد ابن طولون صادر البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار فباع النصارى رباع الكنائس بالأسكندرية وأرض الحبش بظاهر مصر والكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع بمصر لليهود قلت هكذا فى تواريخهم ولا أعلم كيف ملكوا أرض الحبش فلعل الماردانى هو الذى اشتراها ثم وقفها.

وقال ابن المتوج: بركة الحبش، هذه البركة مشهورة فى مكانها وقد أتصل ثبوت وقفها عند قاضى القضاه بدر الدين أبى عبدالله محمد بن سعد الله ابن جماعة رحمه الله عليه على أنها وقف على الأشراف الأقارب والطالبيين نصفين بينهما بالسوية. النصف الأول على الأقارب والنصف الآخر على الطالبيين.

وثبت قبله عند قاضى القضاه بدر الدين أبى المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى أن النصف منها وقف على الأشراف الأقارب بالاستفاضة بتاريخ ثالث عشر ربيع الأول سنا أربعين وستمائة وهم الأقارب الحسينيون وهو أذ ذاك قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى وما مع ذلك من البلاد الشامية المضافة إلى ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وثبت عند قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رحمه الله تعالى.

وكان قاضى القضاه بمصر والوجه القبلى وخطيب مصر بالإستضافة أيضاً أن البركة المذكورة وقف على الإشراف الطالبيين بتاريخ التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة وبعدهما قاضى القضاة وجيه الدين البهنسى فى ولايته ثم نقذهما بعد تنفيذ وجيه الدين المذكور فى شعبان سنة ثلاث عشرة وسبعمائة قاضى القضاة بدر الدين أبو عبدالله محمد بن جماعة وهو حاكم الديار المصرية خلا ثغر الأسكندرية ويأتى أصل خبر هذه البركة مبيناً مشروحاً من أصلها فى مكانه إن شاء الله تعالى.

قال: فمن جملة الأوقاف بركة الأشراف المشهورة ببركة الحبش وهذه البركة حدودها أربعة الحد القبلى ينتهى بعضه إلى أرض العدوية يفصل بينهما جسر هناك، وباقية إلى غيطان بساتين الوزير والحد البحرى ينتهى بعضه إلى أبنية الآدر التى هناك المطلة عليها وإلى الطريق والى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الشعيبية والحد الشرقى إلى حد بساتين الوزير المذكورة والحد الغربى ينتهى بعضه إلى بحر النيل وإلى أراضى دير الطين وإلى بعض حقوق جزيرة ابن الصابونى وجسر بستان المعشوق الذى هو من حقوق الجزيرة المذكورة.

وهذه البركة وقف الأشراف الأقارب والطالبيين نصفين بينهما بالسوية والذى شاهدته من أمرها أنى وقفت على أسجال قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارى رحمه الله تعالى عليه تاريخه ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة وهو حين ذاك حاكم القاهرة والوجه البحرى على محضر شهد فيه بالإستفاضة أن نصف هذه البركة وقف على الأشراف الأقارب الحسينيين وثبت ذلك عنده.

ورأيت اسجال الشيخ قاضى القضاة عزالدين عبدالعزيز بن عبدالسلام، رحمه الله على محضر شهد فيه بالإستفاضة وهو حين ذلك قاضى مصر والوجه القبلي، وأشهد عليه أنه ثبت عنده أن البركة المذكورة جمعيها وقف على الأشراف الطالبيين وتاريخ أسجاله التاسع والعشرون من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة، ثم نفذهما جميعاً فى تاريخ واحد قاضى القضاه وجيه الدين البهنسي، وهو قاضى القضاة حين ذاك، ثم نفذهما قاضى القضاة بدر الدين أبو عبدالله محمد بن جماعة وهو قاضى القضاة بالديار المصرية وأستقر النصف من ريع هذه البركة على الأشراف الأقارب مع قلتهم والنصف على الأشراف الطالبين مع كثرتهم وتنازعوا غير مرة على أن تكون بينهم الجميع بالسوية فلم يقدروا على ذلك وعقد لهم مجلس غير مرة فلم يقدروا على تغييره.

وأحسن ما وصفت به بركة الحبش قول عيسى بن موسى الهاشمى أمير مصر، وقد خرج إلى الميدان الذى بطرف المقابر فقال لمن معه أتتأملون الذى أرى قالوا وما الذى يرى الأمير قال أرى ميدان رهان وجنان نخل وبستان شجر ومنازل سكنى وذروة جبل وجبانة أموات ونهراً عجاجاً وأرض زرع ومراعى ماشية ومرتع خيل وساحل بحر وصائد نهر وقانص

وحش وملاح سفينة وحادى أبل ومفازة رمل وسهلاً وجبلاً فهذه ثمانية عشر متنزهاً فى أقل من ميل فى ميل وأين هذه الأوصاف من وصف بعضهم قصر أنس بالبصرة فى قوله :

زروادى القصر نعم القصر والوادي

لابد من زورة من غير ميعـــــاد

زره فليس له شيء يشـــــــــاكله

من منزل حاضرإن شئت أو بادي

تلقى به السفن والأعياس حاضرة

والضب والنون والملاح والحادي

وقال :

زروادى القصر نعم القصر والوادي

وحبـــــذا أهله من حاضر بادي

تلقى قراقرة والعبس واقفـــــــة

والضب والنون والملاح والحادي

هكذا أنشدهما أبو الفرج الأصهانى رحمه الله تعالى فى كتاب الأغانى ونسبهما لابن عينية بن المنهال بن محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة شاعر من ساكنى البصرة وقيل أن أسمه عذر، وقيل اسمه أبو عيينة، وكنيته أبو المنهال وكان بعد المائتين، وأنشد أبو العلاء المعرى فى رسالة الصاهل والساحج .

يا صاح ألمم بأهل القصر والوادي

وحبـــــدا أهله من حاضر بادي

ترى قراقرة والعيس واقفـــــة

والضب والنون والملاح والحادي

وقال أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الأندلسى وفى هذه الوقت من السنة يعنى أيام النيل تكون أرض مصر أحسن شئ منظراً ولاسيما منتزهاتها المشهورة وديارتها المطروقة كالجزيرة والجيزة وبركة الحبش وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة والقصف. ويتناولها ذوو الآداب والظرف.

واتفق ان خرجنا فى مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش وافترشنا من زهرها أحسن بساط واستظللنا من دوحها بأوفى رواق فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموساً فى خلع بدور. وجسوم نار فى غلائل نور. إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء. ونشبت نار الشفق بفحمه الظلماء فقال بعضهم (وهو أمية المذكور من قولة المشهور).

لله يـــــومى ببركة الحبش

والأفق بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب

كصـــارم فى يمين مرتعش

ونحن فى روضة مفـــوقة

دبج بالنور عطفها ووشي

قد نسجتها يد الغمام لنـــا

فنحن من نسجها على فرش

فعاطنى الراح إن تاركهـا

من ســورة الهم غير منتعش

وأثقل الناس كلهم رجل

دعاه داعى الهوى فلم يطش

فاسقنى بالكبـــار مترعة

فهـــن أشفى لشدة العطش

وقال أيضاً :

علل فؤادك باللذات والطرب

وباكر الراح بالبانات والنخب

أما ترى البركة الغناء لابســـة

وشيا من النور حاكته يد السحب

وأصبحت من جديد الروض فى حلل

قد أبرز القطر منها كل محتجب

من سوسن شرق بالطل محجره

وأقحوان شهى الظلم والشنب

فانظر إلى الورد يحكى خد محتشم

ونرجس ظل يبدى لحظ مرتقب

والنيل من ذهب يطفو على ورق

والراح من ورق يطفو على ذهب

ورب يوم نقعنا فيـــــه غلتنا

بجاحم من فم الأبريق ملتهب

شمس من الراح حيانا بها قمـــر

موف على غصن يهتز فى كثب

أرخى ذوائبه وانهـــــز منعطفا

كصعده الرمح فى مسودة العذب

فاطرب ودونكها فاشرب فقد بعثت

على التصابى دواعى اللهو والطرب

وقال :

يانزهة الرصد المصرى قد جمعت

من كل شئ حلا فى جانب الوادي

فذا غدير وذا روض وذا جبـــــل

والضب والنون والملاح والحادي

وقال ابراهيم بن الرفيق فى تاريخه حدثنى محمد الكهينى وكان أديباً فاضلاً قد سافر ورأى بلدان المشرق قال : ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التى كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبة فى القصف والعزف .

وذلك أنه لايبقى صغير ولا كبير إلا خرج إلى بركة الحبش متنزهاً فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات ويخرجون بالأهل والولد ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المماليك والمحررات فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون فإذا جاء الليل أمر الأمير تميم بن المعز مائتى فارس من عبيده بالعسس عليهم فى كل ليلة إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصروفا فيسكرون وينامون كما ينام الإنسان فى بيته ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة .

ويركب الأمير تميم فى عشارى ويتبعه أربعة زواريق مملوءة فاكهة وطعاماً ومشروباً فإن كانت الليالى مقمرة وإلا كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً فإذا مر على طائفة واستحسن من غنائهم صوتاً أمرهم بإعادته وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ويأمر لمن يغنى لهم وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليلة ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التى على هذه البركة . فلايزال على هذه الحال حتى تنقضى هذه الأيام ويتفرق الناس وقال محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى الحنفي ، وتوفى بدمشق سنة إحدى وخمسين وستمائة يصف بركة الحبش فى أيام الربيع .

إذا زُين الحسناء قرط فهذه

يزينها من كل ناحية قرط

ترقرق فيها أدمع الطل غدوة

فقلت لآل قد تضمنها قرط

وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب وخرجت مرة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الأندلسى عفا الله عنه .

لله يومـــــــى ببركة الحبش

والأفق بين الضياء والغبش

والنيل تحت الرياح مضطرب

كصارم فى يمين مرتعش

وعاينت هذه البركة أيام فيض النيل عليها أبهج منظراً ثم زرتها أيام غاض الماء وبقيت فيه مقطعات بين خضر من القرط والكتان تفتن الناصر وفيها أقوال

يا بركة الحبش التى يومى بها

طول الزمان مبارك وسعيد

حتى كأنك فى البسيطة جنة

وكأن دهرى كله بك عيد

يا أحسن ما يبدو بك الكتا

ن فى نواره اوزره معقود

والماء منك سيوفه مسلولة

والقرط فيك رواقة ممدود

وكأن أبراجاً عليك عرائس

جليت وطيرك حولها غريد

ياليت شعرى هل زمانك عائد

فالشوق فيه مبدئ ومعيد

وكان ماء النيل يدخل إلى بركة الحبش من خليج بنى وائل، وكان خليج بنى وائل مما يلى مصر من الجهة القبلية الذى يعرف إلى يومنا هذا بباب القنطرة من أجل أن هذه القنطرة كانت هناك قال ابن المتوج ورأيت ماء النيل فى زمن النيل يدخل من تحته إلى خليج بنى وائل* قلت وفى أيام الناصر محمد بن قلاوون استولى النشو ناظر الخاص على بركة الحبش وصار يدفع إلى الأشراف من بيت المال مالاً فى كل سنة. فلما مات الناصر، وقام من بعده ابنه المنصور أبو بكر أعيدت لهم.

ذكر الماردانى

هو أبو بكر محمد بن على بن محمد بن رستم بن أحمد، وقيل محمد بن على بن أحمد بن عيسى بن رستم، وقيل محمد بن على بن أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن عيسى بن رستم الماردانى أحد عظماء الدنيا. ولد بنصيبين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين وقدم إلى مصر فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وخلف أباه على بن أحمد الماردانى أيام نظره فى أمور أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وسنة يومئذ خمس عشرة سنة.

وكان معتدل الكتابة ضعيف الخط من النحو واللغة ومع ذلك فكان يكتب الكتب إلى الخليفة، فمن دونه على البديهة من غير نسخة فيخرج الكتاب سليماً من الخلل ولما قتل أبوه فى سنة ثمانين ومائتين استوزره هارون بن خمارويه فدبر أمر مصر إلى أن قدم محمد بن سليمان الكاتب من بغداد إلى مصر وأزال دولة بنى طولون وحمل رجالهم إلى العراق فكان

أبو بكر ممن حمله. فأقام ببغداد إلى أن قدم صحبة العساكر لقتال خباسة فدبر أمر البلد وأمر ونهى وحدث بمصر عن أحمد بن عبدالجبار العطاردى وغيره بسماعه منهم فى بغداد.

وكان قليل الطلب للعلم تغلب عليه محبة الملك وطلب السيادة ومع ذلك كان يلازم تلاوة القرآن الكريم ويكثر من الصلاة ويواظب على الحج وملك بمصر من الضياع الكبار مالم يملكه أحد قبله وبلغ ارتفاعه فى كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج، ووهب وأعطى وولى وصرف وأفضل ومنع ورفع ووضع وحج سبعاً وعشرين حجة أنفق فى كل حجة منها مائة وخمسين ألف دينار.

وكان تكين أمير مصر يشيعه إذا خرج للحج ويتلقاه إذا قدم وكان يحمل إلى الحجاز جميع ما يحتاج إليه ويفرق بالحرمين الذهب والفضة والثياب والحلوى والطيب والحبوب ولايفارق أهل الحجاز إلا وقد أغناهم وقيل مرة وهو بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مابات فى هذه الليلة أحد بمكة والمدينة وأعمالها إلا وهو شبعان من طعام أبى بكر المارداني.

ولما قدم الأمير محمد بن طغج الإخشيد إلى مصر أستتر منه فإنه كان منعه من دخول مصر وجمع العساكر لقتاله فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل، وحارب بهم بعد موت تكين أمير مصر ومرت به خطوب لكثرة فتن مصر إذ ذاك وأحرقت دوره ودور أهله ومجاوريه. وأخذت أمواله واستتر فقبض على خليفته. وعماله فكتب إلى بغداد يسأل إمارة مصر وكتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك فعاد الجواب بإمارة أبن تكين وأن يكون المارداني يدبر أمر مصر، ويولى من شاء فظهر عند ذلك من الإستتار وأمر ونهى ودبر أمر البلد وصار الجيش بأسره يغدو إلى بابه فانفق فى جماعة واصطنع قوما، وقتل عدة من أصحاب ابن تكين.

وكان محمد بن تكين بالقدس وأمر مصر كله للمارداني بمفرده ومعه أحمد بن كيغلغ وقد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر وولاية أبى بكر المارداني تدبير الأمور فاستمال أبوبكر أحمد بن كيغلغ حتى صار معه على أبن تكين وحاربه وكان من أمره ما كان إلى أن قدمت عساكر الإخشيد فقام أبو بكر لمحاربتهم ومنع الأخشيد من مصر فكان الأخشيد غالباً

له ودخل البلد فاستتر منه أبوبكر إلى أن دل عليه فأخذه وسلمه إلى الفضل بن جعفر بن الفرات فلما صار إلى أبن الفرات قال له إيش هذا الإستيحاش والتستر وأنت تعلم أن الحج قد أظل، ويحتاج لإقامة الحج؟ فقال أبو بكر أن كان إلى فخمسة عشر ألف دينار فقال ابن الفرات ايش خمسة عشر ألف دينار؟ قال ما عندى غير هذا فقال ابن الفرات بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف ومنعت أمير البلد من الدخول ثم صاح : ياشادن خذه إليك فأقيم وأدخل إلى بيت وكان يومئذ صائماً فامتنع من تناول الطعام والشراب ولزم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته وأصبح فامتنع ابن الفرات من الأكل اجلالاً له فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية امتنع أبو بكر من الفطر كما امتنع فى الليلة الأولى فامتنع ابن الفرات أيضاً من الأكل، وقال لا آكل أبداً أو يأكل أبوبكر فلما بلغ ذلك أبا بكر أكل فأخذ أبن الفرات فى مصادرته وقبض على ضياعه التى بالشام ومصر وتتبع أسبابه ثم خرج به معه إلى الشام وعاد به إلى مصر، ثم خرج به ثانياً إلى الشام فمات الفضل بن الفرات بالرملة، ورجع أبوبكر إلى مصر فرد إليه الإخشيد أمور مصر كلها وخلع على أبنه وتقلد السيف ولبس المنطقة ولبس أبو بكر الدراعة تنزها .

ثم تنكر عليه الإخشيد وقبضه فى سنة أحدى وثلاثين وثلاثمائةوجعله فى دار وأعد له فيها من الفرش والآلات والأوانى والملبوس والطيب والطرائف وأنواع المآكل والمشارب مابلغ فيه الغاية وتفقدها بنفسه وطافها كلها فقيل له عملت هذا كله لمحمد بن على الماردانى؟ فقال : نعم هذا ملك وأردت أن لايحتقر بشئ لنا ولايحتاج أن يطلب حاجة إلا وجدها فإنه إن فقد عندنا شيئاً مما يريده استدعى به من داره . فنسقط نحن من عينيه عند ذلك .

فلم يزل معتقلاً حتى خرج الإخشيد إلى لقاء أمير المؤمنين المتقى لله فحمله معه ولما مات الأخشيد بدمشق كان أبو بكر بمصر فقام بأمر أونوجور بن الأخشيد وقبض على محمد بن مقاتل وزير الإخشيد وأمر ونهى وصرف الأمور الى أن كانت واقعة غلبون، واتصال أبى بكر به فلما عادت الأخشيدية قبض على أبى بكر ونهبت دوره وأحرق بعضها وأخذ أبنه وقام أبوالفضل جعفر بن الفضل ابن الفرات بأمر الوزارة .

فعند ما قدم كافور الإخشيدى من الشام بالعساكر التى كانت مع الإخشيد أطلق أبا بكر وأكرمه، ورد إليه ضياعه وضياع ابنه فلما ماتت أم ولده لحقه كافور ومعه الأمير أونوجور

عند المقابر وترجلاً له وعزياه ثم ركب معه حتى صليا عليها فلما مرض مرض موته عاده كافور مراراً إلى أن مات فى شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلثمائة فدفن بداره ثم نقل إلى المقابر.

وكانت فضائله جمة. منها أنه أقام أربعين سنة يصوم الدهر كله ويركب كل يوم إلى المقابر بكرة وعشية فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده وأهله فيقرأ عندهم ويدعو لهم وينصرف إلى المساجد فى الصحراء فيصلى بها والناس وقوف له إلا أنه كان فى غاية العجلة لايراجع فيما يريده ولو كان ما كان.

ولما أراد المقتدر أن يقيم وزيراً كتبت رقعة فيها أسماء جماعة وأنفذت إلى على بن عيسى ليشير بواحد منهم وكان أبو بكر ممن كتب معهم أسمه فكتب تحت كل أسم واحد منهم ما يستحقه من الوصف وكتب تحت اسم أبى بكر محمد بن على الماردانى مترف عجول، وبنى أبو بكر السقايات والمساجد فى المغافر وفى يحصب وبنى وائل وليس لشئ منها اليوم أثر يعرف ومرت له فى هذا الكتاب أخبار وقد أفرد له أبن زولاق سيرة كبيرة وهذا منها والله أعلم.

ذكر بساتين الوزير

هذه البساتين فى الجهة القبلية من بركة الحبش وهى قرية فيها عدة مساكن وبساتين كثيرة وبها جامع تقام فيه الجمعة وعرفت بالوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن على بن محمد المغربي، وبنو المغربى أصلهم من البصرة وصاروا إلى بغداد وكان أبو الحسن على بن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد. فنسب به إلى المغرب وولد أبنه الحسين بن على ببغداد فتقلد أعمالاً كثيرة منها تدبير محمد بن ياقوت عند استيلائه على أمر الدولة ببغداد، وكان خال ولده علي. وهو أبو على هارون بن عبدالعزيز الأوارجي. الذى مدحه أبو الطيب المتنبى من أصحاب أبى بكر محمد بن رائق. فلما لحق ابن رائق ما لحقه بالموصل صار الحسين ابنه على بن المغربى إلى الشام ولقى الإخشيد وأقام عنده وصار ابنه

أبو الحسن على بن الحسين ببغداد فأنقذ الإخشيد غلامه فاتك المجنون فحمله ومن يليه إلى مصر.

ثم خرج ابن المغربى من مصر إلى حلب، ولحق به سائر أهله ونزلوا عند سيف الدولة أبى الحسن على بن عبدالله بن حمدان مدة حياته وتخصص به الحسين بن على بن محمد المغربى ومدحه أبو نصر ابن نباته وتخصص أيضاً على بن الحسين بسعد الدولة بن حمدان ومدحه أبو العباس النامي.

ثم شجر بينه وبين ابن حمدان ففارقه، وصار إلى بكجور بالرقة فحسن له مكاتبه العزيز بالله نزار والتحيز إليه فلما وردت على العزيز مكاتبه بكجور قبله واستدعاه وخرج من الرقة يريد دمشق فوافاه عبدالعزيز بولاية دمشق وخلفه فتسلمها وخرج لمحاربة أبن حمدان بحلب بمشورة على بن المغربى فلم يتم له أمر وتأخر عنه من كاتبه فقال لأبن المغربى غررتنى فيما أشرت به على وتنكر له ففر منه إلى الرقة.

وكانت بين بكجور وبين أبن حمدان خطوب آلت إلى قتل ابن بكجور ومسير أبن حمدان إلى الرقة ففر أبن المغربى منها إلى الكوفة وكاتب العزيز بالله يستأذنه فى القدوم فأذن له وقدم إلى مصر فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائةوخدم بها ونقدم فى الخدم فحرض العزيز على أخذ حلب فقلد ينجو تكين بلاد الشام وضم إليه أبا الحسن بن المغربى ليقوم بكتابته، ونظر الشام وتدبير الرجال والأموال.

فسار إلى دمشق فى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائةوخرج إلى حلب وحارب أبا الفضائل بن حمدان وغلامه لؤلؤا فكاتب لؤلؤ أبا الحسن أبن المغربى واستماله حتى صرف ينجو تكين عن محاربة حلب وعاد إلى دمشق وبلغ ذلك العزيز بالله فاشتد حنقه على أبن المغربى وصرفه بصالح بن على الروذبادي، واستقدم ابن المغربى إلى مصر، ولم يزل بها حتى مات العزيز بالله وقام من بعده أبنه الحاكم بأمر الله أبو على منصور فكان هو وولده أبو القاسم حسين من جلسائه.

فلما شرع الحاكم بأمر الله فى قتل رجال الدولة من القواد والكتاب والقضاة قبض على على ومحمد ابنى المغربى وقتلهما. ففر منه أبو القاسم حسين بن على بن المغربى إلى حسان

أبن مفرج بن الجراح . فأجاره وقلد الحاكم بارجتكين الشام فخافه ابن جراح لكثره عساكره فحسن له ابن المغربى مهاجمته فطرق يارجتكين فى مسيرة على غله وأسره ، وعاد إلى الرملة . فشن الغارات على رساتيقها .

وخرج العسكر الذى بالرملة فقاتل العرب قتالاً شديداً كادت العرب أن تُهزم لولا أن ثبتها ابن المغربي ، وأشار عليهم باشهار النداء بأباحة النهب والغنيمة فثبتوا ونادوا فى الناس فاجتمع لهم خلق كثير ، وزحفوا إلى الرملة فملكوها وبالغوافى النهب والهتك والقتل فأنزعج الحاكم لذلك انزعاجاً عظيماً وكتب إلى مفرج بن جراح يحذره سوء العاقبة ويلزمة بإطلاق يارجتكين من يد حسان ابنه وإرساله إلى القاهرة ووعده على ذلك بخمسين ألف دينار .

فبادر أبن المغربى لما بلغه ذلك إلى حسان ومازال يغريه بقتل يارجتكين حتى أحضره وضرب عنقه فشق ذلك على مفرج وعلم أنه فسد ما بينهم وبين الحاكم فأخذ ابن المغربى يحسن لمفرج خلع طاعة الحاكم والدعاء لغيره إلى أن أستجاب له فراسل أبا الفتوح الحسن بن جعفر العلوى أمير مكة يدعوه إلى الخلافة ، وسهل له الأمر وسير إليه بابن المغربى يحثه على المسير وجرأه على أخذ مال تركه بعض المياسير ونزع المحاريب الذهب والفضة المنصوبة على الكعبة وضربها دنانير ودراهم وسماها الكعبية .

وخرج أبن المغربى من مكة فدعا العرب من سليم وهلال وعوف بن عامر ، ثم سار به وبمن اجتمع عليه من العرب حتى نزل الرملة . فتلقاه بنو الجراح وقبلوا له الأرض وسلموا عليه بأمره المؤمنين ونادى فى الناس بالأمان وصلى بالناس الجمعة فتنغص الحاكم لذلك وأخذ فى استماله حسان ومفرج وغيرهما ، وبذل لهم الأموال فتنكروا على أبى الفتوح وقلد أيضاً مكة بعض بنى عم أبى الفتوح فضعف أمره وأحس من حسان بالغدر فرجع إلى مكة وكاتب الحاكم ، واعتذر إليه فقبل عذره وأما ابن المغربى فإنه لما انحل أمر أبى الفتوح ، ورأى ميل بن الجراح إلى الحاكم كتب إليه :

وأنت وحسبى أنت تعلم أن لي

لساناً أمام المجد يبنى ويهدم

وليس حليماً من تباس يمينه

فيرضى ولكن من تعض فيحلم

فسير إليه أماناً بخطة، وتوجه أبن المغربى قبل وصول أمان الحاكم إليه إلى بغداد، وبلغ القادر بالله خبره فاتهمة بانه قدم فى فساد الدولة العباسية فخرج إلى واسط واستعطف القادر فعطف عليه وعاد إلى بغداد ثم مضى إلى قرواش بن المقلد أمير العرب وسار معه إلى الموصل فأقام بها مدة، وخافه وزير قرواش فأخرجه إلى ديار بكر فأقام عند أميرها نصير الدولة أبى نصر أحمد بن مروان الكردى وتصرف له، وكان يلبس فى هذه المدلة المرقعة والصوف فلما تصرف غير لباسه وانكشف حاله فصار كمن قيل فيه وقد ابتاع غلاماً تركياً كان يهواه قبل أن يبتاعه.

تبدل من مرقعة ونسك

بأنواع الممسك والشفوف

وعن له غزال ليس يحوي

هواه ولا رضاه بلبس صوف

فعاد أشد ما كان انتهاكا

كذاك الدهر مختلف الصروف

وأقام هناك مدة طويلة فى أعلى حال وأجل رتبة وأعظم منزلة، ثم كوتب بالمسير إلى الموصل ليستوزره صاحبها. فسار عن مبا فارقين وديار بكر إلى الموصل فتقلد وزارتها وتردد إلى بغداد فى الوساطة بين صاحب الموصل وبين السلطان أبى على بن سلطان الدولة أبى شجاع بن بهاء الدولة أبى نصر بن عضد الدولة أبى شجاع بن ركن الدولة أبى على بن بويه.

واجتمع برؤساء الديلم والأتراك، وتحدث فى وزارة الحضرة حتى تقلدها بغير خلع ولا لقب ولا مفارقة الدراعة فى شهر رمضان سنة خمس عشرة وأربعمائة. فأقام شهوراً وأغرى جال الدولة بعضهم ببعض وكانت أمور طويلة آلت إلى خروجه من الحضرة إلى قرواش تجدد للقادر بالله فيه سوء ظن بسبب ما أثاره من الفتنة العظيمة بالكوفة حتى ذهبت فيها

عدة نفوس وأموال ففر إلى أبى نصير بن مروان فأكرمه وأقطعه ضياعاً، وأقام عنده فكوتب من بغداد بالعود إليها فبرر عن ميا فارقين بريد المسير إلى بغداد قسم هناك وعاد إلى المدينة فمات بها لأيام خلت من شهر رمضان سنة ثمان عشرة وأربعمائة .

ومولده بمصر ليلة الثالث عشر من ذى الحجة سنة سبعين وثلاثمائةوكان أسمر شديد السمرة بساطاً عالماً بليغياً مترسلاً متفنناً فى كثير من العلوم الدينية والأدبية والنحوية مشاراً إليه فى قوة الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر والبديهة عظيم القدر صاحب سياسة وتدبير وحيل كثيرة وأمور عظام. دوخ الممالك وقلب الدول وسمع الحديث وروى وصنف عدة تصانيف وكان ملولاً حقودا لاتلين كبده ولاتنحل عقده ولايحنى عودة، ولاترجى وعوده وله رأى يزين له العقوق، ويبغض إليه رعاية الحقوق كأنه من كبرة قد ركب الفلك وأستولى على ذات الحبك .

وكان بمصر من بنى المغربى أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى قد قتل الحاكم جده محمداً مع أبيه على بن الحسين كما تقدم فلما نشأ أبو جعفر سار إلى العراق، وخدم هناك وتنقلت به الأحوال ثم عاد إلى مصر واصطنعه الوزير البارزي، وولاء ديوان الجيش .

وكانت السيدة أم المستنصر بالله تعنى به فلما مات الوزير البارزى وولى بعده الوزير أبوالفرج عبدالله بن محمد البابلى قبض عليه فى جملة أصحاب البارزى وأعتقله، فتقررت له الوزارة وهو فى الإعتقال وخلع عليه فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة، ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصته فما تعرض لأحد ولافعل فى البابلى مافعله البابلى فيه وفى أصحاب البارزى فأقام سنتين وشهورا وصرف فى تاسع شهر رمضان سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، وكان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرفوا فاقترح أبوالفرج بن المغربى لما صرف أن يتولى بعض الدواوين، فولى ديوان الإنشاء الذى يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر وهو الذى استنبط هذه الوظيفة بديار مصر واستحدث استخدام الوزراء بعد صرفهم عن الوزارة ولم يزل نابه القدر إلى أن توفى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

بركة الشعيبية

هذه البركة موضعها خلف جسر الأفرم فيما بينه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بالرصد وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وقد أنقطع عنها الماء وصارت بساتين ومزارع وغير ذلك قال ابن المتوج بركة الشعيبية بظاهر مصر كان يدخل إليها ماء النيل وكان لها خليجان أحدهما من قبليها وهو الآن بجوار منظرة الصاحب تاج الدين بن حنا المعروفة بمنظرة المعشوق والثانى من بحريها ويقال له خليج بنى وائل عليه قنطرة بها عرف باب القنطرة بمصر وكان يجرى فيهما الماء من النيل إليها فكان الماء يدخل إليها فى كل سنة ويعمها ويدخل إليها الشخاتير.

وكان بدائرها من جانبها الشرقى آدر كثيرة وكانت نزهة المصريين فلما أستأجرها الأمير عز الدين أيبك الأفرم من الناظر عليها من جهة الحكم العزيزى حازها بالجسور عن الماء وغرس فيها الأشجار والكروم وحفر الآبار.

وهذه البركة مساحتها أربعة وخمسون فداناً ولها حدود أربعة الحد القبلى ينتهى بعضه إلى بعض أرض المعشوق الجارى فى وقف أبن الصابونى والى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الحبش وفى هذا الجسر الآن قنطرة يدخل إليها الماء من خليج بركة الأشراف والحد البحرى كان ينتهى بعضه إلى منظرة قاضى القضاه بدر الدين السنجارى وإلى جسره، والحد الشرقى ينتهى إلى الآدر التى كانت مطلة عليها وقد خرب أكثرها وكانت مسكن أعيان المصريين من القضاة والكتاب، والحد الغربى ينتهى إلى جرف النيل.

ولما أستأجرها الأفرم شرط له خمسة أفدنة يعمر عليها ويؤجرها لمن يعمر عليها. منها فدان واحد من بحريها، وفدانان من غربيها ملاصقان لجدار البساتين، وفدانان بالجرف الذى من حقوقها فلما مات الأفرم طمع الأمير علم الدين الشجاعى فى ورثته وفى الوقف وأربابه فغصب أرض الجرف، وجملتها فدانان ثم تركها فلما كان فى أثناء دولة الناصر محمد بن قلاوون ووزارة الأعسر يبعث أرضها لارباب الأبنية التى عليها.

وهذه البركة وقفها الخطير بن مماتي، ودخل معهم بنو الشعيبية لاختلاط أنسابهم بالتناسل وقال فى موضع آخر ومن جملة الأوقاف بركة الخطير بن مماتى المشهورة ببركة

الشعيبية ومساحة أرضها أربعة وخمسون فداناً وربع ولها حدود أربعة القبلى من البركة الصغرى منها إلى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الحبش، وفيه قنطرة يمر منها الماء إلى هذه البركة وباقى هذا الحد إلى بعض أبنية مناظر المعشوق ومن جملة حقوق هذا الوقف المجاز المستطيل المسلوك فيه إلى المنظرة المذكورة ومنه دهليزها والإيران البحرى وهذا جميعه رأيته ترعة من تراع هذه البركة المذكورة يمر الماء فيها فى زمن النيل إليها وكان باقى هذه المنظرة دارا مطلة على بحر النيل من شرقيها وعلى هذه الترعة من بحريها ثم ملكها الصاحب تاج الدين بن حنا، وهدمها وردم الخليج، وعمر المنظرة والحمام والبيوت الموجودة الآن.

وباقى ذلك كله فى أرض ابن الصابونى وحد هذه البركة من الجهة البحرية إلى الطريق الآن، وكان فيه جسر يعرف بجسر الحيات كان يفصل بين هذه البركة وبين بركة شطا، وكان فيه قنطرة يجرى الماء فيها من هذه البركة إلى بركة شطا وكان فى هذا الحد ترعة أخرى يجرى الماء فيها فى زمن النيل من البحر إلى هذه البركة. ورأيته يجرى فيها ورأيت الشخاتير تدخل فيها إلى هذه البركة وأما حدها الشرقى فإنه كان إلى أبنية الآدر المطلة على هذه البركة.

وأما حدها الغربى فإنه كان إلى بحر النيل ولم تزل كذلك إلى أن أستأجرها الأمير عزالدين أيبك الأفرم فردم هذه الترعة وبنى حيطان هذا البستان، وجسر عليه وزرع فيه الشتول والخضروات.

وأقام على ذلك عدة سنين ثم أستأجره أجارة ثانية واشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانبه الغربي، وفدان فى جانبه البحرى فعمر الناس واستغنى عن الجسور، ورخص على الناس حتى رغبوا فى العمارة وآجر كل مائة ذراع من ذلك بعشرة دراهم نقره وعمر البئر المشهورة ببئر السواقى فعمرت أحسن عمارة فلما توفى الأفرم طمع الشجاعى فى أرباب الوقف وفى ورثته ونزع منهم الفدانين المطلة على بحر النيل وابتاع ذلك من وكيل بيت المال، وأعانه عليه قوم آخرون يجتمعون عند الله تعالى.

ذكر المعشوق

أعلم أن المعشوق اسم لمكان فيه أشجار بظاهر مصر من جملة خطة راشدة. عرف أولاً بجنان كهمس بن معمر، ثم عرف بجنان الماردانى ثم عرف بجنان الأمير تميم بن المعز لدين الله ثم جدده الأفضل بن أمير الجيوش، فعرف به وآخراً صار من وقف ابن الصابونى فأخذه الصاحب تاج الدين محمد بن حنا وعمر به مناظر وأوصى بعمارة رباط للآثار النبوية وأن توقف عليه فلما أنشئ الرباط المذكور أرصد لمصالحه، وهو الآن وقف عليه.

وأرض هذا البستان مما وقفه ابن الصابونى على بنيه وعلى رباطه المجاور لقبة الأمام الشافعى رضى الله تعالى عنه بالقرافة وبنو الصابونى يستأدون من المتحدث على رباط الآثر شيئاً فى كل سنة عن حكر أرض بستان المعشوق. قال القضاعى فى ذكر خطة راشدة: ومنها المقبرة المعروفة بمقبرة راشدة والجنان المعروفة كانت تعرف بكهمس بن معمر ثم عرفت بالماردانى وهو المعروف بالآن بالأمير تميم بن المعز.

هذا وقد بنى المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فى الجانب الشرقى من سر من رأى قصراً سماه المعشوق وأقام به وبين بغداد وتكريت منزلة فيها آثار بناء وقصور تسمى العاشق والمعشوق وفيه أنشد الشريف زهرة بن على بن زهرة بن الحسن الحسينى وقد اجتاز به يريد الحج.

قد رأيت المعشوق وهو من الهجـ
ر بحال تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سـوء
قد أدالت يد الحوادث منه

وقال ابن يونس (كهمس) بن معمر بن محمد بن معمر بن حبيب يكنى أبا القاسم. كان أبوه بصرياً، وولد هو بمصر وكان عاقلاً وكانت القضاة تقبله حدث عن محمد بن رمح عيسى بن حماد زغبة وسلمة بن شبيب ونحوهم توفى فى يوم الأثنين لأربع خلون من شهر بيع الأول سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.

وقال أبن خلكان : (تميم) بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب، وهو الذى بنى القاهرة المعزية، وكان تميم فاضلاً شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً، ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز. فوليها بعد أبيه وأشعاره كلها حسنة، وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين وثلاثمائةوقد ذكر كلا من الماردانى وأبن حنا والأفضل

وأما ابن مماتى فإنه (أسعد) بن مهذب بن زكريا ابن قدامه بن نينا شرف الدين مماتى أبى المكارم بن سعيد بن أبى المليح الكاتب المصري. أصله من نصارى سيوط من صعيد مصر، واتصل جده أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير مصر فى أيام الخليفة المستنصر بالله وكتب فى ديوان مصر وولى استيفاء الديوان وكان جواداً ممدوحاً انقطع إليه أبو الطاهر، إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكيسة الشاعر. فمن قوله فيه لما مات:

طويت سماء المكرما
ت وكورت شمس المديح
وتناثرت شهب العلا
من بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدني
من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما
عـذروا به دون المسيح

ورثاه جماعة من الشعراء. ولما مات ولى ابنه المهذب بن أبى المليح زكريا ديوان الجيش بمصر فى آخر الدولة الفاطمية فلما قدم الأمير أسد الدين شيركوه، وتقلد وزارة الخليفة العاضد شدد على النصاري، وأمرهم بشد الزنانير على أوساطهم، ومنعهم من إرخاء الذؤابة التى تسمى اليوم بالعذبة فكتب لأسد الدين.

يا أسد الدين ومن عدله
يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غيارا شد أوساطنا

فما الذى أوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته، ولا مكنه من ارخاء الذؤابة، وعند ما أيس من ذلك أسلم فقدم على الدواوين حتى مات فخلفه ابنه أبو المكارم أسعد بن مهذب الملقب بالخطير على ديوان الجيش واستمر فى ذلك مدة أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأيام ابنه الملك العزيز عثمان.

وولى نظر الدواوين أيضاً، واختص بالقاضى الفاضل وحظى عنده وكان يسميه بلبل المجلس لما يرى من حسن خطابه، وصنف عدة مصنفات منها تلقين اليقين فيه الكلام على حديث بنى الإسلام على خمس وكتاب حجة الحق على الخلق فى التحذير من سوء عاقبة الظلم وهو كبير وكان السلطان صلح الدين يكثر النظر فيه.

وقال فيه القاضى الفاضل: وقفت من الكتب على مالا تحصى عدته فما رأيت والله كتاباً يكون قباله باب منه وانه والله من أهم ما طالعه الملوك وكتاب قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجرى فيها وهو أربعة أجزاء ضخمة والذى يقع فى أيدى الناس جزء واحد أختصره منه غير المصنف فإن ابن مماتى ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربها ومتحصلها من عين وغلة، ونظم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف، ونظم كليلة ودمنة وله ديوان شعر.

ولم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل أبو بكر أبن أيوب ووزر له صفى الدين على بن عبدالله بن شكر فخافه الأسعد لما كان يصدر منه فى حقه من الإهانة وشرع الوزير بن شكر فى العمل عليه ورتب له مؤامرات ونكبة وأحال عليه الأجناد ففر من القاهرة وسقط فى حلب. فخدم بها حتى مات فى يوم الأحد سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة عن أثنتين وستين سنة وكان سبب تلقيب أبى مليح بمماتى أنه كان عنده فى غلاء مصر فى أيام المستنصر قمح كثير وكان يتصدق على صغار المسلمين وهو إذ ذاك نصرانى وكان الصغار إذ رأوه قالوا مماتي. فلقب بها ومن شعره:

تعاتبنى وتنهى عن أمـــور

سبيل الناس أن ينهوك عنها

أنقدر أن تكون كمثل عيني

وحقـك ما على أضر منها

وقال فى أترجه كانت بين يدى القاضى الفاضل وهو معنى بديع :

لله بل للحسن أترجة

تذكر النـاس بأمـــر النعيم

كأنها قد جمعت نفسها

من هيبة الفاضل عبدالرحيم

بركة شطا

هذه البركة موضعها الآن كيمان على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالباً جسر الأفرم ورباط الآثار. كان الماء يعبر إليها من خليج بنى وائل، وموضعه على يمنة من يخرج من باب القنطرة المذكورة وكان عليه قنطرة بناها العزيز بالله بن المعز وبها سمى باب القنطرة هذا.

قال ابن المتوج: بركة شطا بظاهر مصر على يسره من مر من باب القنطرة وكان الماء يدخل إليها من خليج بنى وائل من برانخ بالسور المستجد ومن بركة الشعبية من قنطرة فى وسط الجسر المعروف بجسر الحيات الذى كان يفصل بين البركتين المذكورتين وكان بوسطها مسجد يعرف بمسجد الجلالة. بقناطر بوسطها كان يسلك عليها إليه وكان يطل على بركة شطا آدر خربت بانقطاع الماء عنها وكان إلى جانبها بستان فيه منظرة ودرابة وطاحون وحمام وبظاهر بابه حوض سبيل وقف ذلك المخلص الموقع وقد خرب.

بركة قارون

هذه البركة موضعها الآن فيما بين حدرة ابن قميحة خلف جامع ابن طولون، وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل، وعليها الآن عدة آدر، وتعرف ببركة قراجاً، وكان عليها عدة عمائر جليلة فى قديم الزمان عندما عمر العسكر والقطائع. فلما خرب العسكر والقطائع كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب خرب ما كان من الدور على هذه البركة أيضاً حتى أنه كان من خرج من مصلى مصر القديم وموضعه الآن الكوم الذى يطل على قبر القاضى بكار بالقرافة الكبرى يرى بركة الفيل وقارون والنيل.

ولم يزل ما حوله هذه البركة خراباً إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون البركة الناصرية فى أراضى الزهري، وكانت واقعة الكنائس فى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فصار جانب هذه البركة الذى يلى خط السبع سقايات مقطع طريق. فيه مركز يقيم فيه من جهة متولى مصر من يحرس المارة من القاهرة إلى مصر، ولم يكن هناك شئ من الدور وإنما كان هناك بستان بجوار حوض الدمياطى الموجود الآن تجاه كوم الأسارى على يمنه من خرج وسلك من السبع سقايات إلى قنطرة السد، ويشرف هذا البستان على هذه البركة فحكر أقبغا عبدالواحد مكانه وصارت فيه الدور الموجودة الآن. كما ذكر عند حكر أقبغا فى ذكر الأحكار.

قال القضاعي: دار الفيل هى الدار التى على بركة قارون. ذكر بنو مسكين أنها من حبس جدهم وكان كافور أمير مصر اشتراها وبنى فيها دارا ذكر أنه أنفق عليها مائة ألف دينار ثم سكنها فى رجب سنة ست وأربعين وثلاثمائةوذكر اليمنى أنه أنتقل إليها فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة وأنه كان أدخل فيها عدة مساجد ومواضع أغتصبها من أربابها ولم يقم فيها غير أيام قلائل ثم أرسل إلى أبى جعفر مسلم الحسينى ليلاً فقال له امض بى إلى دارك فمضى به فمر على دار فقال لمن هذه فقال لغلامك نحرير التربية فدخلها وأقام فيها شهورا إلى أن عمروا له دار خمارويه المعروفة بدار الحرم وسكنها.

وقيل إن سبب أنتقاله من جنان بنى مسكين بخار البركة وقيل وباء وقع فى غلمانه وقيل ظهر له بها جان وكانت دار الفيل هذه ينظر منها جزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة قال أبو عمر الكندي : فى كتاب الموالى ومنهم أبو غنيم مولى مسلمة بن مخلد الأنصارى كان شريفاً فى الموالى وولاء عبدالعزيز بن مروان الجزيرة ثم عزله عنها ، وكان يجلس فى داره التى يقال لها دار الفيل فينظر إلى الجزيرة فيقول لأخوانه أخبرونى بأعجب شئ فى الدينا قالوا منارة الأسكندرية . قال ما أصبتم شيئاً قال : فيقولون له فقناه قرطاجنة . فيقول ما صنعتم شيئاً قالوا فما تقول أنت قال : العجب أنى أنظر إلى الجزيرة ولا أقدر أدخلها وعلى هذه البركة الآن عدة آدر جليلة وجامع وحمام وغير ذلك والله تعالى أعلم بالصواب .

بركة الفيل

هذه البركة فيما بين مصر والقاهرة ، وهى كبيرة جداً ، ولم يكن فى القديم عليها بنيان ولما وضع جوهر القائد مدينة القاهرة كانت تجاه القاهرة ثم حدثت حارة السودان وغيرها خارج باب زويلة وكان ما بين حارة السودان وحارة اليانسية وبين بركة الفيل فضاء ثم عمر الناس حول بركة الفيل بعد الستمائة حتى صارت مساكنها أجل مساكن مصر كلها .

قال : ابن سعيد وقد ذكر القاهرة وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب . وفيها أقول :

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتفت

بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى والأبصار ترمقها

كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت إليها ، وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت :

أنظر إلى بركة الفيل التى نحرت

لهـــا الغزالة نحرا من مطالعها

وخل طرفك محفوفاً ببهجتهـا

تهيم وجـــدا وحبا فى بدائعها

ومـاء النيل يدخل إلى بركـة الفـيل من الموضع الذى يعـرف اليـوم بالجسـر الأعظم تجـاه الكبش وبلغنى أنه كان هناك قنطرة كبيرة فهدمت وعمل مكانها هذه المجاديل الحجر التى يمر عليها الناس ويعبر ماء النيل إلى هذه البركة أيضاً من الخليج الكبير من تحت قنطرة تعرف قديماً وحديثاً بالمجنونة ، وهى الآن لا تشبه القناطر وكأنها سرب يعبر منه المال وفوقه بقيه عقد من ناحية الخليج كان قد عقده الأمير الطيبرس وبنى فوقه منتزها فقال فيه علم الدين بن الصاحب

ولقد عجبت من الطبرس وصحبه

وعقـــــولهم بعقوده مفتونة

عقدوا عقوداً لاتصـــــح لأنهم

عقـــدوا لمجنون على مجنونة

وكان الطيبرس، هذا يعتريه الجنون ، واتفق أن هذا العقد لم يصح وهـــدم وآثاره باقية إلى اليوم .

بركة الشقاف

هذه البركة فى بر الخليج الغربى بجوار اللوق، وعليها الجامع المعروف بجامع الطباخ فى خط باب اللوق، وكانت هذه البركة من جملة أراضى الزهرى كما ذكر فى حكر الزهرى عند

ذكر الأحكار، وكان عليها فى القديم عدة مناظر. منها منظرة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور وذلك أيام كانت أراضى اللوق مواضع نزهة قبل أن تحتكر وتبنى دورا، وذلك بعد سنة ستمائة والله تعالى أعلم.

بركة السباعين

عرفت بذلك لأنه أتخذ عليها دار للسباع وهى موجودة هناك إلى يومنا هذا، وهى من جملة ذلك الخط وما حوله من منشأة المهرانى إلى المقس بساتين ثم حكرت.

بركة الرطلي

هذه، البركة من جملة أرض الطبالة عرفت ببركة الطوابين. من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاون الخليج الناصرى التمس الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج على الجرف إلى أن يمر بجانب بركة الطوابين هذه، ويصب من بحرى أرض الطبالة فى الخليج الكبير فوافقوه على ذلك ومر الخليج من ظاهر هذه البركة كما هو اليوم فلما جرى ماء النيل فيه روى أرض البركة فعرفت ببركة الحاجب فإنها كانت بيد الأمير بكتمر الحاجب المذكور.

وكان فى شرقى هذه البركة زاوية بها نخل كثير وفيها شخص يصنع الأرطال الحديد التى تزن بها الباعة فسماها الناس بركة الرطلى نسبة لصانع الأرطال وبقيت نخيل الزاوية قائمة بالبركة الى ما بعد سنة تسعين وسبعمائة فلما جرى الماء فى الخليج الناصري، ودخل منه إلى هذه البركة عمل الجسر بين البركة والخليج فحكره الناس وبنوا فوقه الدور ثم تتابعوا فى البناء حول البركة حتى لم يبق بدائرها خلو.

وصارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصرى فتدورها تحت البيوت وهى مشحونة بالناس فتمر هنالك للناس أحوال من اللهو ويقصر عنها الوصف وتظاهر الناس فى المراكب بأنواع المنكرات من شرب المسكرات وتبرج النساء الفاجرات واختلاطهن بالرجال من غير إنكار. فإذا نضب ماء النيل زرعت هذه البركة بالقرط وغيره فيجتمع فيها من الناس فى يوم الأحد والجمعة عالم لايحصى لهم عدد.

وأدركت بهذه البركة من بعد سنة سبعين وسبعمائة إلى سنة ثمانمائة أوقاتاً أنكفت فيها عمن كان بها أيدى الغير ورقدت عن أهاليها أعين الحوادث وساعدهم الوقت. إذ الناس ناس والزمان زمان ثم لما تكدر جو المسرات وتقلص ظل الرفاهة وانهلت سحائب المحن من سنة ست وثمانمائة تلاشى أمرها. وفيها إلى الآن بقية صبابة ومعالم أنس وآثار تنبئ عن حسن عهد. ولله در القائل :

فى أرض طبالتنـــــا بركة

مدهشـــة للعـين والعقل

ترجح فى ميزان عقلى علي

كل بحار الأرض بالرطل

البركة المعروفة ببطن البقرة

هذه البركة كانت فيما بين أرض الطبالة وأراضى اللوق. يصل إليها ماء النيل من الخور. فيعبر فى خليج الذكر إليها وكانت تجاه قصر اللؤلؤة ودار الذهب فى بر الخليج الغربى وأول ماعرفت من خير هذه البركة أنها كانت بستاناً كبيراً فيما بين المقس وجنان الزهرى عرف البستان المقسى نسبة إلى المقس ويشرف على بحر النيل من غربية وعلى الخليج الكبير من رقيه.

فلما كان فى أيام الخليفة الظاهرة لإعزاز دين الله أبى هاشم على بن الحاكم بأمر الله أمر بعد سنة عشر وأربعمائة بإزالة انشاب هذا البستان وأن يعمل بركة قدام المنظرة التى تعرف باللؤلؤة فلما كانت الشدة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله هجرت البركةوبنى فى موضعها عدة أماكن عرفت بحارة اللصوص إذ ذاك . فلما كان فى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ووزارة الأجل المأمون محمد بن فانك البطائحى أزيلت الأبنية وعمق حفر الأرض وسلط عليها ماء النيل من خليج الذكر . فصارت بركة عرفت ببطن البقرة .

ومابرحت إلى مابعد سنة سبعمائة وكان قد تلاشى أمرها مند كانت الغلوة فى زمن الملك العادل كتبغاً سنة سبع وتسعين وستمائة فكان من خرج من باب القنطرة يجد عن يمينه أرض الطبالة من جانب الخليج الغربى إلى حد المقس ويجد بطن البقرة عن يساره من جانب الخليج الغربى إلى حد المقس، وبحر النيل الأعظم يجرى فى غربى بطن البقرة على حافة المقس إلى غربى أرض الطبالة ويمر من حيث الموضع المعروف اليوم بالحرف إلى غربى البعل ويجرى إلى منية الشيرج .

فكان خارج القاهرة أحسن منتزه فى مصر من الأمصار وموضع بطن البقرة يعرف اليوم بكوم الجاكى المجاور لميدان القمح وما جاور تلك الكيمان والخراب التى نحو باب اللوق .

وحدثنى غير واحد ممن لقيت من شيوخ المقس عن مشاهدة آثار هذه البركة وأخبرنى عمن شاهد فيها الماء وإلى زمننا هذا موضع من غربى الخليج فيما يلى ميدان القمح يعرف ببطن البقرة بقية من تلك البركة يجتمع فيه الناس للنزهة .

بركة جناق

هذه البركة خارج باب الفتوح كانت بالقرب من منظرة باب الفتوح التى تقدم ذكرها فى المناظر وكان ما حولها بساتين، ولم يكن خارج باب الفتوح شئ من هذه الأبنية وإنما كان هناك بساتين فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير وبستان ابن صيرم . فلما حكر بستان أبن صيرم وعمر فى مكانه الآدر وغيرها وعمر الناس خارج باب الفتوح عمر ما حول هذه البركة بالدور وسكنها الناس وهى إلى الآن عامرة وتعرف ببركة جناق .

بركة الحجاج

هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها عرفت أولاً يجب عميرة ثم قيل لها أرض الحب وعرفت إلى اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم وبعض من لامعرفة له بأحوال أرض مصر يقول جب يوسف عليه السلام وهو خطأ لا أصل له وما برحت هذه البركة متنزهاً لملوك القاهرة .

قال : ابن يونس عميرة بن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء صاحب الجب المعروف بحب عميرة فى الموضع الذى يبرز إليه الحاج من مصر لخروجهم إلى مكة وقال أبو عمر الكندى فى كتاب الخندق ان فرسان الخندق من جب عميرة بن تميم بن جزء وصاحب جب عميرة من بنى القرناء طعن فى تلك الأيام فارتث فمات بعد ذلك .

وقال : فى كتاب الأمراء ثم إن أهل الحوف خرجوا على ليث بن الفضل أمير مصر وكان السبب فى ذلك أن ليثاً بعث بمساح يمسحون عليهم أراضى زرعهم فانتقصوا من القصب أصابع . فتظلم الناس إلى ليث فلم يسمع منهم فعسكروا وصاروا إلى الفسطاط فخرج إليهم ليث فى أربعة آلاف من جند مصر ليومين بقيا من شعبان سنة ست وثمانين ومائة فالتقى مع أهل الحوف لثنتى عشرة خلت من شهر رمضان فانهزم الجيش عن ليث وبقى فى مائتين أو نحوها فحمل عليهم بمن معه فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة .

وكان التقاؤهم فى أرض جب عميرة وبعث ليث إلى الفسطاط بثمانين رأساً ورجع إلى الفسطاط وقال المسيحى ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين عرض أمير المؤمنين العزيز بالله عساكر بظاهر القاهرة عند سطح الجب فنصب له مضرب ديباج رومى فيه ألف ثوب مفوفة فضة ونصبت فه فازة مستقلة وقبة مثقلة بالجوهر وضرب لأبنه المنصور مضرب آخر وعرضت العساكر فكانت عدتها مائة عسكر وأقبات أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسيون فطيف بهم وكان يوماً عظيماً حسناً لم تزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب .

وقال: ابن ميسر كان من عادة أمير المؤمنين المستنصر بالله أن يركب فى كل سنة على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة، وهو موضع نزهة بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة، ومعه الخمر فى الروايا عوضاً عن الماء ويسقيه الناس وقال أبو الخطاب بن دحية: وخطب لبنى عبيد ببغداد أربعين جمعة، وذلك للمستنصر بل للبطال المستهتر. أنشده العقيلى صحبية يوم عرفة.

قم فانحر الراح يوم النحر بالمـــاء

ولا تضحى ضحى إلا بصهباء

وأدرك حجيج الندامى قبل نفرهم

إلى منى قصفهم مع كل هيفاء

ووصل ألف القطع للضرورة وهو جائز فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق فأقام بها سوق الفسوق على ساق وفى ذلك العام أخذه الله وأخذ أهل مصر بالسنين حتى بيع القرص فى أيامه بالثمن الثمين.

وقال القاضى الفاضل فى حوادث المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة وفيه خرج السلطان يعنى صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بركة الجب للصيد ولعب إلا كرة وعاد إلى القاهرة فى سادس يوم من خروجة وذكر من ذلك كثيراً عن السلطان صلاح الدين وأبنه الملك العزيز عثمان.

وقال جامع سيرة الناصر محمد بن قلاوون وفى حوادث صفر سنة أثنتين وعشرين وسبعمائة وفيه ركب السلطان إلى بركة الحجاج للرمى على الكراكى وطلب كريم الدين ناظر الخاص ورسم أن يعمل فيها أحواشاً للخيل والجمال وميداناً وللأمير بكتمر الساقى مثله فأقام كريم الدين بنفسه فى هذا العمل ولم يدع أحداً من جميع الصناع المحتاج اليهم يعمل فى القاهرة عملاً فكان فيها نحو الألفى رجل ومائة زوج بقرحتى تمت المواضع فى مدة قريبة.

وركب السلطان إليها وأمر بعمل ميدان لنتاج الخيل فعمل وما برح الملوك يركبون إلى هذه البركة لرمى الكراكي، وهم على ذلك إلى هذا الوقت وقد خربت المبانى التى أنشأها الملك

الناصر وأدركنا بهذه البركة مراحاً عظيماً للأغنام التى يعلفها التركمانى حب القطن وغيره من العلف فتبلغ الغاية فى السمن حتى أنه يدخل بها إلى القاهرة محمولة على العجل لعظم جثتها وثقلها وعجزها عن المشي .

وكان يقال كبش بركاوى نسبة إلى هذه البركة وشاهدت مرة كبشاً من كباش هذه البركة وزنت شقته اليمنى فبلغت زنتها خمسة وسبعين رطلا سوى الإلية وبلغنى عن كبش أنه وزن مافى بطنه من الشحم خاصة فبلغ أربعين رطلاً وكانت ألاياً تلك الكباش تبلغ الغاية فى الكبر .

وقد بطل هذا من القاهرة منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة حتى لايكاد يعرفه اليوم إلا أفراد من الناس . وبركة الحجاج اليوم أرباب دركها قوم من العرب يعرفون ببنى صبرة .

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى فى كتاب الجوهر المكنون فى معرفة القبائل والبطون بنو بطيخ بطن من لخم ، وهم ولد بطيخ بن مغلة ابن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو ، بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة بن لخم وفخذها بنو صبرة بن بطيخ ، ولهم حارة مجاورة للخطة المعروفة اليوم بكوم دينار السايس ، وصبرة فى خندف وفى قيس ونزار ويمن .

فالتى فى خندق فى بنى جعفر الطيار بنو صبرة بن جعفر بن داود بن محمد بن جعفر بن ابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب فخذ والتى فى قيس بنو صبرة بن بكر بن أضجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان فخذ وأما التى فى نزار ففى شيبان بنو صبرة أبن عوف بن محكم بن ذهب بن شيبان بن ثعلبة بن عكاية بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار فخذ . وأما التى فى يمن ففى لخم وجذام فأما التى فى لخم فبنو صبرة بن بطيخ بن مغالة بن دعجان بن عميث بن كليب بن أبى الحارث بن عمرو بن رميمة بن جدس بن أريش بن أراش بن جديلة أبن لخم وأما التى فى جذام فبنو صبرة بن نصيرة بن غطفان بن سعد بن أياس بن حرام ن جذام واليه يرجع الصبريون وهم بالشام والله تعالى أعلم .

بركة قرموط

هذه البركة فيما بيق اللوق والمقس كانت من جملة بستان أبن ثعلب فلما حفر الملك الناصر محمد ابن قلاون الخليج الناصرى من موردة البلاط رمى ما خرج من الطين فى هذه البركة وبنى الناس الدور على الخليج فصارت البركة من ورائها وعرفت تلك الخطة كلها ببركة قرموط وأدركنا بها دياراً جليلة تناهى أربابها فى إحكام بنائها وتحسين سقوفها وبالغوا فى زخرفها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار، وأجروا إليها المياه من الآبار فكانت تعد من المساكن البديعة النزهة.

وأكثر من كان يسكنها الكتاب مسلموهم ونصاراهم وهم فى الحقيقة المترفون أولو النعمة. فكم حوت تلك الديار من حسن ومستحسن وإنى لاذكرها وما مررت بها قط الأوتبين لى من كل دار هناك آثار النعم. أما روائح تقالى المطابخ أو عبير بخور العود والند أو نفحات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم.

ثم هى الآن موحشة خراب. قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة. فزالت الطرق، وجهلت الأزقة وانكشفت البركة، وبقى حولها بساتين خراب وبلغنى أن المراكب كانت تعبر إلى هذه البركة للتنزه وما أحسب ذلك كان فإنها كانت من جملة البستان ولم ينقل أنه كان يقربها خليج سوى الخور ويبعد أن يصل إليها والله أعلم.

وقرموط هذا هو أمين الدين قرموط مستوفى الخزانة السلطانية.

بركة قراجا

هذه البركة خارج الحسينية قريباً من الخندق عرفت بالأمير زين الدين قراجاً التركمانى أحد أمراء مصر أنعم عليه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالإمره فى سنة سبع عشرة وسبعمائة.

البركة الناصرية

هذه البركة من جملة جنان الزهرى فلما خربت جنان الزهرى صار موضعها كوم تراب إلى أن أنشأ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ميدان المهارى فى سنة عشرين وسبعمائة وأراد بناء الزريبة بجانب الجامع الطيبرسى احتاج فى بنائها إلى طين. فركب وعين مكان هذه البركة وأمر الفخر ناظر الجيش فكتب أوراقاً بأسماء الأمراء وانتدب الأمير بيبرس الحاجب. فنزل بالمهندسين فقاسوا دور البركة ووزع على الأمراء بالأقصاب. فنزل كل أمير وضرب خيمة لعمل ما يخصه فابتدؤا العمل فى يوم الثلاثاء تاسع عشرى شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فتمادى الحفر إلى جانب كنيسة الزهري.

وكان إذ ذاك فى تلك الأرض عدة كنائس ولم يكن هناك شيء من العمائر التى هى اليوم حول البركة الناصرية، ولا من العمائر التى فى خط قناطر السباع ولا فى خط السبع سقايات إلى قنطرة السد وإنما كانت بساتين وكنائس وديورة للنصارى فاستولى الحفر على ما حول كنيسة الزهري، وصارت فى وسط الحفر حتى تعلقت، وكان القصد أن تسقط من غير تعمد هدمها، فأراد الله تعالى هدمها على يد العامة كما ذكر فى خبرها عند ذكر كنائس النصارى من هذا الكتاب.

فلما تم حفر البركة نقل ما خرج منها من الطين إلى الزريبة وأجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطانى الكائن بأراضى بستان الخشاب عند موردة البلاط فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة، فحكر الناس ما حولها، وبنوا عليها الدور، وما برح خط البركة الناصرية عامراً إلى أن كانت الحوادث من سنة ست وثمانمائة فتسرع الناس فى هدم ما عليها من الدور. فهدم كثير مما كان هناك والهدم مستمر إلى يومنا هذا.

ذكر الجسور

الجسر بفتح الجيم الذى تسمية العامة جسراً عن بن دريد، وقال الخليل الجسر والجسر لغتان وهو القنطرة ونحوها مما يعبر عليه، وقال ابن سيده: والجسر الذى يعبر عليه، والجمع القليل أجسر قال:

إن فراخاً كفــــراخ الأوكر

بأرض بغــــداد وراء الأجسر

والكثير جسور

جسر الأفرم

هذا الجسر بظاهر مدينة مصر فيما بين المدرسة المعزية برحبة الحناء قبلى مصر، وبين رباط الآثار النبوية. كان موضعه فى أول الإسلام غامراً بماء النيل ثم انحسر عنه الماء فسار فضاء إلى بحرى خليج بنى وائل ثم أبتنى الناس فيه مواضع وكان هناك الهرى قريباً من الخليج ثم صار موضع جسر الأفرم هذا ترعة يدخل منها ماء النيل إلى البركة الشعيبية.

فلما استأجر الأمير عزالدين أيبك الأفرم بركة الشعيبية وجعلها بستاناً كما تقدم ذكره فى البرك ردم هذه الترعة، وبنى حيطان البستان وجسر عليه فأقام على ذلك سنين ثم لما أستأجر أرض البركة بعدما غرسها بالأشجار إجارة ثانية اشترط البناء على ثلاثة أفدنة فى جانب البستان الغربي، وفدان فى جانبه البحرى ونادى فى الناس بتحكيره، وأرخص سعر الحكر، وجعل حكر كل مائة ذراع عشرة دراهم.

فهرع الناس إليه واحتكروا منه المواضع وبنوا فيها الدور المطلة على النيل فاستغنى بالعمائر عن عمل الجسر فى كل سنة بين البحر والبستان الذى أنشأة وبقى أسم الجسر عليه إلى يومنا هذا إلا أن الآدر التى كانت هناك خربت منذ أنطرد النيل عن البر الغربى بعدما بلغ ذلك الخط الغاية فى العمارة وكان سكن الوزراء والأعيان من الكتاب وغيرهم.

الجسر الأعظم

هذا الجسر فى زماننا هذا قد صار شارعاً مسلوكاً يمشى فيه من الكبش إلى قناطر السباع وأصله جسر يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل، وبينهما سرب يدخل منه الماء وعليه أحجار يراها من يمر هناك وبلغنى أنه كان هناك قنطرة مرتفعة فلما أنشأ الملك الناصر محمد بن قلاوون الميدان السلطانى عند موردة البلاط أمر بهدم القنطرة فهدمت ولم يكن إذ ذاك على بركة الفيل من جهة الجسر الأعظم مبان وإنما كانت ظاهرة يراها المار ثم أمر السلطان بعمل حائط قصير بطولها فأقيم الحائط وصفر بالطين الأصفر، ثم حدثت الدور هناك .

الجسر بأرض الطبالة

هذا الجسر يفصل بين بركة الرطلى وبين الخليج الناصرى أقامة الأمير الوزير سيف الدين بكتمر الحاجب فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة لما أنتهى حفر الخليج الناصري، وأذن للناس فى البناء عليه تحت مناظر الجسر وتمر بحافة الخليج للنزهة فكثر أغتباط غوغاء الناس وفساقهم بهذا الجسر إلى اليوم وهو من أنزه فرج القاهرة. لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة .

الجسر من بولاق إلى منية الشيرج

كان السب فى عمل هذا الجسر أن ماء النيل قويت زيادته فى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة . حتى أخرق من ناحية بستان الخشاب، ودخل الماء إلى جهة بولاق، وفاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر وبساتين الخور فهدمت عدة دور كانت مطلة على البحر

وكثير من بيوت الحكورة وامتد الماء إلى ناحية منية الشيرج فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر.

وعرف السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه متى غفل دخل الماء إلى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها فركب السلطان إلى االبحر ومعه الأمراء فرأى ما هاله وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة فاقتضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء وانصرف، فقويت الزيادة وفاض الماء على منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة وغرق بساتين بولاق والجزيرة حتى صار ما بين ذلك ملقة واحدة وركب الناس المراكب للفرجة ومروا بها تحت الأشجار وصاروا يتناولون الثمار بأيديهم وهم فى المراكب.

فتقدم السلطان لمتولى القاهرة ومتولى مصر يبث الأعوان فى القاهرة ومصر لرد الحمير والجمال التى تنقل التراب إلى الكيمان، وألزمهم بالقاء التراب بناحية بولاق ونودى فى القاهرة ومصر من كان عنده تراب فليرمه بناحية بولاق وفى الأماكن التى قد علا عليها الماء فاهتم الناس من جهة زيادة الماء اهتماماً كبيراً خوفاً أن يخرق الماء ويدخل إلى القاهرة، وألزم أرباب الأملاك التى ببولاق والخور والمناشئ أن يقف كل واحد على أصلاح مكانه ويحترس من عبور الماء على غفله.

فتطلب كل أحد من الناس الفعلة من غوغاء الناس لنقل التراب حتى عدمت الحرافيش، ولم تكن توجد لكثرة ما أخذهم الناس لنقل التراب ورميه وتضررت الآدر القريبة من البحر بنرزها وغرقت الأقصاب والقلقاس والنيلة، وسائر الدواليب التى بأعمال مصر فلما انقضت أيام الزيادة ثبت الماء ولم ينزل فى أيام نزوله ففسدت مطامير الغلات ومخازنه وشونها وتحسن سعر السكر والعسل، وتأخر الزرع عن أوانه لكثرة ما مكث الماء فكتب لولاد الأعمال بكسر الترع والجسور كى ينصرف الماء عن أراضى الزرع إلى البحر الملح.

واحتاج الناس إلى وضع الخراج عن بساتين بولاق والجزيرة ومسامحتهم بنظير ما فسد من الغرق، وفسدت عدة بساتين إلى أن أذن الله تعالى بنزول الماء فسقط كثير من الدور وأخذ السلطان فى عمل الجسور، واستدعى المهندسين وأمرهم بإقامة جسر يصد الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا وكتب بإحضار خوله البلاد.

قلما تكاملوا أمرهم فساروا إلى النيل وكشفوا الساحل كله فوجدوا ناحية الجزيرة مما يلى المنية قد صارت أرضها وطيئة ومن هناك يخاف على البلد من الماء فلما عرفوا السلطان بذلك أمر بالزام من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهراني، أو منشأة الكتاب، أو بولاق أن يعمر قدامها على البحر زربية، وأنه لايطلب منهم عليها حكر.

ونودى بذلك وكتب مرسوم بمسامحتهم من الحكر عن ذلك فشرع الناس فى عمل الزرابي، وتقدم إلى الأمراء بطلب فلاحى بلادهم وإحضارهم بالبقر والجراريف لعمل الجسر من بولاق إلى منية الشيرج، ونزل المهندسون فقاسوا الأرض وفرضوا لكل أمير أقصاباً معينة وضرب كل أمير خيمته، وخرج لمباشرة ما عليه من العمل فأقاموا فى عمله عشرين يوماً حتى فرغ ونصبت عندهم الأسواق فجاء ارتفاعه من الأرض أربع قصبات فى عرض ثماني قصبات فانتفع الناس به انتفاعاً كبيراً.

وقدر الله سبحانه وتعالى أن الزرع فى تلك السنة حسن إلى الغاية وأفلح فلا ما عجبا وأنحط السعر لكثرة مازرع من الأراضى وخصب السنة وكان قد أتفق فى سنة سبع عشرة وسبعمائة غرق ظاهر القاهرة أيضاً وذلك أن النيل وفيَّ ستة عشر ذراعاً فى ثالث عشر جمادى الأولى وهو التاسع والعشرون من شهر أبيب أحد شهور القبط ولم يعهد مثل ذلك.

فإن الإنيال البدرية يكون وفاؤها فى العشر الأول من مسري. فلما كسر سد الخليج توقفت الزيادة مدة أيام ثم زاد وتوقف إلى أن دخل تاسع توت والماء على سبعة عشر ذراعاً وتسعة أصابع ثم زاد فى يوم تسعة أصابع، واستمرت الزيادة حتى صار على ثمانية عشر ذراعاً وستة أصابع ففاص الماء وانقطع طريق الناس فيما بين القاهرة ومصر وفيما بين كوم الريش والمنية وخرج من جانب المنية وغرقها.

فكتب بفتح جميع الترع والجسور بسائر الوجه القبلى والبحرى وكسر بحر أبى المنجا وفتح سد بلبيس وغيره قبل عيد الصليب وغرقت الأقصاب والزراعات والصيفية وعم الماء ناحية منية الشيرج وناحية شبرا فخربت الدور التى هناك وتلف للناس مال كثير من جملته زيادة على ثمانين ألف جره خمر فارغة تكسرت فى ناحية المنية وشبرا عند هجوم الماء وتلفت مطامير الغلة من الماء حتى بيع قدح القمح بفلس، والفلس يومئذ جزء من ثمانية وأربعين

جزءاً من درهم وصار من بولاق إلى شبرا بحراً واحداً تمر فيه المراكب للنزهة فى بساتين الجزيرة إلى شبرا .

وتلفت الفواكه والمشمومات وقلت الخضر التى يحتاج إليها فى الطعام وغرقت منشأة المهراني ، وفاض الماء من عند خانقاه رسلان ، وأفسد بستان الخشاب واتصل الماء بالجزيرة التى تعرف بجزيرة الفيل إلى شبرا .

وغرقت الأقصاب التى فى الصعيد فإن الماء أقام عليها ستة وخمسين يوماً فعصرت كلها عسلاً فقط وخربت سائر الجسور وعلاها الماء وتأخر هبوطه عن الوقت المعتاد فسقطت عدة دور بالقاهرة ومصر ، وفسدت منشأة الكتاب المجاورة لمنشأة المهراني . فلذلك عمل السلطان الجسر المذكور خوفاً على القاهرة من الغرق .

الجسر بوسط النيل

وكان سبب عمل هذا الجسر أن ماء النيل قوى رميه على ناحية بولاق ، وهدم جامع الخطيرى ثم جدد وقويت عمارته ، وتيار البحر لايزداد من ناحية البر الشرقى إلا قوة . فأهم الملك الناصر أمره وكتب فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بطلب المهندسين من دمشق وحلب والبلاد الفراتية ، وجمع المهندسين من أعمال مصر كلها ، قبليها وبحريها .

فلما تكاملوا عنده ركب بعساكره من قلعة الجبل إلى شاطئ النيل ونزل فى الحراقة وبين يديه الأمراء وسائر أرباب الخبرة من المهندسين وخولة الجسور وكشف أمر شطوط النيل . فاقتضى الحال أن يعمل جسراً فيما بين بولاق وناحية أنبوبة من البر الغربي .

ليرد قوة التيار عن البر الشرقى إلى البر الغربى وعاد إلى القلعة فكتبت مراسيم إلى ولاة الأعمال باحضار الرجال صحبة المشدين ، واستدعى شاد العمائر السلطانية وأمره بطلب الحجارين ، وقطع الحجر من الجبل وطلب رئيس البحر وشاد الصناعة لإحضار المراكب فلم يمض سوى عشرة أيام حتى تكامل حضور الرجال مع الشادين من الأقاليم وندب السلطان

لهذا العمل الأمير أقبغا عبدالواحد والأمير برصغا الحاجب. فبرزا لذلك وأحضر والى القاهرة ووالى مصر وأمرا بجميع الناس وتسخير كل أحد للعمل.

فركبا وأخذا الحرافيش من الأماكن المعروفة بهم وقبضا على من وجد فى الطرقات وفى المساجد والجوامع وتبتعاهم فى الأسخار ووقع الاهتمام الكبير فى العمل من يوم الأحد عاشر ذى القعدة وكانت أيام القيظ فهلك فيه عدة من الناس والأمير أقبغا فى الحراقة يستحث الناس على انجاز العمل والمراكب تحمل الحجر من الفص الكبير إلى موضع الجسر وفى كل قليل يركب السلطان من القلعة ويقف على العمل ويهين أقبغا ويسبه وبستحثه حتى تم العمل للنصف من ذى الحجة.

وكانت عدة المراكب التى غرقت فيه وهى مشحونة بالحجارة حتى ردم وصار جسراً ثلاثة وعشرون ألف مركب سوى ما عمل فيه من آلات الخشب والسريقات وحفر فى الجزيرة خليج وطئ فلما جرى النيل من ناحية أنبوبة بالبر الغربى ومن ناحية التكرورى أيضاً. فسر السلطان بذلك وأعجبه إعجاباً كثيراً وكان هذا الجسر سبب انطراد الماء عن بر القاهرة حتى صار إلى ما صار إليه الآن.

الجسر فيما بين الجيزة والروضة

كان السبب المقتضى لعمل هذا الجسر أن الملك الناصر لما عمل الجسر فيما بين بولاق وناحية أنبوبة، وناحية التكرورى انطرد ماء النيل عن بر القاهرة، وانكشفت أراض كثيرة وصار الماء يخاض من بر مصر إلى المقياس، وانكشف من قبالة منشأة المهرانى إلى جزيرة الفيل وإلى منية الشيرج، وصار الناس يجدون مشقة لبعد الماء عن القاهرة وغلت روايا الماء حتى بيعت كل راوية بدر همين بعد ما كانت بنصف وربع درهم فشكا الناس ذلك إلى الأمير أرغون العلائى وإلى السلطان الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاون.

فطلب المهندسين ورئيس البحر وركب السلطان بأمرائه من القلعة إلى شاطئ النيل. فلم يهيأ عمل لما كان من ابتداء زيادة النيل إلا أن الرأى اقتضى نقل التراب والشقاف من مطابخ

السكر التى كانت بمصر وإلقاء ذلك بالروضة لعمل الجسر فنقل شئ عظيم من التراب فى المراكب إلى الروضة، وعمل جسر من الجيزة إلى نحو المقياس فى طول نحو ثلثى ما بينهما من المسافة. فعاد الله إلى جهة مصر عودا يسيرا، وعجزوا عن إيصال الجسر إلى المقياس لقلة التراب، وقويت الزيادة حتى علا الماء الجسر بأسره.

واتفق قتل الملك الكامل بعد ذلك وسلطنة أخيه الملك المظفر حاجى بن محمد بن قلاوون أول جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة. فلما دخلت سنة ثمان وأربعين وقف جماعة من الناس للسلطان فى أمر البحر، واستغاثوا من بعد الماء وانكشاف الأراضى من تحت البيوت وغلاء الماء فى المدينة فأمر بالكشف عن ذلك فنزل المهندسون واتفقوا على إقامة جسر ليرجع الماء عن بر الجيزة إلى بر مصر والقاهرة، وكتبوا تقدير ما يصرف فيه مائة وعشرين ألف درهم فضة فأمر بجبايتها من أرباب الأملاك التى على شط النيل وأن يتولى القاضى ضياء الدين يوسف بن أبى بكر المحتسب حياتها واستخراجها.

فقيست الدور وأخذ عن كل ذراع من أراضيها خمسة عشر درهماً وتولى قياسها أيضاً المحتسب ووالى الصناعة فبلغ قياسها سبعة آلاف وستمائة ذراع وجبى نحو السبعين ألف درهم فاتفق عزل الضياء عن الحسبة ونظر المارتسان المنصوري، ونظر الجوالي، وولاية ابن الأطروش مكانه.

ثم قتل الملك المظفر وولاية أخيه الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سلطنة مصر بعده فى شهر رمضان منها فلما كان فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقع الإهتمام بعمل الجسر فنزل الأمير بلبغا أروس نائب السلطنة والأمير منجك الأستادار وكان قد عزل من الوزارة والأمير قيلاى الحاجب وجماعة من الأمراء ومعهم عدة من المهندسين إلى البحر فى الحراريق والمراكب إلى بر الجيزة وقاسوا ما بين بر الجيزة والمقياس، وكتب تقدير المصروف نحو المائة والخمسين ألف درهم وألف خشبة من الخشب وخمسمائة صارو ألف حجر فى طول ذراعين وعرض ذراعين، وخمسة آلاف شنفة وغير ذلك من أشياء كثيرة.

فركب النائب والوزير والأمير شيخو والأمراء إلى الجيزة واعادوا النظر فى أمر الجسر ومعهم أرباب الخبرة فالتزم الأمير منجك بعمل الجسر وأن يتولى جباية المصروف عليه من

سائر الأمراء والأجناد والكتاب وأرباب الأملاك بحيث انه لايبقى أحد حتى يؤخذ منه، فرسم لكتاب الجيش بكتابة أسماء الجند وقرر على كل مائة دينار من الإقطاعات درهم واحد وعلى كل أمير من خمسة آلاف درهم إلى أربعة آلاف درهم وعلى كل كاتب أمير ألف مائتا درهم وكاتب أمير الطبلخانات مائة درهم وعلى كل حانوت من حوانيت التجارة درهم، وعلى كل دار درهمان، وعلى كل بستان الفدان من عشرين درهماً إلى عشرة دراهم وعلى كل طاحون خمسة دراهم عن الحجر وعلى شكل صهريج فى تربة بالقرافة أو فى ظاهرة القاهرة أو فى مدرسة من عشرة دراهم إلى خمسة دراهم وعلى كل تربة من ثلاثة دراهم إلى درهمين وعلى أصحاب المقاعد والمتعيشين فى الطرقات شئ.

وكشفت البساتين والدور التى استجدت من بولاق إلى منية الشيرج والتى استجدت فى الحكورة، والتى استجدت على الخليج الناصرى وعلى بركة الحاجب وفى حكر أخى صاروجا، وقيست أراضيها كلها، وأخذ عن كل ذراع منها خمسة عشر درهماً وأخذ عن كل قمين من أقمنة الطوب شئ وعن كل فاخورة من الفواخير شئ، وفرض على كل وقف بالقاهرة ومصر والقرافتين من الجوامع والمساجد والخوانك والزوايا والربط شئ.

وكتب إلى ولاة الأعمال بالجباية من ديورة النصارى وكنائسهم من مائتى درهم إلى مائة درهم، وقرر على الفنادق والخانات التى بالقاهرة ومصر شئ وقرر على ضامنة الأغانى مبلغ خمسين ألف درهم وأقيم لكل جهة شاد وصيرفى وكتاب وغير ذلك من المستحثين من الأعوان.

فنزل من ذلك بالناس بلاء كبير وشدة عظيمة فإنه أخذ حتى من الشيخ والعجوز والأرملة وجبى المال منهم بالعسف، وأبطل كثير منهم سببه لسعيه فى الغرامة، ودهى الناس مع الغرامة بتسلط الظلمة من العرفاء والضمان والرسل. فكان يغرم كل أحد للقابض والشاد والصيرفى والشهود سوى ماقرر عليه جملة دراهم فكثر كلام الناس فى الوزير حتى صاروا يلهجون بقولهم: هذه سخطة مرصصة نزلت من السماء على أهل مصر وقاسوا شدة أخرى فى تحصيل الأصناف التى يحتاج إليها ونزل الوزير منجك وضرب له خيمة على جانب الروضة ونادى فى الحرافيش والفعلة من أراد العمل يحضر ويأخذ أجرته درهماً ونصفاً

وثلاثة أرغفة . فاجتمع إليه عالم كثير، وجعل لهم شيئاً يستظلون به من حر الشمس وأحسن اليهم ورتب عدة مراكب لنقل الحجر وأقام عدة من الحجارين فى الجبل لقطع الحجر وجمالا وحميراً تنقلها من الجبل إلى البحر ثم تحمل من البر فى المراكب إلى بر الجيزة، وابتدأ بعمل الجسر من الروضة إلى ساقية علم الدين بن زنبور وعارضه بجسر آخر من بستان التاج إسحاق إلى ساقية ابن زنبور.

وأقام أخشاباً من الجهتين وردم بينهما بالتراب والحجر والحلفاء ورتب الجمال السلطانية لقطع الطين من بر الروضة، وحمله إلى وسط الجسر وأمر أن لايبقى بالقاهرة ومصر صانع ألا حضر العمل، وألزم من كان بالقرب من داره كوم تراب أن ينقله إلى الجسر . فغرم كل واحد من الناس فى نقل التراب من ألف درهم إلى خمسمائة درهم، وكان كل ما ينقل فى المراكب من الحجر وغيره يرمى فى وسط جسر المقياس وتحمله الجمال إلى الجسر ثم اقتضى الرأى حفر خليج يجرى الماء فيه عند زيادة النيل لتضعف قوة التيار عن الجسر فأحضرت الأبقار والجراريف والرجال لأجل ذلك وابتدأوا حفره من رأس موردة الحلفاء تحت الدور إلى بولاق .

وكانت الزيادة قد قرب أوانها فما انتهى الحفر حتى زاد ماء النيل وجرى فيه فسر الناس به سروراً كبيراً وانتهى عمل الجسر فى أربعة أشهر إلا أن الشناعة قويت على الوزير، وبلغ الأمراء النائب ما يقال عن منجك من كثرة جباية الأموال فحدثه فى ذلك ومنعه فاعتذر بأنه لم يسخر أحداً ولا أستعمل الناس إلا بالأجرة وأن فى هذا العمل للناس عدة منافع وما على من قول أصحاب الأغراض الفاسدة ونحو ذلك وتمادى على ما هو عليه .

فلما جرى الماء فى الخليج الذى حفر تحت البيوت من موردة الحلفاء إلى بولاق مرت فيه المراكب بالناس للفرجة واحتاج منجك إلى نقل خيمته من بر الروضة إلى بر الجيزة، وأحضر المراكب الكبار وملأها بالحجارة وغرق منها عشرة مراكب فى البحر، وردم التراب عليها إلى أن كمل نحو ثلثى العمل . فقويت زيادة الماء وبطل العمل فلما كثرت الزيادة جمع منجك الحرافيش والأسرى وردم على الجسر التراب وقواه فتحامل الماء عن البر الغربى إلى البر الشرقى ومر من تحت الميدان السلطانى وزريبة فوصون إلى بولاق فصار معظمه من هذه

المواضع وحصل الغرض بكون الماء بالقرب من القاهرة وانتهى طول جسر منجك إلى مائتين وتسعين قصبة فى عرض ثمان قصبات وارتفاع أربع قصبات، والجسر الذى من الروضة إلى المقياس طوله مائتان وثلاثون قصبة. وعدة ما رمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجر أثنا عشر ألف مركب سوى التراب وغير ذلك.

وكان ابتداء العمل فى مستهل المحرم وانتهاؤه فى سلخ ربيع الآخر ولم تنحصر الأموال التي جبيت بسببه فإنه لم يبق بالقاهرة ومصر دار ولافندق ولاحمام ولاطاحون ولاوقف جامع أو مدرسة أو مسجد أو زاوية ولارزقة ولا كنيسة إلا وحبى منه فكان الرجل الواحد يغرم العشرة دراهم، ومن خصه درهمان يحتاج إلى غرامة أمثالهما وأضعافهما وناهيك بمال يحيي من الديار المصرية على هذا الحكم كثرة وقد بقيت من جسر منجك هذا بقية هى معروفة اليوم فى طرف الجزيرة الوسطي.

جسر الخليلي

هذا الجسر فيما بين الروضة من طرفها البحرى وبين جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى تجاه الخور وكان سبب عمله أن النيل لما قوى رمى تياره على بر القاهرة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقام فى عمل الجسر ليصير رمى التيار من جهة البر الغربى كما تقدم ذكره، انطرد الماء عن بر القاهرة، وأنكشف ما تحت الدور من منشأة المهرانى إلى منية الشيرج.

وعمل منجك؛ الجسر الذى مر ذكره ليعود الماء فى طول السنة إلى بر القاهرة فلم يتهيأ كما كان أولاً وجرى فى الخليج الذى احتفره تحت الدور من موردة الحلفاء بمصر إلى بولاق، وصار تجاه هذا الخليج جزيرة، والماء لايزال ينطرد فى كل سنة عن بر القاهرة إلى أن استبد بتدبير مصر الأمير الكبير برقوق.

فلما دخلت سنة أربع وثمانين وسبعمائة قصد الأمير جهاركس الخليلى عمل جسر ليعود الماء إلى بر القاهرة ويصير فى طول السنة هناك ويكثر النفع به فيرخص الماء المحمول فى

الروايا ويقرب مرسى المراكب من البلد وغير ذلك من وجوه النفع فشرع فى العمل أول شهر ربيع الأول، وأقام الخوازيق من خشب السنط طول كل خازوق منها ثمانية أذرع وجعلها صفين فى طول ثلثمائة قصبة، وعرض عشر قصبات وسمر فيها أفلاق النخل الممتدة وألقى بين الخوازيق تراباً كثيراً وانتصب هناك بنفسه ومماليكه ولم يجب من أحد مالا البتة فانتهى عمله فى أخريات شهر ربيع الآخر وحفر فى وسط البحر خليجاً من الجسر إلى زريبة قوصون. وقال شعراء العصر فى ذلك شعراً كثيراً منهم عيسى بن حجاج.

جسر الخليلى المقر لقدرسا
كالطود وسط النيل كيف يريد
فإذا سألتم عنهما قلنا لكم
ذا ثابت دهــــرا وذاك يزيد

وقال الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار :

شـــكت النيـــل أرضـــه
للخلـــيلى فاحصـــره
ورأى المـــاء خائـــفاً
أن يطـــاها فجـــسره

وقال :

رأى الخليلى قلب الماء حين طغي
بنى على قلبـه جسراً وخـيره
رأى ترمل أرضيـه ووحـدتها
والنيل قد خاف يغشاها فجسره

ومع ذلك ما ازداد الماء إلا انطراداً عن بر القاهرة ومصر حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شئ كثير من الأراضى التى كانت غامرة بماء النيل وبعد النيل عن القاهرة بعداً لم يعهد فى الإسلام مثله قط.

جسر شيبين

أنشأة الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بسبب أن إقليم الشرقية كانت له سدود كلها موقوفة على فتح بحر أبى المنجا، وفى بعض السنين تشرق ناحية شيبين وناحية مرصفا وغير ذلك من النواحى التى أراضيها عالية فشكا الأمير بشتاك من تشريق بعض بلاده التى فى تلك النواحى فركب السلطان من قلعة الجبل ومعه المهندسون وخوله البلاد وكانت له معرفة بأمور العمائر وحدس جيد ونظر سعيد ورأى مصيب فسار لكشف تلك النواحى حتى اتفق الرأى على عمل الجسر من عند شيبين القصر إلى بنها العسل فوقع الشروع فى عمله.

وجمع له من رجال البلاد اثنى عشر ألف رجل ومائتى قطعة جرافة وأقام فيه القناطر فصار محبساً لتلك البلاد وإذا فتح بحر أبى المنجا امتلأت الأملاق بالماء واسند على هذا الجسر، وفى أول سنة عمل هذا الجسر أبطل فتح بحر أبى المنجا تلك السنة وفتح من جسر شيبين هذا وحصل بهذا الجسر نفع كبير لبلاد العلو واستبحر منه عدة بلاد وطيئة والعمل على هذا الجسر إلى يومنا هذا والله أعلم.

جسرا مصر والجيزة

أعلم أن الماء فى القديم كان محيطاً بجزيرة مصر التى تعرف اليوم بالروضة طول السنة، وكان فيما بين ساحل مصر وبين الروضة جسر من خشب، وكذلك فيما بين الروضة وبر الجيزة جسر من خشب يمر عليهما الناس والدواب من مصر إلى الروضة، ومن الروضة إلى الجيزة، وكان هذا الجسران من مراكب مصطفة بعضها بحذاء بعض وهى موثقة ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر ثلاث قصبات.

قال القضاعي : وأما الجسر فقال بعضهم : رأيت فى كتاب ذكر أنه خط أبى عبدالله بن فضالة صفة الجسر وتعطيله وإزالته وأنه لم يزل قائماً إلى أن قدم المأمون مصر ، وكان غربياً .

ثم أحدث المأمون هذا الجسر الموجود اليوم الذى تمر عليه المارة وترجع من الجسر القديم فبعد أن خرج المأمون عن البلد أتت ريح عاصف فقطعت الجسر الغربي . فصدمت سفنه الجسر المحدث فذهبا جميعاً فبطل الجسر القديم وأثبت الجديد ومعالم الجسر القديم معروفة إلى هذه الغاية .

وقال ابن زولاق فى كتاب إتمام أمراء مصر ولعشر خلون من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة سارت العساكر لقتال القائد جوهر ، ونزلوا الجزيرة بالرجال والسلاح والعدة وضبطوا الجسرين . وذكر ما كان منهم إلى أن قال فى عبور جوهر : أقبلت العساكر فعبرت الجسر أفواجاً أفواجاً ، وأقبل جوهر فى فرسانه إلى المناخ موضع القاهرة .

وقال فى كتاب سيرة المعزل لدين الله وفى مستهل رجب سنة أربع وستين وثلاثمائة أصلح جسر الفسطاط ومنع الناس من ركوبة وكان قد أقام سنين معطلا .

وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب : وذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتداً من الفسطاط إلى الجزيرة وهو غير طويل ومن الجانب الآخر إلى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة إليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب لأن هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان ولايجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكباً احتراماً لموضع السلطان . يعنى الملك المصالح نجم الدين أيوب .

وكان رأس هذا الجسر الذى ذكره ابن سعيد حيث المدرسة الخروبية من إنشاء البدر أحمد بن محمد الخروبى التاجر على ساحل مصر قبلى خط دار النحاس وما برح هذا الجسر إلى أن خرب الملك المعز أيبك التركمانى قلعة الروضة بعد سنة ثمان وأربعين وستمائة فأهمل ثم عمره الملك الظاهر ركن الدين بيبرس على المراكب ، وعمله من ساحل مصر إلى الروضة ، ومن الروضة إلى الجيزة لأجل عبور العسكر عليه لما بلغة حركة الفرنج فعمل ذلك .

الجسر من قليوب إلى دمياط

هذا الجسر أنشأة السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري. المعروف بالجاشنكير فى أخريات سنة ثمان وسبعمائة، وكان من خبره أنه ورد القصاد بموافقة صاحب قبرص عدة من ملوك الفرنج على غزو دمياط وأنهم أخذوا ستين قطعة فاجتمع الأمراء واتفقوا على انشاء جسر من القاهرة إلى دمياط خوفاً من حركة الفرنج فى أيام النيل فيتعذر الوصول إلى دمياط.

وعين لعمل ذلك الأمير أقوش الرومى الحسامى وكتب الأمراء إلى بلادهم بخروج الرجال والأبقار ورسم للولاة بمساعدة أقوش وأن يخرج كل وال إلى العمل برجال عمله وأبقارهم. فما وصل أقوش إلى ناحية فارسكور حتى وجد ولاة الأعمال قد حضروا بالرجال والأبقار فرتب الأمور فعمل فيه ثلاثمائة جرافة بستمائة رأس بقر وثلاثين ألف رجل، وأقام أقوش الحرمة وكان عبوساً قليل الكلام مهاباً إلى الغاية.

فجد الناس فى العمل لكثرة من ضربه بالمقارع أو خزم أنفه أو قطع أذنه أو أخرق به إلى أن فرغ فى نحو شهر واحد فجاء من قليوب إلى دمياط مسافة يومين فى عرض أربع قصبات من أعلاه وست قصبات من أسفله ومشى عليه ستة رءوس من الخيل صفاً واحداً فعم النفع به، وسلك عليه المسافرون بعدما كان يتعذر السلوك أيام النيل لعموم الماء الأراضى والله تعالى أعلم.

(وقد وجد بخط المصنف رحمه الله في أصله هنا ما صورته) أمراء الغرب ببيروت بين حشمة ومكارم مقامهم بجبال الغرب من بلاد بيروت ولهم خدم على الناس وتفضيل وهم ينسبون إلى الحسين بن إسحاق بن محمد التنوخى الذى مدحه أبو الطيب المتنبى بقوله :

شدوا بابن إسحاق الحسين فصافحت

وقاربها كيزانها والنمارق

ثم كان كرامة بن بجير بن على بن إبراهيم بن الحسين بن إسحاق بن محمد التنوخى فهاجر إلى الملك العادل نور الدين الشهيد محمود بن زنكي. فأقطعه الغرب وما معه بإمرته فسمى أمير الغرب، وكان منشوره بخط العماد الأصفهانى الكاتب. فتحضر الأمير كرامة بعد البداوة وسكن حصن بلجمور من نواحى إقطاعه ويعلو على تل أعمال بغسير بناء.

ثم أنشأ أولاده هناك حصناً ومازلوا به وكان كرامة ثقيلاً على صاحب بيروت، وذلك أيام الفرنج فأراد أخذه مراراً فلم يجد إليه سبيلاً فأخذ فى الحيلة عليه وهادن أولاده وسألهم حتى نزلوا إلى الساحل، وألفوا الصيد بالطير وغيره. فراسلهم حتى صار يصطاد معهم وأكرمهم وحباهم وكساهم ومازال يستدرجهم مرة بعد مرة.

ثم أخرج ابنه معه وهو شاب، وقال قد عزمت على زواجه ثم عاد ملوك الساحل وأولاد كرامة الثلاثة فأتوه وتأخر أصغر أولاد كرامة مع أمه بالحصن فى عدة قليلة فامتلأ الساحل بالشوانى والمدينة بالفرنج وتلقوهم بالشمع والأغانى فلما صاروا فى القلعة وجلسوا مع الملوك غدر بهم وأمسكهم وأمسك غلمانهم وغرقهم وركب بجموعه ليلاً إلى الحصن فأجفل الفلاحون والحريم والصبيان إلى الجبال والشعر والكهوف، وبلغ من بالحصن أن أولاد كرامة الثلاثة قد غرقوا ففتحوه، وخرجت أمهم ومعها أبنها حجى بن كرامة وعمر سبع سنين ولم يبق من بينهم سواه فأدرك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وتوجه إليه لما فتح صيدا وبيروت وباس رجله فى ركابه. فلمس بيده رأسه وقال له: أخذنا ثارك طيب فلبك أنت مكان أبيك، وأمر له بكتابة أملاك أبيه بستين فارسا.

فلما كانت أيام المنصور قلاون ذكر أولاد تغلب بن مسعر الشجاعى أن بيد الخليفة أملاكاً عظيمة بغير استحقاق ومن جملتهم أمراء الغرب فحملوا إلى مصر ورسم السلطان باقطاع أملاك الجيلية مع بلاد طرابلس لأمرائها وجندها فأقطعت لعشرين فارساً من طرابلس. فلما كانت أيام الأشرف خليل بن قلاون قدموا مصر وسألوا أن يخدموا على أملاكهم بالعدة فرسم لهم وأن يزيدوها عشرة أرماح.

فلما كان الروك الناصرى ونيابة الأمير تنكز بالشام وولاية علاء الدين بن سعيد كشف تلك الجهات رسم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أن يستمر عليها بستين فارساً فاستمرت على ذلك ثم كان منهم الأمير ناصر الدين الحسين بن خضر بن محمد بن حجى بن كرامة أبن بحير بن على المعروف بابن أمير الغرب فكثرت مكارمه وإحسانه وخدمته كل من يتوجه إلى تلك الناحية.

وكانت إقامته بقرية أعبية بالجبل وله دار حسنة فى بيروت واتصلت خدمته إلى كل غاد ورائح وياد الأكابر والأعيان مع رياسة كبيرة ومعرفة عدة صنائع يتقنها وكتابة جيدة وترسل وعدة قصائد ومولده فى محرم سنة ثمان وستين وستمائة وتوفى للنصف من شوال سنة إحدى وخمسين وسبعمائة انتهى.

(**ووجد بخطه أيضاً من أخبار اليمن ما مثاله**) كان ابتداء دولة بنى زياد أن محمد بن عبدالله بن زياد سلمه المأمون مع عدة من بنى أمية إلى الفضل بن سهل بن ذى الرياستين، فورد على المأمون. احتلال اليمن فأثنى الفضل على محمد هذا فبعثه المأمون أميراً على اليمن فحج ومضى إلى اليمن ونتج بها من بعد محاربته العرب، وملك اليمن وبنى مدينة زبيد فى سنة ثلاث ومائتين وبعث مولاه جعفرا بهدية جليلة إلى المأمون فى سنة خمس وعاد إليه فى سنة ست ومعه من جهة المأمون ألفا فارس فقوى ابن زياد وملك جميع اليمن وقلد جعفراً الجبال وبنى بها مدينة الدمجرة.

فظهرت كفاءة جعفر لكثرة دهائه فقتله ابن زياد ثم مات محمد بن زياد فملك بعده ابنه إبراهيم ثم ملك بعده ابنه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم وطالت مدته ومات سنة أحدى وسبعين وثلاثمائة، وترك طفلاً اسمه زياد. فأقيم بعده، وكفلته أخته هند ابنة اسحاق وتولى معها رشد عبد أبى الجيش حتى مات فولى بعد رشد عبده حسين بن سلامة، وكان عفيفا فوزر لهند ولأخيها حتى ماتا.

ثم انتقل الملك إلى طفل من آل زياد، وقام بأمره عمته وعبدلحسين بن سلامه ـ اسمه مرجان ـ وكان لمرجان عبدان قد تغلبا على أمره يقال لأحدهما قيس وللآخر نجاح فتنافسا على

الوزارة، وكان قيس عسوفاً ونجاح رقيقا، وكان مرجان سيدهما يميل إلى قيس وعمة الطفل تميل إلى نجاح. فشكا قيس ذلك إلى مرجان فقبض على الملك الطفل إبراهيم وعلى عمته تملك فبنى قيس عليهما جداراً فكان إبراهيم آخر ملوك اليمن من آل زياد وكان القبض عليه وعلى عمته سنة.

سبع وأربعمائة فكانت مدة بنى زياد مائتى سنة وأربعاً وستين سنة فعظم قتل إبراهيم وعمته تملك على نجاح وجمع الناس وحارب قيساً بزبيد حتى قتل قيس، وملك نجاح المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتى عشرة وقال لسيده مرجان: ما فعلت بمواليك وموالينا؟ فقال: هم فى ذلك الجدار، فأخرجها وصلى عليهما ودفنهما، وبنى عليهما مسجداً، وجعل سيده مرجان موضعهما فى الجدار ووضع معه جثة قيس، وبنى عليهما الجدار.

واستبد نجاح بمملكة اليمن وركب بالمظلة وضربت السكة باسمه ونجاح مولى مرجان، ومرجان مولى حسين بن سلامة، وحسين مولى رشد، ورشد مولى بنى زياد ولم يزل نجاح ملكاً حتى مات سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. سمته جارية أهداها إليه الصليحي، وترك من الأولاد عدة. فملك منهم سعيد الأحول وإخوته عدة سنين حتى استولى عليهم الصليحى فهربوا إلى دهلك، ثم قدم منهم جياش بن نجاح إلى زبيد متنكراً، وأخذ منها وديعة وعاد إلى دهلك. فقدمها أخوه سعيد الأحوق بعد ذلك واختفى بها، واستدعى أخاه جياشا، وسارا فى سبعين رجلاً يوم التاسع من ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين، وقصدوا الصليحى وقد سار إلى الحج فوافوه عند بئر أم معبد وقتلوه فى ثانى عشرى ذى القعدة المذكور وقتل معه ابنه عبدالله واحتز سعيد رأسيهما، واحتاط على امرأته أسماء بنت شهاب، وعاد إلى زبيد ومعه أخوه جياش والرأسان بين أيديهما على هودج اسماء وملك اليمن.

فجمع المكرم ابن أسماء فى سنة خمس وسبعين وسار من الجبال إلى زبيد، وقاتل سعيداً ففر سعيد وملك المكرم واسمه أحمد، وأنزل رأس الصليحى وأخيه ودفنهما، وولى زبيد خاله أسعد بن شهاب، وماتت أسماء أمه بعد ذلك فى صنعاء وسنة سبع وسبعين، ثم عاد

ابنا نجاح إلى زبيد وملكاها فى سنة تسع وسبعين ففر أسعد بن شهاب، ثم غلبهما أحمد المكرم بن على الصليحي، وقتل سعيد بن نجاح فى سنة إحدى وثمانين وفر أخوه جياش إلى الهند.

ثم عاد وملك زبيد فى سنة إحدى وثمانين المذكورة فولدت له جاريته الهندية ابنه الفاتك بن جياش وبقى المكرم فى الجبال يغير على بلاد جياش، وجياش يملك تهامه حتى مات آخر سنة ثمان وتسعين. فملك بعده أبنه فاتك وخالف عليه أخوه ابراهيم، ومات فاتك سنة ثلاث وخمسمائة. فملك بعده أبنه منصور بن فاتك وهو صغير، فثار عليه عمه إبراهيم فلم يظفر وثار بزبيد عبدالواحد بن جياش وملكها فسار إليه عبد فاتك واستعادها ثم مات منصور وملك بعده ابنه فاتك بن منصور ثم ملك بعده ابن عمه فاتك ابن محمد بن فاتك بن جياش فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة حتى قتل سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وهو آخر ملوك بنى نجاح فتغلب على اليمن على بن مهدى فى سنة أربع وخمسين.

وأما الصليحي

فإنه على بن القاضى محمد بن على كان أبوه فى طاعته أربعون ألفا، فأخذ ابنه التشيع عن عامر ين عبدالله الرواجى أحد دعاة المستضىء، وصحبه حتى مات، وقد أسند اليه أمر الدعوة فقام بها وصار دليلاً لحاج اليمن عدة سنين ثم ترك الدلالة فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة وصعد رأس حبل مسار فى ستين رجلاً، وجمع حتى ملك اليمن فى سنة خمس وخمسين، وأقام على زبيد أسعد بن شهاب بن على الصليحى. وهو أخو زوجته وابن عمه.

ثم إنه حج فقتله بنو نجاح فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين. وأستقرت التهائم لبنى نجاح واستقرت صنعاء لأحمد بن على الصليحى المقتول، وتلقب بالملك المكرم ثم جمع وقصد

سعيد ابن نجاح بزبيد وقاتله وهزمه إلى دهلك، وملك زبيد فى سنة خمس وسبعين، فعاد سعيد وملك زبيد فى سنة تسع وسبعين فأتاه المكرم وقتله فى سنة إحدى وثمانين. فملك جياش أخو سعيد ومات المكرم بصنعاء ستة أربع وثمانين فملك بعده أبو حمير سبأ بن أحمد المظفر بن على الصليحى فى سنة أربع وثمانين حتى مات سنة خمس وتسعين وهو آخر الصليحين.

فملك بعده على بن إبراهيم بن نجيب الدولة. فقدم من مصر إلى جبال اليمن فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقام بأمر الدعوة والمملكة التى كانت بيد سبأ، ثم قبض عليه بأمر الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى بعد سنة عشرين وخمسمائة، وانتقل الملك والدعوة إلى الزريع بن عباس بن المكرم وآل الزريع من آل عدن وهم من حمدان، ثم من جشم.

وبنو المكرم يعرفون بآل الذنب وكانت عدن للزريع بن عباس وأحمد بن مسعود بن المكرم فقتلا على زبيد، وولى بعدهما ولداهما أبو السعود بن زريع، وأبو الغارات بن مسعود، ثم استولى على الملك والدعوة سبأ بن أبى السعود بن زريع حتى مات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة. فولى بعده ولده الأعز على بن سبأ، وكان مقامه بالرمادة فمات بالسل، وملك أخوه المعظم محمد فى سنة ثمان وثلاثين.

وولى من الصليحيين أيضاً المملكة السيدة سنة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى- زوجة أحمد المكرم ولقيت بالحرة ومولدها سنة أربعين وأربعمائة وربتها أسماء بنت شهاب، وتزوجها الملك المكرم احمد بن أسماء وهو ابن على الصليحى سنة إحدى وستين وولاها الأمر فى حياته. فقامت بتدبير المملكة والحروب وأقبل زوجها على لذائه حتى مات وتولى ابن عمه سبأ.

فاستمرت فى الملك حتى مات سبأ وتولى ابن نجيب الدولة حتى ماتت سنة أثنتين وثلاثين وخمسمائة وشاركه فى الملك المفضل أبو البركات بن الوليد الحميرى وكان يحكم بين يدى الملكة الحره وهى من وراء الحجاب ومات المفضل فى رمضان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

وملك بلاده أبنه الملك المنصور منصور بن المفضل حتى ابتاع منه محمد بن سبأ بن أبى السعود معاقل الصليحيين وعدتها ثمانية وعشرون حصناً بمائة ألف دينار فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، وبقى المنصور بعد حتى مات بعد ما ملك نحو ثمانين سنة .

واما على بن مهدي

فإنه حميرى من سواحل زبيد كان أبوه مهدى رجلاً صالحاً ونشأ أبنه على طريقة حسنة وحج ووعظ وكان فصيحاً حسن الصوت عالماً بالتفسير وغيره يتحدث بالمغيبات فتكون كما يقول له عدة أتباع كثيرة وجموع عديدة ثم قصد الجبال وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، ثم عاد إلى أملاكة ووعظ ثم عاد إلى الجبال ، ودعا إلى نفسه فأجابه بطن من خولان فسماهم الأنصار وسمى من صعد معه من تهامه المهاجرين وولى على خولان سبأ ، وعلى المهاجرين رجلاً آخر وسمى كلا منهما شيخ الإسلام ، وجعلهما نقيبين على طائفتهما . فلا يخاطبه أحد غيرهما وهما يوصلان كلامه إلى من تحت أيديهم .

وأخذ يغادى الغارات ، ويراوحها على التهائم . حتى أجلى البوادي ، ثم حاصر زبيد حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بنى نجاح فحارب ابن مهدى عبيد فاتك حتى غلبهم ، وملك زبيد يوم الجمعة رابع عشر رجب سنة أربع وخمين وخمسمائة فبقى على الملك شهرين واحدا وعشرين يوماً ومات فملك بعده أبنه مهدى ثم عبدالغنى بن مهدي .

وخرجت المملكة عن عبدالغنى إلى أخيه عبدالله ثم عادت إلى عبدالغني ، واستقر حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وفتح اليمن ، وأسر عبدالغنى وهو آخر ملوك بنى مهدى - يكفر بالمعاصي ، ويقتل من يخالف اعتقاده ، ويستبيح وطء نسائهم واسترقاق وأولادهم وكان حنفى الفروع ، ولأصحابه فيه غلو زائد ، ومن مذهبه قتل من شرب الخمر ومن سمع الغناء .

ثم ملك توران شاه بن أيوب عدن من ياسر وملك بلاد اليمن كلها، واستقرت فى ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شمس الدولة توران شاه بن أيوب إلى مصر فى شعبان سنة ست وسبعين، واستخلف على عدن عزالدين عثمان بن الزنجيلى وعلى زبيد حطان بن كليل بن منقد الكافي.

فمات شمس الدولة بالإسكندرية فاختلف نوابه فبعث السلطان صلاح الدين يوسف جيشاً فاستولى على اليمن ثم بعث فى سنة ثمان وسبعين أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طفتكين بن أيوب فقدم إليها، وقبض على حطان بن كليل بن منقد وأخذ أمواله وفيها سبعون غلاف زرديه مملوأة ذهباً عيناً وسجنه. فكان آخر العهد به.

ونجا عثمان بن الزنجيلى بأمواله إلى الشام فظفر بها سيف الإسلام، وصفت له مملكة اليمن حتى مات بها فى شوال سنة ثلاث وتسعين فأقيم بعده ابنه الملك المعز إسماعيل بن طفتكين بن أيوب فجعظ وادعى أنه أموى وخطب لنفسه بالخلافة، وعمل طول كمه عشرين ذراعاً. فثار عليه مماليكه وقتلوه فى سنة تسع وتسعين، وأقاموا بعده أخاه الناصر، ومات بعد أربع سنين فقام من بعده زوج أمه غازى بن حزيل أحد الأمراء. فقتله جماعة من العرب.

وبقى اليمن بغير سلطان فتغلبت أم الناصر على زبيد فقدم سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن أيوب إلى اليمن فعبر يحمل ركوته على كتفه. فملكته أم الناصر البلاد، وتزوجت به فاشتد ظلمه وعتوه إلى أن قدم الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر فى سنة اثنتى عشرة وستمائة فقبض عليه وحمله إلى مصر فأجرى له الكامل ما يقوم به إلى أن أشتشهد على المنصورة سنه سبع وأربعين وستمائة.

وأقام المسعود باليمن، وحج وملك مكة أيضاً فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وستمائة، وعاد إلى اليمن ثم خرج عنها واستخلف عليها استادارة على بن رسول. فمات بمكة سنة ست وعشرين، فقام على بن رسول على ملك اليمن حتى مات فى سنة تسع وعشرين، واستقر عوضه ابنه عمر بن على بن رسول، وتلقب بالمنصور حتى قتل سنة ثمان وأربعين واستقر بعده ابنه المظفر يوسف بن عمر بن على بن رسول، وصفا له اليمن وطالت

أيامه، انتهى ما ذكره المصنف بخطه فى تاريخه عفا الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مترة ومثواه.

(ووجد بخطه أيضاً ما مثاله) السلطان محمد بن طغلق شاه. وطغلق يلقب غياث الدين، وهو مملوك السلطان علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود ملك الهند مقر ملكة مدينة دهلي، وجميع البلاد برا وبحراً بيده إلا الجزائر المغلغلة فى البحر. وأما الساحل فلم يبق منه قيدشيرإلا وهو بيده.

وأول ما فتح فتح مملكة تكنك عدة قراها مائة ألف قرية، وتسعمائة قرية، ثم فتح بلاد جاجنكيز، وبها سبعون مدينة جليلة كلها بنادر على البحر، ثم فتح بلاد لنكوتي، وهى كرسى تسعة ملوك، ثم فتح بلاد دوا كير، وبها أربع وثمانون قلعة. كلها جليلات المقدار، روبها ألف ألف قرية، ومائتا ألف قرية، ثم فتح بلاد ورسمند، وكان بها ستة ملوك، ثم فتح بلاد المعبر وهو إقليم له سبعون مدينة بنادر على البحر.

وجملة ما بيده ثلاثة وعشرون إقليماً. وهى إقليم دهلي، وإقليم الدواكير، وإقليم الملتان، وإقليم كهران، وإقليم سامان، وإقليم سوستان، وإقليم وجا، وإقليم هلسي، وإقليم سرسني، وإقليم المعبر، وإقليم تكنك كحرات، إقليم بدوان، وإقليم عوض، وإقليم التيوج، وإقليم لنكوتي، وإقليم بهار، وإقليم كره، وإقليم ملاوه، وإقليم بهادر، وإقليم كافور، وإقليم حاجكيز، وإقليم بليخ، وإقليم ورسمندو.

هذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة، ومائتى مدينة، ومدينة دهلى دور عمرانها أربعون ميلا، وجملة ما يطلق عليه اسم دهلى إحدى وعشرون مدينة، وفى دهلى ألف مدرسة كلها للحنفية إلا واحدة فإنها للشافعية، ونحو سبعين مارستانا وفى بلادها من الخوانك والربط نحو ألفين، وبها جامع ارتفاع مئذنته ستمائة ذراع فى الهواء.

وللسلطان خدمة مرتين فى كل يوم. بكرة، وبعد العصر، ورتب الأمراء على هذه الأنواع. أعلاهم قدراً الخانات ثم الملوك ثم الأمراء ثم الاستفسهلارية ثم الجند وفى خدمته ثمانون خانا وعسكره تسعمائة ألف فارس وله ثلاثة آلاف فيل تلبس فى الحروب البرك اصطوانات الحديد المذهب وتلبس فى أيام السلم جلال الديباج وأنواع الحرير وتزين بالقصور والأسرة والمصفحة ويشد عليها بروج الخشب يركب فيها الرجال للحرب فيكون

على الفيل من عشرة رجال إلى ستة وله عشرون ألف مملوك أتراك، وعشرة آلاف خادم خصي وألف خازندار، وألف مشبقدار ومائتا ألف عبد ركابية تلبس السلاح وتمشي بركابه وتقاتل رجاله بين يديه والإسفهلارية لايؤهل منهم أحد لقرب السلطان وإنما يكون منهم نوع الولاة والخان يكون له عشرة آلاف فارس وللملك ألف وللأمير مائة فارس وللاسفهلار دون ذلك.

ولكل خان عبرة لكين كل لك مائة ألف تنكة كل تنكة ثمانية دراهم ولكل ملك من ستين ألف تنكة، إلى خمسين ألف تنكة ولكل أمير من أربعين ألف تنكة، إلى ثلاثين ألف تنكة ولكل اسفهسلار من عشرين ألف تنكة إلى ما حولها ولكل جندى من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، ولكل مملوك من خمسة آلاف تنكة، إلى ألف تنكة سوى طعامهم وكساويهم وعليقهم ولكل عبدفى الشهر منان من الحنطة والأرز، وفى كل يوم ثلاثة استاز لحم وما يحتاج إليه وفى كل شهر عشر تنكات بيضاء وفى كل سنة أربع كساو.

وللسطان دار طراز فيها أربعة آلاف قزاز لعمل أنواع القماش سوى ما يحمل له من الصين والعراق والإسكندرية. ويفرق كل سنة مائتى ألف كسوة كاملة فى فصل الربيع مائة ألف وفى فصل الخريف مائة ألف ففى الربيع غالب الكسوة من عمل الإسكندرية وفى الخريف كلها حرير من عمل دار الطراز بدهلي، وقماش الصين والعراق ويفرق على الخوانك والربط الكساوي، وله أربعة آلاف زركشى تعمل الزركش.

ويفرق كل سنة عشرة آلاف فرس مسرجة وغير مسرجة سوى ما يغطى الأجناد من البراذين. فإنه بلاحساب يعطى حشارات ومع هذا فالخيل عنده غالية مطلوبة.

وللسلطان نائب من الخانات يسمى أبريت إقطاعه قدر إقليم بحر العراق ووزير إقطاعه كذلك وله أربعة نواب مسمى كل واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى عشرين ألف تنكة وله أربعة ربيسان ـ أى كتاب سر لكل واحد منهم ثلاثمائة كاتب ولكل كاتب إقليم عشرة آلاف تنكة وللصدر جهان وهو قاضى القضاه قرى يتحصل منها نحو ستين ألف تنكة ولصدر الإسلام وهو أكبر نواب القاضى ولشيخ الإسلام وهو شيخ الشيوخ مثل ذلك وللمحتسب ثمانية آلاف تنكة.

وله ألف طبيب ومائتا طبيب وعشرة آلاف يزدار تركب الخيل وتحمل طيور الصيد وله ثلاثة آلاف سواق لتحصيل الصيد وخمسمائة نديم وألفان ومائتان للملاهى سوى مماليكه وهم ألف مملوك وألف شاعر باللغات العربية والفارسية والهندية يجرى عليهم ديوانة ومتى غنى أحد منهم لغيره قتله .

ولكل نديم قريتان أو قرية ومن أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة إلى عشرين ألف تكة سوى الخلع والكساوى والافتقادات .

ويمد فى وقت كل خدمة فى المرتين من كل يوم سماطا يأكل منه عشرون ألفاً مثل الخانات والملوك والأمراء والاسفهسلارية وأعيان الأجناد وله طعام خاص يأكل معه الفقهاء وعدتهم مائتا فقيه فى الغداء والعشاء فيأكلون ويتباحثون بين يديه ويذبح فى مطابخه كل يوم ألفان وخمسمائة رأس من البقر وألفا رأس من الغنم سوى الخيل وأنواع الطير ولايحضر مجلسه من الجند إلا الأعيان ومن دعته ضرورة إلى الحضور ، والندماء .

وأرباب الأغانى يحضرون بالنوبة وكذلك الربيسان والأطباء ونحوهم . لكل طائفة نوبة تحضر فيها للخدمة والشعراء تحضر فى العيدين والمواسم وأول شهر رمضان وإذا تجدد نصر على عدو أو فتوح ونحو ذلك مما يهنأ به السلطان .

وأمور الجند والعامة مرجعها إلى أبريت وأمر القضاة كلهم مرجعه إلى صدر جهان وأمر الفقهاء إلى شيخ الإسلام، وأمر الواردين والوافدين والأدباء والشعراء إلى الربيسان ، وهم كتاب السر وجهز هذا السلطان مرة أحد كتاب سره إلى السلطان أبى سعيد رسولاً وبعث معه ألف ألف تنكة ليتصدق بها فى مشاهد العراق وخمسمائة فرق فقدم بغداد وقد مات أبو سعيد .

وكان هذا السلطان ترعد الفرائص لمهابته وتزلزل الأرض لموكبه يجلس بنفسه لإنصاف رعيته ولقراءة القصص عليه جلوساً علماً ولا يدخل أحد عليه ومعه سلاح ولو السكين ويجلس وعنده سلاح كامل لايفارقه أبداً وإذا ركب فى الحرب فلايمكن وصف هيبته وله أعلام سود فى أوساطها تبابين من ذهب تسير عن يمينه وأعلام حمر فيها تباين من ذهب تسير عن يساره ومعه مائتا جمل نقارات وأربعون جملاً كوسات كبارا وعشرون بوقا وعشرة صنوج ويدق له خمس نوب كل يوم .

ولذا خرج إلى الصيد كان فى جف وعدة من معه زيادة على مائة ألف فارس ومائتى فيل وأربعة قصور خشب على ثمانمائة جمل كل قصر منها على مائتى جمل كلها ملبسة حريراً مذهباً كل قصر طبقتان سوى الخيم والجركاوات وإذا إنتقل من مكان إلى مكان للنزهة يكون معه نحو ثلاثين ألف فارس وألف جنيب مسرجة ملجمة بالذهب المرصع بالجوهر والياقوت.

وإذا خرج فى قصره من موضع إلى آخر يمر راكباً وعلى رأسه الحبر، والسلاح دارية وراءه بأيديهم السلاح وحوله نحو اثنا عشر ألف مملوك مشاه. لايركب منهم إلا حامل الحبر والسلاح دارية والجمدارية حملة القماش.

وإذا خرج للخرب أو سفر طويل حمل على رأسه سبع صبورة منها اثنان مرصعان ليس لهما قيمة وله فخامة عظيمة وقوانين وأوضاع جليلة والخانات والملوك والأمراء لايركب أحد منهم فى السفر والحضر إلا بالأعلام، وأكثر ما يحمل الخان سبعة أعلام وأكثر ما يحمل الأمير ثلاثة وأكثر ما يجره الخان فى الحضر عشرة جنائب وأكثر ما يجر الأمير فى الحضر جنيبان وأما فى السفر فحسبما يختار.

وكان للسلطان بر وإحسان، وفيه تواضع ولقد مات عنده رجل فقير فشهد جنازته وحمل نعشه على عنقه وكان يحفظ القرآن العزيز والهداية فى فقة الحنفية، ويجيد علم المعقول، ويكتب خطا حسنا، ولذته فى الرياضة وتأديب النفس ويقول الشعر ويباحث العلماء. ويؤاخذ الشعراء، ويأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء عنده.

والعلماء تحضر عنده وتفطر فى رمضان معه بتعيين صدرجهان لهم فى كل ليلة وكان لايترخص فى محذور ولايقر على منكر ولايتجاسر أحد فى بلاده أن يتظاهر بمحرم وكان يشدد فى الخمر ويبالغ فى العقوبة على من يتعاطاه من المقربين منه وعاقب بعض أكابر الخانات على شرب الخمر، وقبض عليه وأخذ أمواله وجملتها أربعمائة ألف ألف مثقال وسبعة وثلاثون ألف ألف مثقال ذهباً أحمر زنتها ألف وسبعمائة قنطار بالمصرى وله وجوه بر كثيرة منها أنه يتصدق فى كل يوم بلكين. عنهما من نقد مصر ألف ألف وستمائة ألف درهم وربما بلغت صدقته فى يوم واحد خمسين لكا ويتصدق عند كل رؤيه هلال شهر بلكين دائماً وعليه راتب لاربعين ألف فقير كل واحد منهم درهم فى كل يوم وخمسة أرطال بر وأرز وقرر ألف فقيه فى مكاتب لتعليم الأطفال القرآن، وأجرى عليهم الأرزاق.

وكان لايدع بدهلى سائلاً بل يجرى على الجميع الأرزاق ويبالغ فى الإحسان إلى الغرباء، وقدم عليه رسول من أبى سعيد مرة بالسلام والتودد فخلع عليه وأعطاه حملا من المال فلما أراد الأنصراف أمره أن يدخل الخزانة ويأخذ ما يختار فلم يأخذ غير مصحف فسأله عن ذلك فقال قد أغنانى السلطان بفضله ولم أجد أشرف من كتاب الله فزاد إعجابه به وأعطاه مالا جملته ثمانمائة تومان والتومان عشرة آلاف دينار وكل دينار ستة دراهم تكون جملة ذلك ثمانية آلاف ألف دينار عنها ثمانية وأربعون ألف ألف درهم.

وقصده شخص من بلاد فارس وقدم له كتباً فى الحكمة منها كتاب الشفاء لأبن سينا فأعطاه جوهرا بعشرين ألف مثقال من الذهب وقصده آخر من بخارى بحملى بطيخ أصفر فتلف غالبه حتى لم يبق منه إلا اثنتان وعشرون بطيخة. فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال ذهباً وكان قد التزم أن لاينطق فى أطلاقاته بأقل من ثلاثة آلاف مثقال ذهباً وبعث ثلاث لكوك ذهباً إلى بلاد ما وراء النهر ليفرق على العلماء لك وعلى الفقراء لك، ويبتاع له حوائج بلك وبعث للبرهان الضياء عز جى شيخ سمر قند بأربعين ألف تنكة وكان لايفارق العلماء سفراً وحضراً ومنار الشرع فى أيامه قائم والجهاد مستمر فبلغ مبلغاً عظيماً فى إعلاء كلمة الإيمان فنشر الإسلام فى تلك الأقطار وهدم بيوت النيران وكسر الندود والأصنام، واتصل به الإسلام إلى أقصى الشرق وعمر الجوامع والمساجد، وأبطل التثويب فى الأذان.

ولم يخل له يوم من الأيام من بيع آلاف من الرقيق لكثرة السبى حتى أن الجارية لايتعدى ثمنها بمدينة دملى ثمان تنكات، والسرية خمس عشرة تنكة والعبد المراهق أربعة دراهم ومع رخص قيمة الرقيق فإنه تبلغ قيمة الجارية الهندية عشرين ألف تنكة لحسنها ولطف خلقها وحفظها القرآن وكتابتها الخط وروايتها الأشعار والأخبار وجودة غنائها وضربها بالعود ولعبها بالشطرنج، وهن يتفاخرن فتقول الواحدة آخذ قلب سيدى فى ثلاثة أيام فتقول الأخري: أنا آخذ قلبه فى يوم فتقول الأخرى أنا آخذ قلبه فى ساعة فتقول الأخرى أنا آخذ قلبه فى طرفه عين.

وكان ينعم على جميع من فى خدمته من أرباب السيوف والأقلام بكل جليل من البلاد والأموال والجواهر والخيول المجللة بالذهب وغير ذلك إلا الفيلة فإنه لايشاركه فيها أحد وللثلاثة آلاف فيل راتب عظيم فأكثرها مئونة له فى كل يوم أربعون رطلا من أرز، وستون

رطلا من شعير وعشرون رطلا من سمن ونصف حمل من حشيش وقيمها جليل القدر إقطاعه مثل إقليم العراق وإذا وقف السلطان للحرب كان أهل العلم حوله والرماة قدامه وخلفه وأمامه الفيلة كما تقدم عليها الفيالة وقدامها العبيد المشاة والخيل فى الميمنة والميسرة فهيئ له من النصر مالا تهيأ لأحد ممن تقدمه ففتح الممالك وهدم قواعد الكفار ومحاصوره معابدهم وأبطل فخرهم وكان يجلس كل يوم ثلاثاء جلوساً عاماً على تحت مصفح بالذهب وعلى رأسه حبر فى موكب عظيم وينادى مناديه من له شكوى فى شخص فينظر فى ظلامات الناس وكان لا يوجد بدهلى فى أيامه خمر البتة .

وأول من ملك مدينة دهلى قطب الدين أيبك وذلك أن شهاب الدين محمد بن سالم بن الحسين أحد الملوك الغورية فتح الهند بعد عدة حروب ، وأفطع مملوكة أيبك هذا مدينة دهلى فبعث أيبك عسكراً عليه محمد بن بختيار فأخذ إلى تخوم الصين وذلك كله فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده أيتمش بن أيبك أربعين سنة فقام بعده أبنه علاء الدين على بن أيتمش بن أيبك ثم أخوه معتز الدين بن أيتمش ثم أخته رضية خاتون فأقامت ثلاث سنين ثم أخوها ناصر الدين بن أيتمش فأقام أربعا وعشرين سنة ثم قام بعده مملوكه غياث الدين بليان سبعاً وعشرين سنة ثم بعده معز الدين الدين نيابا خمس سنين ثم ابنه شمس الدين كيمورس سبعة أشهر ثم خرج الملك عن بيت السلطان شمس الدين أيتمش وقويت التركمان العلجية وكانوا أمراء يقال للواحد منهم خان واستبد كبيرهم جلال الدين فيروز سبع سنين ، ثم ابن أخيه علاء الدين محمود بن شهاب الدين مسعود اثنتين وعشرين سنة ومات سنة خمس عشر وسبعمائة ثم ابنه شهاب الدين عمر بن محمود بن مسعود سنة واحدة ولقب غياث الدين ثم أخوه قطب الدين مبارك بن محمود أربع سنين وقتل سنة عشرين وسبعمائة ، ثم علاء الدين خسرو مملوك علاء الدين محمود سبعة أشهر .

وملك غياث الدين طغلق شاه مملوك السلطان علاء الدين محمود بن مسعود فى أول شعبان سنة عشرين وسبعمائة ثم ملك بعده ابنه محمد بن طغلق شاه صاحب الترجمة هذا آخر ما وجد بخطه رحمه الله تعالى .

(ووجد بخطه أيضاً رحمه الله تعالى) ما أحسن قول الأديب محمد بن حسن ابن شاور النقيب .

مشت أيامكم لإبل نراها

جرت جريا على غير اعتياد

وما عقدت نواصيها بخير

ولا كانت تعد من الحياد

بدخشـــــان

مدينة فيما وراء النهر بها معدن اللعل البدخشانى وهو المسمى بالبلخش وبها معدن اللازورد الفائق، وهما فى جبل بها يحفر عليهما فى معادنهما فيوجد اللازورد بسهولة ولايوجد اللعل إلا بتعب كبير وإنفاق زائد وقد لايوجد بعد التعب الشديد والنفقة الكثيرة، ولهذا عز وجوده وغلت قيمته .

وأقصر ليل بلغار بالبحرين أربع ساعات ونصف، وأقصر ليل أفتكون ثلاث ساعات ونصف فهو أقصر من ليل بلغار بساعة واحدة وبين بلغار وأفتكون مسافة عشرين يوماً بالسير المعتاد انتهى .

السلطانية من عراق العجم

بناها السلطان محمد خدابنده أوكانيق بن أرغون بن أغا بن هولاكو وخدابنده ملك بعد أخيه محمود غازان، وملك بعد خدابنده ابنه السلطان أبو سعيد بن درخان، وكان الشيخ

حسن بن حسين بن أقبغا مع قائد السلطان محمد بن طشتمر بن أستيمر بن عترجى ومذمات أبوسعيد لم يجمع بعده على طاعه ملك بل تفرقوا وقام فى كل ناحية قائم انتهى .

(**ووجد بخطة أيضاً مانصه**) ولله در أبى إسحاق الأديب حيث قال :

إذا كنت قد أيقنت أنك هالك

فما لك ممـــا دون ذلك تشفق

ومما يشين المرء ذا الحلم أنه

يرى الأمر حتماً واقعياً ثم يقلق

وحيث يقول :

ومن طوى الخمسين من عمره

لاقى أمــــوراً فيه مستنكره

وإن تخطـــاها رأى بعـــدها

من حادثات الدهــر مالم يره

انتهى ما وجد بخطة فى أصله

ذكر الجزائر

أعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلها حادثة فى الملة الإسلامية ماعدا الجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة تجاه مدينة مصر فإن العرب لما دخلوا مع عمرو بن العاص إلى مصر وحاصروا الحصن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر حتى فتحه الله تعالى عنوة على المسلمين كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر ولم يبلغنى إلى الآن متى حدثت ، وأما غيرها من الجزائر فكلها قد تجددت بعد فتح مصر .

ويقال والله أعلم إن بلهيت الذى يعرف اليوم بأبى الهول طلسم وضعه القدماء لقلب الرمل عن بر مصر الغربى الذى يعرف اليوم ببر الجيزة وأنه كان فى البر الشرقى بجوار قصر

الشمع صنم من حجارة على مسامته أبى الهول بحيث لو أمتد خيط من رأس أبى الهول وخرج على استواء أسقط على رأس هذا الصنم وكان مستقبل المشرق وأنه وضع أيضاً لقب الرمل عن البر الشرقي، فقدر الله سبحانه وتعالى أن كسر هذا الصنم على يد بعض أمراء الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة وحفر تحته حتى بلغ الحفر إلى الماء ظناً أنه يكون هناك كنز فلم يوجد شئ.

وكان هذا الصنم يعرف عند أهل مصر سرية أبى الهول فكان عقيب ذلك غلبة النيل على البر الشرقى وصارت هذه الجزائر الموجودة اليوم وكذلك قام شخص من صوفيه الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر فى تغيير المنكر أعوام بضع وثمانين وسبعمائة فشوه وجوه سباع الحجر التى على قناطر السباع خارج القاهرة وشوه وجه أبى الهول فغلب الرمل على أراضى الجيزة ولاينكر ذلك فالله فى خليقته أسرار يطلع عليها من يشاه من عباده والكل بخلقه وتقديره.

وقد ذكر الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب أخبار مصر فى خبر الواحات الداخلة أن فى تلك الصحارى كانت أكثر مدن سلوك مصر العجيبة وكنوزهم إلا أن الرمال غلبت عليها قال ولم يبق بمصر ملك إلا وقد عمل للرمال طلسماً لدفعها ففسدت طلسماتها لقدم الزمان.

وذكر أبن يونس عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: انى لأعلم السنة التى تخرجون فيها من مصر قال ابن سالم فقلت له: ما يخرجنا منها يا أبا محمد أعدو قال: لا، ولكنكم يخرجكم منها نيلكم هذا يغور فلاتبقى منه قطرة حتى تكون فيه الكتان من الرمل وتأكل سباع الأرض حيتانه.

وقال الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير قال: إن الصحابى حدثه أنه سمع كعبا يقولى ستعرك العراق هرك الأديم وتفت مصر فت البعرة. قال الليث: وحدثنى رجل عن وهب المعافرى أنه قال وتشق الشام شق الشعرة وسأذكر من خبر هذه الجزائر المشهورة ما وصلت إلى معرفته إن شاء الله تعالى.

ذكر الروضة

أعلم أن الروضة تطلق فى زماننا هذا على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينة الجيزة وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة، وبجزيرة مصر ثم قيل لها جزيرة الحصن وعرفت إلى اليوم بالروضة والى هذه الجزيرة انتقل المقوقس لما فتح الله تعالى على المسلمين القصر وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط.

وبها أيضاً بنى أحمد بن طولون الحصن وبها كانت الصناعة يعنى صناعة السفن الحربية أى كانت بها دار الصناعة وبها كان الجنان والمختار وبها كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية وبها بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية وبها إلى اليوم مقياس النيل وسأورد من أخبار الروضة هذا ما لا تجده مجتمعاً فى غير هذا الكتاب.

قال ابن عبدالحكم وقد ذكر محاصره المسلمين للحصن : فلما رأى القوم الجد من المسلمين على فتح الحصن والحرص ورأوا صبرهم على القتال ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا عليهم فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط، وخرجوا من باب الحصن القبلى ودفنهم جماعة يقاتلون العرب. فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل.

وتخلف فى الحصن بعد المقوقس الأعرج فلما خاف فتح باب الحصن خرج هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة قال وكنا بالجزيرة يعنى بعد فتح مصر فى أيام عبدالعزيز بن مروان أمير مصر خمسمائة فاعل معدة لحريق يكون فى البلد أو هدم.

وقال القضاعي : جزيرة فسطاط مصر قال الكندي : بنيت بالجزيرة الصناعة فى سنة أربع وخمسين وحصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ومائتين ليحرز فيه حرمه وماله وكان سبب ذلك مسير موسى بن بغا العراقى من العراق والياً على مصر وجميع أعمال ابن طولون وذلك فى خلافة المعتمد على الله فلما بلغ أحمد بن طولون مسيره استعد لحربة ومنعه من دخول أعماله.

فلما بلغ موسى بن بغا إلى الرقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوته ثم عرضت لموسى علة طالت به وكان بها موته وثاوره الغلمان وطلبوا منه الأرزاق وكان ذلك سبب تركة المسير فلم يلبث موسى بن بغا أن مات، وكفى أبن طولون أمره ولم يزل هذا الحصن على الجزيرة حتى أخذه النيل شيئاً بعد شئ وقد بقيت منه بقايا متقطعة إلى الآن وقد اختصر القاضى القضاعى رحمه الله فى ذكر سبب بناء أبن طولون حصن الجزيرة.

وقد ذكر جامع سيرة ابن طولون أن صاحب الزنج لما قدم البصرة فى سنة أربع وخمسين ومائتين واستفحل أمره أنفذ إليه أمير المؤمنين المعتمد على الله تعالى أبو العباس أحمد أبن أمير واستفحل أمره أنفذ اليه أمير المؤمنين المعتمد على الله تعالى أبو العباس أبن أمير المؤمنين المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بن الرشيد رسولاً فى حمل أخيه الموفق بالله أبى أحمد طلحه من مكة إليه.

وكان الخليفة المهتدى بالله محمد بن الواثق بن المعتصم نفاه إليها فلما وصل إليه جعل العهد بالخلافة من بعده لابنه المفوض وبعد المفوض تكون الخلافة للموفق طلحة وجعل غرب الممالك الأسلامية للمفوض وشرقها للموفق وكتب بينهما بذلك كتاباً أرتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط.

وكان الموافق يحسد أخاه المعتمد على الخلافة ولايراه أهلاً لها فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لأبنه ثم للموفق بعده شق ذلك عليه وزاد فى حقده وكان المعتمد متشاغلاً بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الأمور وفسد تدبير الأحوال، وفاز كل من كان متقلداً عملاً بما تقلده.

وكان فى الشروط التى كتبها المعتمد بين المفوض والموفق أنه ما حدث فى عمل كل واحد منهما من حدث كانت النفقة عليه من مال خراج قسمه واستخلف على قسم ابنه المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسى بن بغا عبيدالله بن سليمان بن وهب وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدم إلى كل منهما أن لاينظر فى عمل الآخر وخلد كتاب الشروط بالكعبة وافرد الموفق لمحاربة صاحب الزنج وأخرجه إليه وضم معه الجيوش.

فلما كبر أمره وطالت محاربته أياه وانقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذى كان يحمل فى كل عام واحتجوا بأشياء دعت الضرورة الموفق إلى أن كتب إلى أحمد بن طولون، وهو يومئذ أمير مصر فى حمل ما يستعين به فى حروب صاحب الزنج، وكانت مصر فى قسم المفوض لأنها من الممالك الغربية، إلا أن الموفق شكا فى كتابه إلى ابن طولون شدة حاجته إلى المال بسبب ما هو بسبيله وأنفذ مع الكتاب تحريراً خادم المتوكل ليقبض منه المال. فما هو إلا أن ورد تحرير على أبن طولون بمصر وإذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه بأمره فيه بحمل المال إليه على ما جرى الرسم بحمله مع المال فى كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك.

وكتب أيضاً إلى أحمد بن طولون كتاباً فى السر أن الموافق إنما أنفذ تحريراً إليك عينا ومستقصيا على أخبارك، وأنه قد كاتب بعض أصحابك، فاحترس منه، وأحمل المال إلينا وعجل إنفاذه وكان تحرير لما قدم إلى مصر أنزله أحمد بن طولون معه فى داره بالميدان ومنعه من الركوب ولم يمكنه من الخروج من الدار التى أنزله بها حتى سار من مصر وتلطف فى الكتب التى أجاب بها الموافق ولم يزل بتحرير حتى أخذ جميع ما كان معه من الكتب التى وردت من العراق الى مصر وبعث معه إلى الموفق ألف ألف دينار ومائتى الف دينار وما جرى الرسم يحمله من مصر وأخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وأرسل إلى ماخور متولى الشام فقدم عليه بالعريش وسلمه إليه هو والمال وأشهد عليه بتسليم ذلك ورجع إلى مصر ونظر فى الكتب التى أخذها من تحرير فإذا هى إلى جماعة من قواده باستمالتهم إلى الموفق فقبض على أربابها وعاقبهم حتى هلكوا فى عقوبته فلما وصل جواب ابن طولون إلى الموفق ومعه المال كتب إليه كتاباً ثانياً يستقل فيه المال ويقول إن الحساب يوجب أضعاف ما حملت وبسط لسانه بالقول والتمس فيمن معه من يخرج إلى مصر ويتقلدها عوضاً عن ابن طولون فلم يجد أحداً عوضه لما كان من كيس أحمد بن طولون وملاطفته وجوه الدولة فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال وأى حساب بينى وبينه أو حال توجب مكاتبتى بهذا أو غيره وكتب إليه بعد البسملة: وصل كتاب الأمير أيده الله تعالى وفهمته، وكان أسعده الله حقيقاً بحسن التخير لمثلى وتصبيره إياى عمدته التى يعتمد

عليها وسيفه الذى يصول به وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده لأنى دائب فى ذلك وجعلته وكدى واحتملت الكلف العظام، والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة، واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلات والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة وذبا عنها وحسما لإطماع المتشوفين لها والمنحرفين عنها، ومن كانت هذه سبيلة فى الموالاة ومنهجه فى المناصحة فهو حرى أن يعرف له حقه ويوفر من الإعظام قدره ومن كل حال جليلة حظه، ومنزلته فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به والجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك، ثم أكلف على الطاعة جعلا،" وألزم فى المناصحة ثمنا،" وعهدى بمن استدعى ما استدعاه الأمير من طاعته أن يستدعيه بالبذل والأعطاء والإرغاب والإرضاء والأكرام لا أن يكلف ويحمل من الطاعة مئونة وثقلا، وأنى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة ويوقعها بينى وبين الأمير أيده الله تعالى ولاثم معاملة تقتضى معاملة أو تحدث منافرة لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره والمكاتبة فى أموره إلى من سواء ولا أنا من قبله فإنه والأمير جعفرا المفوض أيده الله تعالى قد أقتسما الأعمال وصار لكل واحد منهما قسم قد أنفرد به دون صاحبه وأخذت عليه البيعة فيه أنه من نقض عهده أو أخفر ذمته ولم ـ لصاحبه بما أكد على نفسه فالأمة بريئة منه ومن بيعته وفى حل وسعة من خلفه والذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرة وإسقاط رسمى أخرى وما يأتيه ويسومنيه ناقض لشرطة مفسد لعهده وقد التمس أوليائى وأكثروا الطلب فى اسقاط اسمهو وإزالة رسمة فآثرت الإبقاء وان لم يؤثره واستعملت الأناة إذ لم تستعمل معى ورأيت الاحتمال والكظم أشبه بذوى المعرفة والفهم فصبرت نفسى على أحر من الجمر وأمر من الصبر وعلى مالايتسع به الصدر والأمير أيده الله تعالى أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده وأتوخاه من تأكيد عقده بحسن العشرة والأنصاف وكف الأذى والمضرة وأن لايضطرنى إلى ما يعلم الله عز وجل كرهى له أن أجعل ما قد أعددته لحياطه الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة التى قد ضرست رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب مصروفاً إلى نقضها فعندنا وفى حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر، وأولى من الأمير ولو أمنونى على أنفسهم فضلاً عن أن يعثروا منى على ميل أو قيام بنصرتهم لاشتدت شوكتهم

ولصعب على السلطان معاركتهم والأمير يعلم وأن بإزائه منهم أحداً قد كبر عليه وفض كل جيش أنهضه إليه على أنه لاناصر له إلا لفيف البصرة وأوباش عامتها فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً وما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك فإن يكن من الأمير إعتاب أو رجوع إلى ما هو أشبه به وأولى وإلا رجوت من الله عز وجل كفاية امرة وحسم مادة شره وإجراءنا فى الحياطة على أجمل عادته عندنا والسلام.

فلما وصل الكتاب الى الموافق أقلقه وبلغ منه مبلغاً عظيماً وأغاظه غيظاً شديداً، وأحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة وأشد أهلها بأساً وأقداماً فتقدم إليه فى صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماخور فامتثل ذلك وكتب إلى ماخور كتاب التقليد وأنفذه إليه فلما وصل إليه الكتاب توقف عن إرساله إلى أحمد بن طولون لعجزه عن مناهضته.

وخـــرج موسى بن بغا عن الحضره مقدراً أنه يدور عمل المفوض ليحمـــل الأموال منه وكتب إلى ماخور أمير الشام والى أحمد بن طولون أمير مصر لما بلغه من توقف ماخور عن مناهضته يأمرهما بحمل الأموال وعزم على قصد مصر والإيقاع بابن طولون واستخلاف ماخور عليها فسار إلى الرقةوبلغ ذلك ابن طولون فأقلقه وغمه. لا لأنه يقصر عن موسى به بغا. لكن لتحمله هتك الدولة، وإن يأتى سبيل من قاوم السلطان وحارب وكسر جيوشه.

إلا أنه لم يجد بدا من المحاربة ليدفع عن نفسه وتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها لاتؤخذ إلا من جهة النيل فأراد لكبر همته وكثرة فكره فى عواقب الأمور أن يبنى حصناً على الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة ليكون معقلاً لحرمه وذخائره ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتى من البر وقد زاد فكره فيمن يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة وأتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشارية والسنابيك وقوارب الخدمة.

وعمد إلى سد وجه البحر الكبير وأن يمنع ما يجيء إليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح إلى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير خوفاً مما سيجيء

من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده بأولاده كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة، وأنفذ إلى الصعيد وإلى أسفل الأرض بمنع من يحمل الغلال إلى البلاد ليمنع من يأتى من البر الميرة.

وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر وقد اضطربت عليه الأتراك، وطالبوه بأرزاقهم مطالبة شديدة بحيث استتر منهم كاتبه عبيدالله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم فخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال إلى الرجوع فعاد إلى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ومات من علة فى صفر سنة أربع وستين ومائتين.

هذا وأحمد بن طولون يجد فى بناء الحصن على الجزيرة وقد ألزم قواده وثقاته أمر الحصن وفرقه عليهم قطعاً قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه وكان يتعاهدهم بنفسه فى كل يوم وهو فى غفلة عما صنعه الله تعالى له من الكفاية والغنى عما يعانيه ومن كثرة ما بذل فى هذا العمل قدر أن كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح.

ولما توافرت الأخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدق بمال كثير شكراً لله تعالى على ما من به عليه من صيانته عما بقبح فيه عند الأحدوثة وما رأى الناس شيئاً كان أعظم من عظيم الجد فى بناء هذا الحصن ومباكرة الصناع له فى الأسحار حتى فرغوا منه.

فإنهم كانوا يخرجون إليه من منازلهم فى كل بكرة من تلقاء أنفسهم من غير استحثاث لكثرة ما سخابه من بذل المال فلما أنقطع البناء لم ير أحد من الصناع التى كانت فيه مع كثرتها كانما هى نار صب عليها ماء فطفئت لوقتها ووهب للصناع مالا جزيلا وترك لهم جميع ما كان سلفاً معهم.

وبلغ مصروف هذا الحصن ثمانين ألف دينار ذهباً وكان مما حمل أحمد ابن طولون على بناء الحصن أن الموفق أراد أن يشغل قلبه فسرقت نعله من بيت خطية لايدخله إلا ثقاته وبعثها الموفق إليه فقال له الرسول من قدر على أخذ هذه النعل من الموضع الذى تعرفه أليس هو بقادر على أخذ روحك فوالله أيها الأمير لقد قام عليه أخذ هذه النعل بخمسين ألف دينار فعند ذلك أمر ببناء الحصن.

وقال أبو عمر الكندى فى كتاب أمراء مصر: وتقدم أبو أحمد الموفق إلى موسى بن بغا فى صرف أحمد بن طولون عن مصر وتقليدها ماخور التركى فكتب موسى بن بغا بذلك إلى ما خور وهو والى دمشق يومئذ فتوقف لعجزه عن مقاومة أحمد بن طولون فخرج موسى بن بغا فنزل الرقة وبلغ أبن طولون أنه سائر إليه ولم يجد بدا من محاربته فأخذ أحمد بن طولون فى الحذر منه وابتدأ فى ابتناه الحصن الذى بالجزيرة التى بين الجسرين، ورأى أن يجعله معقلاً لماله وحرمه وذلك فى سنة ثلاث وستين ومائتين.

واجتهد أحمد بن طولون فى بناء المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة وأظهر الامتناع من موسى بن بغا بكل ما قدر عليه وأقام موسى بن بغا بالرقة عشرة أشهر وأحمد بن طولون فى إحكام أموره وأضطربت أصحاب موسى بن بغا عليه وضاق بهم منزلهم وطالبوا موسى بالمسير أو الرجوع إلى العراق فبينا هو كذلك توفى موسى بن بغا فى سنة أربع وستين ومائتين.

وقال محمد بن داود لأحمد بن طولون وفيه تحامل:

لما ثوى بن بغا بالرقتين ملا
سـاقيه زرقا إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصـنا يستجن به
بالعسف والضرب والصناع فى تعب
وراقب الجيزة القصوى فخندقها
وكاد يصـعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيـل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب

ترى عليها لباس الذل مذ بنيت

بالشط ممنوعة من عزة الطلب

فما بناها لعزو الروم محتسباً

لكن بناها غداة الروع والعطب

وقال سعيد بن القاضى من أبيات

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً

إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

ترى أثراً لم يــبــق من يستطيعه

من النــاس فى بدو البلاد ولا حضر

مآثر لاتبلى وإن باد أهلهـــــا

ومجـــد يؤدى وارثيه إلى الفخر

ومازال حصن الجزيرة هذا عامراً أيام بنى طولون وعملت فيه صناعة مصر التى تنشأ فيها المراكب الحربية. فاستمر صناعة إلى أن تقلد الأمير محمد بن طفج الأخشيد إمارة مصر من قبل أمير المؤمنين الراضى بالله وسير مراكب من الشام عليها صاعد بن الكلكم. فدخل تنيس، وسارت مقدمته فى البر ودخل صاعد دمياط وسار فهزم جيش مصر الذى جهزه أحمد بن كيغلغ إليه بتدبير محمد بن على الماردانى على بحيرة نوسا وأقبل فى مراكبه إلى الفسطاط فكان بالجزيرة.

وقدم محمد بن طغج وتسلم البلد لست بقين من رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وفر منه جماعة إلى الفيوم فخرج إليهم صاعدين الكلكم فى مراكبه وواقعهم بالفيوم فقتل فى عدة من أصحابه وقدمت الجماعة فى مراكب ابن كلكم فأرسوا بجزيرة الصناعة وحرقوها ثم مضوا إلى الإسكندرية وساروا إلى برقة فقال محمد بن طغج الصناعة هنا خطأ وأمره يعمل صناعة فى بر مصر.

وحكى ابن زولاق فى سيرة محمد بن طغج أنه قال : أذكر أنى كنت آكل مع أبى منصور تكين أمير مصر وجرى ذكر الصناعة فقال تكين صناعة يكون بيننا وبينها بحر خطأ فأشارت الجماعة بنقلها فقال : إلى أى موضع فاردت أن أشير عليه بدار خديجة بنت الفتح بن خاقان ثم سكت وقلت أدع هذا الرأى لنفسى إذا ملكت مصر فبلغت ذلك والحمدلله وحده ولما أخذ محمد بن طغج دار خديجة كان يتردد اليها حتى عملت .

فلما ابتدؤا بإنشاء المراكب فيها صاحت به أمرأة فقال خذوها فساروا بها إلى داره فأحضرها مساء واستخبرها عن أمرها فقالت ابعث معى من يحمل المال فأرسل معها جماعة من دار خديجة هذه فدلتهم على مكان استخرجوا منه عيناً وورقاً وحلياً وثياباً وعدة ذخائر لم ير مثلها وصاروا بها إلى محمد بن طغج فطلب المرأة ليكافئها على ما كان منها فلم توجد فكان هذا أول مال وصل إلى محمد بن طغج بمصر قال واستدعي

محمد بن طغج الأخشيد صالح بن نافع وقال له : كان فى نفسى إذا ملكت مصر أن أجعل صناعة العمارة فى دار ابنه الفتح ، وأجعل موضع الصناعة من الجزيرة بستاناً أسميه المختار فاركب وخط لى بستاناً ودارا وقدر لى النفقة عليهما .

فركب صالح بجماعة ، وخطوا بستاناً فيه دار للغلمان ودار للنوبة وخزائن للكسوة ، وخزائن للطعام وصوروه وأتوا به فاستحسنه وقال كم قدرتم النفقة قالوا ثلاثين ألف دينار فاستكثرها فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار فأذن فى عمله ، و شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم فقسط على جماعة وفرغ من بنائه فاتخذه الأخشيد منتزه له وصار يفاخر به أهل العراق .

وكان نقل الصناعة من الجزيرة إلى ساحل النيل بمصر فى شعبان سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فلم يزل البستان المختار منتزهاً إلى أن زالت الدولة الأخشيدية والكافورية وقدمت الدولة الفاطمية من بلاد المغرب إلى مصر . فكان يتنزه فيه المعز لدين الله معد وابنه العزيز بالله نزار وصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس لها وال وقاض .

وكان يقال القاهرة ومصر والجزيرة. فلما كانت أيام استيلاء الأفضل شاهنشاه بن أمير

الجيوش بدر الجمالي وحجره على الخلفاء أنشأ في بحرى الجزيرة مكاناً نزهاً سماء الروضة وتردد إليها تردداً كثيراً فكان يسير في العشاريات الموكبيات من دار الملك التي كانت سكنه بمصر إلى الروضة ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة فلما قتل الأفضل بن أمير الجيوش واستبد الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على منصور بن المستعلى بالله أنشأ بجوار البستان المختار من جزيرة الروضة مكاناً لمحبوبته العالية البدوية سماه الهودج .

الهـــودج

قال ابن سعيد في كتاب المحلى بالأشعار عن تاريخ القرطبي : قد أكثر الناس في حديث البدوية وابن ماح من بني عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الخليفة الآمر بأحكام الله حتى صارت رواياتهم في هذا الشأن كأحاديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك .

والإختيار منه أن يقال إن الخليفة الآمر كان قد ابتلى بعشق الجوارى العربيات وصارت له عيون في البوادى فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال إنه تزيى بزى بداة الأعراب وصار يجول في الأحياء إلى أن إنتهى إلى حيها وبات هناك في ضائفة وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ورجع إلى مقر ملكه وسرير خلافته فأرسل إلى أهلها يخطبها فأجابوه إلى ذلك وزوجوها منه قلما صارت إلى القصور صعب عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها في الفضاء ، ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور في جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج وكان على شاطئ النيل في شكل غريب .

وكان بالإسكندرية القاضي مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبدالمجيد بن أحمد بن الحسن ابن حديد قد استولى على أمورها وصار قاضيها وناظرها ولم يبق لأحد معه فيها كلام ، وضمن أموالها بحملة يحملها وكان ذا مروأة عظيمة يحتذى أفعال البرامكة وللشعراء فيه مدائح كثيرة وممن مدحه ظافر الحداد وأمية بن أبي الصلت وجماعة وكان

الأفضل بن أمير الجيوش إذا أراد الإعتناء بأحد كتب معه كتاباً إلى أبن حديد هذا فيغنيه بكثرة عطائه .

وكان له بستان يتفرج فيه به جرن من رخام قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من سعته وكان يجد فى نفسه برؤية هذا الجرن زيادته على النعم ويباهى به أهل عصره. فوشى به لليدوية محبوبة الخليفة فطلبته من الخليفة فأنفذ فى الحال بإحضاره فلم يسع أبن حديد إلا أن قلعه من مكانه وبعث به وفى نفسه حزازة من أخذه منه وخدم اليدوية وخدم جميع من يلوذبها حتى قالت هذا الرجل أخجلنا بكثرة هداياه وتحفه ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا .

فلما بلغه ذلك عنها قال مالى حاجة بعد الدعاء لله تعالى بحفظ مكانها وطول حياتها غير رد الجرن الذى أخذ من داري . التى بنيتها فى أيامهم من نعمهم إلى مكانه فلما سمعت هذا عنه تعجبت منه وأمرت برد الجرن إليه ، فقيل له قد وصلت إلى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب فنزلت همتك إلى قطعة حجر فقال أنا أعرف بنفسى ما كان لها أمل سوى أن لاتغلب فى أخذ ذلك الجرن من مكانه ، وقد بلغها الله أملها ، وبقيت البدوية متعلقة الخاطر بإبن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح فكتبت إليه وهى بقصر الخليفة الآمر .

يا ابن مياح اليك المشتكي

ملك من بعـــدكم قد ملكا

كنت فى حى مرأ مطلقـــا

نائلاً مائشـــت منكم مدركا

فأنا الآن بقصر مؤصـــــد

لا أرى إلا حبيســـاً ممسكاً

كم تثنينا بأغصـــــان اللوا

حيث لاتخشى علينــا دركا

وتلاعبنا برمـــلات الحمي

حينما شـــاء طليق سلكا

فأجابها

بنت عمى والتى غذيتهـــا

بالهوى حتى علا واحتنكا

بحت بالشكوى وعندى ضعفها

لو غـدا ينفع منها المشتكي

مالك الأمر إليه يشـــــتكي

هالك وهو الذى قد هلكا

شـــــأن داود غدا فى عصرنا

مبـــديا بالتيـــه ماقد ملكا

فبلغت الآمر . فقال لو لا أنه أساء الأدب فى البيت الرابع لرددتها إلى حبه وزوجتها به .

قال القرطبي ، وللناس فى طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول وكان من عرب طئ فى عصر الخليفة الآمر طراد بن مهلهل فلما بلغه قضية الآمر مع العالية البدوية قال :

ألا أبلغـــوا الآمر المصطفى

مقـــــال طراد ونعم المقال

قطعت الأليفين عن ألفـــة

بهـــا سمر الحى بين الرجال

كذا كان آباؤك الأقدمون

سألت فقل لى جواب السؤال

فلما بلغ الآمر شعره قال: جواب السؤال قطع لسانه على فضوله وأمر بطلبه فى أحياء العرب ففر ولم يقدر عليه فقالت العرب ما أخسر صفقه طراد باع أبيات الحى بثلاثة أبيات

ولم يزل الآمر يتردد إلى الهودج بالروضة للنزهة فيه إلى أن ركب من القصر بالقاهرة بريد الهودج فى يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة فلما كان برأس الجسر وثب عليه قوم من النزارية قد كمنوا له فى فرن تجاه رأس الجسر بالروضة وضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه وجرحوا جماعة من خدامه فحمل إلى منظرة اللؤلؤة بشاطئ الخليج وقدمات.

ذكر قلعة الروضة

أعلم أنه ما برحت جزيرة الروضة منتزهاً ملوكياً ومسكناً للناس كما تقدم ذكره إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب أبن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب سلطنة مصر فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة المقياس وبقلعه الروضة، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان وابتدأ بنيانها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره.

وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس وأدخلها فى القلعة وأنفق فى عمارتها أموالاً جمة وبنى فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجا، وبنى بها جامعاً.

وغرس بها جميع الأشجار ونقل إليها عمد الصوان من البرابى وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأقوات خشية من محاصرة الفرنج فإنهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر وبالغ فى أتقانها مبالغة عظيمة حتى قيل إنه استقام كل حجر فيها بدينار وكل طوبة بدرهم.

وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل فصارت تدهش من كثرة زخرفها وتحير الناظر إليها من حسن سقوفها المزينة وبديع رخامها ويقال أنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظره وطيب طعمه، وخرب الهودج والبستان المختار وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين لذكر الله تعالى وإقامة الصلوات.

واتفق له فى هدم بعض هذه المساجد خير غريب قال الحافظ جمال الدين يوسف بن محمد بن أحمد الأسدى الشهير باليغمورى سمعت الأمير الكبير الجواد جمال الدين أبا الفتح موسى ابن الأمير شرف الدين يغمور ابن جلدك بن عبد الله قال ومن عجيب ماشاهدته من الملك الصالح أبى الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل رحمه الله تعالى أنه أمرنى أن أهدم مسجداً كان فى جوار داره بجزيرة مصر فأخرت ذلك وكرهت أن يكون هدمه على يدى فأعاد الأمر وأنا أكاسر عنه. وكأنه فهم منى ذلك فاستعدى بعض خدمه من نوابى وأنا غائب وأمره أن يهدم ذلك المسجد وأن يبنى فى مكانه قاعة وقدر له صفتها. فهدم ذلك المسجد وعمر تلك القاعة مكانه وكملت.

وقدمت الفرنج إلى الديار وخرج الملك الصالح مع عساكره اليهم ولم يدخل تلك القاعة التى بنيت فى المكان الذى كان مسجداً فتوفى السلطان فى المنصورة وجعل فى مركب وأتى به إلى الجزيرة فجعل فى تلك القاعة التى بنيت مكان المسجد مدة إلى أن بنيت له التربة التى فى جنب مدارسه بالقاهرة فى جانب القصر عفا الله عنه.

وكان النيل عند ماعزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة من الجانب الغربى فيما بين الروضة وبر الجيزة، وقد انطرد على بر مصر ولايحيط بالروضة إلا فى أيام الزيادة فلم يزل يغرق السفن فى البر الغربى ويحفر فيما بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرمال حتى عاد ماء النيل إلى بر مصر واستمر هناك فأنشأ جسراً عظيماً ممتداً من بر مصر إلى الروضة وجعل عرضه ثلاث قصبات.

وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البر ويمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة، ولايمكن أحد من العبور عليه

راكباً سوى السلطان فقط ولما كملت تحول إليها بأهله وحرمه وأتخذها دار ملك وأسكن فيها معه مماليكه البحرية ، وكانت عدتهم نحو الألف مملوك .

قال العلامة على بن سعيد فى كتاب المغرب وقد ذكر الروضة هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة وبها مقياس النيل وكانت متنزها لأهل مصر فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة وبنى بها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك لم تر عينى أحسن منه .

وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الآمر خليفة مصر لزوجته البدوية التى هام فى حبها والمختار بستان الإخشيد وقصره وله ذكر فى شعر تميم بن المعز وغيره ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار . منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطي .

أرى مسرح الجزيرة من بعيد

كاحداق تغازل فى المعازل

كأن مجرة الجوزا أحاطت

وأثبتت المنازل فى المنازل

وكنت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرى اللون ، ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء .

وأبصرت فى هذه الجزيرة أيواناً لجلوسة لم تر عينى مثاله ولا أقدر ما أنفق عليه وفيه من صفائح الذهب والرخام الآبنوسى والكافورى والمجزع ما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار ويفضل عما أحاط به السور أرض طويلة ، وفى بعضها حاظر حظر به على أصناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر .

وقد تفرجت كثيراً فى طرف هذه الجزيرة مما يلى بر القاهرة فقطعت فيه عشيات مذهبات لم تزل لأحزان الغربة مذهبات وأذازاد النيل فصل ما بينها وبين الفسطاط بالكلية . وفى

أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة، ويبقى موضع الجسر فيه مراكب وركبت مرة هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محيي الدين بن ندا وزير الجزيرة وصعدنا إلى جهة الصعيد ثم أنحدرنا واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلالأ والنيل قد أنقسم عنها فقلت :

تأمل لحسن الصالحية إذ بدت
وأبراجها مثل النجوم تلالا

وللقلعة الغراء كالبدر طالعا
تفرج صدر الماء عنه هلالا

ووافى إليها النيل من بعد غاية
كما زار مشغوف يروم وصالا

وعانقها من فرط شوق لحسنها
فمد يميناً نحوها وشمالاً

جرى قادماً بالسعد فاختط حولها
من السعد أعلاماً فزاد دلالا

ولم تزل هذه القلعة عامرة حتى زالت دولة بنى أيوب. فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى أول ملوك الترك بمصر أمر بهدمها وعمر منها مدرسته المعروفة بالمعزية فى رحبة الحناء بمدينة مصر وطمع فى القلعة من له جاه فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة فلما صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى اهتم بعمارة قلعة الروضة ورسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولى أعادتها كما كانت فأصلح بعض ما تهدم فيها ورتب فيها الجاندارية وأعادها إلى ما كانت عليه من الحرمة وأمر بأبراجها ففرقت على الأمراء وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاون الألفى والبرج الذى يليه للأمير عزالدين الحلى والبرج الثالث من بروج الزاوية للأمير عزالدين ارغان.

وأعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشمسى وفرقت بقية الأبراج على سائر الأمراء ورسم أن تكون بيتوتات جميع الأمراء واصطبلاتهم فيها وسلم المفاتيح لهم.

فلما تسلطن الملك المنصور قلاوون الألفى وشرع فى بناء المارستان والقبة والمدرسة المنصورية نقل من قلعة الروضة هذه ما يحتاج إليه من عمد الصوان وعمد الرخام التى كانت قبل عمارة القلعة فى البرابى وأخذ منها رخاماً كثيراً وأعتاباً جليلة مما كان فى البرابى وغير ذلك.

ثم أخذ منها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ما أحتاج إليه من عمد الصوان فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل والجامع الجديد الناصرى ظاهر مدينة مصر وأخذ غير ذلك حتى ذهبت كأن لم تكن وتأخر منها عقد جليل تسميه العامة القوس كان مما يلى جانبها الغربى أدركناه باقياً إلى نحو سنة عشرين وثمانمائة وبقى من أبراجها عدة قد انقلب أكثرها وبنى الناس فوقها دورهم المطلة على النيل. قال ابن المتوج: ثم أشترى الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب جزيرة مصر المعروفة اليوم بالروضة فى شعبان سنة ست وستين وخمسمائة وأنما سميت بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها وبحر النيل حائز لها ودائر عليها وكانت حصينة وفيها من البساتين والعمائر والثمار مالم يكن فى غيرها ولما فتح عمرو بن العاص مصر تحصن الروم بها مدة فلما طال حصارها وهرب الروم منها خرب عمرو بن العاص بعض أبراجها وأسوارها، وكانت مستديرة عليها واستمرت إلى أن عمر حصنها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ومائتين.

ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل ثم أشتراها الملك المظفر تقى الدين عمر المذكور وبقيت على ملكه إلى أن سير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر، ومعه عمه الملك العادل وكتب إلى الملك المظفر بأن يسلم لهما البلاد ويقدم عليه إلى الشأم فلما ورد عليه الكتاب ووصل ابن عمه الملك العزيز وعمه الملك العادل شق عليه خروجه من الديار المصرية وتحقق أنه لاعود له اليها أبداً فوقف هذه المدرسة التى تعرف اليوم من مصر بالمدرسة التقوية التى كانت تعرف بمنازل العز ووقف عليها الجزيرة بكمالها وسافر إلى عمه فملكه حماه.

ولم يزل الحال كذلك إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب فأستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد عبدالعزيز أبن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبدالرحمن بن محمد بن عبدالعلى بن عبدالقادر السكرى مدرس المدرسة المذكورة لمدة ستين سنة فى دفعتين كل دفعة قطعة .

فالقطعة الأولى من جامع غين إلى المناظر طولاً وعرضاً من البحر إلى البحر واستأجر القطعة الثانية وهى باقى أرض الجزيرة بما فيها من النخل والجميز والغروس .

فإنه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخيل ودخلت فى العمائر وأما الجميز فإنه كان بشاطئ بحر النيل صف جميز يزيد على أربعين شجرة وكان أهل مصر فرجهم تحتها فى زمن النيل والربيع قطعت جميعها فى الدولة الظاهرية وعمر بها شوانى عوض الشوانى التى كان قد سيرها إلى جزيرة قبرس ثم سلم لمدرس التقوية القطعة المستأجرة من الجزيرة أولاً فى سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وبقى بيد السلطان القطعة الثانية وقد خربت قلعة الروضة ولم يبق منها سوى أبراج قد بنى الناس عليها وبقى أيضاً عقد باب من جهة الغرب يقال له باب الأصطبل ، وعادت الروضة بعد هدم القلعة منها منتزهاً يشتمل على دور كثيرة وبساتين عدة وجوامع تقام بها الجماعات والأعياد ومساجد ، وقد خرب أكثر مساكن الروضة وبقى فيها إلى اليوم بقايا . وبطرف الروضة .

المقيــاس

الذى يقاس فيه ماء النيل اليوم ويقال له المقياس الهامشى وهو آخر مقياس بنى بديار مصر . قال أبو عمر الكندي : وورد كتاب المتوكل على الله بابتناء المقياس الهاشمى للنيل وبعزل النصارى عن قياسه فجعل يزيد بن عبدالله بن دينار أمير مصر أبا الرداد المعلم وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب الخراج فى كل شهر سبعة دنانير وذلك فى سنة سبع وأربعين ومائتين .

وعلامة وفاء النيل ستة عشر ذراعاً أن يسبل أبو الرداد قاضى البحر الستر الأسود الخليفى على شباك المقياس فإذا شاهد الناس هذا الستر قد أسبل تباشروا بالوفاء، واجتمعوا على العادة للفرجة من كل صوب وما أحسن قول شهاب الدين ابن العطار فى تهتك الناس يوم تخليق المقياس :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم

ما أحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الإلة علينا لايزال فما

أحلى تهتكنا والستر مسبول

جزيرة الصابوني

هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار والرباط من جملتها وقفها أبو الملوك نجم الدين أيوب بن شادى وقطعة من بركة الحبش فجعل نصف ذلك على الشيخ الصابونى وأولاده والنصف الآخر على صوفيه بمكان بجوار قبة الأمام الشافعى رضى الله تعالى عنه يعرف اليوم بالصابوني.

جزيرة الفيل

هذه الجزيرة هى الآن بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة وتتصل بمنية الشيرج من بحربها، ويمر النيل من غربيها وبها جامع تقام به الجمعة وسوق كبير وعدة بساتين جليلة وموضعها كله مما كان غامراً بالماء فى الدولة الفاطمية فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف بالفيل وترك فى مكانه فربا عليه الرمل وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة فيما بين المنية وأرض الطبالة سماها الناس جزيرة الفيل.

وصار الماء يمر من جوانبها فغربيها تجاه بر مصر الغربى وشرقيها تجاه البعل والماء فيما بينها وبين البعل الذى هو الآن قبالة قناطر الأوز فإن الماء كان يمر بالمقس من تحت زربيه جامع المقس الموجود الآن على الخليج الناصرى ومن جامع المقس على أرض الطبالة إلى غربى المصلى حتى ينتهى من تجاه التاج إلى المنية .

وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل وما برحت تتسع إلى أن زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه وكثرت أطيانها بانحسار النيل عنها فى كل سنة .

فلما كان فى أيام الملك المنصور قلاوون الألفى تقرب مجد الدين أبو الروح عيسى بن عمر بن خالد بن عبدالمحسن بن الخشاب المتحدث فى الأحباس إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بأن فى أطيان هذه الجزيرة زيادة على ما وقفه السلطان صلاح الدين . فأمر بقياس ما تجدد بها من الرمال وجعلها لجهة الوقف الصلاحى وأقطع الأطيان القديمة التى كانت فى الوقف وجعلها هى التى زادت .

فلما أمر الملك المنصور قلاوون بعمل المارستان المنصورى وقف بقية الجزيرة عليه فغرس الناس بها الغروس وصارت بساتين وسكن الناس من المزارعين وانحسر النيل عن جانب المقس الغربى وصار ما هنالك رمالاً متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ، ومن قبليها بأراضى اللوق افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا فى تلك الرمال المواضع التى تعرف اليوم ببولاق خارج المقس .

وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور واستجد ابن المغربى الطبيب بستاناً اشتراه منه القاضى كريم الدين ناظر الخاص للأمير سيف الدين طشتمر الساقى بنحو المائة ألف درهم فضة عنها زهاء خمسة آلاف مثقال ذهباً وتتابع الناس فى انشاء البساتين حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة وحكر ما كان منها وقفاً على المدرسة المجاورة للشافعى رضى الله عنه وما كان فيها من وقف المارستان .

وغرس ذلك كله بساتين فصارت تنيف على مائة وخمسين بستاناً إلى سنة وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون ونصب فيها سوق كبير يباع فيه أكثر ما يطلب من المآكل وابتنى الناس بها عدة دور وجامعاً فبقيت قرية كبيرة.

ومازالت فى زيادة ونمو فأنشأ قاضى القضاة جلال الدين القزوينى رحمه الله الدار المجاورة لبستان الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب على النيل فجاءت فى غاية من الحسن فلما عزل عن قضاء القضاة وسار إلى دمشق اشتراها الأمير بشتاك بثلاثين ألف درهم وخربها وأخذ منها رخاماً وشبابيك وأبواباً ثم باع باقى نقضها بمائة ألف درهم فربح الباعة فى ذلك شيئاً كثيراً ونؤدى على زربيتها فحكرت وعمر عليها الناس عدة أملاك واتصلت العمارة بالأملاك من هذه الزربية إلى منية الشيرج ثم خربت شيئاً بعد شئ وبقى ما على هذه الزربية من الأملاك وهى تعرف اليوم بدار الطنبدى التاجر.

وأما بساتين الجزيرة فلم نزل عجباً من عجائب الدنيا من حسن المنظر وكثرة المتحصل إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرب كثير منها لغلو العلوفات من الفول والتبن وشدة ظلم الدولة، وتعطل معظم سوقها وفيها إلى الآن بقية صالحة.

جزيرة اروى

هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى لإنها فيما بين الروضة وبولاق، وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة لم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة سبعمائة، وأخبرنى القاضى الرئيس تاج الدين أبو الفداء إسماعيل ابن أحمد بن عبدالوهاب ابن الخطباء المخزومى عن الطبيب الفاضل شمس الدين محمد بن الأكفانى أنه كان يمر بهذه الجزيرة أول ما انكشفت ويقول هذه الجزيرة تصير مدينة أو قال تصير بلدة على الشك منى فاتفق ذلك وبنى الناس فيها الدور الجليلة والأسواق والجامع والطاحون والفرن، وغرسوا فيها البساتين وحفروا الآبار وصارت من أحسن منتزهات مصر يحف بها الماء ثم صار ينكشف ما بينها وبين بر القاهرة.

فإذا كانت أيام زيادة ماء النيل أحاط الماء بها وفى بعض السنين يركبها الماء فتمر المراكب بين دورها وفى أزقتها ثم لما كثر الرمل فيما بينها وبين البر الشرقى حيث كان خط الزربية وفم الخور قل الماء هناك وتلاشت مساكن هذه الجزيرة منذ كانت الحوادث فى سنة ست وثمانمائة وفيها إلى اليوم بقايا حسنة .

الجزيرة التى عرفت بحليمة

هذه الجزيرة خرجت فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة ما بين بولاق والجزيرة الوسطى سمتها العامة بحليمة ونصبوا فيها عدة أخصاص بلغ مصروف الخص الواحد منها ثلاثة آلاف درهم نقرة فى ثمن رخام ودهان فكان فيها من هذه الأخصاص عدة وافرة وزرع حول كل خص من المقاثى وغيرها ما يستحسن .

وأقام أهل الخلاعة والمجون هناك وتهتكوا بأنواع المحرمات وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة أن لايثبت بها أحد وبلغ أجرة كل قصبة بالقياس فى هذه الجزيرة وفى الجزيرة التى عرفت بالطمية فيما بين مصر والجيزة مبلغ عشرين درهماً نقرة فوقف الفدان هناك بمبلغ ثمانية آلاف درهم نقرة .

ونصبت فى هذه الأفدنة الأخصاص المذكورة وكان الإنتفاع بها فيما ذكر نحو ستة أشهر من السنة فعلى ذلك يكون الفدان فيها بمبلغ ستة عشر ألف درهم نقرة وأتلف الناس هناك من الأموال ما يجل وصفه .

فلما كثر تجاهرهم بالقبيح قام الأمير أرغون العلائى مع الملك الكامل شعبان بن محمد بن قلاون فى هدم هذه الأخصاص التى بهذه الجزيرة قياماً زائداً حتى أذن له فى ذلك فأمر والى مصر والقاهرة فنزلا فى حين غفلة وكبساً للناس وأراقاً الخمور وحرقا الأخصاص فتلف للناس فى النهب والحريق وغير ذلك شئ كثير إلى الغاية والنهاية وفى هذه الجزيرة يقول الأديب إبراهيم المعمار .

حـزيرة البحـر جنت

بهـا عقـول سليمة

لما حوت حسن مغني

ببســطة مســتقيمة

وكم يخوضون فيهـا

وكم مشــوا بنميمة

ولم تزل ذا احتمـال

ما تلك إلا حليمـة

ذكر السجون

قال ابن سيده : السجن الحبس والسجان صاحب السجن ورجل سجين مسجون قال وحبسه يحبسه جبساً فهو محبوس وحبيس وأحتبسه وحبسه أمسكه عن وجهه وقال سيبويه حبسه ضبطة ، واحتبسه اتخذه حبساً والمحبس والمحتبس اسم الموضع وقال بعضهم المحبس يكون مصدراً كالحبس ونظيره إلى الله مرجعكم أى رجوعكم ويسألونك عن المحيض أى الحيض وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال إن النبى ﷺ حبس فى تهمة وفى جامع الجلال عن أبى هريرة رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ حبس فى تهمة يوماً وليلة فالحبس الشرعى ليس هو السجن فى مكان ضيق وانما هو تعويق للشخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان فى بيت أو مسجد أو كان يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه وملازمته له ولهذا سماه النبى ﷺ أسيراً كما روى أبو داود وابن ماجه عن الهرماس بن حبيب عن أبيه رضى الله عنهما قال أتيت النبى ﷺ بغريم لى فقال لي : الزمه ثم قال لي : يا أخا بنى تميم ما تريد أن تفعل بأسيرك؟ وفى رواية ابن ماجه ثم مر رسول ﷺ بى آخر النهار فقال ما فعل أسيرك يا أخا بنى تميم وهذا كان هو الحبس على عهد النبى ﷺ وأبى بكر الصديق رضى الله عنه .

ولـم يكن له محبس معد لحبس الخصوم ولكن لما انتشرت الرعية فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابتاع من صـفوان بن أميـة رضى لله عنه دارا بمكة بـأربعة آلاف درهم وجعلها سجناً يحبس فيها ولهذا تنازع العلماء : هل يتخذ الإمام حبساً على قولين .

فمـن قال لايتـخذ حبسـاً احتج بأنه لم يكن لرسـول الله ﷺ ولا لخليفتـه من بعده حبس ولكن يعوقه بمكان من الأمكنة أو يقيم عليه حافظاً وهو الذى يسمى الترسيم أو يأمر غريمة بملازمته ومن قال له أن يتخذ حبساً احتج بفعل غمر ابن الخطاب رضى لله عنه .

ومضت السنة فى عهـد رسـول الله ﷺ وأبى بكر وعـمـر وعثمـان وعلى رضى الله عنه أنه لايحبس على الديون ولكن يتلازم الخصمان .

وأول من حبس على الدين شريح القاضي ، وأمـا الحبس الذى هو الآن فإنه لايجوز عند أحد من المسلمين . وذلك أنه يجمع الجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة ، وقد يرى بعضهم عورة بعض ويؤذيهم الحر فى الصيف والبرد فى الشتاء وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له وأن أصل حبسه على ضمـان وأما سجون الولاة فلايوصف ما يحل بأهلها من البلاء .

وأشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان فى الحديد حتى يشحذوا وهم يصرخـون فى الطرقات الجوع فـما تصدق به عليهـم لاينالهم منه إلا ما يدخل بطونهم ، وجـميع مـايجتمع لهم من صـدقـات الناس يأخـذه السجـان وأعـوان الوالى ومن لـم يرضـهـم بالغـوا فى عـقـوبتـه وهم مع ذلك يستعملون فى الحفر وفى العمـائر ونحو ذلك من الأعمـال الشاقة والأعوان تستحثهم فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئاً إلى غير ذلك مما لايسع حكايته هنا وقد قيل إن أول من وضع السجن والحرس معاوية .

وقـد كـان فى مدينة مـصر وفى القاهرة ، عدة سـجـون وهى حبس المعـونة بمصـر وحبس الصيار بمصر وخزانة البنود بالقاهرة وحبس المعونة بالقاهرة وخزانة شمـائل وحبس الديلم وحبس الرحبة والجب بقلعة الجبل .

حبس المعونة بمصر

ويقال أيضا دار المعونة كانت أولاً تعرف بالشرطة وكانت قبلي جامع عمرو بن العاص وأصله خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى رضى الله عنهم اختطها فى أول الإسلام وقد كان موضعها فضاء وأوصى فقال إن كنت بنيت بمصر دارا واستعنت فيها بمعونة المسلمين فهى للمسلمين ينزلها ولاتهم وقيل بل كانت هى ودار إلى جانبها لنافع بن عبد قيس الفهري، وأخذها منه قيس بن سعد وعوضه دارا بزقاق القناديل.

ثم عرفت بدار الفلفل لأن أسامة بن زيد التنوخى صاحب خراج مصر ابتاع من موسى ابن وردان فلفلاً بعشرين ألف دينار كان كتب فيه الوليد بن عبدالملك ليهديه إلى صاحب الروم فخزنه فيها فشكا ذلك إلى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه حين تولى الخلافة فكتب أن تدفع إليه ثم صارت شرطة ودار الصرف.

فلما فرغ عيسى بن يزيد الجلودى من زيادة عبدالله بن طاهر فى الجامع بنى شرطة فى سنة ثلاث عشرة ومائتين فى خلافة المأمون، ونقش فى لوح كبير نصبه على باب الجامع الذى يدخل منه إلى الشرطة ما نصه: « بركة من الله لعبده عبدالله الإمام المأمون أمير المؤمنين أمر بإقامة هذه الدار الهاشمية المباركة على يد عيسى بن يزيد الجلودى مولى أمير المؤمنين سنة ثلاث عشرة ومائتين» ولم يزل هذا اللوح على باب الشرطة إلى صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة فقلعة يانس العزيزي، وصارت حبساً يعرف بالمعونة إلى أن ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فجعله مدرسة وهى التى تعرف اليوم بالشريفية.

حبس الصيار

هذا الحبس كان بمصر يحبس فيه الولاة بعد ما عمل حبس المعونة مدرسة، وكان بأول الزقاق الذى فيه هذا الحبس حانوت يسكنه شخص يقال له منصور الطويل ويبيع فيه أصناف السوقة ويعرف هذا الرجل بالصيار من أجل أنه كانت له فى هذا الزقاق قاعة يخزن فيها أنواع الصير. المعروف بالملوحة فقيل لهذا الحبس «حبس الصيار»

ونشأ لمنصور الصيار هذا ولد عرف بين الشهود بمصر بشرف الدين بن منصور الطويل فلما أحدث الوزير شرف الدين هبه الله بن صاعد الفائزى المظالم فى سلطنة الملك المعز أيبك التركمانى خدم شرف الدين هذا على المظالم فى جبابه التسقيع والتقويم ثم خدم بعد ابطال ذلك فى مكس القصب والرمان .

فلما تولى قضاء القضاة تاج الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز تأذى عنده بما باشره من هذه المظالم ومازال هذا الحبس موجوداً إلى أن خربت مصر فى الزمان الذى ذكرناه فحرب وبقى موضعه وما حوله كيماناً .

خزانة البنود

هذه الخزانة بالقاهرة هى الآن زقاق يعرف بخط خزانة البنود على يمنه من سلك من رحبة باب العيد يريد درب ملوخيا وغيره وكانت أولاً فى الدولة الفاطمية خزانة من جملة خزائن القصر يعمل فيها السلاح يقال إن الخليفة الظاهر بن الحاكم أمر بها ، ثم إنها احترقت فى سنة إحدى وستين وأربعمائة فعملت بعد حريقها سجناً يسجن فيه الأمراء والأعيان إلى أن أنقرضت الدولة فأقرها ملوك بنى أيوب سجناً ثم عملت منزلاً للأمراء من الفرنج يسكنون فيها بأهاليهم وأولادهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون بعد حضوره من الكرك فلم يزالوا بها إلى أن هدمها الأمير الحاج آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بديار مصر فى سنة أربع وأربعين وسبعمائة فاختط الناس موضعها دوراً وقد ذكرت فى هذا الكتاب عند ذكر خزائن القصر .

حبس المعونة من القاهرة

هذا المكان بالقاهرة موضعه الآن قيساريه العنبر برأس الحريريين . كان يسجن فيه أرباب الجرائم من السراق وقطاع الطريق ونحوهم فى الدولة الفاطمية ، وكان حبساً حرجاً ضيقاً شنيعاً يشم من قربه رائحة كريهة فلما ولى الملك الناصر محمد بن قلاوون مملكة مصر هدمه وبناه قيساريه للعنبر وقد ذكر عند ذكر الأسواق من هذا الكتاب .

خزانة شمائل

هذه الخزانة كانت بجوار باب زويلة على يسره من دخل منه بجوار السور عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظراً ، يجبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق ومن يريد السلطان إهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة .

وكان السجان بها يوظف عليه والى القاهرة شيئاً يحمله من المال له فى كل يوم وبلغ ذلك فى أيام الناصر فرج مبلغاً كبيراً ومازالت هذه الخزانة على ذلك إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ المحمودى فى يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة وثمانمائة وأدخلها فى جملة ماهدمه من الدور التى عزم على عمارة أماكنها مدرسة . وشمائل هذا هو الأمير علم الدين . قدم إلى القاهرة وهو من فلاحى بعض قرى مدينة حماه فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل . فخدم جاندار فى الركاب السلطانى إلى أن نزل الفرنج على مدينة دمياط فى سنة خمس عشرة وستمائة وملكوا البر وحصروا أهلها وحالوا بينهم وبين من يصل إليهم فكان شمائل هذا يخاطر بنفسه ويسبح فى الماء بين المراكب ويرد على السلطان الخبر فتقدم عند السلطان وحظى لديه حتى أقامة أمير جاندار وجعله من أكبر أمرائه ونصبه سيف نقمته وولاء ولاية القاهرة فباشر ذلك إلى أن مات السلطان وقام من بعده أبنه الملك العادل أبوبكر فلما خلع بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب نقم على شمائل .

المقشرة

هذا السجن بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين الجامع الحاكمي. كان يقشر فيه القمح ومن جملته برج من أبراج السور على يمنه الخارج من باب الفتوح استجد بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل فعين هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم وهدمت الدور التى كانت هناك فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وعمل البرج والمقشرة سجناً ونقل إليه أرباب الجرائم وهو من أشنع السجون وأضيقها يقاسى فيه المسجونون من الغم والكرب مالا يوصف عافانا الله من جميع بلائه.

الجب بقلعة الجبل

هذا الجب كان بقلعة الجبل يسجن فيه الأمراء وابتدئ عمله فى سنة إحدى وثمانين وستمائة، والسلطان حينئذ الملك المنصور قلاوون. ولم يزل إلى أن هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون فى يوم الأثنين سابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة، وذلك أن شاد العمائر نزل إليه ليصلح عمارته فشاهد أمراً مهولاً من الظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة واتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقى كان عنده شخص يسخر به ويمازحه فبعث به إلى الجب، ودلى فيه ثم أطلعه من بعد مابات به ليلة فلما حضر إلى بكتمر أخبره بما عاينه من شناعة الجب وذكر ما فيه من القبائح المهولة وكان شاد العمائر فى المجلس فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب، من الشدائد فتحدث بكتمر مع السلطان فى ذلك فأمر باخراج الأمراء منه وردم وعمر فوقه أطباق المماليك، وكان الذى ردم به هذا الجب النقض الذى هدم من الأيوان الكبير المجاور للخزانة الكبرى. والله أعلم بالصواب.



فهرس الجزء الثاني
من كتاب خطط المقريزى

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــوع	الصفحـة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحـة

الموضـــوع	الصفحـة

الموضــــــــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــــوع	الصفحـة

الموضــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــــوع	الصفحـة

الموضـــــــــــوع	الصفحـة

تم الجزء الثانى من كتاب «الخطط» للمقريزى

وأول الجزء الثالث «ذكر المواضع المعروفة بالصناعة»